الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الدكتور أبو القاسم سعد الله (الجزائر 02)

كلية العلوم الإنسانية

قسم التاريخ

التراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء بين رحالة العرب ورحالة الغرب
– دراسة مقارنة -

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالب: منادي عثمان

إشراف الدكتورة: شتوان نظيرة

أعضاء لجنة المناقشة:

الأسم واللقب	الرتبة	الصفة
أ.د منصف بكاي	أستاذ التعليم العالي	رئيسا
د.نظيرة شتوان	أستاذ محاضر	مشرفا ومقررا
أ.د. عبد العزيز شهبي	أستاذ التعليم العالي	عضوا
د.محمد بن شوش	أستاذ محاضر	عضوا
د.شعباني نور الدين	أستاذ محاضر	عضوا

السنة الجامعية : (1436-1437هـ/2015- 2016م)

إهداء

إلى روح أبي الزكية... هو من علمني النجاح والصبر.

إلى من علمتني وعانت الصعاب لأصل إلى ما أنا فيه.. أمي...حفظها الله ورعاها وأدام صحتها

۞۞۞

إلى رفيقة دربي ...

إلى من سارت معي نحو الحلم.. خطوة بخطوة

بذرناه معاً.. وحصدناه معاً

وسنبقى معاً.. بإذن الله ....زوجتي ....جزاك الله خيراً

إلى أزهار الحياة أبنائي : ظلال وضياء ودعاء وشهد..

۞۞۞

ألف تحية لكل من ساعدني على إتمام هذا البحث وقدم لي العون ومد لي يد المساعدة وزودني بالمعلومات اللازمة لإتمام هذا البحث وخص بالذكر

- الذي تفضلت بالإشراف على هذا البحث : د/ نظيرة شتوان .... فجزاها الله عنا كل خير فلها منا كل التقدير والاحترام.
- أ/د بن يوسف تلمساني
- أ/د منصف بكاي
- د /نورالدين شعباني
- أ/د خالدي مسعود
- أ/د شترة خيرالدين
- طالب الدراسات العليا : عقوني أيوب

الذين كانوا عونا لي في بحثي هذا ونورا يضيء الظلمة التي كانت تقف أحيانا في طريقي ...

إلى من زرعوا التفاؤل في دربنا وقدموا لنا المساعدات والتسهيلات والأفكار والمعلومات ، ربما دون أن يشعروا بدورهم بذلك .

إلى هؤلاء أهدي هذا العمل

إهداء خاص

إلى روح أستاذتي فقيدة جامعة الجزائر 02 : الدكتورة عائشة غطاس ....التي سكنت وجدان كل من درس عندها......

إلى من سعدت كثيرا عندما إخترتها للأشراف في رسالة الماجستير...ووعدتني بأن تكمل معي في الدكتوراه...لكن القدر أبى......وسارت إلى رحمة الله.......

الأن وأنا أناقش رسالة الدكتوراه ...لم ...ولن.. أنساك أستاذتي...وفاء طالب علم لأستاذه...وما شهدنا إلا بما علمنا ...

رحمة الله عليك أستاذتي

مـقـدمـة:

تعرض التراث الإسلامي الأفريقي الضخم إلى أكثر من كارثة [1]، عبر العصور التاريخية المختلفة ، إذ تذكر بعض المصادر التاريخية أن الهجمات التي شنّها سلطان مراكش على ملوك صنغاي قد أسفرت عن إحراق منازل العلماء ومكتباتهم التي كانت تحتوي على نفائس الكتب والمخطوطات [2].

كما تعرّض لكارثة أخرى خلال حركة القضاء على تجارة الرق في الفترة ما بين القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي ؛ حيث دمّر الكثير من هذا التراث ، إضافة لما تعرّض له إبان محاربة الممالك الهاوساوية من قبل رجالات الجهاد في الإمبراطورية الصوكوتية ، الأمر الذي أدّى إلى تدمير معظم وثائق ومؤلفات ممالك الهوسا ، غير أن السلطان محمد بللو سرعان ما أدرك قيمة تلك الوثائق والمؤلفات [3] ، فأقبل على دراسة ما تبقى منها ، واعتمد عليها في إصدار كتب ومراجع عن تاريخ الهوسا ، وكانت الكارثة الأخيرة التي حلت بالتراث الإسلامي خلال التكالب الاستعماري الأوربي حيث دمرت المدن والممالك الإسلامية القائمة في غرب أفريقيا .

بعدها جرت عدة محاولات لإنقاذ التراث العربي الإسلامي الأفريقي من الكوارث والهجمات التي تعرّض لها ، وهناك محاولات أخرى لبلورة ذلك التراث العلمي الضخم ليري النور ولتعم فائدته على نطاق أوسع ، غير أنه يجب أن نسجل هنا - للأمانة العلمية وللتاريخ أن المبادرات الأولية لهذه المحاولات قد جاءت من الغرب ، والأوساط العلمية في أوربا.

وكان العالم الرحالة الألماني بارث (barth) [4] من بين المهمومين بهذا التراث وإنقاذه ، وكان من نتائج جهوده العثور على مخطوطة في برنو بها أسماء ملوك برنو القدماء ومخطوطة بها أسماء ملوك كاتسنا من الهوسا، كما عثر على كتاب تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي ،

---

[1]. هارون المهدي ميغا : تحريف دلالات الألقاب والوقوع في أخطاء تاريخية بغرب إفريقيا (دلالات الملوك في إمبراطورية سنغاي نموذجا)، مجلة دراسات إفريقية ، العدد45، السنة السابعة والعشرون، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم، السودان، جوان 2011،ص 37،38.

[2].داءود ،و،س، : شباب اليوربا المسلم والتعليم الذي تدعمه الكنيسة، ترجمة عبداللطيف سعيد ، ندوة التعليم الأسلامي في غفريقيا ، 1988، مطابع جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم ، 1992، ص174،175.

[3] . يوجد في جامعة محمد بللو، ولاية كانو في نيجيريا ألاف المخطوطات التي تؤرخ للتراث الأسلامي بالمنطقة، وكذلك في جامعة نيامي بالنيجر ، أنظر: أحمد محمد كاني : المخطوطات العربية في السودان الأوسط ، مجلة دراسات إفريقية ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة إفريقيا العالمية ،العدد الثامن والعشرون، الخرطوم ، السودان ، شوال 1423هـ ديسمبر ، 2002، ص 190.

[4] . على باري مصطفى: صراع الأفارقة، مجلة مركز البحوث، جامعة محمد بن سعود، العدد الأول، الرياض، السعودية 1982، ص183.

علاوة على عثوره على مخطوطات عربية عن تاريخ مملكة صنغي وأخرى عن تاريخ برنو وقام بنشرها جميعاً.

وساهم عدد من العلماء الفرنسيين[1] في التنقيب عن المخطوطات العربية في مناطق إفريقيا جنوب الصحراء ونقلوا عدداً منها إلى فرنسا [2] ، كما ساهموا في ترجمة بعضها إلى اللغات الأوربية المختلفة ، وكذلك الحال بالنسبة للعلماء الإنجليز في هذا المجال أمثال "سيررتشموند " (palmer)حاكم نيجيريا خلال فترة الاحتلال البريطاني[3]، الذي نشر أكثر من (22) مخطوطة عربية في لاغوس عام 1928م [4].

أما الجهود الوطنية الأفريقية الخالصة في هذا المجال فقد كانت متأخرة بعض الشيء ، وهيعلى قسمين، أولها: الجهود الفردية[5] وثانيها: الجهود المؤسساتية .
وتمثل الجهود الفردية في المكتبات الخاصة [6] بالعلماء والدعاة الأفارقة الغيورين على التراث الإسلامي الأفريقي ، وتستهدف جمع تلك المخطوطات والوثائق العربية وغيرها من المكتوب بالحرف العربي والتي مازالت مبعثرة بأيدي الأفراد والأسر القريبة من العلماء والسلاطين[7] .

---

[1]. تكون مجموعة (سغو) المنهوبة من قبل الأستعمار الفرنسي النواة الأولى لمجموعة الوثائق العربية لغرب إفريقيا المتواجدة في دار المخطوطات الوطنية بباريس ، وتشتمل على الكتاب المهم (تاريخ صكوتو) الذي الفه الحاج سعيد أحمد أحد علماء مالي وتشتمل أيضا على أدبيات الطريقة التيجانية ودولة الشيخ عمر بن سعيد الفوتي(ت عام 1864).
أنظر:نصر الدين رضوان حمد:التطور التاريخي لسياسة فرنسا في غرب إفريقيا 1939م-1960م، رسالة ماجستير، معهد البحوث و الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، مصر، 1975، ص24.

[2]. حيث تشير بعض المصادر إلى حوالي أربعمائة مخطوطة عربية لعلماء أفارقة تم نقلها إلى فرنسا.
أنظر:محمد أبو محمد: سيادة المذهب المالكي في إفريقيا جنوب الصحراء في ظل الممالك الإسلامية، أعمال الملتقى الدولي، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، 27/26 نوفمبر 2006، ص 111.

[3]. عبد السلام محمد موسى صقر : جهود لوجارد في خدمة الإمبراطورية البريطانية في غرب إفريقيا (1894-1919)، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ،مصر ، 1986، ص22-24.

[4]. سعد الخادم:المؤامرات الاستعمارية على تراثنا الفني، ط1، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1966، ص 44.

[5]. أنظر ملحق 25:مخطوط : صفحة من قصائد الشيخ عثمان بن فودي ، وجدتها في المكتبة الخاصة للبروفيسور الأمين أبو منقة في جامعة الخرطوم.

[6].أنظر ملحق 23:مخطوط : صفحة فتوى وجوب الهجرة من البلاد التي يحكمها النصارى ، قاضي قضاة ممالك الهوسا : محمد البخاري الوزير بن أحمد. و ملحق 24: مخطوط :فتوى إمكانية البقاء في الأرض التي يحكمها الكافر القاضي عبدالله أبوبكر بن القاضي أحمد سعد.

[7]. ملحق 07: رسالة التكرور إلى الفقيه السيوطي : مطلب الجواب بفصل الخطاب و ملحق 08: رسائل إجابات الفقيه السيوطي على رسائل بلاد التكرور.

ولعل من أبرز بيوت العلماء الشهيرة باحتواء المخطوطات العربية بيت وزير صكوتو الوزير جنيد [1]، وبيت الشيخ محمد ناصر الدين كبرا بمدينة كانو والذي يحوي أكثر من ألفي مخطوط ، وقصر أمير كانو، وقصر السلطان أبو بكر بمدينة صوكوتو، وقصر شيخ برنو سلطان برنو بمدينة ميدوغري ، وكلها بمناطق شمال نيجيريا [2].

غير أن المخطوطات الموجودة في هذه الأماكن تنتظر الجمع والحصر والتسجيل والإعداد الفني والحفظ والقيد ، ليتمكن الباحثون والمحققون من الوصول إليها والاستفادة منها في مشاريع الأطروحات العلمية .

غير أن بعض تلك المراكز لا تجد العناية الكافية من الجهات الرسمية ، والبعض الآخر أنشأه متحمسون للتراث العربي لكن أمورها وصلت إلى أيدي أناس لا صلة لهم بالثقافة العربية، الأمر الذي عرض تلك لمخطوطات للإهمال والتهميش ، وللأسف الشديد عرضة للضياع وتسرب بعضها إلى أياد غير أمينة ، وهي بين أحفاد أصحابها ، ومن المفارقات العجيبة أن بعضها الآخر ، أو نسخاً منها أو حتى أصولها محفوظة مرمّمة بأحدث الأجهزة والوسائل الحديثة في مكتبات لندن وباريس وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، وهذا وفقا لنظرة الاستعمار وفلسفتهم التي ارتكزوا عليها [3] .

قام الرحالة العرب و المسلمين برحلات إلى إفريقيا جنوب الصحراء، دوّنوا خلالها الكثير من المعلومات التي تعتبر وثائق من الدرجة الأولى تميزت بحسن الملاحظة وصريح العبارة ، فكانت رحلتهم مصدراً مهماً للباحثين في الحضارة العربية الإسلامية في التاريخ الحديث و المعاصر [4].

فقد تفقد هؤلاء الرحالة الآثار والمساجد والدواوين ودرسوا أحوالها وذكروا ما شاهدوه وما كابدوه في أسفارهم ، ووصفوا حال إفريقيا جنوب الصحراء في عهود مختلفة ، وكتبوا عن الحواضر الأفريقية وعمرانها، والأسواق وبضائعها ، والمدارس ومرتادوها ، والعلماء

---

[1] . أنظر مخطوطة الوزير جنيد ، مكتبة معهد الدراسات الإفريقية، جامعة الخرطوم ،(العلبة رقم H04 قسم مراجع تاريخ إفريقيا).

[2] . أحمد محمد كاني : المرجع السابق ، ص185-186.

[3] .عبد الرحمان أحمد عثمان: أوجه الخلاف بين النظم الاستعمارية في إفريقيا(بريطانيا و البرتغال وفرنسا)، مجلة دراسات إفريقية، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، العدد العاشر، جامعة الخرطوم، جمادى الأولى 1414ه، ديسمبر 1993، ص 85.

[4] .سلا محمد فودي : ثورة سيكوتوري في غينيا ، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم، السودان ،نوفمبر 1993، ص 09.

وكبارهم ، والقبائل وجذورها ، وانتقدوا السيئ من الأحوال والعادات والتقاليد وأنماط النظم السياسية والعمران والحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وجهاز الحكم ، وأهم مشاهداتهم عن الحضارة التي خلفها العرب والمسلمون في إفريقيا جنوب الصحراء .

لقد ترك لنا الرحالة تحف رائعة من خلال كتاباتهم وذلك حين رسموا لنا الحياة بكل تجلياتها والانطباع الذي خلفته زياراتهم للحواضر الأفريقية في نفسهم والأهمية التي وجدوا أنها تستحق التنويه.

ولإدراك قدر هذه القيمة العلمية جاء موضوع رسالة الدكتوراة هذه الموسومة بـــــ:

" الــتراث الإسلامي في إفريــقيا جـــــنوب الصـــحراء بـــين رحـــالة الــعرب ورحـــالة الــغرب - دراسة مقارنة- " ترصد " الأدوار الثقافية والحضارية للرحالة العرب والمسلمين من خلال نصوص أدب الرحلة وأراء الرحالة وكتابات الجغرافيين خلال مشاهدات استمرت عدة قرون .

1- الأشـــكالـيـــة:

إن هذه الرسالة تسلط الضوء على :

- دراسة صورة التراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء من خلال عيون الرحالة العرب والغرب ، ثم عقد مقارنة بينهما ، كيف نظر إليه المسلمون ، وكيف تعاملوا معه، ومقارنته بالرحالة والجغرافيين الأوربيين ، مقارنة منهجية عادلة.
- ما هي أسباب إهتمام رحالة العرب والغرب بإقليم إفريقيا جنوب الصحراء ؟ كيف ساهموا في التعريف به ؟ ما هو العنصر الأقوى في شحذ هممهم للمغامرة والترحال؟
- ماهي أبعاد الرحلات التي قام بها العرب والمسلمون ؟ هل كانت بغرض البحث ، أم وراءها جهات رسمية ، وجمعيات تمولها ، لأهداف تحققت فيما بعد الرحلة ؟
- هل كان لأدب الرحالة والوصف الذي أطلقوه صحيح لا يتناقض مع الروايات التاريخية أم مبالغ فيه ـ فمنه ما يخدم أهداف ليست بريئة ـ ويندرج بحثي هذا في توضيح وتأكيد الصحيح ، ونقد المبالغ فيه.
- ماهو منهج الرحالة العرب في التعريف بالأمصار ؟
- من هم الرحالة العرب والغربيين ، وماهي أهداف رحلاتهم ؟

- ماذا تناولت مصنفات رحالة العرب و رحالة الغرب ؟ وماهي مسالك رحلاتهم ؟
- هل كان للرحالة العرب والأوربيين دور في التواصل الحضاري بين إفريقيا والعالم ، هل ساهموا في نقل العلوم الفلكية البحرية والجغرافيا والأدب وباقي المعارف؟
- هل كان للرحالة دور إيجابي ؟ أم سلبي ؟ على المنطقة ؟ وأيهم أكثر إيجابية العرب أم الأوربيين؟.
- ماهي المعلومات والحقائق التاريخية التي احتوت عليها مصنفاتهم ؟ وماهي الحواضر التي تنقلوا فيها ، ووصفوها بما يفيد الدراسات التاريخية ، على اعتبار أن ملاحظاتهم وثائق مكتوبة؟
- ماهي القيمة العلمية لمصنفات الرحالة ، خاصة في تدون تاريخ المنطقة ؟ وزيادة الترابط الإنساني بصفة عامة ، والإسلامي بصفة خاصة ؟
- هل أثر الرحالة في حركة الكشوف الجغرافية ؟ وكيف ؟ هل ساهمت في زيادة الأطماع الاستعمارية سواء لدى المسلمين مثل المغرب الأقصى في عهد المنصور الذي وجه حملة لاحتلال مملكة سنغاي ، أو بالنسبة للأوربيين من خلال الغزوات البرتغالية والهولندية والبريطانية والفرنسية للمنطقة ؟ وما مدى انعكاس الوجود الأوربي في نصوص السفر، ودور العرب في تاريخ العلوم البحرية والفلكية، وريادتهم في التأسيس لعلم الجغرافيا ولأدب الرحلة ، ودور رحلات الحج في نقل العلوم والمعارف والأفكار الجديدة.

ليس هناك ما أود إضافته حول تاريخ الرحالة في إفريقيا جنوب الصحراء ، لأن المؤرخين المتخصصين في هذا المجال ، من أوربيين وعرب وأفارقة لم يتركوا شاردة أو واردة إلا وأشاروا إليها ، لذلك سوف لا أتناول الجوانب التاريخية للرحلات إلا بالقدر الذي يخدم أطروحتي ويعينني على الإجابة على الأسئلة التي طرحتها في الأشكالية ، ومن ثم الوصول إلى ما أنا بصدد إثباته، ومن الطبيعي أن أتخذ التاريخ مدخلاً لدراسة كهذه ، ولكن في هذه الدراسة على وجه الخصوص لابد أن أتناول الجانب التاريخي مقروناً بمصنفات الرحالة وكتاباتهم ، حيث يشكلان معاً مرتكزاً أساسياً أقوم من خلالهما بتفسير النتائج التي أروم التوصل إليها.

2- أسباب اختيار الموضوع :

منذ بداية دراستي للتاريخ الإفريقي في مرحلة الماجستير كنت ميالا إلى الخوض في

الدراسات النظرية للتراث الأفريقي ، و كنت أرغب بوضع دليل عمل ، أو ما يشبه الدليل ، ولمّا لا ، بحث متكامل لتوثيق التراث الإسلامي الأفريقي و دراسته - مع إدراكي أهمية ذلك- لسببين أساسين:

أولهما: وجود جيل من الباحثين و الدارسين أسبق مني زمنا ، و أرسخ قدما في هذا المجال – ممن درسوا في الجامعات الغربية و العربية ومنها الجزائر ، و تخصصوا في التاريخ الأفريقي جنوب الصحراء ، و بذل هؤلاء جهدا مشكورا ، و دؤوبا ، و قدموا لنا دراسات جدّية عديدة في لبّ الموضوع ، و ألّفوا كتبا كثيرة أيضا ، توضح آراءهم و أفكارهم حول التراث العربي الأفريقي ، و أبعاده العربية ، و كيفية جمعه و توثيقه ، و دراسته..

والملاحظ أن أغلب المنتوج كان في جانبه التاريخي بالإضافة إلى التراث الأدبي ، والعادات و التقاليد ، و المعتقدات الشعبية ، و الفنون ، و أشهر الأعلام ، و تجارب هؤلاء في بلدانهم، و مجالات تقاربهم و اختلافاتهم [1] .

ومع يقيني أن باب دراسة التراث لن يغلق ، نظرا لكثرة المواد ، وتنوعها ، وتفرعها غير المحدود ، وتداخلها فيما بينها من أقسام التراث العام ، ومع غيرها من المواضيع المتنازع عليها مع العلوم الأخرى ذات الصلة مثل علم الاجتماع ، وعلوم اللغة ، و الأديان ، و الآثار.. و كذلك في مجال المصطلحات التي مازالت محل خلافات و تجاذب[*].

ثانيهما: أن شاغلي الأول منذ بدايات إهتمامي بالتراث ، كان و مازال توثيق ما يمكن توثيقه من الأحداث التاريخية ، و الأدب الشعبي ، و العادات و التقاليد ، والمعارف والمعتقدات والفنون، و بعض الجوانب ذات الصلة من الثقافة المادية الشعبية .. و هي مواضيع هامة و تستنزف أعمارا ، و ليس عمرا واحدا.

و في أرشيف المكتبات الأفريقية والعربية [2] والأوربية العامة و الخاصة ، ركام من الأوراق المبعثرة يرجع تاريخها إلى قرون خلت ، ما زالت تحتاج وقتا لتفريغها ، وتصنيفها ، و دراساتها و تدوينها .

---

[1]. محمود مفلح البكر: مدخل في التراث الشعبي، منشورات وزارة الثقافة، مديرية التراث الشعبي، دمشق، 2009، ص 22.

[*]. لم يتفق الباحثون حول مصطلح محدد لمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء فيستعملون مصطلحات أخرى(إفريقيا الغربية ، منطقة الساحل ، السودان الغربي ، المنطقة السنيغامبية....)

[2]. يوجد بقسم المخطوطات في جامعة إفريقيا العالمية -الخرطوم السودان – علب أرشيف بها نسخ من ألاف المخطوطات ، لكن للأسف فقد عثرت عليها ضمن جزء هامشي من المكتبة العامة في الجامعة ، وتحتاج إلى إعادة تصنيف وتنظيم .

فرأيت بهذه الفضلة الثمينة من الوقت ، أفضل أن أوظفها بما هو أجدى ، حسب وجهة نظري ، فأنجز ما لا يستطيع أن ينجزه غيري ، وأدع لغيري ما يمكن أن ينجزه ، فكل شيء في الوجود مؤسس على التكامل .

لكن بعد إطلاعي على العديد من المصادر و المراجع ، و بعد جولاتي الميدانية في دول كثيرة (سلطنة عمان ، السعودية ، ، المغرب ، ، تونس ، السودان ، قطر، مصر...) ، و لقائي كوكبة من المهتمين بالدراسات الأفريقية [1]، أدركت جيّدا أن غالبية المهتمين لا تنقصهم الغيرة على التراث الأفريقي ، و لا الرغبة الصادقة في توثيقه ، و حفظه من الزوال و قد إندفع بعضهم يعمل بمفرده ، و حسب إمكاناته المادية [2]، و المعرفية في توثيق بعض المواضيع - كالأمثال و الحكايات، و الحرف... .

لكن الرغبة وحدها غير كافية لإنجاز عمل ناضج فهناك شروط لابد من توفرها، و لا غنى عنها للمشتغل بالجمع و التوثيق و التصنيف و البحث.

لذلك وجدت نفسي مطالبا بتقديم بحث متكامل ، مبسط ، سهل التناول، يكون مدخلا ثقافيا أوليا، يشجع المهتمين بالتراث، على الإستزادة من المعارف الضرورية، للخوض في ميادين التوثيق و البحث، بقدم أرسخ ، و تسعف المتعجّل- لسبب ما- بالحد الأدنى من المعلومات التي عليه أن يتسلّح بها قبل الإقدام على خوض هذا الميدان الشائك.

لقد إستعرضت باختصار شيئا من تاريخ الدراسات المهتمة بالتراث الإسلامي ، و أبرز المصطلحات المتداولة في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء ، و إشكالاتها ، و دور الرحالة الأوربيين في توثيق تراثنا ، و تطور الأبحاث التاريخية في التوثيق و الدراسة و أقسام التراث ، و أساليب الجمع و التوثيق ، و صفات الباحثين و الرواة...

و قدّمت بعض المقترحات ، و التّصورات التي يمكن أن تساهم في مواصلة توثيق التراث الأفريقي، و دراساته في العالم العربي، كإنشاء مركز التراث ، و المتاحف ، و إصدار مجلة

---

[1]. كان لي الشرف أن إلتقيت عددا كبيرا من المتخصصين في الدراسات الأفريقية ولهم مؤلفات غزيرة ، وعرضت عليهم خطة هذا البحث ووجهوا لي نصائح ثمينة عرضتها على أستاذتي المشرفة واعتمدت بعضها وقدمت وأخرت ما كانت تراه مناسبا في بحثي هذا.

[2]. من بين المهتمين بجمع الوثائق البروفيسور الأمين ابو منقة مدير معهد اللغات الأفريقية ، فهو يتقن عدة لغات محلية في نيجيريا والنيجر وتشاد ودارفور ومالي ،وزار الكثير من مدنها وجمع الكثير من المخطوطات في مكتبته في الخرطوم .

مُحكّمة متخصصة بدراسات التراث [1]، و مواده المتنوعة.

راجيا أن يساهم هذا العمل في تطوير أنشطة الباحثين، و تحريضهم لتعيق ثقافتهم ، و تنويع معارفهم ، التي لابد من التسلح بها للخوض في هذا الميدان المتشعّب الحساس .

وكذلك في لفت نظر المؤسسات العلمية الحكومية والخاصة ، إلى أهمية هذه الذخيرة الثمينة في تراثنا الثقافي الذي كان ذات يوم جزءا منا ، وضرورة إيلائها ما تستحق من إهتمام ، ورعاية بعمل جدّي منظّم.

آملا ألا نتأخر أكثر في الوقت ، علّنا ندرك ما تبقى من رواة كبار يتناقصون يوما بعد يوم ، ونتدارك بهم ما تبقى من تراثنا ، الذي تلاشى أكثره ، وأختفى من الوجود بفعل الزمن و المتغيرات المتسارعة ، وهجمة جرّافات العولمة.

3- أهمية البحث:

كان التواصل ولا يزال بمثابة الجسر الذي تعبر الثقافات من خلاله إلى باقي المجتمعات من حولها دون أي جواز ، فهو يلعب دورا كبيرا في خلق الحوار بين الشعوب المختلفة وتضييق الفجوة بين مختلف الحضارات والثقافات ويهيّئ الظروف لإيجاد لغة عالمية مشتركة هي لغة المحبة والتسامح والسلام ...و لعل أهم أدوات التواصل الرحلات و السفارات و دورها في تقريب وجهات النظر بين الأفراد و الشعوب و الدول.

إذ تعد الرحلات مظهرا من مظاهر الإتصال و التواصل مع الآخر فهي أداة تفاعل و تواصل داخل الثقافة الواحدة من جانب ، و مساحة إحتكاك بين الثقافات المختلفة من جانب أخر ، فقد أفادت الشعوب بعضها بعضا.

لقد لمس الرحالة الفوارق بين مختلف الثقافات في البلدان التي قصدوها ، و ألموا بمظاهر الحضارة في تلك البلدان ، و قارنوا ما شاهدوه، أو سمعوه بما هو في بلدانهم ، ثم قاموا بنقل ما في مجتمعاتهم إلى المجتمعات التي زاروها ، كذلك نقلوا بعد عودتهم إلى بلدانهم تجارب غيرهم إليهم .

[1]. تعد مجلة رفوف التي تصدرها جامعة أدرار من أهم المجلات التي تتناول التراث الأفريقي المخطوط بالشكل الذي يساهم في توثيقه وقد وصل عددها إلى 06 أعداد عام 2016 كلها متخصصة.

إستطاع الرحالة أن يرسموا صورة لمعظم عادات الشعوب وتقاليدها ، وأنظمتها ، وكذلك مختلف الأنشطة السياسية ، والإقتصادية ، والعمرانية ، والثقافية ، وغيرها .

فتّبينت كتب الرحلات بشكل عام العلاقات التي تربط مختلف الجماعات القائمة على أساس الأخذ و العطاء ، ومساهمة كل جماعة في تطور الحضارة الإنسانية ، وإزدهارها بحيث ساهم الجميع في تكوين المجتمع الإنساني ، وهذا خلاف ما إدعاه بعض الباحثين في تاريخ الحضارات من وجود حضارات حية و أخرى غير حية بالمعنى المطلق للكلمة [1].

لقد رصد الرّحالة نوافذ المعالم الحضارية في مختلف الجوانب الحياتية في البلدان التي زاروها ، وعكست رحلاتهم صورة واضحة من أحوال الشعوب بمختلف الجوانب فكانت الرحلات نوافذ للإتصال بالآخر ، و اكتشاف ثقافته و حضارته ، و من ثم الإنفتاح عليه والتواصل معه.

إن تقديم كتب الرحلات لصورة الآخر أثار في الشعوب الرغبة و المنافسة و التفوق من خلال إطلاع كل جماعة على الأخر ، و التواصل معه بطريقتها الخاصة.

لقد إقترن ذلك الإتصال بنهوض ثقافي ، و تطور حضاري في مختلف المجتمعات التي وإن اختلفت في بعض أنماط حياتها بحكم البيئة ، إلا أن تلك الجماعات صاغتها ثقافة واحدة.

إن النماذج التي أثرت التّلاقح بين الحضارات عديدة على إختلاف أماكنها الجغرافية وخصائصها الثقافية المتنوعة ، و هنا يقف الباحث أمام مهمة التعمق في البحث من نماذج لها فرادة من حيث إسهامها في خلق التواصل الثقافي على الرغم من التباين الحضاري بين الرحّالة بوصفه زائرا ، و المكان المزار بوصفه ثقافة للآخر قد تحمل في طياتها الثقافية تنوعا قد يستحسنه ذلك الزائر و قد يستقبح جوانب منه ، و هذا يستدعي دوما من الباحث أن يكون منتبها لسؤال مصداقيّة المشاهدة ، أو بمعنى آخر الإلتفات إلى سؤال ، خلفية الرحالة الثقافية وتأثير إنعكاساتها في مشاهدة الآخر [2] .

و يبدو بناء على ذلك أنه من غير المستحسن أن تتم دراسة نماذج لرحّالة قد تكون مختلفة

---

[1]. j.E.Harris: Africans their history, New yourk, 1972,p 16,17.

[2]. أمجد ممدوح الفاعوري : رحلات بيركهارت في شرقي الأردن و دورها في التواصل الحضاري قراءة في مستويات من التواصل ،مجلة كلية الآداب، جامعة الأسراء، العدد03، الأردن ،2010،ص122.
www.philadelphia.edu.jo/arts/../session.../amjad.doc

في فترتها و ظروفها و الأماكن التي زاروها ، بمعنى أن المنهجية العلمية في هذا المقام تكون أكثر دقة في حال دراسة نموذج لهذه الرحلات لوضع نقاط الحقائق فوق حروف الوقائع[1] .

فالرحلة سلوك ملازم للإنسان منذ أن وُجد رغم تباين الدوافع و تعدد الحاجات التي يمكن إرجاعها إلى الرغبة في إكتشاف المجهول و التعامل معه بما تيسر من وسائل ، مع التطلع المستمر إلى إمتلاك القدرة على التواصل و الإنتفاع ، و هذا ما يثير تأججا داخليا يؤدي إلى الحركة و الإنتقال قصد إشباع حاجات النفس و العقل و الروح و البدن.

ثم تبين أن الذين ترصدوا التراث الأفريقي بالدراسة و البحث معدودون ، رغم كثرة المهتمين بالسرديات العربية القديمة بحثا عن التأصيل أو عن مجال لتطبيق النظريات المعاصرة أو نتيجة لقناعة تفعيل التراث .

فقررت أن أنضم إلى هؤلاء الذين يسعون إلى إدراج هذا التراكم الإبداعي ضمن المشروع الحضاري الهادف إلى إحلال السرد الأفريقي مكانته اللائقة به كتراث تاريخي .

و لكون الرحلات عملا سرديا لجأت إلى التحليل ضمن ما تقتضيه منهجية السرد الأدبي ، للكشف عن الخصائص التراثية فيها [2] ، حيث إستعملت بعض وسائل البحث التي تمكنني من التنقيب في عصور الذاكرة الأفريقية من خلال الرحلات ، لنتبيّن ما تحويه هذه الجواهر التي تتجاذبها مجالات مختلفة من التراث ، و سأسعى أن أكون مرن في تطبيق المنهج بحيث لا نستنسخ النظريات الغربية ولا نتعسف في تطبيقها على النصوص الرحلية بالاخضاع و الاكراه.

ولكن سنستفيد من بعض اجراءاتها التي تقربنا من الدراسة الموضوعية وتبعدنا عن الانطباعية والأحكام الجاهزة مع السعي الحثيث إلى الإجابة عن الإشكالية المطروحة ضمن طبيعة العلوم الإنسانية والخصائص المميزة للشكل التاريخي الذي يكون حي أقرب إلى احتواء الثقافة الموسوعية [3] .

لقد شهدت إفريقيا على مر العصور التاريخية توافد أعداد كبيرة من الرحّالة الأوربيين

---

[1]. محمود مفلح البكر:المرجع السابق، ص24.
[2]. إسماعيل زردومي: فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الحاج لخضر، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية و آدابها، باتنة،الجزائر ، 2005،ص43.
[3]. نفسه ،ص 44.

حاولوا التعرف على السكان و كشف أسرارهم لما تشكلت من غموض وسحر.

ومع تعدد الدراسات التي تناولت الرحّالة الأوروبيين ، إلّا أنها أهملت جوانب مهمة وأساسية لتلك الرحلات ، يأتي في مقدمتها التراث المادي واللامادي ، بسبب صعوبة الإحاطة والاطلاع على تلك الرحلات كافة ، و تداخلها خلال المراحل التاريخية المتعددة ، و من هنا اكتسب الموضوع أهميته [1] حيث طغت الكتابة التاريخية المتعلقة بجغرافية المنطقة والأحداث السياسية والعسكرية على حساب المواضيع التراثية.

لذلك تعتبر الرحلات و كتابات الرحّ الة مصدرا مهما من مصادر التراث وهو أيضا جزء لا يتجزأ من علم الجغرافيا [2] ، حيث يعود الفضل للرحلات في الاحتفاظ بآثار لولاها لكانت عرضة للاندثار و النسيان[3] .

لقد تمّت أسلمه الحياة العامة في بلاد السودان الغربي عقديا، بشكل نهائي في القرون اللاحقة لفتوحات عقبة بن نافع، بالطرق الدعوية الإقناعية عن طريق التجار و العلماء والتعارف بين السكان و الاختلاط البشري المستمر... [4] .

لقد شرفت ممالك مالي وسنغاي المسلمين في أفريقيا جنوب الصحراء ، و كانت مساهمتهما فعالة في نشر الثقافة العربية الإسلامية ، فكان القرن السادس عشر القرن الذهبي لأفريقيا جنوب الصحراء ، حيث كانت تمبكتو أحد مراكز التعليم والإبداع الأدبي على امتداد الفضاء العربي الإسلامي .

و كذلك الحال بالنسبة لغاو و جنّى حيث كانت جميعها مراكز للإشعاع الثقافي العربي الإسلامي على غرار القيروان و مراكش و فاس بالنسبة للمغرب العربي و حتى القاهرة و دمشق وبغداد بالنسبة للمشرق ، وقد احتفظت الذاكرة بأسماء أحمد بابا وعبد الرحمان السعدي و غيرهم كثير... [5].

---

[1]. حيدر جاسم الرويعي، تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوربي من خلال كتابات الرحالة الأوربيين، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد 10 ،(العددان 3-4)، العراق ، 2011، ص 46.

[2]. أحمد علي إسماعيل: الجغرافيا العامة موضوعات مختارة، ط1، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1996، ص 5 -7.

[3]. الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني،ج2،ط1،مطابع عكاظ ،الرباط ،المغرب ،1990 ،ص 539 .

[4]. محمد مسعود جبران: أبحاث و تحقيقات في تراث الغرب الإسلامي: ط1،دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، (بدون تاريخ)، ص 154.

[5]. عبد الجليل التميمي: الثقافة العربية الإسلامية بأفريقيا جنوب الصحراء-غرب أفربقبا- " أنموذجا، ط1، منشورات التميمي للبحث العلمي و المعلومات،تونس ،1997، ص 20.

المقدمة

لم تقتصر ظاهرة دخول الإسلام و ثقافته في أفريقيا الغربية على مجرد الأخذ والاستفادة بل إن العلاقة علاقة تفاعل مشترك ، أخذا و عطاء .

لقد قام أسلافنا في القرن السادس عشر بجهد و عناء متعرضين لأخطار المرض في مسالكهم الصحراوية ، حيث كانوا يسيرون على الوقع البطيء للقوافل و ليس لهم من هدف إلا الرجوع إلى كتاب نادر او الاستفادة من علم عالم أو حكمة حكيم ، فهل أخلدنا نحن إلى الراحة ؟ في حين أنه كان باستطاعتنا أن نستفيد من وسائل النقل الجوية و البريّة ؟ .

إن الخطاب الاستعماري قد حاول أن يعمق التفكك وانقسام القارة مثلما أنه سعى إلى إفراغ الجوهر الحضاري والثقافي الأفريقي من محتواه ، و قد ترك ذلك بصمات عديدة في بلداننا.

ونحن واعون بذلك و بتشخيصنا للداء يسهل علينا إيجاد للأدوات الملائمة ، إنه بلجوئنا دائما إلى اتهام الفترة الاستعمارية ، نختار أيسر الحلول و الأعذار لإخفاء عجزنا و قصورنا والتغاضي عن مشاكلنا الحالية.

و زيادة عن ذلك ندلّل على أننا لسنا في مستوى ما يحمله أيانا التاريخ من مسؤولية ، فالمشاريع البحثية وإن كانت بسيطة و بدون ضجة إعلامية تكون بكل تأكيد أكثر فائدة في عملية كتابة التراث الإسلامي من عديد التظاهرات الأخرى[1] .

ويجب علينا اليوم مواصلة ما أنجزه الباحثون المسلمون و الأفارقة والمستشرقون في لعب الدور الأيجابي تجاه إفريقيا ، فالعلاقات بيننا تعود إلى عصور الفينيقيين والقرطاجيين والرومان[2] .

و جدير بالإشارة أنه على الباحث الاحتراس من بعض المغالطات والتشويهات التي يحاول بعض المستشرقين والمهتمين بالدراسات الأفريقية على الخصوص تثبيتها بالأذهان ، فهم يحاولون التأثير على عقل القارئ بالإيحاء الدائم إليه بأن أفريقيا ذات ثقافات مغايرة[3] ، عكس ما تكلمت عنه المصادر الأسلامية.

---

[1]. عبد الجليل التميمي: المرجع السابق ، ص 20 -21.

[2]. محمد مسعود جبران: المرجع السابق ،ص 150.

[3]. ماجدة كريمي: آثار التجارة الصحراوية على المغرب سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا من القرن 5 ه الى القرن 8 ه/من القرن 11 الى القرن 14 م)، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب –التاريخ –كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب، 1995، موجودة تحت رقم 189.

بل يذهب البعض إلى الذاتية في تأثير مناطق معينة في الشمال على أفريقيا جنوب الصحراء ، تأثيرا يوحي أن هذه المنطقة ليس لها تراث ثقافي خاص بها [1] .

إن الرحالة قد دعموا الدراسات الأفريقية بمدونات مهمة تخص الحواضر، ومعروف تاريخيا على أن الحواضر مركز استقطاب للسكان والتجارة والعلم والعلماء والطلبة، وحيث كانت البداوة تراجعت الحضارة .

وقد قال ابن خلدون:" أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران"، وقد عقد لذلك فصلا في مقدمته، وهذه نظرية صحيحة فقد زاد العمران حيث انتشر الإسلام وقامت في هذه المدن تراث ونشأت حركة علمية [1] .

ويمكن إيجاز أهمية البحث في:

- قلة الدراسات المتخصصة في مصنفات الرحلة، ودراسة الموروث الحضاري لغرب إفريقيا.
- الإسهام في كتابة التاريخ الإفريقي والرد على مزاعم بعض الكتاب والمؤرخين الذين يقللون من أهميته .
- إبراز دور الرحلات الجغرافية في إفريقيا جنوب الصحراء ، ومساهماتها في دراسة التراث الحضاري الإسلامي.
- توضيح مدى مساهمة الرحّالة في التعريف بإفريقيا جنوب الصحراء.

4- منهج البحث:

إعتمدت في دراستي على منهج البحث التاريخي في كلياته وجزئياته المتمثلة في جمع المعلومات ثم تصنيفها وتحليل ما يمكن تحليله ، منها ما يجمع بين المنهج الوصفي والتحليلي معا ، وسيكون هذا العمل متعبا نظرا لتناثر عناصر الدراسة في مختلف المجالات الجغرافية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وارتباطها في حلقات تجمعها الرحلات التي قام بها الجغرافيون العرب المسلمون والأوربيون .

---

[1]. GEMAiNAYACHE : Etudes D’histoire¸2eme éditions¸ RABAL¸ 1983¸ pp 413- 414.(PDF).

[1]. حسن جبر:أسس الحضارة العربية الإسلامية ومعالمها، ط2، دار الكتاب الحديث، الكويت، 1999، ص 289.

5– حدود البحث الزمنية:

بعد اختياري للموضوع كان علي تحديد الفترة الزمنية لمجال الدراسة [1] ، وبعد مشاورات مع الأستاذة المشرفة الدكتورة شتوان نظيرة والدكتور تلمساني بن يوسف ، والدكتور خالدي مسعود من جامعة قالمة ، حددت المجال الزمني بالنسبة للرحالة العرب بين القرنين(08،10 هـ/14،16م) ،وذلك للأسباب التالية :

أ- أن هذه الفترة تشكل فترة ازدهار مظاهر الحياة الحضارية في غرب إفريقيا [2] ، حتى أطلق عليه بعض الباحثين" العصور الوسطى الإسلامية بالسودان الغربي" [3]، وتعددت مراكز الإشعاع الحضاري فيها ، حيث يمكننا القول إن البداية الحقيقية لإزدهار التراث الإسلامي الإفريقي و انخراط النخبة السودانية في عملية التآليف ، تبلورت عند نهاية القرن 14م ،علما أن المنطقة شهدت بعض المحاولات الحقيقية إبان القرن 13م ، وربما قبل ذلك التاريخ ، غير أن هذة المحاولات الإنفرادية والإستثنائية لم تعرف تطورا متصاعدا ومسارا متواترا إلا بعد قرنين من ذلك [4].

ب- أن هذه الفترة شهدت أقوى الدول الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء وهي مالي وسنغاي، ومع اتساع المجال الجغرافي لها كان لابد من توسيع مجال الدراسة لتوضيح طبيعة التراث الأفريقي ، وماهو دور العلماء في أسلمه المجتمع ، ونشر الإسلام وإصلاح العادات التي وصفها ابن بطوطة بالغريبة وهل كانت التراث الإسلامي مظر لنهضة عرفتها إفريقيا جنوب الصحراء .

ج- عندما حددت الفترة القرن 08هـ/16م نهاية لمجال دراستي فيرجع إلى أن نهاية هذا القرن شكل تراجعا وانهيارا لمملكة سنغاي ، وهي التي ارتبطت بازدهار الحضارة الإسلامية في هذه

---

[1]. عرضت الفكرة على أستاذة التاريخ الأفريقي (جامعة الرباط د.خالد الشكري)،(جامعة الخرطوم د.مهدي ساتي ود حسن مكي ود السر العراقي)(جامعة نيامي بالنيجر د محمد ميغا) (جامعة السلطان قابوس د/ على الدويك الحسني)، وكلهم أقروا باستحالة تحديد الإطار الزمني الذي يتماشى مع العنوان ، وإقتراحاتهم موثقة لدي.

[2]. نعيم قداح: حضارة الإسلام وحضارة أوروبا، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص86.

[3]. محمد محمد أمين:علاقات دولة مالي وسنغاي بمصر في عصر سلاطين المماليك (1250،1517)،مجلة الدراسات الأفريقية،العدد390،القاهرة،1975،ص280.

[4]. أحمد الشكري: الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن 18م (نموذج بلاد السودان)،ط 1،منشورات معهد الدراسات الإفريقية ،الرباط ،2010،ص29.

المنطقة – مقارنة بما سبقها وما تلاها – وأن الصراعات والحروب على السلطة كانت أحد أسباب هذا التراجع .

د- حددت الفترة (11و13 هـ/ 17و19 م) مجالا لدراسة ما كتبه الرحالة الأوربيين عن التراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء وذلك للأسباب التالية:

- بدأت طلائع البعثات الأوربية الرسمية وغير الرسمية في المناطق التي شهدت نموّ الحضارة الإسلامية خلال هذه الفترة ، فقبل ذلك كان الأوربيون مهتمين فقط بالساحل الأطلسي ، وما بعد هذه الفترة دخلت المنطقة كلها تحت الاحتلال.
- قبل القرن (11هـ 17 م) كانت الرحلة العربية الإسلامية المصدر الرئيسي ، ثم بدأ المستكشفون والرحالة الأوربيين بالوصول إلى المنطقة.

ولما كانت البداية الزمنية متأرجحة بسبب ما يحفها من غموض ، فإن النهاية التي قيدت بها السقف الزمني لدراستي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ينبّني على معطى تاريخي واضح المعالم ، مما حملني على استعماله كحد فاصل بين السابق واللاحق من تاريخ بلاد إفريقيا جنوب الصحراء ، فقد عرفت المنطقة حينئذ منعطف حاسما في تاريخها ، كان له أبلغ الأثر على جميع مناحي الحياة السودانية .

مما أفرز واقعا جديدا على المستوى الديني والثقافي والسياسي والاقتصادي بل امتدت تلك التحولات لتطال المجال اللغوي في فظاءات محاذية لبلاد إفريقيا جنوب الصحراء ومتفاعلة معها بشكل عميق طيلة القرون اللاحقة ، وذلك بقدوم الاستعمار الفرنسي.

لقد أنتج التراث الإسلامي خلال الفترة الممتدة من القرن الرابع عشر ، وحتى نهاية القرن التاسع عشر كما هائلا من المعرفة و الدليل على ذلك القائمة الكاملة التي تحتوي عليها اللائحة البيبلوغرافية لتاريخ التراث الإسلامي بالمنطقة ، وهو ما يعنينا بالذات في هذه الدراسة من خلال دراسة مقارنة عن ما كتبه المسلمون قبل الاحتلال الأجنبي وما كتبة الأوروبيون بعد الغزو .

فبعد ما إنتشر الإسلام ببلاد إفريقيا جنوب الصحراء و أصبح يعمّ كامل ميادين الحياة عند نهاية القرن 14م [1] ، برزت فئة من الفقهاء و العلماء في مجال صناعة وإنتاج ميادين الحضارة.

و الباحث المتخصص يلاحظ أن المصادر العربية وحتى الأوروبية لاقت إهتمام إلى جانب الرواية الشفوية ، بينما يقل الإهتمام بالمصادر السودانية وهو ما جعل الباحثين الأوروبيين يصدرون أحكاما مطلقة ، بأن النصوص السودانية أغفلت الأثار المحلية ولم تهتم بها ، وأنّهم لم يشكّلوا في دراساتهم بعض المسائل المتعلقة بالجانب السلبي للحضارة الإسلامية كمسألة الإسترقاق و تجارة العبيد بين ضفتي الصحراء و السواحل الأطلسية .

وكذلك الحال إذا تعلق الأمر بتبرير المصادر السودانية لبقاء بعض المظاهر الوثنية أو العادات الاجتماعية التي تتنافس مع العقيدة الإسلامية بما يعرف اليوم عندنا بالتابوهات .

ويمكن المقارنة هنا بين خط الكتابة في البحوث العربية في مؤلفات ،عبد القادر زبادية ، الهادي المبروك الدالي ، إبراهيم طرقان ، ومؤلفات غير العرب مثل ريموند موني ، و جوزيف كيوك ، و جان هنويك ، وجوزيف كي زيربو ، حيث نلاحظ الفرق في أعمال الباحثين أثناء كلامهم عن المصادر السودانية خاصة في التمهيد أو التقديم لأعمال معينة .

ونرى في تبني فقهاء وعلماء السودان للمشروع السياسي بالمنطقة بعد نهاية الثلث الثاني من القرن 18م ، ما ينبئ بنقلة نوعية ذات دلالة مميزة في تطور الوضع أو المشهد الثقافي ببلاد السودان، مما حذا بنا الى التوقف عند عتبات المرحلة المذكورة ، ويسمح المقام لنا هنا في تناول الأبعاد و التداعيات المختلفة لهذه التحول .

لقد حقق التراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء خلال المرحلة الممتدة من نهاية القرن 8 هـ إلى غاية متم القرن 13هـ (14م-19م) [2] ، قفزة نوعية و كمية مثيرة للغاية مقارنة مع المرحلة السابقة ، مما أهلها لأن تحتل موقعا متميزا ضمن إنتاجات معرفية في شتئ الحقول السائدة و قتئذ ، وكذلك ضمن اللائحة البيبلوغرافية لتاريخ المنطقة.

---

[1]. مجتبى عمر جلال أحمد إبراهيم: الأمام محمد بن عبد الكريم المغيلي ودوره السياسي والديني في بلاد السودان الغربي 1417-1503)، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، جامعة الخرطوم ، 2012 ، ص 32.

[2]. أحمد الشكري،المرجع السابق ،ص30.

ولما كانت جل هذه المصنفات التاريخية السودانية قد أصبحت معروفة و متداولة بين ثلة من المختصين بفضل مجهودات المحققين عند نهاية القرن 19م وطيلة القرن20م ، فإن الإهتمام بأحدها ناهيك عن الإهتمام بها في شموليتها بشكل ثغرة ملحوظة في حقل الدراسات الإفريقية .

علما أن باقي المواد المصدرية الأخرى المتعددة في كتابة تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء لقيت إهتماما بالغا سواء تعلق الأمر بالرواية الشفوية المحلية أو الرواية العربية أو الرواية الأوروبية ، بل حتى الأعمال الأركيولوجية كان لها حظ غير هيّن من الإهتمام والعناية ، خاصة مع ريموند موني و جان دوفيس ثم تتالت الحفريات مع طلبتهم [1] .

ونتيجة الاهتمامات المتواصلة بمختلف مصادر تاريخ القارة الإفريقية راكم حقل الدراسات الإفريقية طيلة القرن العشرين اعمالا جليلة و قيمة ، حلّت الكثير من الهفوات والقضايا الشائكة المرهونة بتاريخ المنطقة والقارة ، الى درجة بات من النادر اليوم التشكيك في أصالة ومصداقية الرواية الشفوية المحلية ، أو إرتكاب أخطاء كانت سائدة في كتابات الباحثين .

6- خطة البحث :

قسمت البحث إلى: مقدمة وفصل تمهيدي و ستة فصول وخاتمة ، معتمدا على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي .

الفصل التمهيدي : الإطار الجغرافي والتاريخي والمنهجي للتراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء.

- المبحث الأول : الإطار المنهجي ، التراث :مفهومه ، فروعه ، أهميته.
- المبحث الثاني:الإطار التاريخي :عوائق البحث في تاريخ التراث الأفريقي.

الفصل الأول :التعريف بأدب الرحلة ومنهج الكتابة.

- المبحث الأول: نشأة الرحلة.

[1]. أحمد الشكري ،المرجع السابق ،ص31.

- المبحث الثاني: منهج الرحّالة العرب في التعريف بالأمصار، وقراءة في الرحّلة، و الرحّالة عبر التاريخ.

الفـصــــل الثـــــانـــــي : أهم الرحالة و الجغرافيين العرب في أفريقيا جنوب الصحراء (8-10ه/14-16م) .

- المبحث الأول : إفريقيا جنوب الصحراء في مدونات الرحالة العرب والمسلمين.
- المبحث الثاني: التراث الإسلامي في عيون الرحالة بين القرنين(08-10هـ/14-16م).

الفصل الثالث: أهم الرحالة و الجغرافيين الأوروبيين في إفريقيا جنوب الصحراء بين القرنين (11هـ 13هـ /17 م 19 م).

- المبحث الأول: جهود الأوربين في الكشف عن التاريخ والتراث الأفريقي.

- المبحث الثاني: التراث الأسلامي في عيون الرحالة الأوربيين بين القرنين (10-13هـ/16-19م) .

الـفصل الرابع : التراث المادي في مدونات الرحالة والجغرافيين.

- المبحث الأول : التراث المدون المخطوط.

- المبحث الثاني: العمران وتخطيط المدن.

الـفصل الخامس : التراث اللامادي في مدونات الرحالة والجغرافيين.

- المبحث الأول : التراث الفكري:

- المبحث الثاني : العلماء وإنتاجهم الفكري والثقافي .

الفصل السادس: الدراسة المقارنة في فضل الرحالة ونتائج كتاباتهم عن التراث الإسلامي الإفريقي.

- المبحث الأول : قراءة في منهجية الدراسة المقارنة ظاهرة نقل المشاهد للرحالة العرب المسلمين.
- المبحث الثاني : قراءة في جهود الرحالة والمستكشفين الأوروبيين.

7- مصادر ومراجع البحث:

لإنجاز هذه الدراسة اعتمدت على 406 مرجعا من المصادر التاريخية(39 مصدر) ، منها كتب التاريخ الإسلامي العام ، ومصادر الرحلة والجغرافيا ، ومصادر المؤرخين السودانيين ، بالإضافة إلى كثير من المراجع المطبوعة العربية ، و المعربة ، و الأجنبية (77)، ودعمت البحث العلمي بمجموعة من الرسائل العلمية الأكاديمية (38)، وكثير من المقالات التاريخية، و المجلات و الندوات العلمية المتخصصة (83)، والمخطوطات (16) التي عثرت عليها في الرباط والخرطوم والقاهرة .

أ- المخطوطات:

- مخطوطة أحمد بابا التنبكتي الخزاة الحسنية الرباط.
- ست مخطوطات أصلية للشيخ عثمان دان فوديو خزانة معهد البحوث والدراسات الأفريقية جامعة إفريقيا العالمية (الخرطوم السودان).
- أربع مخطوطات أصلية (36 صفحة) فتاوي تخص منطقة أفريقيا جنوب الصحراء، الخزانة الشخصية للدكتور الأمين أبو منقة (الخرطوم).
- مخطوطة تتعلق بالتوسل (خزانة كلية الأداب جامعة أم درمان السودان).و كانو نيجيريا)
- مخطوطات الأمام المغيلي (جامعة محمد بللو - كانو بنيجيريا)

ب- مصادر الرحلة و الجغرافيا :

تعرض للموضوع كثير من كتب الرحلة، و الجغرافيا العربية، و التي تناولت غرب إفريقيا فيما وراء الصحراء، وساهمت في توفير مادة علمية مهمة- وإن كانت غير دقيقة - في مجال الحياة الاجتماعية و الاقتصادية، كالعادات و التقاليد، ومن هذه الكتب:

*ابن بطوطة (ت 779 هـ . 1377م)، وكتابه (الرحلة) المعروف باسم (تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار) وردت فيه معلومات ذات فائدة عن مملكة مالي التي زارها خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عسر الميلادي ، فقد التقى ابن بطوطة العلماء و الفقهاء كما أقام في بعض دور العلم كالمساجد ، و أشار إلى عادات وتقاليد سكان المنطقة ، وذكر المدن التي مر بها، مثل ولاية ،والعاصمة نياني، تنبكت ، و كوكو، و غيرها من الحواضر .

*اليعقوبى (ت 872 هـ/ 1467م) ،تعرض في كتابه البلدان لمملكة غانة ،وكانم، و أشار إلى مناجم الذهب، و قوافل التجارة ،وأعطى وصفا لمملكة غانة و حوا ضرها .

*ياقوت الحموي (7هـ/13م)، و معجمه المعروف : (معجم البلدان) ،تعرض فيه لعدد من ممالك وحواضر بلدن السودان الغربي، في غانة، و مالي، و بلاد التكرور ، ومما ساعده في توسيع معارفه هو اشتغاله بتجارة الكتب وكثرة أسعاره.

*حسن بن محمد الوزان(المعروف بليون الإفريقي)،(ولد 888هـ/ 1408م) وكتابة (وصف إفريقيا) ،وهو من أهم المصادر التاريخية لأفريقيا جنوب الصحراء ، فمعظم المادة التي نقلها عن السودان الغربي، ومملكة سنغاي مصدرها مشاهداته، فقد زارالمنطقة في(919هـ/1513م) والثانية عام (921هـ/ 1515م) وتزامنت رحلته مع بداية ازدهار مملكة سنغاي، في الرحلة الأولى رافق عمه فمر بأهم الحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا ،منها و ولاتة،و جني، وكانو، و برنو و غيرها ،وأشار إلى أحوالها .

أما الرحلة الثانية فقد كان موفدا من طرف سلطان مراكش إلى ملك سنغاي الاسقيا محمد الأول ، ومصادر أخرى أشرت إليها في البيبلوغرافيا .

المصادر التاريخية السودانية:

اعتمدت في هذه الدراسة، على مجموعة من المصادر التاريخية ،منها الكتب التي ألفها سودانيون، أي من أهل المنطقة ، وأفادت البحث في معرفة مجالات التراث ،ومن هذه الكتب :

*محمود كعت التنبكتي (ت 1002هـ/ 1593م) صاحب كتاب :

(تاريخ الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش و أكابر الناس) و هو من مؤرخي مملكة سنغاي .

ويعد كتابة من المصادر المهمة ، التي لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة التراث الإسلامي .

*ع الرحمن بن عبد الله السعدي (1005ه- 1063ه/ 1596م-1653م)، وكتابه: (تاريخ السودان) ،وردت فيه معلومات قليلة عن حواضر مملكة مالي لكنه يعد مصدر مهم عن الحواضر في مملكة سنغاي ،حيث تناول أشهر العلماء و، القضاة، وأهم حواضرها ،تنبكت وجنّي ، وتعرض للمؤلفات التراثية والنشاط الفكري.

*مجهول(ولد في تنبكت منه 1166ه/1752م) وكتابة :

(تذكرة النسيان في أخيار ملوك السودان)

*أحمد بابا التنبكتي (ت 1607/1036) وكتابة :

(نبيل الابتهاج) يعطينا معلومات كثيرة عن التراث في إفريقيا جنوب الصحراء و حواضرها وعلماءها ومؤلفاتهم ، يعتبر كتابه ضمن السير و التراجم .

*البرتلى (محمد عبد الله بن أبى بكر الصديق بن ع الله محمد (ت 1140 -1219هـ/1728م-1804م) .و كتابه :

(فتح الشكور في معرفه أعيان علماء التكرور)، وهو أحد علماء ولاته ، ولد عام 11140(هـ/1728م) له عدة مؤلفات ، يعتبر كتابه فتح الشكور ذو أهمية في شرح مجالات التراث الإسلامي لتلك المرحلة ، التي عاشها ، وكتابه يشتمل على مائتي ترجمة لعلماء عاشوا في حواضر إفريقيا جنوب الصحراء.

*محمد بلو الكانمي (عاش بداية 19) .وكتابه :

(إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور) وصف فيه بلاد الفولاني والهوسا ، من الناحية الجغرافية ، وذكر فيه الكثير من أسماء علماء غرب إفريقيا و مؤلفاتهم .

المصادر التاريخية العامة :

*الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي ا لتلمساني و كتابه .

(أسئلة الاسكيا وأجوبة المغيلي) ،وهى عبارة عن مجموعة من الإجابات للأسئلة التي وجهها له الاسكيا محمد الكير ، تعرض من خلالها لأوضاع السودان الغربي السياسية و الاقتصادية والاجتماعية أوائل القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

*عبد الرحمن بن خلدون (1333ه/1406م)،و كتابه :

(العبر وديوان المبتدأ و الخبر)،حيث تناول الكتاب دول وملوك بلاد السودان منها، مالي وسنغاي .

ورغم قلة المعلومات التي تناولها في كتابه التراث في حواضر إفريقيا جنوب الصحراء ، إلا أن كتابه يعد مصدر لدراستي ، نظرا لقيمة المؤلف والمؤلف في نفس الوقت .

- القلقشندي (عبد الله) (ت1418م) وكتابة :

(صبح الأعشى في صناعة الأنشا)، تعرض في جزئه الخامس إلى ممالك السودان الأوسط ، و الغربي ، و نظام الحكم ، و أحول المعرفة فيها .

*المقريزي (تقي الدين ابن العباس بن أحمد بن على) (ت 845هـ) وكتابه: (المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار) المعروف بـ (الخطط المقريزية)، حيث تعرض الكتاب لحوا ضر إفريقيا جنوب الصحراء و منها مناطق التكرور .

أما كتابه (الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء و الملوك) فقد تناول فيه ملوك السودان الذين أدو مناسك الحج ، وأشهرهم منسي موسى .

كما كان للمقريزي كتاب ثالث هو (الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة ملوك الإسلام) عرف فيه ممالك السودان الغربي .

*التونسي الصديق محمد بن السعيد بن عمر (عاش خلال ق 19م) وكتابه:

(سيرة بلال العرب و السودان) ، وهو مصدر مهم من تاريخ السودان خاصة الأوسط ، منه إقليم دار فور، و رغم تناوله السودان الأوسط ، لكنه أشار إلى دور بعض القبائل في تأسيس ممالك في إفريقيا جنوب الصحراء ودورهم في ميلاد التراث المحلي ذي الطابع الإسلامي .

المراجع العربية :

بالإضافة إلى المصادر التي اعتمدت عليها لإنجاز هذا البحث فإنني اعتمدت على مراجع كثيرة ، تناولت بشكل غير مباشر، موضوع التراث في إفريقيا جنوب الصحراء.

المراجع الأجنبية المعربة:

تناولت الكثير من الدراسات الأوربية، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، وكانت معلوماتها مفيدة ومكثّفة ، فقد كانت كتابات هؤلاء نتيجة لدراسات ميدانية ، وكثرة الرحلات إلى المنطقة واعتمادهم على المخطوطات التي عثروا عليها ، مثل:

- جوزيف كي زيربو: تاريخ إفريقيا السوداء ، ت عقيل السيخ حسين.
- كولين ماكيفيدي:أطلس التاريخ الإفريقي –ترجمة مختار السويفي- مراجعة محمد غلاب موسى.
- جوان جوزاف :الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء ، ترجمة مختار السويفي.
- فليكس ديبوا : (تنبكت العجيبة) .

المراجع الأجنبية :

كنت مدركا ،أن موضوع التراث الأسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء يحتاج إلى الإطلاع على ما كتبه الباحثون الأجانب، لذلك فإنني قد اخترت عدة مواجع ، باللغة الفرنسية و الانجليزية ،منها:

- Monteil vincent ‘ l istam noir.

- Barth ‘(h)’travels and discoveries in north and central africa-
- boubou ‘(h)’histoire des songhay.
- Paul Bohannan& Prilipcuntaio ; Africa and Africans.
  Mauny(r),1967,Tableau géographique de l’ouest africain au Moyen Age .
- J.E.Harris : africans and their history.

ومراجع أخرى توجد في القائمة المرفقة بالبحث.

الدوريات و المجلات : إن الاعتماد عليها في هذه الدراسة يزيدها قيمة علمية ، من حيث أن الكثير من المقالات تتناول الموضوع بعينه ، أي التراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء ، منها المجلات التاريخية . مثل مجلة الدراسات الإفريقية الصادرة عن معهد البحوث التي والدراسات الإفريقية بالقاهرة والرباط والخرطوم ، بالإضافة إلى مجلات كمجلة الثقافة ، و الأصالة وغيرها .

الرسائل العلمية : توجد عشرات الرسائل العلمية (ماجستير، ودكتوراه)، تتناول تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء ، يمكن الاستفادة من بعض فصولها. منها:

- محمد أنور توفيق أبو علم : دولة سنغي الإسلامية تطورها الاقتصادي والاجتماعي والحضاري(1591/1493)،رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ،جامعة القاهرة ، مصر ،1977.

- نصر الدين رضوان حمد:التطور التاريخي لسياسة فرنسا في غرب إفريقيا 1939م-1960م، رسالة ماجستير، معهد البحوث و الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، مصر، 1975.

- وداد نصر محمد السيد الطوخي : مدينة تنبكت منذ نشأتها وحتى دخول السعديين ، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ،1986.

- محمود فريد شديد زمزم : السنغال تحت الحكم الفرنسي (1885-1960)، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة، 1989.

- الحافظ عبد الكريم سليمان : التجارة في فزان بين كتابات الجغرافيين العرب والرحالة الأوربيين في الفترة (1500-1750 م / 906-1164 هـ) ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم درمان ، السودان ، 2014.

- بلقاسم الحناشي : الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، رسالة دكتوراه ، كلية الأداب والعلوم الأنسانية ، جامعة تونس ، 1982.

- مفتاح يونس رياض: العلاقات بين بلاد المغرب ودولة كانم –برنو، القرن السابع والعاشر الهجريين/الثالث السادس عشر الميلاديين، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ –معهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة 2005/2004.

- أحمد صقر سيد نجم : التنافس بين بريطانيا وفرنسا في منطقة خليج بنين (1861-1906)، رسالة دكتوراه، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة،1997.

- عشرات الرسائل الجامعية الأخرى من جامعة الجزائر و الرباط والخرطوم والقاهرة ومسقط (سلطنة عمان) وجامعة محمد بللو كانو(نيجيريا)

لقد وجدت الكتابات التاريخية السودانية صعوبات الانتقال من منظومة الثقافة الشفاهية إلى فضاء ثقافة التدوين و التأليف ذلك أن المؤلف السوداني حينما وجد نفسه منخرطا في عملية التأليف و التدوين لم يكلف نفسة عناء إستدعاء تقاليد و أعراف التدوين وظل محافظا على مقومات السرد في الثقافة الشفاهية من باب أن المنطوق يصبح مكتوبا، وهذا ما يبرر عناية المختصين [1] بالرواية الشفوية العربية و الأوروبية [2] بإعتبارها من المصادر الأساسية لتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء.

---

[1]. عبد العزيز العلوي،تأثيرات بلاد المغرب على حضارة السودان الغربي في العصر الوسيط الدين و الفكر،أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب- تاريخ ،جامعة سيدي محمد بن عبد الله ،كلية الآداب و العلوم الإنسانية فاس- سايس، 1999،ص193.

-Mauny(r),1967,Tableau géographique de l’ouest africain au Moyen Age,d’apres les sources écrites,la tradition et l’archeologie,Amsterdam,2ed.Memoires de l’IFAN, n°61, p21-188.

-Cuoq(J), 1985, Recueil des sources arabes concernant

[2]. ج.كي-زيربو حيث يستعرض المؤلف في مقدمة كتابه مكامن التعتيم في المقولات و التصورات تجاه الأوروبيين.وعلى النحو ذاته ،تابع خوان غويتيسولو ذات المهمة بأسلوب يجمع ما بين الإفادة العلمية و المتعة الأدبية .

-أنظر:خوان غويتيسولو: في الإستشراق الإسباني:دراسات فكرية، ترجمة عن الأسبانية كاظم جهاد ، ط2 ، (طبعة منقحة و مزيدة) ،نشر دار الفلك،الدار البيضاء ،1997، ص107-108.

7- صعوبات البحث:

إن التراث الإسلامي الأفريقي جدير بالبحث والدراسة على أن الكتابة في هذا النوع لم تكن واضحة المعالم أو سهلة المسالك وخلال كتابتي لهذا البحث واجهتني عدة مشاكل منها:

- مثل أي دراسة ، أو بحث ، فإن الخوض في دراسة متخصصة يتطلب معانية وتتبع كل المؤلفات، من أجل الخروج بنموذج لرسالة أكاديمية ، فكل المراجع الموجودة تتناول تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء بصورة شاملة ، أو تاريخ إقليم محدد ، ولذلك أرى أن بحثي هذا سيعطي بعدا مهما للدراسات الإفريقية عامة ، والجامعة الجزائرية بصفة خاصة.

- غزارة المادة في بعض الجوانب وقلتها وندرتها في جوانب أخرى ففيما يتعلق بالتراث المادي كانت المعلومات قليلة إلى حد الندرة باستثناء المساجد كمؤسسة عامة ، وقد عملت على الاستفادة من بعض الإشارات وتحليلها والاستدلال بها في مواضع دلالتها ، ثم لجأت الى الاجتهاد لاستكمال ما نقص من تلك المعلومات ولجأت أحيانا الى الأسقاط ، كإسقاط بعض مظاهر التراث اللامادي في أقاليم معينة بما كانت علية في إفريقياجنوب الصحراء –إقليم توات على سبيل المثال – مستندا في ذلك عوامل القرب الجغرافي والتأثير والتأثر فيما بين الأقاليم الإسلامية التي كانت ظاهرة في الجوانب العلمية والثقافية .

- صعوبة تحديد الإطار الزماني للبحث ، مما جعل المنهجية تقتضي إطالة فترة الدراسة ، لكنها كانت ممتعة بالحد الذي جعلني أتشوق لإنجاز أبحاث مشابهة في المستقبل، ولما لا تكون مشاريع لدكتوراه (ل م د) .

- تعرضت خلال دراستي لميادين التراث الإسلامي لقضايا تخصصية تتعلق بعلوم القران والحديث والفقه وغيرها ، ولم أستطع – بحكم عدم تخصصي- أن أتدخل في توجيه بعض القضايا ، وأوضح ما أشكل منها ، وأقتصر دوري على الرصد التاريخي لها ، ولاشك أن هذه القضايا ميادين خصبة لبحوث يقوم بها المختصون .

- قلة الدراسات الخاصة بالتراث المادي الفكري المحلي بالشكل الذي يعرفنا عن كل منجزات هذا الإقليم من القارة الإفريقية.

- تداخل الأحداث التاريخية ، وتضارب تحديدها بين المؤرخين والدارسين وقد أشرت إلى هذا في المتن.

- قلة الدراسات في بعض عناصر الخطة مما أدى إلى ألإسقاط وصعّب عليّ إيجاد الأمثلة والأدلة التاريخية كموضوع الأجازات العلمية - التراث اللامادي- على سبيل المثال لا الحصر.

- شح المادة التاريخية بالنسبة للتعريف بالعلماء خاصة الأفارقة ماعدا الأعلام منهم ، فحتى المصادر التاريخية لا تتوسع في ذكر حياتهم العلمية أو العملية ، كطفولتهم ودراستهم و حياتهم المهنية ، بل تكتفي بعبارات التقديم و الشكر وجزء من حياتهم ، وقليل من سفرياتهم خاصة خلال الحج.

وعل أي حال فقد اجتهدت أن تكون هذه الدراسة شاملة لكل جوانب الموضوع،

وأتمنى أن يكون هذا العمل مفيدا لكل طالب علم، وباحث يريد الإطلاع على تاريخ منطقة لازالت مجهولة إلى اليوم لدى الطلاب خاصة والمثقفين عامة.

8 - شكر وعرفان:

- وأجد نفسي مدين لأساتذتي الدكتورة شتوان نظيرة التي لم تبخل علي بالنصح والتوجيه وأقف أمامها بكامل الاحترام وعبارات التقدير ، فكانت بالنصح والتوجيه معي خلال مدة انجاز هذا البحث .

وأشكر من شاركني في انجازها تدريسا ونصحا وتوجيها أساتذتي الكرام: -

- الأستاذ الدكتور بن يوسف تلمساني الذي كان لي سندا لتواضعه الذي زادني فخرا أنني كنت طالبا عنده.
- الأستاذ الدكتور منصف بكاي الذي كان موجها .
- الدكتور محمد الصالح حوتيه الذي أمدني بمراجع مهمة.

الأستاذ الدكتور مسعود خالدي من جامعة قالمة الذي وضع مكتبته الخاصة -بمراجعها القيمة في تخصص تاريخ إفريقيا - تحت تصرفي وساهم بنصائحه وتشجيعه .

فشكرا لكل أساتذتي... ولصبرهم وتشجيعهم وتوجيههم ودعمهم لطالب العلم .

والشكر الموصول للأساتذة:

- الأمين أبو منقة (مدير معهد اللغات الأفريقية جامعة الخرطوم)
- د/ مهدي ساتي (جامعة إفريقيا العالمية الخرطوم) ، د/حسن مكي(جامعة إفريقيا العالمية الخرطوم) ، د/ تاج السّر العراقي (جامعة أم درمان بالسودان).
- د/ خالد الشكري (جامعة الرباط).
- د/ شعيبو محمد(جامعة محمد بللو كانو بنيجيريا).
- د/ محمد هارون ميغا (جامعة نيامي النيجر).
- د/ لهيم التركي الإدريسي (جامعة صنعاء اليمن).

شكرا للجميع جعل الله نصائحهم في ميزان الحسنات

الفصل التمهيدي : الإطار المنهجي والتاريخي للتراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء.

- **المبحث الأول:** الإطار المنهجي، التراث: مفهومه، فروعه، أهميته.
- **المبحث الثاني:** الإطار التاريخي:عوائق البحث في تاريخ التراث الأفريقي.

مقدمة الفصل :

إن تحديد الإطار الجغرافي والتاريخي للتراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء ، منهج تقتضيه الدراسة ، لتوضيح المؤثرات التي ساهمت في تنوع المنتوج المادي واللامادي، فيجعل الباحث يدخل في سياق التراث الإسلامي لغرب إفريقيا بتسلسل منطقي للأحداث التاريخية .

إذ أن بحثي هذا ليس دراسة تاريخية لتتابع الأحداث متابعة زمنية ولكنها دراسة لمقومات حضارة تتعلق بالفرد و المجتمع و البيئة و المنجزات ، طوال الفترة محل الدراسة .

فقد استطاع الإسلام في فترة وجيزة أن يستحوذ على قلوب الزنوج الأفارقة ، وانتقلوا بديانتهم المسيحية و الوثنية إلى الإسلام [1] ، فكان من نتيجة هذا الدين الجديد إنشاء ممالك مثل

[1] . عمار هلال: مساهمة بعض الشخصيات السودانية في نشر الإسلام في غرب إفريقيا السوداء، مجلة الأصالة، العدد 87 / 88، الجزائر، ذو الحجة 1400 - 1401 / نوفمبر – ديسمبر 1980، ص 93.

مالي [1] وسنغاي ، نظمت حياة السكان ، وأنشأت العمران و الحواضر ، وازدهرت الحياة بكل فروعها ، ونشط التبادل الثقافي بين إقليم إفريقيا جنوب الصحراء والعالم الإسلامي ، وأنتج كل ذالك حضارة واضحة المعالم حيث كان موقف الدين الإسلامي محرك العالم لا في الحياة الدينية فحسب بل للحياة الإنسانية في جميع جوانبها ، و موقف الإسلام هذا هو الدافع الأكثر في السعي و راء المعرفة و العلوم [2] ، وإنشاء معالم الحضارة .

---

[1] . احتلت مالي مكانة غانة كأعظم دولة حكمت السودان الغربي واختلف الكثير من المؤرخين والجغرافيين المسلمين في ضبط اسمها. فالبكري يضبطها "ملل" وابن بطوطة سماها"مالـى"والعمري يطلق عليها"مالـي"والوزان ومحمود كعت والسعدي "ملى"والمرجح أن التسمية الصحيحة هي" مالي" كما وردت لدى ابن بطوطة الذي زارها في فترة ازدهارها ووصفها وصفا يدل على إلمامه الكبير بأحوالها إضافة إلى ضبط مدنها وقراها وأسماء ملوكها وعلمائها وقضاتها،
ومؤسسو دولة مالي هم قبائل الماندينغو MANDINGO ومعناها المسلمون بلغة الماندي، ولكن التسمية المتداولة بين قبائل الماندنجو: المانِنكاMAENKA أوالماندكا MADINKAأو المانديMANDI أو المانِنجMANING أو مانِنجا MANENKA أو ماندنجMANDENG وهي كلها متقاربة ويتضح من خلال ما تم عرضه أن الكلمة واحدة وهي "الماندينغو" ولكن الاختلاف نتج عن تباين لهجات القبائل الأمر الذي يعطيها عدة تسميات هي في حقيقتها واحدة .

أنظر: - البكري أبي عبيد : المغرب في ذاكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)،مكتبة أمريكا والمشرق – باريس 1965-ص178.

- ابن بطوطة أبو عبد الله : رحلة ابن بطوطة (المعروف بـ: تحفة النظار في غرائب الأمصار)، دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت -1400هـ/1980م،ص674.

- .ابن فضل شهاب الدين أحمد يحيى العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ،ج4 ،ط1 ، مركز زايد للتراث والتاريخ ،2001ص59.

- حسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا –ترجمة محمد حجي عمار زينر، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد يتجلون ،ج2 ، دار النشر للمعرفة ،الرباط،ص164.

- محمود كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ،طبع هوداس ودولافوس ،1964،ص38.

- عبد الرحمان السعدي: تاريخ السودان ،وقف على طبع هوداس،مكتبة أمريكا والمشرق ،باريس، 1908،ص09.

- مطير سعد غيث: الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي (خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة/ السادس عشر والسابع عشر للميلادي) –ط1 دار الكتب الوطنية –بنغازي، ليبيا، 2005، ص67.

- إبراهيم علي طرخان:دولة مالي الإسلامية،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،مصر ،1973 ،ص27.

-Yattara El mouloud et Diallo Boubacar Séga :Le Mali précolonial *.* www.histoire-afrique*.org.*-06.11.2010.

- الهادي مبروك الدالي: مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا (من القرن 13 حتى القرن 15م)، ط1، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1993، ص 23.

[2] . فؤاد سيزكين: محاضرات في تاريخ العلوم، ط1، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1989، ص 13.

ولقد أطلق العرب و المسلمون على هذا الإقليم اسم السودان الذي ينقسم إلى ثلاثة مناطق رئيسية هي:

السودان الشرقي: الذي يمتد من البحر الأحمر إلى مشارف بحيرة تشاد من الشرق.

السودان الأوسط : ويشمل المناطق المحيطية ، بحيرة تشاد على امتداد مساحات واسعة ارتبطت طبيعيا تاريخيا بمصادر مياه هذه البحيرة .

السودان الغربي : ويمتد من مشارف بحيرة إفريقيا إلى غاية المحيط الأطلسي ، حيث عرف قيام إمبراطوريات كبرى " مالي ، سنغاي [1]" ، التي لم تكن حدودها واضحة ولم تكن متطابقة ، بالمفهوم المعاصر" المقاطعة أو الدولة " ولا توجد خرائط ثابتة تدل على ذلك [2] فكان لها امتداد لعدة قرون .

---

[1]. واسم سنغاي هو نسبة إلى قبائل السنغاي التي كانت تسكن على شواطئ نهر النيجر في الجزء الممتد من الانحناء إلى قرب المصب في الأراضي الواقعة شمال غربي دولة نيجيريا الاتحادية الحالية وشمال داهومي (بنين حاليا) وكلمة سنغاي، ضبطت بهذا الشكل في أغلب المصادر التاريخية خاصة منها السودانية منها كتاب تاريخ السودان للسعدي ، وكتاب الفتاش لكعت التنبكتي ، ويذكر الرحالة الأوروبي «فيليكس ديبوا» «فيليكس ديبوا، أن السكان يرفضون تسميتهم بالسنغاي ، والملاحظ أن هذا الاسم لم يذكره «ليو الإفريقي» (حسن الوزان)، إلا مرة واحدة في كتابه وصف إفريقيا من خلال فقرة من سطرين، أما الرحالة بارث فقد أشار إليهم بإسهاب ، و السنغاي هم زنوج لهم أصالتهم، لعبوا دورا هاما في تاريخ القارة الإفريقية، تتكون من قبلتين هما **السوركو** و**جيبي**، علمت الأولى في صيد الأسماك واشتغل الآخرون في الزراعة، كان موطنهم الأصلي في دندي أسفل «**نيجر**» وشمال «**بوسة**» قليلا ، ولا يستبعد أن تكون كلمة «**سنغي**» أو «**صنغاي**» من *أصل بربري* وتحريف لكلمة «**صنهاجة**» لها ارتباط بقبيلة « **لمطة**» والتي استوطن فرع منها في منطقة «**الإير**» وهاجر فرع آخر من ليبيا واستطون شواطئ النيجر **.**

-أنظر: هارون المهدي ميغا :إمبراطورية سنغاي ،دراسة تحليلية في الترتيب التاريخي للإمبراطوريات الإسلامية في غرب إفريقيا ،مجلة دراسات افريقية،العدد37،مركز الدراسات الأفريقية ،الخرطوم،*www.mubarak-inst.org .2010/07/12.*

- مطير غيث: المرجع السابق، ص71.

-عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص3.

- محمود كعت: المصدر السابق-11 ،

- فيليكس ديبوا: تنبكت العجيبة ،ترجمة عبد الله عبد الرزاق إبراهيم،مراجعة شوقي عطا الله الجمل،المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة،2003، ص81. - حسن الوزان : المصدر السابق ، ص162.- عبد الرحمان زكي: المرجع السابق، ص 133.

[2] . أحمد بوعتروس : الحركات الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء ابان القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلاد ، ط1 ، دار الهدى،الجزائر،2009 ، ص 18.

و المجال التاريخي لهذه الدراسة يرتبط ببداية حكم مملكة مالي ونهاية مملكة سنغاي ، فإفريقيا جنوب الصحراء ، أو السودان الغربي كما سماه المؤرخون العرب و المسلمون [1] ، تعد منطقة منبسطة التضاريس ، فالبناء الجيولوجي للقارة يعد بسيطا نسبيا مقارنة بباقي القارات ، ويسود هذا الإقليم الواسع المناخ المداري الذي يزداد أمطارا كلما اتجهنا نحوه جنوبا و يميل إلى الجفاف كلما اتجهنا نحو الشمال ترتبط أهمية هذا الإقليم بمصادر المياه التي تتمثل في الأنهار، والأمطار الموسمية الغزيرة .

إن المناطق الواسعة الممتدة من بحيرة تشاد إلى سواحل المحيط الأطلسي ، تتميز بخصائص الحياة من خلال التضاريس المنبسطة و المناخ المداري و نوعية التربة و مصادر المياه الموزعة بشكل غير منتظم وهو ما اوجب على السكان تامين وجودهم لوسائل وصفت بأنها بدائية .

وتعد هذه المنطقة الأصلح التي تقع على بعد متساوي تقريبا بين المناطق الشمالية الشديدة الجفاف و بين المناطق الجنوبية ذات الأمطار الغزيرة المستمرة .

وفي هذه المناطق الوسطى ازدهرت الزراعة وكلما اتجهنا شمالا أي الصحراء، تبدأ حياة البداوة والترحال ، وتنتشر القبائل المرتبطة بتوفير الكلأ للمواشي من جهة و الابتعاد على الهجمات و الغزوات المفاجئة.

[1] . إن الباحث في تاريخ مماليك السودان الغربي ، يجد الكثير من الاختلاف في استخدام عبارات الوصف مثل أعظم ، اكبر ، أقدم ، أوسع ، أكثر ، من قبل المؤرخين و الباحثين هو عدد مملكة غانا الأقدم تليها مالي ثم سنغاي ، وان هذه الأخيرة وريثة الأولى و الثانية من حيث الجغرافيا و الثروة و مفاهيم الحضارة وهناك فريق ثاني يرى إن سنغاي هي أقدم من حيث النشأة من غانة ، إذ يقول احمد شلبي إن سنغاي أطول الدول عمرا ، فقد بدأت بذورها في القرون الميلادية الأولى و وعاصرته إمبراطورية غانا و مالي ، و انتهت غانا و مالي ، و بقية سنغاي حتى 1003 ه – 1594م أنظر: احمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية ،ج2، ط1 ، مكتبة النهضة المعربة ، القاهرة ، 1973 ، ص101 .

وفي المقابل فان الحرارة و الرطوبة العالية في الأقاليم الجنوبية من جهة و ارتباط القبائل بعبادة المظاهر الطبيعية و الأوثان من جهة ثانية لا يدفع هذه الأقاليم إلى إنتاج التراث أو على الأقل الإطلاع عليه ، فالحياة في الغابة لا تحمد في شيء ، فالصيد فيها صعب و خطر ، و المواصلات مرهقة و الزراعة فيها صعبة تتطلب جهودا جبارة لتهيئة الأرض و لا يصلح للزراعة هناك إلا النبتات التي تألف الظل المستمر ، ولذالك فالحياة الاقتصادية ضعيفة جدا في الغابة و على هوامشها و بالتالي فالحياة البشرية منحطة[1] أيضا وهو ما يدفع بعض المؤرخين إلى وصف هذه المنظمة بأنها تزداد ظلمة كلما اتجهنا إلى منظمة الغابات الكثيفة التي تعرف بالأدغال.

إن دراسة الخصائص الطبيعية يدفعني بالقوال أنها العامل الأول في التأثير السلبي على التراث المادي واللامادي في غرب إفريقيا ولا علاقة له إطلاقا بالخصائص البشرية ، التي يذهب إليها المؤرخون الأوربيون بالرغم من أن النظام القبلي السائد في غرب إفريقيا جزء من أسباب التخلف.

[1]. نعيم قداح: المرجع السابق، ص 14.

المبحث الأول : الإطار المنهجي ، التراث :مفهومه ، فروعه ، أهميته.

1- **مفهوم التراث :**

كلمة تراث ليس بمعنى الإرث الذي مات صاحبه و لكن بمعنى ما قدمته هذه الأمة أو تلك إلى سوق الإنسانية من خير وما أضافته إلى حضارة الإنسان من منجزات و قيم وما تركته من أثر في الناس .

كلمة تراث تستعمل بمعنيين اثنين إنها تعني اسهام الإسلام في انجازات النوع الإنساني وتعني اتصال الإسلام و لقائه و تأثيراته فيما يحيط من العالم غير المسلم ، و هو يشمل التأثيرات التي تكون الأديان والحضارات المحيطة بالإنسان قد مارستها عليه والفوارق التي طرأت على الحضارة الإسلامية في مختلف الأقاليم التي دخلت في فلكها من المغرب حتى أفغانستان.

إن كلمة التراث الإسلامي هو دراسة على أن الإسلام حضارة و ليس دينا فحسب بالرغم من أن التفريق نفسه بين المعنيين يحتاج إلى تحديد كما يوضحه المصطلح [1].

فالتراث هو مجموع المعارف العلمية والتشاريع والنظم والعادات والآداب التي تمثل الحالة الفكرية والاقتصادية والخلقية والسياسية والفنية وسائر مظاهر الحياة المادية والمعنوية في مرحلة من مراحل التاريخ وفي بقعة من بقاع الأرض سواء شملت شعبا أم أكثر[2].

ولقد وضع المسلمون الأسس الأولى لكثير من العلوم ، ونحن هنا لا ننكر دور التراث القديم باعتباره لبنة أساسية للفكر الإنساني ، ولكن الدور الذي قام به المسلون في تطوير هذا التراث وفي تعقيله وترشيده ، هذا الدور الأساسي الذي يدرك العالم اليوم مدى قيمته بالنسبة لتطور الإنسان [3] .

و يتيح لنا تقصي ميادين التراث ودراسته دراسة علمية ، معرفة العادات والتقاليد ، والمفاهيم السائدة في المجتمع ، وأساليب الحياة في البيئات المختلفة ونوعية أدوات العمل التقليدية

---

1. جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث: التراث الإسلامي، ج1، ترجمة محمد زهير السمهودي و آخرون: مجلة عالم المعرفة، المحلس الثقافي للفنون و الآداب، الكويت، جانفي 1978، ص 08 -18.
2. أحمد فؤاد محمود: أضواء على الثقافة الإسلامية،ط1، دار إشبيليا للنشروالتوزيع، المملكة العربية السعودية، 2000، ص 21.
3. فتحية النبراوي: تاريخ النظم و الحضارة الإسلامية، ط6،الدار السعودية للنشر و التوزيع، جدة،السعودية ، 1996، ص 181.

ومعرفة أنواع النباتات والأشجار البرية وفوائدها وكيفية الاستفادة من كل نوع والغاية منه ، ومعرفة النباتات والأشجار الزراعية التقليدية في كل بيئة و تطورها مع الزمن ، و ما أضيف إليها ، ومعرفة أنواع الحيوانات والطيور البرية والمستأنسة وأعدادها ، وأساليب عيشها ، وأمراضها ، و طرق علاجها التقليدية والمستحدثة و تحديد الأنواع المنقرضة و الباقية.

وكذلك معرفة أنواع البيوت التقليدية في البيئات المختلفة وكيفية إنشائها ، والمواد المستخدمة في بنائها و مدى مناسبتها للبيئة ، والحلول العلمية في هندسة البيت للتغلب على الحر و القر والحشرات ، والحماية من الأمطار والرياح و الغبار .

وكذلك معرفة أنواع الأزياء في كل بيئة ، و تسمياتها ، و طرق صناعتها ، ومناسبتها للبيئة ، و المواد الداخلة في تركيبها و ألوانها ، و نوع اللباس في كل فصل من فصول السنة ، والفروق بين ألبسة العمل و ألبسة الظهور الاجتماعي اليومي في المناسبات.

و كذلك أنواع الأطعمة و الأشربة التقليدية ، وما يتعلق بها من أقوال وأمثال ، ومعارف ، وأنواع الطب الشعبي البشري ، والبيطري، وأساليبه ، والمواد الداخلة فيه وكيفية الحصول عليها وأعدادها و استعمالها و مواعيد هذا الاستعمال ، وما إذا كان بعضها بتوقيت شهري أو فصلي أو سنوي[1] .

وتشكل المرويات الشفهية ، والمقتنيات المادية ، مادة هامة في دراسة تاريخ منطقة أفريقيا جنوب الصحراء فهي في كثير من الأحيان قادرة على ترميم العديد من الثغرات الناقصة في الروايات التاريخية المكتوبة ، و ربما تزيد على ذلك فتصوب بعض الروايات المغلوطة أو غير الدقيقة، و توضح ما غمض و تجيب على أسئلة مستدركة لا جواب عليها في التاريخ المكتوب ، و هذا ما يجعل المادة التراثية ذات قيمة تاريخية ، لا غنى عنها في البحث التاريخي الجاد الساعي إلى الكمال.

أما الجوانب الأدبية من التراث كالحكايات ، والأمثال والسير والأغاني، والألغاز... وغيرها ، فتشكل رصيدا لغويا و معرفيا وفنيا يمكن أن تستفيد منه المعاجم الحديثة وتطوّر به

[1]. محمود مفلح البكر: المرجع السابق، ص 33.

المعاجم القديمة ، بملاحظة استخدامات الألفاظ القديمة وما فيها من اشتقاقات والإفادة منها في اشتقاقات جديدة تساهم في تطور اللغة [1] .

و ينظر البعض إلى التراث على أنه البوتقة التي تنصهر فيها عمليات التغيير وهي الكاشفة عن صور التداخل بين الأبعاد المتفاعلة في عمل الحضارة لأن هذا التراث يتكون من تجمع العادات و التقاليد والمعتقدات والفنون الشعبية التي تكون أسلوب الحياة لدى عامة الشعب وهي المرآة الدالة على الثبات والتغيير وهي تشكل جزءا لا يتجزّأ من التراث .

2-فروع التراث :

و لما كان اهتمامي بدراسة التراث كان علي أن أتصدى بالشرح لميادين هذا التراث و مدى ارتباطها بالإسلام في إفريقيا و بالرغم أن هناك اختلافا كبيرا بين المتخصصين في مجال دراسة التراث من حيث أقسامه الرئيسية و ميادينه ، فقد رأى البعض أن التراث يمكن أن ينقسم إلى تقسيم سداسي:

- (1) العادات.
- (2) المعتقدات.
- (3) المعارف.
- (4) الأدب.
- (5) الفنون.
- (6) الثقافة المادية .

و يمكن تقسيمه إلى أربع مجالات [2]

- (1) المعتقدات المعارف الشعبية.
- (2) العادات و التقاليد الشعبية.
- (3) الأدب الشعبي.

---

[1] محمود مفلح البكر: المرجع السابق، ص 34.

[2] فاروق أحمد مصطفى و آخرون : دراسات في الأنثروبولوجيا، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، 1985، ص 379 - 380.

- (4) الثقافة المادية و الفنون الشعبية.

و قد اشتمل الميدان الأول : الذي لديه اهمية خاصة لأنه يرتبط بالمعتقدات والمعارف الشعبية وهي المعتقدات التي يؤمن بها الشعب فيما يرتبط بغيبيات العالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي.

ولهذه المعتقدات خصائص مميزة، إذ تعد أبرز ركن من أركان ميادين التراث الشعبي ، وما يعرف بالأفكار أو المواقف الإنسانية العامة الأساسية ، كما أنها تهتم بالبحث عن تصورات الناس عن بعض الظواهر الطبيعية كالسحر والطب الشعبي والأحلام وما يتعلق بالجسم الإنساني و الأعداد و الألوان ، و الروح و الطهارة ، و النظرة إلى العالم الأخر... وغيرها.

أما الميدان الثاني: فهو ميدان العادات و التقاليد الشعبية حيث يهتم دارسوا الإنسان والمتخصصون في التراث الشعبي بهذا الميدان لماله من أهمية لأسهامه في دراسة جميع العلوم التي تتعلق بالإنسان في مظاهر حياته الاجتماعية والتاريخية [1] .

والعادات الشعبية تعطي صورة الحياة لمالها من بهاء ورونق في ميدان رحب فهو تشمل عادات دورة الحياة منذ الميلاد ، كالزواج والوفاة و الأعياد والمناسبات المرتبطة بدورها العام مثل الأعياد الدينية ، رأس السنة الهجرية ، عاشوراء ، مولد النبي إضافة إلى الأعياد القومية كمواسم الزراعية والمراسيم الاجتماعية كالاستقبال والتوديع و العلاقات الأسرية ، و المراسم المتعلقة بالمأكل والمشرب ، و فض المنازعات في المجتمعات البدوية و التحكيم وغيرها .

و يأتي الميدان الثالث: و هو الأدب الشعبي ، الذي قد نجده في نداءات الباعة السير ، والأسطورة والخرافة ، والحكاية ، و الموال ، و الزفاف...ألخ ، و أيضا في البيئات و الجماعات البشرية المختلفة كأغاني البدو في المجردة [2] ، و المدائح الدينية ، والابتهالات ، والرقص والأمثال، التعابير والأقوال السائرة ، و الأعمال الدرامية مثل الخيال والتمثيليات .

أما الميدان الرابع والأخير : فهو ميدان الثقافة المادية والفنون الشعبية، والثقافة المادية تتمثل

---

[1] . دياب فوزية: القيم و العادات الاجتماعية، دار الكاتب الجامعي للطباعة النشر، القاهرة، 1966، ص 53.

[2]. Paul Bohannan& Prilipcuntaio ; Africa and Africans ; levised Edition ; the piblished for the American Museum of Natural Aistory press ;the Natural Aistory press ; Garden city; New York ; 1971; p 169.

في التقنيات و المهارات ووصفات انتقلت عبر الأجيال كبناء البيوت [1] ، و صناعة الملابس ، واعداد الطعام و فلاحة الأرض و صيد الأسماك وغيرها .

أما الفنون الشعبية فهي تشتمل على الموسيقى الشعبية و آلاتها و الرقص الشعبي والألعاب الشعبية و فنون التشكيل الشعبي مثل الأشغال اليدوية على الخامات المختلفة مثل النسيج بأنواعه و الخشب و الحديد و الفخار و الزجاج و النحاس.

و تتدخّل الأزياء الشعبية في هذا الميدان الهام و أشغال النسج بالإبرة و الخرز و غيرها ، والمفارش والبرادع والأخراج والبراقع والطرح والمناديل والحلي وأدوات الزينة ، وأواني العمارة والسحر والتعاويذ والوشم والرسوم الجدارية وعناصر الثقافة المادية الأخرى مثل أدوات العمل الزراعي كالمحراث واللوح وأدوات الرعي كالشادوف والساقية والأدوات والمعدات المنزلية والحرف والصناعات الشعبية كصناعة الحصر و الفخار و النسيج و غيرها [2] .

وإذا كنا قد أشرنا إلى أهم ميادين دراسة التراث الشعبي لم يكن هدفنا هو رصد هذه الميادين و موضوعاتها بكل دقة و لكن إعطاء بعض النماذج من هذه الموضوعات التي تؤكد اهتمام إفريقيا جنوب الصحراء منذ ظهور الإسلام بهذه الميادين [3] .

والتراث الذي ينتقل من جيل إلى جيل يتضمن الأشياء المادية والمعتقدات المتعلقة بكافة الأشياء المعروفة وصور الأشخاص والأحداث والممارسات والنظم ، كما يشتمل على منشآت مبنية وآثار ومناظر وتنظيمات طبيعية وتماثيل وأدوات ومعدات أنه يضم كل ما يملكه أي مجتمع في فترة معينة و أن كثيرا من المنتجات البارعة التي أثمرتها الثقافة الشعبية أصبحت الآن من التراث .

كما أن التراث الشعبي يدخل في تكوين السلوك الهادف الذي له معنى من خلاله يمكن

---

[1]. Isaac Ayinde Adalemo " Small Urban Centres in Nigeria´s Development, strategy:therole of eural Morket Centres in Small Urban centres in Rural Development in Africamad ; by Aidam Southall ; African Stuies Programme university of wiscousion; 1979 ; p 128.

[2]. أنظر ، محمد الجوهري: علم الفلكلور دراسة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار المعارف، مصر، 1975. ص 61 و ما بعدها.

[3]. رفعت الجوهري: شريعة الصحراء، عادات و تقاليد، ط1، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأمريكية، القاهرة، مصر، 1961، ص 154 -156.

تعريف وتعيين الأهداف والمعايير بل والوسائل المختلفة ، كما وأن تعريف التراث يمكن أن يعني أشياء كثيرة، ففي أبسط معانيه هو مجرد النقل ، أي الشيء الذي ينتقل من جيل إلى الجيل الذي يليه أو من الماضي إلى الحاضر وقد يكون الشيء الموروث عنصرا ماديا أو تكوينا ثقافيا [1] .

3- وظائف التراث:

يلعب التراث دورا هاما في حضارة المجتمعات، وتزداد أهميته في إفريقيا جنوب الصحراء لارتباطها بالثقافة الشعبية ، و يمكن أن نحدد وظائف أربعة أساسية للتراث الشعبي:

الوظيفة الأولى: وتركز هذه الوظيفة على المحتوى الاجتماعي للتراث الشعبي و موقعه في الحياة اليومية للناس و نجد ذلك واضحا عندما نحدد العلاقة بين الفلكلور والثقافة أو الدور الحي الذي يقوم به الراوي في الحكايات الشعبية والتي تثير بعض الأسئلة عن مكان وزمان العناصر الخاصة بالتراث الشعبي والتي يتم الحديث عنها وعن هؤلاء الذين يتكلمون ويتحدثون ويمارسون هذه العناصر ؟ و هل هي مملوكة خاصة لراو واحد ؟ و ممن يتكون الأتباع ؟ و ما الصيغة الدرامية التي يستخدها الراوي ؟ ومدى اشتراك الجماعة في الضحك والتمثيل والرقص...؟ و ما هي القوائم الخاصة بالتراث الشعبي التي يضعها الناس بأنفسهم وما هي اتجاهات الناس حول هذه القوائم ؟ و كل هذه الأمور أكدها الأدباء في دراستهم للحكاية الشعبية والأسطورة، كما يدخل في تحديد هذه الوظيفة العلاقة بين التراث الشعبي و بين المحتوى الثقافي وهل يعد التراث الشعبي مرآة للثقافة أم لا ؟.

الوظيفة الثانية:

الدور الذي يقوم به التراث الشعبي في تثبيت الثقافة وفي الحفاظ على الشعائر والنظم التي تمارسها الجماعة الإنسانية .

الوظيفة الثالثة:

دور التراث الشعبي التعليمي وخصوصا في المجتمعات المحلية غير المتعددة والتي

---

[1]. أحمد أبو زيد: التراث الشعبي: ترجمة أثنوجرافية للمجتمع، ندوة التراث الشعبي والذات العربية،بغداد، نوفمبر 1976، ص 3-4.

تنتشر فيها الأمية و قلة عدد المتعلمين ، وقد أثبتت الدراسات أن المعلومات التي يحويها التراث الشعبي المختلفة ينظر إليها بإجلال و تقديس و قد ينظر إليها البعض باعتبارها حقيقة تاريخية.

الوظيفة الرابعة:

هي وظيفة التكامل في المجتمع و الوصول إلى مرحلة التضامن الاجتماعي.

هذه الوظائف الرئيسية الأربعة يمكن أن تنقسم إلى وظائف عديدة أخرى أو يمكن النظر إليها جميعا باعتبارها وظيفة واحدة لتحقّق الثبات الثقافي ((**the stabilify of culture**)) ، و يهتم التراث بتحقيق الانسجام و التطابق إلى مستوى المعايير والقيم الثقافية ليضمن الاستمرارية والتناقل من جيل إلى آخر ، خلال دوره التعليمي إذ أنّ عمل هذه الوظائف واحدا لمواجهة الصعوبات من أجل تحقيق العدل[1] .

و ونلخص التراث بعناصره المختلفة أنه يزرع العادات و يضع المعايير الخلقية للصغار ويكافئ الكبار بالمديح عندما يتوافق سلوكهم مع قيم المجتمع ويعاتبهم عندما ينحرفون عن هذه القيم و يمدهم بالمستويات العقلية والمنطقية ليواجهوا الصعوبات من أجل تحقيق العدل.

وإذا كان المختصين قد استنتجوا الوظائف الأربعة التي أشرنا إليها من قبل ، من خلال بعض الدراسات الأنثروبولوجية للحكايات الشعبية والأساطير ، ثم حاولوا أن يعمموها على العناصر الأخرى للتراث الشعبي ، فإننا نرى أن هذه الوظائف يمكن الاستفادة منها [2] عند دراستنا لعناصر التراث الشعبي المختلفة في مجتمعاتنا المحلية .

إن البحث عن وظيفة العناصر الخاصة بالتراث الشعبي شاق وعسير ويتطلب دراسة المجتمع بكل مكوناته أو على الأصح فإنه يقتصر من ناحية ضرورة على مدى تعبير عناصر التراث الشعبي على العلاقات و القيم السائدة في المجتمع.

و من ناحية أخرى فإن دراسة العناصر الفلكلورية التي تدخل في كل نسق من الأنساق

---

[1] . محمد محمود محمدين:التراث الجغرافي الإسلامي،ط4،دار العلوم للطباعة والنشر،الرياض ،المملكة العربية السعودية،2003، ص36.

[2]. إسماعيل زردومي : المرجع السابق ، ص 44.

الاجتماعية التي تدلنا في النهاية البناء الاجتماعي ، Social structure [1] المستخدمة في التفكير و أسماء القبائل و المواقف العامة التي توصف في الخطابات الشعبية والأساطير.

فالتراث مصدر أساسي لمعرفة تاريخ التفكير الفلسفي لشعب معين ، فمثلا عن طريق دراسة قبائل اليوروبا Yoruba(*) استطعنا أن نعرف أسلافهم و المعلومات التاريخية الكثيرة عنهم واستنتاج أنهم كانوا من الشعوب العسكرية ، ولم يكونوا زراعيين كما هو واضح من نشاطهم الآن [2] .

و مواد التراث تناقلتها الأجيال نظرا لأنها مرغوبة ومحمودة ، و هي تتضمن معتقدا معيّنا كونها تشبع حاجة أعضائها ، و تتسم ببعض الصفات منها أنها لابدّ أن تمارس و أن تحمل صفات شعب و ملامحه و تنمو بطريقة لاشعورية نظرا لأنها تلقن للفرد منذ نعومة أظافره ، و هي تختلف في درجة الزامها فبعضها ملزمة والبعض الآخر منها اختياري ، ولكن هذا لا يعني أنها ثابتة بل تتطور بما يتمشى مع طبيعة المجتمع ، وهي نسبية تختلف من مجتمع إلى لآخر وتختلف داخل المجتمع نفسه باختلاف الزمان والمكان كما أنها قد تساهم في خلق القوانين الاجتماعية ، و هي قوة معيارية بمعنى أن خرقها يقابل بعدم الرضا الاجتماعي[3] .

والتراث يحمل تصورات الناس عن أسرار بعض الظواهر الفيزيقية والنفسية كالأحلام و النوم و الميلاد والموت ورؤية المستقبل بأنواعه و وسائلها المختلفة.

---

[1]. Bascom william: Four Funtions of Folklore, in the study of Folklore , 1972 ,International Ency clopeadia of the social sciences, Macmillan compary , the free, N. Y. Vol. 5- 6. U. S. A, pp. 279-298.

*. يعيش شعب اليوروبا Yoruba في المنطقة الغربية من نيجيريا و يبلغ تعداده ما يزيد عن خمسة ملايين نسمة و هم قرويون يزرعون نبات البام و الذرة و الكاكاو و يمتلك معظمهم الأراضي الزراعية و تحكي الأساطير أنهم كانوا يعيشون على الصيد و القتل و أن جدهم الأكبر Erimre قام بأعمال بطولية أكبر.

[2]. Evans Pritochard, E E, "Social Anthropology Past and Present, Man , 1950, Vol 198, p 118-124..

[3]. غارق أحمد مصطفى و آخرون: دراسات في التراث الشعبي، ط1، دار المعرفة الجامعية للطبع و النشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، 2008، ص 126.

the porsey press .vvs.a.1984. P100.‹religion in sociological perspective :A‹keitb‹-Robert

وهناك العديد من الشواهد على أوجه التناظر بين المعتقدات الدائرة حول الروح و أشكالها و حول قوة الحياة أو مبدأ الحياة وعن أماكن تواجدها في الجسم الإنساني (كالرأس والقلب و القدمين) [1].

كما نصادف معتقدات عن الأرواح و الشياطين[2] عند معظم قبائل أفريقيا جنوب الصحراء تحت أسماء مختلفة و لكن جوهرها و طبيعتها واحدة أو شديدة التشابه مثل الطلسم و الحجاب[3] .

و من الوسائل التي ساهمت في ترسيخ هذه المعتقدات نجد الروايات الشفوية المتمثلة في:

1-السير.

2-الحكاية.

3-الخرافة.

4-الأغاني بأنواعها المختلفة : (حسب مناسبات الحياة ، أغاني العمل حسب البيئات والجماعات البشرية).

5-الموال.

6-المدائح الدينية.

7-الابتهالات الدينية.

8-الرقص.

9- الأمثال.

10-التعابير و الأقوال السائدة.

11-النداءات.

12-الألغاز.

13-النكت و النوادر و القصص الفكاهية.

1. أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مطبعة ساحة رياض الفتح، بيروت، لبنان، 1977، ص 218 -219.
2. Laach Edmund, Culture and communicationcambridage, Universty press, london, N. V. p. 7.
3. محمد عبده محجوب: طرق البحث الأنثروبولوجي (النسق القرابي)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مص، 1985، ص 22.

14-الأعمال الدرامية (خيال الظل: الأراجوز، التمثيليات، مشاهدة الهواة) [1].

و تكون أكثر انتشارا عند بعض الجماعات المنعزلة و الهامشية والمغلقة على نفسها ولو نسبيا ، وتكون ذات أهمية بالغة لفهم تراثها اللامادي و ثقافتها على وجه العموم .

فالفنون في مثل هذه الجماعات المغلقة تكون أكثر تعبيرا عن روح الجماعة وعن الذوق الشعبي والقيم الجمالية للتراث ، حيث يكون الفرد الفنان أكثر تمثيلا لقيم الجماعة أكثر انصهارا في التراث .

و دراسة الفنون تلقي لنا ضوءا هاما على حركية التغيير في الثقافة ، فالفرد الخلاق يجدد في قنوات أو اتجاهات يمكن للباحث أن يتحسسها ويضع يده عليها لأنه سيحرص في النهاية أن يلقى استجابة لدى جمهور الشعب لأنهم مستهلكي فنه في النهاية ، و من المسائل التي تشغل دارس التراث خاصة من منظور اجتماعي دراسة العلاقة بين المبدع الفرد سواء كان فنانا متجولا أو مقيما أو كان صانعا حرفيا ، وبين التعبير أو الذوق الشعبي السائد ، و إلى أي مدى يلتزم الفرد الصانع بأذواق مستهلكي إنتاجه الفني و إلى أي مدى يترك الفنان لخياله و قدراته الابداعية الفردية [2] .

الفنون الشعبية: و تشتمل :

1. الموسيقى الشعبية والموسيقى المصاحبة للأغاني ، الرقص ، النداءات ، الابتهالات ، المدائح ، الموسيقى المصاحبة للإنشاد ، السير، الموسيقى البحتة.
2. الألات الموسيقية (نفخ ، و طرب ، وإيقاع).
3. الرقص(رقص مناسبات [3] رقص مرتبط بمعتقدات كموسم المطر أو جني الثمار أوالغابة ، وقد يكون رقص القبيلة أو فئات محددة) .
4. الألعاب الشعبية.

[1]. Harviland William , Anthropology Holt Riehart and winston, U. s. A,1974 . P 505.507.
[2]. Robert Keitb, Religion in sociological perspective, the dorsey press, U. s. A,1984, P 100.
[3]. محمد عبده محجوب: أنثروبولوجيا الزواج و الأسرة و القرابة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،مصر،1985، ص 171.

5. فنون التشكيل الشعبي ، أشغال يدوية على الخامات المختلفة ، الأزياء ، الحلي والوشم ، الرسوم الجدارية .

أما الثقافة المادية فهي مصطلح يطلقه الأنثروبولوجيون على الأشياء الثقافية فهي الممتلكات الثقافية ، و تعني دراسة العناصر المرتبطة بمنتجات السلوك البشري ، والثقافة المادية [1] ، أو التجهيز الثقافي وهي التعبير المادي عن التغييرات التي يحدثها البشر في توافقهم وسيطرتهم على بيئاتهم الاجتماعية و الفيزيقية ، وهي متنوعة فلا تقتصر فقط على الأسلحة و المعدات و الأدوات ولكنها تمتد لتشمل أعمال الفن من زخارف ونقوش وأدوات موسيقية والأدوات المرتبطة بالعقائد أو الممارسات العقائدية ، كذلك المأوى والملبس ووسائل الحصول على الطعام وإنتاجه ووسائل النقل المختلفة [2] .

و ترجع أهمية الثقافة المادية في أنها تجعلنا نستخلص الكثير عن حياة الشعوب البدائية و ثقافتهم من خلال مخلفاتهم المادية.

4- أهمية التراث :

يلعب التراث الشعبي بفروعه الأدبية ، و الروحية ، و الفكرية ، و المادية دورا هاما في تعزيز انتماء الفرد إلى وطنه وأمته ، و اعتزازه بتراثه ، و حبه لأرضه ، وشحن عواطفه للدفاع عنها و التضحية في سبيلها ، وعلى سبيل المثال كانت حكايات الأجداد عن التضامن ينبوعا وجدانيا تجمّع حوله القبائل الأفريقية ينهلون منه صغارا و كبارا و يتداولون منظومة القيم التي تطرحها ، و كانت ملاحم مواجهة السكان لحيوانات الغابة (حكايات الفهد والنحل والخنازير والقردة والأسد...) أشبه بنشيد قومي يؤجج مشاعر الأفارقة، و يوحّد مواقفهم ، و يغذي روحهم الوطنية [3] .

هكذا كان دور التراث الشعبي ، والدراسات المتعلقة به في إفريقيا ايجابيا ، لكن مع قدوم

(1) Kessing Roger M,1981, cultural Anthropology Acontemporary Perspctive, Holt Riehart and winston, N. Y. P. 339.

2. محمد محمود محمدين: المرجع السابق ، ص 293.

3. الحسيني الحسيني : الأساطير الأفريقية ، المرجع السابق ، ص ص145،120 ، 184 ، 214.

- محمود مفلح البكر: المرجع السابق، ص 175.

الاستعمار الأوربي الحديث أصبح للدراسات التراثية على يد القوى الاستعمارية مهمة أخرى يمكن وصفها دون تحامل بأنها غير أخلاقية .

فحين راحت الجيوش الاستعمارية تحتل كثيرا من بلدان العالم بما فيها المناطق المنعزلة ، والجزر النائية ، وجد المحتلون صعوبة فيالتفاهم مع الشعوب ذات اللغات المختلفة ، واللهجات المتباينة والعادات والمعتقدات وأساليب العيش المغايرة و لهذا بدأ كثير من الموظفين ، والضباط والجنود والمبشرين والرحالة ، بجمع ما يستطيعون من تراث الشعوب ، وآدابها وتدوينه بلفظه مستخدمين الحروف اللاتينية ، ونقل هذه المواد إلى عواصم بلدانهم ، لتوضع بين أيدي العلماء لدراستها ومعرفة طبائع هذه الشعوب ، وكيفية التأثير عليها وتوجيه سلوكها وتفكيرها بما يخدم مصالح المستعمر.

و قد وجد المستعمرون البريطانيون والهولنديون والفرنسيون... و غيرهم، في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) معنا لفهم طبائع الشعوب وعاداتها و معتقداتها ولغاتها ومعرفة أعراقها وفئاتها الاجتماعية ، و لهذا كانت الحكومات الاستعمارية تعلّم موظفيها الذين يديرون المستعمرات مبادئ علم الإنسان ، و تزويدهم بالأبحاث والدراسات اللازمة في هذا المجال ، وفي الوقت الذي كان فيه الأوربيون يوظفون دراسات التراث الشعبي في بلادهم لتوحيد قوى الشعب والأمة ، كانوا يستغلون أحداث النظريات العلمية في مثل هذه الدراسات لزرع بذور الفرقة بين أبناء الشعب الواحد في مستعمراتهم ، و إثارة العصبيات، و النعرات الخامدة ، لتطبيق مبدأ الأحتلال الفعلي[1] .

لكن الصعوبات التي واجهت المستعمرين ، والكراهية التي يشعر بها الناس تجاههم ، دفعتهم إلى التخلي عن الحكم المباشر للمستعمرات ، وتعيين زعماء محليين ممن ارتبطت مصالحهم بمصالح المستعمر ، و لديهم الاستعداد للتعاون ، و قبول التوجيهات ، طمعا في المحافظة على مكاسبهم الشخصية و العائلية.

ولدعم هؤلاء الانتهازيين في إدارة المستعمرات، و تثبيت ركائز سلطتهم على شعبهم، عمل

[1]. ج.ن. أوزويغوي : تقسيم أفريقيا على يد الأوربيين ، نظرة عامة، تاريخ إفريقيا العام ، المجلد السابع ،(إفريقا في ظل السيطرة الأستعمارية 1880-1935)، إصدار منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، لبنان ، 1990، ص 42.

المستعمرون على تحويل بعض قوانين العرف و العادة، التي كانت لا تطبق إلا في مناطق محدودة، و على أضيق نطاق، إلى قوانين رسمية عامة، لتلعب دورها في ترسيخ التخلف ، وعرقلة التقدم، و تثبيت التمزق بين أجزاء الوطن الواحد ، وهو ما أفرز مع الزمن دويلات هشة، ذات طبيعة عشائرية، أو أسرية، أو طائفية تفتقر إلى مقومات الدولة الفعلية، و لا تقوى على الاستمرار دون رعاية صانعيها و ما أكثر الأمثلة!. و يكفي أن نتلفت حولنا إلى البلدان التي كانت خاضعة للاستعمار لندرك بجلاء هذه الحقيقة المرة.

وفي هذا المجال تضافرت جهود المستعمرين من سياسيين وعسكريين ومبشرين، و علماء[1] ، و جمعيات ، و مؤسسات على توجيه سلوك الشعوب [2]، و تدمير الثقافة الوطنية القومية ونشر ثقافة المستعمر، مستخدمين الوسائل المتاحة كلها من الضغط و القمع ..إلى الإبادة، مرورا بتزوير التاريخ، و توظيف التراث و تشويه الثقافة الوطنية، و فرض ثقافة المستعمر، و لغته، و عقيدته.. و ما حدث في القارة الأمريكية ، و أفريقيا، و أستراليا، و الجزر النائية و المناطق المنعزلة.. مجرد أمثلة.

هذا السلوك اللاأخلاقي في توظيف علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) و ما يتصل به من علوم، كعلم الاجتماع، و التراث الشعبي، دفع بعض العلماء النزيهين إلى رفض فكرة التوظيف التطبيقي لعلم الإنسان و التراث الشعبي، و لكن ما نصيب هذه الدعوة من النجاح؟ ما دام هناك علماء وباحثون، لا مجال لشفائهم من عقد العنصرية والنوازع الذاتية، التي تشوه التراث لإيجاد أمثلة تدعم أفكارهم المسبقة بتفوقهم العرقي.

ولذلك لابد من البحث عن أساليب علمية تناسب بيئتنا وتراثنا، لتوظيف هذا التراث لمصلحة الإنسان و الوطن.

وهذا ما جعل كتابات الرحالة الأوربيين مصدرا مهما من مصادر دراسة التراث والتاريخ

الأفريقي ، و قد صورت بحسب المراحل التاريخية المشار إليها آنفا طبيعة العلاقة بين الشرق

---

[1] . ج.ت.ف.هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ،ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، المطبعة الكاثوليكية،بيروت،لبنان 1983،ص 174.

[2] .J.E.Harris :africans and their history .NeWyork, 1972, p 16.

والغرب و زخرت بالعديد من المعارف المتنوعة: ديني، و اقتصادي، و سياسي، و تاريخي وجغرافي، و أدبي و اجتماعي...و غير ذلك مما يجعلها مصدرا للعديد من الباحثين مختلفي الاختصاصات ، و على الرغم من الجوانب الايجابية التي لا يمكن اهمالها فقد سجل على هذا النوع من التدوين جوانب سلبية - كما توصلت إليه هذه الدراسة - ، كان من أبرزها ارتباط معظم الرحالة بمؤسسات دينية أو سياسية استعمارية، كذلك عدم قدرة هؤلاء على التخلص من الأفكار المسبقة، التي تحمل تراكمات مراحل الصراع المرير بين الشرق و الغرب، فالمعرفة التي قدّمها المرتحل، خضعت لشخصيته و تكوينه الثقافي و الديني و الاجتماعي، لذا تتطلب عملية كشف خفاياها المعرفية، فهما و تصوّرا شاملا للأوضاع المحيطة بأحداث الر حلة، ابتداء من شخصية كاتبها، و حتى طبيعة العلاقات السياسية و الاقتصادية الدولية أو الإقليمية على أقل تقدير [1] .

---

1. حيدر جاسم الرويعي :المرجع السابق، ص 17.

المبحث الثاني:الإطار التاريخي :. عوائق البحث في تاريخ التراث الإفريقي[1] :

«...لا يمكن أن يكون هناك تاريخ جديد إلا بإعداد كبير للوثائق التي تجيب عن تلك الأسئلة التي يطرحها الباحثون ، و ليس بإمكان العمل الحرفي الاعتيادي لدى المؤرّخ أن يكون على مستوى تطلّعات المختصين .

ومن ثم فإنه لا خلاص بدون اللّجوء إلى طرق العمل الجماعية في البحث، رغم ما تنطوي عليه من أخطار و ما يعترض سبيل ذلك الحل من عوائق.

لعلّنا لا نبوح بسرّ إذا قلنا إن إفريقيا جنوب الصحراء لم يجمع تراثها حتى الآن ، بل ولم يشرع في خلق الظروف الكفيلة بتحقيق تلك المهمّة على الوجه الأكمل – ولو على المدى المتوسط - رغم مضي نصف قرن على ميلاد الدولة المركزيّة المستقلّة .

و هكذا فإن الباحث في هذا التاريخ تعترضه عوائق جمّة ، أقتصر في هذا البحث ، المحدود في طموحاته و وسائله ، على ما يتعلّق منها بالمصادر و ما يتعلّق بالمنهج .

و على هذين الصعيدين سنقتصر على إبراز أهم العقبات وأنجع السبل الكفيلة - في رأينا- بتذليلها، وسنتناول أولا المصادر و ما تطرحه من مشاكل عامة مثل تحديد طبيعة تلك المصادر و تصنيفها [2] حسب العصور و اللغة و غيرها قبل استقرائها استقراء نقديا.

تتمثّل ركائز المعرفة الثقافيّة – في عصرنا الحاضر- في ثلاثة مصادر رئيسية هي الوثائق المكتوبة ، و علم الآثار و الرواية الشفهية ، و يدعم تلك المصادر الثلاثة علم اللّغات وعلم الأجناس البشرية اللذان يمكنان من تمييز و تعميق تأويل المعطيات التاريخية .

فالمصدر المكتوب تعبير مطّاط إلى درجة الإبهام، فإذا ما قصد بالمصدر الكتابي ، كل ما يوصل الصوت و الحس، فإن ذلك يشمل الشاهد الكتابي و الرسوم المحفورة في الحجر و في الصخر أو في قطع النقود.

---

[1]. قدم هذا البحث لندوة اتحاد المؤرخين العرب حول إعادة كتابة التاريخ العربي المنعقدة في بغداد من 27 إلى 30 ديسمبر 1987 ، و نشر في مجلة الوسيط، العدد 2 /1987 (28 -43) الصادرة عن المعهد الموريتاني للبحث العلمي.

[2]. مهدي ساتي: معالم الجذور التاريخية لحضارات الهوسا وإنعكاس ذلك على حركة الشيخ عثمان دان فوديو،الندوة العالمية للأحتفاء بالمجاهد الشخ عثمان دان فوديو،منشورات جامعة إفريقيا العالمية،الخرطوم ،السودان،1995، ص 162.

و باختصار كل رسالة تحفظ اللغة والفكر بقطع النظر عن حاملها ، و دفع توسيع هذا المفهوم ببعض الباحثين [1] إلى إقحام العملة والعمران وسائر العلوم المساعدة التي صارت في الواقع مستقلة عن دائرة النص المكتوب في هذا الميدان، و بحكم طبيعة بلادن إفريقيا جنوب الصحراء ، فإنه ينبغي الاقتصار على ما هو مكتوب على الورق أو منقوش على الحجارة أو غيرها .

أما الحفريات التي أصبحت تقنياتها اليوم ميدانا للتعاون بين مختلف العلوم الطبيعية والإنسانية ، ووسيلة في عالم اليوم لمعرفة مختلف الفترات حتى القريبة منا جدّا ، فلم يقم حتى الآن إلا بأعمال محدودة في الزمان و في المكان، و مع ذلك فإن نتائج أعمالهم و ما تلاها من دراسات، تسد ثغرات في المصادر التاريخية لأفريقيا جنوب الصحراء.

و بالنسبة للرواية الشفهية التي تطرح –رغم أهميتها لتاريخ بلاد إفريقيا جنوب الصحراء - مشاكل جدّ دقيقة إذا ما روعيت فيها المعايير المنهجية التي حدّدها جان فانسينا J.Vasina [(2)] في أطروحته الشهيرة: في التقاليد المروية، فلم يجمع شتاتها حتى الآن مع تقديرنا للجهود التي بذلها باحثين كثر، و مع ذلك فقد وفرت هذه الجهود مادة خام غزيرة للبحث بحاجة إلى أن يتصدّى لها الباحثون و يطبقوا عليها القواعد المنهجية الحديثة ويخلقوا الوسائل الكفيلة بصيانتها وتوثيقها على أسس سليمة.

---

[1]-أنظر:هشام جعيط: "المصادر المكتوبة السابقة للقرن السادس عشر"، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الأول، جين أفريك- اليونيسكو، باريس، 1983، ص 3.

[2] . راجع في هذا الصدد:

-J. Devisse, D, et S,Robert: Tagdaoust, recherches sur Aoudaghost, Paris, AMG,1970.
-C. Vanacker: Tagdaoust II: recherches sur Aoudaghost, Fouille d'un quartier artisanal, Mémoires de l'IMRS, Nº2/ 1979.
-J. Devisse, D, et S,Robert: Tagdaoust III : recherches sur Aoudaghost : Campagne 1960-65 :Enquétes générales, Ed. Rech. Sur Les Civilusations, Mém Nº 25.
-J. Polet: Tagdaoust IV:Fouille d'un quartier medieval d' Aoudaghost, Ed. Sur Les Civilus , Mém N 54.
-GéorgeHugot : Tichitt(Aouker) ; Eléments pour servir á une étude géomorphologique.
-Sylvie Amblard : Tichitt-vvalata(RIM) :CIVIL. et indust. Lithique Ed. Sur Les Civil ,Mém Nº 35 ,Paris 1984 .
-Robert vernet: la Mauritanie des origins au début de l'histoire, Université de Paris I 1983 ,3 vol.
-J. Vansina : De la tradition orale : Essai de méthode, Terveren 1961, Mémoire Nº 36. du Musée-3 royal d'Afrique Centrale.

و تطرح مسألة جمع التراث في إفريقيا إشكالية منهجية عويصة بحكم كون هذا التراث لم يجمع بعد وأي محاولة تكون بالتالي صعبة ومادامت الضرورة تبيح المحظور، فيضطرنا مستوانا المعرفي الراهن إلى التّحاسر على اقتراف ذلك التجاوز المنهجي و تقسيم أفريقيا جنوب الصحراء إلى فترات تاريخية متميّزة هي:

- العصور العتيقة التي تنتهي بوصول الإسلام في القرن 6 ه/11 م.
- الطور الإسلامي الأول القرن 6 ه/11 م إلى القرن 8 هـ/13 م.
- الطور الإسلامي الثاني: من القرن 8 هـ/13 م إلى القرن 10 هـ/16 م.
- الفترة الحديثة : من القرن 10 هـ/16 م إلى القرن 13 هـ/19 م.
- الفترة المعاصرة: من القرن 19 إلى اليوم.

وتتمثّل نهاية العصور العتيقة في انتشار الواقع الإسلامي بما يمثّله من قطعة تدريجية و عوجاء مع ما قبل التّاريخ، و يمثّل الطور الإسلامي الأول طور تنظيم منطقة أفريقيا جنوب الصحراء في بيانات سياسية على النمط الإسلامي و انتظام العلاقات مع باقي دار الإسلام، بينما يمثّل الطور الإسلامي الثاني تحوّلا حضاريا عميقا[1] تمثل في ظهور حركة المرابطين التي طبعت المنطقة بطابعها المتميّز إلى اليوم و ما نجم عنها من تحولات إجتماعية وثقافية وسياسية، و تكثف العلاقات التجارية عبر الصحراء ، و هكذا توثّقت منذ القرن الحادي عشر الميلادي علاقات مستمرة مع العالم الإسلامي، و لاسيّما في الحقلين الديني و التجاري، فتكثّفت مصادرنا الوثائقية كمّا و كيفا ، وإن كانت ظلت شحيحة على المستوى المحلي ومتقطّعة في الزمن على المستوى الخارجي، و أكثر المعلومات في هذه الفترة من الحواضر الكبرى بحكم الطابع الصحراوي مناخيا و اقتصاديا واجتماعيا.

و امتازت الفترة الحديثة بتوافر النصوص المحليّة ابتداء من القرن 16 م و ظهور أول الكتابات الأوربية عن المناطق الساحلية.

---

[1]. حسن أحمد إبراهيم: بلاد السودان الغربي و الأوسط في المصادر الإسلامية،مجلة آفاق الإسلام، بيروت، لبنان، العدد 44، جانفي 2003، ص 130.

و استمرّت تلك الوضعيّة في الفترة المعاصرة التي امتازت بتوافر و تنوّع مصادرنا المحلية و تكاثف المصادر الأوربية عن المنطقة و تنوّعها بشكل لم يسبق له مثيل.

و إذا كانت وفرة المصادر في تلك الفترتين من شأنها أن تطمئن الباحث في التاريخ الحديث و المعاصر للبلاد و تحفّز همّته، فإنه سرعان ما يصاب بخيبة الأمل و ثبوط الهمة عند ما يشرع جدّيا في البحث و يصطدم بواقع تلك المصادر.

و قام المجلس الدولي للتوثيق بإشراف اليونسكو و بدعمها الأدبي و المالي بإعداد سلسلة من الأدلة لمصادر تاريخ جنوب الصحراء تشتمل على 11 مجلدا تمدّنا بقائمة المصادر الوثائقية المحفوظة في بلدان أوربا الغربية و الولايات المتحدّة الأمريكية، و يخص كل مجلّد من هذه المجلّدات بوثائق الأرشيف في كل دولة من تلك الدول.

و هكذا فإن المجلّدين 3 و 4 من هذه السلسلة يختصّان بالمصادر الفرنسية و يكتسبان أهمية كبرى بالنسبة لنا لشموليّتهما و دقّة إعدادهما المنهجي.

غير أن الفترة السابقة للاستعمار المباشر في أفريقيا جنوب الصحراء لا يمكن الاطلاع على الوثائق المتعلّقة بها إلا ضمن ملفات "السينغال و توابعها" Sénégal et Dépendances بحكم طبيعة الوجود الفرنسي منذ أن أصبحت سانت لويس مركزا لقيادتها [1].

و تبقى مصادر تاريخ أفريقيا الموجودة في خزائن الوثائق الإنجليزية والبرتغالية الهولندية شبه مجهولة -إن لم أقل مجهولة تماما– بالنسبة لنا.

فالحواجز اللغوية ، والتّشتت بين مختلف مراكز التوثيق في تلك البلدان الأوربية وعدم القيام إلى حدّ الآن بأي عمل لاسترجاع نسخ من تلك الوثائق كلها عوائق تعترض سبيل الباحث في تاريخ أفريقيا و تترك مناطق ظل هامة في هذا التاريخ.

و لا نعلم الكثير من إمكانية وجود مصادر في الأقطار العربية من شأنها أن تساعد في تسليط الضوء على جوانب من تاريخ المنطقة و علاقاتها مع تلك الأقطار الشقيقة باستثناء ما هو

[1]. علي بدوي علي سليمان: الطريقة القادرية والأستعمار الفرنسي في موريطانيا (1903-1960)، رسالة ماجستير،معهد البحوث والدراسات الأفريقية ،جامعة القاهرة ، مصر ،2003، ص 34.

موجود بمراكز التوثيق بالمملكة المغربية ، و بالنسبة لهذا البلد الشقيق الذي تربطنا به تاريخيا أكثر من رابطة ، فإن معلوماتنا مقصورة على ما تحويه الخزانتان الملكية والعامة بالرباط و خزانة القرويين بفاس (دون سواها من مراكز التوثيق المغربية الأخرى الهامة بالنسبة لنا مثل الخزانة الملكية في مراكش و مراكز التوثيق العامة و الخاصة في تارودات بحكم الموقع الجغرافي و الصلات التاريخية بالمنطقة) من مؤلفات أفريقية محضة [(1)] ناهيك عن الوثائق المغربية التي تتناول في هذا الجانب أو ذاك من تاريخ المنطقة و علاقات شعوبها عبر التاريخ.

و في هذا الإطار يجب أن تتجه أنظارنا نحن الباحثين الجزائريين بوجه خاص اليوم إلى جمع تراث المناطق الحافة لبلادنا التي ظلت على الدوام مناطق اتصالات بشرية مكثفة و نقاط تلاقح حضاري ثري، و نخص بالذكر من تلك المناطق إقليم شمال تمبكتو و المناطق المحيطة بها في جمهورية مالي الحالية شرقا، و منطقة حوض السينغال جنوبا وشمال النيجر وقداس في ليبيا.

و ينبغي إعطاء عناية خاصة لمنطقتي تمبكتو وغاو لا لإرتباطهما الوثيق تاريخيا و بشريا بالبلاد الجزائرية الحالية فحسب ، و إنما لكونهما شكلّتا عبر تراث مركز استقطاب للهجرات البشرية و الرحلات التجارية بعد تحوّل مركز الثقل التجاري من الغرب نحو الشرق في القرن 14 م و جسرا ثقافيا هاما غذى المنطقة الصحروااية بالمعرفة .

إلى أن انهارت المدينتان تحت ضربات الباشا جوذر في 1591 م حيث قامت هجرة معاكسة جديدة إلى الأراضي الشمالية [2] ، فدراسة تاريخ تلك المناطق من شأنها أن تسلط الأضواء على جوانب غامضة من تاريخ بلادنا ، و أن تعطينا حقلا خصبا للمقارنة في عالم أصبح التاريخ فيه بالدرجة الأولى تاريخا مقارنا.

و على المستوى الوطني فإنني أرى أنه من الضروري معهد متخصّص للدراسات الأفريقية لاعتبارات تاريخية و حتى سياسية بعدما تعرّضت المصادر و المراجع المحلية إلى نهب أو أتلفت

---

[1]. ذكر الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني أنه يوجد 300 مخطوط من هذا النوع في المكتبات المغربية منها 30 كتابا لأحد بابا التنبكتي (ت. 1626 م) و العدد نفسه تقريبا للشيخ سيد المختار الكنتي (ت. 1811 م)، و13 لابنه الشيخ سيدي محمد (ت. 1825 م) وحدهم راجع بهذا الخصوص: و قد اطلعت بعينين على جزء هام من تلك المخطوطات
“Les manuscrits de l’occident musulman »¸in : **Hépéris-Tamuda**، vol. lx¸ 1963(57-63).

[2].محمد أنور توفيق أبو علم : دولة سنغي الإسلامية –تطورها الاقتصادي والاجتماعي والحضاري(1591/1493)- رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ،جامعة القاهرة ،مصر ، 1977، ص 134،133.

أو تناثرت بين الخزائن.

و لتلك الوضعية ما يسوّغها من الناحيتين الموضوعية و الذاتية في بلدان لم يشهد تاريخها الطويل سلطة مركزية قبل الاستقلال، فالبنية العشائرية للمجتمع الأفريقي و ظاهرة الترحال بحثا عن الماء و الكلأ، و ظروف الصحراء القاسية كان لها أكبر الأثر في عدم الاعتناء بالتوثيق ولاسيما في مجالات التاريخ (وبالذات الاقتصادي والاجتماعي) الذي لم يكن يدخل في الاهتمامات الأساسية لفئة الزوايا القائمة على تلك المهمّة في المجتمع الأفريقي.

و هذا من شأنه أن يحُدَّ من إدراكنا للديناميكية الداخلية لهذا المجتمع في كل أبعادها بعد أن أصبح التاريخ في عالم اليوم ، تاريخ بنى و تنظيمات وليس تاريخ وقائع أوعائلات واشخاص (رجال علم و دين أو أمراء....) ، أو وقائع حروب ووفيات وأحداث سنين نثرية أو نظمية وفي أحسن الحالات تدوين نوازل في عموم البلاد أو معاملات في المراكز القروية المحدودة أو مراسلات ، و نصوص أدبية حول هذا الموضوع أو ذاك يقوم بها أفراد من فئة واحدة من فئات المجتمع (الزوايا) لها منظورها الخاص للأمور إما بدوافع قبلية أو سياسية أو من باب الاعتبار و الترف الفكري [1].

و لا غرابة في ذلك ما دمنا نعرف أن اهتمام المسلمين الأوائل بالتاريخ متولّد من اهتمامهم بعلم السيّر و الأنساب الإسلامية ، فكان بالتالي وسيلة و لم يكن غاية ، و نورد في هذا السياق ما جاء على لسان عبد الرحمن السّعدي (ولد سنة 1004 هـ/1596 م وكان حيا في 1066 هـ/ 1655 م) في كتابه تاريخ السودان متحدثا عن نوعية التاريخ المتداول في المنطقة و ما عرفه التأليف التاريخي من تدهور آنذاك في وقت كانت تمبكتو قد بدأت مسار انحطاطها الفعلي ، حين قال: «..فقد أدرك أسلافنا المتقدمين أكثر ما يتآنسون فيه في مجالسهم ذكر الصحابة و الصالحين رضي الله عنهم و رحمهم ، ثم ذكر أشياخ بلادهم وملوكهم وسيّرهم وقصصهم وأبنائهم وأيّامهم و وفياتهم ، و هو أحلى ما يرون وأشهى ما يتذكرون حتى انقرض ذلك الجيل و مضى رحمة الله تعالى عليهم ، و أما الجيل الثاني ما كان فيهم من له الاعتناء بذلك و لا يقتدي بطريق

---

[1]. شعيب حليفي : الرحلة المغربية إلى أوربا النص والصورة،أعمال ندوة الرحالة العرب والمسلمون- المغرب منطلقا وموئلا ،مطبعة، النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب،نوفمبر2003، ص 103.

السلف الماضين و لا من له همة عالية في وجوه البر كلهم و إن كان فاعله ينعدم و ينحصر و لم يبق إلا من له همة سفسافية من التباغض والتحاسد و التدابر والانشغال بما لا يعنى من القيل والقال والخوض في عيوب الناس و الافتراء عليهم.... »[1] .

و رغم هذه اللوحة شبه القاتمة للمصادر التاريخية في أفريقيا جنوب الصحراء ، فإنه يمكن الاطمئنان إلى وجود مادة تاريخية ثرية في شكلها و مضمونها وخاصة بالنسبة للفترتين الحديثة و المعاصرة، و إذا كان "التاريخ الأحداثي " يستحوذ على نصيب الأسد من هذه المادة التاريخية، فإن " التاريخ الصامت " يجد في فقه النوازل ووثائق المعاملات مصدرا ثريا لا يعوض في هذه المنطقة .

و بما أن المقام يضيق عن تناول تلك المادة التاريخية بالنقد والتحليل الضّروريين ، فسنكتفي هنا بما قدّمنا من ملاحظات عامة بهذا الخصوص لنلقي نظرة عجلى على طبيعة و حجم المصادر الخارجية.

تنقسم المصادر الخارجية إلى نوعين متمايزين من حيث اللغة و الفترة الزمنية : فهناك المصادر العربية التي لا تغطى بالأساس سوى جزء من الفترة الوسيطة من تاريخ البلاد ، و لاسيما ما أسميناه الطور اللإسلامي الثاني وهي عبارة عن كتب رحلات أو كتب جغرافية عامة، و تكاد تكون مصدرنا المكتوب الوحيد عن الفترة الإسلامية ، و أهم تلك المصادر بالنسبة للمنطقة هي: صورة الأرض لابن حوقل (ت.366 ه/977 م)، و المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبي عبيدة البكري (ت. 487 ه/1094 م)، و نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي (ت.458 ه/ 1156 م) ، و الأنيس المطرب بروض القرطاس .. لابن أبي زرع (ت.727 ه/ 1326 م)، و تقويم البلدان لأبي الفداء (ت.732 ه/ 1331 م) ، و مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري (ت.749 ه/ 1349 م)، و عجائب الأمصار في ممالك الأمصار لابن بطوطة (ت. 779 ه/ 1377 م)، و كتاب العبر لابن خلدون (ت. 808 ه/ 1406 م)، و الحلل الموشية في الأخبار المراكشية: مجهول المؤلف، ألخ...

---

[1]-السعدي: مصدرالسابق ، ص11.

أما النوع الثاني من المصادر الخارجية فهو الكتابات الأوربية المختلفة التي بدأت مع النصف الثاني من القرن الخامس عشر، و يمتاز هذا النوع من المصادر و التنوع والاستمرارية ، و إن كانت الفترة السّابقة للقرن 18 [1] لم تحظ بنصيب وافر من تلك المادة، و بصفة عامة يمكن تقسيم تلك المصادر الأوربية من حيث الشكل إلى ثلاثة أنواع نرتّبها على النحو التالي:

- وثائق المعاملات الخارجية.
- التقارير الإدارية.
- كتب الرحلات.

أما من حيث المضمون فهي (في نوعها الأخيرين) عبارة عن رؤية وحيدة الجانب للواقع ممّا يستدعى التعامل معها بنوع من الحذر و برؤية نقدية فاحصة، إذ تتألف في معظمها في الفترة السابقة للقرن 19، من تقارير و رحلات قام أصحابها بزيارة المنطقة لأغراض تجارية بالدرجة الأولى، فكتبوا عن عادات و تقاليد ونمط حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وعلاقاتهم بالأوربيين .

وعليه ، فإن هذا النوع من المصادر– مع تفاوت أهميته وتأرجحه بين الانفتاح والانغلاق [2] - يبقى إطلالة من الخارج على الواقع وعلى المجتمع ، يصعب الركون تماما إلى آراء أصحابها ، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار حاجز اللغة القائم في أغلب الأحيان ناهيك عن الحاجزين الاجتماعي و الروحي بين أوربيين مسيحيين ناهضين ومجتمع بدوي مسلم، كما أن بعض هؤلاء الرّحالة و الإداريين استقى معلوماته عن البلاد الأفريقية من سكان الممالك السنغالية المجاورة ولم يحتك مباشرة بسكان أفريقيا جنوب الصحراء ومن هنا كان تشويههم أحيانا للمعلومات (وحتى الأسماء) ورؤيتهم الحاقدة على السود الذين لم يكن تعاملهم معهم بدرجة السهولة التي لاقوها في الممالك السّياحية الزنجيّة فضلا عن ما يمكن أن يضفيه هؤلاء المخبرون من تشويهات على تاريخ أناس لم تكن علاقاتهم معهم ودية في كل الفترات ، و مع ذلك فإن هذا النوع من

[1]. قاسم وهب : المرجع السابق، ص 243.

[2].عبدالرحيم مودن:معجم التواصل في الرحلة المغربية السفارية أثناء القرن التاسع عشر، أعمال ندوة الرحالة العرب والمسلمون- المغرب منطلقا وموئلا ،نوفمبر 2003،ص ص443-444.

المصادر لا غنى للباحث عنه، لا لإشتماله على معلومات قيّمة أحيانا فحسب ، و إنّما لانعدام البديل عنه ، فهو يحتوي على كمية من التأملات و الملاحظات لا توجد فيما عداها لكون الكتّاب المحليين كانوا يعتبرون كثيرا من مظاهر الحياة عاديا وغير جدير بالاهتمام.

و من بين تلك المعلومات التي يوفّرها لنا النوع من المصادر محل الدراسة الإطار الزمني الذي نحن في حاجة أكيدة إليه، لاسيّما في الفترة السابقة للقرن 19، حيث يشكّل ضبط الزمن المؤرخ نقطة الضعف في الكثير من المصادر المحلية المكتوبة و في الروايات الشفهية عموما.

كما أن تلك الكتابات تعتبر مصدرا مهما للتاريخ الاقتصادي للمنطقة، إذ تتناول مسالك التجارة وأهم الأسواق والبضائع والأسعار والثروات الطبيعية والامكانات الاقتصادية ، فقد كانت حاجة الأوربيين التجارية تدعوهم غالبا إلى وصف تلك الأشياء بدون تحيّز وبموضوعية أكثر من غيرهم من مظاهر الحياة الأخرى التي وصفوها من منظورهم الحضاري الخاص، غير أن تلك المعلومات قد ظلت إلى نهاية القرن 18 مقصورة تماما –أو تكاد-على المناطق الساحلية من بلاد إفريقيا جنوب الصحراء بينما ظلت المناطق الداخلية من البلاد مجهولة بالنسبة للأوربيين حتى الاكتشافات المنظمة للمنطقة في القرن 19 و التي انتهت باحتلالها.

أما من حيث اللغة فيمكن تقسيم مصادرنا هذه إلى برتغالية في القرن الخامس عشر والسادس عشر، و هولندية و بروسية و فرنسية و إنجليزية في القرن الثامن عشر والنصف والنصف الأول من 19، و فرنسية محضة ابتداء من النصف الثاني من القرن 19.

و من الصعب أن تقوّم تلك المادة التاريخية بمجملها قبل أن ندرسها من كتب ونحلّل كل أثر على حدى ، غير أن الانطباعات الأولية التي تكونت لدينا عن بعض تلك الآثار تمكننا من القول بأن الكتاب البرتغاليين ، كانوا أميل إلى النظر إلى الشعوب التي يصفونها من زاوية الآراء المسبقة المسيحية أكثر مما كان عليه الإنجليز مثلا، وأن الهولنديين كانوا أقدر على الملاحظات الموضوعية من غيرهم من الكتاب الأوربيين ، وأن الكتابات الفرنسية السابقة للقرن 19 أكثر تجردا مما تلاها وإن كانت الذات المركزية الأوربية تطبعها بوجه عام، و نؤكد مجددا على أنه لا ينبغي التعميم السريع و إصدار الأحكام القطعية بشأن تلك المادة التاريخية الغزيرة قبل دراستها

دراسة نقدية فاحصة ما يزال الحاجز اللغوي من أهم العقبات التي تحول دونها.

و في القرن 19، تراجعت روايات السياح إلى مستوى ثانوي أمام مصادر أكثر موضوعية مثل وثائق الأرشيف من معاهدات ومراسلات وإحصائيات ووثائق معاملات وصحف وغيرها من المصادر الأولية الثمينة وشهادات العيان التي تمكن المؤرخ من استعمال الطرق الدراسية الدقيقة المستعملة في دراسة التاريخ و توجد المادة الوثائقية في مراكز التوثيق الفرنسية التالية:

-خزانة الوثائق الوطنية الفرنسية Archives Nationales de France Sénégal ضمن ملفات Ancien: Anciennes Colonies C6(C6.1-C6.35)

Archives de la Marine (Col F3 et 4JJ)

-أرشيف فرنسا لما وراء البحار Archives de la France d'Outre-mer

ضمن ملفات Dépôts de Fortification Colonies (D.F.C) و تضم 191 ملفا تغطي الفترة الممتدة من 1670 إلى 1879.

-المراسلات العامة: Sénégal1: Correspondances Générales وتضم 118 مجلّدا تتناول المراسلات بين ولاة السنغال و وزراء البحرية و المستعمرات الفرنسية.

Sénégal 11: Mémoires généraux¸Publication et exploration Sénégal 1V: Expansion territoriale et politique indigéne

-التوسع الترابي و السياسة الاستعمارية في المناطق المحتلة، و هناك العديد من الملفات الأخرى ضمن هذه السلسة من أهمها ملفات SENEGAL XIII ، و توجد مختلف هذه الوثائق تحت العنوان العام: السينغال و توابعه Sénégal et Dépendances

-خزانة وزارة الخارجية الفرنسية:

Dépôts de Ministère des Aff. Etr.(Quoi-d'Orsay) :

- Mémoires et Document: Afrique10 à 12

-Les Correspondances Politique: Série Angleterre¸ Hollande et Portugal

-المكتبة الوطنية بباريس Bibliothèque Nationale de Paris التي يحتوي قسم المخطوطات العربية منها على كمية كبيرة من المخطوطات الموريتانية النادرة جدّا وعلى مجموعات من التقارير الفرنسية عن المنطقة تتعلق بالفترة السابقة للقرن 18 م.

و توجد دراسة تحليلية وافية لمحتويات الأرشيف الفرنسي في المجلدين 3 و 4 السالف الذكر من مصادر تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء عن المجلس الدولي للوثائق بإشراف اليونسكو(1)

و إذا ما قارنا أهمية الأرشيف الأفريقي بأهمية الأرشيف الفرنسي بالنسبة لتاريخ أفريقا جنوب الصحراء نجد أن الأرشيف الفرنسي يحتل المرتبة الأولى من حيث غزارة مادّته التاريخية و درجة صيانتها ، بينما يأتي الأرشيف الأفريقي في المرتبة الثانية لحداثة تكوينه حيث تعود وثائقه الأساسية إلى النصف الثاني من القرن 19.

أما الأرشيف الأفريقي فيغطي أساسا فترة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين دون سابقيها لكنه غني جدا بالنسبة لتلك الفترة الحساسة في تاريخ المنطقة وعلاقاتها مع القوى الأوربية المتصارعة على المصالح الاقتصادية و المتطلّعة جدّيا إلى التوسّع و الهيمنة في منطقة شمال غرب أفريقيا.

و بعد أن رأينا أهم العوائق المتعلقة بالمصادر يجدر بنا أن نلقي نظرة على العوائق المنهجية التي يعاني منها الباحث في التاريخ الأفريقي و نصرح بادئ ذي بدء بأننا لن نعمد إلى حصر تلك العوائق و إنما سنكتفي بإعطاء نماذج متنوعة منها واقتراحات من شأنها أن تساعد في تذليل أكثرها إلحاحا.

يمكن تقسيم **العوائق المنهجية** التي تعترض سبيل الباحث في التاريخ الأفريقي من حيث

---

[1]. Guide de sources de L'Histoire de L'Afrique¸ Vol 3 & 4: sources de L'Histoire de L'Afrique au sud du Sahara dans les archives et Bibliothèques françaises.
T. I- Archives françaises
T. II- Bibliothèques et Dépôts divers.
Inter documentation company-ag zuq-switzerfand¸ 1971.

طبيعتها إلى نوعين أحدهما يتعلق بالمادة التاريخية نفسها(المصادر) والآخر بطرق ووسائل استغلال تلك المادة.

فمن حيث المادة ، يعاني الباحث كثيرا من انعدام المصادر المكتوبة في الفترة السابقة للفتح الإسلامي في القرن الثاني الهجري مما يجعل ملجأه الوحيد هو الشواهد المادية التي ما تزال صامدة أمام عوادي الزمن ، و علم الآثار الذي مر بنا ما يعانيه من نقص في أفريقيا جنوب الصحراء و ما يتطلبه من وسائل علمية و مادية غير متوفرة ، كما أن معظم الآثار المادية زالت بفعل عوامل التعرية و الطبيعة الصحراوية ، و هذه الوضعية توقع الباحث في ورطة منهجية كبيرة: فهو إما أن يتجاهل تلك الفترة الهامة من تاريخ المنطقة و ينطلق في دراسته من الفترة التي تتوفر لديه المعلومات عنها فيكون تاريخه مبتورا و أسسه واهية ، أو يعتمد على المعطيات الجزئية المحدودة في الزمان و المكان المتوفرة لدينا فيبني على أسسها أحكاما شمولية فيقع في خطأ التعميم الفادح انطلاقا من معطيات جزئية .

كما تجدر الإشارة إلى أن الفترة الفاصلة بين نهاية عهد المرابطين[1] في الصحراء وانتشار الهجرة الحسانية فيها و بداية الحضور الأوربي على سواحل المنطقة في القرن 15 م ، تعاني –هي الأخرى- من نقص ملحوظ في المصادر التاريخية بالمقارنة مع الفترتين السابقة و اللاحقة .

كما أن وفرة المصادر النسبية في الفترتين الحديثة و المعاصرة تحف بها مخاطر البلبلة إذا لم تصنف تصنيفا علميا صحيحا بأسلوب نقدي مقارن دقيق. و هذا المشكل مطروح بالنسبة

---

[1]. درج المؤرخون قديما و حديثا على اعتبار وفاة أبي بكر بن عمر في 480 ه/ 1087 نهاية وجود المرابطين السياسي في الصحراء.و مع أننا لا نتوفر على المعطيات الكافية لنفي ذلك الحكم حاليا قاطعا ، فإننا نرى ضرورة التّحفظ من أخذه كمسلمة تاريخية. فنحن نعتقد أن سلطة المرابطين في ا لصحراء لم تتلاش نهائيا بوفاة أبي بكر ، و إنما صد المؤرخون العرب –و هم مصدرنا الوحيد عن تلك الفترة- عن الحديث عنها لجملة أسباب منها عظمة الدولة التي سيّدها ابن تاشفين في الشمال و انتصاراته على حروب الاسترجاع Reconquista في الأندلس.و إذا كان نظم محمد امبارك المتوني لسلسلة أمراء دولة المرابطين في الصحراء ابتداء من أبي بكر مازال لغزا يصعب فك رموزه و الركون إليه ما لم تتوفر معطيات جديدة تجلى غوامضه، فإن ما أورده ابن بسام في ذخيرته في معرض ترجمته للإمام الحضرمي(ت. 489 ه/ 1095 من شأنه أن يحملنا على التحري واتنسيية في أحكامنا و أن يحفزنا إلى البحث و التنقيب عن مآل الحركة بعد أبي بكر. فقد جاء في تلك الترجمة ما نصه: "...ثم كر إلى أمراء المرابطين بالمغرب فانخرط في أسلاكهم، و عرض بنفسه على أملاكهم، ووقع آخر منهم إلى محمد بن يحي بن عمر (خ / منا) فاقتعد صهوة منبره، و ولي قضاء معسكره، و أخذ ينحد و يغور، و طفق يدبر و يدير، و إنما أراد أن يسلك في حمل دولة المرابطين مسلك عبد الله بن ياسين، و لم يدر أنها الدار محتوم، وحظوظ مقسومة، فلم يحصل إلا على بعد السفر و انقطاع البين و الأثر، و توفي رحمه الله بدكولي من بلاد الصحراء (ج. 7 / 364).

لمختلف مصادرنا، محلية كانت أو أجنبية، نظرا لتنوعها و تعدّد مشارب أصحابها و أغراضهم، و اختلاف بيئاتهم السياسية و الاقتصادية والاجتماعية و الثقافية.

و يزيد غياب الدليل الوثائقي المحكم الإعداد- المشار إليه أعلاه- هذا المشكل صعوبة و تعقيدا و لاسيما بالنسبة للمصادر المحلية و الجهوية المتعلقة بالرواية الشفوية [1] .

ومن هنا كانت مسألة إعداده ضرورة آنية لا تحتمل التأجيل. و هناك سوء توزيع تلك المصادر المكتوبة في الزمان و المكان و وحدانية جانبها في الكثير من الأحيان التي ألمحنا

إليها في بداية هذا البحث، و هذا المشكل يوقعنا –هو الآخر- في معوقات منهجية خطيرة شبيهة بتلك التي رأينا في الفترة القديمة ، غير أن حظوظنا في التغلب على هذا المشكل في الفترات الوسيطة و الحديثة و المعاصرة أكثر منها في الفترة القديمة لما توفره المصادر الأخرى –من روايات شفاهية، و لغة، و علم آثار و غيرها من الشواهد –من امكانات للمقارنة و النقد و سد الثغرات. و تطرح مصاعب استغلال الشواهد التاريخية التي تعتبر مشكلا منهجيا تقليديا، مشاكل إضافية بالنسبة لنا.

فهناك العمل الفني المتمثل في ابراز الوثيقة في شكل قابل للاستعمال ، و هو عمل يمر بمراحل أساسية ثلاث هي:

-**البحث عن الوثيقة** الذي هو الخطوة الأولى من عمل المؤرخ و المتضمن وصفها وتفسير غامض كلماتها و ايحاءاتها حسب مدلولها في عصر كاتبها.

- **تحليلها** المتمثل في ابراز أهميتها بالنسبة للمؤرخ و انتقائها من بين مختلف النصوص الأخرى، و ربطها بمحيطها التاريخي في كل أبعاده الثقافية و الاقتصادية والاجتماعية و السياسية.

- **استخدامها**، و هو عمل فكري معقد و مضن إذ يتناول مقارنة محتواها مع كل ما تفيده المصادر التاريخية الأخرى من معطيات بغية نسج خيوط تطور تاريخي ما وتلعب المهارة الفنية و الحدس دورا كبيرا في عملية الاستغلال تلك التي على أساسها يستطيع المؤرخ اختبار

---

[1]. مهدي ساتي: المرجع السابق ، ص 161.

فرضيات عمله. أضف إلى ذلك ما يكتف الشواهد من التباسات و صعوبات تحول غالبا دون قراءتها قراءة جيّدة، فضلا عن تفاوت قدرات و أغراض القراء. و هنا ينبغي التنبيه إلى أن المصادر لم تستنطق بعد بشكل عام[1]، و ما تم استغلاله منها في الفترة الاستعمارية بحاجة إلى قراءة جديدة لتطهيره مما ألصق به من أحكام مسبقة و إضفاء طابع المسيرة الداخلية عليه، بحكم كون كتابة تاريخ مجتمع ما من الخارج تظل-مهما كان حسن نية أصحابها و كفاءتهم العلمية- كتابة ناقصة إلى حد كبير. فعلى الدارس لهذه النصوص أن يراعي المحيط الثقافي الذي أفرزها ومميزاته العامة و مدلولاته و أشكال تعبيره، و بكلمة واحدة الإطار المرجعي للثقافة الأفريقية.

و مادام التاريخ ليس سردا للأحداث و إنما هو تحليل لهذه الأحداث و تفسير لها و ربط الأسباب بالتاريخ، فإنه من الضروري –في دراسة تلك النصوص- تجاوز "تاريخ الخبر" بحكم كون المؤرخين لهذا الخبر لهم منظورهم الخاص الذي يتحكم في شكل و مضمون ما ينقلونه من معلومات لأن تأويل المسكوت عنه أهم من الأخبار المروية. و لعل المشكل الكبير الذي يعانيه المؤرخ الأفريقي في هذا المجال لا يتمثل في صعوبة استغلال تلك المصادر في كتابة تاريخ بلاده فحسب، و إنما الكشف بالدرجة الأولى كذلك عن تلك المصادر و جمعها و تصنيفها بشكل دقيق و شامل و نقدي حسب التقنيات المتعارف عليها في البحث التاريخي المعاصر. كما يشكل تحقيق و نشر تلك المصادر خطوة منهجية هامة و لا سيما كتب التاريخ الإخباري الأساس و كتب التراجم لأن ذلك من شأنه أن يمكن الباحثين من الإطلاع عليها و استغلالها من جهة، و من اكتشاف مصادر جديدة تساعد في تذليل عوائق البحث المنهجية المتعددة من جهة أخرى.

يضاف إلى ما تقدم غياب الخرائط و الأطلس التاريخية الدقيقة و المعاجم اللغوية المبنية على أسس تاريخية بوصفها ضرورة لا غنى عنها لدراسة المصطلحات و تطورها التاريخي[2] .

و هذا النقص الذي لا تعاني منه أفريقيا جنوب الصحراء و إنما تعاني منه كذلك الساحة العربية عموما يؤدي إلى تداخل المعاني و ما ينجرّ عنه من عدم الدقة في استخدام المصطلحات.

---

[1] .Abdel-rahman ahmed osman:islam in africa , islamic african centre , depertment of research and publications,khortoum,1991,p33.

[2]. جاك مندلسون : الرب والله وجوجو –الأديان في إفريقيا المعاصرة ، ترجمة إبراهيم أسعد محمد ، دار المعارف ، القاهرة، مصر ، 1971،ص185.

و هناك غياب إطار لتبادل المعلومات والتجارب و المناظرات الهادفة إلى تعميق البحث و إعمال الفكر نظرا لعدم وجود إطار تنظيمي للباحثين عموما –و في الحقل التاريخي خصوصا- حتى الآن، و عدم توفر وسائل النشر محليا وانعدام المحلات المتخصصة فضلا عن كون التعليم العالي في الجزائر بعيدا إلى وقت قريب من الساحة الأفريقية و لم تترسّخ أقدامه بعد فيها.

و يدخل في الإطار نفسه قلة العاملين في حقل البحث التاريخي الأفريقي و ندرة التخصص فيهم، الشيء الذي شأنه أن يوسع دائرة اهتمام الموجود منهم و يحول دون ملء الثغرات في حقل الاهتمام الرئيسي لكل واحد منهم، فضلا عن الافتقار الشديد إلى محيط ملائم للبحث العلمي ، و عن القيود الاجتماعية و الفكرية والسياسية و غيرها من العوائق الإبستيمولوجية المختلفة التي لا يمكن للبحث العلمي أن يتطور في ظلها. فالتّحلي مثلا بأدنى حد من الموضوعية لدى الباحث في التاريخ الأفريقي و لاسيما الحديث منه و المعاصر الذي ما تزال الذاكرة الشعبية تحتفظ ببعض الذكريات الغامضة عنه - يثير أكثر من حساسية و شبهة لدى البعض. فكل قبيلة (وحتى كل جهة) منظورها الخاص الذي تصبغ به الأحداث و رواياتها التي تعتبرها " الحقيقة التي لا غبار عليها " و تطمرها في هالة من القداسة تعرض الطاعن فيها إلى مختلف النعوت .

و إذا كنا قد ركزنا في هذا العرض الموجز على تشخيص الداء دون اقتراح الدواء و فاء لطبيعة الموضوع المتناول و للقيود المنهجية التي فرضناها –عن وعي- على أنفسنا في بدايته، فقد آن الأوان لأن ندلي بتصور جد متواضع نأمل أن يساهم في تذليل أهم العقبات التي اعترض سبيل الباحث في تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء و أن نحفز، بوجه خاص، همم العاملين في هذا الحقل إلى الشعور بالمسؤولية التاريخية تجاه الواقع المر المشخص أعلاه، و إلى ضرورة الوعي الحضاري بأهمية الكشف عن تراثنا الثقافي الدفين و توظيفه بصفة واعية في إعادة نسج خيوط ماضي هذا البلد هذا الماضي المشتت في كتب التراجم و النبذ و الحوليات التاريخية و الكنانيش و وثائق نوازل و المراسلات الخاصة و النوازل الفقهية و النصوص الشعرية و الشواهد المادية و الروايات الشفهية على الصعيد الداخلي ، و التقارير و المراسلات و وثائق المعاملات التجارية و كتب الرحلات على المستوى الخارجي.

و نعرض فيما يلي تصورنا لعلاج المشكلات المثارة أعلاه تبعا لتسلسل العرض حيث سنبدأ

بالمصادر و تنتهي بالمنهج.

عرفت "صحراء الملثمين"[1] ، التي أصبحت تعرف منذ مطلع هذا القرن باسم موريطانيا ، الكتابة قديما و حققت اكتفاءها الذاتي في مجال المعرفة ابتداء من القرن 16 م على الأقل.

و عليه، فإن بلاد أفريقيا لها تراث مهم و متنوع، وإن المشكل الكبير ليس انعدام المصادر و إنما الجهل بها وتشتّتها في الداخل والخارج وعدم استغلال المتوفر منها ، وهكذا ، فإن أولى الخطوات التي يجب القيام بها على هذا الصعيد ينبغي تركز على:

1. القيام بعملية إحصاء شاملة للمخطوطات الأفريقية و تصنيفها و جردها و فهرستها. و هذه المهمة يجب أن تتعاون من أجلها كافة الهيئات المعنية بالثقافة في البلدان التي تهتم بتراث أفريقيا الإسلامي و غير الإسلامي و أن تتم تحت إشراف باحثين محترفين و أخصائيين في مجال التوثيق.
2. رصد جائزة وطنية سنوية لأهم وثيقة تاريخية غير معروفة لدى جمهور المختصين بغية اكتشاف مزيد من المخطوطات المنسية في ثنايا كنانيش الأفراد و العائلات و بين ركام مكتباتهم الخاصة المهددة بالضياع و الاندثار و هذا العمل يجب أن تصاحبه عملية تحسيس واعية بضرورة تكاتف جهود الجميع من أجل معرفة و صيانة و استغلال تراثنا الحضاري المهدد بالضياع، بالطرق الإعلامية المناسبة .

[1]. لم تعرف البلاد الموريطانية الحالية اسما جامعا قارا و إنما أسماء مختلفة تغلب على هذا الجزء أو ذاك في هذه الفترة أو تلك فقد عرفت باسم صحراء الملثمين في الفترة الوسيطة (بالمفهوم الأوربي) على يد أصحاب كتب المسالك و المؤرخين العرب القدامى. كما أطلقت عنها تسميات أخرى مثل بلاد التكرور على يد مؤرخي تيمبكتو وأصحاب كتب التراجم في ولائه من أمثال الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي (ت. 1219 ه/ 1804 م) في كتابه فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرو، و بلاد شنقيط التي أطلقها المشارقة العرب على المنطقة نسبة لمدينة شنقيطي التاريخية و قبلها أهل هذه البلاد عن رضى، و البلاد السائبة في معظم كتابات أهل القرن 13 ه/ 19 م مستخدمين كمرادف لها تعبير بلاد الفترة للتدليل على غياب السلطة المركزية و انتشار الفوضى، والمنكب البرزخي عند الشيخ محمد المنامي (ت. 1282 ه/ 1865)كتعبير عن توسط هذه البلاد بين المجتمعات ذات التنظيم المركزي شمالا و جنوبا، و تراب البيضان عند الجمهور الواسع من عامة السكان...
أما تسمية موريطانيا التي كانت تطلق قديما على بعض لأجزاء شمال أفريقيا و اختفت بعد الفتح الإسلامي للمنطقة ما بين 680 م و 710 م، لتطلق بموجب القرار الوزاري من وزارة المستعمرات الفرنسية الصادر في 27 دجمبر 1899 على المنطقة الممتدة بين الضفة اليمنى لنهر السينغال جنوبا، و الخط الرابط بين تمبكتو و خاي شرقا، و خط واصل بينجنوب الجزائر و الحدود الجنوبية المغربية حتى رأس جيبي S.Jiby شمالا ، قبل أن يتنازلوا للأسبان عن الجزء الشمالي من هذه المنطقة المعروف اليوم بالصحراء الغربية بموجب اتفاقية 29 يونيو 1900. و لم تعرف هذه البلاد كغيرها من رقع العالم الإسلامي القديم حدا ثابتا يفصل بينها و بين جيرانها إلا أنها تشمل عرفيا المجال الصحراوي الذي انتشرت فيه حركة المرابطين و تركت فيه آثارا حضارية واضحة و متميزة. ويشمل هذا الميدان خطا يبدأ من غرب تمبكتو شرقا، و وادي نون شمالا (ميدان انتشار اللهجة الحسانية الذي يضم أراضي خارج نطاق الجمهورية الإسلامية الموريتانية) و نهر السينغال جنوبا .

3. تشجيع أصحاب المكتبات الخاصة على صيانتها و مساعدتهم على تنظيمها وفهرستها.
4. تشكيل لجنة فنية من المختصين في مختلف مجالات العلوم الاجتماعية تقوم بوضع دليل ببليوغرافي شامل لمصادر التاريخ الأفريقي. و على المعاهد المتخصّصة في التاريخ الأفريقي و النهوض بهذه المهمة في أقرب الآجال.
5. الاسراع باسترجاع نسخ مصورة أو على شكل ميكروفيلمات من جميع الوثائق الفرنسية عن المنطقة المحفوظة في مراكز التوثيق الفرنسية و الأوربية.
6. التخطيط لتكوين مؤرخين و باحثين يتقنون اللغات البرتغالية و الهولندية والإنجليزية للقيام بعملية جرد لمصادر التاريخ الأفريقي في البرتغال و هولندا و إنجلترا.
7. القيام بجمع منهجي للتقاليد المروية و صياغتها صياغة مقارنة و تأليف وفق أحدث الطرق المنهجية المتبعة في هذا المجال من قبل أناس يدركون أهميتها ولديهم الوسائل اللازمة لجمعها وفهرستها و صيانتها.
8. وضع برنامج دقيق و واقعي على المديين المتوسط و البعيد، لعملية المسح الأثري للبلاد في مختلف الفترات التاريخية، يركز في مرحلة أولى على الفترات الغامضة. و ينبغي الشروع من الآن في خلق الظروف المادية و البشرية لهذا العمل الضروري و الشاق.
9. إعطاء عناية خاصة لتحقيق و نشر أمهات مصادر التاريخ الأفريقي و الأعمال ذات الطابع الموسوعي التي تشكل مادة خاما باللغة الأهمية للبحث التاريخي.
10. الاعتناء بصفة خاصة بجمع شامل للفتاوى و النوازل الفقهية في البلاد و تصنيفها و العمل على نشر ما يمكن نشره منها ، و ينبغي أن يتعاون على انجاز هذا العمل الحيوي المهتمون بهذا النوع الهام من المصادر من فقهاء و مؤرخين و علماء اجتماع.

و إذا كان هذا العمل قد يبدو طموحا و مكلفا من الناحية المادية، فإنه يكاد يكون السبيل الوحيد لتذليل الصعاب المشار إليها أعلاه، و خلق الظروف الملائمة لكتابة عملية جادة و معتبرة لتاريخ البلدان الأفريقية بالأحداث و التراكمات و التّحولات العميقة.

و من الخطأ الاعتقاد بأن الدول الأفريقية، من خلال أجهزتها المختلفة ، قادرة بمفردها على القيام بتلك المهمة في أي ظرف، و لاسيما في الظرف الاقتصاديو الاجتماعي الراهن. وعليه، يجب أن تكون مهمّة الجميع ، أفراد و مؤسسات ، و أن يعي الجميع أنها واجب

حضاري ملح، لكل واجباته و مسؤولياته فيه. فعلى الدول أن توفر ما تستطيع توفيره من امكانات مادية و دعم معنوي عن طريق خلق المناخ الإداري و القانوني اللازم لهذا العمل ، وعلى الأفراد و الهيئات العلمية غير الحكومية أن توظف لهذا الغرض طاقاتها البشرية و إمكاناتها المادية و علاقاتها مع هيئات البحث العلمي الشقيقة و الصديقة عبر العالم.

وإذا كان علاج العوائق المتعلقة بالمصادر يتطلب توظيف العنصرين المادي و البشري معا ، فإن حل المعضلات المنهجية تتطلب بالدرجة الأولى مناخا سياسيا واجتماعيا ملائما ، وعنصرا بشريا مؤهلا تأهيلا علميا خاصا يستجيب لمتطلبات المهام المنوطة به و احداث الحرب الأهلية في مالي و حرق عشرات المعالم التاريخية من طرف المجموعات المتطرّفة عام 2014 دليلا على ضرورة التعجيل بهذه الحلول.

خاتمة الفصل:

بين هذا الفصل مفهوم التراث وفروعه والمنجزات التي تركتها منطقة إفريقيا جنوب الصحراء من تراث مادي ولامادي للحضارة الإنسانية وهو ما يوضح أن التراث الإسلامي هو حضارة التي تمثل الحالة الفكرية و الاقتصادية و الخلقية و السياسية و الفنية و سائر مظاهر الحياة المادية و المعنوية في مرحلة إزدهار المنطقة .

و يتيح لنا هذا الفصل التعرف على ميادين التراث و دراسته دراسة علمية ، وخاصة ما تعلق بالمرويات الشفاهية ، والمقتنيات المادية ، التي تعد مادة هامة في دراسة تاريخ منطقة أفريقيا جنوب الصحراء فهي في كثير من الأحيان قادرة على ترميم العديد من الثغرات الناقصة في الروايات التاريخية المكتوبة ، و ربما تزيد على ذلك فتصوب بعض الروايات المغلوطة أو غير الدقيقة ، و توضح ما غمض و تجيب على أسئلة مستدركة لا جواب عليها في التاريخ المكتوب ، و هذا ما يجعل المادة التراثية ذات قيمة تاريخية، لا غنى عنها في البحث التاريخي الجاد الساعي إلى الكمال.

وقد أتاح لنا هذ الفصل معرفة أن التراث هو البوتقة التي تنصهر فيها عمليات التغيير وهي الكاشفة عن صور التداخل بين الأبعاد المتفاعلة في عمل الحضارة لأن هذا التراث يتكون من تجمع العادات و التقاليد و المعتقدات و الفنون الشعبية التي تكون أسلوب الحياة لدى عامة الشعب و هي المرآة الدالة على الثبات التغيير و هي تشكل جزءا لا يتجزأ من التراث بالرغم من أن هناك اختلافا كبيرا بين المتخصصين في مجال دراسة التراث من حيث أقسامه الرئيسية و ميادينه.

و قد أشرنا إلى أهم ميادين دراسة التراث الشعبي ولم يكن هدفنا هو رصد هذه الميادين و موضوعاتها ، و لكن إعطاء بعض النماذج من هذه الموضوعات التي تؤكد أن اهتمام غرب أفريقيا منذ ظهور الإسلام بهذه الميادين.

و التراث الذي ينتقل من جيل إلى جيل يتضمن الأشياء المادية و المعتقدات المتعلقة بكافة الأشياء المعروفة و صور الأشخاص و الأحداث و الممارسات و النظم كما يشتمل على منشآت

مبنية و آثار و مناظر و تنظيمات طبيعية و تماثيل و أدوات و معدات ، بل ويضم كل ما يملكه أي مجتمع في فترة معينة .

وتأكدنا في هذا الفصل أن التراث الشعبي يدخل في تكوين السلوك الهادف الذي له معنى من خلال تعريف و تعيين الأهداف و المعايير بل و الوسائل المختلفة ، وبالتالي يمكن أن يعني أشياء كثيرة ففي أبسط معانيه مجرد النقل، الشيء الذي ينتقل من جيل إلى الجيل الذي يليه أو من الماضي إلى الحاضر و قد يكون الشيء الموروث عنصرا ماديا أو تكوينا ثقافيا.

وللتراث دور هام في حضارة المجتمعات ، و تزداد أهميته في أفريقيا لارتباطها بالثقافة الشعبية وقد فصلها في أسس وفروع الثقافة الأفريقية بكل محتوياتها ومستوياتها .

وما يؤكد رأينا هو ما لجأت إليه إدارة المستعمرات ، من أجل تثبيت ركائز سلطتهم على الشعوب الأفريقية ، فعملت على تحويل بعض قوانين العرف و العادة ، التي كانت لا تطبق إلا في مناطق محدودة ، و على أضيق نطاق ، إلى قوانين رسمية عامة ، لتلعب دورها في ترسيخ التخلف ، و عرقلة التقدم ، و تثبيت التمزق بين أجزاء الوطن الواحد ، وهو ما أفرز مع الزمن دويلات هشة ، ذات طبيعة عشائرية ، أو أسرية ، أو طائفية تفتقر إلى مقومات الدولة الفعلية ، ولا تقوى على الاستمرار دون رعاية صانعيها و ما أكثر الأمثلة!. و يكفي أن نتلفت حولنا إلى البلدان التي كانت خاضعة للاستعمار لندرك بجلاء هذه الحقيقة المرة.

وفي هذا المجال تضافرت جهود المستعمرين من سياسيين و عسكريين ومبشرين، و علماء ، وجمعيات ، و مؤسسات على توجيه سلوك الشعوب ، و تدمير الثقافة الوطنية القومية و نشر ثقافة المستعمر ، مستخدمين الوسائل المتاحة كلها من الضغط و القمع ..إلى الإبادة ، مرورا بتزوير التاريخ ، و توظيف التراث و تشويه الثقافة الوطنية وفرض ثقافة المستعمر و لغته .

لقد أكد لنا هذا الفصل أهمية كتابات الرحالة الأوربيين كمصدر مهم من مصادر دراسة التراث والتاريخ الأفريقي ، و قد صورت - بحسب المراحل التاريخية - طبيعة العلاقة بين الشرق و الغرب و زخرت بالعديد من المعارف المتنوعة مع مراعاة المصداقية والنقد.

تعرفنا أيضا على عوائق البحث في تاريخ التراث الإفريقي وقلت إن أفريقيا جنوب الصحراء لم يكتمل جمع تراثها حتى الآن ويكفي أن نأخذ نماذج كالأندلس حيث كتبت ألاف الأبحاث وفي أدق التفاصيل حضارتها ،

وتطرح مسألة جمع التراث في أفريقيا اجنوب الصحراء إشكالية منهجية عويصة بحكم كون هذا التراث لم يجمع بعد إلى الحد الذي يدفعنا بالقول أن تاريخ إفريقيا كتب بالشكل الذي يروي عطش الباحث المتخصص ووذلك بسبب أن المعلومات ظلت شحيحة على المستوى المحلي و متقطّعة في الزمن و أكثر المعلومات في من الحواضر الكبرى بحكم الطابع الصحراوي مناخيا و اقتصاديا واجتماعيا.

و إذا كانت وفرة المصادر في في فترة معينة من شأنها أن تطمئن الباحث في التاريخ الحديث و المعاصر للبلاد و تحفّز همّته ، فإنه سرعان ما يصاب بخيبة الأمل و ثبوط الهمة عند ما يشرع جدّيا في البحث و يصطدم بواقع تلك المصادر من حيث الحيادية أو من حيث محتوى المادة العلمية لتبقى مصادر تاريخ أفريقيا الموجودة في خزائن الوثائق الأوربية الكثير منها شبه مجهولة بالنسبة للباحثين الذين لم يطلعوا عليها .

فالحواجز اللغوية ، والتّشتت بين مختلف مراكز التوثيق في تلك البلدان الأوربية و عدم القيام إلى حدّ الآن بأي عمل لاسترجاع نسخ من تلك الوثائق كلها عوائق تعترض سبيل الباحث في تاريخ أفريقيا و تترك مناطق ظل هامة في هذا التاريخ.

و لا نعلم الكثير من إمكانية وجود مصادر في الأقطار العربية من شأنها أن تساعد في تسليط الضوء على جوانب من تاريخ المنطقة و علاقاتها مع تلك الأقطار الشقيقة باستثناء ما هو موجود بمراكز التوثيق بالمملكة المغربية الذي إطلعت عليه بصفة باحث لا يحق له التصوير بكل أشكاله وهو ما يجعل البحث ناقصا من الناحية المادية للبحث.

لقد تناولت بالتفصيل في هذ الفصل عوامل تعرّض المصادر و المراجع المحلية إلى النهب أو التلف أو التناثر بين الخزائن .

و سجلت غياب إطار لتبادل المعلومات والتجارب و المناظرات الهادفة إلى تعميق البحث وإعمال الفكر نظرا لعدم وجود إطار تنظيمي للباحثين عموما –و في الحقل التاريخي خصوصا- حتى الآن، و عدم توفر وسائل النشر محليا وقلة المجلات المتخصصة فضلا عن كون التعليم العالي في الجزائر بعيدا إلى وقت قريب من الساحة الأفريقية و لم تترسّخ أقدامه بعد فيها [1].

إن المشكل الكبير ليس انعدام المصادر و إنما الجهل بها و تشتّتها في الداخل و الخارج وعدم استغلال المتوفر منها ، وهكذا فإن أولى الخطوات التي يجب القيام بها على هذا الصعيد ينبغي أن ترتكز من وجهة نظري على :

- القيام بعملية إحصاء شاملة للمخطوطات الأفريقية و تصنيفها و جردها و فهرستها. و هذه المهمة يجب أن تتعاون من أجلها كافة الهيئات المعنية بالثقافة في البلدان التي تهتم بتراث أفريقيا الإسلامي و غير الإسلامي و أن تتم تحت إشراف باحثين محترفين و أخصائيين في مجال التوثيق.
- رصد جائزة وطنية سنوية لأهم وثيقة تاريخية غير معروفة لدى جمهور المختصين بغية اكتشاف مزيد من المخطوطات المنسية في ثنايا كنانيش الأفراد و العائلات و بين ركام مكتباتهم الخاصة المهددة بالضياع و الاندثار و هذا العمل يجب أن تصاحبه عملية تحسيس واعية بضرورة تكاتف جهود الجميع من أجل معرفة و صيانة و استغلال تراثنا الحضاري المهدد بالضياع، بالطرق الإعلامية المناسبة .
- تشكيل لجنة فنية من المختصين في مختلف مجالات العلوم الاجتماعية تقوم بوضع دليل ببليوغرافي شامل لمصادر التاريخ الأفريقي وعلى المعاهد المتخصّصة في التاريخ الأفريقي و النهوض بهذه المهمة في أقرب الآجال.
- الاسراع باسترجاع نسخ مصورة أو على شكل ميكروفيلمات من جميع مراكز التوثيق الأوربية.
- التخطيط لتكوين مؤرخين و باحثين يتقنون اللغات البرتغالية و الهولندية والإنجليزية للقيام بعملية جرد لمصادر التاريخ الأفريقي في البرتغال و هولندا و إنجلترا.

[1]. يمكن أن نسجل أن مخبر الدراسات الأفريقية في جامعة الجزائر يشكل إضافة إيجابية - وفي الوقت المتأخر - لحقل الدراسات الأفريقية.

و من الخطأ الاعتقاد بأن الدول الأفريقية، من خلال أجهزتها المختلفة، قادرة بمفردها على القيام بتلك المهمة في أي ظرف، و لاسيما في الظرف الاقتصادي و الاجتماعي الراهن.

و عليه، يجب أن تكون مهمّة الجميع، أفراد و مؤسسات، و أن يعي الجميع أنها واجب حضاري ملح، لكل واجباته و مسؤولياته فيه. فعلى الدول أن توفر ما تستطيع توفيره من امكانات مادية و دعم معنوي عن طريق خلق المناخ الإداري و القانوني اللازم لهذا العمل ،وعلى الأفراد والهيئات العلمية غير الحكومية أن توظف لهذا الغرض طاقاتها البشرية و امكاناتها المادية وعلاقاتها مع هيئات البحث العلمي الشقيقة و الصديقة عبر العالم.

وإذا كان علاج العوائق المتعلقة بالمصادر يتطلب توظيف العنصرين المادي و البشري معا ، فإن حل المعضلات المنهجية تتطلب بالدرجة الأولى مناخا سياسيا و اجتماعيا ملائما وعنصرا بشريا مؤهلا تأهيلا علميا خاصا يستجيب لمتطلبات المهام المنوطة به و احداث الحرب الأهلية في مالي و حرق عشرات المعالم التاريخية من طرف المجموعات المتطرّفة عام 2014 دليلا على ضرورة التعجيل بهذه الحلول .

الفصل الأول :التعريف بأدب الرحلة ومنهج الكتابة.

المبحث الأول: نشأة الرحلة.

- **المطلب الأول :** الرحلة (تعريفها دوافعها ، وأنواعها).
- **المطلب الثاني :** المحتوى التراثي للرحلة .

المبحث الثاني: منهج الرحّالة العرب في التعريف بالأمصار، وقراءة في الرحّلة ، و الرحّالة عبر التاريخ.

المطلب الأول : منهج رحّالة العرب.

المطلب الثاني : منهج رحّالة الغرب.

مقدمة الفصل :

الرحلة تعني التنقل وهي تعني السعي الى المشاهدة الواعية لملكوت الله ، وإنجازات البشر بغرض شخصي ، أو نقل تلك المشاهدات للغير الذي لم يطلع عليه.

في هذا الفصل سنتعرف على معنى الرحلة في التراث العربي الإسلامي وعن العلاقة بين الرحّلة ومختلف الميادين العلمية وخاصة الجغرافيا ، فالعلاقة وطيدة كما هو معروف فثقافة التنقل – في الحضارة العربية الإسلامية – هي ثمرة كم هائل من العوامل وهي ثقافة تسكن المسلم و تجعله شخصية مستعدة للتنقل و الرحلة .

إن الباحث في تاريخ الرحلة في التراث الإسلامي يسجل تعدد العوامل والمقاصد منها ما هو مرتبط بالعوامل التاريخية والموروث الحضاري القديم للإنسان في نطاق الكشف عن الأخر ومنها ما يرتبط بالعامل الديني فالدين قد جعل التنقل رحلة و سفرا يتحقق به عدد من الأهداف العليا فحث عليه و أوصى به .

أما الهدف العلمي ، فإن طلب العلم لا يحصل بدون تعب ، وكانت دعوة الأديان السماوية دعوة واضحة للتنقل و الترحال لنشر الدعوة.

بل نجد في التراث الإسلامي أن الرحلة مرادفة للجهاد، و تناقلت لنا الأخبار صدى ذلك بكيفية بلغت أحيانا مبلغ الأسطورة.

سنحاول في هذا الفصل التعرف عن الرحلة وأنواعها فقد أبدع المسلمون حينما صنفوا الرحلة من الناحية إلى أنواع على أساس دواعي السفر ، مقياسها الأول النية ثم تتفرع إلى النتائج التي تركتها فكان سؤالنا ماهي تصنيفات الرحلة ؟ .

وسنوضح المحتوى التراثي للرحلة إذ تعد كتابات الرحالة مصدرا مهما من مصادر دراسة التاريخ وخاصة تلك التي صوّرت طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب.

كانت الرحلات و زيارة الأقطار المختلفة وسيلة من أهم وسائل المعرفة الجغرافية المباشرة و لقد نالت الرحلات اهتمام الإنسان لتعوّده على الترحال و التنقل .

إذ تتوفر الرحلات على معلومات جغرافية من وصف للمسالك و الطرق ، و البلدان والمدن والآثارالمختلفة والظواهر الطبيعية والنواحي البشرية والاقتصادية فمن الرحلات

نستطيع تبيين الطرق وضبط المسافات الفاصلة بين البلدان ، وفي الرحلات اهتمام بوصف البلدان التي مر بها الرحالون أو نزلوا فيها ، وإن تفاوتوا طبعا في الاهتمام بوصف هذا البلد أو ذاك .

يعود الفضل للرحلات في الاحتفاظ بآثار لولاها لكانت عرضة للاندثار والنسيان فهي أداة تفاعل و تواصل ، و مساحة احتكاك بين الثقافات المختلفة .

استطاع الرحالة أن يرسموا صورة لمعظم عادات الشعوب و تقاليده و أنظمتها وكذلك مختلف الأنشطة السياسية ، و الاقتصادية ، و العمرانية ، و الثقافية و غيرها .

إن البحث في الرحلة سيقودنا إلى طرح أسئلة تتعلق بمنهج الرحالة في التعريف بالأمصار ، مع إبراز أمثلة عن الرحالة عبر التاريخ على إعتبار أن أدب الرحلة فرع من فروع التاريخ إذا ما قورنت بالمصادر الأصلية لنشأة التدوين .
وسأتناول بالبحث والتحليل منهج رحالة العرب وما تميزوا به من ناحية النقل والمشاهدة ومن ناحية التوثيق والمصداقية ، ثم منهج رحالة الغرب وما ميزهم عن غيرهم عبر مختلف المراحل التاريخية لأن الرحّالة ليس إنسانا عاديا فهو ذو قوة نفسية كبيرة وطاقة حضارية و علمية عالية ساعدته في إختراق الأقاليم ومخالطته الأمم والثقافات ، وبالتالي فإن الرصيد المعرفي المنقول يصاحب قالب أسلوبي ،يربط عناصره المشتتة و يعطيها إنسجاما موضوعيا على مستوى نفس نص الرحلة .

المبحث الأول: نشأة الرحلة.

- **المطلب الأول :** الرحلة (تعريفها دوافعها ، وأنواعها).

أولا: تعريف الرحلة.

الرحلة:- لغة:رحل، يرحل، ترحالا، ورحلة فهو راحل، أي ينتقل من مكان إلى أخر عن قصد قضاء وقت محمود أو البقاء على الدوام.

الرحلة من الفعل رحل، يرحل، وعبارة "رحلة"و "رحل" في معاني التنقل و السفر، بل في معنى السير كذلك، جاء في لسان العرب، رحل بمعنى سار و الرحلة سير[1].ويقال "إرتحل"البعير رحلة :"سار فمضى"[2].

- الرّحل:مركب البعير و الناقة(ابن منظور متوفى سنة711ه/1311م.
- الرّاحلة في الإبل:البعير القوي على الأسفار و الأحمال.
- الترحّل و الرّحيلة :الجمل أو الناقة القوية على السير.
- الترحّل و الارتحال: الإنتقال وهو الرّحلة(بكسر الراء)معناه:الإرتحال.
- الرحّلة :(بضم الرّاء):الوجد الذي تأخذ فيه و تريده.
- الرّحيل:القوي على الإرتحال و السير .

ومن الكلمة إستقت مرحلة و معناه المنزلة يرحل منها:وما بين المنزلتين مرحلة.

-اصطلاحا:

إن عبارة رحلة توافق عبارة (voyage) باللغة الفرنسية ، وهي تعني التنقل ، وهي تعني معنى السعي الى المشاهدة الواعية لملكوت الله ، وإنجازات البشر ،بغرض شخصي،وهو التمتع وغرض عام وهو ثقل تلك المشاهدات للغير الذي لم يطلع علية.

ولقد وردت كلمة رحلة في القرآن الكريم في سورتين كريمتين ، التي كانت تقوم برحلة الشتاء و الصيف،وهي لا تغير سوى التنقل ولا تتضمن أي مشروع للمشاهدة ، بل كان عبارة

---

[1]. إبن منظور:لسان العرب،دار صادر،بيروت،1956،مج11،مادة رحل،ص276.

[2]. نفس المصدر،ص278.

- أنظر أيضا : . Doiron(n),LDoiron(n),L’art de voyager,paris,1995: pp125 (PDF).

رحلة مرادفة لهما تماما ، فهل من اللازم مثلا أن لا يكون السّفر سفرا إلا إذا كان تنقلا ماديا أي للإنسان بشخصه وبدته ، لقد كان للصوفية جوابهم حول نوعية السفر، هي السّياحة فقال أبو محمد الخواص(348هـ) " السّياحة سياحتان ، سياحة النفس[1] و سياحة القلب [2] " وإذا كان من المسلم به أن كل تنقل هو رحلة فنحن نلاحظ بالمقابل أن الرحلة لا تستدعي بالضرورة أن تكون تنقلا .

ومن الأسئلة كذلك ، السؤال حول العلاقة بين الرّحلة ومختلف الميادين العلمية وخاصة الجغرافيا ، فالعلاقة وطيدة كما هو معروف ، لكن إن كانت كل رحلة – و المقصود هنا الأثر المكتوب – هي كتاب جغرافيا في أغلب الأحيان وخاصة في الجغرافيا البشرية ، فليس كل كتاب جغرافيا هو رحلة ، وليس صاحبه برحّالة ، وقد يصل الأمر إلى حدّ العبث في حالة بعض الجغرافيين إذا ما وصفوا بهذا الوصف.

إن معنى الرحلة في التراث العربي الإسلامي معنى واسع وهو ما يفسرالاستعمال المكثف للعبارة وهو في العادة مؤشر على الحضور المكثف للمعنى الأساسي الذي تحملة (notione base) ، وفي موضوع الحال هذا المعنى هو التنقل (la mobilite) ، وبالفعل فإن التنقل هو ظاهرة أساسية في هذا الحضارة ويمكننا التفطن بكل سهولة إلى أنّ فكرة التنقل حاضرة في ذهن المسلم وفي حياته اليومية ، سواء كهاجس يسكنه شخصيا ، أو كمضمون من مضامين خطاب يتكرر على مسامعه و يشجعة على التنفيذ عمليا ، أو كحدث يجلب في أحيان عدة الإحترام و التقدير ، مما سمح لنا بالحديث عما يمكن تسميته بثقافة تنقل ذات تأثير كبير في سلوك المسلم ، لا يمكن بالطبع التغافل عنها في بحث موضوع الرحلة و إمكانيات تصنيفها [3].

إن هذه الثقافة ثقافة التنقل – في الحضارة العربية الإسلامية – هي ثمرة كم هائل من العوامل وهي ثقافة تسكن المسلم و تجعله شخصية مستعدة للتنقل و الرحلة.

---

[1]. النّفس هنا بمعنى الإنسان بنفسه أي بجسمه.

[2]. أبو عبد الرحمان السلمي:طبقات الصوفية،تحقيق نور الدين شريبة، ترجمة أبو محمد الخواص ،ط3،القاهرة،1986،ص ص 434-439.(ص438.رقم 14.)

[3]. عمر بن حمادي:الرحلة عند المسلمين في العصور الوسطى ,أصنافها و أهميتها،المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية،العدد39،منشورات مركز الدراسات و البحوث الاقتصادية و الاجتماعية،تونس،2010،ص76.

ثانيا : الرحلة (دوافعها ، وأنواعها) :

1- دوافعها:

إن الباحث في تاريخ الرحلة في التراث الإسلامي يسجل تعدد العوامل والمقاصد لكن يمكن إجمالها في العوامل التالية:

أ- العوامل التاريخية: و هو ما يرتبط بالموروث الحضاري القديم للعرب في نطاق الكشف عن الأخر[1] ، و ما نقصده بالموروث الحضاري هو ذلك الذي يعود إلى ما قبل الإسلام ، والذي تضمن عددا من العوامل التي كانت تشجع على التنقل بل و تدفع إليه وهي عوامل تواصل تأثيرها بعد ظهور الإسلام ، بل إن هذا الأخير أعطى لبعضها دفعا قويا .

و القائمة في هذه العوامل طويلة ، يأتي في مقدمتها ما كانت تعيشه جل قبائل الجزيرة العربية من ترحال البحث عن الكلأ والمرعى ، و ما تنامى لدى بعضها من تنقلات في إطار حركة تجارية واسعة ، و كذلك ما كانت تحرص عليه تلك القبائل من تنقلات موسمية لتكريم آلهتها و منها الحج إلى مكة ، مأوى أهم الآلهة إضافة إلى ما كان قد ترسخ لدى المخيال الجمعي عند العرب من قصص و صور يلعب فيها التنقل الدور الأول ، صور و قصص ستلقيها كتب الأدب بمختلف أنواعها فيما بعد لتزيد في ترسيخها وفي مدى تأثيرها على تغذية ثقافة الرحلة ، فهذا محب تكلف عناء التنقل باحثا عن محبوبته بين أحياء العرب المتنقلة بدورها ، و هذا آخر تجشم السفر الطويل شروط ألزمته أهل حبيبته بها ، و هذا طالب ثأر ينتقل من مكان إلى آخر، و ذاك باحث عن سند يعينه على استرجاع ملك مسلوب فكلفه السفر بعيدا [2].

و بعد ظهور الدين الإسلامي زادت عوامل ساهمت في ترسيخ ثقافة التنقل لدى المسلمين بصورة واضحة ، فالرحلة و التنقل حاضران في تاريخ هذا الدين وأركانه حضورا يبلغ درجة التقديس ، فما إن ظهر الدين الجديد حتى وجد في الرحلة الحل الأمثل لمشاكله فكانت تلك الرحلة إلى الحبشة أولا ثم الرحلة إلى المدينة والتي كانت حدثا حاسما في تاريخ الدين الجديد حقق معه انتصاره .

وقد يميز كلا التنقلين بتسمية خاصة هي "الهجرة" و كانا في الأصل معروفا بالدين

---

[1]. عبد العزيز بن عبد الله : الرحالة العرب والمسلمون من المغرب وإليه،أعمال الندوة الدولية –الرحالة العرب والمسلمون اكتشاف الأخر المغرب منطلقا ومؤئلا ،ط1 ،مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء ،المغرب ، نوفمبر 2003، ص195.

[2]. عمر بن حمادي: المرجع السابق، ص 77.

وخوفا عليه ، و هي معاني سيكون لها حضور كبير فيما بعد للإقدام على الرحلة أو تبريرها[1].

ثم جاءت رحلة الحج ، وصارت إحدى أقوى المساهمات في تغذية ثقافة الرحلة فذلك واضح في مظهرين رئيسيين على الأقل ، يتمثل أولهما فيما يحدثه الحج من تنقل سنوي متكرر على الدوام لأعداد كبيرة من المسلمين نحو مركز واحد هو الحجاز ، و قد أصبحت انتماءاتهم الجغرافية مختلفة ومتباعدة جدا من حيث المسافات ، متجاوزة الحدود التي كانت عليها في نطاق الجزيرة العربية قبل الإسلام .

ب- العامل الديني و العلمي:

ب-1- الديني:

إن الدين قد جعل التنقل رحلة و سفرا و يسرا ألية رئيسية يتحقق بها عدد من الأهداف العليا فحث عليه و أوصى به ، فبالتنقل يستطيع المرء أن يكتشف سعة القدرة الإلهية [2] و أن يثبت إيمانه [3] وأن يستخلص العبر المختلفة من المصير الذي آل إليه من سبقه[4] هذا فضلا عما يحققه التنقل من مآرب أخرى كطلب الرزق أو حماية الدين [5] .

و قد تحدّث القرآن عن رحلات فيها وسائل نقل خارقة للعادة [6] ، مثل رحلة الإسراء والمعراج [7] ، و موضوع عرش بلقيس الذي أوتي به قبل أن يرتد الطرف [8] وقد كان لذلك مساهمته كما هو معروف في خلق أصناف من "الرحلة" ذات مميزات خاصة ، و في تغذية بعض الظواهر الهامة كظاهرة الكرامات و التي من أصنافها المترددة كثيرا قدرة الولي على سرعة التنقل من مكان إلى آخر، و اختراق البحار مشيا و الحج في يوم [9].

ب-2- العلمي: لقد حث الإسلام على طلب العلم ، الذي لا يحصل بدون تعب فجاء في الحديث

---

1. نفس المرجع: ص 17.
2. « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق» العنكبوت (22) آية رقم 20.
3. « و في الأرض آيات للموقنين ». الذاريات (51) آية رقم 20.
4. « فسيروا في الأرض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين» النحل (16) آية رقم 36.
5. « علم أن سيكون منكم مرضى و آخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله» المزمل (73) أية 20.
6. أحمد الهلايلي: مشاهدات سفير مغربي بأسبانيا في القرن الثامن عشر، مجلة البحث العلمي، عدد 02، الرباط، المغرب، 1964، ص 174.
7. سورة الإسراء، الآية 17.
8. سورة النمل، الآية (39 -40).
9. تنتشر فكرة الكرامات لدى اتباع الطرق الصوفية و هي ركن أساسي من الفكر الصوفي ، وقد شاهدت ذلك بنفسي في المغرب الأقصى عندما زرت ضريح الولي الصالح مولاي إدريس ، جد الأسرة المالكة في المغرب الشقيق.

الصحيح" من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له طريقا إلى الجنة[1] وهي دعوة للتنقل والترحال حتى أصبح ذلك من ثوابت الحضارة الإسلامية وخاصة للمهتمين بالحديث و اللغة والأدب و الشعر[2].

و جاء في كتاب الرحلة للخطيب البغدادي ، موجها كلامه لمن يرد أن يرتحل لطلب العلم "اعلم أن علوم الإسلام عظيمة لم تدّون على ضفاف الأنهار وتحت ظلال أشجار الثمار، وإنما دوّنت باللحم و الدم ، و ضمأ الهواجر ، و سهر الليالي على السراج الذي لا يكاد يضيء نفسه ، و في ظل العري والجوع وبيع الثياب ، وانقطاع النفقة في بلد الاغتراب والرحلة المتواصلة و المشاق الناصبة المتعانقة ، والصبرعلى أهوال الأسفار وملاقاة الخطوب والأخطار، و التيه في البيد ، و الغرق في البحار ، و حلول الأمراض والأسقام مع البعد عن الأهل و الزوجة و الأولاد و الدار، و مع فرقة الأحباب والأقارب و فقد الاستقرار[3]...فما أثر كل ذلك على العزيمة و الشكيمة و قبول الذل و الهوان لأجل العلم [4].

فانتشر في التراث الإسلامي أن الرحلة مرادفة للجهاد ، و تناقلت لنا الأخبار صدى ذلك بكيفية بلغت أحيانا مبلغ الأسطورة[5]مما كان بدوره يغذي ثقافة الرحلة بصفة عامة ، وعندما أنتشر التدوين بقي السماع المباشر مهيمنا ، أضيف إليه هدف آخر للرحلة وهو تصحيح الكتب عن أصحابها ، وتناقلت كتب السير أيضا كيف روى الإمام البخاري ومسلم الأحاديث الصحيحة [6] فكانت بذلك الرحلة عاملا أساسيا في تناقل العلوم و تنقّلها ، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال [7].

2- أنواع الرحلات:

---

1. الحديث رواه مسلم.

2. Touati (H) : islam et voyage au moyen âge. Editions du seuil,paris, 1994. P196.

3. الخطيب البغدادي: الرحلة في طلب الحديث، تحقيق: نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1975، ص 133 - 134.

4. أبو الفرج عبد الرحمان بن علي بن الجوزي: صيد الخاطر، تحقيق: حسن المساحي سويدان، ط1، دار القلم، دمشق، سوريا، 1425 ه/2004 م، ص 369-375.

5. عمر بن حمادي:مرجع سابق، ص 79.

6. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: الجرح و التعديل، تحقيق : خليل محمد العربي ، ط1، دار الفاروق الحديثة للطباعة و النشر ، قطر، 2003، ص 86- 87.

7. عبدالرحمان بن خلدون : المقدمة ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1979 ، ص 1045.

لقد أبدع فقهاء المسلمين حينما صنفوا الرحلة من الناحية الشرعية [1] على أساس دواعي السفر بالقول «أن السفر» ضربان: هرب و طلب ، فأما الهرب فهو الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام ، و الخروج من دار البدعة و الخروج من أرض غلب عليها الحرام و الفرار من الإذاية في البدن أو الأهل أو المال وأما الطلب فسفرة العبرة وهو ندب وسفر الحج وهو فرض ، و سفر الجهاد و له حكمه ، و سفر المعاش للتجارة أو نحوها ، و السفر لقصد البقاع الكريمة ، و هي إما أحد المساجد الثلاثة و إما مواضع الرباط ، و السفر لطلب العلم و لزيارة الإخوان و لقاء الصالحين [2] ، و لذلك يوجد من الفقهاء من أباح الرحلة [3] ، و يوجد من كرهها على وجه التحريم [4] و وجوب الهجرة [5] أي الرحلة.

و بناء على تصنيفات الباحثين رأيت أن أقسم أصناف الرحلات إلى :

1. **الرحلات الرسمية أو السياسية:** و هي التي وضعها أصحابها عقب قيامهم ب«مرافقة الملوك أو رجال الدولة أو الجيش في أسفار رسمية، فيكلف المفتي بتدوين الرحلة سواء لهدف عام أو خاص.
2. **الرحلات الاستكشافية:** و هي التي قام بها أصحابها بقصد استكشاف مناطق وبلدان جديدة أو الاطلاع على أحوالها بهدف مسبق أو بهدف شخصي.
3. **الرحلات العلمية والدراسية والأثرية :** والتي يقصد منها طلب العلم ، أو البحث عن الأثار بهدف دراسي .
4. **الرحلات العامة :** ويدخل في تصنيفها الخيالية ، التي وضعها مؤلفها على لسان رحالة وهمي ، والرحلات الغاربة التي تكون الغاية من سفر صاحبها القيام بسفارة لدى دولة أجنبية.

---

[1]. للمزيد انظر أبو العباس الونشرسي: المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية و الاندلس و المغرب،ج2، تخريج :محمد حجي ومجموعة من الفقهاء،ط1، دار الغرب الإسلامي،بيروت لبنان ،1981، ص 119 – 149.

[2]. أبو القاسم ابن جزي: القوانين الفقهية، المكتبة الثقافية، بيروت، د ت، ص 290.

- و أبو القاسم هذا هو ولد أبي عبد الله محمد بن جزي المتوفى حوالي 756 ه، مدوّن رحلة بن بطوطة بأمر السلطان المريني أبي عفان. و هو معاصر لابن بطوطة المتوفى سنة 770 ه.

[3]. أبو حامد الغزالي:إحياء علوم الدين،ج2، دار المعرفة، بيروت، ص 249.

[4]. هو ما نجد صداه عند أبي زيد القيرواني في الجامع ،تحقيق عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص 184، رقم 76).
حيث نقل عن ماله قوله: «لا ينبغي المقام بأرض يعمل فيها بغير الحق و السب للسلف و أرض الله الواسعة».

[5]. أبو العباس الونشرسي: المصدر السابق ، ص 119 – 129.

المطلب الثاني : المحتوى التراثي للرحلة .

مثّلت كتابات الرحالة الأوروبيين مصدرا مهما من مصادر دراسة التاريخ ، و قد صوّرت بحسب المراحل التاريخية المشار إليها آنفا طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب و زخرت بالعديد من المعارف المتنوعة: ديني و اقتصادي و سياسي و تاريخي وجغرافي وأدبي واجتماعي... و غير ذلك ، مما يجعلها مصدرا للعديد من الباحثين مختلفي الاختصاصات و على الرغم من الجوانب الايجابية التي لا يمكن اهمالها، فقد سجل على هذا النوع من التدوين جوانب سلبية كما توصلت إليه هذه الدراسة كان من أبرزها ارتباط معظم الرحالة بمؤسسات دينية أو سياسية استعمارية، كذلك عدم قدرة هؤلاء على التخلص من الأفكار المسبقة التي تحمل تراكمات مراحل الصراع المرير بين الشرق والغرب فالمعرفة التي قدّمها المرتحل، خضعت لشخصيته و تكوينه الثقافي والديني و الاجتماعي، لذا تتطلب عملية كشف خفاياها المعرفية، فهما وتصورا شاملا للأوضاع بأحداث الرحلة ابتداء من شخصية كاتبها و حتى طبيعة العلاقات السياسية و الاقتصادية الدولية أو الإقليمية على أقل تقدير[1].

كانت الرحلات و زيارة الأقطار المختلفة وسيلة من أهم وسائل المعرفة الجغرافية المباشرة و لقد نالت الرحلات قبل ظهور الإسلام اهتمام العرب لتعوّدهم على الترحال و التنقل، كما أن عادات العرب من كرم الضّيافة و الشجاعة جعلتهم يأمنون على أنفسهم أثناء الرحلات مما حبّب إليهم الأسفار و حينما أشرقت الدعوة الإسلامية وفرض على المسلمين الصلاة ، و الصوم، راعى الإسلام مشقات السفر و مصاحبة فخفف على المسلمين الصلاة (صلاة القصر) و أباح للمسافر الصائم الإفطار و أباح للمسافر الصائم أثناء السفر على أن يقضي عدّة الصوم في أيام أخر.

و لاشك أن اتساع رقعة العالم الإسلامي أو مملكة الإسلام و ما سادها من وحدة دينية يسّر السفر و ساعد عليه، كما أن الحج إلى بيت الله كان عاملا مهما للسفر و الالتقاء بالمسلمين من شتى بقاع العالم الإسلامي في مكة المكرمة، مما ساعد على تبادل المعلومات و أخبار البلدان

[1]. حيدر جاسم الرويعي: المرجع السابق ،ص 17.

بعجائبها و غرائبها، فرغّب ذلك المسلمين في السفر[1].

تتوفر الرحلات على أهمية كبيرة لما لها من معلومات في الجانب الجغرافي من وصف للمسالك و الطرق، و البلدان و المدن و الآثار المختلفة والظواهر الطبيعية و النواحي البشرية والاقتصادية فمن الرحلات نستطيع تبيين الطرق وضبط المسافات الفاصلة بين البلدان، و في الرحلات اهتمام بوصف البلدان التي مر بها الرحّالون أو نزلوا فيها، و إن تفاوتوا طبعا في الاهتمام بوصف هذا البلد أو ذاك.

و لعل المدن التي نالت حظا كبيرا من طرق الرحالين تلك التي قصدوها في البقاع المقدسة كالحجاز و الشام ، أو التي مروا عليها في الطرق إلى المشرق أو التي صادفوها في رحلاتهم السياحية الواسعة مثل رحلة ابن بطوطة [2].

يعود الفضل للرحلات في الاحتفاظ بآثار لولاها لكانت عرضة للاندثار والنسيان[3] إذ تعد الرحلة مظهرا من مظاهر الاتصال و التواصل مع الآخر، فهي أداة تفاعل و تواصل داخل الثقافة الواحدة من جانب ، و مساحة احتكاك بين الثقافات المختلفة من جانب آخر، فقد أفادت الشعوب بعضها بعضا .

لقد لمس الرحالة الفوارق بين مختلف الثقافات في البلدان التي قصدوها ، و ألموا بمظاهر الحضارة في تلك البلدان و قارنوا ما شاهدوه أو سمعوه بما هو في بلدانهم ثم قاموا بنقل ما في مجتمعاتهم إلى المجتمعات التي زاروها ، كذلك نقلوا بعد عودتهم إلى بلدانهم تجارب غيرهم إليهم.

استطاع الرحالة أن يرسموا صورة لمعظم عادات الشعوب و تقاليده و أنظمتها وكذلك مختلف الأنشطة السياسية ، و الاقتصادية ، و العمرانية ، و الثقافية و غيرها فبيّنت كتب الرحلات بشكل عام العلاقات التي تربط مختلف الجماعات القائمة على أساس الأخذ و العطاء ، و مساهمة كل جماعة في تطور الحضارة الإنسانية وازدهارها ، بحيث ساهم الجميع في تكوين المجتمع الإنساني [4] وهذا خلاف ما ادعاه بعض الباحثين في تاريخ الحضارة من وجود حضارات حية وأخرى غير حية بالمعنى المطلق للكلمة .

---

1. محمد محمود محمدين: المرجع السابق ،ص 141.
2. حسن الشاهدي: المرجع السابق ، ص 533.
3. نفسه، ص 534.
4. إسماعيل زردومي : المرجع السابق ص 46.

لقد رصد الرحالة نوافذ المعالم الحضارية في مختلف الجوانب الحياتية في البلدان التي زاروها ، و عكست رحلاتهم صورة واضحة عن أحوال الشعوب بمختلف الجوانب فكانت الرحلات نوافذ للاتصال بالآخر، واكتشاف ثقافته وحضارته ، ومن ثم الانفتاح عليه والتواصل معه ، فتقديم كتب الرحلات لصورة الآخر أثار في الشعوب الراعنة و المتنافسة والتفوق من خلال اطلاع كل جماعة على الآخر و تواصل معه بطريقته الخاصة .

لقد اقترن ذلك الاتصال بالنهوض الثقافي والتطور الحضاري في مختلف المجتمعات التي و إن اختلفت في بعض أنماط حياتها بحكم البيئة إلا أن تلك الجماعات صاغتها ثقافة واحدة.

إن النماذج التي أثرت التلاقح بين الحضارات العديدة على اختلاف أماكنها الجغرافية و خصائصها الثقافية المتنوعة [1] ، تجعل الباحث يقف أمام مهمة التعمق في البحث عن نماذج لها فرادة من حيث اسهامها في خلق التواصل الثقافي على الرغم من التباين الثقافي الحضاري بين الرحالة بوصفه زائرا، و المكان المزار بوصفه ثقافته للآخر قد تحمل في طياتها الثقافية تنوعا قد يستحسنه ذلك الزائر و قد يستقبح جوانب منه، و هذا يستدعي درسا من الباحث أن يكون منتبها إلى سؤال مصداقية المشاهدة أو بمعنى آخر الالتفات إلى سؤال خلفية الرحالة الثقافية وتأثير انعكاساتها في مشاهدة الآخر.

و يبدو بناء على ذلك أنه من غير المستحسن أن تتم دراسة نماذج الرحالة بصفة موحدة قد تكون مختلفة في فتراتها و ظروفها و الأماكن التي زاروها، بمعنى أن المنهجية العلمية في هذا المقام تكون أكثر دقة في حال دراسة نموذج لهذه الرحلات لوضع نقاط الحقائق فوق حروف الوقائع [2].

و لم يكن تنقل الرحالة سهلا ، بل كان بعضهم يقطع بضعة آلاف من الكيلو مترات للوصول إلى مبتغاهم كما هي الحال بالنسبة لأهل المغرب و كان بعض الرحالة يكتبون ما يشاهدون من عجائب و غرائب و هم في طريقهم إلى الحجاز.

و يذكر كثير من الرحالة أمثال ابن جبير و ابن بطوطة و التجاني أن هدفهم الأساسي في بداية رحلاتهم كان حج بيت الله الحرام ، لكنهم كانوا يتخلفون في بعض المدن الإسلامية ذات

---

1. سافيدج، كاترين : قصة إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، ترجمة راشد البراوي ، دار النهضة ، القاهرة ، مصر ، 1963 ، ص ص 121 122.
2. أمجد ممدوح الفاعوري: المرجع السابق، ص 26.

المكانة العلمية للتزود بالعلم و الدراسة على أيدي فقهائها، و قد دوّن الرحالة أنباء الفقهاء والأولياء و كل ما له صبغة دينية مما يؤكد أن الدين كان الهدف الأساسي لتلك الرحلات لأن أنباء الفقهاء المشهورين و المزارات الدينية كانت ذات جاذبية روحية لمسلمي هذه العصور[1].

أعار الرحالون اهتماما خاصا لمشاهداتهم أثناء تجوالهم داخل البلدان و المدن التي دخلوها فوصفوا الآثار المختلفة و تحدثوا عن الأضرحة و الزوايا و لم يغفلوا الإشارة إلى نواحي أخرى طبيعية و اقتصادية كحديثهم عن السيول والأمطار والثلوج و الجراد ، و الأزمات الاقتصادية ، و الصناعات و الحيوانات، و الموارد الاقتصادية المختلفة[2].

بالرغم من اختلاف هذه الرحلات في قوالبها و أشكالها و أساليبها، فإنها بذلك تتكامل في تقديم صورة واضحة عن الأنماط و الأشكال التعبيرية [3].

1. المضمون العلمي للرحلات (التراث العلمي):

تكلّمت كتب الرحالة عن الأوراق العلمية التي سادت في عهد الممالك الإسلامية و الأحكام التي كان يوليها السلطان للتدريس و كل ما يتعلق بها [4].

فمن الرحلات ما كان هدفه السعي إلى طلب العلم عملا بقول النبي -صلى الله عليه و سلم-: طلب العلم فريضة على كل مسلم و مسلمة [5] ، و من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع، كذلك نجد أن الارتحال في طلب العلم ظاهرة مألوفة منذ ظهور الإسلام، و قد روى البخاري في القرن 3 هـ أن جابر بن عبد الله رحل مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنس الأنصاري في طلب حديث واحد و هناك أمثلة كثيرة لعلماء المسلمين قطعوا آلاف الأميال لتصحيح الحديث أو ضبط سنده و منهم البخاري، و قد ساعد على مثل هذه الرحلات تفرق الصحابة و العلماء في أقطار العالم الإسلامي |، وكانوا بطبيعة الحال يتعرفون على جغرافية البلاد التي يمرون بها فيصفون المسالك والدروب و عادات الناس و أخلاقهم يقول المثل الشعبي:«لو أن رجلا مسافرا من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة، ما رأيت أن

---

[1]. محمد محمود محمدين: المرجع السابق، ص 142.
[2]. حسن الشاهدي: المرجع السابق، ص 534.
[1]. المرجع نفسه، ص 531.
[4]. محمد مجيد السعيد:تاريخ التعليم عند المسلمين ، مجلة أفاق الثقافة و التراث، جانفي 1999، ص 60، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء،ج4،تحقيق و تعليق نبيل خالد الخطيب ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،ط1987، ص 40.
[5]. حديث شريف ، صحيح البخاري .

سفره ضاع».

و قد حثّ الإمام الشافعي (المتوفى سنة 204 هـ)على السعي في التنقل و الترحال:

إني رأيت وقوف الماء يفسده   إن سال طاب و إن لم يجر لم يطب.

الأسد لولا فراق الغاب ما افترست   و السهم لولا فراق القوس لم يُصب.

إن الرحلة العلمية ظاهرة مألوفة عند المسلمين في جميع الأقطار شرقها و غربها و قد أورد المقري المتوفى سنة(1041 هـ) في الباب الخامس من كتابه (نفح الطيب) أسماء بعض من رحل من الأندلس إلى بلاد المشرق، و شملت قائمة الأسماء ثلاثمائة و سبعة أشخاص معظمهم رحل في طلب العلم[1].

و قد قام تاج الإسلام أبو سعد بن محمد السمعاني (توفي سنة 562 ه/1166 م) وهو ينسب إلى أسرة كبيرة اهتمت بالعلم في مرو، برحلات إلى خراسان وجرجان والعراق والحجاز والشام وغيره، و ذلك لدراسة الحديث، و في خلال رحلاته جمع كثيرا من المعلومات الجغرافية و قد ورد ذكر السمعاني كثيرا في معجم ياقوت.

و هناك نمط آخر من الرحلات العلمية، هي تلك التي سعت للوصول إلى الأماكن الواردة بالقرآن الكريم مثل الرحلات التي تمت في عهد الخليفة العباسي الواثق (227 ه/232 م) بحيث أمر محمد بن موسى بالتوجه إلى آسيا الصغرى بعد أن حصل على موافقة الامبراطور البيزنطي و ذلك لفحص كهف الرقيم و ذلك بين عمورية و نيقيا و حينما شاهد محمد بن موسى جثثا محنطة ، لم يقنع بأنها جثة أصحاب الكهف الواردة ذكرهم في القرآن الكريم، و قد أوردت هذه القصة عدة مصادر مثل ابن خرداذبة، و السرخسي الذي نقلها عنه المسعودي و يذكر ابن رستة، وياقوت الحموي، و الإدريسي و القزويني و غيرهم، أخبار رحلة أخرى، أمر بها الخليفة الواثق سلام الترجمان ليستقصي خبر ياجوج و مأجوج[(2)].

وهكذا ومن خلال الرحلات يمكن التعرف على العلوم التي كانت سائدة في المجالس كعلم القراءات ، و مدى الاهتمام بالفروع الفقهية ، و كتب الكرامات و التّصوف ، فاهتمام المغاربة

---

1. أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب،ج2،تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1978، ص 05.

2. محمد محمود محمدين: المرجع السابق ، ص 142.

كان منصبا بالدرجة الأولى على الفقه و ماله علاقة به ، مما جعل ابداعهم الأدبي يتأثر بذلك كما أشار المقري في ازدهاره ، حيث ذكر أن ملكة العلوم النظرية قاصرة على البلاد المشرقية ولا عناية لحذاق القرويين و الأفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط [1].

ثم إنها رسمت أفقا جليا للعالم القديم و قدمت للبشرية تراثا لا غنى عنه من حيث التأسيس و تراكم الدراسات الجغرافية الجديدة إضافة إلى معطيات في غاية الخطورة على صعيد التاريخ [2].

فتكلّم ابن بطوطة عن دقائق الملاحظات حتى طريق جلوس الطلبة أمام المدرس [3] ، ووصف العلماء ماذا يلبسون وأين يجلسون وكيف يحترم العامة مجالسهم [4] ، و أغلب المصادر الأفريقية الكلاسيكية [5] ، مثل تاريخ الفتاش، و تاريخ السودان اعتمدت كثيرا على الرحلة في تدوين التراث الأفريقي ، و كان التأثير متبادلا بين الرحالة الأجانب و المحليين في بلاد إفريقيا جنوب الصحراء [6].

لقد ضرب الرحالة الهداة من العلماء ، و شيوخ العلم آباط الإبل ، و نهضوا بالرحلة إيمانا و احتسابا ، و شقوا بطون الرمال ، و مجاهل الفيافي لتبليغ الرسالة الإسلامية ، و نشروا العلوم العربية و فنون المعارف المختلفة في السودان الأوسط والغربي[7].

و كان العلماء الذين يمتلكون قدرا كثيرا من معرفة الأقاليم و البلدان تعقد بينهم المناظرات و تأتي هبات الملوك ، و الخلفاء لهم على قدر تفوّقهم ، و مقدرتهم العلمية واطلاعهم ،على محيط الأقاليم الإسلامية و خصائص سكانها ، وعاداتهم ، و لغاتهم والثروات التي تزخر بها تلك الأقاليم [8] .

2-المضمون الجغرافي و السياسي للرحلات:

إلى جانب الرحلات العلمية هناك رحلات جغرافية وسياسية لخدمة شؤون الدولة

1. حسن الشاهدي: المرجع السابق ، ص 538.
2. فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، دار الكتاب العربية، القاهرة، 2002، ص 11.
3. محمد مجيد السعيد:المرجع السابق ،ص 61.
4. نفس المرجع، ص 59.
5. خالد شكراوي: فاس من خلال المصادر السودانية-قراءة أولية- منشورات معهد الدراسات الأفريقية، الرباط المغرب، 1993، ص 28.
6. محمد مسعود جبران: المرجع السابق، ص 163.
7. نفس المرجع، ص 06.
8. فتيحة البنراوي :المرجع السابق ،ص 181.

الإسلامية التي ترامت أطرافها وأصبحت هناك حاجة إلى معرفة الطرق ومراحلها وتحديد المسافات ، و وصف ذلك وصفا دقيقا ، ومن هنا ظهرت كتب المسالك والممالك التي تولت وصف الطرق و المنازل والبريد ، و كانت مثل هذه الرحلات الخاصة بالتعرف على أحوال أقطار العالم الإسلامي تهتم بالظروف الاقتصادية من حاصلات زراعية و نشاط تجاري وذلك لتقدير قيمة الخراج كما كانت بعض الرحلات توفد في إطار الأعداد لجمع المعلومات عنها ، فقد إستعان الخلفاء العباسيون بالجواسيس من الرجال و النساء في آسيا الصغرى ، و ظل عبد الله الشهير بسيّد الغازي يجمع المعلومات عن بلاد الروم عشرين سنة ، و يخبر هارون الرشيد عن عجائب الأمور وأخبار الروم كما حكى الإمام الدمشقي في فضائل الجهاد و إن كانت هذه القصة يحوم حولها الشك [1].

استخدم الجغرافيون المسلمون كلمة جغرافيا بمعنى مرادف لتفسير "صورة الأرض" وظل هذا المصطلح شائعا في العصور الوسطى ، و لم يصبح لهذه الكلمة المعنى الذي نعرفه اليوم من علم الجغرافيا إلا في أزمنة حديثة [2].

يكفي العرب تضلعا في علم الجغرافية أن فاقوا من قبلهم من جغرافي العالم القديم ، فتجدهم يصحّحون ما وقع فيه جغرافيّو اليونان أنفسهم من أخطاء جغرافية فادحة و على رأسهم أستاذهم بطليموس ، بتصويب تلك الأخطاء ، بل أضافوا من تجاربهم الجغرافية الكثير إلى ما كانت تعلمه أوربا في حقل المعرفة الجغرافية [3].

في هذا السياق يقول حسين مؤنّس: «جرت العادة عند الباحثين في علم الجغرافيا بأن يبدوأ بالكلام عن تراث ذلك العالم عند اليهود و اليونان و الرومان على اعتبار أن هؤلاء هم أساتذة العرب في تلك الميدان ... و قد يكون مثل هذا المدخل مقبولا » على أنه تعريف بما وصل إليه الناس قبل العرب في ميدان الجغرافية ، لكنه غير مقبول إذا كان المقصود هو القول بأن الهنود و الإغريق اليونان أساتذة العرب حقا في ميدان الجغرافية لأن أخذه العرب عن اليهود واليونان لا يعتبر أساسا إلا لجانب يسير مما ألفه العرب في الجغرافية ، و هو الجانب الفلكي

---

[1] حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيا و الجغرافيين في الأندلس، ط 1، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد 1964، ص 369.

[2] انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشنشناري و آخرون، مراجعة أحمد جاد المولى بك، ط 1 القاهرة، 1930، مادة الجغرافيا.

[3] زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية بين العرب و الفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1958،ص 201 -202.

والرياضي من تلك الجغرافية وهذا الجانب بالذات هوأقل جوانب الجغرافية قيمة عند المسلمين[1].

فركز الرحالة في كتاباتهم على تراث الأمم و ترجموه ثم نقلوه إلى أوربا ، و ظهرت إلى الوجود أسماء العديد من المؤلفات البلدانية والمسالك والممالك ، على أيدي الجغرافيين العرب أمثال الكلبي و اليعقوبي و البلاذري و ابن خرداذبة و ابن رسته، و المعاجم الجغرافية اللغوية مثل ياقوت الحموي و الحميري و الكتب الجغرافية الموسوعية مثل ابن جبير و ابن بطوطة و غيرها [2].

3- المضمون العمراني :

اهتمت كتب التراث الجغرافية بدراسة المدن اهتماما كبيرا، و قد تنوع هذا الاهتمام و اتخذ أساليب مختلفة و لا عجب في ذلك ، فلقد شجع الإسلام بناء المدن فزاد عددها في ظلّ زيادة كبيرة في الأقاليم الإسلامية ، إذ أن الإسلام قد أضاف ما يقرب من 450 مدينة في بضعة قرون محدودة و قد أشار الباحث اليهودي (غويتاني GOITEIN) ، إلى أن ما أحدثه الإسلام من مظاهر التدين يعد ثورة في تاريخ التمدّن العالمي و كما أشارت المستشرقة لابيدوس إلى أن الدول الإسلامية دفعت حركة التمدّن دفعات قوية إلى الأمام بما أتبعته من سياسات تنموية نشيطة ، شملت النشاطين الزراعي والتجاري كما ساعدت الظروف الإدارية والسياسية المناسبة على نمو المدن و اتساع حركة التمدن الإسلامية [3].

و مما هو جدير بالذكر أن الجامع يمثل نواة المدينة الإسلامية ففيه يلتقي المسلمون في صلواتهم ، و لذلك اقتربت المنازل منه و الإسلام يدعو إلى تقارب المسلمين و ينتقد تباعدهم وتبعثر ديارهم و من هنا القول السائر [4].

و يصف كثير من الباحثين الإسلام بأنه دين مديني وأن المدينة ضرورة إسلامية [5]، ومما يجب التنويه به أن المسلمين لم يكتفوا بإنشاء المدن بل أدخلوا تغييرات عديدة على المدن القديمة

[1]. حسين مؤنس: مكان المسلمين في التاريخ العام لعلم الجغرافية، دراسات في الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن 15م،ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص 238.

[2]. عماد الدين، فايز الربيع، الوسيط في الحضارة، ط1، مطبعة الفنون، عمان، الأردن، 2004، ص 142 -143.

[3]. أبو إبراهيم محمد الفارسي الإصطخري: المسالك و الممالك، تحقيق محمد عبد الغاني الحيني و مراجعة شفيق غربال ،القاهرة، 1961، ص 63.

[4]. محمد محمود محمدين:مرجع سابق، ص293.

[5]. H. houranis, the Islamic city, Brimo cassirer Oxford And University of Pennsybrania Press. 1970. P 12.

في الأقطار المفتوحة حيث أقاموا المساجد والأسواق التي كانت تقترب من المساجد، و ذكر كثير من الجغرافيين المسلمين أن سبب نشأة المدن أن الله سبحانه و تعالى خلق الإنسان على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده كسائر الحيوانات بل يضطر إلى الاجتماع بغيره حتى يحصل الهيئة الاجتماعية التي يتوقف عليها المطعم و الملبس.

وعند حصول الهيئة الاجتماعية فلو اجتمعوا في صحراء لتأذوا بالحر و البرد والمطر والريح و لو تستروا بالخيام لم يأمنوا مكر اللصوص و العدو ، و لو اقتصروا على الحيطان والأبواب كما ترى في القرى التي لا سور لها لم يأمنوا صوله ذي البأس فألهمهم الله تعالى اتخاذ السور و الخندق فحدثت المدن و الأمصار والقرى والديار .

و تناولت كتابات الرحالة تعريف المدينة و الأساليب المختلفة التي اتبعتها كتب التراث في دراسة المدن، و من هذه الأساليب ما انفرد به المسلمون و تميزوا به ولاسيما في مجال الاهتمام بأسماء المدن ، واهتمام الرحالة بالمدن هو اتجاه إسلامي أصيل فتح نافذة واسعة للباحثين في وقتنا المعاصر[1].

أ- أساليب دراسة المدن في كتب التراث:

اختلفت أساليب دراسة المدن في التراث، وتباينت مابين كتاب و آخر، و يمكن تلخيص أهم اتجاهاتها على النحو التالي:

أ-1 – الزيجات أو قوائم تحديد تحديد أطوال المدن وعروضها:

يعد محمد بن موسى الخوارزمي رائد هذا الاتجاه حيث تناول تحديد درجات الطول والعرض لخمسمائة و ثلاثين مدينة وزّعها على الأقاليم السبعة و ما خلفها ، و كان الإقليم الرابع أوفر الأقاليم حظا في كثرة المدن ، حيث ضم مائة و ست وأربعين مدينة ، أما الإقليم السابع فقد كان أقل الأقاليم نصيبا من المدن ، إذ بلغ نصيبه من المدن أربعا و عشرين مدينة [2].

ووفقا لتحديد مواقع المدن عند الخوارزمي تقع مدن عدن و صنعاء و حضر موت في الإقليم الأول و مكة المكرمة ، و جدّة ، والطائف، واليمامة، في الإقليم الثاني، أما المدينة المنورة، وهجر، فتقعان في الإقليم الثالث.

---

1. محمد محمود محمدين:مرجع سابق، ص 294.
2. السعيد الورقي:في مصادر التراث العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر، سنة 1979، ص 443.

و من الجدير بالذكر أنه في كتابه عجائب الأقاليم السبعة قد سار على النهج نفسه الذي سار عليه الخوارزمي و إن اختلفت عدد المدن بين الكاتبين ، و قد وزع المقريزي المدن على الأقاليم السبعة ، و ذكر أن عدد المدن و الحصون أحد وعشرون ألفا و ستمائة مدينة و حصن ، يتركز في الإقليم السادس ثلاثة آلاف وأربعمائة و ثمان مدن ، و هو بذلك أكثر الأقاليم حظا من حيث كثرة عدد المدن ، و أقل الأقاليم مدنا الإقليم الثاني حيث يوجد ألفان و سبعمائة و ثلاث عشرة مدينة و قرية [1] .

أ-2- كتب الجغرافية و الرحلات:

تقدم هذه الكتب معلومات عن الأقاليم و طبيعتها و مناخها ، و تذكر خلال ذلك وصفا عاما لمنازل ذلك الإقليم و دوره ، و تشير في بعض الأحيان إلى تخطيط المنزل و مواد بنائه و تنوّع تلك المواد حسب مناخ الإقليم و طبيعة الأرض ، كما أنها تهتم بخطط المدينة و مواقع البيوت فيها ، و تركز على وصف المباني المهمة و العجيبة على حد تعبيرها ، و تشير إشارات يسيرة جدا إلى مبادئ عامة الناس .

أشار فيه أيضا إلى ما في الدار من برك و فوّارات ، وبعد الوصف العام يعطي أمثلة لمنازل راقت مناظرها على حد تعبيره و كلها قصور خاصة في مشرق الدولة ومغربها ، فهذه المادة على الرغم من بساطتها وعموميتها إلا أنها تصنف مادة مهمة لموضوع العمارة ، وعمارة المنازل بالذات.

أما كتب الرحلات فهي تهتم بالوصف العام أيضا ، وتقدم معلومات عن الأقاليم المختلفة وتهتم بمباني الخلفاء والعامة والخاصة ، و مثال ذلك ما ذكره ابن جبير (ت 614 هـ) .

و تكمن أهمية المعلومات التي تقدمها كتب الرحلات في أنها تعطي صورة لمشرق الدولة ومغربها ، وخصائص العمارة و الدور فيها وهي تعتمد على المشاهدة والوصف العام ، أي إنها تمثل الدراسات الميدانية ، و مع هذا فأوصافها عامة ، عرضت بأسلوب أدبي ، و تهتم بالمظهر الخارجي ، و لكن فيها إضافة إلى الحديث عن الدور الكبيرة التي تلفت النظر وأيضا الحديث عن مواد بناءها.

[1]. تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي:المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الاثار (المعروفة بالخطط المقريزية)،ج1، منشورات دار إحياء العلوم ، لبنان ،بيروت ،1948، ص 10.

و مما يؤخذ عن كتب الرحلات أنها في بعض أقسامها تحوي معلومات منقولة عن كتب مدونة و ليست شهود عيان [1].

أ-3- كتابات الرحالة عن المدن:

تعد من الدراسات المهمة ، و ذلك لأن المدينة و تطوراتها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية تمثل الوحدة الحيوية والجزء الفعال من حركة التقدم الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات والمدينة هي حضارة وهي تعادل تعبير الأمة لذلك أخذت بعض الجامعات العربية و الغربية على عاتقها أقسام علمية و مواد دراسية تتناول دراسات المدن[2].

وقد تناولت مصادر الرحلة و التاريخ أهم هذه الحواضر التي نشأت ، ووصفوا موقعها وعمرانها و شوارعها ومهن سكانها، و تضاريسها، و نباتها، فتكلم ابن خلدون مثلا عن هذه الحواضر قائلا هي «بسائط يتكون مزاجها تارة بمزاج التلول وتارة بمزاج الصحراء بهوائها و مائها و نباتها» [3]، وظلت كتابات البكري و الإدريسي و ابن حوقل و ابن بطوطة وابن خلدون و الوزان و غيرهم إلى وقت قريب تحل الصدارة وحدها في هذا المجال ، و منذ القرن الرابع عشر الميلادي أضيفت للمصادر العربية ما كتبه العلماء السودانيون أمثال القاضي محمود كعت و عبد الرحمان السعدي [4].

و قد تعددت أسباب تأسيس حواضر إفريقيا جنوب الصحراء وتنوعت عوامل ازدهارها من الموقع الذي يعد طريق لتجارة الذهب أو القرب من المجاري المائية ، أو محطات قوافل التجار التي تخترق الصحراء باتجاه الشمال [5] ، أو العوامل السياسية الأخرى التي حولت غاو وولاته وتنبكت و جنّي ، إلى مراكز وهج فكري في القرن السادس عشر[6].

---

1. نبيلة عبد المنعم داود: السكن في التراث، مجلة آفاق الثقافة و التراث، العدد 23، السنة التاسعة أفريل 2001، ص 184.
2. عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية و الإسلامية، ط1، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر، بيروت، لبنا ن، 2001، ص 05.
3. ابن خلدون عبد الرحمان: العبروديوان المبتدأو الخبر فيأيام العرب و العجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ج6، ،ط1، دار الفكر للطباعة و النشر، بيروت، 2000، ص 132.
4. الهادي مبروك الدالي: دراسة حركات التبشير و التنصير بمنطقة أفريقيا فيما وراء الصحراء، ط1، الدار المصرية للنشر و التوزيع، القاهرة، 2002، ص 15 -16.
5. كولين ماكينيدي: أطلس التاريخ الأفريقي، تر: مختار السويفي، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987، ص 105.
6. . Maurice Delafosse: les noirs de L'Afrique, collection payot, payot et cie, Paris, 1992, EditionNumérique ralisée(PDF) ، le 11 Avril 2010, P 57.

4- المضمون الديني و الاجتماعي في كتابات الرحالة:

أ- المضمون الديني :

و من يتتبع أعظم الرحالة المسلمين يجد أن جلّهم من المغاربة أمثال ابن جبير ابن بطوطة ، ابن سعيد و العبدري ، و التّجاني كلّهم كان محركهم دافع ديني و كان أداء فريضة الحج إلى بيت الله هي بداية رحلاتهم ، كما أن بعضا منهم سعى إلى الدراسة على أيدي علماء الفقه في بلدان المشرق الإسلامي [1].

و من أهم ما يتميز به الأسلوب الديني غلبة الجانب القصصي فالحكاية هي لب الكتابات الدينية و روحها ، لذا فهي شبكة من قصص أخبار لها علاقة بالرحلة ، أو لها صلة بزهاد متصوفة لهم دور في توجيه هذه الرحلة و صاحبها.

و كنا قد اعتبرنا سابقا بأن هذه الرحلات أشبه بكتب الكرامات من حيث جمع الحكايات والقصص التي اشتهر بها الرحّالة في حله و ترحاله ، و لهذا السبب تكثر المفاجآت التي قد لا ينتظرها الرحالة ولا يتوقعها القارئ فانطبع الأسلوب بهذه السمة أيضا وهذا هو السر في الإكثار من استعمال إذ الفجائية ، فالتعبير بها يكشف عن جانب من ظروف الرحالة و أحواله كما يتجلى ذلك في رحلة ابن بطوطة مثلا ، أو في كل الكتابات على الكرامات و المفاجآت [2] .

و تجدر الإشارة إلى أن مسالك طريق الرحلة الدينية لابد له من التوبة وغض البصر وتجنب الغيبة والنميمة وشهادة الزور والكذب وحفظ البطن من أكل الحرام والابتعاد عن الكبر و العجب و الرياء والحسد و المداومة على ذكر الله [3] .

و يتسم النص بالبساطة في التعبير والتركيب ، فالألفاظ بسيطة في متناول الشخص العادي و التراكيب تركت كما استعملت في الحوار العادي دون تنقيح أو تحوير ، فاقترب الأسلوب بذلك من استعمال الأسلوب الشعبي العامي ، و لا يختص هذا بما دونه من رونق في هذه الرحلة ، فالرحلات الدينية كلها لها الطابع العامي في أغلب التعابير والتراكيب إذا استعملت

---

1. محمد محمود محمدين: المرجع سابق، ص 145.
2. حسن الشاهدي: المرجع سابق، ص 649.
3. زهرة مسعودي: الطرق الصوفية بتوات و علاقتها بغرب أفريقيا من قرن 18 إلى القرن 20 م، رسالة ماجيستير، جامعة أدرار،الجزائر ، 2006، ص 374.

كلمات عامية في الصيغة أو التداول أو كلمات فصيحة لكنها ابتذلت باستعمال العوام لها [1] .

فما سبب شيوع هذه الظاهرة الأسلوبية في الرحلات الدينية ؟ ، لعل السبب يكمن في أن أصحاب هذه الرحلات يتحدثون فيما دونوه عمن اختلطوا بهم فيها وصاحبوهم في الطريق وفي الأماكن التي ارتادوها و أغلب هؤلاء الذين خالطوهم من الزهاد والعباد والمتصوفة والبسطاء من العامة الذين يؤخذون بما يحكى عن الأولياء من كرامات وأقاصيص فتدوين الرحّالة لهذه الأخبار وحديثهم عن عالم هؤلاء البسطاء يتسّم أيضا بالبساطة ، فينقل عنهم أحاديثهم دون تغيير أو تحوير ، فتبدو الكتابة هنا أقرب إلى الاستعمال العامي ومن هنا فلا علاقة لهذا الأسلوب بمستوى صاحب الرحلة ، فلا يمكن اعتباره نموذجا لكتابة الرحلة وأسلوبه ، إذا بالرغم من المستوى الجيد الذي عرف به الرحّالون المتصوفون في كتبهم وما اشتهروا به من كثرة التأليف في مختلف العلوم و الفنون ، فإنهم ظهروا هنا بمستوى متواضع جدا ، نبين ذلك من عقد مقارنة تبيين نماذج رحلاتهم و تأليفهم الأخرى [2] .

ب- المضمون الاجتماعي:

نصادف في الرحلات ملامح اجتماعية هامة ، قد لا نعثر عليها في غيرها ، فلم يكن الرحّالون يكتفون بلقاء الاعلام و تدوين الروايات وإنما كانوا يختلطون بأفراد المجتمعات ويجالسونهم ويتحدثون إليهم مما جعلهم على إطلاع واسع بأحوالهم وعاداتهم وأنماط سلوكهم ، وكانت رحلة إبن بطوطة على الخصوص سجلا حافلا بأخبار الناس وعاداتهم وأخلاقهم ومذاهبهم [3].

وتحدث الرحّالون جميعهم عن عادات الشعوب التي خالطوها واحتكوا بها فأشاروا إلى عادات الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، و شيوع التصوف، و منزلة الأولياء والزهاد و معاملة الحجاج وطريقة قراءة القرآن ووصف الأحوال الأمنية في الطريق والبلدان التي دخلوها [4].

---

[1]. حسن الشاهدي: نفس المرجع ص 606.

[1]. حسن الشاهدي : المرجع سابق ، ص 652.

[2]. ابن بطوطة ،المرجع السابق ،ص 208 – 626.

[4]. حسن الشاهدي: المرجع نفسه ، ص 535.

ان الرحلات رغم أغراضها المختلفة ، أضافت كثيرا إلى المعرفة الجغرافية لانها كانت مصدرا مباشرا للمعلومات الجغرافية ، وهذا ما نجده عند معظم الجغرافيين المسلمين الذين اعتمدوا في كتاباتهم على المعلومات التي جمعوها أثناء رحلاتهم و أسفارهم [1].

ويجمل بنا في الأخير أن ننهي هذه المواقف و الأراء بإثبات رأي موضوعي صريح يتسم بالجرأة العلمية و النزاهة الفكرية ، ذلك هو رأي العالم ستزن (seetzen)، الذي يعتبر إبن بطوطة رائد الرحلة لا يجاري في العالم كله ، يقول :"أي المسافر الأوروبي في هذا العصر يمكنه الافتخار بأنه خصص قدر هذا الزمن الذي يبلغ نصف حياة الإنسان في سبيل إرتياد مثل هذا العدد من البلدان السحيقة ، وذلك بشجاعة لا يزعزها شيء ويتحمل المشقات العديدة بل أية أمة أوروبية كان يمكنها لخمسة قرون خلت إيجاد مسافر يجوب المناطق الأجنبية بمثل هذا الاستقلال في الحكم ، وبمثل هذه المقدرة على المراقبة ، وبمثل هذه الدقة في كتابة الملاحظات التي اتصف بها هذا الشيخ المغربي الشهير[2] .

[1]. محمد محمود محمدين ،مرجع السابق،ص145.
[2]- حسن الشاهدي،المرجع السابق،ص301.

المبحث الثاني: *منهج الرحّالة العرب في التعريف بالأمصار، وقراءة في الرحّلة، و الرحّالة عبر التاريخ.*

المطلب الأول : منهج رحّالة العرب.

المطلب الثاني : منهج رحّالة الغرب.

المبحث الثاني:منهج الرحالة في التعريف بالأمصار، وقراءة في الرحلة والرحالة عبر التاريخ.

-المطلب الأول: منهج رحالة العرب:

لقد شهد القرن العشرين اهتماما كبيرا بكتابات الرحلة و الرحّالة ، كفرع من فروع التأريخ نال اهتماما مميزا ، برز ذلك من الكتابات المتعّددة للمؤرخين والرحالة ، لإظهار مدى أهمية هذا الفن في تدوين الأحداث بصورة عامة من ناحية ولأهمية الدور الذي تلعبة في مساعدة الباحثين في المقارنة بين الرواية و الأحداث.

لقد دوّن الرحالة معلومات جمة لا تكاد تحصى حول المجتمع الإسلامي في بيئاته الجغرافية المتنوعة من الساحل الى المدينة و الريف ، وحتى البوادي ولجج الصحارى ، ووصفوا أساليب العيش وأدوات العمل و اللباس و المسكن والحرف الشعبية والمأكل والمشرب ، ودونوا كثيرا من العادات و التقاليد ، والمعتقدات الدينية الرسمية والشعبية ، وكثيرا من نصوص الأدب الشعبي من حكايات وأمثال وأغان وأشعار بلفظها العربي بالحرف اللاتيني غالبا ، مما يسهل مهمة إعادتها إلى لهجاتها العربية الأصلية ، وهناك توجهات عالمية مواتية في هذه الفترة [1] .

ولقد برع العرب والمسلمون في كافة العلوم خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وكان لعلم الجغرافيا إهتمام خاص من قبلهم ، ولقد صرفت جهود كبيرة و متزايدة إلى دراسة الفكر الجغرافي العربي و تطوّره ، واعتاد كثير من كتّاب الغرب أن يصفوا جهود المسلمين بأنها متألقة في مجالات عديدة من التخصصات العلمية و في مقدمتها الرحلات الجغرافية.

وقد نتج ذلك بسبب ما ورثه العرب من معارف قديمة غربية وشرقية التي استخدموها في استحداث خطوات التقدم العلمي لديهم ، فما كانوا مجرد مقلدين و منقادين تستعبدهم النماذج الأجنبية ، بل كانت لديهم خصائصهم من العزم والعقل والكفاية مما أبرز الطابع الفريد لتلك الخصائص[2] ، على كل ما تسلموه أو استعاروه من الغير وقد بلغ الأدب الجغرافي العربي الإسلامي ذروته في القرنين الرابع و الخامس الهجريين ، وشكل أدب الرحلات مصدرا هاما من مصادر المعرفة الجغرافية لديهم .

---

1. محمود مفلح البكر: المرجع السابق، ص24.
2. صبري الهيتي وأخرون:الفكر الجغرافي وطرق البحث،ط1،منشورات جامعة الموصل،بغداد ،العراق،1985،ص1-47.

رغم إختلاف هذه الرحلات في قوالبها و أشكالها و أساليبها ، فانها تتكامل في تقديم صورة واضحة عن الأنماط والأشكال التعبيرية [1].

سواء كان هذا التدوين لأحداث تاريخية ترتبط بالأحداث السياسية الهامة ، أو بالحروب ، أو بالحياة العلمية أو الاجتماعية ، أو الثقافية التي وصفها بعض الأوروبيين بأنها كرامات لتدوين أحداث تتعلق بالشعر و الاحتفالات و الأعياد و الوفيات .

وكان من أبرز التطورات الحديثة في ميدان الرحلة زيادة الاهتمام بالإطار النظري للدراسات التاريخية وتقوم أهمية هذا الاطار على منهج المقارنة ومنهج التحليل فلقد تكاملت الرحلات في إبراز المستوى العلمي والأدبي واستطاعت أن تعكس بأمانة ما كان يطبع البيئة جغرافيا واجتماعيا و حضاريا في البلدان و المناطق التي شملتها تلك الرحلات [2].

ويعتبر أدب الرحلة فرع من فروع التاريخ إذا ما قورنت بالمصادر الأصلية لنشأة التدوين ، ولذلك فإن منهج الرحالة العرب قد مرّ بمرحلتين هما:

أ- المرحلة الأولى - مرحلة وصف نظم الحياة في البلدان :

تميزت هذه المرحلة بكثرة الرحلات ، ووصف الأماكن التي زارها الرحّالة والباحثون ، ويرجع إزدهار هذه المرحلة الى العصر العباسي ،حيث الاستقرار السياسي والإجتماعي والإقتصادي الذي أتاح – بدوره- للمسلمين المضي قدما في طريق العلم والحضارة ، فّأخذوا يتنقلون بين البلدان و يسجلون إنطباعاتهم عن تلك البلدان التي زاروها ، وكان لفريضة الحج دور فاعل في التحفيز على التنقل و الإختلاط بين الأجناس بعضها ببعض فقد كان كل حاج من المشرق الإسلامي أو المغرب الإسلامي يمر بكثير من البلاد في أثناء سيره لبلاد الحجاز، وقد كانت هذه البلاد تترك الكثير من الإنطباعات في نفسه.

ألف علماء المسلمين ورحّالتهم الكثير من المؤلفات عن البلدان التي مروا بها ، أنظمتها ، وطرائقها الحياتية ، ومن هذه المؤلفات:

- وفيات الأعيان لإبن خلكان[3].
- نزهة المشتاق في إختراق الأفاق للإدريسي[4].

---

[1]. حسن الشاهدي:مرجع السابق،ص531.
[2]. نفسه ،ص531.
[3]. لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خَلِّكان: تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ، لبنان، 1981.(تأكد من العنوان).
[4].الأدريسي ابو عبد الله الشريف: نزهة المشتاق في إختراق الأفاق ، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1983.

- الرحلة المغربية للعبدلي [1].
- المسالك و الممالك لإبن حوقل[2].
- مسالك الممالك للإصطخري[3].
- رحلة إبن جبير لإبن جبير[4].
- معجم البلدان ياقوت الحموي[5].
- تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار لإبن بطوطة [6].
- الإفادة و الإعتبار في الأمور المشاهدة و الحوادث المعاينة في أرض مصر للبغدادي[7].

كان عرض أولئك العلماء و الرحّالة لما رأوه في تلك البلدان ليس عرض سطحيا أو وصفا عابرا وإنما كان وصفا دقيقا لكل مناحي الحياة ، وقد ركز هؤلاء على أمرين مهمين هما :

المساجد و المدارس ، وهما يعتبران من المؤسسات التربوية في تلك البلاد ، فقد كانت المساجد في صدر الإسلام تعتبر جامعة تدرس فيها كل جميع العلوم ، ويحضر إليها الطلبة ليتعلموا على أيدي علماء أجلاّء في حلقات المناقشة ، ومع إتساع رقعة العلم كان لابد من تخصيص أمكنة ملائمة يجد فيها المعلمون مجالات أوسع للنقاش و البحث فكانت المدارس.

والذي يؤكد صدق هذا الحديث ما قاله إبن جبير "الرحّالة المسلم "في القرن 12م في وصفه للاسكندرية قال :"إن من مناقبها و مفاخرها المدارس و الممارس* الموضوعة فيها لأهل الطب و التعبد يغدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه ، ومدرسا يعلّمة الفن الذي يريد تعلّمة ".

وكذلك ما ذكره إبن بطوطة في كتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأمصار حيث يقول :"إن أهل المشرق يتنافسون في عمارة المساجد و الزوايا و المدارس " ، وكذلك قوله:"من أراد العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك ".

---

[1]. محمد العبدري البلنسي : الرحلة ، تقديم سعد بو فلاقة ،ط1، منشورات بونة للبحوث والدراسات ، 2007.
[2].ابن حوقل ابو القاسم محمد :صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان ، بدون تاريخ.
[3]. الاصطخري ،المرجع السابق .
[4]. ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي:رحلة ابن جبير ، ط 1، دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ.
[5]. ياقوت الحموي شهاب الدين ابو عبد الله : معجم البلدان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1990.
[6].أبن بطوطة : المرجع السابق.
[7]. عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تقديم : عبد الرحمن عبدالله الشيخ ،ط2، دار قتيبة للطباعة والنشر،الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، 1998.
*. جمع ممرس ، بمعنى مأوى مخصص للدارسين والزوار والمسافرين.

كما تحدث إبن بطوطة عن مدارس بغداد في القرن الثالث عشر الميلادي :

(المدرسة النظامية و المدرسة المستنصرية) حيث قال فيها "كانت من اشهر مدارس العالم الإسلامي ، بمدينة فيها أربعة أروقة يختص كل منها بمذهب من مذاهب السّنة و بلغ عدد طلابها حوالي ثلاثمائة موزعين على هذه الأروقة ، ومما قاله أيضا في وصفها " كان يدرس فيها المذاهب الأربعة لكل مذهب ديوان في المسجد ، وموضع التدريب ، وجلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط ، ويقعد المدرس و عليه السكينة والوقار لابسا ثياب السود معتمّا وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه المدرس ، وهكذا ترتب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة وبداخل هذه المدرسة حمام للطلبة ودار للوضوء.

وإذا كانت هذه المرحلة تتميز بالوصف فقط ، دون المقارنة إلا أنها تعتبر أساسا للمقارنة ، إذ لا يمكن قيام مقارنة إلا بالوصف أولا، وليس بالإمكان الإلمام بكل المضامين التي تستنتج من الرحلات ، نظرا لكثرتها وتشعبها مما يجعل الإحاطة بها أثرا شاقا [1].

ب- المرحلة الثانية:تحليل و مقارنة نقد المشاهدة:

كان الفضاء الفكري لنصوص أدب الرحلة يفيض بروح إسلامية وأسلوب مقتحم بشتى الإقتباسات الدينية من نصوص قرآنية و حديث و أدعية و أثار الصالحين و ذكر لمقالبهم [2] فساهم الرحالون الأوائل مساهمة بارزة بوضع المعالم التاريخية لوصول الثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء فكل واحد من هؤلاء الرحّالة يستحق أن يكون موضوع دراسة خاصة من أجل توضيح مساهمته المتميزة في نقل و تحليل مشاهد التراث الإسلامي في اقطار إفريقيا جنوب الصحراء [3].

يعتبر العلامة عبد الرحمان بن خلدون (732هـ-808هـ) (1331م-1405م) إضافة إلى كونه مؤسس علم الإجتماع و عالم معدود من علماء التاريخ سابق لجميع العلماء الغربيين بأكثر من خمسة قرون في مجال التربية المقارنة حيث إنه كان أول من ربط بين نظم حياة المجتمعات التي توجد فيها تلك النظم وقد ذكر ذلك في مقدمته في الكتاب الأول من كتابه

[1]. حسن الشاهدي:المرجع السابق ،ص533.

[2]. بولعسل كمال: سيمائية الفضاء في رحلة أبي حامد الغرناطي،رسالة الماجستير – شعبة السرد العربي القديم- كلية الأداب و اللغات،قسم اللغة العربية وأدابها،جامعة منتوري،قسنطينة،2006/2005،ص18.

[3]. شارنو كاه الحبيب: الثقافة الإسلامية بافريقيا جنوب الصحراء ،منشورات مؤسسة التميمي ،تونس،د س ن،ص67.

المشهور (كتاب العبر و ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) [1]. إتبع المنهج المقارن في حديثه عن بلاد العالم المختلفة وكان منهج ابن خلدون تطويرا لمنهج من سبقه مثل ابن بطوطة [2] وابن جبير[3].

حيث إنه امتاز عنهم بسعة أفقه و شمولية منهجة وموسوعيتة وقد إشتملت مقدمته على ستة أبواب ، تحدث في الباب السادس في نحو خمسين فصلا، عن العلوم وأفرد فصلا خاصا عن تعلم الولدان وإختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه وتحدث عن مواضيع كثيرة كلها تختص بطرق التعليم و التربية في شتى البلدان ، ويقول ابن خلدون عن الإختلافات بين البلدان الإسلامية –في المشرق و المغرب- في أمور التعليم إختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان وإختلافهم ، باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات فمذهب أهل المغرب في الولدان الإقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم في أثناء الدراسة بالرسم والمسائلة وإختلاف جملة القرآن فيه ، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعاليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب إنقطاعا عن العلم بالجملة .

وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى في تعليم ولدانهم إلى أن يجاوروا حد البلوغ الى الشبيبة.

وأما أهل الأندلس فمذهبهم في تعليم القرآن و الكتاب من حيث هو وهذا ما يراعونه في التعليم ، إلا أنه لما كان القرين أصل ذلك ، ويتبعه العلوم جعلوه أصلا في التعليم ، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية و حفظها و تجويد الخط و الكتاب.

وأما أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ودراسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها ، إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار إياه ، وإطلاعهم على إختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه.

وأما أهل الشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا ولا أرى بأيهم اعتنوا ، والذي ينقل أن عنايتهم بدراسة القرآن ووصف العلم و قوانيينه من زمن الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط ، بل إن لتعليمه عندهم قانون وله معلمون يعلمونه على إنفراد كما تتعلم سائر الصنائع.

[1]. إبن خلدون:المصدر السابق.
[2]. إبن بطوطة : المرجع السابق.
[3]. إبن جبير : المرجع السابق.

أما الآثار التربوية الناجمة عن هذا الإختلاف في طرق دراسة القرآن الكريم فيوضحها إبن خلدون على النحو التالي:

بالنسبة لطريقة أهل المغرب أدت إلى قصور ملكة اللسان العربي لديهم ، لأنهم لم يدرسوا شيئا من كلام العرب في حياتهم ، أما أهل الأندلس فأفادتهم طريقتهم من التمكن من اللغة العربية وحصول ملكتها و البراعة في الخط والأدب إذا ما حصلت لهم فرص تعزيزها وتثبيتها بعد تعليم الصبا،أما أهل إفريقية فهم أحسن حالاً من أهل المغرب في إجادة ملكة اللسان العربي إلا أن ملكتهم قاصرة عن البلاغة.

ولم يقتصر إبن خلدون على وصف الحالة التعليمية في مختلف الحواضر الإسلامية بل تحدث عن أمصار غير إسلامية فيقول :"بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الفرنجة من أرض رومة وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق ، وأن رسومها هناك متجددة ، ومجالس تعليمها متعددة ، ودواوينها جامعة متوفرة ، وطلبتها متكثرة " [1].

وفي موضع أخر يصف مقدار تقدم العلوم العقلية عندهم عظيما ونطاقها متسعا لما كانت عليه دولهم من الضخامة وإتصال الملك...وأما الروم فكانت تهتم بالعلوم العقلية أيضا ، وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب ، وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطير الحكمة وغيرهم سواء كان ذلك في المدارس أو المساجد التي كانت بمثابة جامعات [2].

وقد فسر إبن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي قضية مهمة شغلت مفكري التربية في عصر النهضة والإصلاح الديني في أوروبا بعد ذلك ، وهو مكان التعلم الديني بالنسبة للتعليم بصفة عامة ،وبالرغم من أن إبن خلدون معروف بين المؤرخين الغربيين غير المتحيزيين على أنه مؤسس علم الإجتماع إلا أن إشارته لنظم التعلم في البلدان الإسلامية في عصره جعلت اسمه يرد ضمن رواد التربية المقارنة في الفترة الفترة السابقة للقرن التاسع عشر في أوروبا.

من خلال ذلك العرض نخلص إلى أن إبن خلدون استطاع أن يجري مقارنات حية عن نظم الحياة في كثير من البلدان التي زارها ، ويمكن القول أيضا أن المنهج الذي إتبعه إبن خلدون في مقدمته كان المنهج المقارن حيث نراه يعرض القوى الثقافية في خمسة أبواب ، ثم يأتي الحديث عن هذه القوى الثقافية بأثرها على التعليم ، وهو في حديثه عن القوى الثقافية وحديثه

[1]. الخطيب البغدادي: تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم ، تلخيص وترتيب سامي الصقار ، ط1،دار المريخ ،الرياض 1401-1981ص 169.

[2] . Yattara El mouloud : L'islam et les voies de sa diffusion au Mali du VIIIème au XVIème siècle. P02.www. histoire-afrique.org

عن التعليم يشهد بالأمثلة الحية من التاريخ القديم و الحديث ، ومن بلاد العالم المختلفة التي تتفاوت ظروفها الجغرافية و السياسية والاقتصادية والحضارية ، مستخدما منهج البحث العلمي الحديث كلها فيما عدا المنهج التجريبي.

وكان المنهج الذي إتبعه ابن خلدون في تطوير مناهج السابقين من أمثال "إبن جبير"و"إبن بطوطة" الذين إتبعوا إبن خلدون المنهج الوصفي و المنهج الإسترادي غالبا ، دون غيرهما من المناهج وهو يمتاز عنها بسعة أفقه وشمول منهجه .

وتأسيسا على ما سبق يمكن القول أن إبن خلدون في منهجه المتمثل في دراسة الظواهر الإجتماعية من منطلق أنها محكومة في سيرها بقوانين تشبه ما عداها من الظواهر الطبيعية ، كان غير مسبوق من كوكبة المؤرخين ، والذين يرون خضوع الظواهر الإجتماعية إلى قوانين موضوعية ، وبالتالي يجب أن ينصب العمل النهائي على وضع القوانيين وتوظيفها بما يفيد إصلاح نظم الحياة في البلاد المختلفة.

لقد كان هاجس الرحّالة الأوائل هو الرصد الجغرافي للأقاليم ، وصور البلاد والأنهار والجبال والبحار والكور والتخوم ، موجهين بهاجس الفتوحات والامتداد الكبير الذي عرفته البلاد الإسلامية ، وقد برز في هذا الميدان الإدريسي ، واضع أدق الخرائط الجغرافية ، ومعروف عنه أيضا أنه واضع الكرة الفضية التي رسم عليها أقاليم العالم ، إضافة إلى إسهامات البيروني وإبن بطوطة وإبن حوقل وإبن خدراذبة و الغرناطي على الصعيد الإتنوغرافي .

كانت الرحلة خزانا راصدا لثقافة الإنسان ، حيث الوصف الدقيق والمترابط لثقافات المجتمعات ويساهم علم الأتنوغرافيا [1] " بمسح خصائص الثقافات المختلفة للإنسانية كالعادات والتقاليد والمطعم والمشرب والملبس والمعاملات اليومية والممارسات الدينية " ويندرج ضمن ذلك دراسة البيروني لثقافة الهند التي مكث بها [2] ، وبذلك يعد أدب الرحلات إحصاء إثنوغرافي .

أما على المستوى الديني فقد كان حافز نشر الدين الإسلامي السبب في أغلب الأحيان في مباشرة الرحلة ،ه ذا الحافز الذي أملته حالة الحضارة الإسلامية التي كانت في أوج عطائها وإزدهارها ، وما صاحبها من فتوحات وتوسعات إمتدت من غرب الصين شرقا الى المحيط

[1]. محمد حسين فهيم: أدب الرحلات، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت، 1989، ص50.
[2]. فؤاد قنديل:المرجع السابق، ص300.

الأطلسي غربا حيث أن رجال الرحلة الذين سافروا و جابوا في البلاد و إجتازوا المسافات وهذا العمل كان أيضا نتيجة الوازع الديني دفع بالعلماء [1] و الفقهاء إلى زيارة الأمصار البعيدة ، مدفوعين بهاجس الجهاد و الدعوة إلى الدين الإسلامي ، أو أنهم كانوا على رأس بعثات رسمية لتوطين الدين الجديد .

إن دراسة أدب الرحلة في واقع الحال لابد أن يخضع لدراسة النص من خلال اختماره وتطوره داخل بيئته الثقافية و الحضارية ، بالارتكاز على مرحلة زمنية محددة ، هذه الدراسة التي تعزوها موضوعية البحث الداخلية الكامنة داخل نص أدب الرحلة ، والتي من شأنها أن تتيح الوقوف على حقائق الإشغال المعرفي والبنائي لهذا النص ، وتمكننا من القبض على ماهيتة وتصنيفه فيما بعد في خانة الأجناس الأدبية ، وإثبات مدى "تغلغل روح القص لدى مبدعيه [2].

إن إنتاج وإشغال أدب الرحلة يتم على أكثر من صعيد ، ويعمل لصالح عدة أهداف علمية دينية وحضارية وأدبية بإعتبار السفر جامعة تحتفل بالدروس و العبر .

وهذه الأهداف تحكمها حضارة العصر وتقاليده الثقافية ، فمن الناحية العلمية يعد أدب الرحلة فاعلا أساسيا على الصعيد الجيوسياسي حيث يعد وثيقة جغرافية ثرية أقامت صرح الجغرافيا الوصفية ، هذه الإسهامات التي رسمت أفقا علميا جليا للعالم خلال مختلف العصور وخاصة العصور الوسطى و الحديثة ، إضافة إلى معلومات في غاية الأهمية على صعيد التاريخ [3].

---

[1]. فؤاد قنديل:المرجع السابق،ص164.

[2]. عبد العزيز بن عبد الله : الرحالة العرب والمسلمون من المغرب المرجع السابق، ص195.

[3]. فؤاد قنديل:المرجع نفسه ، ص21.

المطلب الثا ني : منهج رحالة الغرب:

لأن الرحّالة ليس إنسانا عاديا فهو ذو قوة نفسية كبيرة وطاقة حضارية وعلمية عالية (كل ذلك يعطيه) منحا خاصا في إختراقة للأقاليم ومخالطته للأمم والثقافات ، فتثير في نفسه حركة الإنتقال فوق المكان وعبر الزمن رعشات نفسية من التأثر و الدهشة و الغرائبية ، كل هذا الإهتزاز الحضاري و الجغرافي ، لايمكنه أن يكبح بل يتم تخريجه بحركة أسلوبية كبيرة مماثلة على مستوى الشكل المادي للنص ، وبالتالي فإن الرصيد المعرفي المنقول يصاحب قالب أسلوبي ، يربط عناصره المشتتة و يعطيها إنسجاما موضوعيا على مستوى نفس نص الرحلة [1].

لقد مرت الرحلة عند علماء الغرب بعدة مراحل حتى وصلت إلى المرحلة الحالية ومن أهم المراحل :

1) مرحلة وصف الحياة في البلاد الأجنبية.
2) مرحلة وصف نظم الحياة في البلاد الأجنبية .
3) مرحلة التعرف على التراث في إطار العوامل الثقافية للمجتمع.
4) مرحلة التعرف على التراث في ضوء التفسير العلمي أو التجريبي.

أ- المرحلة الأولى:مرحلة وصف الحياة في البلاد الأجنبية:

تتمثل هذه المرحلة بالرحلات و الزيارات التي كان يقوم بها الرحّالة و الزائرون للبلاد المختلفة ، وذلك قصد وصف نظم الحياة و الكيفية التي تطور بها تراث المجتمعات ،وغير ذلك من الأمور التي لها إرتباط بنظام الحياة ، وهذا الوصف يمكن أن ينقل إلى مجتمع آخر بالمشافهة ، أو عن طريق كتابتها و تسجيلها.

ولعل من أقدم هذه الكتابات ما كتبه الرحّالة الإغريقي بيتياس ، الذي كان يستوطن مرسيليا في فرنسا والذي كان أول من إكتشف الجزر البريطانية وقد سجل رحلته واكتشافه في كتابه "في المحيط".

ومن أشهر تلك الكتابات القديمة أيضا "رحلة ماركو بولو"والتي سجل فيها رحلته التي قام بها في فينيسيا بإيطاليا وزار فيها الشرق الأقصى ، ثم سجل رحلته هذه في كتاب يحمل إسمه في العصور الوسطى كان للمسلمين السبق في وصف الحياة في البلاد ، كما بيّنا ذلك في

---

[1]. بولعسل كمال:المرجع السابق،ص27.

الصفحات السابقة ، أما دور الغرب في هذه الفترة فقد كان محمدود ، نظرا لإنعدام الإستقرار السياسي و الإجتماعي الذي عانت منه أوروبا حوالي قرنيين من الزمان.

ب-المرحلة الثانية:مرحلة وصف التراث في البلاد الأجنبية:

وقد تضمنت الفترة مابين نهايات القرن الثامن عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر، وكان هدف الباحثين فيها جمع البيانات الوصفية عن النظم التراثية الأجنبية ، ودراستها بغرض إستعارة أفضل ما يمكن استعارته منها كلما أمكن ذلك لإصلاح الأوضاع المحلية .

ومن أمثلة تلك الدراسات ماكتبه فردريك أوجست هجت تحت عنوان "مقارنة بين النظم التعليمية الإنجليزية والألمانية " ، وقد نشر ذلك الكتاب اللاتيني في عام 1795م ، فحص فيه المدارس الإنجليزية والألمانية فحصا وصفيا ، وأجرى بعض المقارنة ، وعندما أراد بطرس العظيم قيصر روسيا ، إحداث تغيير جذري في مجتمعه بهدف جعله يقف على قدم المساواة مع شعوب غرب أوروبا فقد أرسل بعض موظيفه للدراسة في المدرسة البحرية الرياضية الملكية المشهورة وذلك بقصد إقامة مؤسسات مشابهة [1] .

وقد حدث نفس الشيء في إمبراطورية النمسا حين طلبت ملكتها ماريا تيريزا من مستشاريها الأمير كونتش تجميع بيانات عن الإصلاحات في الدول الأجنبية بقصد وضع مخطط شامل لتنمية المجتمع في إمبراطوريتها ، وفي عام 1774م أرسل المستشار الأمير كونيش كتابا إلى جميع سفارات النمسا طالبا بيانات عن مختلف جوانب النظم التراثية في البلاد التي توجد بها هذه السفارات ، و التي يمكن أن تكون ذات فائدة في تطور إمبراطورية النمسا ، وخاصة في تحسين و تطوير أساليب التعليم.

وفي عام 1808م أصدر باست - أحد أساتذة التاريخ- مقالا عن التراث ، خصص فيه جزءا عن فائدة تدوين المشاهدة والملاحظة بوجه عام في الدول الأجنبية ، نادى فيه بضرورة تعيين موظف من بين العاملين بالجامعات تكون مهمته السير إلى البلاد الأجنبية ، ليحصل على ملاحظات نظم الحياة ، كما طالب بأن يكون ذلك الموظف عالما ، بعيدا عن التعصب القومي، ذات قدرة أدبية ، واعيا بشؤون الإدارة ، ملما بكل نواحي التربية الحرة و الشعبية ، قادرا على التوجه إلى كل الجهات التي تقدم له بحوثا ذات قيمة ، وأن يؤدي المؤرخ ، وأن يحكم على الناس والأشياء في ضوء حقائق ثابتة مقررة لا في ضوء نظم مكتوبة أو خطط نظرية .

---

[1]. إسماعيل زردومي : المرجع السابق ، ص 128.

وقد ظهرت الطبعة الثانية لمقال باست في عام 1814م ، وانتشرت بين طائفة كبيرة من القراء ، وقامت صحيفة التربية في فرنسا بالتعريف بذلك المقال في فبراير 1816م .

ومن الملاحظ أن مارك أنطون جوليان الفرنسي بدأ في نشر مقالاته عن الرحلة و الترحال في ديسمبر من نفس العام في نفس الصفيحة ، وأصبح الكثير من المؤرخين الغرب يعتبرون مارك أنطون جوليان أول مؤسس لأدب الرحلة المقارن في وضعها العلمي الحديث .

ويرى جوليان أن دراسة أدب الرحلة يحتاج لكي يرتقي إلى مستوى العلوم الحديثة أن يتوفر لها عنصران أساسيان هما :

- التحليل المقارن للأحداث.
- اكتشاف القوانين والأسس التي قام عليها تراث الأمم ، و التي لا تفسرها و حسب وإنما تضع الأساس لها كنشاط تطبيقي يمكن النقل عنه كمرحلة لبناء الحضارة الإنسانية .

وقد تزامنت كتابات جوليان مع فترة الموجات الاستعمارية وكان الإعتقاد السائد في ذلك الوقت أن الرحّالة الغربيين عيون المستعمر بل هم الجواسيس على إعتبار أن الرحلات ليست للتأريخ بل للجغرافيا التي سيستفيد منها الأستعمار[1].

وقد أكدت الأحداث التاريخية فيما بعد ، من خلال محاولة الدول الاستعمارية فرض أنظمتها الحضارية و لغتها الأجنبية وثقافتها على الدول المستعمرة ، وقد تفاوتت درجة نجاحها في هذا المجال بحسب درجة مقاومة الثقافة و اللغة القومية للثقافة واللغة الغربية ، ففي الوقت الذي باءت فيه بالفشل محاولات الاستعمار الانجليزي لفرض لغته كلغة تعليم في مصر ، نجح في الهند وفي بعض البلاد الإفريقية كما نجحت فرنسا في فرض تأثيرها الثقافي على دول إفريقيا جنوب الصحراء .

ج- المرحلة الثالثة: مرحلة النقل والاستعارة:

يطلق على هذه المرحلة مرحلة النقل والاستعارة ، ويؤرخ لها أنها بدأت في العقد الثاني من القرن التاسع عشر حتى نهايته ، وقد تميزت كتاباتها بمايلي :

1) أنها كانت وصفية في معظمها تعتمد على دراسة الحالة.
2) أنها كانت لا تحتوى على النقد أو الدراسة العلمية للنظم التراثية بقدر ماكانت تمتدح أو تذم تلك النظم.

---

[1]. إسماعيل زردومي : المرجع السابق، ص 127.

3) أن غرضها كان نفعيا ، إذ كان الدارس يهدف إلى البحث عن معلومات يقدمها إلى بلده كمعلومة تجسس أو بغرض استعارة بعض جوانب النظم الأجنبية لتعديل النظام في بلده أو تجسينه.

ج- المرحلة الرابعة:مرحلة التعرف على التراث في إطار العوامل الثقافية للمجتمع.

وتمتد هذه المرحلة (مرحلة القوى و العوامل) من أوائل القرن العشرين وحتى منتصفه ، وفي هذه المرحلة تحول الاهتمام من مجرد وصف التراث ، وجمع الحقائق والملاحظات عن هذه النظم إلى الإهتمام بالعوامل و القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تمكن وراء الظواهر التراثية من أوجه تشابه واختلاف وقد كان من نتائج هذه المرحلة عمليات النقل من بلد لآخر.

وقد تأثرت في مجال الرحلة طيلة النصف الأول من القرن العشرين بالقواعد التالية:

1) ضرورة دراسة النظم التراثية الأجنبية دراسة علمية و موضوعية.
2) إدراك أن التعمق في الدراسة تجعل الباحث أوالرحّالة أكثر قدرة على فهم التراث المادي و اللامادي في البلدان التي زارها و المقارنة بما يوجد في وطنه الأول.
3) إضافة العامل الاجتماعي – الأنسان- كمؤثر عام ، إلى جانب العوامل التاريخية في تنوع التراث.

د- ملاحظات على كتابات الرحالة و المستشرقين:

من الأخطاء التي قد تحدث فإن مصدرها الترجمة غير الصحيحية ، لذلك يجب أن يكون هناك تعاون عملي بين المترجم وبين الباحث المهتم بالموضوع ، كالحكايات ، والأمثال ، و العادات ، والمعتقدات.. وفي بلاد إفريقيا جنوب الصحراء يكون من المفيد أن تتم مراجعة المواد المترجمة مع رواة كبار- إذا بقي أحد منهم على قيد الحياة - من المنطقة التي أخذت مادة الكتاب منها .

لأن هناك كثيرا من التعابير والمصطلحات الشعبية ، والألفاظ الخاصة ببيئة معينة ، أو حرفة معينة يصعب أن يستوعبها أيُ مترجم إلا إذا كان من البيئة ذاتها ، وعلى معرفة جيدة بتراث منطقته ، لأن كثيرا من أبناء تلك البيئات قد أصبحوا في أيامنا بعيدين عمليا عن روح بيئتهم ، ومعجمها اللفظي ، ولهذا لابد من شرط المعرفة و المعايشة المستمرة ، وفي جميع

الأحوال لابد من مراجعة كبار السن للتيقن من المعلومات وصحة التعابير المعّربة من أجل الإحاطة والإطلاع على كل المراحل التاريخية للرواية [1] .

ويجب ألا يغيب عن بال أي باحث ميداني أن يراعي الزمن ، وتغير ظروف المعيشة ، وتطور أساليب العمل والانتاج والسكن وظهور المذياع ثم التلفاز وما تلاه ، وإنتشار المدارس ، وإتساع مجالات الاختلاط السكاني بين البيئات المختلفة ، بعد ثورة الاتصالات والمواصلات ، وكثرة المؤثرات ذات الطابع الإعلامي – الثقافي...وقد لعبت كلها مجتمعة دورا في تغيرات جذرية في اللهجات ، والأدب الشعبي ، و العادات والتقاليد ، وأساليب العيش ، و اللباس ، والطعام..مما يجعل كثيرا من الأمور القديمة خارج نطاق اهتمام الأجيال الشابة ، بل محلّ استهجانها و دهشتها أحيانا نتيجة الأختلاط البشري [2] .

وهذا ما يحملنا- أفراد وجهات رسمية- مسؤولية كبرى أمام تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء وإرثها الثقافي ، تفرض علينا الإسراع بترجمة ما يخص تراثنا من مؤلفات الرحالة ، و تعريب ما يحتاج تعريبا لمراجعة كبار السن به قبل فوات الأوان ، حين لانجد من نرجع إليه من رواتنا من حملة تراثنا الشعبي.

ومن الأمور التي يجب الانتباه إليها أن الرحالة الأوروبيين ،على الرغم من تحليهم بدقة الملاحظة غالبا ، وتسلح أكثرهم بمناهج البحث والجمع الميداني، والخبرة العلمية الواسعة ، إلا أنهم وقعوا في أغلاط كثيرة ، نتيجة عدم التمكن من اللهجات العربية الكثيرة ، أو استخدامهم مصطلحات و تعابير شائعة في بلادهم ، لا تخلو من نقص معرفي بالبيئة العربية والمجتمع العربي وأحيانا لتحامل مقصود [3].

ومن أبرز هذه الأمور التي يجب الانتباه إليها عند ترجمة كتب هؤلاء الرحالة والمستشرقين:

1- عدم تمكن الأوروبيين من اللفظ الصحيح لبعض الحروف العربية مثل (الحاء) و(الخاء) و(العين) و(الضاد)...أدى ببعض الرحالة إلى كتابة بعض أسماء الأماكن والأشخاص وغيرها من أشياء كتابة محرفة ، مما يفرض على المترجم و المعرب الرجوع إلى المنطقة الأصلية ، ومراجعة المسمّيات مع رواة عارفين من سكانها.

---

[1]. حيدر جاسم الربيعي : المرجع السابق ،ص 46.

[2]. محمد مسعود جبران : المرجع السابق، ص 154.

[3]. محمود مفلح البكر:المرجع السابق، ص 66.

2- كثيرا ما ورد في كتاباتهم عبارات "مغلوطة" مثل عبارة (العرب و الأتراك) ويقصدون (البدو و القرويين أو الفلاحين أو حتى سكان المدن العربية) ، فكل من هو غير بدوي كانوا يصفونه بـ(التركي) . [1]

3- كثيرا ما يستخدم الأوروبيين كلمة (أتراك)مرادفا لكلمة (مسلمين) فكل المسلمين في نظرهم أتراك ، كما في كتابات (جوزيف بتس كقوله : (ولما عرفوا أننا أتراك) يقصد مسلمين.

4- نجد في كتابات بعضهم عبارات و كلمات تهدف إلى النيل من العرب والمسلمين .والإساءة إليهم ، كوصف (بتس) المسلمين بـ (السبتيين) أي اليهود ، ويقول عن يوم الجمعة بأنه (يوم سبتهم)، ووصفة الكعبة بالوثن كقوله : (و الكعبة هي مقصد عبادة المسلمين ووثنهم الذي يعبدونه) ، فالحق أن المسلمين لا يعبدون الكعبة ، كما أنها ليست وثنا يعبد ، ففيها حطمت الأوثان .

5- لما كان الرحّالة الأوروبيين كثيرا ما كانوا يبحثون عن الأمور المدهشة والغريبة ،وغير العادية ، ويلحّون في طلبها فإن بعض الرواة العرب كانوا حين يلمسون هذه الرغبة عند الأجانب يطلقون لخيالاتهم العنان ، ويبدعون الخزعبلات ، والخوارق التي لا علاقة لتراثنا بها ، ويسهبون في ذلك إشباعا لهمّ الأوروبيين المتعطشين لسماع الغرائب وهناك أمثلة كثيرة جدّا.

فعلى المترجمين التنبه لهذه الخزعبلات ، وعدم أخذها أمورا مسلما بها ، وتنبيه القراء في الهامش لمثلها ، فتخابث بعض الرواة لا يقتصر على الأوروبيين بل كثيرا ما يخدعون الباحث العربي القادم من المدينة ، أو حتى من الريف نفسه إذا لمسوا فيه نقصا في المعرفة ، وضعفا في دقة الملاحظة [2].

وكثير من الرواة لا ينقصهم الدهاء ولا الخيال المحلق و القدرة على التأليف ، فيبدعون على البديهة قصصا من خيالهم وخزعبلات لا علاقة لها بالتراث .

لذلك كان من المهم في الدراسات التاريخية ، الاهتمام بشهادات وانطباعات الرحالة ، وملاحظاتهم التي يسجلونها في رحلاتهم للمناطق التي يمرون بها ، لما تضمه هذه الكتابات من فوائد ومعلومات تاريخية واجتماعية و تراثية .

فأخذ هذا النوع من التدوين حيزا واضحا في كتابة التاريخ ، وخصوصا ما يتعلق منها بالشرق ، لأنه مثّل في العهود السابقة عالما خفيا ، على الغرب قبل أن يستكشفه ، ويفهم السحر

---

[1]. انظر مثلا كتابات (بركهارت) في كتابه:(رحلات في سورية والبلاد المقدسة).

[2] . ماجدة كريمي: المرجع السابق ،ص 189.

الذي يولده في نفوس الأوروبيين ، وكشف النقاب عن المجهول من الطبيعة والبشر فأسهم العديد منهم بإيجابية ، في إيجاد قاعدة معلوماتية عن الشعوب الشرقية ، في وقت قل فيه التدوين التاريخي لبعضها بشكل ملحوظ .

وفي القرون اللاحقة تحولت جهود بعض الرحّالة إلى مقدمات لفتوح استعمارية ، وابتعدت عن روح الكشف و العلم ، وعلى الرغم من تعدد دوافع الرحّالة ، سواء كانت معلنة أم غير معلنة ، فإن هناك مجموعة من الصفات قد اشتركت بها كتاباتهم ، أبرزها دقة الملاحظة ، والوصف والتقصي في تسجيل المشاهدات ، والحرص على التمييز بين المشاهدة على أرض الواقع و الرواية نقلا عن الغير[1].

وقد تحولت هذه المواصفات إلى قواعد مهمة وأساسية في منهجة البحث الميداني ، وخصوصا في مجال الدراسات الإثنوغرافية [2] .

هـ - تطور العلاقات بين الشرق و الغرب:

تحول التفاعل في العلاقات بين العالمين المسيحي والإسلامي ، ليأخذ اتجاها يميل نحو الواقعية ، ولو بوتيرة غير متسارعة ، ومتراجعة أحيان متعددة ، وقد أوجدت التغيرات المتعددة في هذا التفاعل ، مجموعة من المشتركات بين الشرق والغرب ، بدأت تأخذ حيزا في التعامل بين الطرفين ، لم يكن متداولا سابقا .

فالحضارتان الإسلامية والمسيحية - مقارنة بالحضارات والأديان القديمة في الهند والصين مثلا - تشاركتا في تراث عام في مجالات عدة متعددة ، وبحكم منطقة إنتشار الحضارة الإسلامية ، في المنطقة نفسها التي إنتشرت فيها الحضارة المسيحية أو قريبا منها ، تناولت في تراثها مجالات مهمة ، أسهمت في تشكيل حضارتها الخالدة.

فالفلسفة و العلوم اليونانية ، والديانة و الشريعة اليهودية – المسيحية بحكم امتدادها لهاتين الديانتين السماويتين - جعلت بالإمكان توفر مستوى معين من الاتصال بين المسلمين و المسيحيين ، حتى في مجتمعات العصر الوسيط المتعصبة.

---

[1] .Djobo hamani : Ibn Battuta Historien de L'espase nigérien ; colloque international ; fés et l'afrique ; institut des Etudes africaines ;Rabat ,28-30 october 1993 ;page 37.

[2]. وداد نصر محمد السيد الطوخي : مدينة تنبكت منذ نشأتها وحتى دخول السعديين ، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ، 1986، ص 142.

- **الإثنوغرافية** فرع من علم الإنسان يقدم أوصافا علمية للثقافات المعاصرة ، ويشير المصطلح أيضا إلى كل ماهو مكتوب أو مصور أو مسجل يقدم مثل هذا الوصف ، ومادة الدراسة تتناول جماعة أو مجموعات مختلفة أو شعوبا متجاورة و مقارنة أوجه الشبه والإختلاف سلوك هذه الجماعات ، ويتطلب الأمر العمل الميداني و العيش مع الناس و دراسة ثقافاتهم و أساليب عيشهم

وتجدر الإشارة الى أن طبيعة القوى الحاكمة الجديدة في الشرق - في فترة ما بعد المغول في تركيا وبلاد فارس وآسيا الوسطى و الهند - امتلكت استمرارية انتظام في هيكليّتها الإدارية ، بشكل مختلف عما هو موجود في الإسلام الكلاسيكي.

وفي عهد سيطرة الإمبراطورية العثمانية ، انسجمت العربية والفارسية والتركية ، كأدوات ثلاث لحضارة ذات نمط سياسي فاعل في الشرق ، وأخذت المقارنة حتى في اللغة السياسية في الشرق الإسلامي ، ومثيلتها في الدول الأوروبية الفاعلة في توازن القوى ، توجد مشتركات تاريخية في معجم المشترك ، من الكلمات الدخيلة من اليونانية و اللاتينية و الترجمة الحرفية من العربية وبشكل أقل من كلمات ذات أصل عربي في اللغات الأوروبية [1].

هذا الموروث فضلا عن التغيرات السياسية - الدينية في أوروبا والتي ابتعدت بالفكر الأوروبي عن العقلية التي واجه بها الفاتيكان وصف رحلة ماركو بولو للشرق ، والمتمثلة باتهامه بالكذب ، ومطالبته وهو على فراش الموت بإنكار ما رآه ، على الرغم من أن إنكار الرحلة ولا إثباتها ، لم يعد هو العامل الحاسم في الأمر ، إنما ما قامت به الرحلة من عملية تهديم لكل ما يحيط بأوروبا آنذاك،قد أثبتت أن أوروبا ليست هي مركز العالم،ولا ديانتها هي الوحيدة [2] .

وما حصل على أرض الواقع ، من تقلبات في صراع القوى في الشرق ، أدى إلى التمييز بين نمطين من التفاعلات:

1- يظهر فيه تحالف مملوكي-مغولي مسلم في مواجهة تحالف مغولي وثني – صليبي.

2- فيظهر فيه تعاون أو تحالف مملوكي-مسيحي بيزنطي أو إفرنجي، في مواجهة التحالف المغولي الصليبي نفسه، وهما نمطان متداخلان ومتزامنان ظهرا في ثلاث مراحل[3].

فقد بدأت الأهمية السياسية للقاهرة تتصاعد مع مرور الزمن ، حتى صارت العاصمة الفعلية العالم الإسلامي ، في عصر سلاطين المماليك ، بعد أن أحيا السلطان الظاهر بيبرس الخلافة العباسية ، إحياء شكليا سنة 1261م ، وبعد أن أصبحت موئلا للهاربين من تفاقم الأحوال في مشرق العالم الإسلامي ومغربه على السواء .

---

[1]. كارل بروكلمان:تاريخ الشعوب الإسلامية،ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي،ط5،دار العلم للملايين،1968،ص310.

[2]. بيير جوردا:الرحلة الى الشرق،رحلة الأدباء(الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر)،ترجمة مي عبد الكريم و علي بدر،ط1،دار الأهالي للطباعة و النشر،دمشق،2000،ص10.

[3]. نادية محمود مصطفى:العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، ج10، العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996، ص23-28.

ولهذا ظلت القاهرة هدفا للرحالة المسلمين والأوروبيين طوال ذلك العهد ، والملاحظ أن العلاقات مابين المدن و الجمهوريات الإيطالية ، كالبندقية و جنوه و فلورنسا المماليك ، كانت منذ الحملات الصليبية عميقة ومتشعبة .

فالمدن الإيطالية كانت تسعى جاهدة للإبقاء على الأسواق في مصر والشام مفتوحة بوجهها عن طريق إرسال التجار و السفارات و تعيين القناصل ، بهدف المحافظة على الأرباح الوفيرة [1].

هذا التمثيل الدبلوماسي و السفارات المتتابعة لم تكن تقتصر على طرف دون الأخر في هذه المرحلة ، بل شارك بها الطرفان ، فعلى الرغم من أن أوروبا لم تكف عن التفكير في الأخذ بثأرها من الإسلام ، حتى بداية و نجاح الكشوف الجغرافية ، إلا أن الحروب الصليبية من ناحية أخرى ، خلفت نوعا من العلاقات غير الحرب والعداوة ، وهو التجارة و التبادل الدبلوماسي.

فهناك العديد من السفارات والرحلات التي قام بها مبعوثو السلاطين المماليك إلى أوروبا ، كسفارة ابن محفوظ في عهد السلطان قايتباي إلى فلورنسا سنة 1487م ، وسفارة الأمير تغري بردي إلى البندقية ، لشراء الخشب وطلب المعونة لبناء أسطول بحري يمكن المماليك من مقاومة البرتغاليين في البحر الأحمر.

وأدى نجاح البرتغاليين في قهر المراكز التجارية العربية والإفريقية على طول السواحل المطلة على المحيط الهندي ، إلى كساد اقتصادي في ثلاث مناطق رئيسية فقدت أهميتها تدريجيا هي:الشرق الأوسط، سواحل شرق إفريقيا ، دول حوض البحر المتوسط [2].

فتغيرت نظرة الأوروبيين إلى الشرق ، وبدأت طبيعة العلاقة تأخذ منحى جديا لم تشهده من قبل ، فتحول الشرقي إلى الند ، ومن أبرز السفارات التي قام بها الأوروبيون إلى الشرق ، نذكر البعثة الفلورنسية إلى القاهرة والتي اضطلع بها السفير دي لاستوفا (de lastova) سنة 1489م ، والذي عاد إلى إيطاليا برفقة بعثة مملوكية يرافقها مبعوث بابوي إلى مصر.

كان في طريق عودته إلى روما تتعلق بموضوع الأمير جم ، وفي سنة 1484م - 1489م ، أرسل بابا الفاتيكان- انوسنت الثامن إلى القاهرة ، لغرض تأكيد وإبقاء الامتيازات الممنوحة للرهبان الفرانسيسكان في جبل صهيون ، والتي قد تم تأكيدها سابقا

---

[1]. نعيم زكي فهمي:طرق التجارة الدولية و محطاتها بين الشرق و الغرب أواخر العصور الوسطى،الهيئة العامة المصرية للكتاب ،القاهرة،1973،ص192.

[2]. صلاح الدين الحافظ:صراع القوى العظمى حول القرن الإفريقي، عالم المعرفة، الكويت، 1982، ص39-40.

في السنوات1427م و1464م و 1472م ، كما كان سلاطين المماليك ، يقومون بإرسال السفارات إلى أوروبا ، بالاعتماد على رجال الدين المسيحيين .

كما هو الحال في سفارة أحدهم يدعى الراهب انطونيو ميلان Antonio Millan ، من كنيسة القيامة في القدس ، الذي أرسله قايتباي إلى ملك نابولي يطلب فيها منه مكاتبة ملك قشتالة ، ليوقف هجومه على الأندلس ، كذلك سفارة ماورو سان برناردينو Mauro da San Bernardino إلى جنوب أوروبا سنة 1501م ، بسبب تزايد الخطر البرتغالي ، والذي ظهرت نتائجه السلبية على البندقية أيضا ، فقرر مجلس الشيوخ البندقي إرسال السفير بنديتو سانوتو إلى القاهرة في السنة نفسها [1].

و-إزدياد الأهمية الإستراتيجية و التنافس الأوروبي الواسع:

ازدهر أدب الرحلات في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، كجانب مهم من جوانب الأدب ، الذي لقي اهتماما واسعا من جانب القراء ، واتخذ الاهتمام بالشرق اتجاها آخر، نتيجة للتوسع الاستعماري والتجاري ، ونتيجة لما أحدثته الثورة الصناعية من تكدس الانتاج وضرورة البحث عن أسواق لتصريفه .

ساعد على ذلك اتساع نطاق الصراع البريطاني- الفرنسي ، وتحسن وسائل المواصلات بعد اكتشاف البخار، وهذا الدور يشمل الرحلات التي اتخذت صيغا حديثة ، من ناحية استغلال الرحلات لأهداف شتى ، وقيام أصحاب الرحلات ، بالكتابة وفق منهجية اتسمت بكونها أكثر دقة ، وأوسع إدراكا من الأدوار السابقة ، لما توفر من خبرات في هذا المجال .

وتوضح لدى الكثير منهم ، أهمية العامل الديني والسياسي والعسكري والثقافي والنفسي ، والقناعات الشخصية لمؤلفي كتب الرحلات في تناول شتى الموضوعات ، التي تخص الشرق و الشرقيين بصورة عامة ، وبهذا الخصوص يذكر ويليام ميلر (William Miller) في حديثه عن رحلات الأوروبيين إلى الشرق الأدنى:"إن معظم من كتب عن هذه المنطقة يتعاملون مع الموضوع بروح الانحياز وعدم الحيادية" [2] .

وهذا الكلام فيه الكثير من المصداقية ، وكتابات الرحالة تزخر بالأمثلة على ذلك : فالشرقي متعصب ، قذر في العادات ، متعجرف و يحب السيطرة ، ويشرعن العبودية و البغاء و تعدد الزوجات ، عديم الذوق لأنه لا يمتلك الصور، ولا يحترم الطبيعة ،...الخ[3] .

---

[1].أسعد الفارس : رحالة الغرب في بلاد العرب ، ط 1 ، صقر الخليج للنشر والتوزيع ، الكويت ، 1997 ، ص 21.

[2]. William Miller:Travels and Politics in Stokes Company,(NEW York,1898),p110.

[3]. حيدر جاسم الرويعي:المرجع السابق ، ص68.

إلا إن هذا لا ينفي تناول البعض من هؤلاء ، موضوع الشرق وسكانه وعاداته وتقاليده [1] ، بروح من الموضوعية و الوضوح ، أما ما يرد من أخطاء أو تفسيرات قد تكون غير دقيقة ، فقد يكون مردها إلى عدم الإلمام بالكامل من قبل معظم هؤلاء الرحالة ، لنفسيات أبناء المنطقة المتباينة ومذاهبهم المتعددة ، وما إلى ذلك من اختلافات .

وقد يكون الاطلاع والفهم الكامل لهذه الاختلافات من الامور المستحيلة ، إلا أن الرحلات المتأخرة زمنيا ، أظهرت فهما وإلماما بالمنطقة وسكانها أكثر دقة مما سبق ، ولعل السبب الأهم في ذلك ، يعود إلى تطور وسائل النقل والاتصال ، والإطلاع على الرحلات و التقارير و المؤلفات السابقة ، التي تناولت الشرق والشرقيين ، فتم الاستفادة من مؤلفات الرحالة الأسبق زمنيا بشكل مثالي من قبل الدول و المؤسسات الأوروبية من كافة النواحي .

ولإثبات ذلك سنتطرق إلى أمثلة تتناسب والمساحة المخصصة لهذا البحث ، في سياق الحديث عن هذه المرحلة ، عودا على بدء ، فإن هذه المرحلة تتداخل مع المرحلة التي سبقتها من حيث الزمن ، فنرى أن هناك العديد من الرحلات العلمية على سبيل المثال ، قد كتبت في القرن السادس عشر مثل ، رحلة ليونهارتر اوولف (l.rawolf) المخصصة لدراسة الأعشاب [2].

وكذلك رحلة العالم الدانمركي من أصل ألماني ، كارستن نيبور (k.niebuhr) في القرن الثامن عشر ، بمعية بعثة ضخمة لدراسة الشرق الأدنى في كافة المجالات منها السكان والمدن وطرق المواصلات و النقل و الآثار وجمع المخطوطات و النباتات و المعادن وغيرها.

وقد ذكر فيما ذكر من معلومات عن العراق ومناخه وتربته ، ما جعل دوائر السياسة الاستعمارية الألمانية ، تتوجه بأنظارها نحو شمال العراق لاحتلاله وإقامة مستوطنات فيه.

ولم يقتصر اهتمام الألمان على هذا المجال فقط ، إذ أن تزايد اهتمام الدول الاستعمارية بمصدر الطاقة الجديد ، النفط جعل العراق وجهة العديد من البعثات الجيولوجية و العسكرية و الصحفية ، خصوصا وأن هناك من الرحالة من أشار إلى وجود هذه المادة في العراق ، ومنهم الرحّالة وعالم الآثار و الدبلوماسي الألماني ماكس فون اوبنهايم (Max Von Oppenhiem) و الذي ألف كتابين بالألمانية ، عن مكتشفاته الآثارية في تل حلف ، استفاد

---

[1].أسعد الفارس: المرجع السابق، ص 26.

[2]. يحي مراد: معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العربية، القاهرة، 2006، ص652.

منها مخططو السياسة الاستعمارية ، فتم إرسال البعثة الألمانية إلى العراق ، لدراسة المعلومات المتعلقة بوجود النفط لوضع إستراتيجية مناسبة للاستفادة منه .

فأصدرت البعثة تقريرها سنة 1901م ، وأكدها (Paul Rohrbach) د.باول روهرباخ وهو أحد أساطين السياسة الاستعمارية الألمانية ، مشيرا إلى وجود :"منبع من أغنى منابع النفط في العالم بجوار نينوى حيث تمر سكة حديد بغداد برلين ، وهذا الأمر ينطبق على المؤسسات الاستعمارية البريطانية التي تنبهت إلى توافر النفط في المنطقة ، من خلال المعلومات التي وردت في كتابات الرحالة الانكليز أمثال ج.جاكسون الذي زار كركوك وذكر حفر النفط التي تنتشر بين الصخور، و الرحالة جيمس بكنغهام (James Buckingham) الذي زار شمال العراق سنة 1816م ، وتحدث عن وجود النفط في كركوك[1] .

وكذلك البحث المنشور في المجلة الجغرافية البريطانية في سنة 1897م ، و الذي أعده الضابط البريطاني كابتن مونسيل بعد تجوالة فيها ، فتبين الخطر الذي يمثله هذا المشروع على المصالح البريطانية وطرق مواصلاتها عبر العراق و مصر .

ولم تقف روسيا موقف المتفرج على هذة التطورات ، بل أرسلت بعثة عسكرية برئاسة الجنرال توميلوف لدراسة الأبعاد العسكرية لمشروع سكة حديد بغداد- برلين ، فأبدت معارضة قوية لهذا المشروع ، لما له من نتائج سلبية على الاقتصاد الروسي ، وهذا ما يعني إختلاف الوسائل والغايات بين القوى الغربية الكبرى[2] .

وهذا لا يعني أن الرحلات العلمية كانت مسيّسة ولتحقيق أهداف استعمارية ، بل إن بعضا منها كان من أجل الكشف العلمي لتحقيق أمجاد شخصية ، وإن كان ارتباط أصحابها بدوائر السياسة الاستعمارية ، إذ تكون فائدة هذه الدوائر عرضية و أمرا واقعا .

ونذكر في مجال الرحلات العلمية رحلة الضابط البريطاني ريتشارد بيرتون الاستكشافية إلى مصر لاستكشاف منابع نهر النيل ، والذي اعتبر أول من اكتشف بحيرة تنجانيقا من الأوروبيين ، ومعظم مؤلفاته لاقت رواجا واهتماما لدى علماء الأنثروبولوجيا .

وقد ذكر في حديثه عن رحلاته العلمية أن القصد منها كان :"أن أزيل عن الكشوف الحديثة تلك الوصمة التي لحقت بها متمثلة في وجود مساحات واسعة بيضاء) لا معلومات عنها (في خرائطنا)" .

---

[1]. أسعد الفارس: المرجع السابق، ص 368.

[2]. عبد الرحمان أحمد عثمان: أوجه الاختلاف بين النظم الاستعمارية في إفريقيا ، مجلة دراسات إفريقية ، جامعة إفريقيا العالمية ، العدد العاشر ، ديسمبر 1993 ، ص 84.

ولابد من الإشارة هنا إلى رحلتين قام بها اثنان من الاسبان إلى نجد و الحجاز ، هما كل من دومنيكو باديا (Domingo Badia) (1803-1807م) والذي لبس لباس العرب و تكلم بلغتهم وأطلق على نفسه علي باي العباسي ، و ارستارثو فرانسيسكو (Orrestarrzu Francisco) والذي كانت له رحلتان الأولى للمغرب العربي ، والثانية للحجاز، للتعرف على البلاد الإسلامية و التجول في بقاعها وتسجيل الانطباعات عنها .

وبعض الرحلات كانت علمية لدراسة مراحل وأحداث تاريخية دينية معينة ، كما في رحلة البرفيسور تشارل كليرمونت (Charles Clermont) كان برفقة المهندس المعماري ليكوم دي نوي (lecoumte du Nouy) ، إلى فلسطين والتي (تحملت نفقاتها ما عرفت بلجنة استكشاف فلسطين ،(Committee of Exploration)، وقد عانى المؤلف في هذه المهمة معاناة كبيرة ، لقدسية الأماكن في فلسطين و خصوصا للقدس ، ومن قبل كافة الطوائف المسيحية على اختلاف أنواعها و اليهودية والإسلامية والسلطات العثمانية [1].

وكذلك التدخل الأوروبي المباشر لمساندة هذا الطرف أو ذاك ، وقد أشار في مواضع عديدة من كتابه الذي صدر بمجلدين إلى صعوبة العمل في الأماكن المقدسة ، في ظل الظروف الآنفة الذكر، والتي أجبرته على التكيف معها واختيار المواضع التي بالإمكان أن يعمل فيها بدون إثارة معارضة من قبل أي طرف [2].

وقد تكون صعوبة العمل لأسباب أخرى مختلفة ، فالتنافس بين الرحالة لتحقيق أمجاد شخصية ومكاسب علمية ، يعد عاملا مؤثرا في تلكؤ نشاطات الرحّالة العلمية ، وإذا شملت الرحالة الواحدة أكثر من شخص من جنسيات أوروبية مختلفة ، فقد حملت في ركابها تأثيرات الصراعات السياسية والاقتصادية ، التي شهدتها الدول الأوروبية في تلك المرحلة [3] .

وظهر ذلك جليا من خلال معاناة البرفيسور الألماني يوليوس اويتنج(Julius Oeting) المختص بدراسة النقوش السامية في جامعة ستراسبورغ من رفيقة(Charles) الرحالة الفرنسي تشارلز هوبر (Hooper) الذي ارسلته الحكومة الفرنسية و الذي حاول إعاقة أعمال اويتنج بشتى الوسائل ، إلا أن الأخير تحمل ذلك لحاجته الماسة لخبرة رفيقة الفرنسي ، الذي زار المنطقة سابقا [4].

---

[1]. يحي مراد: المرجع السابق، ص650-649.
[2]. م.د.حيدر جاسم الرويعي:المرجع السابق ، ص69.
[3]. عبد الرحمان أحمد عثمان:المرجع السابق، ص 86.
[4]. رنا القباني : أساطير أوربا عن الشرق ، دار طلاس ، دمشق ، 1988، ص 132.

كما نجد بعض الرحلات كان لتحقيق أحلام الرحالة و أمانيهم ، كما ظهر ذلك جليا في رحلة الطبيب الكرواتي فران س جوندورم (Frans s.Gundrum) إلى مصر في بداية القرن العشرين وعلى الرغم من علمية هذه الرحلة إلا أن مفهوم الشرق وسحره و حكاياته شكلت حافزا مهما له للقيام بها فذكر جوندورم بهذا الخصوص ،أنه قرر السفر للقاهرة ، بمجرد علمه بعقد المؤتمر الطبي هناك ليس لسماع آراء أقرانه الأطباء الشرقيين..."ولكن لأزور القاهرة وباقي أجزاء تلك البلاد التي كنت أسمع عنها الأحاديث منذ طفولتي وأتذكر ما سرده لنا مدرس الدين ...إن السيدة مريم العذراء هربت بابنها المسيح إلى مصر وأتذكر الأحاديث عن الأهرامات وعن مدينة كان لها 100 بوابة ...وهي ذكريات لازالت حية قوية وأبدية ولا يمكن محوها من عقلي بأي طريقة كانت [1].

ومن جانب آخر كان لهؤلاء الرحالة العلماء أثر مهم في توجبه و تنبيه الأوروبيين نحو دراسة الشرق وسكانه و كلما يتعلق به من خلال التأثير على مراكز القرار، لفتح المعاهد ومراكز الدراسات المتعلقة بالشرق ، كما فعل ادوارد زاخاو(Edward Sachau)عام 1930م .

والذي يدان له بالفضل في تأسيس معهد دراسات الشرق الحديث في برلين ، الذي أرسى دعائم الاستشراق الألماني ، وكذلك كان له دور كبير في تأسيس معهد اللغات الشرقية ، الذي تم افتتاحه عام 1887م في برلين ارتبط جزء مهم من كتب الرحلات بمهمات دبلوماسية ، سواء كانت سرية أم معلنة لتحقيق أهداف ذات صلة بالتوسع الاستعماري في عصر اشتدت فيه المنافسة على المنطقة بين الدول الأوروبية [2].

وبالإمكان الإشارة هنا إلى أكثر من مؤلف بهذا الخصوص ، فإلى شبه الجزيرة العربية والخليج العربي على سبيل المثال لا للحصر، رحلة الضابط البريطاني فورستر سادلير(Forester Sadlier) إلى الخليج العربي سنة 1819م ، والتي جاءت بعد سيطرة القوات التركية على مؤانى البصرة و الخليج العربي ، فكسب تأييد إبراهيم باشا لحملتهم على القواسم في رأس الخيمة ، وقد حمل معه رسالة من الحاكم العام للهند ، وسيفا هدية لإبراهيم باشا ، وفيها تحدث عن المنطقة وتضاريسها ونباتاتها وسكانها ، ولقائه بمشايخ بعض قبائلها كسعيد بن سلطان صاحب عمان [3].

[1]. رنا القباني:المرجع السابق، ص 121.
[2]. عبد الرحمان أحمد عثمان:المرجع السابق، ص 83.
[3]. أسعد الفارس:المرجع السابق، ص 109.

أما الرحله الأخرى فهي رحلة وليم جيفورد (William Gifford) البريطاني من أصل يهودي و الدبلوماسي الذي تحول إلى رجل دين وسياسي ، والذي أقنع نابليون بونابرت بالعمل على نشر المسيحية في نجد و الحجاز ، واستطاع بحكم مؤهلاته اللغوية والطبية والثقافية ، أن يكون مقربا من أفراد البلاط الملكي ، مما جعله قريبا من الأحداث ، وكل ما سبق ظهر أثره بدرجات متفاوتة في شخصية صاحب الرحلة ، الذي أرسله نابليون الثالث سنة 1862م في مهمة غير واضحة إلى مصر لإجراء مباحث سرية ، ومنها ذهب إلى نجد و الحجاز متنكرا بزي طبيب مسيحي شامي لمعرفة بريطانيا للنوايا الفرنسية في طبيعة النظام السياسي الذي تسعى لإقامته في طريق الهند [1].

وتبنى بعض الرحالة الحركة الوهابية بالدعم في المنطقة ومنهم المستكشف والكاتب هاري سانت جون فيلبي (Harry st.John Philby) وعميل المخابرات بمكتب المستعمرات البريطاني المعروف بالحاج فيلبي بعد إسلامه والذي حقق نجاحا كبيرا في مهمته إلى الحد الذي جعل منه خطيبا في الحرم المكي عن فضائل آل سعود[2] .

والملاحظ أن الخلاف المعروف بين فرنسا و بريطانيا حول النفوذ في الشرق الأدنى قد تحول إلى إتفاق في هذه النقطة بالذات فظهرت آراء ودعوات لرحالة فرنسيين آخرين تدعو إلى ضرورة تمكين آل سعود من الانفراد بحكم الجزيرة العربية كتيودور لاسكاريس(Theodore Lascaris) وشارل ديدييه (Charles Didier).

وإلى لبنان رحلة تشارلز هنري تشرشل الدبلوماسي(Charles H.Churchul) البريطاني الذي قدم لبنان سنة 1843م على رأس بعثة دبلوماسية في عهد الملكة فيكتوري (Victoria) 1901م فأستقر فيها 1837م ، وتعلم العربية ولبس لباس سكانها ، وأصبح لبنانيا إلا في أهدافه ومبادئه.

وانكب على فهم اللبنانيين وانصرف إلى الدراسة وكتابة التقارير وجمع المعلومات ، وركز على الدروز لتسهيل عملية اتخاذهم ذريعة لبريطاني للتدخل في الشأن اللبناني ، والتأثير في الصراع بين الدول الأوروبية الكبرى الدائر على الساحة البريطانية [3].

وساهم ريتشارد وود (Richard Wood) في هذا التوجيه كمبعوث للسفير البريطاني في العاصمة العثمانية الأستانة ، مع جون بونسونبي(John Ponsonby)عام 1837م

---

[1] .محمد مؤنس أحمد عوض : الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1992، ص 63.

[2]. أسعد الفارس: المرجع السابق، ص ص 211، 230.

[3]. نصر الدين رضوان محمد : المرجع السابق ،ص 18.

الموظف في السفارة البريطانية ، والذين سعيا لإبعاد الموارنة عن فرنسا ، وقطع الصلة بين ، فأخذ هذا الأخير يطوف بين القرى الدرزية ، متنكرا بزي شيخ درزي يوزع الأموال [1]على السكان ، وسعى بجهده لحث البطريرك الماروني يوسف حبيش ، على الوقوف ضد حليفته فرنسا ومحمد علي ، ووعد بإقامة دولة مارونية في حالة استجابته لمطالبه [2].

أما بالنسبة للفرنسيين ، فقد برز منهم أحد المغامرين ممن سبق وخدم في الجيش الفرنسي يدعى الكونت اونفروا (Onfroy) الذي تعلم العربية في كسروان وادعى بأنه مخلص المسيحيين في الشام ، ويطالب بحقه في حكم القدس ، كونه ينتسب إلى أحد القادة الصليبيين.

فعمل على تأجيج المشاعر الدينية ، ولقبه البعض بسر عسكر الفرنسي ، الذي حمل العلم الفرنسي ، ورفع على رأس كل فرد من قواته شارة الصليب ، وأخذ بتوزيع الأموال و السلاح على الثوار وهي وسائل تغلغل الأستعمار الفرنسي عبر التاريخ [3].

كما قامت فرنسا بإرسال العديد من البعثات التبشيرية و الاستكشافية إلى سوريا ، فأوفدت سنة 1878م ، الضابط ليون كاهون(Lion Cahon) ، الذي دعا إلى تدخل فرنسا لإخراج العثمانين من الجبل ، خصوصا بعد أن تبين له مقدار الرغبة الجارفة – بحسب وصفه- للعلويين في الجبل لإخراج الأتراك واستبدالهم بالفرنسيين .

وكان للروس أيضا الدبلوماسي قسطنطين ميخالوفيتش الروسي ، (Constantine M.Basely) ، بازيلي اليوناني الأصل والذي عمل مترجما في الأسطول الروسي في البحر المتوسط ، وتدرج إلى منصب القنصل الروسي في بيروت سنة 1839م، والمسؤول العام عن جميع القنصليات الروسية في بلاد الشام.

وقد دون كتابا عن تلك الفترة التي عاشها في بلاد الشام ، سجل فيها مرحلة مهمة من مراحل الصراع الدولي حول لبنان ، والانتفاضة التي قام بها اللبنانيون ضد الوجود المصري ، وأهمية هذا الكتاب تكمن في أن مؤلفه شاهد عيان على الأحداث ، واطلاعه - بحكم منصبه- على المراسلات والمفاوضات الدولية التي حدثت في ذلك الوقت.

ومن الجلي أن فن الكتابة لهذا النوع من التدوين ، اتجه نحو المنهجية ووضوح الهدف ، مع استخدام أسلوب المقارنة مع الكتابات السابقة والتعليق عليها ، فرحلة بلجريف على سبيل

---

[1]. أسعد الفارس : المرجع السابق ،ص ص 27.
[2]. م.د.حيدر جاسم الرويعي :المرجع السابق ، ص 72.
[3]. نصرالدين رضوان محمد : المرجع السابق ،ص 21.

المثال خير أنموذج لهذا التطور، فقد اندرجت ضمن الأدب الراقي ، وكانت دقة ألفاظه ومصطلحاته تغيظ القارئ الانكليزي .

وتفاصيل الكتاب كثيرة وتشد الانتباه ، وتوحي بغزارة مادته ومن شدة دقته فقد أبى أن يضيف خارطة وضعها للأماكن التي زارها ، إلا بعد عرضها على الجمعية الجغرافية الألمانية ، التي شهدت بدقتها ودقة تفاصيلها [1].

ويكفي أن ننقل معاناة مترجم الكتاب في أداء هذه المهمة ، التي لم تكن سهلة ، بل إنه استعان بأساتذة في اللغات اليونانية والإيطالية واللاتينية والألمانية والأخيرة استعان بسفيرها في القاهرة لإكمال هذه المهمة .

كما إن في هذه المرحلة نوعا جديدا من الرحلات وهو المخصص منها للتنقيب عن الآثار فالغرب لم ينظر إلى الشرق في مختلف العصور، بمنظار التكافؤ في مختلف المجالات ، بل بمكانته الخاصة في التجربة الأوروبية ، بوصفه موضع أعظم مستعمراتها وأغناها و أقدمها ، على الرغم من أسبقيته الحضارية ، وكونه مصدر حضاراتها ولغاتها ، ومنافسها الثقافي .

بل يسود الاعتقاد النمطي لدى المثقفين الغربيين أن الرحالة الأوربيين لعبوا دورا ثقافا مميزا عندما كتبوا عن الأساطير الأفريقية والتي لا تخرج عن نطاق الخيال الذي يكبل التفكير المحلي ويمنع روح الإبداع - خاصة ما تعلق بحيوانات المنطقة ومظاهر الكون الكبرى - بوصفه خروج عن التقاليد [2] .

و تجذّرت هذه الأفكار في المؤلفات التاريخية و الاستراتيجية ، من قبل المؤلفين في الشرق و الغرب على السواء ، حتى أضحت من المسلمات ، ولا يمتلك من يعترض عليها إيجاد بديل مناسب لها ، وحتى إن استطاع ذلك ، فهو غير قادر على إجبار الغربيين أفرادا ومؤسسات بحثية وأكاديمية على استخدامها ، لما تمتلكه من إمكانيات كما أسلفنا ، وللعقلية الغربية الفوقية في التعامل مع ماهو شرقي [3] .

---

[1]. عبد الرحمان أحمد عثمان :المرجع السابق ، ص 84.

[2]. الحسيني الحسيني معدّي : الأساطير الأفريقية ، ط 1 ، موسسة كنوز للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، 2009، ص ص 40، 42.

[3]. حيدر جاسم الرويعي:،المرجع السابق،ص38.

خاتمة الفصل

كان هذا الفصل زاخر بمصطلحات الرحلة كتوثيق للمشاهدات التي دونها الرحالة ، فتعرفنا على نشأة الرحلة وأدب الرحلة ومنهج الكتابة ودوافعها ، وأنواعها وفصلنا في المحتوى التراثي للرحلة وحللنا منهج الرحّالة في التعريف بالأمصار عبر التاريخ منذ الحضارات القديمة وقلنا أنها من أهم إنجازات البشر المدونة.

تعرفنا في هذا الفصل على العلاقة بين الرحّلة ومختلف الميادين العلمية و خاصة الجغرافيا، فالعلاقة وطيدة بينهما كما هو معروف.

إن معنى الرحلة في التراث العربي الإسلامي معنى واسع و هو ما يفسر الإستعمال لهذه العبارة وهو مؤشر على الحضور المكثف للمعنى الأساسي الذي تحمله ، فالتنقل هو ظاهرة أساسية في الحضارة الإنسانية عبر التاريخ ويمكننا التفطن بكل سهولة إلى أنّ فكرة التنقل حاضرة في ذهن المسلم وفي حياته اليومية ،سواء كهاجس يسكنه شخصيا،أو كمضمون من مضامين خطاب يتكرر على مسامعه و يشجعة على التنفيذ عمليا ،أو كحدث يجلب في أحيان عدة الاحترام و التقدير ، مما سمح لنا بالحديث عما يمكن تسميته بثقافة تنقل ذات تأثير كبير في سلوك المسلم ،لا يمكن بالطبع التغافل عنها في بحث موضوع الرحلة و إمكانيات تصنيفها .

إن هذه الثقافة - ثقافة التنقل- في الحضارة هي ثمرة كم هائل من العوامل وهي ثقافة تسكن الأنسان و تجعله شخصية مستعدة للتنقل و الرحلة.

لا شك لأن للرحلة دوافع تتعدد عواملها ومقاصدها في مقدمتها العوامل التاريخية المرتبطة بالموروث الحضاري القديم لكل أمة في نطاق الكشف عن الأخر ، و الذي يتضمن عددا من العوامل التي كانت تشجع على التنقل بل و تدفع إليه .

أما العامل الديني و العلمي فهو سعي المرء أن يكتشف سعة القدرة الإلهية و أن يثبت إيمانه و أن يستخلص العبر المختلفة من المصير الذي آل إليه من سبقه هذا فضلا عما يحققه التنقل من مآرب أخرى كطلب الرزق أو حماية الدين.

و قد تحدّث القرآن عن رحلات فيها وسائل نقل خارقة للعادة ، مثل رحلة الإسراء و المعراج، و موضوع عرش بلقيس الذي أوتي به قبل أن يرتد الطرفوقد كان لذلك مساهمته كما

هو معروف في خلق أصناف من "الرحلة" ذات مميزات خاصة، و في تغذية بعض الظواهر الهامة كظاهرة الكرامات و التي من أصنافها المترددة كثيرا قدرة الولي على سرعة التنقل من مكان إلى آخر، و اختراق البحار مشيا و الحج في يوم .

كان الدافع العلمي عاملا رئيسا في الرحلة فقد حث الإسلام على طلب العلم ، الذي لا يحصل بدون تعب فأضحت الرحلة في طلب العلم من ثوابت الحضارة الإسلامية فانتشر في التراث الإسلامي أن الرحلة مرادفة للجهاد وأهم وسيلة لتناقل العلوم و تنقلها ، وما صاحب ذلك من تدوين للتراث .

لقد أبدع المسلمون حينما صنفوا الرحلة على أساس دواعي السفر وقسموها إلى رحلات رسمية أو سياسية ورحلات إستكشافية وأخرى علمية أو دراسية الرحلات العامة وأنواع أخرى كثيرة.

أما بخصوص المحتوى التراثي للرحلة فقد مثّلت كتابات الرحالة مصدرا مهما من مصادر دراسة التاريخ ، و قد دونت مجالات التراث بحسب المراحل التاريخية صوّرت طبيعة العلاقة بين الأمم والشعوب ، مما يجعلها مصدرا للعديد من الباحثين مختلفي الاختصاصات و على الرغم من الجوانب الايجابية التي لا يمكن اهمالها .

توصلت هذه الدراسة إلى ا جوانب سلبية لعملية التدوين ، كان من أبرزها ارتباط معظم الرحالة بمؤسسات دينية أو سياسية استعمارية ، كذلك عدم قدرة هؤلاء على التخلص من الأفكار المسبقة التي تحمل تراكمات مراحل الصراع المرير بين الشرق والغرب فالمعرفة التي قدّمها المرتحل ، خضعت لشخصيته و تكوينه الثقافي والديني و الاجتماعي ، لذا تتطلب عملية كشف خفاياها المعرفية، فهما وتصورا شاملا للأوضاع بأحداث الرحلة ابتداء من شخصية كاتبها و حتى طبيعة العلاقات السياسية و الاقتصادية الدولية أو الإقليمية على أقل تقدير .

كانت الرحلات و زيارة الأقطار المختلفة وسيلة من أهم وسائل المعرفة الجغرافية المباشرة تظافرت عوامل عديدة لتصبح سمة عامة في المجتمعات المسلمة و لاشك أن اتساع رقعة العالم الإسلامي و ما سادها من وحدة دينية يسّر السفر و ساعد عليه ، كما أن الحج إلى بيت الله كان عاملا مهما للسفر و الالتقاء بالمسلمين من شتى بقاع العالم الإسلامي في مكة

المكرمة، مما ساعد على تبادل المعلومات و أخبار البلدان بعجائبها و غرائبها ، فرغب ذلك المسلمين في السفر .

يعود الفضل للرحلات في الاحتفاظ بآثار لولاها لكانت عرضة للاندثار والنسيان ، فهي أداة تفاعل و تواصل داخل الثقافة الواحدة من جانب، و مساحة احتكاك بين الثقافات المختلفة من جانب آخر، فقد أفادت الشعوب بعضها بعضا .

لقد لمس الرحالة الفوارق بين مختلف الثقافات في البلدان التي قصدوها، و ألموا بمظاهر الحضارة في تلك البلدان و قارنوا ما شاهدوه أو سمعوه بما هو في بلدانهم ثم قاموا بنقل ما في مجتمعاتهم إلى المجتمعات التي زاروها، كذلك نقلوا بعد عودتهم إلى بلدانهم تجارب غيرهم إليهم .

استطاع الرحالة أن يرسموا صورة لمعظم عادات الشعوب و تقاليدهم وأنظمتهم وكذلك مختلف الأنشطة السياسية والاقتصادية والعمرانية والثقافية وغيرها، بحيث ساهم الجميع في تدوين التراث الإنساني.

لكن يجب على الباحث أن يقف أمام مهمة التعمق في البحث عن نماذج المساهمة في خلق التواصل الثقافي، والتثبت من مصداقية المشاهدة ، والتحقق من خلفية الرحالة، الثقافية و تأثير انعكاساتها في مشاهدة الآخر .

لقد بينت الدراسة صعوبة الرحالة في التنقل حتى كان بعضهم يقطع بضعة آلاف من الكيلومترات للوصول إلى الهدف وكان البعض ا يكتبون ما يشاهدون من عجائب غرائب و هم في طريقهم إلى مهمة رسمية.

أعار الرحالون اهتماما خاصا لمشاهداتهم أثناء تجوالهم داخل البلدان و المدن التي دخلوها فوصفوا الآثار المختلفة و تحدثوا عن الأضرحة و الزوايا و لم تغفلوا الإشارة إلى نواحي أخرى طبيعية و اقتصادية كحديثهم عن السيول و الأمطار والثلوج ، و الأزمات الاقتصادية ، و الصناعات و الحيوانات ، و الموارد الاقتصادية المختلفة وهو ما جعل كتاباتهم نفائس التاريخ .

ولم تخلو الرحلات العلمية من الأغراض السياسية أوالعسكرية وقد حملت هذه الدراسة أمثلة كثيرة لكن معظمها تركزت على تراث الأمم ، و ظهرت إلى الوجود أسماء العديد من المؤلفات

البلدانية والمسالك والممالك ، على أيدي الجغرافيين العرب أمثال الكلبي و اليعقوبي والبلاذري وابن خرداذبة و ابن رسته ، و المعاجم الجغرافية اللغوية مثل ياقوت الحموي و الحميري و الكتب الجغرافية الموسوعية مثل ابن جبير و ابن بطوطة وغيرها .

ركزت هذه الدراسة على مايتعلق بتراث إفريقيا جنوب الصحراء ما تعلق بمحطات قوافل التجار التي تخترق الصحراء باتجاه الشمال أو المجاري المائية وكل العوامل السياسية الأخرى التي حولت غاو و ولاته تنبكت ، و جني إلى مراكز وهج فكري كتب عنه أعظم الرحالة المسلمين و أمثال ابن جبير وابن بطوطة ، وابن سعيد والعبدري ، و التّجاني ، والوزان وغيرهم.

لم يكن الرحالون يكتفون بلقاء الاعلام و تدوين الروايات و إنما كانوا يختلطون بأفراد المجتمعات و يجالسونهم و يتحدثون إليهم مما جعلهم على إطلاع واسع بأحوالهم وعاداتهم و أنماط سلوكهم ،كتاباتهم فكانت رحلة إبن بطوطة على الخصوص سجلا حافلا بأخبار الناس و عاداتهم و أخلاقهم و مذاهبهم في إفريقيا جنوب الصحراء.

لقد شهد القرن العشرين اهتماما كبيرا بكتابات الرحلة و الرحّالة ، كفرع من فروع التأريخ نال اهتماما مميزا، برز ذلك من الكتابات المتعّددة للمؤرخين و الرحالة ،لإظهار مدى أهمية هذا الفن في تدوين الأحداث بصورة عامة من ناحية ولأهمية الدور الذي تلعبة في مساعدة الباحثين في المقارنة بين الرواية و الأحداث.

وكان المنهج الذي إتبعه الرحالة العرب تطويرا لمناهج السابقين من خلال الاعتماد على المنهج الوصفي ، وهو يمتاز بسعة الأفق والشمولية والوصف الدقيق والمترابط.

إن دراسة أدب الرحلة في واقع الحال لابد أن يخضع لدراسة النص من خلال اختماره وتطوره داخل بيئته الثقافية والحضارية ، بالارتكاز على مرحلة زمنية محددة ،هذه الدراسة

التي تعزوها موضوعية البحث الداخلية الكامنة داخل نص أدب الرحلة ،والتي من شأنها أن تتيح الوقوف على حقائق الانشغال المعرفي والبنائي لهذا النص.

ووإذا درسنا الرحلة عند نجدها قد مرت بعدة مراحل حتى وصلت إلى المرحلة الحالية ومن أهم المراحل :

1) مرحلة وصف الحياة في البلاد الأجنبية.

2) مرحلة وصف نظم الحياة في البلاد الأجنبية .

3) مرحلة التعرف على التراث في إطار العوامل الثقافية للمجتمع.

4) مرحلة التعرف على التراث في ضوء التفسير العلمي أو التجريبي.

ومن الأمور التي يجب الانتباه إليها أن الرحالة الأوروبيين ،على الرغم من تحليهم بدقة الملاحظة غالبا ، وتسلح أكثرهم بمناهج البحث و الجمع الميداني ، والخبرة العلمية الواسعة ، إلا أنهم وقعوا في أغلاط كثيرة، نتيجة عدم التمكن من اللهجات العربية الكثيرة ، أو استخدامهم مصطلحات و تعابير شائعة في بلادهم ،لا تخلو من نقص معرفي بالبيئة الأفريقية وأحيانا لتحامل مقصود فكتابات الرحالة تزخر بالأمثلة على ذلك وقد فصلت فيها في هذه الدراسة .

فالغرب لم ينظر إلى الشرق في مختلف العصور بمنظار التكافؤ في مختلف المجالات ، بل بمكانته الخاصة في التجربة الأوروبية بوصفه موضع أعظم مستعمراتها وأغناها و أقدمها على الرغم من أسبقيته الحضارية وكونه مصدر حضاراتها ولغاتها.

الفـصــل الثــانــي : أهم الرحالة و الجغرافيين العرب في أفريقيا جنوب الصحراء (8-10هـ/14-16م) .

مقدمة الفصل .

المبحث الأول : إفريقيا جنوب الصحراء في مدونات الرحالة العرب والمسلمين .

- المطلب الأول: دور كتابات الرحالة في التعريف بالتراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء .
- المطلب الثاني : كتابات الرحالة العرب والمسلمين قبل القرن 08 هـ /14 م .

المبحث الثاني: التراث الإسلامي في عيون الرحالة بين القرنين(08-10هـ/14-16م) .

- المطلب الأول : قراءة في التراث الأفريقي من خلال رحلة إبن بطوطة.
- االمطلب الثاني : قراءة في التراث الأفريقي من خلال رحلة الحسن الوزان.

مقدمة الفصل :

بالرغم من أن قارة أفريقيا تعد من قارات العالم القديم ، فإن الكشوف الجغرافية بها جاءت متأخرة و ظلت حتى عهد قريب تعرف بالقارة المظلمة (Dark Contiment) وذلك لأن المعرفة الجغرافية لها اقتصرت على المناطق الساحلية .

بينما بقيت المناطق الداخلية غير معروفة حتى أواخر القرن التاسع عشر ، فمدن الشمال الأفريقي تأسست كمراكز تجارية منها تنطلق القوافل التجارية مثل فزان وغدامس وغيرها [1] .

وقد كان تأخر كشف أفريقيا الداخلية راجعا لعدة عوامل جغرافية حالت دون ذلك و أبرزها العوائق الطبيعية التي تتمثل في الصحراء الكبرى و في طبيعة أنهار القارة التي لم تسهم بدور كبير في الكشف عن مجاهلها ، فنهر النيل مثلا لم يسمح بالتوغل نحو الجنوب أبعد من أسوان لاعتراض الجنادل لمجراه و إعاقتها الملاحة حتى الخرطوم ، كما أنه إلى الجنوب من الخرطوم تشكل السدود في نطاق بحر الجبل عائقا آخر.

كذلك فإن الأنهار الرئيسية الأخرى في القارة لم تخل من عوائق حالت دون استخدامها في الكشوف الجغرافية [2] أبرزها المساقط المائية كما هي الحال قرب مصب نهر الكونجو ووجود الغابات و المستنقعات التي يصعب اختراقها كما في دلتا النيجر و يضاف إلى ذلك الظروف المناخية القاسية في أفريقيا الدارية خاصة على ساحل غانا الذي وصف يوما ما بأنه "مقبرة الرجل الأبيض" [3] .

و بالإضافة إلى هذه العقبات الطبيعية كانت هناك عوامل أخرى أخرت من نشاط الكشوف في القارة مثل العداء الذي كان يظهره السكان الأصليون للرجل الأبيض بصفة عامة بسبب الحملات التي كان يشنها تجار الرقيق الأوربيون لاصطياد الزنوج في فترة

---

[1]. إبن حوقل: المرجع السابق، ص 106، ياقوت الحموي : المرجع السابق ، ص 434.

[2].جوان جوزيف : الأسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء ، ت مختار سويفي ، ط1، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، مصر ،1984، ص 92.

[3]. فتحي محمد أبو عيانة : جغرافية إفريقيا دراسة إقليمية للقارة مع التطبيق على دول جنوب الصحراء، دار النهضة العربية، بيروت، 1983، د/ت، ص 23.

تجارة الرقيق التي أبتليت بها أفريقيا المدارية ، كذلك فإن "عصر الكشوف " لم تتوفر به الوسائل الحديثة للنقل أو التبريد أو الأدوية والأغذية المحفوظة التي يعرفها العالم في الوقت الحاضر ، وقد جعل ذلك كله جهود المستكشفين والرحالة ضربا من ضروب المخاطرة آنذاك.

لقد كان وادي النيل مهدا لأقدم حضارة عرفتها أفريقيا ، و قد عرف المصريون القدماء معظم حوض النيل و سواحل البحر الأحمر حتى إثيوبيا ، ولكن وقفت الصحراء الكبرى حائلا أمام توغلهم نحو الغرب كما كانت سدود أعالي النيل حائلا دون التوغل نحو الجنوب ، و قد أرسلوا بعثات اتجهت نحو جنوب البحر الأحمر كما نظموا رحلة في عهد الملك نخاو (سنة 1500 ق.م) للدوران حول أفريقيا ابتداء من البحر الأحمر و نجحت في ذلك بعد ثلاث سنوات عن طريق مضيق جبل طارق.

وقد رسمت مشاهد لهذه الرحلة في معابد مصر القديمة حيث توضح الرسوم كيف إظطر الملك (نخاو) ومرافقيه في كثير من الأحيان أن يلقي مراسيه على الشاطئ في بلد إفريقي مجهول وقد نفذ زادهم ، فيزرعون الذرة ويقيمون حتى ينضج فيجمعوه ويقلعوا ، وفي تلك الصور ايضا صور للتحف والحيوانات التي أحضروها ومن بين ما جاؤوا به أحد الأقزام [1] .

كما كان تأثير الديانة المصرية واضحا في مناطق إفريقيا جنوب الصحراء ، فقد وجدت أثار عبادة الأله المصري الذي جسد في شكل رأس خروف وهي منتشرة في الأبنية المصرية [2] ، كم عثر الأثريون على تماثيل مصرية من الخزف والبرونز ترمز للإله المصري (أمون رع) [3].

و إلى الغرب من مصر وعلى امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط نشط الإغريق في معرفة الساحل خاصة من طرابلس حتى طنجة، و حوالي سنة 500 ق.م رحل

1.محمد عبدالعزيز إسحاق: نهضة إفريقيا ، الهيئة المصرية للتاليف والنشر، القاهرة ،مصر ، 1971، ص 62.
2. غزال أحمد حسن : أضواء جديدة على التمييز بين أمون ليبيا وزيوس قونية –ليبيا القديمة- ، اليونسكو ، 1988، ص 197.
3.جوان جوزيف : المرجع السابق ، ص 90.

الملاح القرطاجي هانو Hanno إلى ساحل غرب أفريقيا حتى نهر السنغال.

زار هيرودوت – المؤرخ الإغريقي المعروف - مصر في سنة 450 ق/م وأبحر صاعدا في نهر النيل حتى الجندل الأول و سجل كثيرا من الظاهرات الجغرافية للمناطق التي زارها [4] [1] ، و في القرنين الأول و الثاني للميلاد نشط الرومان في كشف بعض مناطق شمال أفريقيا و لكن لم يضيفوا كثيرا من المعارف عن داخل القارة.

فقد أرسل الإمبراطور ينرون بعثتين لكشف منابع النيل (سنتين 54، 68 م) و لكنهما لم يصلا إلى أبعد من منطقة السدود في الغالب و قد أوضح بطليموس في خريطته عن العالم (150 ميلادي) بعض المظاهر عن نهر النيل الأزرق ينبع من بحيرة في أثيوبيا و المنبع الرئيسي للنيل من جبال القمر في مكان ما من أفريقيا الاستوائية [2] .

وخلال الحضارة القرطاجية حاول الملاح هانوا التوغل في إفريقيا عبر مضسق هرقل – جبل طارق – فأسس محطات في المدن الساحلية وإتصل بتجار يقايضون التبر بمواد أخرى ، وربما شارك في أسطوله نحو ثلاثين ألفا محملين بسبعين سفينة [3] .

وفي علم 40 ق م خضعت موريتانيا للإحتلال الروماني[4] والساحل الغربي للمحيط الأطلسي وهو ما جعل التواصل بين شمال إفريقيا وغربها أوسع فحاول الرومان التوغل جنوب الصحراء للحصول على العاج والتبر إنطلاقا من سيطرتهم على فزان بين 20 ق م و 86 ق م ، رغم المقاومة التي جابهتم [5] ، ثم توجهوا نحو غدامس وربما وصل الرومان – كما تتحدث الرويات - من هناك إلى نهر النيجر[6] ، حيث توغل

[1]. فتحي محمد أبو عيانة : المرجع السابق، ص 24.

[2]. المرجع نفسه، ص 25

[3]. دونالد إيدز : تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء ، ت علي أحمد ، ومتولي عطاالله ، ج 3 ، مؤسسة العرب ، ، القاهرة ، 1976، ص 250.

- مادهو بانيكار: الوثنية والإسلام ،ترجمة أحمد فؤاد بلبع،المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة ،1995، ص299 ،

[4]. المرجع نفسه ، ص ص31.

[5]. محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ، معهد الدراسات الأفريقية ، القاهرة ،د س ن، ص13.

[6] .Basil Davidson: HISTOIRE DE l'afrique ancienne,p80.(PDF).

القائدان الرومانيان (سبتموس فلاكوس سنة 70م) ، و(جوليوس ماريتوس سنة 86م) حتى وصلا إلى بلاد السودان أو ما يطلق عليهم ذلك الوقت (الأثيوبيين) [1] في العام المائة بعد الميلاد [2].

وكان لسياسة الأمبراطورية الرومانية والمتمثلة في إضظهاد سكان شمال إفريقيا من البربر سببا في هجرة عدد كبير منهم إلى إفريقيا جنوب الصحراء حسب ما ذكره المؤرخون والرحالة العرب والمسلمون .

فقد ذكر إبن خلدون في أكثر من موضع ، عن تحرك قبائل صنهاجة نحو الجنوب منذ دهور قبل الفتح الأسلامي لا يعرف أولها، وقال في هذا الصدد ((...ومنهم من قطع الرمال إلى بلاد القفر وجاوزوا قبائل لمطة الملثمين فيما يلي بلاد كوكو من السودان)) [3] ، ونفس الرواية نجده عند البكري حيث قال ((أن هوارة تسكن إلى جانب زناتة ونفوسة في منطقة أودغشت)) [4]، ويذهب الأدريسي أن قبيلة لمتونة تمكنت من طرد قبيلة قمونية نحو الصحراء والمحيط الأصلي منذ زمن بعيد وأبعدتها نحو الجنوب [5].

---

1. زاهر رياض : تاريخ كشف القارة الأفريقية منذ أقدم العصور ، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة ، 1969، ص67.
2. مادهو بانيكار،المرجع السابق ، ص 32.
3. إبن خلدون : العبر ، المصدر السابق ، ج6 ، ص 166.
4. البكري : المصدر السابق ، ص 164.
5. الإدريسي المرجع السابق، ص 50.

المبحث الأول : إفريقيا جنوب الصحراء في مدونات الرحالة العرب والمسلمين .

المطلب الأول : دور كتابات الرحالة في التعريف بالتراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء .

أولا : العرب وإفريقيا :

صاحب قدوم العرب إلى شمال إفريقيا استعمال الجمل على نطاق واسع فقد كان هؤلاء العرب هم الذين يجيدون استعماله إلى جانب معرفتهم بآداب السفر في الصحراء ، وما يستلزمه قطع الصحراء من استعدادات لم يكن أحد يعرفها جيدا بقدر ما يعرفونه هم ، كما يعرفون كيفية التغلب على مشاكل الرحلة الصحراوية [1].

وأول هذه المشاكل احتمال الضلال في الصحراء الذي لم يكن يعني سوى الموت، فكان الدليل الأمين الخبير بمسالك الصحراء أول ما يبحثون عنه، ثم تنظيم وقت قيام القافلة وراحتها وحسن تحميل حيوانات القافلة، وترتيب أحمالها، وتوقيت وصولها وحسن استقبال الأهالي لها، وكيفية إقامة الأسواق، وفضها، وواجب أفرادها نحو المستقبلين (بكسر الباء)، ثم الرياح والعواصف وكيفية التغلب عليها، فكأننا نستطيع أن نقول دون مبالغة إن وصول العرب إلى الشمال الإفريقي كان بمثابة العاصفة التي حركت هدوء الصحراء الكبرى، نشاطا لم يكن مألوفا من قبل.

هذا إلى جانب النشاط العلمي الجبار في دراسة الجغرافيا ثم كتابة نتائج هذا النشاط من مجموعة من الكتب أظهرت تفوقهم بأجلى بيان في علم تقويم البلدان منذ القرن الثالث الهجري وكذلك تفوقهم في علم الفلك، فكانت النتيجة الطبيعية لهذا كله قيام الممالك الإسلامية [2]على حافتي الصحراء الشمالية والجنوبية ورغبة أهلها في تبادل التجارة أولا، ثم القيام بالحج إلى الأماكن المقدسة ثانيا والتعرف إلى إخوانهم في الدين

---

[1] .مجتبي عمر جلال أحمد إبراهيم: المرجع نفسه ،ص 08.

[2] .محمد الحافظ مصطفى النقر : إنتشار الأسلام في حوض السنغال ،مجلة دراسات إفريقية ، العدد الحادي عشر ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم،، ماي1994 ، ص 87.

ثالثا هي التي جعلت من الصحراء الكبرى خلية نحل لا تهدأ بها الحركة نهارا وليلا خلال العصر الوسيط كله [1] .

ولابد من التأكيد على أن جهود التحقيق والدراسة والنشر للمعلومات التي نشرها وحققها ودرسها الأوروبيون أنفسهم، مما يستدعي دراسة مستقلة يمكن أن يخرج منها بنتيجة أن الخدمة العربية الإسلامية للتراث قد تميزت بمميزات كثيرة تفوقت فيها على إسهامات المستشرقين العرب والمسلمين للثقافة التي تخدمها مصادر المعلومات عن الإسلام والمسلمين.

ولعل هذه الدراسة تسهم في تبيان مصدر مهم، مهما كان الموقف منه، من مصادر المعلومات عن الإسلام والمسلمين، أو ما تسميه بعض خطط تدريس المكتبات والمعلومات مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي، وهنا ينبغي أن نشير إلى تيارين في جمال الرحلة والاستكشاف:

أولهما:

تيار عربي إسلامي استغرق حقبة طويلة من العصور الوسطى وجانبا من العصور الحديثة وبلغ من نفاذ أثره أن صارت الثقافة العربية جزء من التكوين العقلي للإفريقيين.

ثانيهما:

تيار ثقافي غربي بدأ من حركة الكشوف الجغرافية التي استهلها البرتغاليون في القرن الخامس عشر، ولكن لم يبلغ عنفوانه إلا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر[2] .

وقد كان الفضاء الفكري لنصوص أدب الرحلة يفيض بروح إسلامية وأسلوبه مقتحم بشتى الاقتباسات الدينية، من نصوص قرآنية وحديث وأدعية وأثار الصالحين وذكر لمثاليهم.

---

[1] . زاهر رياض: مصر وإفريقيا:ط1: مكتبة الإنجلومصرية: القاهرة: مصر: 1976: ص71.

[2] جمال زكرياء قاسم: المرجع نفسه ،ص47.

وعلى مستوى الخصائص الأدبية لنصوص الرحلة، فإن هذه النصوص في هذا الجنس الأدبي تعد هجينة ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك- تخترقه عدة تخصصات وممارسات فكرية وقد كان كتاب الرحالة "جامعا لكل مايمت لأدب الرحلة من صلة [1].

فنجد الجغرافيا كما نجد التاريخ، وحتى الأدب والفلسفة ولعل أسلوب الرحالة في الكتابة يغري إلى أنه كان "أسلوبا سائدا في عصره [2]، إضافة إلى العقل الموسوعي الذي كان يتمتع به الرحالة [3]، وهو في ذلك ينزع نحو إقصاء الاختصاص .

وإذا أردنا رسم صورة للرحلة في العصر الإسلامي بكل اتجاهاتها وألوانها وما عرفته من صنوف المعرفة وفروعها فغننا سنكون عاجزين عن استيعاب كل ما كانت تعج به من معارف فقد ازدهرت الرحلة وأعملت من أجل الطلب وعلو السند.

وكثرت المؤلفات وتعددت المراسلات والفتاوى في القضايا العلمية والاجتماعية والفقهية مما جعل الرحلة إلى بلاد إفريقيا جنوب الصحراء تتأصل وتتميز بشخصيتها وملامحها الإفريقية بعد أن كانت من قبل لابسة الطابع المغاربي أو المشرقي فلم يبق السودان الغربي بعيدا عن اهتمامات الرحالة [4] .

والحقيقة أن أقاليم إفريقيا جنوب الصحراء، لم تنل القدر الكافي من الرحلات التي تؤرخ للتراث الإسلامي فيها.

فهناك افتراضان كل منهما له أهمية في هذا الميدان:أما أن جل الرحلات أو أغلبها، قد ضاع أو مازال البحث لم يهتد إليه، وأن ما وصلنا من هذه الرحلات لا يشكل إلا نسبة ضئيلة من هذا العدد الهائل الذي كتب في هذا المجال؟ أو أن هؤلاء الرحالين حجموا عن

---

[1] . حسن الشاهدي:مرجع سابق، ص214.

[2]. نفسه ، ص 215.

[3]. عطا المنان نجيب الحاج : التعليم الأسلامي في السنغال ، نشأته ومؤسساته وقضياه ، ندوة التعليم الآسلامي في إفريقيا 1988،مطابع جامعة إفرقييا العالمية ، الخرطوم ، السودان ، 1992، ص141.

[4]. نفسه ،ص5.

التدوين وأسانيد عالية أو هذا غريب بما نعرفه من حرص العلماء المسلمين على حصولهم على علو السند حرصهم على أنفسهم، كل ذلك خوف النسيان والضياع؟ ! .

وبالنسبة للإفتراض الأول فإن الباحث يزداد تيقنا بأن عدد ضخما من المؤلفات والكتب، ومنها الرحلات، تعرض للضياع والتلف، فكل مطلع على الحركة النشيطة.

والرحلة المستمرة التي اتسم بها أهل العصر الحديث يصل إلى الاقتناع بأن كثيرا من الرحلات مازال مفقودا، فكيف إلا يدون العالم ما يمر به في رحلته الحجازية أو غيرها من مشاهد وأخبار ولقاءات من العلماء وما يحصل عليه من أسانيد وإجازات؟

رغم الحرص الشديد على السند العالي والأخذ عن الشيوخ يتجشم الرحالة من أجلها المشاق والمتاعب، ويواجه الأخطار والمصائب.

لا يمكننا أن تصور العلماء، والكتاب، والفقهاء ومن يعدون النخبة أو عليه القوم الذين يشكون معظم ركب الحجاج لا ينفعلون بما يشاهدون أو يسمعون فيدونون مذكرات لتسجيل هذا الحديث الفريد، خصوصا وان الركب الضخم كان محملا بالهدايا إلى ملوك الشرق والحرمين

كما أنه لا يمكننا أن نتقبل بسهولة انعدام نصوص تسجيل ما كان يقوم به حكام الممالك الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء من أسفار وتحركات، فلا نجد رحلات رسمية يصف فيها أصحابها مواكب الملوك بما عرفت به من ضخامة وروعة وجمال، ويدونون الأخبار والمواقف، وإذا كنا وجدنا تدوينا لبعض هذه الرحلات، فليس من المستبعد أن رحلات أخرى لم تصلنا [1]إن الباحث في التاريخ الإفريقي يسجل بأسف قلة مصادر الرحلة لدى الأفارقة أنفسهم. وهذا يجعلنا نطرح الأسئلة عن الأسباب المتتبع للتراث المكتوب من طرف المصادر الإفريقية تجد التأليف في الرحلات خاصة قليلا [2]، وهو نظرتهم إلى ما يجب الاعتناء به من العلوم والتصانيف وكونها يجب أن تكون نافعة

---

[1]. حسن الشاهدي:مرجع سابق: ص 53.

[2].فارق إمام محمد : تاريخ التعليم في شمال نيجيريا : ندوة التعليم الأسلامي في إفريقيا ،1988، مطابع جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ،1992، ص127.

للأبدان والأديان ، لذلك أعتبر علم الجغرافيا وماله صلة به من وصف البلدان والمناطق علما لا فائدة منه .

وبما أن الرحلة هي أقرب إلى الجغرافية في وصف البلدان والطرق والمجتمعات ، فإن الرحالة لم يكن متحمسا للإفصاح عن كل ما أتى به وتدوينه في مصنف خاص بالرحلة وما جمعه فيها من أخبار، وما توصل إليه من استنتاجات إذا كان الجو العلمي الديني يقتضي أن يكون المؤلف والمصنف إضافة جديدة في الميادين التي يهتم بها في الحقل التعليمي الديني، وهكذا اتسم الرحالة بالتريث والتأني في إعلان ما يخص رحلته إلى أية جهة كانت، وإن كانت الرحلة العلمية في أغلبها لا تجعل صاحبها مترددا أو متريثا نظرا إلى أنها إضافة جديدة في الميادين العلمية المختلفة [1].

وربما يذهب البعض إلى أن اهتمام الأفارقة وبالتأليف ضعيفا، وهذا يستند إلى ما تناقلته بعض الكتاب والمؤلفين من أن عناية السودانيين بالتأليف والتدوين قليلة، وهذا ما جعل الكتاب الأوروبيين غير المنصفين يقدسون المرحلة الإسلامية على حساب المرحلة القديمة والمعاصرة لتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء[2] .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن سبب عدم اهتمام السودانيين بأدب الرحلة [3] يعود

إلى شيوع فكر يرى أن الاشتغال بالتأليف هومضيعة للوقت [4] هواقل قيمة من الاشتغال بتعليم الطلبة أو الأخذ عن الشيوخ والقول ب:"إنما أفسد العلم كثرة التأليف" [5] وربما كانت هذه القناعة من أسباب قلة التأليف .

وإذا كانت أفواج الطلبة بالكثرة المذكورة في المصادر العربية السودانية [6] وبهذا

---

[1]. حسن الشاهدي:المرجع السابق ،ص54.

[2] G.Camps: Les civilisations Prehistoriques del'afrique de Lafrique du nord et de sahara.edition editeurs.8place de L'odeon .paris.france.1974.pp224.257..

[3]. مجتبي عمر جلال أحمد إبراهيم: المرجع السابق ،ص 21.

[4]. حسن الشاهدي: المرجع نفسه ،ص55.

[5].أحمد بابا التنبكتي نيل الابتهاج:، تحقيق على عمر ، ط1، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1423-1964، ص246.

[6]. حسن الشاهدي:المرجع نفسه ، ص57.

التنوع المشار إليه، فأين أخبارهم ؟ وأين ما دونوه من رحلات يذكرون فيها سماعهم عن الشيوخ وأوصافهم للحواضر التي حلوا بها والتقاليد والمعلومات التي حصلوا عليها ؟.

إن الباحث يقف حائرا أمام مثل هذا السؤال وغيره ، فلا يستطيع الوصول إلى إجابة حاسمة ، أو اتخاذ أي رأي ثابت ، وتدب الحسرة في قلبه لعدم وجود مصادر الرحلة السودانية بالقدر الذي شاع فيه هذا الأدب في البلدان الإسلامية الأخرى .

الحسرة لدى الباحث المتشوق يطرح افتراض ربما ضاع مادون من أدب الرحلات الإفريقية لأنه لم يحظ بالحفظ اللائق به لفقدان مؤسسات تعنى بذلك [1] .

ثانيا : موضوع الرحلة في الرواية العربية:

تتضمن الرحلات التي تناولتها موضوعات متقاربة وتحمل خصوصيات تجسد زمانها وساردها ومؤلفها، مما جعلنا نتجلى إلى التحليل الجزئي بدل التحليل الكلي، ولكون هذه الرحلات تتعرض أحيانا للأماكن نفسها اعتبرناها نظرات تعكس الضوء وتلون السرد حسب رؤية الرحالة واهتماماتهم .

ورغم ما يبدوا على وحدات الرحلة من تفكك أحيانا فإنها مرتبطة بعلاقات متينة، أما الوحدات الصغرى فتنفتح بالحلول في المكان وتنغلق بالرحيل عنه استعدادا لفتح وحدة أخرى، وأما وحدات الطريق الممتد، فغالبا ما تكون مهملة خاوية يكتفي السارد بمجرد ذكرها، أي أن الاتصال بالمكان عتبة نلج من خلالها إلى سرد متنوع، وبعد الامتلاء ، تغلق الوحدة بالانفصال عن المكان، والإيماء إلى بدء وحدة أخرى بعناصر متشابهة من حيث الهيكل، مختلفة من حيث الخطاب.

وتناولت الرحلة الفردية التي تمثل صاحبها الذي يتمتع بسيرة ذاتية خارج النص وتنتمي إلى المرجع ولها اهتماماتها الخاصة المتعلقة بوعي التراث والقيم والمبادئ كما تتجلى في الخطاب المنتقى، وليست نمطية ذات خصائص إنسانية كما في المتخيل. وقد

---

[1]. خديم محمد أمبارك: مرجع سابق: ص70.

حاولنا محاورتها وفق نظرية العوالم، مما يساعد على اكتشاف اهتماماتها وأبعادها الدينية والاجتماعية والإنسانية.

ومن خلال محاورة الرحلات وفق هذه النظرية تبين لنا استجابتها للإجراءات أحيانا ، وتأبى الانصياع أحيانا أخرى ، مما جعلنا نتعامل معها بمرونة ، حسب ما يتيحه الخطاب من إمكانات، ذلك أن الرغبة الناتجة عن الحافز في الرحلة متعلقة بنقطة الوصول غالبا ، فتبدو الشخصية كأنها عديمة الحوافز الفرعية مما يقلل من البنيات العاملية إلا فيما يتعلق بالبنية الهيكلية، وحينما تتجدد الرغبات تتنوع البنيات العاملية.

ومن خلال التحليل أيضا تبين ضعف الصراع في الرحلة مما أضعف حبكتها، بسبب كون المانوئين لا يحملون مشروعا مضادا، وإنما هم مناوئون أنيون، يخطفون أو يتلصصون ويفرون وهذا لا ينفي وجود عوائق حقيقية أحيانا، تؤزم السرد والشخصية، مما يقربها من القصص الواقعي، ويبعدها عن الخبر الجاف [1].

وهو يجوب الأفاق مكتشفا أو متعلما، وتوسل إلى التعبير عن ذلك تارة وبالشعر وأخرى بالنثر، ورغم أن جل ما دونه الأديب العربي من رحلات لم تصلنا، إما لأنه ضاع أو لأننا لم نتلمس طريقنا إليه بعد فإن ما أطلعنا عليه من هذه الرحلات يعطي صورة واضحة على تقد هذه الرحلات وتنوع اتجاهاتها وطرقها واختلاف أهدافها وغنى مضامينها.

إلا أن هذا الفن يرقى إلى القمة في الإبداع ويزداد اتساعا وخصوبة في عند الأفارقة بما عرف عنهم من رغبتهم في الأخذ عن الشيوخ وزيارة الأماكن المقدسة وجولاتهم من أجل الإطلاع والبحث، ومن هنا يعسر على كل باحث الإلمام بكل من رحلوا على مدى العصور والأزمنة وإن كانت كتب التراجم والسير والتاريخ والأدب تشير في مجال الترجمة للأشخاص أو التعريف بإنتاجهم إلى الكثير من هؤلاء الرحالة ورحلاتهم [2] .

---

[1] .إسماعيل زردومي: المرجع السابق ،ص 04.
[2]. حسن الشاهدي: المرجع السابق،ص47.

وخطاب الرحلات مستويان: مستوى متعلق بالذات فيما تفعله أو تقوله أو تعتقده باعتبار هذه الذات شخصية تحمل مؤشرات معينة، ومستوى أخر يتعلق بتاريخ المكان الذي يتحول باستمرار إلى مشروع سردي، يتم فيه الحفر عن الأفعال المتراكمة للإنسان عبر الأزمان، فإذا المكان مسرحا لعرض ما مر من السكان والأحداث والأقوال، والكل يستعرض أمام القارئ عن طريق الحكي المتعاقب للشخصيات الفاعلة والمنفعلة.

وعلاقة الشخصية بالمكان تتراوح بين الشوق إلى درجة الهيام والنفور، وبين الألم الشديد على المال السيئ إلى الإعجاب والانبهار.

درست بنية المكان باعتباره نواة السرد يستقطبه بالحفر في ماضيه وحاضره وفي الأحداث التي مرت به، وتشكيله المتجلي في المكان الطبيعي والمصنوع والأماكن والتطورات التي حدثت. ولا شك أن للخصائص التصويرية للكلمة دورا في تجسيد الوصف المرتبط بأماكن حقيقية تتحول بعد تشكيلها اللغوي إلى وثيقة أثرية محفوظة في النص الواصف.

والأماكن في الرحلات متعددة، فمنها الصحراء القاحلة والواحات الخضراء، والحقول الشاسعة والجبال الشاهقة، والوديان العميقة، والمدن الأهلة، والقرى الخاوية، والآثار القائمة، والطرقات الضيقة والمعبدة، هذه الأماكن هي المحفز للشخصية بأن تتحرك وتسرد أو تصف الوصف التعبيري، وقد يبلغ قمة من الموضوعية حين يقف السارد أمام أفعال الإنسان الهندسية في الآثار وبقايا الديار، وأما طرق الوصف فمتعددة، منها الوصف الانتقائي المعتمدة على مميزات المكان والوصف الاستقصائي المهتم بالعناصر، وتبدو الأماكن الموصوفة ساكنة، وقد تعج بالحركة والحيوية، إلى جانب المناظر الشاملة للمدن والأفاق، التي تقدم فيها العناصر بسرعة وكأن السارد ينظر غلى المكان من على.

أما وظائف المكان فمتنوعة، منها التعبدية والتعليمية والأثرية والتجارية... والسارد يقيم الأماكن باستمرار ويتفاعل معها ويستخلص العبر، بالنظر إلى السكان استئناسا، ونفورا، مدحا وذما. وخصوصية المكان الفنية تتجلى في الماضي المندمج مع الحاضر[1] .

---

[1]-إسماعيل زردومي:المرجع السابق ،ص 06.

وبالعودة إلى محتوى مادون من أدب الرحلة ، وتحليل منهج التدوين نجد أن الرحلة في بلاد إفريقيا جنوب الصحراء.

ومن حيث منهج التدوين اعتمدت مزجت بين الترتيب المكاني والزمني ولم تغفل الموضوعات، أما من حيث طرق التدوين فمنها ما كتب أثناء الترحّل ومنها ما كتب بعد تجميع الملاحظات والمذكرات[1] واستشارة المراجع، ومنها ما أبتدعه الذات في المناسبة[2] ويخضع الكل لتأليف لاحق تناول البنية الكلية بالتنسيق والتفصيل[3] .

لقد خضعت أشكال الرحلة لهيكل أساسه الحركة والتنقل من نقطة ما سعيا لبلوغ هدف ما إلى نقطة البدء إما دواعيها فمتنوعة تنوع النوازع البشرية، ويمكن إجمالها في الدواعي العلمية والروحية والسياسية تناولت البنية الرحلات وهي بنية تسرد لنا حكاية سفر ذي بداية ونهاية ، وما بينهما ليس كله حكيا، ففيه الوصف والخبر وسرد أقوال الآخرين من شعر ونثر وتراجم، إلى جانب الإبداعات الخاصة ويخضع الكل لعلاقات سببية أو زمنية أو مكانية، والسارد له دراية كاملة بعلاقات السابق واللاحق وما يتطلبه التأليف من صنعه.

ورغم تشابه الرحلات في البنية النمطية والهيكلية، فإن البنية الفرعية متنوعة ومتغيرة حسب ظروف الزمان والمكان والرحال والاتجاه.[4]

---

[1]. رحلة ابن بطوطة.
[2]. العمري في المسالك والممالك
[3]. الحسن الوزان: وصف إفريقيا.
[4]. إسماعيل زردومي : المرجع السابق ،ص03.

وستظل مصادر الرحلة العربية الإسلامية احد مقومات التراث في بلاد السودان لاستنباط المصطلحات وضبط أسماء الأماكن والأعلام، وقد تتركز الاستفادة منها على نوع من المعطيات حسب نوع المصدر: كتب التاريخ، التراجم والطبقات النوازل والوثائق والأحكام، والمعاجم بأنواعها، كتب الجغرافيا وأيضا كتب الرحلات التي قد تتركز الاستفادة منها مثل كتب الجغرافيا وأيضا كتب الرحلات التي قد تتركز الاستفادة منها مثل كتب الجغرافيا على ضبط أسماء الأماكن والمعالم والمواقع والمسالك والطرقات ومصطلحات مرتبطة بالنشاط الاقتصادي وحتى السياسي والاجتماعي[1].

وهذا الأسلوب والمنهج يطرح في الغالب في نص واحد، وهو الشيء المشترك بين مؤلفات الرحلة الذي يجعل المحتوى ذات قيمة أدبية بعضها يرقى إلى عالم الأدب القيم، والأخر ينقلها إلى مستوى الخيال [2] .

فالرحالة يستعمل رحلته لأغراض علمية "فيسجل ما يعن له من الملاحظات والطرائق، مايصادفه من العجائب والغرائب في البلدان التي يصل إليها [3] والحقيقة أن الرحالة العرب والمسلمون أصبح لهم شأن في عالم الفكر[4] فأرائهم تلقى الاستحسان واستقبالهم من طرف الملوك الأفارقة والأهالي فكانت غاية في الاحترامّ، وهذا ما تلاحظه في كتاباتهم، من تكريم، عكس ما وجده الرحالة الأوروبيون من توجس لدى الملوك والأهالي على السواء.

---

[1]. صالح بعيزيق: رحلة ابن بطوطة والتاريخ الاقتصادي لبلاد المغرب والسودان والمشرق في النصف الأول من القرن 08ه/14م:منشورات الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية: تونس: 2010: ص44.

[2]. حسن محمود حسين. أدب الرحلة عند العرب. الهيئة العامة للكتاب. القاهرة. 1968. ص01.

[3]. إسماعيل العربي، تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر. ص06.

[4]. حسن الشاهدي:مرجع سابق: ص25.

والمشكل للعنصر الحيوي الدافع لنماء الرحلة وسيرها نحو الاكتمال، وكثيرا ما يترك المكان، ويتحدث السارد عما ينجز فيه من أعمال، فبجانب وصف المكان يهتم السارد بتاريخه، وفي هذا العنصر يتعالق الزمان والمكان وفعل الإنسان.

الزمان في علاقته بالرحال وبالنص، نتبين إدراك الرحال للزمن الطبيعي في الرحلات حيث تقترب بعض الرحلات من المذكرات والتقارير، ويغفله الآخرون حتى تكاد المعالم تختفي، وفي علاقته بالنص من حيث التشكيل حيث إستعنا بمقولات الزمنية القائمة بين القصة والخطاب، في الترتيب الديمومة والتواتر.

ورغم مايبدو على الرحلات من تفكك عند ذوي النظرة العجلى فإنها تستجيب للدراسة الزمنية، مما يكشف بنيتين أساسيتين:

- البنية الأفقية الممتدة من بدء الرحلة إلى تاريخ انتهائها، وهي بنية رتيبة تخضع لحركة الرحال الفعلية وتنقله نحو غاياته، والترتيب فيها أفقي خال من أي تقديم أو تأخير.

- والبنية الثانية هي الخاصة بالوحدات السردية داخل المكان المر حول إليه وفيها يتم السرد عن طريق التزامن والإسترجاع والاستباق وقد تبلغ حدا من التداخل يصعب فكه.[1] والناقد المقارن لأدب الرحلة يلاحظ أن دورهم في الغالب يمثل السرد، فهو يلعب دور فني خالص ينتهي بإنشاء السرد، لا يعلق ولا يزيد ولا يوصل لتراث محلي، رغم أن معظم الرحالة كانو ذوي علم ومعرفة واسعة بعلم الدنيا والدين.[2]

وربما دراسته شخصية الرحال في حد ذاته تزيد أهميتها، إذا تعلق الأمر بنقل مشاهدات لمعاملات معينة تجعل ذاتيته تحيد عن الوصف الحقيقي، وربما حدث التأويل الخاطئ الذي يجعل الأحكام التاريخية تتناقص، وهو مايسجل في التراث الإفريقي من التناقضات التي نقلها الحسن الوزان في وصفه لبعض التقاليد[3] المتنافية مع الدين الإسلامي وكذلك الحال عند ابن بطوطة عندما يصف النساء في قصر ملك مالي، إذ لو

[1]. إسماعيل زردومي: المرجع نفسه ،ص04.
[2]. إمتهن إبن بطوطة مهنة القضاء
[3]. أسلوب إبن بطوطة التعجب، وأسلوب الحسن الوزان السخرية.

كان الرحالة بحثوا في أسباب التنافس لكان تعبيرهم أدق، وحجتهم أقوي في توضيح هذا التناقض.

ثالثا : الإسناد في الرواية العربية الإسلامية:

لا شك أن مصطلح الإسناد ارتبط بالتاريخ الإسلامي، وبالذات مع الحديث الشريف، ومع هذا العمل تطور التوثيق حتى أصبح الإسناد جزء من التاريخ يخدمه كما يخدم باقي العلوم الإسلامية .

والمطلع على بعض المصادر العربية الإسلامية يلاحظ أن جلها عبارة عن مشاهدات محددة بمحاور معينة كالعادات الاجتماعية وبلاط السلطان ورحلات الحج وأخلاق المجتمع الإفريقي وغيرها.

والسؤال الذي نطرحه من أي فئة هؤلاء الرحالة المشاركين في نقل التراث الإفريقي الإسلامي لقد كانوا في الغالب الأمم من الفئات الميسورة اجتماعيا، ممن كان لها اهتمام ثقافي لا يستهان به .فكنا نجد فيهم الفقهاء والعلماء وغيرهم ممن ينتمون للنخبة المتنورة في المجتمع المغاربي، وقد تضاف لهذه النخبة فئة التجار الذين اختصوا في تجارة الكتب لما لاقته من رواج ببلاد السودان[1] .

فإنخرط عدد منهم في التجارة كمصدر أول لتمويل رحلاتهم وربما كانت مصادر أخرى لم تنقل لنا خاصة وأن السلاطين والأمراء كانوا ينفقون على الطلبة العلم والعلماء وقد وردت الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث التي تعزز ذلك.

ومن خلال دراستنا لمصادر الرحلة التي كتبها الرحالة العرب والمسلمين أنه كان منهم من يرتادون بلاد السودان برسم مباشرة تجارتهم والسهر عليها، ومنهم كان يرسل من ينوب عنه في إعماله التجارية(مساعدون، خدم أو عبيد) وقلة قليلة منهم كانت تباشر تجارتها بنفسها، وفي ضوء هذه الملاحظة بجانب اعتبارات أخرى يمكننا أن تجعلنا نصدر حكمات على السند الذي تعتمد عليه الرواية العربية في مصادر الرحلة.

[1]. للمزيد انظر الفصل الرابع: التراث المادي في مدونات الرحالة والجغرافيين.

وهذه الوضعية الاجتماعية والثقافية لشخصية الرحالة العرب والمسلمين، تجعلنا نثق أكثر في رواياتهم[1] كمصدر للتراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء، على الرغم من بعض المآخذ التي تتعلق أحيانا في المبالغة غالبا .

والحقيقة ان فضل الرحالة العرب والمسلمين كبير في التعريف بالتراث الإفريقي [2]، لكن الغريب أنهم لم يدونوا لنا تجارتهم الخاصة بالمنطقة؟ ويزداد قلقنا حينما نعلم أن الشيخ أبا عثمان سعيد الدكالي الذي أقام ببلاد السودان مدة 35 سنة، وتقلب في جل أرجاء مملكة مالي خلال العقود الأربعة الأولى من القرن14م[3] (وإن أفاد العمري بالكثير مما حكاه له)، لم يترك لنا ولو كلمة واحدة، وذلك على غرار الفقيه على بن عبد الله الجنحاني المغربي "أحد الجنود المجهولين في الأخبار الجغرافية" وكذلك الشأن بالنسبة للشاعر الأندلسي أبي الساحلي (ت1347م) [4]، الذي حضي بمكانة معتبرة لدى سلاطين مالي ، ولعب دورا حيويا في توطيد علاقات البلد المالي والمريني، لكنه صد الأخر لم يخلف لنا أي شيء [5].

---

[1]. سبقت الإشارة إلى أن الأوروبيين شككوا في الروايات العربية الإسلامية للتراث الإسلامي الإفريقي، وكمثال ذلك الإدريسي وإن كان ليس محل دراستنا.

[2]. مجتبي عمر جلال أحمد إبراهيم :المرجع السابق ،ص10.

[3]. محمد بن شريفة: من أعلام التواصل بين بلاد المغرب وبلاد السودان: منشورات معهد الدراسات الإفريقية: الرباط:1999، ص68-72 ، 80- 111.

[4].- ملحق رقم 04: مختارات من شعر الساحلي ، والملحق رقم 05: مختارات من نثر الساحلي ،

[5] . Hunwick (jo) : Les rapports intellectuel entre le maroc et L'Afrique sub saharienne ,rebat, Publications de L'institut des Etude Africaines,1990, pp,13/14 ,18/20.
-أحمد الشكري : المرجع السابق ، ص72.

المطلب الثاني : كتابات الرحالة العرب والمسلمين قبل القرن 08 هـ /14 م .

ساهم العرب والمسلمون بشكل كبير في عبور الصحراء الأفريقية الكبرى لأهداف شتى ، ومنهم الرحالة والمؤرخون الذين عرفوا العالم في ذلك الزمان بإقليم ظل يمثل متاهة عند الأوربيين .

نستعرض فيما يلي ما سجله بعض رواد الفكر الإسلامي عن المنطقة موضوع الدراسة بحسب التسلسل التاريخي منذ بداية انتشار الإسلام على نطاق واسع في إفريقيا جنوب الصحراء في القرن الثامن ميلادي .

نجد أن أول الإشارات قد وصلتنا من الفزاري الفلكي فهو أول من كتب عن مملكة غانا عندما أشار إليها باختصار جامع تحت مسمى أرض الذهب وذلك عندما زارها خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري/ الثامن ميلادي (733م) [1] .

كما زارها الخوارزمي أيضا خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي (823م) ، وحدد موقعها في خريطته التي نقلها عن بطليموس[2]، كما تحدث ابن عبد الحكم صاحب كتاب فتوح مصر والمغرب في القرن الثالث الهجري/ التاسع ميلادي عن السودان الغربي.

وعن الحملات العربية التي وصلت إلى جنوب الصحراء الكبرى وكان مما ذكره بصدد ذلك قال: "وغزا عبيد الله بن أبي عبيدة الفهري السوس وأرض السودان فظفر بهم

---

[1] . عبد الرحمن زكي: المراجع العربية للتاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص14.

[2] . كراتشكوفسكي أغناطيوس يوليانوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب، ترجمة صلاح الدين هاشم ،القاهرة ،1961، ص 147.

ظفرا لم ير مثله وأصاب ما شاء من ذهب"[1].

ثم جاء بعده اليعقوبي في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي (872م) والذي قام برحلات كثيرة في بلاد فارس والهند ومصر والمغرب، وقد استفاد من رحلاته الكثيرة هذه فيما وضعه من مؤلفات إذ ذكر في مقدمة كتابه البلدان:

(إني عنيت في عنفوان شبابي وعند احتيال سني وحدة ذهني بعلم أخبار البلدان والمسافة ما بين كل بلد وبلد لأني سافرت حديث السن واتصلت أسفاري ودام تغربي)[2] ، ويهمنا في كتابه ما يختص بإفريقيا وما يتعلق منه بالشمال الإفريقي وتاريخ ممالك السودان الغربي ، خاصة وأن اليعقوبي رأى بنفسه معظم ما عورض له في كتابه فقد أشار إلى مناجم الذهب وقوافل الرقيق في غانا، كما أشار إلى جاو واعتبرها أكبر ممالك السودان، ولكنه ذكر عن غانا بأنها كانت قوية جدا [3].

وفي أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي يسترعى انتباهنا "كتاب السودان" للابن الفقيه الهمذاني (903م) ، ونجد فيه إشارات واضحة عن مملكة غانا وغناها بالذهب.

ثم الجغرافي الفارسي أبو علي بن رسته في كتاب(العلق النفيس) الذي كتبه بعد عشر سنوات من إبن الفقيه (913م) ، وقد اشتهر بالأخلاق النفيسة أيضا وقد أورد فيه معلومات مفيدة عن بلاد الزنج التي اعتبرها أبن رسته على حدود العالم الذي كان معروفا في عصره أما ابن الفقيه فقد اختص بلاد غانا: كما سبق أن أشرنا، بتفصيلات

---

[1]. ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله المصري: فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1961، ص 297.

[2]. اليعقوبي، أحمد بن ابي يعقوب: كتاب البلدان، النجف المطبعة الحيدرية، 1957، ص 312.

أنظر: مجتبي عمر جلال أحمد إبراهيم :المرجع السابق ، ص09.

[3]. المنجد، صلاح الدين:مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين، نصوص جمعها وقدم لها وعلق عليها صلاح المنجد، بيروت 1963، ص5.

أكثر فذكر الكثير من نباتاتها وحيواناتها وركز بصفة خاصة على غناها بالذهب[1].

ومن رواد الفكر الإسلامي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أبو الحسن المسعودي الذي قام برحلات عديدة في شرق إفريقيا وكتب عن ممالك الزنج وفرق بينهم وبين النوبة والسودان ولكنه لم يترحل في غرب إفريقيا وبلاد السودان الغربي التي هي موضوع هذه الدراسة. ولكنه أشار إلى تجارة الذهب فيها في سفره القيم مروج الذهب ومعادن الجوهر.

وتأتي أهمية كتابات المسعودي فيما يخص موضوع هذه البحث من تأثيرها على الكتاب الآخرين الذين يتدفق تجاه الشرق مما أدى به إلى الاعتقاد خطأ بأنه نهر النيل. وأكد ابن حوقل أن زعماء أودغست لديهم صلات كثيرة، بمملكة غانا أغنى ممالك العالم لما في بلادها من التبر، غير انه لم يركز كثيرا على وصف البلاد التي تقطنها الشعوب السوداء في غرب إفريقيا أو غيرها من المناطق المدارية الأخرى [2] .

ومن الجغرافيين الذين كتبوا في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي محمد التاريخي الأندلسي المتوفى عام 973م، ألف كتابا في وصف إفريقيا والمغرب وكان هذا الكتاب من أكبر المصادر التي اعتمدها عبد الله بن عبد العزيز الذي عرف بأبي عبيدا لله، وعرف أكثر بكنيته" البكري" في مصنفه الفريد" المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب".

وكتابات البكري عن أقاليم السودان الغربي تشكل أول محاولة لوضع مسح عام للمنطقة. ويكاد الإجماع ينعقد على أن البكري قد زار غرب السودان، ولكن المهم انه لا غنى عن مرجعه القيم الذي جمع فيه كل ما وصل إليه علمه من وصف دقيق مثير لغانا.

---

[1]. المرجع السابق، ص19.

[2] . إبن حوقل:المرجع السابق، ص 123.

أنظر : زكي محمد حسن:الرحالة المسلمون ، المرجع السابق ، ص 42 .

ولم يترك البكري شيئا إلا وتصدى له بالتحليل والدراسة وساعده على ذلك سعة أفقه وقراءاته الكثيرة للسجلات العربية التي حفلت بها مدينة قرطبة التي كانت مصدرا لا ينضب لأخبار غرب أفريقيا في ذلك الحين[1]. وقد ذكر البكري أن بمدينة غانا حيان واحد للمسلمين به اثنا عشر مسجدا وعدد من الفقهاء وأهل العلم.

وهذا يوضح لنا نتيجة اتصال المسلمين بشعوب غرب إفريقيا، وما أحدثه ذلك الاتصال من نشر للدين الإسلامي، أما الآخر فهو مقر الملك، وإلى جانب القصر أنشئ مسجد أخر ليؤدي فيه زوار الملك من المسلمين صلاتهم، الأمر الذي يشهد بظهور رعية مسلمة كثيرة العدد كانت تعمر هذا العدد الوفير من المساجد.

وقد ترك لنا البكري الكثير عن مدينة كمبي عاصمة غانا، واعتمد في كتاباته عن العاصمة على المعلومات التي أمده بها أحد التجار المغاربة، ونلحظ في حديث البكري عظمة البلاط والازدهار التجاري والعسكري، فقد ذكر أن باستطاعة ملك غانا أن يجند للحرب مائتي ألف مقاتل منهم أربعين ألفا مسلحين بالسهام الأقواس، والباقي بالحراب.

ولا شك ان البكري كان يتلقى الكثير من أحاديث الرحالة والمغامرين الذين كانوا يضيفون عليها قدرا من الخيال والمبالغة[2] ، وإن كان البكري أحذق من أن يفوت عليه ذلك. ولعل ما اعانه في كتاباته عن غرب إفريقيا انه كتب في أعقاب قيام حركة المرابطين بقيادة عبد الله بن ياسين الجزولي والتي كان لها أثر بعيد في تقريب غرب إفريقيا إلى منطقة البحر المتوسط كما يقول ترمنجهام [3].

وفي كتابات البكري الشئ الكثير عن مملكة غانا وعوائد اهلها وغناها بالذهب واهم مراكز إستخراجه وتحديد الإتصال بها وبغيرها من المدن كما نتجد فيها إشارات كثيرة عن محاولات المرابطين إختراق الصحراء من أدل الوصول إليها كما تعرض أيضا

---

[1]. كراتشكوفسكي، المرجع السابق ، 154.

[2]. نجد أن البكري قد كتب كتابه هذا في قرطبة ، حيث كانت تتوفر فيها الوثائق والسجلات التي جلبها حكام الأندلس ووضعوها تحت تصرف من يريد التعرف على بلاد السودان ، أنظر: مجتبي عمر جلال أحمد إبراهيم:المرجع السابق

[3] . Trimingham, I. C: A history of Islam in west Africa , London, 1970, p228

لمدن الشمال الإفريقي كطرابلس والقيروان وتونس ووهران وطنجة وسبته وفاس وسجلماسة وإغمات و إتصال بعضها ببعض والمسافات التي تفصل بينها[1].

يبرز لدينا في أواخر القرن الرابع هجري/ العاشر الميلادي الحسن بن محمد المهلبي، وهو عالم مصري كان يعاصر الخليفة الفاطمي العزيز بالله وضع بعد زيارته لبلاد السودان كتابا في الطرق والمسالك (985) امتاز بأنه أول كتاب عني بوصف أقاليم السودان الغربي وصفا دقيقا ولكن مما يؤسف له أن ذلك الكتاب لم يصل إلينا[2]. وفي القرن الحادي عشر الميلادي، جاءت مصنفات الإدريسي وهي من المصنفات العربية الهامة التي عنيت بإفريقيا وحظيت منطقة بلاد السودان العربي بنصيب وافر من عنايته.

والإدريسي جغرافي عربي (1166/1100) اقام في صقلية في الفترة من 1138 حتى وفاته 1166م[3]، في بلاط الملك روجر الثاني(roger II) احد ملوك النورمان وقد عرف الكتاب الذي وصفه بكتاب روجر أو الروجاي،واسماه "نزهة المشتاق في إختراق الأفاق" .

ولقد إستنكر معاصرو الإدريسي إقامته في كنف ملك صقلية المسيحي خاصة وأن الوقت كان وقت حروب صليبية ولا شك أن عدم موافقة بني قومه على تصرفه هذا كان سببا في أن المعلومات المتعلقة بحياته قليلة في جملتها [4].

والثابت ان الإدريسي قد قضى ردحا من حياته الأولى مرتحلا في إسبانيا وإفريقيا وأسيا الوسطى ، وكان روجر مهتما بجمع المعلومات الجغرافية فطلب من الإدريسي المعلومات المتعلقة بالعالم والتي كان قد استحوذ على مادتها فأخرج منها الإدريسي مؤلفه الضخم المعروف بكتاب روجر[4].

---

[1]. البكري:المرجع السابق، ص 172 ومابعدها.
[2]. زكي محمد حسن، المرجع السابق، ص 42-43.
[3]. جيان:وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق أفريقيا، ص 205-207.**(التأكد من باقي المعلومات).**
[4] . Bovil: The Golden trade Op. cit. pp. 16-36.
[4]. أنظر مادة الإدريسي في دائرة المعرف الإسلامية، ولمزيد من التفصيل عن ترجمة الإدريسي يمكن الرجوع إلى محمد عبد الغني حسن، الشريف الإدريسي، سلسلة أعلام العرب ،رقم 97، القاهرة ص 38وما بعدها.

وقد أخذ الإدريسي الكثير من مادته من الكتب الجغرافية السابقة له وذلك من التقارير التي كان يتلقاها من المسافرين والتجار ، هذا فضلا عن المناطق التي ارتحل إليها بنفسه في إفريقيا ، وكانت في منطقة الشمال الإفريقي على وجه التحديد ، إذ أنه لا يعرف عن الإدريسي أنه قد وصل في رحلاته في إفريقيا إلى ابعد من ذلك ، ولكننا نجد في كتاباته إشارات عن مدن شرق إفريقيا.

وقد انتهى الإدريسي من كتاب نزهة المشتاق في عام 1154م ، وفي العام الثاني قام بوضع خريطة للعالم استجابة لطلب روجر[1] ولا شك أن الفترة التي وضع فيها الإدريسي كتابه كانت فيها تجارة العرب مع شرق إفريقيا مزدهرة ازدهارا كبيرا ، على أن الإدريسي لم يتحدث عن تجارة العرب في الذهب والملح والرقيق ، لأن هذه التجارة كانت معروفة في العالم العربي ، وإنما انصرف على الحديث عن تجارة جديدة وهي تجارة الحديد .

كما نلاحظ أيضا تغيير أوجه الحياة في شرق إفريقيا - كمنطقة جغرافية اقتصادية مهمة - منذ رحلة المسعودي إليها في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ، والتي أصبحت في زمن الإدريسي تعرف بمنطقة الزنج [2].

يحدثنا الإدريسي عنها فيقول :" إن الزنوج يمتلكون فيها مناجم الحديد ويستخرجون المطاوع منه ويربحون من تجارتهم هذه ارباحا كبيرة [3] . كما أنه لم يقتصر عند حد الإشارة إلى أقاليم شرق إفريقيا ومدنها ، وإنما تعرض إلى غرب إفريقيا ولا سيما مملكة غانا وطبقا لما ذكره الإدريسي أن عاصمتها كومبي صالح هي أكبر سوق في السودان الغربي ، حيث إعتاد التجار من جميع أنحاء المغرب أن يتجمعوا في أسواقها [4].

---

[1] . Johnston, H: A History of the colotnization of Africa by Alien Races. Cambridge, 1913, p299.

[2]. محمد عبد الغني حسن: المرجع السابق، ص56.

[3]. الإدريسي: المصدر السابق، ج2، ص178.

[4]. عبد الرحمن زكي: مرجع سابق، ص14.

ومن الثابت أن المسلمين قد احتلوا مراكز عليا في المملكة كوزراء وكتاب، كما ذكر أن الخزانة الملكية كانت تحتوي على قطعة كبيرة الحجم من الذهب أصبحت مشهورة في العالم الخارجي.

وفي القرن الرابع عشر الميلادي ذكر إبن خلدون بيعها من قبل أمير مسرف إلى بعض تجار مصر ، وذكر إن وزنها بلغ أكثر من طن. وأوضح الإدريسي أن ذهب عرب إفريقيا كان يأتي من مركزين اساسيين هما بلاد التكرور في الغرب ونجارا في الشرق.

وصف الإدريسي في مواضع كثيرة من كتابه ماكان عليه ملوك غانا من الثراء، كما وصف أحوال مالي، وذكر أن تكرور من أكبر مدنها وأكثرها تجارة فكان يسافر إليها أهالي المغرب الأقصى بالصوف والقماش والخرز ويخرجون منها بالتبر والرقيق .

كما أمدنا الإدريسي بكثير من المعلومات عن حالة المغرب العربي ، وله وصف دقيق للمدن في شمال غرب إفريقيا خاصة مدينة أغمات التي أكد اتصالها ببلاد السودان الغربي كما أشار إلى طرق القوافل التي كانت تخرج منها، كما وصف مدينتي مراكش وفاس وصفا فريدا في نوعه جمع بين التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع [1].

وفي القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، يطالعنا ياقوت الحموي بمعجمه المعروف معجم البلدان ، وقد عرف ياقوت بأسفاره التجارية العديدة ، وكان يشتغل بتجارة الكتب وقد مكنه عمله من جمع المادة العلمية اللازمة لمؤلفه ، على أنه لم يسجل أخبار رحلته وما وقع له من تجارب خلالها ، ولا ريب في أن ما شاهده ياقوت في اسفاره العديدة وما جمعه من الخزائن كان خير عون له في تأليف مصنفه الفريد الذي فرغ منه في عام 1224م [2] .

---

[1]. زيادة نقولا :الجغرافيا والرحلات عند العرب، ط1، مؤسسة ناصر القافية،بيروت ، د.ت، ص 254.
[2]. زكي محمد حسن:المرجع السابق، ص 15-16.

بيد اننا لا نستطيع أن نحدد مقدار ما افاده ياقوت في رحلاته تحديدا دقيقا إذ أنه لم يعين الأقاليم الإفريقية التي زارها بنفسه وكتب عنها ، وإنما نقل في معجمه عن كثير من الجغرافيين والرحالة من أنه كان من أكثر العلماء طوافا في عصره.

ويعتبر معجم البلدان من أهم مصنفات التي وضعها العرب في هذا الموضوع ، ويوجد بهذا المعجم كثير من مدن شرق إفريقيا كمقديشو والجب وكلوه ، ولعل ياقوت الحموي أول من أشار إلى الشعب السواحلي .

ويفهم ذلك من حديثه عنهم إذ أسماهم بـ "شعب الربر"، وهم غير البربر الذين بالمغرب هؤلاء سود يشبهون الزنوج وجنس متوسط بين الحبش والزنوج [1].

فذكر عن غانا أنها مدينة كبيرة في جنوب بلاد السودان ، كما تحدث عن إقليم مالي ، فذكر عن التكرور أنها بلاد تنسب إلى قبيلة من السودان في أقصى جنوب المغرب ، كما تحدث عن التبر فذكر أنه من بلاد السودان وإليها ينسب الذهب الخالص وهي في جنوب المغرب [2].

ومن المصنفين العرب الذين إهتموا بممالك السودان في النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثالث عشر ميلادي ، احمد بن عبد المؤمن الشريشي (AL-Sgariashi) 1223،وهو مؤرخ لم يكتب كثيرا عن إفريقيا جنوب الصحراء ، إلا من خلال ما ورده من أنباء حملها التجار والحجاج ، فذكر أن المدخل إلى هذه الممالك

[1] . ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج8، ص171.
[2] . المنجد، صلاح الدين:المرجع السابق ، ص15.

من سجلماسة :"ومن سجلماسة إليها ذهابا مسيرة ثلاثة أشهر ويوجد بها تجار كثيرون من المغرب وشمال إفريقيا " [1] .

وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي يبرز لدينا من المصنفين العرب إبن سعيد الصوفي 1286م ، وهو مؤلف جغرافي من غرناطة درس جغرافية بطليموس ووضع موسوعة هامة عرفت بجغرافية الأقاليم السبعة [2] .

وأورد فيها ما عرف عن سواحل إفريقيا مع ذكر بعض مدنها كما لينده ومقديشو [3] ، واهم ما في كتاب إبن سعيد ما ذكره أن ملاحا عربيا يدعى إبن فاطمة دار حول إفريقيا من الغرب إلى الشرق ، كما وصف سواحل السنغال ، وذكر وجود جاليات هندية كبيرة تعيش في جزيرة القهر .

كما أوجد تفاصيل كثيرة عن تلك الجزيرة تطابق جزيرة مدغشقر إلى حد كبير يبلغ طولها مسيرة أربعة أشهر وعرضها مسيرة عشرين يوما وأنها تحت حكم المسلمين، وعلى الرغم من أن ابن سعيد قد كتب عن السودان الغربي إلا أنه من المؤسف أن كتاباته لم تصل إلينا كاملة ، ولكن إذ قيمناها بالإشارات التي وردت عنها في ابي الفداء و إبن خلدون وغيرهما فإن فقد مؤلفاته يعد ضربة محزنة للعلم [4].

وبعد وفاة ابن سعيد يسترعى إنتباهنا مصنف جديد في تخطيط البلدان لزكرياء إبن محمد المعروف بالقزويني ، ويتضمن هذا المصنف بعض المعلومات المفيدة عن إفريقيا وإن كان يتميز بإتجاهه إلى العجائب ،ويتضح ذلك من عنوانه

---

[1]. عبد الرحمن زكي:المرجع السابق، ص26.

[2]. أنظر إبن سعيد في المجلد الثاني من وثائق فيراند ص 312، وما بعدها.

-CF. Ferrand, Documents Historiques et textes Geographiques Des Arabses et Persians et Turks Relative a L'Extseme Orient de VIIIe, Au XIIIe sicles Tome 11.p 316 ff. Paris, 1913.

[3]. جيان: المرجع السابق ،ص138.

[4]. أنظر بعض الكتابات التي أوردها فيراند لإبن سعيد في المجلد الثاني من وثائق فيراند، ص 192، وما بعدها

- -Bovil, The gi I solden trade, Op. Cit, p.65

"عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات " وله كتاب أخر بعنوان "أثار البلاد وأخبار العباد " إقتصر فيه على ما نقله عن المسعودي خاصة في حديثه عن زنوج شرق إفريقيا ، أما عن بلاد السودان فقد ذكر أنها بلاد كبيرة وارض واسعة ينتهي شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البراري وشرقها إلى الحبشة وغربها إلى المحيط [1].

ومن أبرز المصنفين العرب في القرن السابع الهجري / الثالث عشر ميلادي ابو الفداء إسماعيل سلطان حماة في مصنفه المعروف : تقويم البلدان ، الذي إعتمد فيه كثيرا على إبن سعيد ، وقد تعرض في مصنفه لكل من شرق وغرب إفريقيا وأكد الروابط القائمة بين شمال غرب أفريقيا وممالك السودان الغربي.

فذكر أن المسافرين يقطعون الصحراء بين سجلماسة وغانا ، وهي مسافة طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش والوهج [2]، وعلى أن أكثر ما أوضحه ابو الفدا فيها يتعلق بشرق إفريقيا في معرض حديثه عن الثلوج على قمم العالية في الداخل (جبال كلمنجارو في كينيا) قال ' أنه سمع بهذا ولا يكاد يصدقه [3] ، وعلى ذلك نستطيع أن نقول أن العرب عرفوا مناطق داخلية في إفريقيا لم يصل إليها الأوروبيون إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي .

ويتميز القرن الرابع عشر الميلادي بغنى تراثه في مجال المعرفة العربية بغرب إفريقيا ، ففي خلال النصف الأول من ذلك القرن نصحب إبن فضل الله العمري في موسوعته الضخمة " مسالك الأبصار"، التي أورد فيها الشئ الكثير عن مملكة مالي فذكر أنها في جنوب نهاية المغرب متصلة بالبحر المحيط وأنها تشتمل على أقاليم كثيرة ، وبلاد مالي وغانا وما معها يسلك إليها من غربي صعيد مصر على الواحات في طريق تسكنه طوائف من العرب ثم من البربر يتوصل منه إلى مالي وغانا.

---

[1]. زكرياء القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار الصناعة و النشر، بيروت، 1969، ص24.
[2]. المنجد، صلاح الدين، المصدر السابق، ص 27، أنظر تقويم البلدان، ص 137.
[3]. أنظر كتابات أبي الفدا في:
Reinard: Realtions des voyages faits par les arabes et les persiens a L'inde et de la chine toom 11.p.44.(PDF).

وما كتبه العمري يعد من أعظم ما كتب عن مالي ، إذ قدم وصفا هاما ودقيقا للملكة وأقاليمها ومدنها وقبائلها وبناء دورها وثمارها وحيواناتها وعاداتها وتقاليد أهلها وعساكرها ومعادنها وصلات ملوكها بمن جاورهم ، وقد إستقى معلوماته من أناس عاشوا في تلك البلاد وعرفوا أخبارها أو من أهالي البلاد أنفسهم أو ملوكهم الذين زاروا القاهرة ومن آخرين صحبوا هؤلاء الملوك ، كثيرا ما يقتبس منه القلقشندي فقرات كاملة ضمّنها كتابه "صبح الأعشى" [1].

وفي أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي يطل علينا إبن خلدون وهو عبد الرحمن بن محمد (ت 808ﻫ/1405م وهو ينتمي إلى أسرة عربية مرموقة ذات باع في السياسة والأدب ، كان لها بصماتها على الحياة العامة خلال القرن الرابع عشر بالأندلس والمغرب ومصر .

وابن خلدون هو صاحب المقدمة المشهورة التي اسست لفلسفة التاريخ وأرسلت دعائم علم الاجتماع الحديث في العالم ، وقد إشتملت تلك المقدمة العظيمة على مناهج النقد العلمي للعلوم الاجتماعية ، وأعطت تفسيرا منطقيا لكثير من حوادث التاريخ الإسلامي بأن وضعت تلك الأحداث في إطارها التاريخي الصحيح ونفت عنها الخرافة والمبالغة.

وكان ابن خلدون من أوائل الذين نبهوا إلى خطورة علم التاريخ ووصفه بأنه علم جليل يمكن أن يقود إلى صلاح حال البشر إذا أحسنوا إستخلاص العبر ، ولقد اهتم علماء الغرب بمقدمة إبن خلدون فترجمت إلى جميع لغات العالم الحية [2].

أما تاريخ إبن خلدون الموسوم "كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" فقد إستعرض لنا تاريخ البشر

---

[1]. العمري، مسالك الأبصار، وتوجد مجلدات تحتاج إلى إستكمال من هذا المصنف في دار الكتب المصرية تحت رقم الإيداع 2568. وتجدر الإشارة إلى الجهود التي بذلها الباحث المجتهد محمد سالم العوفي في تحقيق الباب العاشر "بلاد السودان" من هذا المصنف المهم.

[2]. لقد طبعت مقدمة إبن خلدون لأول مرة باريس 1858 م بها 3 أجزاء. ويذكر الباحثون وجدوا نسخة بخط اليد بمركز أحمد بابا بتمبكتو يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الحادي عشر الهجري وهي بخط مغربي جميل .

من لدن سيدنا أدم عليه السلام. ومن عجب أن إبن خلدون لم يطبق منهاجه النقدي الصارم على كتابه فقد سلك منهج من سبقوه، إلا أنه يعتبر مؤرخ القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين بلا منازع ، فقد جاء تأريخه لهذه الفترة دقيقا وافيا ومقنعا لأنه أورد أخبار العلماء والأدباء والتجار و الأعيان وعامة الناس إلى جانب أخبار الملوك والامراء والحكام [1].

وقد أورد لنا حقائق هامة عن بلاد السودان الغربي ومعلومات دقيقة عن قبائل الطوارق والعرب والبربر في تاريخهم المبكر فذكر مدينة تكدا كأهم مدينة في سلطنة مالي بإعتبارها مركزا هاما للقوافل التي كانت تحط رحالها بها ، وهي في طريقها من مالي وبلاد السودان إلى مصر وأقطار المسلمين الأخرى ، مما يؤكد الاتصالات التجارية التي كانت قائمة بين مصر ومالي .

وفي أوائل القرن الثامن هجري/ الرابع عشرؤ ميلادي وضع القلقشندي موسوعته الضخمة" صبح الأعشى في صناعة الإنشاء " وفي الجزء الخامس من تلك الموسوعة تحدث القلقشندي عن الممالك الإسلامية في إفريقيا وخص بالذكر مملكة مالي التي إعتبرها المملكة الخامسة من ممالك الجهة الجنوبية في مملكة الديار المصرية.

وقسمها إلى خمسة أقاليم ، الإقليم الأول مالي، والثاني صوصو، والثالث غانا، والرابع كوكو، والخامس بلاد التكرور الواقعة إلى الشرق من كوكو وتليها من جهة الغرب مملكة برنو مع ملاحظة أن المادة التي إعتمد عليها القلقشندي قد استقاها عمن سبقه من المصنفين.

إذ نقل كثيرا عن أبي سعيد وابي الفدا ، كما وضع جل اعتماده على العمري ، وعلى كل حال فإن قيمة مؤلف القلقشندي تكمن في أنه جمع لنا فيه الكثير من نصوص المؤلفات التي لم تصل بعد الينا .

---

[1] . ابن خلدون" كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، 7 أجزاء في التاريخ العام منذ بدأ الخليقة.

كما أمدنا بصورة جلية لمجتمع مالي وأورد أخبارا وسيرا لحكامها قبل وبعد اعتناقهم للدين الإسلامي ، كما أوضح عمق الصلات التي كانت تربط بين ممالك السودان الغربي والأوسط والمغرب ومصر وبقية أقطار المسلمين [1].

إن هذه المصنفات العربية قد أمدتنا بمعلومات عن بعض أجزاء القارة الإفريقية منذ القرن الثاني إلى القرن الثامن الهجري/ الثامن حتى القرن السادس عشر الميلادي [2]، وفي هذه الفترة التي يمكن أن نسميها بالعهد الإسلامي الذي كان المسلمون خلاله على إتصال دون غيرهم بتلك المناطق التي كان لهم فيها النفوذ والسيادة والسيطرة على تجارتهما.

وفي الوقت الذي بدات فيه المصنفات العربية في التلاشي تبدأ المصادر البرتغالية في الظهور وأهمها ، ما كتبه الرحالة البرتغاليون من الرواد الاوروبيون الذين توغلوا في القارة الافريقية خلال القرن التاسع عشر [3].

والجدير بالذكر ان بعض الكتّاب الاوروبيين تعمدوا في قليل أو كثير تجاهل المؤثرات العربية ومنهم من حاول النيل من الحضارة الإسلامية في إفريقيا ونسب كشف افريقيا وإدخال الحضارة فيها الى أوروبا.

وهذه نظرة قاصرة لأن اوروبا نفسها لم تصل الى كشف مجاهل القارة الافريقية الا بفضل اعتمادها على المصنفات العربية والكثير من هذه المصنفات ترجم إلى اللغات الأوربية منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي[2] .

---

[1] القلقشندي: المصدر السابق، جزء 5، ص 282-301.

[2]. صلاح الدين المنجد : مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين ، ط1، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، 1963، ص22.

[3].عبدالرحمان أحمد عثمان: فهرست تحليلي لمصادر دراسة الأسلام في إفريقيا ،ط1 ، دار المركز السلامي للطباعة ، 1991/1411، الخرطوم ، السودان ، ص 22.

[2]. مجموعة من الباحثين:إفريقيا والثقافة العربية الأسلامية ، مجموعة أبحاث ، منشورات الأسيسكو ، الرباط 1987، ص 166.

المبحث الثاني: المبحث الثاني : التراث الإسلامي في عيون الرحالة بين القرنين(08-10هـ/14-16م) .

- **المطلب الأول: قراءة في التراث الأفريقي من خلال رحلة إبن بطوطة:**

1- ابن بطوطة حياته و مسيرته [1]:

ابن بطوطة و هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي وكنيته أبو عبد الله، و لقبه شمس الدين، أشهر الرحالة المسلمين على الاطلاق.

ولد ابن بطوطة في مدينة طنجة في السابع عشر من شهر رجب عام 703هـ (24 فيفري سنة 1304 م)، و تعود نسبة (اللواتي) إلى أنه ينتمي إلى قبيلة لواته، وهي إحدى القبائل البربرية التي انتشرت بطونها طول ساحل أفريقيا الشمالي من المغرب حتى مصر.

وكل ما يعرف عن حياة ابن بطوطة الأولى أنه نشأ في بسطة من العيش و نال حظا يسيرا من العلم في طنجة و كان يميل إلى تعلم الفقه للمذهب المالكي الذي ساد أفريقيا

---

[1]. انظر المصادر و المراجع التالية:
- كتاب الإحاطة: ج13، ص 273.-274.
-ابن خلدون: المصدر السابق ،ص 322 -223.
-الدرر الكامنة: ج 3 ، ص 480-481.
-الرحالة العرب و المسلمون اكتشاف الآخر، ص 55-56.
-كراتشكوفسكي : المرجع السابق ،ج1، ص 421-433.
- الرحلات (انظر شوقي ضيف): ص 95-122.
-كارل بروكمان :المرجع السابق ،ص338.
-دائرة المعارف الإسلامية: ج1، ص 112 -113.
-أبو بكر احمد المصطفى المحجوبي :منح الرب الغفور في ذكر مأأهمل صاحب فتح الشكور،تحقيق :الهادي مبروك الدالي،ط1،د ب ن ،2001، ص 105.
-الحسن الشاهدي: المرجع السابق ،ص ص 64 -74.
- نقولا زيادة: إفريقيات، ص ص338-339.
-أحمد مطلوب: الملامح الاقتصادية في رحلةابن بطوطة، ص ص10-16.
-ماجدة كرومي: المرجع السابق، ص ص333-336.
- Michel Abitbol : Tambouctou au Milieu Du XIII^e Siècle . pp. 88. 89. -
-نواف عبد العزيز: رحالة الغرب الإسلامي و صورة المشرق العربي، 33-34.
-خضر موسى محمد حمود: أدب الرحلات و أشهر أعلامه العرب و نتاجهم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 2011. ص ص137-144.

آنذاك. شأن غيره من المثقفين سعر جيد مدح به بعض الذين أولوه رعايتهم[1].

هجر وطنه لمدة تزيد على ربع قرن قطع فيها أكثر من خمسة و سبعين ألف ميل، و يبدو أن الحافز الرئيسي الذي دفعه على الخروج هو أداء فريضة الحج فخرج ملبيا داعي الله من مدينة طنجة و هو في سن الثانية و العشرين، و يوّضح أن الغرض من خروجه من طنجة هو أداء فريضة الحج ما رواه ابن بطوطة بنفسه فهو يقول:[2] «كان خروجي من طنجة مسقط رأسي، في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمس و عشرين و سبعمائة (منتصف يونيو سنة 1325) معتمدا حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة و السلام، وكلي شوق إلى تلك المعاهد الشريفة ، فجزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور، و فارقت وطني مفارقة الطيور للوكور، و كان والدي بقيد الحياة، فتحصلت لبعدهما وصبا و لقيت كما لقيت من الفراق، نصبا، و سني يومئذ اثنتان و عشرون سنة ».

و يميز ابن بطوطة كما يستشف من كلامه عن نفسه، بأنه كان حسّاسا رقيق العاطفة نقيا معظما للأتقياء و الصالحين، يزور قبورهم للتبرك بهم « لا يجيز للإسلام ذلك » و يروي كثيرا من كراماتهم و ما ينسب إليهم من أعمال الخير، كإقامة الزوايا وحبس الأوقاف

---

[1]. كراتشكوفسكي: مرجع سابق، ج1، ص 422.
[2]. ابن بطوطة: المصدر السابق ،ص 18-19.

الكثيرة عليها، و قد حج ابن بطوطة أربع مرات و كان لا يفتأ يذكر أن ما متّع به حياته من نعمة م جاه إنما كان لأنه حجّ أربع حجّات[1] .

2- رحلات ابن بطوطة:

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات:

أ-الأولى من 1325[2] **-1349:** جاب فيها بلاد مراكش و الجزائر و تونس وطرابلس الغرب و مصر و تعذر سفره إلى الحجاز بسبب قيام الحرب بين ...و المماليك وتابع رحلته عن طريق فلسطين و لبنان و سورية و الحجاز ثم رحل عن طريق العراق، و العجم و بلاد الأناضول ثم قصد اليمن و من ثم إلى أفريقية الشرقية، ثم عاد مارا بجنوبي جزيرة العرب، حتى وصل إلى خليج فارس زائرا عمان، و هرمز و البحرين و الإحساء، ثم عاد إلى الحجاز و تركها قاصدا مصر، و عاد إلى الهند، ثم رحل إلى بلاد العرب عن طريق سومطرة ثم رجع نهائيا إلى فاس[3].

ب-الثانية 1350-1351: لم يمكث في فاس طويلا إلى الأندلس ثم عاد إلى فاس ووصف ابن بطوطة خط سير رحلته من جبل طارق إلى مدينة رندة، ثم إلى بلدة مربلة و سهيل على الساحل الشرقي الإسباني، و قد وقعت له في بلدة سهيل غارة بحرية معادية كاد أن يقتل فيها لولا أنه لجأ إلى برج المدينة، ثم واصل سيره بحذاء الساحل الشرقي إلى مدينة مالقا فوصف فواكهها كالعنب و التين و الرمان، كما وصف الفخار المذهب الذي اشتهرت به بضاعته ثم غادر مالقة إلى العاصمة مدينة غرناطة[4]

ج-الثالثة 1352-1354: زار بلاد السودان ثم عاد إلى فاس. بعد رحلته التي استغرقت ثلاثة أعوام عاد إلى فاس و استقر في حاشية السلطان أب عنان المريني يخبر الناس بما

---

1. محمد محمود محمدين:مرجع سابق، ص 163.
2. بعض الكتب أشارت إلى 1324 ه، انظر نواف عبد العزيز ،مرجع سابق، ص 91.
3. خضر موسى محمد حمود: مرجع سابق، ص 138.
4. المرجع نفسه ، ص 139.

رآه من العجائب و الغرائب[1].

3- خريطة سير ابن بطوطة:

تعتبر رحلة ابن بطوطة أهم مصدر للرحلة في التاريخ العربي الإسلامي وعالجت الكثير من المراجع الحديثة هذه الرّحلة من حيث التعريف بصاحبها و المراحل والمناطق التي زارها[2] و كانت بلاد السودان من أهم المناطق التي استأثرت اهتمام الباحثين في رحلة ابن بطوطة حيث وصفت بالغرائب التي سجلها في رحلته.

انطلق ابن بطوطة من سجلماة نحو بلاد السودان في 01 محرم 753 ه/ 1 مارس 1352 م صحبة قافلة تجارية و بالتالي فالطريق التي سلكها هي طريق التّجار، تمكننا رحلته من رسم المراحل الكبرى لهذه الطريق الصحراوية، فمن سجلماسة تتوجّه القوافل تغازة منجم الملح ثم منها إلى تاسرهلا التي تتوفر بها الماء فأصبحت محطة للاستراحة في قلب الصحراء.

قال عنها: "ثم وصلنا إلى تاسرهلا، و هي أحساء ماء تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون[3] يليها أبوالاتن و يفيدنا أن السفر بين تغازة و أبوالاتن كان صعبا نظرا لقساوة الصحراء بينهما[4] تدوم الرحلة شهرين من سلجماسة إلى أبوالاتن إذ قال: ثم وصلنا إلى مدينة أبوالاتن في غرة شهر ربيع الأول 753 هـ بعد شهرين كاملين من

---

[1]. خضر موسى محمد حمود: مرجع سابق، ص 140.

[2].. محمد الشرقاوي: رحلة مع ابن بطوطة من طنجة إلى الصين و الأندلس و إفريقيا، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، 1968، ص 35 -49.

–حسين مؤنس: ابن بطوطة(1304-1368) و رحلاته، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص 61 -68.

–عبد الله كنون: ابن بطوطة، مجلة مجمع اللغة العربية، ج4، عدد1، دمشق، جانفي 1965، ص 83 -108.

- سليمان فياض: ابن بطوطة، رحالة الإسلام، ط2، مركز الأهرام، القاهرة، 1986، ص ص 22-36.

- Janssens (Herman F.) Ibn Battuta "le voyageur de l'islam ",1304 -1369, Bruxelles, 1948, P. 85-86.(PDF).

-Benatti(R)," Ibn Battuta e 1 suoi viaggi", Africa e Mediterraneo 3/4,pari,1995, PP. 78-81,.(PDF).

-Akalay,(A), Ibn Battuta: Prince des voyageurs, Casablanca-éd. Maroc,1998, PP. 13-47. .(PDF).

[3]. ابن بطوطة:المرجع السابق ، ص297.

[4]. هي " المجابة" التي ذكرها البكري: المرجع السابق ، ج2، الفقرة 1447، ص 866، و سماها أبو الفداء المصدر السابق ،ص 137.

سلجماسة [1] ، و تشمل هذه المدة عشرة أيام تضمنتها القافلة في تغازة و ثلاثة أيام في تاسرهلا و بالتالي تكون مسافة السير 47 يوما منها حسب ابن بطوطة 25 يوما سلجماسة إلى تغازة و 10 أيام من تغازة إلى سلجماسة ثم 12 يوما من تاسرهلا إلى أبوالاتن التي مثلت مدخل بلاد السّودان حسب ابن بطوطة إذ قال: هي أول عمالة السودان [2] ثم تليها قبل الوصول إلى مدينة مالي التي كانت عاصمة لمملكتها مدينتا زافري و كارسمو اللتان مر ابن بطوطة بها و يذكر أن مالي تبتعد عن أبوالاتن 24 يوما للمجد في السير، هكذا تكون المسافة التي قضتها القافلة سيرا بين سجلماسة و مالي على هذه الطريق 71 يوما أي 47 يوما تضاف إلى 24 يوما حسب المعلومات التي قدمها لنا ابن بطوطة عن فترات التوقف و السير، غير أن القافلة قضت مدة جميلة مساوية لأربعة أشهر و 14 يوما فقد خرجت من سجلماسة في 1 محرم 753[3] هو وصلت إلى مالي في 14 جمادى من نفس السنة[4].

كشف لنا ابن بطوطة عن طريق أخرى عند عودته، و هي طويلة مقارنة بطريق الذهاب، مر بعد مالي بالمدن و القارات التالية: بلدة قرى منسا، ميمة، تنبكتو، كوكو، التي أقام بها أطول مدة في عودته إذ غادرها بعد حوالي شهر ثم تكدا و بونو و تكدا وكذا مكة و كاهر و توات و بودا ثم سجلماسة.

خرج من مالي 22 محرم 754 ه[5] و وصل إلى سجلماسة في منتصف ذي القعدة في نفس السنة و هي مدة مساوية لحوالي عشرة أشهر، لكن المعلومات غير كافية عن فترات التوقف خلال العشرة أشهر، غير أنه من الممكن معرفة مدة مسافة السير بصفة تقريبية من تكدًا إلى سجلماسة لأن ابن بطوطة عمل على السير دون إطالة التوقّف بعد أن جاءه في تكدًا الأمر من السلطان بالعودة [6] خرج منها في 11 شعبان 754 ه و وصل

1. ابن بطوطة:المصدر السابق ، ص 298
2. نفسه، ص 298.
3. نفسه : ص 297.
4. نفسه، ص 304.
5. نفسه ،الصفحة نفسها.
6. نفسه، ص 306.

وصل إلى سجلماسة في منتصف ذي القعدة من نفس السنة [1] أي أن الرحلة دامت حوالي ثلاثة أشهر و يومين لكن ليست هذه هي مدة مسافة السير لأن القافلة توقفت للاستراحة و حينما اتصل ابن بطوطة بالسلطان المريني أبي عنان(749 ه-759 ه/1348 م-1358 م) وجد رعاية و ترحيبا مما جعله يفضل البقاء في حاشية يحدّثهم بما رآه من عجائب في أسفاره، و قد أمر السلطان كاتبه محمد بن جزي الكلبي بكتابة ما يمليه عليه ابن بطوطة، و انتهى كتابتها سنة 1356 م، و أطلق عليها«تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار»[(2)].

فمن أمثلة هذا الأسلوب الذي ناله بعض العناية و التفتيح ما جاء في وصف مدينة سيراز"و هي مدينة أصيلة البناء، فسيحة الأرجاء و شهيرة الذكر منيقة القدر لها البساتين المونقة، و الأنهار المتدفّقة أو الأسواق البديعة و الشوارع الرفيعة، و هي كثيرة العمارة متقنة المباني، عجيبة الترتيب، و أهل كل صناعة في سوقها لا في لطم غيرهم، حسان الصور، نظاف الملابس، و ليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن أسواقها و بساتينها و أنهارها و حسن صور ساكينها الأشيراز"[(3)].

و يسترسل على هذا النحو في وصفه الذي نلحظ فيه اهتمامه بتنقيح العبارة والجملة دون الانسياق مع الأسجاع المتكلفة بل إننا نجده سرعان ما يتخلى عن الأسجاع إلى أسلوب متحرر بسيط، و هذه طريقته في كل الأوصاف التي افتتحها بهذه الأسجاع فأسلوبه لم يثقله البديع، بل بقي أقرب ما يكون إلى العفوية والوضوح.

أما فيما عدا هذه الوقفات القليلة التي أشرنا إليها فإن أسلوبه بسيط في تراكيبه وفي استعمال المألوف من الألفاظ ، تحرصه على أفهام سامعيه كل ما عبر عنه من أفكار، بل إنه كان يصحب العبارات بشروحها إذا كانت غامضة أو لها محلية معينة أو أجنبية ، مما جعل أسلوبه يقترب من الأسلوب العلمي الهادئ كقوله عن سيراز " و لقد شاهدت مرة

---

1. ابن بطوطة :المصدر السابق، ص ص 306-307.
2. محمد محمود محمدين: المرجع سابق، ص 166.
3. ابن بطوطة :المصدر نفسه ،ص 198.

رجلا تجره الجنادرة و هم الشوط"(1).

و هكذا كان حريصا على شرح كل الألفاظ غير العربية[2] و هي كثيرة في الرحلة و قد أحصيت هذه المواضع التي توقف فيها لشرح ألفاظ فارسية أو تركية فوجدتها تنيف على مائة موضع و تختلف باختلاف المناسبات و المواقف، فتارة لا يورد إلا شرح كلمة تارة و يورد جملا باللغة الفارسية أو التركية فيقول عن أهل هرمز "و يقولون للسانهم و ما هي لون باد شاهي معناه بالعربي، التمر و السمك طعام الملوك[3].

و ورد في حديثه عن طر مشير بن سلطان ما وراء النهر قوله: «فقال لي بالتركية: خشن حيسن يخشي ميسن قطلوا أيوسن»، و معنى خشن حيسن: في عافية أنت و معنى يخشي ميسن: جيد أنت، و معنى قطلوا أيوسن مبارك قدومك[4] و يقول في مشهد حرق المرأة نفسها بعد موت زوجها بالهند، فرأيت إحداهن لما وصلنا إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف: و قالت لهم: ماراميز ساني إزاطش (إنش) من ميدانم أواطش است رهاكني مارا، و هي تضحك، و معنى هذا الكلام: أبالنار تخوفوني؟ أنا أعلم أنها نار محرقة[5].

فالاهتمام اللغوي يطغى على قصة الأخبار و الحكايات رغبة في الوضوح وكأنه معلم يريد ألا يترك إبهاما أو غموضا في كل ما يمليه على سامعيه، و من هنا تكثر في الرحلة تدقيقاته اللّغوية، و تدخلاته لتقويم الألفاظ و توجيهها و ضبطها على نحو لا يترك أي غموض في الفهم و التصور و يقول مثلا: " و وصلنا بعد أربعة أيام إلى بلدة ماجول على وزن فاعول و جيمها معقودة [6] ، و هناك ناحية أخرى لا ينبغي أن تغيب عنا و نحن نتحدث عن لغة ابن بطوطة في رحلته و هي ظاهرة التأثر الديني فإذا كنا قد لاحظنا انطباعها بالدين و تعليمه هدف و سلوكا فإننا نلاحظ بأن الاهتمام الديني قد انعكس أيضا

---

1. ابن بطوطة : المصدر السابق، ص 202.
2. محمد مصطفى بن الندى: دخول و انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، أعمال الندوة العالمية المنعقدة بتمبكتو حول " الثقافة العربية الإسلامية بإفريقيا أنموذجا، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات تونس، 1997، ص 97.
3. ابن بطوطة:المصدر نفسه، ص 264.
4. نفسه ،ص 356.
5. نفسه،ص 398.
6. نفسه، ص 186.

على عباراته و تراكيبه الأسلوبية فالرحلة تمتلئ بآيات قرآنية وأحاديث بنوية كثيرة ، و ألفاظ دينية كثيرة كمصطلحات العبادات و قصص الأنبياء والأشراف و العلماء و الأئمة و القضاة و العباد و الشيوخ و المساجد والزوايا والأضرحة و المزارات و ما يصاحب ذلك من ذكر الكرامات و أدعية وابتهالات بل غنه قد أورد حزب الشيخ أبي الحسن الشاذلي بكامله[1] و فصل في أخبار الأماكن المقدسة و الحجاز[2].

و يجمل بنا في معرض استخلاص أهم ما يميز أسلوب الرحلة الإشارة إلى ما يثار عادة حول نسبة هذا الأسلوب فهل يحق لنا أن ننسب نسيج هذه الرحلة و صناعتها إلى كاتبها لبن جزي، أم إلى صاحبها ابن بطوطة الذي أملاها عليه؟.

إن الطريقة التي كتبت بها الرحلة تجعلنا مطمئنين إلى نسبة الأسلوب إلى صاحبها[3] فابن جزي اتسم بالدقة و الحذر و التحفظ في إضافة نص أو فكرة أو وصف أو شعر و ما إلى ذلك، إذ كان يفصل بين النص الأصلي لابن بطوطة وإضافاته المختلفة بعبارة قال ابن جزي مما يساعدنا على تمييز كلام ابن بطوطة من غيره، و هكذا تمت بإحصاء المواضع التي تدخل فيها ابن جزي لإتمام وصف أو إضافة شعر فوجدتها لا تتعدّى ثلاثة و ثلاثين موضعا.

و يمكن الفصل أيضا بين كلام ابن بطوطة و إضافة ابن جزي بالاعتماد على الأسلوب و طبيعته، و هذا هو الذي بنى عليه المستشرق كراتشكوفسكي رأيه في أسلوب الرحلة يقول: و من حسن الحظ أن أسلوب الكتاب لا يسير في جميع صفحاته على وتيرة واحدة إذ كثيرة ما تتخلّل العرض لغة ابن بطوطة القصصية البسيطة[4] التي تميل أحيانا نحو لغة المحادثة، محتفظة في ذات الوقت برزانتها و غناها بالتفاصيل فوق ما تتميّز به من الحيوية الدفّاقة و العاطفة الجيّاشة، و إلى جانبها يبدو أسلوب ابن جزي ثقيلا يغلب عليه الحشو و التكلّف، كما تنعكس فيه على الدوام محاولة واضحة إلى جمع قصص ابن

---

1. خضر موسى محمد حمود: المرجع السابق ،ص 21.
2. المصدر نفسه،: ص 108.
3. نقولا زيادة:إفريقيات، دراسات في المغرب العربي و السودان الغربي، ط2، مكتبة رياض، المريس، لندن، 1991، ص 328.
4. أمحمد مصباح الأحمد: تاريخ العلاقات العربية الأفريقية، ط1، دار الملتقى للطباعة و النشر، 2000، ص 193.

بطوطة المتفرقة في وحدة متماسكة و تزويقها بصورة تجعلها أقرب إلى النصوص الأدبية[1].

و بذلك يكون ابن بطوطة شيخ رحالي العصور الوسطى و إمام الرحالين إطلاقا[2]، لفضله في تدوين معلومات خاصة للملوك عن الحياة العامة و الممالك الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء و علاقاتهم مع العالم الإسلامي[3].

ومن هذا يبدو أن الفضل في ظهور كتاب وصف ابن بطوطة يرجع إلى السلطان أبي عنان المريني .

ومن تتبع السمات العامة لكتاب وصف إبن بطوطة . نجد أنه يفتقر إلى التناسب و التنسيق ،ويميل الأسلوب إلى السجع المتكلف،وحصر الشّعر دون إرتباط بالموضوع.

وقد وردت جُمل من كلام إبن جبير [4] و العبدري [5] في وصف بلاد الشام و الجزيرة العربية .

ويحتمل أن يكون ابن جزي الغرناطي كاتب الرحلة هو الذي صنفها من عنده و ليس ابن بطوطة .إذ أن ابن بطوطة كان صادقا و صريحا و لا يستحي من الاعتراف بالنسيان كأن ينسى اسم موضع أو اسم شخص مثل ذلك القاضي الذس نزل عليه بالشام أو تلك المدينة التي مر عليها في طريقة الى تمبكتو [6] .

فالقارى لرحلة ابن بطوطة يلاحظ في مجملها الحرص الكبير على تأدية المعاني أي أن الأسلوب فيها خادم للفكرة ،ولم يكن مقصودا لذاته ،ومن هنا انعدم الاهتمام بزخرفة الأسلوب و تطريزه وتنميق العبارات و ترصيفها على حساب التفريط في الفكرة ،

---

[1]. كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ص 426.

[2]. نقولا زيادة: مرجع سابق، ص 328.

[3]. محمود خيري عيسى: العلاقات العربية الإفريقية، دراسة في أبعادها المختلفة، مجلة الدراسات الإفريقية، عدد 513، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1977، ص 69.

[4]. للمزيد أنظر :ابن جبير :المرجع السابق،ص209.ابن بطوطة :المرجع السابق،ص157.

[5]. للمزيد أنظر : شتاء الرحلة و الاقتراب،ط1،مطبعة المعارف،مؤسسة بونه للبحوث و الدراسات ،عنابة ،الجزائر ،2007،ص22.

[6] كراتوفسكي ،المرجع نفسه،ص427.

فأن مال في بعض الأحيان إلى تنقيح الكلام،واختيار عباراته فلا يقصد إلى ذلك قصدا وكأن تلك التوقفات التي يميل فيها إلى التنميق و السجع هي لحضات يؤخذ فيها التأمل أو الاعجاب ،وحتى في هذه الوقفات القصيرة القليلة جدا لا ينحدر أسلوبه الى المبالغة و المغالاة ،وانما يبقى أقرب ألى البساطة و العفوية ولقد أحصيت هذة الوقفات فوجدتها لا تتعدى ثلاث عشرة وقفة في أوصافه المختلفة [1]،كوصفه لدمياط ،ومصر ،ومدينة الخليل ،وحمص،وحماة ،وشيراز....[2].

4- قراءة في أسلوب كتابة ابن بطوطة:

لقد زار بلاد أفريقيا جنوب الصحراء عدد من الرحالة و كتب هؤلاء عن الحواضر الكبرى و وصفوا الأحوال و المجتمعات و حياة الناس في تلك البلدان مما وفّر للدارسين و الباحثين و المحدثين في إرتساماتهم نصوصا وصفية و تاريخية مهمة أعطت لدراساتهم و أبحاثهم مادة صالحة لمعرفة أحوال تلك البلدان و البيئات.

نذكر من هؤلاء الرحالة ابن بطوطة الطنجي المغربي[(3)] صاحب الرحلة المشهورة إلى المشرق في القرن الثامن الهجري، و التي أتبعها إلى أفريقيا حيث وصف فيها حالة الراعي و الرعية في مالي و الحياة الاجتماعية و الاقتصادية السائدة آنذاك [(4)].

و ترك لنا وصفا دقيقا عن شعبها و أحوال حكامه و شعوبه و طبائع الحياة فيه و في تقديرنا أن هؤلاء الرحالة العلماء لم يكن دورهم محصورا فيما تركوه من وصف وارتسامات و انطباعات جغرافية و تاريخية و اجتماعية فحسب و هو ما أفاد دراستنا وأبحاثنا الحديثة، بل أسهموا أيضا في ايجاد قاعدة من الطلاب و التلاميذ استفادوا من علومهم و نظراتهم و تحقيقاتهم و في معرفة الآخر و قيمة حضارته و من المهم أن نذكر هنا أن حدود الرحلة العلمية من علماء الشمال و أعلامه لم تقف على ما ذكرناه من رحلاتهم في التاريخ القديم فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى تخوم العصر الحديث

[1]. ابن بطوطة ،مرجع سابق ،ص62،61،51،31،28.
[2]. أسعد الفارس:المرجع السابق ،ص ص390.387.
[3]. عبد الهادي التازي: المستدركات على تحقيق رحلة ابن بطوطة، ط1، منشورات وزارة الثقافة ، الرباط، المملكة المغربية،د س ن، ص 27.
[4]. كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ص 489.

والمعاصر أيضا[1].

و قد أسهم ابن بطوطة بجهد كبير في الكشف عن الغموض الذي كان ينتاب منطقة أفريقيا جنوب الصحراء و هو بذلك واحدا من أعظم الرحالة العرب[2]. و هو أهم مصدر لتاريخ المنطقة [3] أعطى معلومات دقيقة عن التراث الإسلامي بالرغم من أن بعض الباحثين أعطوا انطباعا أن المؤلفين العرب و المسلمين كانت كتاباتهم عن كراسات لتدوين أحداث يغلب عليها السفر و الاحتفالات و الأعياد[4] يستحق النعت من لدن المؤرخين بأنه "رحالة العرب و العجم" بأنها أعظم رحلة في تاريخ البشرية جمعاء.

و يكفي لذلك أن نقف على المعلومات التي تتضمنها الرحلة من مختلف الموضوعات و من أنواع المعرفة، تاريخ، جغرافية، اجتماع، سياسية، أدب، دبلوماسية، اقتصاد، فقه..يكفي ذلك لتقتنع بأن الرحلة ليست كسائر الرحلات، و أن الشخصية التي قامت بالرحلة ليست عادية فقد كان عضوا في الأكاديمية التي أنشأها السلطان أبو عفان لتحتضن أبرز شخصيات البلاد من رجال الفكر و العلم[5].

و ربما تزداد أهمية رحلة ابن بطوطة مقارنة بالكتابات المحلية كتاريخ الفتاش وتاريخ السودان باعتبارها مصادر كلاسيكية[6] و تعد من أهم ما عرفه الأدب الجغرافي العربي إذا ما تقارن بأهم الرحلات العالمية من نحو رحلة ماركوبولو[7].

---

1. محمد مسعود جبران: المرجع السابق ،ص 186.
2. فتحي محمد أبو عيانة : المرجع السابق، ص 25.
3. ماجدة كريمي: المرجع السابق ،ص 337.
4. Michel Abitbol : Tambouctou au Milieu Du XIII^e Siècle (d'apres la chonique de Mawlây âl-qasin B. Mowlây sulaymâm) vo-xte arabe edité, traduit etannoté par Michel Abitbol) 1982, G-P Maisonn EUVE LARUSE 15, ue Victore cousin, Pari, pp. 88. 89.
5. عبد الهادي التازي: الرحالة العرب و المسلمون، اكتشاف الآخر، المغرب منطاتا و مولا، ط1، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، المملكة المغربية، 2003، ص 55.
6. خالد شكراوي: المرجع السابق، ص 28.
7. محمد مسعود جبران: المرجع السابق ، ص 186.

• المطلب الثاني: قراءة في التراث الأفريقي من خلال رحلة الحسن الوزان :

1- الحسن الوزان حياته ومسيرته(1489 م- 1552 م) [1] :

ولد في غرناطة *وإختلف المؤروخون في تاريخ ميلاده ، ينحدر الحسن بن محمد الوزان من أسرة عريقة، فقد كان أبوه محمد الوزان متّقفا كما كان جده كذلك، و كل منهما موظفا لدى حكومة غرناطة، و في عام 1492 استولى جيوش فرديناند و زوجته إيزابيلا على الأندلس و طردت المسلمين منها.

و هذا ما دفع عائلة الوزان للهجرة إلى بلاد المغرب الإسلامي، و قد نشأ الحسن الوزان في فاس[2] حيث إستقرت عائلته ، ووظّف هو نظرا لثقافته العالية بقياس ذلك العصر لدى سلطان فاس، و من أبرز المهام التي كانت توكل إليه هي السفارات، فسافر إلى إفريقيا جنوب الصحراء، كما سافر إلى مصر و القسطنطينية أكثر من مرة في بعض هذه المهام، كما زار عواصم البلدان المغاربية المجاورة في مهام" سياسة مماثلة و كان خلال تلك الرحلات يحظى بمقابلة السلاطين و وزرائهم، كما كان يلتقي برجال الثقافة و الوجاهة أيضا، ممّا زاده خبرة و بعد نظر و تألقا فكريا و اجتماعيا، و هذه الصفات هي تلك التي كان يمتاز بها هذا الرجل في زمانه[3].

لقد كان زمن الحسن الوزان (النصف الأول من القرن السادس) فترة نشاط الأساطيل الغربية و خاصة الأسطول الإسباني في تنظيم الهجومات المتكررة على الموانئ المغاربية، حيث إنّ ملك أو ملكة إسبانيا ينفذان خطتهما المسماة ب: Reconq.uesta و الهادفة إلى إعادة بلدان الشمال الإفريقي إلى الديانة المسيحية

---

[1] عبد القادر زبادية: دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر و مؤلفات العرب و المسلمين، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص 135. (اختلاف الكثير من المراجع في تاريخ الميلاد و الوفاة،
- **انظر:** عبد الرحمان حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، مرجع سابق، ص 627.(ولد عام 1486-1546**).** **-** حماه الله ولد السالم: الإسلام و الثقافة العربية في الصحراء الكبرى،، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2010، ص 97.
- نجاة المريني: نظرات في تحقيق الدكتور التازي عبد الهادي لرحلة ابن بطوطة: ندوة الرحلة بين الشرق و الغرب، ط1، منشورات كلية الآداب، الرباط، المغرب، 2003، ص 329.
- الناني ولد الحسين: صحراء الملثمين، ط1، دار المدار الإسلامي،، بيروت، لبنان، 2007، ص 67.
*- إختلف المؤرخون في تاريخ ميلاد حسن الوزان.
[2]. عبدالعزيز بن عبدالله : المرجع السابق ،ص 199.
[3] عبد القادر زبادية: المرجع نفسه ،ص 135.

و ذلك بعد تحرير الأندلس و طرد المسلمين منها نهائيا و هذا ما جعل الموانئ المغاربية عموما، و كذلك منطقة البحر الأبيض المتوسط في جزئها الغربي على الخصوص مجالا لمعارك تكاد لا تنتهي من سنة إلى أخرى.

و قد نشط في هذه الفترة، كرد فعل على الأقل، الإخوان خير الدين و عروج في خوض المعارك و النجاح فيها ضد الإسبان، و قد كان الحسن الوزان في إحدى زياراته الدبلوماسية إلى المغرب الأوسط، لقاء بعرّوج و التّحدّث معه شخصيا و كان ذلك في مدينة بجاية في الجزائر.

في عام 1518أو1519 [1] على الأرجح كان الحسن بن محمد الوزان عائدا من المشرق عن طريق البحر، بعد أن أدى فريضة الحج، مقربة من و في جزيرة جربة اختطفه القراصنة الإيطاليون و كان عمره آنذاك 32 * سنة(2) وقدّموه (هدية) إلى البابا ليو العاشر في روما(3)و قد عرف عن هذا البابا ثقافته الواسعة و عنايته بالآداب و الآثار فأحسن رفادة حسن الوزان و عمّده مسيحيا باسم (جوهاينس ليوروميديسيس) إلا أن الاسم الذي التصق به فيما بعد هو (ليون الإفريقي) (4).

2- مؤلفات الحسن الوزان(وصف إفريقيا):

ظل الحسن الوزان مجهولا بصورة تكاد تكون تامّة في العالم العربي و الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث عشر الهجري، القرن التاسع عشر للميلاد(5).

فقد نشر راموزيو ramisio كتاب (وصف إفريقيا) أو (جغرافية إفريقيا) سنة 1550 م- 957 هـ[6] ، و في مدينة البندقية و بعد فترة لا تزيد عن 24 عاما من فراغ الوزان من تأليفه باللغة الإيطالية، و ذلك في حملة قصص رحلات جغرافية و أهداه

---

1. عبدالعزيز بن عبدالله : المرجع السابق ، ص ص200،199.
*. وذكر أخرون أن عمره كان 21 سنة فقط حينما أسر،مرجع نفسه ص 199.
2. خضر موسى محمد حمود: مرجع سابق، ص 159.
3. عبد الرحمان حميدة: مرجع سابق، ص 628.
4. نفسه ص 136.
5. نفسه ،ص 627.
- خضر موسى محمد حمود: المرجع السابق ، ص 13.
6. عبدالعزيز بن عبدالله : المرجع نفسه ،ص 200.

لشخصية علمية سياسية كبيرة هو جيروم فراكاستور، و أعاد راموزيو نشرة للمرة الرابعة عام 1558 بعد نجاح منقطع النظير في ذلك العصر، و في سنة 1555 ظهرت الترجمة الفرنسية لجهود تامبورال و بعد فترة وجيزة تمّت ترجمته إلى اللاتينية بقلم جان فلوريان سنة 1556 -966 في مدينة أنفرس البلجيكية، و في سنة 1600 ظهرت ترجمة انكليزية على يد جون بوري وظهرت ترجمة هولندية سنة 1665، و في 1805 تمت ترجمته إلى الألمانية و في 1896 صدرت طبعة إيطالية حديثة و أعاد براون نشرة بالإنكليزية للمرة الثانية اعتمادا على طبعة بوري سنة 1896 كي –ش- شيفر نشره بالفرنسية في باريس في سنتي 1896 و 1898 م[1].

و في عام 1952 ظهرت في مدريد الترجمة الإسبانية و في الفترة نفسها أفرد له المستشرق الروسي كواتشكوفسكي بحثا في مؤلفه الضخم«الأدب الجغرافي عند العرب»[2] تلقى الحسن دروسه في جامع القرويين الشهير، إذ درس الفلسفة و الشريعة و النحو و العروض و الأدب و التاريخ و المنطق، و ذكر في بعض المناسبات أنه درس كتاب (عقائد النسفي) و مقدمة ابن خلدون و بعض كتب الغزالي و كتاب (الذيل والتكملة)لابن عبد الملك المراكشي، و قرأ عن التّصوف وخصوصا السهرودي وابن الفارض، و يبدو أن أسرته كانت تعيش في سعة و رغد.

تنقل الحسن في معظم أرجاء المغرب و إفريقية في مهام مختلفة منها سلطانية ومنها تجارية [3]، و منها اشباعا لشغفه بالكشف و الدراسة ، و من أعظم رحلاته تلك التي قام بها إلى تنمبكتو (نمبوتو) فكانت واسعة الآفاق، غزيرة المادة، طويلة متشعبة وكانت تنبكتو يومئذ في أزهر عصورها تتزعم مصايرها أسرة (سونجاهي) و قد وصف الحسن مواقع الممالك و معالمها الجغرافية و أحوالها الاجتماعية في دقة و وضوح ولخّص أحوال حكامها و شعوبها فقال:«إن حكام هذه الممالك و سكانها على قدر كبير من الثراء و النشاط، و هم يشغفون بإقامة العدالة، و لو أن منهم طوائف تحيا نوعا من الحياة

1. عبد الرحمان حميدة: المرجع السابق، ص 627
2. كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ج1، ص 641 -671.
3. جمال زكريا قاسم : العلاقات العربية الأفريقية – دراسة تاريخية للآثار السلبية للأستعمار ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ،1977، ص 192.

الهمجية»[1].

تعلّم الحسن الإيطالية و اللاتينية و الإسبانية و كان يجيد العبريّة و اللاتينيّة وقام بتدريس العربية للعديد من رجال الدين و العلماء و كان إلى جانب شغفه بالتاريخ والجغرافيّة، أديبا شاعرا و محسنا و كان من حصيلة معارفه و تجاربه مؤلّفه «وصف إفريقية»[2].

ينسب المؤرّخون للحسن الوزان عدّة كتب له في (تاريخ الإسلام) و لم يصل إلينا من هذه الكتب سوى بعض الأوراق القليلة لا تزال تحتفظ بها مكتبة الأشكو**ريال** في إسبانيا مدريد[3].

و يعتبر كتاب وصف إفريقيا أهم مؤلفاته[4] و هو كتاب ضخم يقع في عدّة مجلدات ينقسم إلى تسعة كتب يخصّص الأول في وصف إفريقية (أقسام إفريقية ممالكها و سكانها و أصولهم، قبائلها و لغاتها و حياة أهلها و الأمراض المتوطّنة بينهم) ، فكانت معلوماته واسعة الأفاق ، غزيرة المادة في دقة ووضوح [5] .

و في الكتاب الثاني يصف أقاليم المغرب و مدنه و خصوصا مراكش وجامعها و الكتاب الثالث يتناول فيه الحديث عن مملكة فاس ولاياتها و مدنها و أهلها وتاريخها و ملابس أهلها و طعامهم و شرابهم و عاداتهم و مساجدهم، و حماماتها، و أسواقها وشعرائها[6]، و يصفهم بالمجيدين و المزارات و الأولياء، و عن التصوف و الشعوذة وفي الكتاب الرابع يصف مملكة تلمسان و في الخامس ممالك بجاية وتونس وطرابلس و في السادس يصف منطقة سجلماسة و درعة و الزاب و في السابع يصف الممالك الخمسة عشر الواقعة في منطقة النيجر، و الكتاب الثامن يخصّصه لوصف مصر فيقول واصفا نساء القاهرة «تتمتّع نساء القاهرة بحريات واسعة و بينما يخرج الزوج إلى المقهى أو

[1]. خضر موسى محمد حمود: المرجع السابق، ص 159.
[2]. نفسه ،ص 160.
[3]. عبد القادر زبادية: مرجع سابق، ص 136.
[4]. عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، مرجع سابق، ص 87.
[5]. خضر موسى محمد حمود:المرجع السابق ، ص 159.
[6]. الأمين محمد عوض الله : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين (مالي وسنغاي)،مرجع سابق ، ص 165.

لشراء الطعام، إذ بالزوجة ترتدي أفخر ثيابها و تتعطّر بأذكى العطور، ثم تتجول في المدينة، لتروّح عن نفسها و تتحدّث مع صاحباتها»، و الكتاب التاسع يتحدّث فيه عن عن بعض الحيوانات و المعادن الإفريقية[1].

يشتمل كتاب وصف إفريقيا على الكثير من التفاصيل الجغرافية و الاقتصادية والاجتماعية و كذلك العادات و التقاليد في إفريقيا جنوب الصحراء بالإضافة إلى الممالك الموجودة بها آنذاك[2]، تميّزت كتابات الوزان بالجرأة في وصف مظاهر الحياة في حواضر إفريقيا جنوب الصحراء و إطلاق مصطلحات فيها نوع من التّهكم والسّخرية[3].

و أعطى الحسن الوزان أهمية لعناصر معينة[4] من السّكان و خصّ وصف العبيد و الطقوس الاجتماعية كالحفلات مما يجعل الباحث يشكك حتى في إسلام المجتمع الإفريقي[5]، يمكن الرحالة المسلمين و كافة. ابن بطوطة حين يركز على اهتمام الأفارقة و مبالغتهم في الاستعداد للصلاة و الأعياد و حتى تعليم الأبناء[6].

قال عنه بعض الباحثين الأوروبيين إن كتاب العنوان هو المرجع العمدة طيلة قرنين من الزمن في أوروبا في كل ما يختص بالأقطار العربية الإفريقية[7] و دول شعوب أقطار أقطار الساحل أي الواقعة إلى الجنوب من الصحراء الكبرى «إن ما يتصف به مصنفه من مميّزات أمر معروف للجميع فهو كنز من الذهب و لولا وجوده لخفيت أشياء كثيرة من تفاصيل في وصف المغرب و إفريقيا تتميز بالدّقة الشديدة، بل أثبتت الأبحاث الأخيرة صدق قوله حتى في المواضيع التي أثارت الشّك فيما مضى»[8].

كان عمل المؤرخين المسلمين يتميز بدقة التحري عن صحة الأخبار و وثوقها

---

1. الامين محمد عوض الله ،المرجع السابق ،ص 160.
2. عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي ، مرجع سابق، ص 136.
3. حماة الله ولد السالم: المرجع السابق، ص 97.
4. م. طالبي: اشعاع الحضارة المغربية و تأثيرها على الحضارة الغربية، انظر: تاريخ إفريقيا العام، مج 4، إفريقيا من القرن 12 إلى 16: اليونسكو، 1988، ص 85.
5. نفسه ص 87.
6. شوقي عطا الله الجمل: تنبكت و علاقتها بالمغرب قبل حملة المنصور السعدي و تحت الحكم المغربي، الندوة الدولية، المغرب و إفريقيا جنوب الصحراء في بدايات العصر الحديث، ط 1، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1995، ص 44.
7. الهادي مبروك الدالي :المرجع السابق، ص 25.
8. عبد الرحمان حميدة: مرجع سابق، ص 628.

وأصبحت مصادر المؤرخ أكثر دقة و ضبطا[1].

فتميز حسن الوزان في وصفه عن غيره من الرحالة بالعمق في تحليل عادات السكان في بلاد إفريقيا جنوب الصحراء[2] ، وفصل في التراث العلمي حينما يصف العلماء والفقهاء وعناية السكان بالعلم.[3]

و زادت جرأته في تحرره من طريقة الأسكاد الكتابة التاريخية عند المسلمين[4] واضح المؤرخ يعني بالخبر ذاته بدل الالتزام بالأخبار فقط[5].

و ربما هذا ما جعل بعض المشاهدات التي دوّنها الوزان تتّصف بالغرابة حتى وصفها البعض بأنها مدسوسة[6] الإساءة إلى التراث الإسلامي و بالذات في إفريقيا جنوب جنوب الصحراء.

3- عودة الحسن الوزان إلى الدين الإسلامي:

بعد أن ألّم حسن الوزان بالثقافة الأوروبية في بدايات عصر النهضة و تمكّن من تعلم اللغة اللاتينية و الإيطالية، و كان يعرف اللغة الإسبانية لأنه كان في الأول بغرناطة التي غادرها بعد طرد المسلمين عام 1492م.

تشير أغلب المصادر و المراجع أن الوزان استطاع الافلات من إيطاليا بين عامي (1528-1530م)، إلى تونس بعد اثني عشر عاما قضاها في تلك البلاد الأوروبية و يدّعم هذه الرواية كاتب معاصر اسمه فيدما تشنات الذي يقول: إن الوزان مات في تونس سنة 944 هو عمره خمسون عاما، يقول الروميالي: إن إقامة حسن الوزان بمعزل عن

---

[1]. عبد الحليم عويس: الحضارة الإسلامية ابداع الماضي و آفاق المستقبل، ط1، دار الصحوة، القاهرة، مصر، 2010، ص 153.

[2]. عبد العزيز العلوي: قراءة في كتاب تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له الأخوان في كرامات الشيخ أبو مروان، ندوة الرحلة بين الشرق و الغرب، ط1، منشورات كلية الآداب، الرباط، المغرب، 2003. ص 90.

3. مجموعة من الباحثين : الحضارة الآسلمية في مالي، ت محمد وقيدي ، منشورات المنظمة الأسلامية للتربية والعلوم الثقافة ،ط1 ،الرباط،1996، ص 85.

[4]. إسماعيل سامعي: معالم الحضارة العربية الإسلامية، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007. ص 293.

[5]. نجاة المريني ،المرجع السابق، ص 329.

[6]. انظر: عثمان منادي: الحياة العلمية في حواضر الممالك الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء،مذكرة ماجيستير، جامعة الجزائر. 2011.

محيطه الأصلية كانت بلا ريب ثقيلة على نفسه، و الواقع أنه عاد إلى تونس سنة 1550 م ليحظى بالوفاة في أرض الإسلام المقدسة[1].

و هنا يمكننا أن نطرح الأسئلة حول اعتناقه الدين المسيحي في إيطاليا، عن قناعة أو خوف أو رغبة في تحقيق مصالح كان يراها مناسبة.

و أنا أعتقد أن هذه الأمور كلها اجتمعت عند الوزان فاعتنق الدين المسيحي بقناعة الاكتشاف والتمحيص والرغبة في تحقيق المصلحة الأكبر وعدم تعرضه للقتل فجني فوائد كثيرة من وراء بقاءه هناك في إيطاليا من خلال التعليم و التأليف ومواصلة رحلة العمر، و ما يؤكد هذا الرأي كما يبدو أنه لم يقتنع بالدين المسيحي وبقي الحنين بشدة إلى الإسلام منتهزا الفرصة المناسبة للعودة إلى رحاب الإسلام وبلاده.

لكنني كباحث أرى الكثير من المبالغات قي وصف مشاهداته بإفريقيا جنوب الصحراء خاصة ما تعلّق بالعبادات و التقاليد التي تتناقض مع امتداد الإسلام في تلك المناطق[2].

و الحسن الوزان الذي خاض في شبابه معارك عديدة ضد البرتغاليين، يوردها في تضاعيف كتابه، مع جيوش بني مرين الوطاسين لا تخفي كرهه للبرتغاليين والإسبان و سواهم من نصارى أوروبا الذين جعلوا دينهم الإغارة على ثغور أرض الإسلام مدفوعين بنزعة صليبية حقيقية مثلما لا يضمر مقته للأعراب الذين كانت بعض قبائلهم لا تتورع عن الانخراط في صفوف البرتغاليين، لاسيما و هم الذين أساؤوا عن طريق نشرهم الفوضى و التخريب أيّما إساءة للاقتصاد و العمران في المغرب فقوّضوا أركان الزراعة في أرياف المغرب حيثما حلّوا ممّا أدى بصورة مباشرة لوهن ممالك الغرب و بالتالي لتمهيد السبيل للأسبان و البرتغال لانتزاع بقاع عديدة من أقطار المغرب مثل تونس التي ربطوا خيولهم في أقدس مكان فيها، أي في جامع الزيتونة و طرابلس و بجاية و وهران و أزمور و أسفي و حيث لا تزال بعضها في أيديهم حتى هذه الساعة مثل سبتة و مليلة و

---

1. عبد الرحمان حميدة: مرجع سابق، ص 633 .
2. نفسه ص 634.

لولا أن قيّض الله العثمانيين للتصدّي لهم لكان تاريخ المغرب العربي و ربّما المشرق غيره اليوم.

و الوزان الذي نشأ نشأة دينية و أدى فريضة الحج ، يزدري الصوفيين و أصحاب المذاهب المنشقة و ما أدخلوه على الإسلام من ترّهات و بدع ، كان نتائجها اللاأخلاقية وخيمة على المجتمع مثلما يهزأ بسخريته اللاذعة و العرّفين و السمرة و كثيرا ما يمسك و يعف عن فضح تفاصيل حياتهم استحياء منه و حشمة [1].

توفي الوزّان في تونس في عهد آخر ملوك الدولة الحفصيّة و ذلك عام 1552 م[2].

[1]- عبد الرحمان حميدة: المرجع السابق، ص 635 .
- أنظر ملحق رقم 06: نص حسن الوزان : أكثر الأمراض شيوعا عند الأفارقة .

[2]- عبد القادر زبادية: دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء ، المرجع السابق ،ص 136.
- خضر موسى محمد حمود:المرجع السابق، ص 160.
- عبد الرحمان حميدة: المرجع نفسه، ص 634.
و الواقع لقد كانت حياته العلمية في إيطاليا خصبة للغاية، ففي عام 930هـ/ 1524 م نجده يؤلف معجما عبريا عربيا لاتينيا من أجل طبيب يهودي هو يعقوب بن سيون، لا تزال مخطوطته التي عثر عليها الحجوي محفوظة بمكتبة الأسكوريال، مثلما عثرت الأستاذة كوداري على رسالة له في القياس المسطح، و في العاشر من آذار 1526 أنجز تدبيج كتا (وصف إفريقية)الذي يرجع بعض الباحثين أنه وضعه أصلا بالعربية، و أن الكتاب كان بحوزته عند وقوعه بالأسر.

و يقول كراتشكوفسكي: « إن مخطوطته قد وجدت طريقها إلى أحد هواة الكتب الطليان وهوف .بيناللي، و لكنها فقدت في الطريق إلى نابولي عند هجوم القراصنة ويؤيد ذلك قول شيفر الذي يقول إن الوزان دبّج كتابه بالعربية، ثم باللغة التوسكانية ونقدها الآن بالفرنسية».

و في سنة 1527 ألف باللاتينية كتابا جامعا في سير ثلاثين من مشاهير العرب في الفلسفة و الطب، و الذي نشره هوتينغر في عام 1664 في زوريخ ثم أعيد نشره سنة 1746 في هامبورغ، و كان أول سفر يقدّم معلومات ذات أهمية بالنسبة لأوروبا في تاريخ تطور العلوم عند العرب، هذا كما تحوي مكتبة الأسكوريال نسخة في نحو اللغة العربية، و ربما يكون قد ألّفه لتلامذته الطليان أثناء تدريسه اللغة العربية في مدينة بولوني، و يذكر لنا في عدّة مناسبات كتابه (الوجيز في الشريعة الإسلامية) الذي أنجزه و لكن لم يصلنا، مثلما نذكر لنا اعتزامه على تأليف ثلاثة مصنفات يسرد لنا فيها أوصاف الأقطار التي زارها في جزيرة العرب و آسيا الصغرى و أرمينية وبلاد فارس و التتر و القسطنطينية و آخرها الكتاب المخصّص لإفريقية.

خاتمة الفصل:

لقد زار بلاد إفريقيا جنوب الصحراء عدد من الرحالة و كتب هؤلاء عن الحواضر الكبرى و وصفوا الأحوال و المجتمعات و حياة الناس في تلك البلدان مما وفّر للدارسين و الباحثين و المحدثين في إرتساماتهم نصوصا وصفية و تاريخية مهمة أعطت لدراساتهم و أبحاثهم مادة صالحة لمعرفة أحوال تلك البلدان و البيئات.

إستعرضت في هذا الفصل ما سجله بعض رواد الفكر الإسلامي عن المنطقة موضوع الدراسة بحسب التسلسل التاريخي منذ بداية انتشار الإسلام على نطاق واسع في إفريقيا جنوب الصحراء في القرن الثامن ميلادي .

بدأت بأولى الإشارات التي وصلتنا عن منطقة إفريقيا جنوب الصحراء وإن كانت في أغلبها مختصرة توضح جانب محدد من المعرفة الجغرافية أو التاريخية مثل الفزاري والخوارزمي وابن عبد الحكم و اليعقوبي وابن الفقيه الهمذاني و بن رسته و المسعودي والبكري و المهلبي و الإدريسي و ياقوت الحموي و القزويني و ابو الفداء و إبن سعيد والقلقشندي وغيرهم...

وقد جمعت هؤلاء في مبحث واحد فكان البحث شاقا يسترعي إعادة قراءة كل المصادر التاريخية السالفة الذكر ، كون هؤلاء كتبوا في الزمن الذي سبق مجال فترة دراستي ، والحق أن ذلك كان ممتعا للبحث جعلني أنصح من يأتي من بعدي أن يتناول ما درست لكن خلال الفترة التي لم أتناولها.

تناولت في المبحث الثاني التراث الأسلامي في عيون الرحالة بين القرنين (08-10ه/14-16م) وركزت على ابن بطوطة والحسن الوزان.

لقد تنقل إبن بطوطة إلى بلاد السودان في رحلت استغرقت ثلاثة أعوام (1352-1354) إذ تعتبر رحلته أهم مصدر للرحلة في التاريخ العربي الإسلامي وعالجت الكثير من المراجع الحديثة هذه الرّحلة من حيث التعريف بصاحبها و المراحل والمناطق التي زارها و كانت بلاد السودان من أهم المناطق التي استأثرت اهتمام الباحثين في

رحلة ابن بطوطة حيث وصفت بالغرائب التي سجلها في رحلته.

إهتم إبن بطوطة بتنقيح العبارة والجملة دون الانسياق مع الأشجاع المتكلفة بل إننا نجده سرعان ما يتخلى عن الأشجاع إلى أسلوب متحرر بسيط ، و هذه طريقته في كل رحلاته التي افتتحها فأسلوبه لم يثقله البديع بل بقي أقرب ما يكون إلى العفوية والوضوح بسيط في تراكيبه وفي استعمال المألوف من الألفاظ ، تحرصه على أفهام سامعيه كل ما عبر عنه من أفكار، بل إنه كان يصحب العبارات بشروحها إذا كانت غامضة أو لها محلية معينة أو أجنبية ، مما جعل أسلوبه يقترب من الأسلوب العلمي الهادئ- وقد وضحت هذا بأمثلة في المتن - وكان حريصا على شرح كل الألفاظ غير العربية .

فالقارى لرحلة ابن بطوطة يلاحظ في مجملها الحرص الكبير على تأدية المعاني أي أن الأسلوب فيها خادم للفكرة ،ولم يكن مقصودا لذاته ،ومن هنا انعدم الاهتمام بزخرفة الأسلوب و تطريزه وتنميق العبارات و ترصيفها على حساب التفريط في الفكرة .

في رحلة إبن بطوطة وصف فيها حالة الراعي و الرعية في مالي و الحياة الاجتماعية و الاقتصادية السائدة آنذاك ، و ترك لنا وصفا دقيقا عن شعبها و أحوال حكامه و شعوبه و طبائع الحياة فيه.

و قد أسهم ابن بطوطة بجهد كبير في الكشف عن الغموض الذي كان ينتاب منطقة أفريقيا جنوب الصحراء و هو بذلك واحدا من أعظم الرحالة العرب ، و هو أهم مصدر لتاريخ المنطقة أعطى معلومات دقيقة عن التراث الإسلامي بالرغم من أن بعض الباحثين أعطوا انطباعا أن المؤلفين العرب و المسلمين كانت كتاباتهم عن كراسات لتدوين أحداث يغلب عليها السفر و الاحتفالات و الأعياد .

أما الحسن الوزان فقد تنقل في أرجاء إفريقيا في جنوب الصحراء في مهام مختلفة منها سلطانية ومنها تجارية ، و منها اشباعا لشغفه بالكشف و الدراسة، و من أعظم رحلاته تلك التي قام بها إلى تمبكتو فكانت واسعة الآفاق ، غزيرة المادة ، طويلة متشعبة وكانت تمبكتو يومئذ في أزهر عصورها تتزعم مصايرها أسرة ، و قد وصف الحسن

مواقع الممالك و معالمها الجغرافية و أحوالها الاجتماعية في دقة و وضوح ولخّص أحوال حكامها و شعوبها ، فكانت معلوماته واسعة الأفاق ، غزيرة المادة في دقة ووضوح .

تميّزت كتابات الوزان بالجرأة في وصف مظاهر الحياة في حواضر إفريقيا جنوب الصحراء و إطلاق مصطلحات فيها نوع من التّهكم والسّخرية و أعطى الحسن الوزان أهمية لعناصر معينة ، و ربما هذا ما جعل بعض المشاهدات التي دوّنها الوزان تتّصف بالغرابة حتى وصفها البعض بأنها مدسوسة هدفها الإساءة إلى التراث الإسلامي و بالذات في إفريقيا جنوب الصحراء.

تميز حسن الوزان في وصفه عن غيره من الرحالة بالعمق في تحليل عادات السكان في بلاد إفريقيا جنوب الصحراء ، وفصل في التراث العلمي حينما يصف العلماء والفقهاء وعناية السكان بالعلم .

إن الباحث في موضوع الرحالة العرب يسجل نشاطهم العلمي الجبار في دراسة الجغرافيا ثم كتابة نتائج هذا النشاط مؤلفات أظهرت تفوقهم بأجلى بيان في علم تقويم البلدان.

ولعل هذه الدراسة تسهم في تبيان مصدر مهم من مصادر المعلومات عن الإسلام والمسلمين أو ما تسميه بعض خطط تدريس المكتبات والمعلومات مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي.

وإذا أردنا كتابة تقييم للرحالة العرب إفريقيا جنوب الصحراء فإننا سنكون عاجزين عن استيعاب كل ما كانت تعج به من مؤلفاتهم.

لكننا نقر أن أقاليم إفريقيا جنوب الصحراء ، لم تنل القدر الكافي من الرحلات التي تؤرخ للتراث الإسلامي فيهاإما أن جل الرحلات أو أغلبها ، قد ضاع أو مازال البحث لم يهتد إليه، وأن ما وصلنا من هذه الرحلات لا يشكل إلا نسبة ضئيلة من هذا العدد

الهائل الذي كتب في هذا المجال؟ أو أن هؤلاء الرحالين أحجموا عن التدوين بحثا عن أسانيد عالية من منطلق حرص العلماء المسلمين على علو السند .

فالملاحظ في بعض مصادر الرحلة أن جلها عبارة عن مشاهدات محددة بمحاور معينة كالعادات الاجتماعية وبلاط السلطان ورحلات الحج وأخلاق المجتمع الإفريقي وغيرها ، لكن من هؤلاء الرحالة كانوا في الغالب الأمم من الفئات الميسورة اجتماعيا ، ممن كان لها اهتمام ثقافي لا يستهان به فنجد منهم الفقهاء والعلماء والتجار الذين اختصوا في تجارة الكتب لما لاقته من رواج منطقة إفريقيا جنوب الصحراء .

لقد إنخرط عدد منهم في التجارة كمصدر أول لتمويل رحلاتهم وربما كانت مصادر أخرى لم تنقل لنا خاصة وأن السلاطين والأمراء كانوا ينفقون على الطلبة العلم والعلماء وقد وردت الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث التي تعزز ذلك.

ومن خلال دراستنا لمصادر الرحلة التي كتبها الرحالة العرب والمسلمين نجد منهم من يرتادون بلاد السودان برسم مباشرة تجارتهم والسهر عليها ، ومنهم كان يرسل من ينوب عنه في إعماله التجارية(مساعدون، خدم أو عبيد) وقلة قليلة منهم كانت تباشر تجارتها بنفسها ، وفي ضوء هذه الملاحظة بجانب اعتبارات أخرى يمكننا أن تجعلنا نصدر أحكام على السند الذي تعتمد عليه الرواية العربية في مصادر الرحلة.

وهذه الوضعية الاجتماعية والثقافية لشخصية الرحالة العرب والمسلمين، تجعلنا نثق أكثر في رواياتهم كمصدر للتراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء ، على الرغم من بعض المآخذ التي تتعلق أحيانا في المبالغة غالبا .

قد بين لنا هذا الفصل فضل الرحالة العرب والمسلمين في التعريف بالتراث الإفريقي كاملا كان أو مجزئا.

الفصل الثالث: أهم الرحالة و الجغرافيين الأوروبيين في إفريقيا جنوب الصحراء بين القرنين (11هـ / 13هـ -17م / 19 م).

- المبحث الأول: جهود الأوربيين في الكشف عن التاريخ والتراث الأفريقي.

- **المطلب الأول:** المستكشف والرحالة (الدوافع والأسباب).
- **المطلب الثاني:** أهم المستكشفين الأوربيين في إفريقيا جنوب الصحراء .

- المبحث الثاني: التراث الأسلامي في عيون الرحالة الأوربيين بين القرنين (10-13هـ/16-19م) .

- **المطلب الأول:** البعثة الأنجليزية - الرحّالة :منغو بارك ، لينج، وهنري بارث.
- **المطلب الثاني :**البعثة الفرنسية ،الرحالة رينيه كاييه .

مقدمة الفصل:

لقد كانت حركة الكشوف الجغرافية [1] حركة بشرية امتدت من أوروبا عبر البحار لتطوف العالم مدفوعة بدوافع دينية تجارية وفي بعض الأحيان علمية ، كما أنها مشمولة برعاية سياسية من قبل ملوك الأمم الأوروبية وتشجيع لهم بل ودعمهم في أغلب الأحيان إن لم يكن كلها.

وكان للرحلات أهداف عدة تحددها وترسم خطط تحقيقها تلك الفئات التي تقف وراء قيام الرحلة ، ومدها بما تحتاجه من بحارة ومتاع وأموال وسلاح للحماية ، فكان الطابع السائد على الرحلات الجغرافية ، طابع ذا توجيه ديني وتجاري ممهدا بذلك للإستعمار السياسي، وقلما كان التوجه العلمي هو الطابع الذي يرسم قيام هذه الرحلات.

ولقد كانت البحار ميدان للرحالة ومجالا لرحلاتهم ومن أجل ذلك أسهم طموحهم في عبور البحار والوصول إلى البلدان الأخرى ، وتقدمت علوم البحار وصناعة السفن وعلم الفلك .

أنتجت الكشوف الجغرافية آثار ونتائج إيجابية على البشرية ، منها العلمي النافع والحضاري المفيد ، ومنها الضارالإستغلالي المتجرد من كل قيم الإنسانية والأخلاق ، إذ لم يتورع قادة الكشوف في تنفيذ أبشع الجرائم واللجوء إلى إبادة شعوب وأمم بأكملها من أجل تحقيق أهداف مادية إستعمارية .

وفي هذا الفصل سأحاول أن أتتبع جهود الأوربيين – دولا وهيئات وجمعيات وشخصيات- في الكشف عن التراث الأفريقي ، موضحا أسباب ودوافع حركة الكشوف ، مقدما سرد تاريخي موجز عن "حركة الكشوف الجغرافية " وأذكر من خلال هذا السرد أسباب قيام حركة الكشوف الجغرافية ونتائجها .

كما سأورد في المبحث الأول نبذة مبسطة على أهم الرحالة الأوروبيين الذين كانت لهم إسهاماتهم في المجال الكشوف الجغرافية ، حيث كان عددهم كالتالي :

- الذين حاولوا الدخول إلى الصحراء (200 رحالة ومستكشف).
- الذين ماتوا خلال الرحلات (165 رحالة ومستكشف).
- الذين فشلوا ورجعوا (30 رحالة ومستكسف).

---

[1] جلال يحي : تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر ،ط1 ، المكتب الجامعي الحديث ،الإسكندرية مصر ، 1999 ، ص 219 .

- الذين وفقو في الوصول إلى تنبكت (04رحالة) [1] ، وهم الذين خصصت لهم مبحث.

وسأفصل في المبحث الثاني أهم الرحالة الذين تركوا لنا كتابات موثقة عن التاريخ الأفريقي حيث أحصيت ثمانية عشر مستكشفا دخلوا إلى إفريقيا جنوب الصحراء إنطلاقا من الشمال أو من شواطئ المحيط الأطلسي ، فقسمت هؤلاء إلى قسمين ، الأول أطلقت عليهم إسم المستكشفين ونزعت عنهم صفة الرحالة، فقد دخلوا كمستكشفين ودونوا لنا معلومات حول جغرافية المنطقة، لكنهم لم يكتبوا عن التراث المادي واللامادي ، وقد إكتفيت بذكر تنقلاتهم دون تحليل .

والقسم الثاني وهم الرحالة فقد فصلت عن حياتهم وتنقلاتهم في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء وأهم ما كتبوه عن التراث ، وركزت على ثلاث رحالة تركوا لنا مؤلفات عن توضح شهادات حية عن التراث الأسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء.

---

[1]. الحافظ عبد الكريم سليمان : التجارة في فزان بين كتابات الجغرافيين العرب والرحالة الأوربيين في الفترة (1500-906/1750هـ،-1164)، رسالة دكتوراه ، قسم التاريخ ، جاتمعة أم درمان ، السودان ، 2014، ص182.
-الباروني عيسى أيوب : قراءة في كتاب الصحراء الكبرى لـ جيمس ديللارد ، المرجع السابق،ص 153.

المبحث الأول : جهود الأوربين في الكشف عن التاريخ والتراث الأفريقي:

المطلب الأول: المستكشف والرحالة:

1- تعريف المستكشف:

يعرف صاحب القاموس المحيط كلمة " مستكشف " بأنها مشتقة من إستكشف عنه ، سأل أن يكشف له عنه [1] ، أما المستكشف بالنسبة لمؤلف المعجم الوسيط فهي مشتقة من " إكتشف الأمر أي كشف شئ من الجهد[2] ويضيف هذا المؤلف للمستكشف عنصر السبق ، إذ يقول " إكتشف الشئ كشف عنه لأول مرة [3].

يعرف المعجم روبير المستكشف بأنه يقول باستكشاف بلد بعيد وعرأوغير معروف [4] أما المستكشف في سياق هذا البحث فهو ذلك الأوروبي الذي يتمكن من الوصول إلى منطقة لم يطأها قبله أي أوروبي أخرفي منطقة لا تزال مجهولة بالنسبة للأوروبيين ، وقد تمثل المحاولة إليها عبورها خطرا على حياة ذلك المستكشف [5] وبالتالي فان المستكشف على العموم هو ذلك المسافر الذي يجوب منطقة من العالم مجهولة بهدف إكتشافها.

2- تعريف الرّحالة:

أما الرّحالة فهو كثير الرحلة [6] والإرتحال والترحل وهوالشخص الذي يسافر في مشاهدة بلدان عديدة بهدف إكتشافها ودراستها [7] .

و إذا كانت بعض المعاجم الحديثة تورد في بعض الأحيان عبارتي مستكشف ورحالة مترادفتين، لكننا أن المستكشف هو الذي يستكشف منطقة جديدة قبله مستعصية على نظرائه ، أما الرحالة فهو ذلك المسافر الكثير الشغف بالأسفار والترحال والذي يزور مناطق عديدة من أجل وصفها و دراستها بغض النظر عن عنصر السبق .

---

[1]. مجد الدين الفيروز ابادي: القاموس المحيط ،ج1، دار الفلك، بيروت، لبنان ، 1983، مادة كشف ، ص652 .
[2]. نفس المرجع .،ص459، مادة كشف.
[3]. نفس المرجع ص653، مادة كشف.
[4]. نفس المرجع ، ص 654.
[5]. نفس المرجع ، ص 655.
[6]. نفس المرجع ، ص 548.، مادة رحل.
[7]. نفس المرجع ، ص 549 .

قد يكون الرحالة مستكشف ، إذا كان يسير في مجال لم يستكشف قبله أحد أقرانه ، أما المستكشف فلا نعتبره رحالة إلا إذا إمتهن الترحال والتنقل وقام بعدة أسفار من ضمنها على الأقل رحلة طويلة تستهدف وصف و دراسة المناطق المزارة [1].

و تعني الرحلة انتقال الإنسان من موطنه الأصلي إلى أقطار و بلدان بعيدة بغية إرتيادها واكتشافها ثم وصفها ، إنها من هذا المنطق تفاعل بين الذات الواصفة (الرحّالة) والأخر الموصوف.

فهي إذا محاولة لجمع بعض الانطباعات والتصورات العامة عن قوم آخرين ، محاولة لتقديم صورة ما عن " الغير " هذا الغير- (إفريقيا جنوب الصحراء) - الذي ظل مصدرا لإثارة خيال الإنسان الأوروبي الذي امتاز منذ بداية الفترة الحديثة بحب الاطلاع مدفوعا بروح المغامرة وبشغفه وبالعلم والمعرفة على اعتبارها " القدرة والسلطة" [2].

ومع ذلك فقد ظلت الرحلات تمثل نمطا من التفاعل والحركة ، فهي إنتقال من مكان إلى أخر ومخالطة ومعايشة لقوم بغية وصف حياتهم كما أن حرص الرحالين على رصد وقائع حياة السكان اليومية في مجتمع معين وخلال فترة زمنية محددة ، قد أعطى للرحلات قيمة مصدرية مهمة بغض النظر عن موضوعية المعلومات المسجلة في تلك المصادر أو ذايتتها ، حيث تعد كتابات الرحالة تجربة شخصية وإعتماده على ما رأه وتدوينه له وما سمعه من مؤرخين أو باحثين من سكان البلاد الأصليين [3] .

ولا تقتصر قيمة الرحلات على الارتباط بالجغرافيا إرتباطا يكون عضويا وعلى كونها مصدرا تاريخيا بالغ الأهمية ، بل إنها ذات اتصال بالأبعاد الإجتماعية والفلسفية والسياسية والتربوية ....الخ .

ومن هنا فإن ظاهرة الرحلة قديمة قدم البشرية ذاتها فقد عرف الإنسان الرّحلة والترحال منذ أقدم العصور عبرها إكتشف الإنسان تدريجيا موطنه في هذه الأرض، التي منحته مجالا للتنقل والترحال فمكّنه ذلك من ملاحظة إنتشار البشر عبر مختلف بقاع المعمورة مع تنوع أجناسهم وإختلاف أنماطهم وظروف عيشهم.

[1]. مجد الدين الفيروز ابادي : المرجع السابق ، مادة كشف، ص 225.

[2]. ابراهيم مصطفى،المرجع السابق.

[3].وداد نصر محمد السيّد الطوخي : المرجع السابق،ص12.

هذا الإختلاف الذي شكل واحدا من أقوى الدوافع المؤدية إلى محاولة إكتشاف المختلف(وربما إخضاعه وتنميطه) كما هو الحال في الرحلات الإستكشافية الإستعمارية خاصة منها الرحلات الأوروبية إلى منطقة إفريقيا جنوب الصحراء ، وإن كانت في البداية بسيطة دون ضجة إعلامية [1].

كانت إفريقيا جنوب الصحراء عالما مجهولا بالنسبة للأوروبيين قرونا طويلة ولم يكتسب (هومر Homer وسيلاكس sylax وبروماتوس) في التاريخ القديم إلا معلومات جد محدودة عنها ، غير أن هيروديت قدم عنها لأول مرة معلومات لا بأس بها للأوروبيين بعد أن قام برحلة إلى برقه ودخل ليبيا في القرن الخامس قبل الميلاد.

وفي عهد القرطاجيين حاول حانون القرطاجي ربط الصلات التجارية بين شمال القارة ووسطها بواسطة مجرى واد درعه ونهر السينغال بعد أن قام برحلة إلى المحيط الأطلسي عبر مضيق هرقل (جبل طارق) وراجت في قرطاجة بضائع الصحراء التي كانت القوافل تحملها من النيجر إلى طرابلس عبر مرزق وبلاد الفرامانت.

وخلال الاحتلال الروماني للشمال الإفريقي إقترب الرومان من أطراف الصحراء الشمالية وأقاموا قلاعا وقواعد عسكرية وسكنية في بنغازي وطرابلس وغدامس وتبسة الأوراس وموريتانيا القبرصية.

وفي مطلع القرن الأول الميلادي تمكن (كونيليوس باليوس) من عبور الصحراء ومن ليبيا إلى التاسيلي بالهقار في محاولة للوصول إلى مجرى نهر النيجر، وإقتفى أثره آخرون بعد ذلك إلى السودان الأكبر ومن ضمنهم (سبتوميوس فلاكوس) (وجوليوس ماترنوس) [2].

وفي العصر الإسلامي جاب هذه المنطقة أي إفريقيا جنوب الصحراء طولا وعرضا رحالة ومؤرخون عديدون وتعرفوا على أرجائها وأسرارها وكمائنها وسجلوا ذلك في رحلاتهم مؤلفات ومنهم إبن حوقل والبكري وإبن بطوطة وإبن خلدون والإدريسي والحسن الوزان والمغيلي والعياشي والتجاني ...وغيرهم.

---

[1]. عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص20،21.
[2]. محمد مسعود جبران : المرجع السابق ،ص 150.

وكان الإنجليز أول من أبدي إهتماما بإفريقيا جنوب الصحراء بعد أن تقلص نفوذهم في أمريكا الشمالية ، وفقدوا مستعمراتهم هناك فأسسوا عام 1788م جمعية وكلفوها بتجنيد المغامرين وتوجيههم إلى إفريقيا لأستكشافها وغزوها فجندت عدد لباس به منهم وكلفتهم بالقيام برحلة إلى أعماق الصحراء ، ونفس العمل قامت به فرنسا [1] .

فقام (جونلادياز) بعبور الصحراء من الشرق إلى الغرب عبر وادي النيل إلى أعالي النيجر وعاد إلى مصر وتوفي من جراء التعب والإرهاق وتبعه (لوكا) نائب القنصل البريطاني السابق في طنجة.

وفي أعوام 1795-1797 قام (مونجو بارك) برحلة إلى السودان من تنزانيا في غامبيا بغرب إفريقيا ووصل إلى باماكو وأعالي نهر النيجرالذي يعتبر طريقا للمواصلات البحرية والبرية [2].

وخلال حروب نابليون الأول إهتم الأوروبيون أكثر بإستكشاف إفريقيا وغزوها، فعاد الرحالة منجوبارك مرة أخرى إلى النيجر عام 1805م وهلك هو ورفيقه في العام التالي قرب برنوح (ووروح) بسبب مقاومة قبائل المنطقة لهما فقام بعدها الألماني (رونتجن) برحلة من المغرب الأقصى إلى الصحراء، وقتل هو الأخر خلال شهر جويلية 1809م ، فقد كان الآفارقة يعتقدون أن وجود الرحّالة في بلادهم نذير شؤم على تجارتهم[3] .

وفي عام 1818م كلفت الحكومة البريطانية (جوزيف ريتشي) أحد كتاب قنصليتها بباريس بأن يتجه من طرابلس إلى السودان فصحبه ضابط البحرية (الكاتبان ليون) وغادر طرابلس في مارس 1819م إلى مرزق وعاد ليون إلى طرابلس.

وتألفت بعثة أخرى لمواصلة طريقها كان من أعضائها (الطبيب أودينكس)وضابط البحرية (كلابرتون) وضابط الجيش البري (الكاتبان ونهان) وغادرت طرابلس إلى غات وبحيرة

[1] .Hollyhc et Brunet : histoire contemporaine,paris,1956,p71,72.

[2]. موسن سعدالدين الروبي : الحاج عمر الفوتي التكروري ودوره في السودان الغربي (1997-1865)، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة ، مصر ، 1984، ص 04.

[3].عيسى أيوب الباروني : قراءة في كتاب الصحراء الكبرى لجيمس ديليلارد ،ترجمة أحمد الفرجاني، مجلة البحوث التاريخية ، السنة 14 ، العدد 01،جامعة الخرطوم ،السودان ، جانفي 1995 ، ص 153.

تشاد، وقد توفي (أودينكس) في جوان 1824م [1].

وواصل (كلابرتون) و (دنهان) الرحلة إلى كانو(شمال نيجيريا حاليا) ثم عاد إلى طرابلس في جانفي 1825م ، وفي نفس العام كلفت الحكومة البريطانية (المايجورألكساندر ثوردون لاين) بالقيام برحلة إلى إفريقيا [2].

أما الفرنسيون فقد بدأو برحلتهم ومغامرتهم في إفريقيا جنوب الصحراء منذ رحلة (روني كايي) في أعوام (1824 - 1825م) وأشتد حماسهم بعد إحتلالهم للجزائر عام 1830م .

ويمكن تقييم دواعي وأسباب هذه الرحلات إلى نوعين أساسيين يتعلق أولهما بالرحالين والإستكشافيين أنفسهم بينما يرتبط الثاني بالتطورات الحاصلة في أوروبا لقد تعلم الأوروبيون اللغة العربية لا حبا فيها ، ولكن لإتخاذها وسيلة ليفهم حياة المسلمين والتمهيد للاستعمار[3].

3- دوافع الرحلات والكشوف الجغرافية:

إختلفت دواعي وأهداف الرحلات بإختلاف أصحابها والجهات التي تقف وراءها فمن بين الرحالين من كانت تدفعه المغامرة نحو إرتياد المجهول وإكتشاف الغريب والخروج عن المألوف.ومنهم من كان يحركه البحث عن مصادر الثورة والمال يدفعه السعي إلى تحصيل المكاسب المادية من وراء المتاجرة أو الحصول على جائزة معينة [4].

ومن بين المستكشفين والرحالين كذلك من حدته دواعي دينية للرحلة واضعا على عاتقه مهمة التبشير بعقيدته عبر المزيد من البقاع المستكشفة ومنهم من كان يقوده الفضول المعرفي وخدمة العلوم والجغرافيا ، إلى محاولة ملء الفراغات التي كانت تعطيه نزعة سياسية إستعمارية فيسعى إلى إرتياد مناطق جديدة خدمة لتجارة بلده أو سعيا إلى جمع المعلومات المختلفة ، عن المناطق المزارة تمهيدا للسيطرة عليها وإخضاعها.

---

[1]. نصرالدين رضوان حمد : المرجع السابق ، ص 14 .

[2] . Georges Kehl : exploration et pénétration Sahariennes dans la première moitié du XIX Siècle, PP (5.10),(PDF).

- يحي بوعزيز :تاريخ إفريقيا الغربية الاسلامية من مطلع القرن (16-20م)،دار هومة ،الجزائر 2001،ص64.

[3]. محمد محمود محمدين : مرجع سابق، ص 36.

[4] . Max (Marchand) : Histoire Abrégée de L'Algérie Partie Sahara .paris. Mars 1975. P 12

- يراجع أيضا للتوسع :- عميراوي أحميدة، من الملتقيات التاريخية، ط1،قسنطينة : دار البعث، 2001، ص (151 . 173).

وانطلاق من الأهداف والدواعي العامة الذكر فإننا نجد من بين المستكشفين والرحالين رجال علم ودين وتوّاقين من هواة الأسفار والإرتحال وآخرين إستهوتهم المغامرة ودفعتهم المخاطرة ساعين إلى إماطة اللثام عن أحوال السكان والبلدان [1].

وتنطبق هذه الأهداف العامة على المستكشفين والرحالين الأوروبيين الذين تركزت معظم مجوداتهم في القرن التاسع عشر على القارة الإفريقية وانطلاق من محاور اهتمامات مختلفة كإشباع الفضول العلمي والتبشير الديني ومكافحة العبودية والغزو والاستعمار[2].

ونجد من بين هؤلاء المستكشف المحترف وهو ذلك الذي تبنى الترحال هواية ويقوم بعدة رحلات كبرى فإستحق بذلك أن يكون رحالة ، كما نجد منهم المستكشف بالصدفة وهو الذي يأتي للإستكشاف صدفة كالناجي من تحطم سفينة أوالواقع من الأسر أوالمأمور من طرف قائده العسكري أو مسؤوله الإداري بالقيام بإستكشاف منطقة [3].

وكثيرا ما يكون الإكتشاف " مأمورية"مخصصة لخدمة أغراض تجارية أو سياسية، وتنطبق الأهداف السابقة على المستكشفين الفرنسيين بمن فيهم أولئك الذين توجهوا نحو بلاد البيضان في القرن التاسع عشر أمثال : كايي، وكروفل [4].

وإذا كانت المغامرة في أوروبا وإرتياد المجهول والبحث عن الفراغ واللجوء إلى ما وراء البحار فرارا من الحياة الروتينية في أوروبا، عوامل تخص الرحالين والمستكشفين أنفسهم فإن أسبابا تتعلق بالأوضاع العامة في أوروبا بشكل عام وفي فرنسا بشكل خاص، فتضافرت لتدعم العوامل السابقة مشجعة الرحلات الإستكشافية،ويمكن أن نوجز أسباب الكشوف والرحلة فيما يلي

[1]. محمد محمود محمدين : المرجع السابق ،ص 158.
-يعد ديفيد لفينجستون المنصر الأسكتلندي أشهر مكتشف أوروبي لقارة إفريقيا على الإطلاق، حيث سافر من عام 1841م إلى عام 1856م عبر جنوبي إفريقيا وجنوبيها الغربي ووصل إلى لواندا (أنجولا حاليًا). ثم رحل ليفينجستون في اتجاه الشرق متتبعًا نهر الزمبيزي عبر القارة. وفي المدة من عام 1858 إلى 1863م اكتشف جنوب شرقي إفريقيا حتى وصل إلى بحيرة نياسا في تنزانيا. وسافر لفينجستون إلى وسط شرقي إفريقيا الوسطى في المدة من عام 1866م حتى وفاته عام 1873م.

[2] . Michel Mourre. Dictionnaire encyclopédique d’histoire. Paris. Bordas 1986 8 V. I3 (PDF).

[3].عمر مشري محمد بشير: نصوص ووثائق من المصادر العربية عن بلاد القرن الأفريقي ، رسالة دكتوراه ، جامعة الخرطوم ، السودان ، 1996، ص 31.

[4]. نصرالدين رضوان حمد : المرجع السابق، ص 21.

- الدوافع المتصلة بالتطورات في أوروبا [1].
- تطور وسائل النقل والمواصلات*.
- الطباعة [2].
- تأسيس الجمعيات [3] الجغرافية [4] :

حيث دعمت وأحتضنت المستكشفين والرحالين بتخصيص بعض الجوائز المالية لمن يسبق إلى إكتشاف منطقة ما [5] ، و تزويد الرحّالين المستكشفين بالتوجيهات والإرشادات والأدوات العلمية الضرورية * .

وقد أسهمت هذه الجمعيات إسهاما فعالا طوال القرن التاسع عشر في تغطية أنباء الكشوفات الجغرافية فكانت تقارير ورحلات وأنباء المستكشفين تصل القراء في فرنسا فور انتهاء الرحلة [6] بواسطة وسائل الأعلام [7] الذي وصفهم بأنهم أبطال قوميين [8] يستحقون التبجيل.

فليس من الغريب أن يتصادف مجئ الرحالتين مولين وكايي إلى المنطقة مع صدور إحدى

---

[1]. لقد كان للثورة الصناعية دورا كبيرا في هذه الأسباب التي يمكن إعتبار أكثرها صلة بموضوعنا تلك المتعلقة بتطور وسائل النقل والمواصلات وتحسن تقنيات النشر والطباعة وظهور الجمعيات الجغرافية وإستفحال حركة التوسع الاستعماري.

*-.وقد إستفادت كتابات الرحالين والمستكشفين من هذه الوضعية فتم الإسراع بنشرها الأبدي وتداولتها بسرعة مما منحها شعبية كبيرة وربط بالتالي الرأي العام الغربي بالمستكشفين والرحالين – أنظرمحمد محمود محمدين ،مرجع سابق، ص (160 - 161)

[2]. محمد محمود ،المرجع نفسه، ص(161) .

[3] . Dominique L'egeune. Les sociétés de géographie en France et l'ex pansions colonial au XIX Ené Siècle. Paris : Alabin Michel .1993.P82.

رغم كون الكشف الجغرافي مهمة فردية في الغالب خلال القرون الأولى إلا أنه صارت له جمعيات تنظمه وترعى الكاشفين في العصور المتأخرة مثل جمعية ترقية كشف الأجزاء الداخلية في إفريقيا التي أسست في لندن عام 1788م Association for Promoting the Discovery of the Interior Parts of Africa (APDIPA)، وقد اهتمت كذلك بعض الدول بصفة رسمية بالكشف الجغرافي لشيوعه وأهميته التي أوجدت بعض الأسباب التي بررته وجعلته يدخل ضمن اهتمامات الدول القومية الرئيسة في أوربا مثل فرنسا وبريطانيا وإيطاليا والبرتغال

[4] .Henri (vincent.). " Voyages d'exploration dans l'Adrar. Sahara occidental ". Paris revue algérienne et coloniale .3eme série n°4 octobre 1860 .PP 445-494

[5] .خصصت الجمعية الجغرافية الباريسية عشرة آلاف فرنك لأول أوروبي يصل تنبوكتو ويعود منها ببعض المعلومات المهمة، وقد كانت هذه الجائزة من نصيب الفرنسي روني كاي، راجع بهذا الخصوص:

-Edme Française Jomard .Remarques et recherché géographiques sur le voyages de Caillié dans L'Afrique central ,Imprimerie Royale. Paris : 1830 .PP (335 - 357).

[6] - Bulletin de la société de géographie de paris - 1821 – 1865

[7] - Dominique (bourrel) : voyage dans le pays de maures brak na .rive droite du Sénégal 1860paris revue maritime et coloniale .t - second septembre .1861 , PP 510-545 et octobre 1861 PP. (11-77)

[8] -Henri (vincent.). " Voyages d'exploration dans l'Adrar. Sahara occidental ". Paris revue algérienne et coloniale .3eme série n°4 octobre 1860 .PP 445-494

أهم تلك المجلات وهي "حوليات الرحلات [1] " .

حتى وإن كانت أهم تلك المجلات تبقى مجلة الجمعية الجغرافية الباريسية [2] التي بدأت الظهور في سنة 1821م ، على شاكلة مجلة حول العالم [3] والمجلة الجغرافية [4]، وقد سمحت هذه النشرات بدورها في تغطية وتشجيع حركة الإكتشافات التي أصبحت خلال الربع الأخير من القرن 19 مسألة تسابق مع الزمن بغية بسط السيطرة الإستعمارية على المنطقة.

- التوسع الاستعماري [5] .
- تشجيع الكشوف الجغرافية من قبل الحكومات: لقد شغف العقل الأوروبي عامة -بعد أن تحرر من قيود الإكليروس وأنار قرونه المظلمة بعصر الأنوار- بالبحث والإستكشاف وحب المغامرة من أجل التأريخ للأجيال القادمة [6].

وهكذا إنفتحت الطريق الوعرة المسالك أمام الطامعين والمغامرين الأوروبيين وبدأت طلائع الرحالين للإستكشاف من أجل الغزو التجاري والتوغل بالتبشير الديني المتوحش، وذلك قبل أن يبدأ في مرحلة تالية تطبيق المخطط الاستعماري...." [7] ومما لاشك فيه أن الأوروبيين استاؤا من النظام الأقتصادي السائد في العصور الوسطى بعدما كتب الرحّالة عن أحوال الشرق، ففكروا بطريقة جدية في الاستيلاء على هذه التجارة" [8] ويعتبر البرتغاليون أول الأوروبيون الذين وصلوا إلى سواحل غرب إفريقيا [9] وهي تمثل الخطوة الأولى في توسيع التجارة [10]، وساروا

تدريجيا في تطوير بناء السفن وعلم الجغرافيا، وإرسال البعثات الكشفية الأولى[12].

---

[1] -_Annales des voyages - 1816 – 1865
[2] - Bulletin de la société de géographie de paris - 1821 – 1865
[3] - Tour du monde .1860 – 1914.
[4] - Revue géographique . 1861 - 1875

[5] . محمد عابد : "يقضة الوعي العروبي في المغرب، مساهمة في نقد السوسيولوجيا الإستعمارية في المغرب". ط1،دار الأمان للنشر و التوزيع ،الرباط ،المغرب ،1988،ص ص (75 - 110).
-Paul Marty : L' Emirat des Trajza . paris : Eclairos . 1919. P 23.
[6]. دودو (ابو العيد)، الجزائر في مؤلفات الحالين الألمان 1830 - 1855، ط1، الجزائر:المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989 ص143 – 144.
[7]. إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، ب.ط، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص64.
[8]. جوزفين كام: المستكشفون في لإفريقيا، ترجمة يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1983 ،ص33.
[9]. نصرالدين رضوان: المرجع السابق ، ص12،13.
[10]. زينب عصمت راشد: المختصر في تاريخ أوروبا الحديثة، القاهرة،1975 ، ص42.
[12]. شكري محمود محمد أحمد أنيس: أوروبا في العصور الحديثة: القاهرة،1957 ، ص73.

وإن كانت المعلومات عن الشاطئ الغربي لإفريقيا لم تتعد السواحل قبل العام 1445م ، ثم وصلت سفن هنري إلى نهر السينغال ، وفي عام 1462م أي بعد وفاة هنري الملاح بسنتين وصل البرتغاليون[1] إلى خليج غينيا .

وقد أستمرت البعثات الكشفية البرتغالية على طول ساحل إفريقيا الغربي ومنها شرقا حتى وصلوا إلى الساحل الجنوبي الغربي للهند [2] .

لم يكن للتجار الأوروبيون الرغبة في تأسيس مستعمرات على ساحل غرب إفريقيا، ويرجع ذلك إلى أن المناخ في هذه المنطقة غير صحي ، فضلا عن أن داخل القارة الإفريقية كان غير معروف بالنسبة لهم لذلك نجدهم يشيدون سلسلة من المراكز التجارية الحصينة لكي يجمعوا فيها الرقيق ، قبل إرساله عبر الأطلنطي إلى العالم الجديد [3].

وقد زاد حجم هذه التجارة قبل ذلك بوقت طويل، وكان قد تم الكشف عن حدود سواحل غرب إفريقيا وهو ما حقق المعرفة عن داخل القارة الإفريقية [4].

وفي هذا المجال تمكّن البريطانيون والفرنسيون من كشف المنطقة الممتدة من غينيا إلى السينغال [5] بل وواصلوا كشفهم بعد ذلك حتى مجموعة الأنهار التي تعرف بأنهار الزيت، والتي تصب مياهها في ساحل غينيا، وكانت هذه المنطقة معروفة لدى المبشريين الأوروبيين كسوق للرقيق ولزيت النخيل ، فليس من المستغرب في شيئ أن تقترن مصالح الأستعمار بمصالح التبشير [6] .

---

[1]. عبدالجليل شلبي : الأرساليات التبشيرية ،ط1، دار المعارف ، الأسكندرية ، مصر ، 2001 ، ص119.

[2]. جوزفين كام :المرجع السابق، ص35.

[3]. جيمس دفي : البرتغال في إفريقية ، ترجمة جاد طه ، مراجعة شوقي الكيال ، ط1، دار المعارف،القاهرة،مصر،1983، ص28،29.

[4] .نفس المرجع ، ص36.

[5] . Ronald Davidson ,Jhon Ghallegas :africa and the viotorians ,london,1961,p88.

[6]. بلقاسم الحناشي : الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، رسالة دكتوراه ، كلية الأداب والعلوم الأنسانية ، جامعة تونس ، 1982، ص 129.

المطلب الثاني: أهم المستكشفين الأوربيين في إفريقيا.

أ- المستكشف: جون لويس بركهاردت John Lewis Burchardt

بدأت الجمعية الإفريقية في إنجلترا تهتم بإفريقيا جنوب الصحراء ، وزاد هذ الأهتمام عندما قام فريق من رجال الأعمال والكتاب الأنجليز ينادون بضرورة التوسع البريطاني في غرب إفريقيا ليتمكنوا من زيادة طاقتهم ومواردهم [1]، فكان من مشاريع الجمعية كشف نهر النيجر.

ففي عام 1815م أرسلت ثلاث بعثات إلى منطقة غرب إفريقيا بدأت إحداها من بلدة كليبار الواقعة على ساحل غينيا، وبدأت الثانية من مراكش والثالثة من مصر، ولكن هذه الخطة باءت بالفشل لأسباب غير معروفة وعلى ذلك فقد إختارت الجمعية الإفريقية رجل عظيم وشجاع ومتزن هذا الرجل هو: جون لويس بركهاردت .

كان بركهاردت سويسري الجنسية، فقد عاش في إنجلترا ودرس العربية في جامعة كامبريدج، وكان علما لامعا بحيث أنه في عام 1809م ، عرض خدماته على السير جوزيف بانكس الذي وافق على شرط أن يقضي جون لويس بركهاردت سنتين في سوريا كي يتقن خلالهما اللغه العربية، وبعد ذلك تجول في بلاد الشرق الأوسط للاستزادة بالمعلومات قبل القيام بمهمته الخاصة بنهر النيجر [2] ، تجول بركهاردت في البلاد العربية وأعد تقريرا شاملا عن الحياة في مكة والمدينة والشام والقاهرة، ثم بدأ رحلته البحث من أجل الذهاب إلى نهر النيجر[3].

ولكن حدث ذلك بعد فوات الأوان لهذا إنتظر بركهاردت في مصر (بلاد النوبة) حتى تصل أية قافلة يستطيع اللحاق بها أو الإنضمام إليها كي تقله إلى منطقة منابع نهر النيجر، ولكنه مات في هذه الفترة بسبب مرض الدوسنتاريا وكان آنذاك في الثاني والثلاثون من عمره [4] .

ب- المستكشف الكابتن تاكي Captain Tackey :

في العام 1816م قاد الكابتن تاكي الذي كان يعمل في الأسطول الملكي البريطاني

---

[1]. محمود فريد شديد زمزم : السنغال تحت الحكم الفرنسي (1885-1960)، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة، 1989، ص62.

[2]. الطيب عبدالرحيم الفلاتي : جرائم الأختراقيين الثقافية في التراث والتربية الأسلاميين ، منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية ،جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان ، 1998، ص 251.

[3]. جوزفين كام:المرجع السابق،ص119.

[4]. جوزفين كام :المرجع السابق ، ص121 .

ضمن بعثة مكونة من 56 فردا من العلماء والجنود كي يكتشف نهر الكونغو، ويكتشف أيضا هل نهر الكونغو له اتصال بنهر النيجر أم لا ؟ ومع ذلك فقد باءت جهوده بالفشل ، بل وأنتهت بكارثة فقد مات بسبب المرض الكثير من رجاله ومات تاكي نفسه بعد أيام قلائل من وصول البعثة إلى الكونغو.

ت- المستكشفين: الميجور بيدي والكابتن كامبل (Mayor peddie) و(campbell (Captain):

وفي الوقت الذي كانت فيه بعثة تاكي في طريقها إلى الكونغو إنطلق كل من الضابطين العسكريين الميجور بيدي (Mayor peddie) والكابتن كامبل campbell)(Captain من الساحل الغربي لإفريقيا ولكن مات الكابتن بيدي بينما أضطر الكابتن كامبل إلى الرجوع إلى الساحل بسبب مرضه بعد أن كان قد قطع مسافة مع نهر السينغال (لم يعرف طولها).

ثم تبعه بعد ذلك الكابتن (وليام جرى Captain william cray) الذي أصطحب معه الطبيب دونتشارد الجراح (Staf surgeoon Dochard) حيث أنهما أبحرا مسافة وهما صاعدين مع نهر جامبيا، وبعد ذلك ذهبا بالطريق البري تجاه نهر السينغال ، ولاحظا قوارب صغيرة تحمل بضائع، فكانت هذه المعلومات مصاحبة لتدفق الشركات الأوربية مختلفة الجنسيات [1]، وقد نجحا في الوصول إلى منابع النهر The upper waters ، وواصل دوتشارد تقدمه إلى الأمام كي يصل إلى النيجر، وخاصة عند النقطة القريبة من سيجو (Segu) ،التي لم تبعد كثيرا عن النقطة التي ركب منها بارك سفينته (أي عند مدينة ساندنج)[2].

عنذئد إلتحق دوتشارد بالبعثة الرئيسية ولكن الشيوخ عرقلوا تقدمه بصورة واضحة بسبب خوفهم من قيام البعثة بالبحث عن الذهب وهكذا فشل كل من جرى ودوتشارد (Dochard) وعاد إلى الساحل [3].

---

[1]. حسن الناطق السر بشير : التنصير والتغلغل الأستعماري في إفريقيا،مطبعة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان ، 1988، ص 241.

[2]. إلهام محمد علي ذهني : بحوث ودراسات وثائقية في تاريخ أفريقيا الحديث، ط1، مكتبة الأنجلو المصري، القاهرة ،2009،ص26.

[3] . جوزفين كام: المرجع السابق:ص121 - 122.

ث- **المستكشفين: جوزيف رتشي وجورج ليون (Joseph Ritchie)و(George Lyon):**

بعد ثلاثة سنوات وعلى وجه التحديد عام 1818م، وصل طبيب شاب يدعى جوزيف ريتشي (Joseph Ritchie) الذي كان برفقة الضابط البحري ليون جورج (George Lyon) إلى طرابلس Tripoli وكان ريتشي هذا قيد عين نائبا للقنصل البريطاني في فزان [1].

وحسب التعليمات التي صدرت إليه يتضح الأتي "أن الهدف الأساسي من وراء تعيينك هو التقدم تحت الحماية المناسبة إلى مدينة تمبكتو على وجه السرعة فلو تمكنت من الوصول إلى هذه المدينة فعليك ألا تفشل في جمع كل ما يمكن جمعه من المعلومات الخاصة بمجرى نهر النيجر، وكذلك معرفة إمكانية تتبعك لأمان لمجرى ذلك النهر حتى نهايته".

وقد سافر كل من ريتشي وليون إلى الجنوب من طرابلس لكي يصلا إلى مرزوق Mursuk عاصمة فزان . وهناك مات ريتشي بسبب تعرضه لمرض الحمى لهذا لم يتمكن ليون من الوصول إلى تمبكتو، ولكنه تمكن من جمع قدر كبير من المعلومات عن مرزوق، والقطر الواقع إلى جنوب منها، قبل أن يضطر إلى العودة بسبب قلة التمويل[2].

وكما أن بارك قد صدم بسبب حجم تجارة الرقيق فان ذلك قد حدث أيضا لليون فكان تجار الرقيق العرب يقومون بالإغارة على قرى ويأسرون الرجال والنساء الذين يشترون ويباعون كالماشية تماما فضلا عن ذلك فان هؤلاء العبيد كانوا يسيرون مسافة طولها 1500 ميل، حتى يصلون إلى ساحل البحر المتوسط وفي أثناء الرحلة المخيفة كان الكثير منهم يفشل في الوصول حيا [3].

وفي رحلة العودة إلتحق ليون بقافلة للرقيق ولاحظ أن هذه القرية أي مرزوق كانت مركزا من مراكز الرقيق[4] وهناك سأل ليون التجار الذين يزورون هذه القرية عن تمبكتو وعن النيجر.

---

[1].الحافظ عبدالكريم سليمان : التجارة في فزان بين كتابات الجغرافيين العرب والرحالة الأوربيين في الفترة (1500-1750 م / 906-1164 هـ) ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم درمان ، السودان ، 2014، ص 182.

[2] . نفس المرجع ، ص122.

[3]. جون أليف : الأفارقة تاريخ القارة ، ترجمة أمل أبو موسى ، ط1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والأعلان ، مصراتة ، ليبيا ، 2000، ص 224 .

[4]. جون أليف ،المرجع السابق، ص225.

وأكتسب ليون إنطباعا مفاده أن هذه المدينة الأسطورية (مدينة تمبكتو) لم تكن مدينة على جانب من الثراء والأهمية مثلنا تخيلها الأوروبيون فلم يرى واحدا من هؤلاء التجار الذين تواجدوا في مرزوق يعرفون بالفعل نهر النيجر، ولكن يبدو أن الرأي العام كان يشير إلى أن هذا النهر يصب في بحيرة تشاد، الواقعة في مملكة البرنو في السودان الأوسط ، لأن الأوربيين لم يتوغلوا في إفريقيا فذلك يعرضهم للخطر [1].

وعلى هذا الأساس أرسل ليون هذا الكم من المعلومات إلى لندن كتوظئة للحركة الأستعمارية [2]، ونتيجة لذلك فقد صدرت إليه التعليمات بالتخلي عن بحثه الخاص بتمبكتو، وعليه أن يرحل تجاه الجنوب إلى بورنو (Bornu) ، ولكن هذه المعلومات لم تصل إليه لأنه كان قد بدأ الرحلة قبل ذلك إلى إنجلترا.

ولقد مرت حتى الآن ثلاثين عام على إرسال الجمعية الإفريقية للرحالة الأول كي يحاولوا حل لغز النيجر. فقد مات الكثير من الرجال الشجعان، ولكن على الرغم من ذلك فلم تكن هناك نتائج ملموسة قد تحققت من إستكشافات بارك بل ظل اللغز دون حل [3].

وفي عام 1820م مات بانكس فخلفه رجل مهتم بكشف إفريقيا وهو السير جون بارو (Sir John Barrow) إنه سياسي عمل سكرتيرا في رئاسة البحرية مابين 1804م و 1845م فكان هو الأداة الخاصة بتجنيد الرحالة، وهو المخطط لبعثاتهم، بل وهو الحارس لمصالحهم في الوطن عندما يكونوا في إفريقيا [4].

ج . المستكشف هيو كلابرتون (Hugh Clapperton) (1788 - 1827):

رحّالة إسكتلندي ، قام برحلتين في غرب ووسط أفريقيا ، ففي العام الموالي لرحلة لينج

---

[1].الحافظ عبدالكريم سليمان : المرجع السابق ، ص 254.
[2]. رزق مرقص رزق: الوجود العربي في الكونغو، رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 1975، ص 88.
[3]. جوزفين كام: المرجع السابق: ص122 - 123.
[4]. نفسه: ص 123 - 124.

أرسلت بريطانيا بعثة وأعطيت لهما تعليمات أن تتبع إرشادات ليون وقد خطط لهذه البعثة تخطيطا جيدا، بل ونظمت أكثر من أي من البعثات السابقة السيئة الخطة منذ موت منجو بارك، الذي كشف النقاب عن الكثير من المعالم الجغرافية لغرب إفريقيا [1] ، وكان على رأس البعثة وولتر أودني Walter oudney الطبيب الاسكتلندي، الذي كان يبلغ من العمر واحدا وثلاثين عاما، وكانت إهماماته الأساسية تتمثل في الكشوف ومعرفة التاريخ الطبيعي وكان العضو الثاني في هذه المجموعة هيو كلابرتون [2].

كان عمره ثلاث وثلاثين عاما وقد ذهب كلابرتون إلى البحر في سن الثالثة عشر عاما، حيث كان يعمل خادم سفينة تجارية وفي جبل طارق هرب كلابرتون، ولكنه أسر وفرض عليه العمل في الأسطول الملكي وأبحر حول العالم من الشرق إلى جزر الهند الغربية وكندا وفي كندا قام كلابرتون برحلات صيد مع الهنود الحمر، وقد قبله الهنود الحمر على أنه واحد منهم [3].

وفي عام 1817م عاد إلى وطنه في أدنبرة (Edmbugh) ، وأصبح في تلك الأثناء بلا عمل مع أنه كان يتقاضى نصف مرتب من الأسطول وفي أدنبرة قابل أوني الذي عاش معه في نفس الشارع وعلى الرغم من اختلافهما في الطبائع إلا أنه كانت تربطهما صداقة متينة [4].

ولقد بدأ كلابرتون برحلته الأولى منذ عام 1822م، وبدأها من مدينة طرابلس، على ساحل البحر المتوسط، متجها صوب الجنوب، ومر على مدينة مرزوق، مع صاحبيه، ثم انفصل عنهما دنهام، الذي اتجه صوب الجنوب الشرقي لكي يستكشف نهر شارى.

بينما واصلا كلا من كلابرتون وأودنى السير جنوبا، صوب نهر النيجر، حتى وصلا إلى مدينة كوكا، التي تقع إلى الغرب من بحيرة تشاد ، ثم واصلا الرحلة صوب الغرب، في اتجاه مدينة كانو، ولكن أودنى توفي في الطريق.

فوصل كلابرتون إلى مدينة كانو والتي كانت سوقا تجاريا كبيرا، ثم وصل بعد ذلك إلى مدينة سوكوتو، وهو يتجه دائما صوب الغرب، وإن كان حاكم هذه المدينة الأخيرة قد حرمه من

[1]. سوسن سعد الدين الروبي : المرجع السابق ، ص 08.
[2]. شوقي عطا الله الجمل وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم: المرجع السابق، ص32.
[3]. جوزفين كام: المرجع السابق، ص 124 - 125.
[4]. نفس المرجع، ص125.

مواصلة السير غربا، وصوب نهر النيجر، والذي كان لا يبعد عن هذه المدينة إلا بـ 150 ميل ، فعاد كلابرتون إلى مدينة طرابلس، ورجع منها إلى إنجلترا، في منتصف عام 1825م.

ولقد كلفت وزارة المستعمرات البريطانية كلابرتون بالقيام برحلة ثانية ، يصل فيها إلى سوكوتو، والتي تقع بين بحيرة تشاد وبين نهر النيجر، وذلك من أجل عقد إتفاقية مع سلطانها، وكان ذلك بعد وصوله من رحلته الأولى إلى إنجلترا مباشرة، فأستعد للقيام بهذه الرحلة الثانية، وأخذ معه لاندر، لأزالة الغموض الذي أحاط المناطق الداخلية من القارة الأفريقية [1].

ولقد بدأت هذه الرحلة في عام 1865م، وبدأت من الجنوب صوب الشمال، ومن خليج غانا صوب الداخل، وبدأت مدينة باداجرى، قرب موقع [2] مدينة لاجوس الحالية، وأستمر السير حتى مدينة واوا، وبعد عبور النهر سار في الإتجاه صوب الشرق، وحتى وصلا إلى مدينة كانو، في شهر مايو 1862م، ثم إستمر في السير بعد ذلك صوب بسوكوتو، وكان السلطان في ذلك الوقت مشغولا بالإستعداد لشن الحرب على بورنو، فرفض التفاوض، مع الإنجليز، من أجل عقد إتفاقية، ولقد مرض كلابرتون في مدينة سوكوتو ثم توفى ودفنه لاندر هناك في شهر ابريل 1869م [3] .

وبهذا كانت الرحلات قد فتحت الباب للشركات التجارية والمستعمرين والمغامرين الأوروبيين للولوج من الساحل الغربي للقارة إلى داخلها [4] .

ح- المستكشف: ديكسون دنهام (Dixon Denham):

وكان الأوروبي الثالث في هذه البعثة الملازم ديكسون دنهام، الذي كان يعمل ضابطا بالجيش البريطاني وكان في سن كلابرتون، وفي بداية عام 1822م، رست هذه البعثة في طرابلس وبعد ذلك أخذت طريق القوافل التجارية الصحراوية التي تصل إلى واحة مرزوق.

وقد تأخر تقدم البعثة، وكان من بين الأشياء الأخرى التي ساهمت في تأخيرها قلة التموين ، رحل إلى لندن ثم عاد مرة ثانية، ووجد كل من دنهام و أودني يشغلان وقتهما في كشف المنطقة

---

[1]. محمد حسن: برازا ودوره في مد النفوذ الفرنسي في الكونغو ، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ، مصر ، 1991، ص 50.
[2]. جلال يحي: المرجع السابق ص 227.
[3]. نفس المرجع، ص 228.
[4]. شوقي عطا الله الجمل وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم: المرجع السابق، ص33.

الواقعة بين واحة مرزوق وبين واحة غات (Ghat) الواقعة في الجنوب ثم إلتحقا بقافلة كانت متجهة إلى بورنو.

وقد عانت البعثة من السفر تجاه الجنوب عبر الصحراء بسبب حرارة الشمس الشديدة والعواصف الرملية العنيفة، وبسبب النقص الشديد في المياه، والذي يدعو إلى اليأس إلا أفرادها ظلوا على قيد الحياة وكلما كانت الصحراء خلفهم أصبح السفر سهلا حيث كانوا في طريقهم إلى بورنو [1].

وفي الرابع من شهر فيفري من عام 1823م ظهر فجأة وعلى مرمى البصر تماما هدفهم الأول، فقد كتب يقول نصه: "...أن بحيرة تشاد الكبيرة بدت إلينا على مسافة ميل واحد من النقطة التي وقفنا عندها، وكانت أشعة الشمس القوية المتوهجة الذهبية اللون تسقط عليها وفي هذه اللحظة خفق قلبي عند رؤيتي لهذا المنظر وأعتقدت أن هذه البحيرة هي المفتاح إلى الهدف الكبير لبحثنا...." [2].

وكان كل من دنهام وأودنى وكلابرتون من الأوروبيين الأوائل الذين رأو بحيرة تشاد وكان دنهام على خطأ حينما أعتقد أن أفراد البعثة وحدوا المفتاح إلى لغز النيجر، وعند هذه المرحلة إفترق دنهام عن كل من أودن وكلابرتون، وألتحق بمجموعة كبيرة من جنود البورنو المسلحين، والمتجهين إلى قطر الماندار الجبلي، الذي يقع إلى الجنوب من بحيرة تشاد، وكان يبدو على أودني علامات السل، ومع ذلك فأنه كان شجاعا ، (بل وأن روحه المعنوية كانت مرتفعة فقد سافر كل من أودني وكلابرتون إلى الجنوب الشرقي كي يكتشف نهر شاري (Shari River).

وأثبتنا أن هذا النهر لم يكن نهر النيجر، وبعد ذلك عاد دنهام إلى البحيرة (بحيرة تشاد) بعد أن تبين له ، أن هذه البعثة (التي كان قد إلتحق بها) ، هي بعثة لصيد العبيد، فغضب دنهام غضبا شديدا [3] .

وكان من الحكمة للبعثة أن تنقسم إلى قسمين، قسم تحت رئاسة دنهام الذي كان عليه أن يكتشف نهر شاري والطرف الجنوبي لبحيرة تشاد، وقسم يضم كل من أودني وكلابرتون واللذين

---

[1]. رزق مرقص رزق: المرجع السابق، ص88.
[2]. جوزفين كام ،المرجع السابق،ص126-127
[3]. نفس المرجع: ص127.

كانا عليهما التجول غربا في إتجاه نهر النيجر [1] وكانا برفقتهما محمد الوردي (M. Elwardee) وهو تاجر مسلم من فزان[2]، وقد قادتهما رحلتهما تجاه مملكة كانو (Kano) وكتب كلابرتون يقول ما نصه "...لقد تحمل أودني متاعب جمة أكثر مما تتحمله صحته، وقد وصلت أخبار البعثة قبل مجيئها إلى المدن والقرى التي مررنا بها، لذلك أحضر لنا سكان هذه المدن والقرى جميع المرضى لكي نعالجهم ".

وكان العمل شاقا بالنسبة لأودني الذي مات بمرض السل (tuberculois) والذي قاومه بشجاعة منقطعة النظير، وقد حزن كلابرتون عليه حزنا عميقا بصفته قائدا وصديقا ولقد برهن فقدان هذا الصديق على ضربة عنيفة في أي مكان وزمان.

فالنسبة لكلابرتون فإنه كان صديقه وزميله في السفر، ويقول كلابرتون "...لقد كان أودني يعمل تحت وطأة المرض والأن تركني وحيدا بين شعب غريب، ولكنني سأواصل تقدمي من خلال قطر لم تطأ قدما أوروبية حتى الآن فقدان أودني كان خسارة كبيرة ذات تأثير قاس لأقصى درجة ".

ولم يستطع كلابرتون العودة في ذلك الوقت ولكنه أضطر في نهاية جانفي 1824م إلى الذهاب إلى مدينة كانو، ودخل كلابرتون المدينة في شئ من الأبهة، وكان مرتديا زيه البحري ومتوقعا أن يستقبل ببعض مظاهر الحفاوة ولكنه حزن لخيبة أمله فيما وصفت به هذه المدينة [3].

ويقول كلابرتون ما نصه: "...توقعت أن أرى مدينة مزدهرة وعظيمة، ولكن وجدت العكس من ذلك فقد بلغ طول المسافة المبنية بالمنازل ربع ميل تقريبا وفي أجزاء كثرة من المدينة إنتشرت في داخلها مجموعات منفصلة من البرك الكبيرة للمياه الراكدة وأصبحت أثار وشواهد [4] ويضيف كلابرتون في قوله: "...ليتني وفرت متاعي التي بذلتها في التزيين وأضاف بحزن أو بمرارة ما نصه " ...فلم أرى أي شخص يلفت رأسه نحوي، ولكن الجميع قصدوا مصالحهم الخاصة وسمحوا لي بالمرور دون أي ملاحظة".

---

[1]. الحافظ عبدالكريم سليمان : المرجع السابق ، ص 254.

[2]. نفسه، ص189.

[3] جوزفين كام: المرجع السابق ، ص 127 - 128.

[4] . Paolo Fermando de Morès frais : Histoire conter Mèmoire epigraphe ,chromiques , tradition orale et Lieu D'oubli dons le sehel Malien,imprimerie Nejah, casablanca ,Maroc,1994,pp22,23.

وقد أدرك كلابرتون أن مدينة كانو كانت مكان إلتقاء القوافل العربية القادمة من طرابلس وكان سوق الرقيق يتوسطها أو يمثل البؤرة أو المركز لهذه المدينة، وبعد أيام قلائل رأى كلابرتون هذا السوق محتشدا بأفراد من جميع أجزاء أفريقيا، من منطقة البحر المتوسط، ومن جبال القمر ومن سنار، ومن بلاد الأسثانتي، وهناك أدرك كلابرتون مغزى عدم إهتمام أهل البلد بدخوله إلى البلدة في زيه البحري رغم تنكر من سبقوه من الرحالة بالزي المحلي [1].

وقد تفحص كلابرتون سوق كانو بأهتمام مصحوب بالرعب ولاحظ في هذه المناسبة أن العبيد المعدين للشحن كان يعتني بهم عناية خاصة، فكانوا يفحصون من جانب المشترين المنتظرين كما لو كانوا حيوانات، وكان نتائج هذه التجارة أن تفرقت الآسر بلا رحمة فلم يكن في إستطاعة أي أم أن تحتفظ بأطفالها، كما لم يستطع أي رجل أن يبقى على زوجته وعلى الرغم من أن العبيد كانوا يعاملون معاملة حسنة في أغلب الأحيان إلا أنهم كانوا يهلكون بسبب العبودية الأبدية.

ولقد لاحظ كلابرتون أثناء مروره من خلال مملكتي كانو وسكوتو مدنهم اللتين كان حاكمها يحكم أيضا إمبراطورية الغولاني، أن جميع مدنهم يباعون كانت خالية من السكان بل ومهجورة لأن سكان كانو يؤسرون ويباعون في أسواق الرقيق، وكان كلابرتون قد تقرب من الحاكم المسلم الذي إستقبله بكل ود [2].

وكان كلابرتون قد طلب من الحاكم الرئيسي للسلطان سكوتو، أن يسمح له بالتقدم إلى نهر النيجر، الذي كان يوجد على مسافة مسيرة أيام قلائل إلى جهة الغرب ولم يسمح للرجل الأبيض بالمسير إلى النهر (نهر النيجر) [3].

ولهذا فقد إضطر كلابرتون إلى التخلي عن مهمته وأن يلتحق بدنهام الذي كان ينتظر في كوكا القريبة من بحيرة تشاد، وقد عبر الرجلان الصحراء مرة ثانية في أمان وعادا معا إلى إنجلترا ووصل إلى لندن في شهر جوان عام 1825م ، أي بعد ثلاث سنوات ونصف من تاريخ رحيلهما.

[1]. الحا فظ عبدالكريم سليمان: المرجع السابق ، ص 183.
[2]جوزفين كام: المرجع السابق: ص 128 - 129.
[3]. نفس المرجع: ص130.

وعلى الرغم من فشل البعثة في تحقيق واجبها الأساسي، ألا أنها إكتشفت بحيرة تشاد وقد دحضت إمكانية وجود إتصال بين النيجر والبحيرة، وعلى هذا فلم يعد الجغرافيون في حاجة إلى الإعتماد (Relyon) على ليو الإفريقي في معرفتهم للجزء الغربي من داخل إفريقيا لأنهم في ذلك الوقت كانوا قد حصلوا على كل المعلومات الجديدة والهامة [1].

وبعد ذلك شرع دنهام على الفور في إعداد كتاب بعنوان "سرد الأسفار الإستكشافات في شمال نيجيريا " Narrative of travels and discoveries in northern nigeria ، وفي هذا الكتاب أدمج Inserted دنهام وصف كلابرتون لرحلته إلى كانو وسكوتو ولم يذكر في كتابه هذا كشف كل من كلابرتون وأودني لنهر الشاري، وفي الوقت الذي كان فيه دنهام مشغولا بكتابه ، كان كلابرتون يعاني من تدهور في صحته ، ومع ذلك فلم تنهار معنوياته فكل تفكيره كان منصبا فقط في العودة إلى إفريقيا كي يكمل (مهمته) [2].

---

[1]. محمد مسعود جبران: المرجع السابق، ص 153.

[2]. رزق مرقص رزق: المرجع السابق، ص95

- جوزيفين كام : نفس السابق : ص 128 - 129.

المبحث الثاني: التراث الأسلامي في عيون الرحالة الأوربيين بين القرنين (10-13هـ/16-19م) .

المطلب الأول: البعثة الأنجليزية - الرحّالة :منغو بارك ، لينج، وهنري بارث.

أولا - منجو بارك Mungo park :

1- تموين الرحلة:

اعتمدت بريطانيا على نظام الحكم المباشر والغير المباشر في السودان الغربي، استخدمت الأول في المناطق الساحلية مثل غامبيا وسيراليون وساحل الذهب ومدينة لاجوس بنيجيريا، حيث كانت السلطة للحاكم له حق الإشراف والسلطة على الإدارة دون الرجوع إلى وزارة المستعمرات في بريطانيا [1] .

أما نظام الحكم الغير مباشر فقد طبق في شمال نيجيريا واتخذته الإدارة البريطانية أداة لحكم مستعمراتها في السودان الغربي خاصة المناطق الداخلية [2] فكان النصير الأول للكشف الإفريقي هو السير جوزيف بانكس Sir Joseph Banks .

العالم البريطاني الذي أبحر حول العالم مع الكابتن كوك Captin Cook فقد ولد بانكس في عام 1743م وهو إبن رجل من ملاك الأراضي الأثرياء، وتولى بانكس رئاسة الجمعية الملكية لما يزيد على 40 عاما.

وتعتبر هذه الجمعية أقدم هيئة ملكية علمية بريطانية بل وأكثرها شهرة [*]، ويعتبر بانكس أيضا

العضو المؤسس الذي أنصب تفكريه على إفريقيا وعلى داخلها المجهول و تنشيط حركة الكشف الجغرافي للأقاليم الداخلية من إفريقيا وعرفت بإسم الجمعية الإفريقية.

---

[1]. رولاند أوليفر جون فيج: تاريخ إفريقية،ترجمة عقيلة محمد رمضان،ط1،دار القومية للطباعة و النشر ،د ت، ص341.

[2]. نفسه ، ص345.

[*] الجمعية الإفريقية حسب بارك –تأسّست في 1788 م و تضم كأعضاء رجال الأعمال النبلاء الذين ينتمون للطبقة التي تسيطر على إنجلترا و إسكتلندا، من ملاك الأراضي و أصحاب الأموال الأثرياء و الجديد في هذه الجمعية أنها تبحث عن من يكتشف القارة من الداخل، فاهتمامها لم يعد منصب فقط على السواحل، و هذا الاهتمام بالداخل ناتج عن التغيرات التي عرفتها إنجلترا مع نهاية القرن 18 م و هي بداية الثورة الصناعية التي تحتاج لأسواق و مواد أولية.

"Association for Promoting the discovery of the district of africa "or the african association as is it came to be called

وكان من أهداف الجمعية الجديدة إيجاد تجارة بين بريطانيا وغرب إفريقيا [1]، على أن تتبع مجرى النيجر، هذا النهر الذي لم يراه أي أوروبي والذي تقع على شواطئه مدينة تمبكتو المتآلفة .

وقد إعتقد بعض الجغرافيين أن نهر النيجر فرع من فروع نهر النيل ولكن على الرغم من ذلك فإنهم لم يستطيعوا أن يقرروا أن هذا النهر ينبع من الغرب أم الشرق، وأعتقد البعض الأخر من الجغرافيين بأنه من المحتمل أن يكون هذا النهر أحد فروع نهر الكونغو أو ربما يكون هو نهر الكونغو.

ومع ذلك فقد كانت هذه تخيلات، والسبب في ذلك يرجع إلى أن الكشف البريطاني لهذه المنطقة لم يكن قد تعدى بعد أنهار السينغال وجامبيا، بل كان ما تم كشفه من هذه المنطقة هو عبارة عن كشف مسافات قصيرة كانت قد تمت في شبكة أنهار الزيت التي تصب مياهها في ساحل خليج غينيا [2].

وكانت الحاجة الملحة أمام الجمعية الإفريقية أن تقوم بتجنيد المتطوعين الذين يرغبون في الذهاب إلى غرب إفريقيا على وجه السرعة.

وبعد النكسات المتتالية [3] تذكّر بانكس طبيبا شابا كان يعمل على متن سفينة، وكان قد أحضر

معه مجموعة من النباتات أثناء الرحلة التي قام بها إلى جزر الهند الغربية وكان هذا الطبيب يدعى الدكتور منجو بارك .

2- نبذة عن حياة منجو بارك Mungo park:

---

1. عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين:(مرجع سابق): ص195

2. جوزفين كام: المرجع السابق،ص86

3. أرسل متطوع يدعى" جون ليديارد John Ledyard كان جنديا في البحرية البريطانية أرسل إلى إفريقيا عبر القاهرة وكان هدفه الوصول إلى تمبكتو عبر ليبيا لكنه فشل بسبب المرض.

. أرسلت الجمعية في أثناء رحلة جون ليديارد متطوعا أخرا يدعى لوكاس lucas من أجل الوصول إلى نهر النيجر فلم يفلح في الوصول وتمكن من جمع معلومات حول طرق المواصلات والقوافل في الصحراء الإفريقية

. وفي عام 1789م تطوع رحالة يدعى فريدريك هورن Fredrick horne ، انطلق من إنجلترا إلى مصر عبر ليبيا ووصل إلى فزان وهناك اختفى دون أثر والمرجح انه مات.

تطوع رحالة رابع يدعى الميجور هوفتون Mayor Houghton الذي وضل إلى الساحل الغربي لإفريقيا حيث بدأ غامبيا والسنغال وهناك تعرض للسلب والقتل كما تقول الروايات: (للمزيد انظر: جوزفين كام:نفس المرجع ،ص(87 - 88)).

ولد في فولشيل Foweshiels قرب سيلكيركشاير في إسكتلندا في 10 سبتمبر 1771،

درس في جامعة إدنبرة في الفترة (1789 - 1791)، وحصل على دبلوم في الجراحة مما أهله للحصول على مركز الجراح المساعد على متن سفينة "وورسسترWorcester " التي أرسلتها الحكومة البريطانية إلى المحيط الهادي في أسيا للإستكشاف (الهند الشرقية البريطانية).

وقام على متن تلك السفينة برحلة في فبراير 1793 إلى بنجكولو في سومطرة، وعند عودته في 1793 ساهم في كتابة وصف ثمانية أنواع من ألأسماك الجديدة في جزيرة سومطرية ما جعل ينال إعجاب الجمعية الأفريقية في لندن التي قدم لها طلب إتمام اكتشافات هوغتون Houghthon فذهب في 22 ماي 1795 م إلى غامبيا. من مركز بيسانيا Pisania، يتوغّل داخل الأراضي الإفريقية زار مولى Moullé، البوندو Le Bondou، الكارتا Le kaarta، ثم القبض عليه من طرف المور Les maures، سجينا لزعيمهم علي. تمكّن من الهروب، و وصل إلى سيغو Ségo، و في وسط الأهوال و التعب أكمل مهمّته، صعد نهر النيجر حتى كاميليا Kamilia، عند الماندينغ Mandingues، أين مرض 7 أشهر.

يعود إلى بيسانيا برفقة حمولة من العبيد جوان 1797 م، ثم يعود إلى إنجلترا أين ينشر قصّة رحلته* تحت عنوان:

Travels in the interior districts Of Africa (landon, 1799 Trad, fr de castéra 1800 2 Vol, In 4º) [1]

و نتيجة لوصفه الدقيق و أهمية الاكتشافات التي توصل إليها في منطقة النيجر الأعلى، قام مونغوبارك في 30 جانفي 1805 م برحلة ثانية، و في مهمة رسميّة وصل غوري Gorée ومنها يصل إلى بامكو Bamako، يصنع في سانسنديرق. Sansanding سفينة لنزول النيجر يصل حتى بوسا Boussa، أين يتم مهاجمته من طرف قبائل الهاوسا Haoussas، و يغرق هو

---

[1] . Mungo Park: Voyage dans L'intérieur de L'Afrique ; Préface: d'Adrian Adams François Maspéro 1, Place Paul Painlevé Paris V, م 1980 .

يحتوي الكتاب على: 355 ص. مقدمة لـ: Adrian Adams و 26 فصلا كل فصل مقسم إلى مباحث يحكي فيها بارك ما رآه من أثناء رحلته هذه و أسباب قيامه بها و من هو ممون الرحلة. إضافة لخريطة تبيّن الطرق التي مرّ بها بارك في داخل إفريقيا.

وللكتاب أهمية في دراسة شعوب المنطقة، عادتهم و تقاليدهم، انتاجهم الزراعي وطبيعة المراسيم الدينية هناك، و قد مرّ بارك بعدّة مناطق كمولى و البندو و كارتا وسيغو و كاميليا و خالط عدة شعوب كالفول و الهوسا و الماندينغ.

وجميع مرافقيه في نهر النيجر في أواخر 1805 م. ثم نشر الملاحظات التي قام بإرسالها إلى عائلته حول الجزء الأول من رحلته حتى 16 نوفمبر 1805. تحت عنوان:

The Journal of a mission to the interior Of Africa (1815, Trad, fr,in-4)

L'exploitation de l' Afrique

وكانت ممارسة مهنة الطب البسيطة في ذلك الوقت في إسكتلندا لا تشبع طموح ونشاط وتطلعات بارك حيث كان يهوى الرحلات [1] تواقا للقيام بأي مشروع أو عمل يختبر فيه قوته وجسارته ولذلك فأنه سافر إلى لندن حيث تقابل مع بانكس، ولما علم بانكس برغبة بارك في السفر إستخدم نفوذه في الحصول على وظيفة لبارك، بحيث يعمل كطبيب على ظهر سفينة، وعندما سأله بارك عن نتائج رحلته الأخيرة دعاه بانكس للذهاب إلى غرب إفريقيا وذلك للبحث عن نهر النيجر.

وكان بارك طموحا، وكعهد بانكس به بل وكان لديه حب إستطلاع وكان يتميز بقوة الملاحظة الدقيقة التي تكون علامة حقيقية من علامات العالم ولهذا قبل العرض الذي تقدم به بانكس على وجه السرعة وفي عام 1795م، أي وهو في السن الرابعة والعشرين أبحر منجو بارك من ميناء بورتسموث ووصل إلى نهر غامبيا بعد شهر من بدء الرحلة الخالية من الأحداث [2] ، يقول بارك: " عندما عدت من رحلة من الهند الشرقية في 1793 م، و بعدها بزمن قصير، علمت الجمعية التي أنشئت بلندن لأجل القيام باكتشافات داخل القارة الإفريقية، تبحث عن أحد يريد التوغل داخلها من نهر غاميبيا [3].

و قد أرسلت عدّة رحلات قبل بارك مثل: المغامر الأمريكي لديرك Ledyard الذي توفي في بداية مهمّته بالقاهرة، ثم لوكاس Lucas الذي يمثّل أنجلترا في المغرب بعدما كان سجينا فيها أثناء شبابه يفشل في محاولته في اختراق القارة بالسفر من الشمال إلى جنوب الصحراء ، وفي 1970م يتطوّع النقيب هوقتون Major HouSgthen للوصول إلى النيجر عبر غامبيا لكنه يختفي، "فتقرّر الجمعية الإفريقية إعادة الكرة، و تقدّم طلب لمونغو بارك .

---

[1]. محمد الصالح حوتية : توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة (بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر)- دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية ج 2، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر ، 2007،ص 438.

[2]. جوزفين كام: المرجع السابق ،ص88.

[3]. محمن لولي أبوبكر : الطوارق ودورهم في مقاومة الأستعمار الفرنسي في دولة النيجر (1880-1920) ، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم، 2013،ص 27.

و مهمّة بارك –حسب قوله- أن الجمعية الإفريقية طلبت منه التوجه حتى ضفاف نهر النيجر، و العمل على التعرف بدقة على مجرى هذا النهر من مصبّه حتى منبعه ، و زيارة أهم مدن هذه المنطقة التي يمر بها خاصة تومبوكتو و مدن الهاوسا ، أيضا لأجل فتح منابع جديدة للثروة من خلال اكتشاف موارد أولية جديدة تلبّي مطامح رجال الأعمال و المال في إنجلترا أو إسكتلندا، و تكون منبع للتجارة والصناعة.

أما بارك فهدفه مادي دنوي [1] يريد مشاهدة منتوجات هذه المنطقة الغير معروفة و التّعرف بنفسه على عادات وطبيعة أهلها وكان مدركا جيّدا أن الرحلة في الداخل لن تكون خالية من الأحداث وكان لديه إيمان لا حدود له في قدراته الخاصة وفي نوايا الجمعية الإفريقية.

وفي هذا الصدد أعلن بارك ما نصه: ((ينبغي على كذلك أن أنقل جغرافية إفريقيا بحيث تصبح معروفة أكثر لأهل بلدي وأن أفتح أمام طموحاتهم وأمام صناعتهم مصادر جديدة من الثروة وقنوات جديدة للتجارة وأنني على يقين من أنني في أيدي رجال شرفاء، هؤلاء الرجال الذين لم يضنوا بالبذل والعطاء، وذلك لأن خدماتي الناجحة سوف تظهر لهم جدارتي)) [2].

وبالفعل فقد هيأ المستكشفون والمبشرون إستعمار إفريقيا [3] ، وقبل أن يبدأ بارك رحلته في أوائل 1796 م [4]، قضى عدة شهور في تعلم اللغة العربية ولغة الماندنجو - التي يتحدث بها سكان منطقة كبيرة من الداخل - على يد معلم يدعى سيدي أمباك بوبي وهو أحد العبيد الذين كانوا في خدمة الجمعية الأفريقية في لندن .

وكان بارك يهدف من وراء تعلم هذه اللغة التحدث إلى السكان المحليين دون مترجم ، وفي نهاية العام، غادر بارك تنزانيا الواقعة على نهر غامبيا وكان بصحبته إثنين فقط من الخدم الإفريقيين، بالإضافة إلى أنه حمل معه كميات صغيرة من المعدات، وكان بارك في تلك الأثناء مرتديا زيه الوطني (الزي الاسكتلندي).

---

[1] . Frank McLynn:op.cit:p18

[2] . Frank T. Kryza. The Race for Timbuktu - In Search of Africa's City of Gold. (New York: Ecco, 2006), 40

[3] . بلقاسم الحناشي : المرجع السابق ، ص 129.
- إلهام محمد علي ذهني :المرجع السابق ، ص365

[4] . جلال يحي: المرجع السابق، ص226.

وقد تكّون هذا الزي من بنطلون مثبت أسفل الركبة ومن معطف ثقيل زاهي الزرقة ومزود بزراير مذهبة كما كان يرتدي قبعة صلبة وطويلة، وقد ثبت أن هذه الزراير كانت مغرية للغاية وأنه من الضروري مقاومة هذا الإغراء، وقبل أن يمضي على بدء رحلة بارك بوقت طويل، سرق معطف ومعظم أمتعته وممتلكاته، ومع ذلك فقد نجح في الاحتفاظ بقبعته، التي لم يقتصر إستخدامها كغطاء للرأس، ولكنه إستخدمها كمكان يخفي فيه ملاحظاته التي شملت سكان غرب إفريقيا ومنتجاتهم وتجارتهم، ونباتاتهم وحيواناتهم .

وكان منجو بارك دقيقا في ملاحظاته تماما لدرجة أنه لم يسجل حقيقة قابلة للشك أو النقاش. وفي البداية كان كل شئ على مايرام حيث كانت البعثة تتجه صوب الشرق من خلال دول صغيرة يحكمها ملوك من الزنوج الذين كسب بارك صداقتهم عن طريق إستعداده العاطفي وعن طريق أسلوب السهل اللطيف، وعن طريق مزاجه المعتدل غير المتغير.

وفضلا عن ذلك فقد زودت هذه الصفات الجميلة بشجاعة هائلة وكان بارك مدركا تماما لمصير أسلافه ، وكان ملوك هذه الدول الوثنية في حالة حرب كل مع الأخر وكان هدفهم الوحيد من وراء هذه الحروب هو الاستيلاء على المساجين (أسرى حرب) وبيعهم كعبيد، وكانت تجارة الرقيق هي الشكل التجاري الوحيد، حيث كانت تجارية مربحة للغاية [1].

وقد زود منجو بارك بمرشد ليساعده في المرحلة التالية من رحلته، وكان بارك متجها إلى نهر النيجر وفي الطريق كان بارك يسجل كل ملاحظاته [2]، وخاصة في مدن وادي النيجر التي وجد بها عدد كبير من المدارس التي تعلم العربية والقرآن والتي بنيّت في أوائل القرن التاسع عشر[3] ، من طرف حكام الممالك الأسلامية وبتأطير القبائل العربية [4] ، وهذا ما يوحي بإيجابية الإسلام على بعض نواحي الحياة [5] في إفرقيا جنوب الصحراء.

قدم منجو بارك أبحاثه بكل جد وأستقصاء فوصف في مذكراته الأساليب التي إستعملها تجار الرقيق مع عبيدهم، لمنعهم من الهروب.

---

[1] جوزفين كام : المرجع سابق ، ص90.

[2] . نفسه: ص91.

[3] . نعيم قداح:المرجع السابق، ص 163.

[4] . J.spencer ,trimingham:the influence of islam upon Africa,clarendon,oxford,1964 p .81

[5] . ساسي سعيد : مساهمة في دراسة تاريخ الحياة الدينية في السودان الغربي خلال العصر الوسيط –الدين والعلم في عصر الأسيكيين-(1493-1591)، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ ، جامعة سيدي محمد بن عبدالله، كلية الأداب والعلوم الأنسانية ، شعبة التاريخ ،فاس ،المغرب، 1991، ص 158.

كما قام بارك بفحص تراب الذهب وكذلك قام بفحص صبغ الملابس القطنية بالنيلة وذلك من أجل الحصول على اللون الأزرق الممتاز، وحتى عندما سجن بارك وأحيط بالخيالة الذين جروا من خلفه وحاصروه والذين كانوا يدورون بنادقهم التقليدية من حول رؤوسهم كما لو كانوا يعذبون حيوانا متوحشا فقد هدأ بارك من روع نفسه، وذلك بتدوين الملاحظات عن الفروسية والحروب التي كانت تقع بين هؤلاء [1].

ومع ذلك فقد إنتظرته متعب فيما وراء الدول الوثنية الصديقة وقبل أن يبدأ بارك رحلته أعاد تجهيز نفسه بالإمكانيات المتواضعة المتاحة وذلك بمساعدة أحد التجار الأوروبيين .

وبعد ذلك واصل مسيره في داخل الممالك الإسلامية الكبيرة، التي كانت شعوبها تعمل على نشر العقيدة الإسلامية بين الشعوب الوثنية التي قاومت فيما بعد التوسعات البريطانية بل دارت معهم معارك كبيرة [2] ، والتي قال عنها بارك أنها لم تتخلص من التراث الوثني المتغلغل في العادات الأجتماعية [3].

ويتمثل هؤلاء المسلمون (أو المراكشيون) جزء من العرب وجزء من الزنوج الذين كانوا يحكمون بمعرفة سلاطين أو أمراء، وعلى الفور مر بارك من خلال مقاطعة يحكمها حاكم مسلم، وفي تلك الأثناء تعرض للهجوم وللسرقة ، وهذا ما جعل بارك يعتقد أنهم يطارطونه فبالغ في وصف البربر بالوحشية وقسوة طباعهم [4]، وربما يرجع سبب العداوة إلى توجس العرب والبربر من طبيعة مهمة بارك ، بإعتبار أنهم تجار ويخافون على تجارتهم التي سيطرو عليها في إفريقيا جنوب الصحراء لقرون[5] وعند هذه المنطقة أعلن خدمه الزنوج أنهم لن يستطيعوا

---

[1] .س. هوارد:أشهر الرحلات إلى غرب إفريقيا ،ترجمة :عبد الرحمان عبد الله الشيخ ،ط1،الهيئة المصرية للكتاب ،1996،ص93.

[2] . إلهام محمد علي ذهني :المرجع السابق ، ص176. - أنظر ، فيج ،جي، دي: المرجع السابق، ص271.

[3] .س هوارد : المرجع السابق ، ص 28.

[4] . Frank McLynn. Hearts of Darkness The European Exploration of Africa. (New York: Carroll & Graf Publishers, 1993), 324.

[5] . إبن حوقل: مصدر سابق، ص 78.

- ياقوت الحموي : مصدر سابق ، ص95.
- مؤلف مجهول: الأستبصار في ممالك الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبدالحميد ، جامعة الأسكندرية ، مصر، 1958، ص 213.

. المقري ، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب في ذكر لسان وزيرها إبن الخطيب،ج5، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ،1978 ، ص 205.

الذهاب أبعد من ذلك لخوفهم من وقوعهم فريسة في أيدي تجار الرقيق لهذا أضطر بارك إلى مواصلة السفر بمفرده.وقبل أن يعبر منجو بارك الحدود بين دولة الزولى ودولة البوندو شاهد مباراة في المصارعة بين بطلين، ولاحظ بارك في تلك الأثناء قرع الطبول [1] التي بواسطتها تنتظم ألعابهم على أي مقاس وعند الرقص الذي يعقب المباراة تواصل هذه الطبول القرع ..... كي تحفظ النظام بين المتفرجين حيث كانوا يقومون بتقليد بعض من جمال الماندنجو وهكذا فقد إكتشف بارك حقيقة مفادها أنه طالما أن القرع على الطبلة يشبه اصواتا للغة بسيطة فإنها واضحة ككلمة منطوقة لأي أحد واحد يفهم اللغة [2] ، كما تحدث عن عن عادتهم مثل عدم تعودهم على البرد ، وإستخدامهم السحر والتمائم والتعاويذ [3] ، وعن عادات ملوكهم [4] .

ولو أن خدم بارك أسرعوا بالعودة فكان من المحتمل نجاتهم من الأسر، ونظرا لأنهم لم يفعلوا ذلك فقد أسرهم، ولم يتمكن بارك من مساعدتهم لوقوعه هو أيضا في الأسر وعاد بارك من الطريق الذي تبعه عند الحدود .

ويبدو أن وقوعه في الأسر والسجن جعلت منجو بارك يصف تلك الفترة أنها الأسوء على الإطلاق في حياته ودون الكثير من المعاملات التي لعبها في السجن بصفته مسيحي أحيانا وجاسوسا أحيانا أخرى .

والسمة الوحيدة التي بدأ أنهم يقدرونها فيه هي لحيته الحمراء الوقورة، وفي هذا الصدد يقول بارك مانصه :"أعتقد في نفسي أنهم رأوا في هذه اللحية وقارا بالنسبة لي كمسيحي وبعبارته :

[1] . محمد بن عمر ، التونسي : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد بلاد العرب والسودان ، تحقيق ظليل محمود عساكر،ومصطفى محمد مسعد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف،والترجمة، القاهرة، مصر ،1965،ص 169.

[2] . محمد بن عمر التونسي :المرجع السابق، ص93

[3] . س ،هوارد : المرجع السابق، ص 75.

[4] . جوزفين كام: المرجع السابق: ص92..

« I think in my conscience he wrote they thought it too good a beard for a ceristian »[1] .

وبعد ثلاثة شهور تقريبا قرر بارك أن فرصته الوحيدة في الحياة هي الهروب يقول في هذا الصدد: " أنني لو ذهبت إلى الأمام بمفردي فإن ذلك يعني أنني سوف أواجه صعوبات جمة .... ومن ناحية أخرى فإن عودتي إلى إنجلترا دون أن أنجز هدف يعني سوف يكون أسوء من الحالة الأولى وبعبارته [2].

ولهذا تستر في أحد خدمه السابقين- وهي من عوامل نجاته ونجاحه - [3] و الذي تصادف أنه في نفس الوقت كان مسجونا حيث تمكن من الهرب ،وواصل منجو بارك مسيره بصعوبة لمسافة ميلين وعند ذلك سمع طلق ناري وقفز علية ثلاثة من قطاع الطرق وهم يصيحون ويلوحون بأسلحتهم أو ذات الماسورتين [4].

ومن حسن الحظ أن هؤلاء أرادوا أن يسرقوه، ولم يرغبوا في أخذ (بارك) أسيرا أو سجينا بل رغبوا في الحصول على حزمة صغيرة كانت معه بها قليل من الملابس، وبعد ذلك تركوه وحال سبيله.

وكان بارك في حالة شديدة من الضعف بسبب الجوع والعطش والحمى ، بل انتابته الهواجس بصفة مستمرة، بسبب خوفه من وقوعه في الأسر مرة ثانية، لهذا ناضل بارك طوال هذه المرحلة حيث كان متوجها إلى الجنوب الشرقي، وفي شهر جويلية عام 1796م، إلتحق بجماعة من الهاربين من بطش قطاع الطرق، وصحبهم إلى السوق الكبير في مدينة سيجو

---

[1] . De Villiers and Hirtle,: Heinrich Barth. Travels and Discoveries in North and Central Africa. (NY: Drallop, 1896, vol 3), p248.(PDF).

[2] . جوزفين كام :المرجع السابق :ص94

[3]. الحافظ عبدالكريم سليمان: المرجع السابق ، ص 183.

- الباروني عيسى أيوب: المرجع السابق ، ص 153.

-جون أليف : المرجع السابق ، ص 226.

[4] . جوزفين كام :نفس المرجع ، ص94.

(segu) الواقعة على نهر النيجر وفي النهاية رأى منجو بارك نهر النيجر العظيم بعد بحث طويل تتلألأ مياهه تحت أشعة الصباح [1].

و نهر النيجر متسع مثل نهر التايمز (Tames) الموجود في وستستر(Westminster)، وتتدفق مياه نهر النيجر ببطء في إتجاه الشرق، وقال بارك "أسرعت إلى الحافة، وشربت من مياهه ونهضت وقمت بالشكر بحرارة في صلاتي إلى الحاكم الأعظم لكل الأشياء، وعند هذه النقطة كللت مساعي ..... بالنجاح " [2] .

لقد نجح منجو بارك في حل واحدة من المشاكل التي حيرت الجغرافيين في أوروبا، فقد ثبت أن النهر يتدفق من الشرق وليس من الغرب، لتبدأ طلائع الأستعمار الأوربي الحديث في إفريقيا جنوب الصحراء [3] ، وعند هذا الحد كان منجو بارك متعبا، ومرتديا زيا عبارة عن خرق بالية ولكن مع ذلك كان لايزال متمسكا بالقبعة الطويلة التي كان يحتفظ فيها ملاحظاته السابقة.

تمكن منجو بارك من قطع مسافة طويلة طولها 100 ميل، بطول الشاطئ الشمالي للنهر، فقد بذل جهدا كبيرا كي يتتبع مجراه، وفي ذلك الوقت كان فصل الأمطار قد بدأ وأرتفع بذلك منسوب ماء النهر بصورة مخيفة .

ولم يعد مع بارك أموال لكي يواصل سيره ، كان عليه أن يتوغل أكثر وبالتالي كان عليه أن يتعلم لغة جديدة في تلك المناطق التي كان ينوي النزول قد إستأ لإستكشاف التركيز النيجر لهذا يحظى عن هدفه، وواصل المسير لمدة 12 يوما إلى تمبكتو [4].

وقد عاد بارك من هذه الرحلة وهو في غاية الضعف و الضيق ، وكان في أثنائها مضطربا، ومع ذلك فقد كان عليه أن يقطع مسافة طولها 300 ميل تجاه الغرب، حتى يصل إلى كماليا (Kamalia) وقد خابت أماله بدرجه كبيرة [5].

لقد إستضافه تاجر مسلم يدعى كارفاتورا (Karfatoura) مدة سبعة شهور، ولم يكن بارك

---

[1] . نفس المرجع، ص94

[2] . وداد نصر محمد السيّد الطوخي : المرجع السابق، ص13.

- جوزفين كام : نفس المرجع ، ص95

[3].حسن الناطق تاج السر بشير: المرجع السابق ،ص241.

[4] . جلال يحي: المرجع السابق، ص226.

[5] . جوزفين كام: المرجع السابق، ص95.

أثناء هذه المدة أسيرا ولكنه كان ضيفا شرفيا، وقد عالج هذا التاجر المسلم بارك من نوبة حمى إنتابته مدة طويلة، وعند ما شفي بارك تماما من مرض الحمى التحق بقافلة الرقيق التابعة لكارفا بحيث صاحبها منجو بارك مسافة 500 ميل، حتى وصل إلى نقطة البداية في غامبيا.

وهناك إستقبله أحد أصدقائه من التجار الأوروبيين، كواحد خرج من القبر وبعبارته " as one risen from the Dead" فمن مدة طويلة كان هؤلاء التجار الأوروبيون قد تخلوا عن بارك لإعتقادهم أنه فقد خشوا عليه أن يلقى نفس مصير هوفتون (Houghton) الذي كان قد أغتيل من قبل في نفس المنطقة.

وبعد ذلك، وصل منجو بارك إلى لندن، وكان ذلك في عام 1797م، ومن محاسن الصدفة أن يوم عيد رأس السنة الميلادية، وعلى الفور أخبر بارك السير جوزيف بانكس (Sir Joseph Banks) الذي كان فخورا بإنجازات بارك بدرجة كبيرة..... وعلى أثر ذلك قررت الجمعية الإفريقية The African Association أن تبقي بارك في خدمتها، حتى ينهي من كتابة مذكراته في صورة كتاب [1].

وبعد ذلك عاد بارك إلى إسكتلندا لمقابلة والدته التي أصبحت في ذلك الوقت أرملة (Widow). وقد عنون بارك كتابه بـ "رحلات في الأقاليم الداخلية من إفريقيا" والإنجليزية يكون هذا العنوان على النحو التالي "Travels in the interior districts of Africa" وقد نشر هذا الكتاب عام 1799م، وكان متداولا لدرجة كبيرة. كما ثبت أنه لا غنى عنه بالنسبة للمكتشفين التالين أو الذين أتوا بعد ذلك إلى إفريقيا [2].

تزوج منجو بارك إبنة الطبيب الجراح الذي درب بارك على مهنة الطب، بحيث أصبح بارك في ذلك الوقت يمارس هذه المهنة كطبيب وفي تلك الأثناء رغب بارك في ذلك الوقت يمارس هذه المهنة كطبيب، وفي تلك الأثناء رغب جوزيف بانكس رئيس الجمعية الإفريقية في أن يرسل منجو بارك إلى استراليا ،كي يكتشف داخلية هذه القارة المجهولة، ولكن بارك رفض هذه العرض والسبب في ذلك يرجع إلى زواجه [3] وهو يريد الإستقرار قليلا من الوقت المتبقي والإستراحة من المسافات البعيدة التي قطعها في إفريقيا الحارة كان بارك متفائلا جدا فقد قال

---

[1]. Marq De Villiers, and Sheila Hirtle. Timbuktu The Sahara's Fabled City of Gold. (New York: Walker, 2007), p244.(PDF).

[2]. جوزفين كام:مرجع سابق ص96.

[3]. نفسه: ص98.

مرة لأحد أصدقاءه " أن التفاؤلات تتبع الذين يبحثون عنها " [1] وربما هذا ما دفع محاولات بانكس إلى النجاح في إقتناع بارك بالعودة مرة أخرى إلى إفريقيا جنوب الصحراء وهذا التفاؤل نفسه ساعده على تحمل المشاق بصورة قوية بل وكان يثق كثيرا في غيره من الناس، ويتضح ذلك من تفسيره للمخاطر التي شرع في تنفيذها.وكانت خطته الرئيسية أن يسافر بالطريق البري من غامبيا إلى نهر النيجر[2] ، وبخاصة في فصل الجفاف وكان عليه أن يبحر هابطا من النهر عندما تسقط الأمطار ويرتفع منسوب المياه في النهر بحيث يكون في الإمكان عبور الشلالات.

ومن الملاحظ أن بعثة منجو بارك هذه المرة كانت على نفقة الحكومة البريطانية، ولم تتكفل بها الجمعية الإفريقية وفي عام 1804م، وقبل وقوع معركة الطرف الأخر بفترة قصيرة كانت الحكومة البريطانية قلقة من إمكانية غزو نابليون لإنجلترا، لدرجة إكتملت فيه الإستعداداالخاصة بهذه البعثة (بعثة بارك) أدرك بارك أنه من المؤمل فيه أن يصل إلى نهر النيجر وبخاصة عند بداية فصل المطر لو سار كل شئ طبقا للخطة [3] ، وفي تلك الأثناء لم يجرؤ بارك أن يطلب التأخير أكثر من ذلك، فمن المحتمل أنه كان فخورا لقيامه على رأس البعثة، وكان بانكس قد ذكر من قبل أنه من الممكن أن تكون هذه الرحلة واحدة من أعظم الرحلات التي تنطوي على مخاطر جمة وأضاف في قوله أنه من رأيه أن الأخطار لم تكن كبيرة لدرجة يصعب معها مواجهتها لأنه بدون مخاطر فإن الكشوف الجغرافية العظيمة لا يمكن أن تتم أبدا.

وفي بعض الأحيان تعرض بانكس [4] وزملائه للنقد بسبب المخاطر التي أودت بحياة الرجال الآخرين مع أن بانكس كان قد خاطر في شبابه وبكل سرور بحياته بسبب الإهمال العلمي، فلم يكن هناك بعثة قط يمكن أن يكفل بها قدر المعقول من الأمان، ولم يكن لدى بارك نفسه أية مشاعر أو أحاسيس ورغم أنه كان معروفا بتحفظه وهدوء طبعه فإن مشاعره نحو الثروة والنفوذ والرعاية أخذت كثير من إهتمامه في هذه الأيام حتى أنه كان دائما يخاطب بانكس في كل مراسلاته بكلمة "صديقي العزيز".

---

[1]. نفسه،ص98

[2]. جلال يحي: مرجع سابق، ص226.

[3] . جوزفين كام :نفس المرجع ، ص98.

[4]. وكان بانكس قد أسس الجمعية الإفريقية الخاصة بتنشيط حركة الكشف للمناطق المجهولة من إفريقيا

The association For promoting the discovery of the Interior parts of Africa in London in 1788, introduced a new era in Africa Exploration (2).

وفي عام 1830م، أدمجت الجمعية الإفريقية في الجمعية الملكية التي عرفت باسم The African Association The Royal Geographical Society

وفي 02 من شهر يناير عام 1805م، وصل منجو بارك إلى ساحل غرب إفريقيا ومن هناك كتب خطابا أرسله إلى منزله، وقد جاء في هذا الخطاب ما نصه "لو أن السيد جوزيف بانكس إستفسر عني أخبروه أنني أواصل عملي، بقدر ما تمليه على إرادتي، وأمل في أن أكتب خطابا أخر من منطقة نهر النيجر في الرابع من شهر يونيو من نفس العام" [1].

ولو سافر منجو بارك بمفرده، فمن المحتمل أن يصل إلى نهر النيجر مع بداية شهر يونيو وفي هذه المدة كانت تضم أكثر من 40 شخصا من الأوروبيين كان معظمهم من الجنود كما كانت تضم واحدا أو إثنين من الأصدقاء كما تضمنت أخو زوجته الذي يدعى الإسكندر أندرسون (Alexander Anderson) [2] وقد أدرك بارك أن السفر في أثناء فصل المطر سوف يكون له نتائج خطيرة بالنسبة للرجال البيض، الذين كانت تنقصهم مقدرة بارك وقوته البدنية غير العادية فعلى الفور صادف أفراد البعثة مصاعب جمة.

وفي نهاية شهر أبريل (من نفس العام) كتب بارك من جامبيا إلى بانكس" يؤكد عليه أنه في حالة سماعه إشاعات عن أحداث مؤسفة قد وصلته ، فينبغي عليه بقدر الإمكان أن يمنعها من الوصول إلى الجرائد كما يمنعها بكل الطرق من الوصول إلى أذان زوجته العزيزة أو أمه" [3].

وقد بدأت الأمطار في شهر يونيو وأستمرت حتى منتصف أغسطس ومع ذلك إستطاع إحدى عشر أوروبيا من الوصول إلى نهر النيجر، وأما الآخرون فقد ماتوا أثناء الطريق بسبب ضربة الشمس والحمى أو الدوسنتاريا ، وقد زادت أمال بارك عندما رأى النهر.

وعندما حقق الوصول إلى قمة الحافة التي تفصل نهر النيجر عن الأفرع البعيدة لنهر السينغال قال منجو بارك ما نصه: "لقد واصلت المسير إلى مسافة قليلة قبل ذلك، حتى وصلت إلى حافة التل، ورأيت أكثر من مرة مياه نهر النيجر تنساب في مجراه الواسع على طول السهل، ولم يتبقى سوى عدد قليل من أفراد البعثة على قيد الحياة لكي يشاركوه في هذه الفرحة، فقد مات منهم ستة أشخاص قبل الوصول إلى الجزء غير المستكشف من النهر وكان منجو بارك ينصب

[1]. Frank McLynn, op.cit , p16

[2] .جوزفين كام:المرجع السابق،ص99

[3]. Frank McLynn : op.cit , 324.

على شقيق زوجته الذي كان ضمن الستة أشخاص المتوفين، ولم تحدث أي حادثة طوال الرحلة حتى تضيف أقل قدر من الكآبة على تفكيري حتى رأيت شقيق زوجتي السيد أندرسون في قبره، ويقول منجو بارك ما نصه:"عندئذ أحسست بأنني تركت وحيدا وبدون أصدقاء للمرة الثانية في وسط أحراش إفريقيا [1].

ومهما كانت المشاعر التي تنتابه إلا أن جهوده لم تضعف، وبدا بارك للأحياء أنه في إمكانه الإنتقال إلى أي مكان على وجه السرعة وفي الوقت الذي كان يعتني فيه بمرضه كان يعيش على المؤن الجافة المنقوعة في الماء، هذا فضلا عن أنه كان يبعد الأسود التي تهاجمه كما كان يطارد اللصوص وربما شاهد ما سمعه من أساطير أمامه في الواقع وتعلم منها كيف يواجه الأعداء [2].

وفي أحد الليالي عبر منجو بارك نهر (النيجر) [3] ما لا يقل عن ستة عشر مرة كتمساح مندفع من تماسيحه ، وفي تلك الأثناء كان بارك يقوم بحمل الرجال (المرضى) والأمتعة وبعد أن أدى هذا العمل بمغامرة شديدة، سلم بأنه شعر ببعض التعب ، ولما رقد بسبب مرض الدوسنتاريا تناول دواء الكالوميل (Calomel) بكثرة: فعلى إثر ذلك لم يستطع الحديث، ولا النوم لمدة ستة أيام بلياليهم، ومع ذلك فقد شفى بارك من هذا المرض تماما، وبدأ في تشييد سفينة مسطحة تصلح للمسير في المياه الضحلة، وكانت تعرف هذه السفينة باسم إسكونر (Schooner) ،وقد تم بناؤها من بقايا قاربين وجدهما ، وساعده في هذا العمل في بناء هذه السفينة الذي إستغرق ثمانية

---

[1] . De Villiers and Hirtle op.cit , p 470.

[2]. الحسين الحسيني معدّي : المرجع السابق، ص165.

[3] . Edwards Amasa Park, Encyclopedia Britannica (1911) Mungo Park Retrieved November 1, 2007.www. Encyclopedia Britannica.com/23/11/2014.

عشر يوما ، ويبدوا أن مرافقيه كانوا على دراية ببناء القوارب التي تقاوم حركة المياه النهرية وهو مايفسر قدرة القارب الذي صنعه بارك لمواصلة السير لمسافات طويلة [1].

وقبل أن يغادر منجو بارك هذا المكان أرسل دليله الماندينجو(Manding guide) .إلى غامبيا وهو يحمل تقريره وخطاباته ،وقد كتب بارك إلى جوزيف بانكس يقول: "أن مرشده الجديد، المدعو أمادي فاتومي (Amandi Fatoumi) يقول أن نهر النيجر بعد أن يمرض كاشنا (Gashna) يسير مباشرة إلى الجانب الأيمن أو إلى الجنوب ،ولم يسمع بعد ذلك من أي شخص أنه رأى نهاية هذا النهر" وقد أعطت هذه المعلومات الدليل الواضح عن إنحناء نهر النيجر الجنوبية.

كتب بارك إلى وزارة المستعمرات: " يخبرها بأنه يأخذ على عاتقه مواصلة العمل حتى إن منجو بارك كان شخصية غير عادية، شخصية تغلب عليها الجرأة والجسارة والإصرار على ضرورة نقل جغرافية إفريقيا إلى أوروبا ويتضح ذلك من قوله "....ينبغي علي أن لا أهلك في رحلتي كما ينبغي أيضا أن لا تهلك معي كل أمالي وتوقعاتي وينبغي علي كذلك أن أنقل جغرافية إفريقيا بحيث تصبح أكثر ألفة لأهل بلدي... وأن أفتح أمامهم مصادر جديدة للثروة والتجار.. " [2].

والواضح من هذا التعبير أن الهدف من الكشف ليس في حد ذاته يقصد الكشف ولكن الهدف هو إستغلال موارد إفريقيا وجعلها سوقا رائجة للصادرات الأوروبي، وكان بارك شخصية جسورة وجريئة، والدليل على ذلك أنه عندما قابل ملك الوولى الذي حذره من الذهاب أبعد من مملكته خشية أن يلقى نفس المصير الذي لقيه من قبله (الميجور دانيال هوفتون) [3].

[1]. فضل كلود : الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لأمبراطورية كانم (600-1000هـ/1200-1600 م)، منشورات كلية الدعوة الأسلامية ، الجمهورية الليبية الشعبية ، 1964، ص 98،99.

[2] . Frank T. Kryza. The Race for Timbuktu - In Search of Africa's City of Gold. (New York: Ecco, 2006), 141

[3]. جوزفين كام: المرجع السابق ، ص101.

إلا أن منجو بارك أصر على الذهاب إلى أقصى نقطة يمكن الوصول إليها [1] النهاية ، وعلى الرغم من أن كل الأوروبيين الذين كانوا برفقتي قد ماتوا. ورغم أنني كنت نصف ميت. إلا أنني أواظب على العمل، وإذا لم أستطع أن أحقق هدف رحلتي بنجاح فإنما سأكون على أقل تقدير قد أدركني الموت على ضفاف نهر النيجر[2].

وفي التاسع عشر من شهر نوفمبرعام 1805م، شرع بارك في السفر بجوار الهند، ووصل إلى مدينة سان ساندينغ (San Sanding)، وكان برفقته ضابطا واحدا، وهو الملازم ثان مارتن (Lieutenant Martyn) وثلاثة جنود، وكان واحدا منهم نصف مجنون، وهذا فضلا عن ثلاثة عبيد من الإفريقيين وهو ما يدل على هذه التجارة في ذلك الزمن [3].

وفي العام التالي وصلت إشاعات، ولكن لما وصل أمادي (فاتومي) إلى الساحل عقب ذلك فأعطى ملخصا عن القصة (قصة بارك) فقال أنه عندما كان يحاول شراء المؤن علم بالكارثة من أحد الأفارقة الذين ظلوا على قيد الحياة، وفي السنوات القليلة التالية سدت بعض الثغرات في هذا الموضوع بمعرفة المستكشفين الآخرين، ولكن ذلك فأن القصة الكاملة لم تعرف بسد .

وقد نجح بارك في الوصول إلى مملكة اليوري (Yauri) بعد أن قطع مسافة تبعد عن نقطة البداية بـ 1000 ميل، وقد وصف بارك وهو في منتصف الطريق الجانبي الشرقي من النهر الضخم ويمثل هذا العمل من جانب منجو بارك في حد ذاته عملا كبيرا في مجال الملاحة إذ لم تكن خرائط ثابتة تدل على شبكات الطرق النهرية [4] ، فوصف المظاهر الطبيعية التي تحيط بالنهر، بأنها منطقة منبسطة التضاريس، وبالفعل فاالقارة الأفريقية بصفة عامة تتميز ببناءها الجيولوجي البسيط نسبيا مقارنة بباقي القارات [5].

ولسوء الحظ فإن بارك أهمل أن يقيم علاقات صداقة مع الشيوخ المحليين الذين كان بارك يمر من خلال أقاليمهم ، ومن المحتمل أن يكون السبب في ذلك راجع إلى منجو بارك كان متسرعا في إنجاز مهمته، بينما كان لايزال لديه قوة كافية، وقد سبقته التقارير التي كتبت عن

---

[1]. نفس المرجع، ص117.

[2]. الطيب عبدالرحيم الفلاتي : المرجع السابق، ص 253.

[3]. شوقي عطا الله الجمل :الحضارة العربية الأسلامية في غرب إفريقيا ، - سماتها وعوامل إنتشارها- ، مجلة الدراسات الإفريقية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية،العدد8 ،جامعة القاهرة ، مصر ، 1969، ص46.

[4] .Catherine Coquery-Vidrovitch: .Des frontières en Afrique du XIIe au XXe siècleBamako, 1999، Publié par l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture، STEDI-MÉDIA , Paris 2005، .p39

[5] . أحمد بوعتروس : المرجع السابق ،ص 18.

قدوم رجل أبيض كافر(aninfidel white man) لذاك نجده عندما يصل إلى شلالات بوسا يقع في (Ambush)، شرك ومن الممكن أن تكون السفينة السكونر (Schooner)، قد إرتطمت بصخرة أو هوجمت من جانب السكان المحليين [1]، وأن طاقمها دافعوا عن أنفسهم .

عند هذا الحد أصبح الموقف ميئوس منه ومن المحتمل أن يكون كل من بارك ومارتن وواحد أو كل أفراد البعثة قد جرحوا، لذلك أضطروا جميعا إلى القفز في الماء بهدف الهروب من موت محقق، عندئذ غرق جميع الرجال.

ومات بارك، وهو على بعد مسافة 720 ميل من هدفه، وقد وقعت الحادثة مع أن البعثة كانت قد بدأت مهمتها في الموعد المحدد فلو كان بارك قد سلك في أسلوبه العادي أسلوب الصداقة ولو كان أكثر دبلوماسية في معاملاته مع الشيوخ الوطنيين، فمن المحتمل جدا أن يكون قد نجح ، لكن من كتبوا عن مغامرات الرحالة الأوربيين وصفوا القبائل الإفريقية بأنه " ليس لهم تاريخ أو حضارة قبل الاستعمار الأوربي "[2] ، ولكن مع ذلك فإن إنجازاته كانت علامة بارزة (على الطريق) ويعد بارك الأوروبي الأول الذي وصل إلى نهر النيجر ولاحظ أن منبع هذا النهر يقع في مكان ما ، عند المنحدرات الشرقية للجبال التي تشكل الحد الشمالي لما يعرف في الوقت الحاضر بدولة سيراليون.

وكان بارك قد أبحر في النهر لما يزيد عن 1000 ميل، وأعطى الدليل الأول عن إنحناءاته الجنوبية، ولكن على الرغم من أنه لم يعط الإجابات الكاملة لكل الأسئلة المطروحة، إلا أنه فتح الطريق أمام الآخرين من المستكشفين كي يجدوا حلا لهذه المشكلة [3] ، فكان عمل بارك مساهمة ضمن الكشوف الأوربية في إدماج إفريقيا في عالم المعرفة و النظام الأقتصادي العالمي [4] ، وإزالة الأوهام التي ظلت تغذي الأدب الأوروبي بالخيال [5] ، فمناطق إفريقيا الداخلية قبل القرن التاسع عشر كانت شبه مجهولة ، فقدم بارك مساهمة كبيرة لجعل الجزء المجهول معروفا [6] .

---
[1]جوزفين كام: المرجع السابق ، ص102
[2]. محمود السيد :تاريخ إفريقيا القديم والحديث ،ط1،مؤسسة شباب الجامعة ،الأسكندرية ، 2006،ص06.
[3] . جوزفين كام: المرجع السابق، ص103.

[4]. Frank McLynn: op.cit , p09.

[5] . Frank T. Kryza op.cit,p 40.

[6] . Frank McLynn: op-cit , p10.

ثانيا - الكسندر جوردون لينج Mayor Alexander Gordon laing :(1794- 1826):

1- المولد والنشأة:

ولد لينج في ادنبره (أسكتلندا) تلقى تعليمه على يد والده ، وليام لينج ، إنظم إلى الجيش البريطاني ككاتب لدى خاله العقيد جبريل غوردون ، وحصل على رتبة عام 1813 تمت ترقيته في عام 1815 وفي 1822 انتقل إلى سلاح المستعمرة الملكية الأفريقية كنقيب في ذلك العام ، بينما كان مع فرقته في سيراليون التي أنشئت لتكون مستعمرة للعبيد المحريين [1].، تم إرساله إلى بلاد قبائل الماندينغ ، مع هدف مزدوج وهو فتح التجارة والسعي لإلغاء تجارة الرقيق في تلك المنطقة وسعى للوصول إلى منبع نهر النيجر، إلا أنه تم إيقافه من قبل السكان الأصليين ومع ذلك تمكن من تحديد موقعه بدقة تقريبية.

وكان طموح لينج هو أن يكون الأوروبي الأول الذي يرى تمبكتو وقد طلب الحصول على تصريح فرفض طلبه، ولكن في عام 1821م سمح له بالحصول على التصريح الذي يخول له قيادة بعثة صغيرة إلى الداخل (داخل إفريقيا) .

من أجل البحث عن منابع نهر النيجر وقد تمكن من تحديد أماكن على الرغم من عدم وصوله إليها، كما أنه وصل إلى نتيجة لم يستطع برهنتها وهي أن لا يوجد هناك إمكانية تدل على أن النيجر والنيل يمكن أن يكونا نهرا واحدا.

2- رحلته إلى تمبكت:

كان لينج يعتقد أنه قد وجد منبع نهر النيجر، وأراد أن يسافر على طول النهر إلى دلتاه ، دعم مشروعه جوزف بانكس، رئيس الجمعية الأفريقية ، على أمل أن الحملة سوف تكشف عن موقع تمبكتو ، وتم تكليف الكابتن لينغ بالقيام برحلة عبر طرابلس وتمبكتو، لزيادة المعلومات حول

[1]. جوزيفين كام : المرجع السابق ، ص68.

المساحة النهرية في حوض النيجر، غادر لينغ انجلترا في فيفري 1825، وقد خطط بنفسه للقيام بمغامرة إلى تمبكتو ، لمواجهة عوائق اللغة والطقس والأمراض ومقاومة السكان [1].

وفي طرابلس في 14 جوان تزوج ابنة القنصل البريطاني هناك ، بعد ذلك بيومين ترك عروسه وراءه وبدأ في عبور الصحراء، يرافقه الشيخ الذي أُتهم في وقت لاحق بتخطيط مقتله.

وصل لينغ إلى غدامس، بطريق متخذا طريقا غير مباشر جنوب تونس والجزائر ، في أكتوبر 1825 وصل في لينغ إلى عين صالح في الجزائر ، حيث لاقى استقبالا حسنا من قبل سكان منطق توات ومنهم الطوارق ، في 10 جانفي 1826 ، غادر توات ومتوجها إلى تمبكتو عبر صحراء تنزروفت [3].

وذكرت رسائل كتبها في شهر ماي معاناته من الحُمى ، وتعرض القوافل إلى النهب من قبل قبائل الطوارق ، أصيب لينج حيث وصفها بجروح في 24 موضع في القتال، وتمكن مع شخص أخر من النجاة بعد أن فقد يده اليُمنى.

انضم إلى قافلة أخرى ووصل إلى تمبكتو، ليصبح بذلك أول أوروبي يعبر الصحراء من الشمال إلى الجنوب ، رسالته المؤرخة من مدينة تمبكتو في 21 سبتمبر أعلن وصوله إلى تلك المدينة في 18 أوت ، وأشار في رسالته إلى انعدام الأمن وشعوره بأنه سيقتل نظرا لعداء حاكم مدينة تنبكت [4].

وأضاف أنه يعتزم مغادرة تمبكتو خلال ثلاثة أيام ، ولم ترد انباء أخرى من الرحّالة ، وكل المعلومات التي تم تجميعها في وقت لاحقتؤكد أنه غادر تمبكتو في اليوم الذي خططه ، لكنه قتل في ذلك اليوم أي ليلة 26 سمتمبر 1826 وهو 32 عاما ، ومع الأسف لم يقدم لنا معلو ات تاريخية عن التراث الإسلامي في إفريقيا لسببين الأول لأنه لم يمكث طويلا بالمدينة ، والثاني ربما كتب لكن ضاعت ولم تصلنا ، وفي عام 1903، وضعت الحكومة الفرنسية لوحة تحمل اسم لينغ وتاريخ زيارته لتمبكتو على المنزل الذي شغله خلال إقامته أي 38 يوما.

---

[1]. مرتضي سعد الدين الأمين : الصراع بين الأسلام والنصرانية في سيراليون في القرنين (الثامن عشر والتاسع عشر)، رسالة ماجستير ، كلية الأداب ، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان، نوفمبر2012، ص 35.

[3]. الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا في وراء الصحراء في نهاية القرن الخامس عشر ، إلى بداية القرن الثامن عشر ، ط2، طرابلس ، 2001، ص 97.

[4]. جوزفين كام:المرجع السابق: ص 145

-ثالثا: الرحّالة: هنريش بارث (1821 - 1865)(heinrich borth) [1] :

ويعتبر بارث واحدا من أعظم المستكشفين الأوروبيين في أفريقيا، كما يصنف ضمن العلماء، لأنه ملك القدرة على التحدث والكتابة باللغة العربية كثير من اللّغات ألإفريقية، تميّزت كتاباته بالطابع العلمي فهوه موثّقة بدقة التفاصيل من االمناطق التي زارها.

وكان من بين أول من فهم استخدامات التاريخ الشفوي للشعوب، وجمع كثيرمنها . أنشأ صداقات مع الحكام والعلماء الأفارقة خلال السنوات الخمس التي قضاها في السفر (1850-1855) ألف من أسفاره خمسة مجلدات باللغتين الإنجليزية والألمانية [2] وصفه علماء عصره بأنه لا يقدر بثمن ، حيث عرف بأفكاره الصارمة و الأخلاق والانضباط الذاتي [3].

تعد بعثة بارث من أهم البعثات الأستكشافية الذي تمكن منزيارة قسم كبير من النيجر ، وإستمرت رحلته لمدة خمس سنوات ، زرا خلالها مدن كثيرة من الصحراء الكبرى، وكانت رحلته بين عامي (1850و1855) ، سجل ملاحظات ضخمة ووصف فيها القبائل والمدن التي زارها وصفا دقيقا [4].

لقد فقد أفراد كثيرون حياتهم بسبب البحث عن نهر النيجر، لذلك فأنه بعد موت ريتشارد لاندر تم تحذير المكتشفين، بألا يضحوا بحياتهم في مخاطر غير ضرورية من أنه كان لا يزال هناك مناطق لم تكتشف بعد في منطقة النهر(أي نهر النيجر) .

وفي المناطق المجاورة لحدود الصحراء، ولكن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وجد أشهر ثلاث رحالة، كان اثنان منها من الألمان، هما العالم هنريش بارث (Scientist Henrich Barth) و جرارد رولفس (Gerhard Rohfls) الذي بدأ حياته في إفريقيا

---

[1] . جلال يحي: المرجع السابق ، ص228.

[2] .Barth, Heinrich (1862–1866). Sammlung und bearbeitung central-afrikanischer vokabularien; Collection of vocabularies of Central-African languages (3 Volumes) (in German and English). Gotha: Justas Perthes. Volume 1, Volume 2, Volume 3.(PDF).

[3] . Frank T. Kryza op-cit: , 141

[4].شوقي عطاالله الجمل ،عبدالله عبدالرزاق : تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر ،ط1، المكتبة المصرية للمطبوعات ، القاهرة ، 1986،ص 28.

بالعمل في الكتيبة الفرنسية التي تعمل بالخارج، وأما الثالث فكان رجل فرنسي يدعى لويس جوستاف (Louis Gausteve Binger) .

ولد هنريش بارث في عام 1821م في هامبورغ، وأكمل دراساته في جامعة برلين وزار بعد ذلك إفريقيا للمرة الأولى وفي عام 1849م، إنضم تحت رعاية البعثة البريطانية التي أرسلت لتقوم بكشف المنطقة الواقعة جنوب الصحراء، وهناك زار الممالك الإسلامية، وقد قاد هذه البعثة رجل إنجليزي ويدعى جيمس ريتشاردسون، والذي كان برفقة أيضا رجل ألماني يدعى(لودويج أفرويج).

وكان بارث هذا الشاب على قدر كبير من التعليم ولهذا كان لديه مقدرة لتعلم اللغات، فقد تعلم الإنجليزية والعربية، كما لم تكن لديه صعوبة في إتقان لغات الشعوب الإفريقية المختلفة [1] .

وكان بارث يعمل على تحقيق المعرفة أكثر من رغبته في حب المغامرة، التي دفعته إلى الإلتحاق ببعثة ريتشاردسون، وكان قويا لدرجة كبيرة ومع ذلك كان مرنا، ولكن عندما تدعو الحاجة إلى الشدة كان عليه أن يثبت أنه يجمع بين الشجاعة وسعة الحيلة (Resourceful) [2] .

غادر طرابلس في بداية عام 1850م فقد عبرت بعثته الصحراء، ووصلت في خلال شهر إلى واحة مرزوق، وقد خطط أفراد البعثة لمواصلة المسير تجاه الجنوب، مارين من خلال غات وأغادس لكي يصلوا إلى مملكتي كانو، وبورنو.

وفي النهاية وصلت البعثة إلى غات التي كان قد زارها من قبل كل من أودني وكلابرتون عام 1822م، وفي الوقت الذي كان فيه بارث متعبا ونافذا الصبر إنطلق بمفرده ليتسلق صخرة عالية، ورغم ثقته بنفسه، إلا أنه ظل طريقه في أراضي رمليه في الصحراء.

بحيث ظل بمفرده لما يزيد على 24 ساعة، عانى خلالها ألام العطش، فأضطر لفتح وريد من جسمه وشرب بعض من دمه، وكان سيهلك لو لم يعثر عليه أحد أفراد قبيلة الطوارق، الذي بدافع إنساني حمله على ظهر جمله إلى المعسكر، وتساءل ريتشاردسون متعجبا، لقد مكثت أنت يا بارث في الصحراء 24 ساعة بدون مياه، لذا يمكن لأفراد الجماعة أن تصدق بصعوبة أنك على قيد الحياة ،وقالوا أنه لا يمكن لأي فرد أن يحيا بدون مياه لمدة أكثر من 12 ساعة عندما يضل

[1] . جوزفين كام: المرجع السابق: ص171.
- He had no difficulty in mastering the language of various African peoples .
[2]. جوزفين كام: المرجع السابق: ،ص176.

طريقه في الصحراء خلال حرارة الصيف وهذه المناطق صعبة والحياة الاقتصادية ضعيفة جدا وهوما جعل الباحثين يصفون الحياة البشرية فيها بأنها منحطة [1] .

وقضى أفراد البعثة أسبوعا في غات، ولكن لم يمض وقت طويل على مغادرتهم غات، إلا وقد أسرتهم جماعة طوارق فأستولت على هذه الجماعة على ثلث المؤن والأمتعة، التي كانت بحوزة أفراد البعثة قبل أن تطلق هذه الجماعة سراحهم، وبعد ذلك إنقسمت البعثة إلى قسمين قسم برئاسة بارث [2] الذي كان عليه الذهاب إلى كانو وقسم تحت رئاسة ريتشاردسون الذي كان عليه الذهاب إلى مدينة زندرالواقعة إلى الشمال من كانو والخاضعة إسميا إلى مملكة البورنو[3].

وكان أفرويج قد إتجه إلى بحيرة تشاد، وكتب ريتشاردسون بكتابة نصه :"لقد ترك كل منا الأخر، وهو يحمل معه بعض الإنفعال، وقد تفرق هؤلاء الرحالة في وسط إفريقيا وساروا في طرق مختلفة، وكان من الصعب عليهم أن يضعوا في حسابهم أنهم سوف يلتقون مرة ثانية.

وكان ريتشاردسون هو الشخص الوحيد الذي فشل في الوصول إلى مكان المتفق عليه، فكان قد وصل إلى زندر في الرابع من شهر يناير عام 1851م وهناك إنزعج من التقاليد البربرية التي يعضدها السلطان المحلي والتي تتمثل في معاملة العبيد.

كان السلطان هو الذي عين نفسه جلادا، بحيث كان يقوم بقتل صحباه، وذلك بفتح شروخ في صدورهم ثم يقومون بتمزيق قلوبهم وإخراجها من صدورهم وكانت عمليات الإعدام مستمرة وفي ذلك الجو الكئيب مرض ريتشاردسون ومات [4].

وفي تلك الأثناء وصل بارث إلى مدينة كانو وهو في حالة تعب شديد، ولكن نزعته لخلق صداقات ولمعرفته باللغات جعلاه يستغيث الأمير، وعندما أنهى بارث فحصه للمدينة (مدينة كانو)، قدم له الأمير هدية كانت عبارة عن 60.000 كاوريز* .

---

[1]. نعيم قداح: المرجع السابق، ص 14.

[2]. وداد نصر محمد السيد الطوخي : المرجع السابق ، ص 13.

[3]. مفتاح يونس رياض: العلاقات بين بلاد المغرب ودولة كانم –برنو، القرن السابع والعاشر الهجريين/الثالث السادس عشر الميلاديين ،رسالة دكتوراه، قسم التاريخ –معهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة 2005/2004، ص86.

[4]. جوزفين كام: المرجع السابق: ص177 - 178.

*عبارة عن عملة كانت تستعمل في هذه المنطقة.

وتمكن بارث بهذه النقود أن يشتري جمالا لتقله إلى بورنو ، حيث كان يهدف من وراء ذلك إلى إستقصاء أحوال تجارة المملكة [1]، وكانت رحلته مليئة بالمخاطر، لذلك كتب بارث يقول في هذا الصدد ما نصه: "... بالأمس كان الطريق معرضا للصوص وكان لدي خادما واحدا فقط كنت أعتمد عليه، فهم الذي كان في حقيقة الأمر يلازمني عندما كنت على غير ما يرام، أي عندما كنت لم أتمكن من النهوض من فراشي، وعلى الرغم من ذلك فقد كنت مملوءة بالثقة.

وقد وصل بارث إلى كوكا(Kuka)[2] قبل شهر من وصل أفرويج إليها، ولما علم بارث لموت ريتشاردسون تولى هو مسؤولية قيادة البعثة وقام بتنفيذ مخططه لبحيرة تشاد، وكتب بارث عن خصائص هذه البحيرة يقول ما نصه: "...من الواضح أن هذه البحيرة تتميز بالضخامة، بحيث تتغير حدودها كل شهر لذلك يكون من غير الممكن رسم خريطة دقيقة لها، وفي الواقع كنت قد رأيت في هذا اليوم (يوم الرابع والعشرين من شهر أبريل عام1851م) أن الأراضي التي تحيط بالبحيرة أراضي منخفضة وكلها مستنقعات، وعلى الفور أصبحت مدركا أنه من المستحيل تماما القيام بعملية مسح شاملة لشواطئها حتى ولوا سمحت لنا دول الأقطار المحيطة بها بالدخول إلى منطقة البحيرة كي نتمكن من القيام بعملية المسح الشامل" [3].

وأصبح بارث منزعجا بشكل متزايد عن أفرويج الذي كان مريضا ومكتئبا بحيث رأى عليه علامات الاختلال العقلي، ومع ذلك فإن الرجل الشاب (بارث) رفض أن يتخلى عن مهمته.

وبدأ الإثنان معا في الذهاب إلى يولا (Yola) الواقعة في الجنوب والتي تمثل المدينة الرئيسية لإقليم أداماوا حيث كانت عند أطراف مملكة سنغاي [4] ومن هناك واصلا الرجلان طريقهما إلى منابع نهر النبوى أكبر فروع نهر النيجر، والذي كان جزءه الأسفل فقط هو الجزء المعروف وفي يولا كتب بارث يقول ما نصه:

---

[1] . شوقي عبد القوي عثمان : التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك ، ط1 ، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ، مصر 2000.ص135.

[2] . احمد شلبي :المرجع السابق ص101.

[3] .جوزفين كام: المرجع السابق، ص 179.

[4] .حسن أحمد إبراهيم : بلاد السودان الغربي والأوسط في المصادر الإسلامية ،مجلة التجديد ،الجامعة الإسلامية ماليزيا ، العدد11، السنة06 ،2002، ص 101.

"أن البنوى تتدفق مياهه من الشرق إلى الغرب في مجرى عريض ويمر من خلال قطر مفتوح تماما، ويوجد في هذا القطر سلسلة متقطعة من الجبال الواقعة على مسافة بعيدة، ويضيف بارث في قوله:" ...لقد حددت الآن وبكل وضوح إتجاه وطبيعة هذا النهر العظيم، فقد نظرت نظرات طويلة وصامتة على هذا المجرى، ومرت بذلك لحظة من أسعد لحظات حياتي" [1].

ومن المحتمل أن يكون كشف أعالي البنوى مساهمة أساسية من بارث في مجال المعرفة الجغرافية [2] وبعد ذلك كان يريد الذهاب بعيدا إتجاه الجنوب، ولكن حاكم اليولا رفض أن يدعه يواصل السفر لذلك تتبع طريقه إلى كوكا بحيث قام برحلة قصيرة إلى الشمال من بحيرة تشاد وترك أفرويج يواصل فحصه للبحيرة وبعد ذلك شرع بارث في محاولة الوصول إلى المناطق الواقعة جنوب باجومان .

إكتشف بعد ذلك نهر شاري الواقع في بوجومان ولم يرى بارث أي شيء بالكامل رغم ما بذله من جهد وتنقيب في تاريخ المدينة هذا فضلا عن بحثه عن ظروفها الحاضرة وقد لاحظ أن حاكمها كان عليه أن يدفع جزية سنوية تقدر بمائة من العبيد إلى سلطان بورنو.

عندئذ عاد بارث إلى كوكا حيث وجد أفرويج مريضا ومختل العقل، وبعد ذلك بفترة قصيرة مات أفرويج وظل بارث الأوروبي الوحيد الذي ضل حيا ولكنه كان في حالة ضعف تام corap .etely destitute

وأتخذ بارث من موت صديقه فلسفة له حيث أعلن ما نصه :"...لقد عزمت على الفور في الشروع للقيام برحلتي إلى نهر النيجر، لمعرفة بلاد وشعوب جديدة "

فلم يثبط موت أفرويج من عزيمة بارث وكتب بارث خطابا أرسله إلى أهله جاء فيه ما نصه " وجدت قواي تتضاعف فشعرت بأنني عملاقا كبيرا وكنت غارقا في أحلام تحقيق النجاح، في مهمة بارك المستكشف الوحيد الذي أكن له إعجابا غير محدود.

وبعد أن حقق بارث هذه الإنجازات وصلت إليه من إنجلترا النقود والتعليمات التي تخبره بالتقدم على وجه السرعة نحو تمبكتو، فسافر بارث عن طريق سكوتو وساي الواقعة على نهر

---

[1]. جوزفين كام: المرجع السابق ،ص 179 - 180.

- Barth ‘(h)’travels and discoveries in north and central africa ,vo 13 ,London , 1859, p 263.

[2] . G. P. Murdock, Africa, its Peoples and their Culture History .new York, 1959, p 138. www ·*wikipedia.org12.11.2010 .*

النيجر وفي سكوتو إستقبله السلطان، الذي أعطاه بارث عددا من الهدايا التي تضمنت زوج من المسدسات المرصعين ترصيعا ثمينا، هذا فضلا عن منحه عباءة من الحرير الأحمر المخطوط بخطوط صفراء، وكذلك منحه بنطلون أحمر اللون، وثلاث من العمائم: وزوجين من أمواس الحلاقة، ونصف دسته من المرايا: وكان هذا السلطان هو إبن السلطان بللوا الذي رفض المعاهدات التجارية مع بريطانيا [1] والتي بسببها تحطمت مشاعر كلابرتون الذي مات كسير القلب. وقد عبر بارث عن أسفه بطريقة كلها تأثير عندما سمع عن الحادثة [2].

واقترب بارث من تمبكتو [3] مارا من خلال الطريق الذي تبعه الرحالة الفرنسي العظيم رينيه كاييه، فقد فعل بارث مثلما فعل كاييه، فقام بإرتداء الزي العربي من أن هذا المسلك كان مخالفا لضميره، ولكن بينما كان كاييه يهتم إهتماما كبيرا بالمحافظة على تنكره، نجد أن بارث كان يعتمد على (Relyon) ، الشيخ كابي وعند ما دخل بارث المدينة كان منهمكا القوى، وأنتابه اليأس بسبب عدم وجود شيء فيها ولما علم أحد أنباء الشيخ بدخول كافر مسيحي (أوروبي) إلى المدينة، أشاع على إثر ذلك إشاعة مفادها أن هذا المسيحي هو في الحقيقة إبن لينج، وقد أقسم هذا الإبن (إبن لينج) أنه سوف يقتل بارث، وفي أثناء هذه الأزمة مات هذا الرجل (إبن لينج) فجأة وفي غموض وقد استقبل أتباعه موته بأنه علامة على التدخل الإلهي كما تنص الأساطير الشعبية [4].

وكدليل على أن بارث يجب إلا يتعرض للأذى، وأرجعت العناية الإلهية للشيخ الباكي الذي أتاح الفرصة لبارث كان يؤكد الدقة المتناهية في تقرير رينيه كاييه عن رحلته (أي رحلة كاييه) إلا أنه لم يلبث أن علق بقسوة على عدم الدقة الكبيرة التي تميز بها تقرير كاييه، وكان بارث دائما كثير النقد للناس بخلاف منجو بارك فقد كان متسرعا في توجيه النقد إلى المستكشفين الذين سبقوه فيما يتعلق بعدم دقة ملاحظاتهم، وفي هذه المناسبة يقول بارث ما نصه: "...وبالإجمال فإنه وصف شكل منازل المدينة كانت تبدو متفرقة ومنعزلة، وكانت شوارعها في الواقع مغلقة

---

[1]. أحمد صقر سيد نجم : التنافس بين بريطانيا وفرنسا في منطقة خليج بنين (1861-1906)، رسالة دكتوراه، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة،1997، ص33

[2]. جوزفين كام: المرجع السابق: ص 180 - 181.

[3]. عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الاسقين المرجع السابق: ص101.

[4]. الحسيني الحسيني معدّي: المرجع السابق ، ص07.

تماما أي أن هذه المساكن كانت تشكل بصفة مستمرة صفوفا متعرجة" [1] ، فبقاء بارث على قيد الحياة في الواقع يتمكن من قضاء مدة طويلة تصل إلى ثمانية شهور، في تمبكتو [2] وفي الواقع

يرجع ذلك إلى علمه وإلى مقدرته على تكوين صداقات بحيث أن الباكي كان مسرورا لمقابلة الرجل الأوروبيين الذي تمكن من قراءة القران الكريم والذي تمكن من مناقشة مفاهيم الإسلام وكتب بارث ما نصه :"...أنا لم أتقدم إلى الإمام، دون أن أترك صديقا مخلصا من خلفي وهكذا تأكدت من أنني لو رغبت في أن أقتفي أثر خطواتي في السابقة فإنني من المحتمل أن أفعل ذلك بأمان [3].

وبعد أن غادر بارث تمبكتو أبحر هابطا مع نهر النيجر إلى مدينة (ساي) عندئذ سافر بالبر من خلال سكونو إلى بورنو، ولازال حتى ذلك الوقت يحمل معه أنواعا مختلفة من الهدايا المناسبة ففي كل مكان كان يقف فيه كان بارث يقدم مرآة إلى أجمل أمرأة أما باقي النساء فكن يتلمسن منه إبر الخياطة، وفي مرة من المرات طلب من بارث أن يرتدي ملابسه الأوروبية فأخرج من أمتعته بدلة سوداء ولبسها فأدت إلى خلق فكرة غير محببة عن الزي الأوروبي [4].

وكان قد وصل إلى علم بارث أن بعثة بريطانية أخرى في طريقها إلى أواسط إفريقيا ويرأسها عالم ألماني شاب هم الدكتور (إدوارد فوجيل) أو لم يمض وقت طويل على مغادرته كانو إلا وقد رأى شخصا ذو ملامح غريبة يتقدم نحوه كان هذا الشخص رجل شاب ذو هيئة جميلة، وكان مرتديا زيا مثل الزي الذي كان يرتديه بارث، فكان مرتديا على رأسه عمامة بيضاء ملفوفة بكثافة حول رأسه، وبرفقته إثنين أو ثلاثة رجال من السود، وكانوا ممتطين الخيول وقد أخبر أحد الأفارقة، وهو خادم سابق لبارث بأن الرجل الشاب هو المستر فوجيل Vogel الذي أندفع نحو بارث أصابت الدهشة كل من الرجلين وأستقبل كل منهما الأخر من على ظهر حصانه بحرارة شديدة [5].

وقد علم بارث أن فوجيل كان متضايقا لإعتقاده بأن بارث كان قد مات، وأنه أرسل تقريرا إلى أهله عن وفاته، وعندئذ قرر بارث أن يعود بنفسه إلى الوطن كي يثبت أنه لازال على قيد الحياة ، ولم يمت بعد ويعد ذلك تفرق الرجلان فكان على فوجيل أن يكمل إكتشافات بارث فأتجه

1- جوزفين كام: المرجع السابق، ص181 - 182.
2- جلال يحي: المرجع السابق، ص229.
3.جوزيفين كام :المرجع السابق ، ص182.
4. علي يعقوب : الثقافة الأسلامية في غرب إفريقيا وأثار الأستعمار فيها ، مجلة الجامعة الأسلامية ، النيجر ،2009، ص02.
5 جوزفين كام: المرجع السابق: ص182 - 183.

إلى جنوب بحيرة تشاد لكي يكتشف الأقاليم الوقع بين بحيرة ونهر النيل ووصل فوجيل أثناء رحلته عبر أفريقيا إلى بلدة واداي التي تقع في ثلث المسافة من النيل وهناك تم إغتياله، وبعد مقتله أرسل من أجله مالا يقل عن سبع بعثات للبحث عنه وإيجاده، وقد نجحت بعثة واحدة فقط من أصل سبع بعثات في الوصول إلى واداي، وكانت هذه البعثة تحت قيادة رجل ألماني يدعى فون بورمان وفي عام 1863م اغتيل بورمان أيضا [1].

وفي هذا الوقت عبر بارث الصحراء، إلى واحة مرزوق، ومنها إلى طرابلس ومن الأخيرة وصل إلى إنجلترا، وكان ذلك في خريف 1855م، بعد رحلة دامت أكثر من خمس سنوات، وتعتبر هذه الرحلة سجل للتحمل البطولي، حيث نتج عنها نتائج جغرافية عظيمة أو على جانب كبير من الأهمية وفي عام 1865م، ككافات الجمعية الجغرافية الملكية (The royal geographical society) بارث بميدالية الجمعية Patron’s Medal [2].

وحتى ذلك التاريخ فلم تتبع كشوفات بارث بمجهود كشفية أخرى، حتى أن بارث ظل غير معروف للعامة، ولكن فيما بعد جذب الإهتمام والإنتباه إلى الإكتشافات في شمال ووسط إفريقيا في الفترة مابين 1849 - 1855م.

Travels and discoveries in north and central africa 1849 – 1855.

وقد شرح بارث في هذا الكتاب العمل الضخم الذي قام به [3].

وفي هذا الصدد يقول ما نصه " تضمنت سفرياتي منطقة شاسعة من هذا القطر الذي يمتد فيما بين خطي عرض 24° شمال وجنوب خط الاستواء، ويمتد كذلك فيما بين خطي طول 20° إلى الشرق والغرب، بحيث تعتبر هذه المنطقة أعرض جزء من القارة الإفريقية، وقد اشتملت رحلاتي أيضا على موضوعات كثيرة ومتنوعة، فبعد أن عبرت الصحراء الشاسعة التي تتميز بالتربة والمناظر الطبيعية، صادفت أثناء سيري أراضي خصبة بها أنهار كبيرة، وصالحة للملاحة تمتد حتى بحيرات الوسط Extensive Central Lakes وتتزين هذه الأراضي

[1] . جوزفين كام :المرجع السابق ،ص183.

[2] . Constant Hamès**:** « Les manuscrits arabo-africains : des particularités ? », *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, p99-100 | novembre 2002, URL : http :// remmm. revues.org / index1182.html .31 mai 2010.

[3] . جوزفين كام: نفس المرجع، ص 182 - 184.

بأجمل أنواع الشجر، وتنتج أصنافا مختلفة من الحبوب Pruducing verious species of grain مثل الأرز، السمسم، والفول السوداني، الذي ينتج بوفرة غير محدودة، وقصب السكر ...الخ [1] .

علاوة على ذلك فان هذه الأراضي تنتج القطن والنيلة ويعتبر معظم هذه الغلات سلعا تجارية ذات قيمة، فكل إفريقيا الوسطى Gentral africa إبتداء من باجرمي في الشرق وحتى تمبكتو في الغرب، بهذه المنتجات ،ولم ينسج الوطنيون الذين يعيشون في هذه المناطق قطنهم فقط بل كانوا يصبغون القمصان التي يصنعونها صناعة محلية بالنيلة التي يزرعونها، وكان نهر النيجر، هو النهر الذائع الصيت عندهم The far faned niger .

والذي يعتبر منفذ لهذه المناطق وذلك بأستخدام فرعه الشرقي البنوي، الذي تم إكتشافه بمعرفتي (بارث) وقد زودت الطبيعة هذا الفرع بمسطح مائي شاسع وصالح للملاحة ويبلغ طوله في داخل القطر، أكثر من 600 ميل، وأما فرعه الغربي فتكتنفه الشلالات في مسافة يبلغ طولها 350 ميلا من الساحل، ولكن حتى هذه النقطة فأنه من المحتمل أن يكون صالحا للملاحة في الحالة الراهنة حيث أننا إذا سرنا إلى المنبع فأن النهر يمثل طريقا عامل للملاحة لما يقرب من 1000 ميل في قلب وسط إفريقيا الغربية، الغني بكل ما ينتج وكان بارث متباه تماما بسبب إدراكه لأهمية إنجازاته التي تمثلت في رحلته إلى تمبكتو، وإكتشافاته لأجزاء من نهر النيجر[2] .

ويتضح ذلك من قوله:"...رغم أن مصير منجو بارك ظل غير محدد، وغير معروف للعالم المتحضر، إلا أنني نجحت لدرجة كبيرة في كل توقعاتي" [3] بحيث لم يعد تاريخ مقتله معروف في كل هذه المناطق الشاسعة التي قام بإكتشافها حتى أمام التجار العرب على وجه العموم، بل وظلت غامضة أكثر من أي جزء آخر في أفريقيا .

و فضلا عن ذلك كله نجحت أيضا في تأسيس علاقات صداقة مع معظم الرؤساء الأقوياء القاطنين على طول النهر من ناحية منبعه، وحتى المدينة الغامضة نفسها. لذلك لا يوجد مجال للشك في الطريق الذي تعقبته بنفسي، ومع ذلك فقد تركت مقدارا كبيرا من العمل لخلفائي من

---

[1] .Barth ‘(h): Op.Cit , p 264.

[2]. جلال يحي: المرجع السابق،ص 225.

[3] . . Barth ‘(h) :Op.Cit, p 269.

بعدي كي يطوروه، وكان لدي إقتناع بالشعور بأنني فتحت أمام المهتمين بالنواحي العلمية في أوروبا منطقة شاسعة من القارة الإفريقية المنعزلة عن العالم [1] .

فلم يقتصر العمل على هذه المنطقة المعروفة معرفة بسيطة فقط، بل فتحت إتصالا منتظما بين الأوروبيين وبين هذه المناطق كلما أمكن ذلكء [2] .

وقد عاد بارث إلى ألمانيا وبعد ذلك قام بنشر كتابه، وفي عام 1863م عمل بارث أستاذ في للجغرافيا ومات بعد ذلك بسنتين two years later أي وهو في الرابعة والأربعين من عمره وكان بارث أثناء السنتين اللتين سبقتا موته يقوم بالسفر إلى بلاد الشرق الأوسط .

ولقد مضى بعض الوقت قبل أن يتم تقييم وتقدير الأعمال الكشفية التي قام بارث بها وفد ساهم في كشف خفايا السودان الغربي خلال 1850م - 1855م [3] .

ولكن في عام 1890م وصف مكتشف أخر يدعى (جوزيف تومسون)، عمل بارث في كتابه الذي كتبه بعنوان منجو بارك والنيجر Mungo park and the niger، يقول فيه ما نصه: "...لم يسبق من قبل أن كتب عن حقائق جغرافية A rich harvest of geographical

وسلالية thnographical ولغوية philological وفي المجال الإفريقي التي كتبها بارث [4] .

وحقيقة لقد كان القرن التاسع عشر هو قرن كشف القارة الأفريقية ، حيث إقترنت حركة كشفها أنذاك بأسماء الأوربيين الذي ألّفوا عنها ، وكتبوا رحلاتهم في أدغالها [5].

---

[1] . جلال يحي: المرجع سابق 225.

[2]. جوزفين كام: المرجع السابق: ص185.

[3]. رولاند اوليفر: جون فيج: المرجع السابق: ص63.

[4] . شوقي عطا الله الجمل: تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها، مكتبة الأنجو المصرية، القاهرة، 1971، ص151.

[5] .رزق مرقص رزق : المرجع السابق،ص 88.

المطلب الثاني :البعثة الفرنسية ،الرحالة رينيه كاييه René Caillié . (1838 - 1799):

يعود تاريخ احتكاك فرنسا بمنطقة إفريقيا الغربية إلى القرن السابع عشر ميلادي حيث اقتصر في البداية على تجارة الرقيق مقابل الأسلحة والخمور والحرير الهندي والأواني الزجاجية ، ثم بدأ ضغط الرأي العام الذي يمثله التجار والأغنياء على الحكومة الفرنسية من أجل كشف إفريقيا [1] ، ما أدى إلى بناء المراكز والمحطات والوكالات التجارية ، وقد كان للحصار البحري الذي فرضه الأسطول الانجليزي على المراكز الفرنسية أثناء الحروب النابليونية [2] (1795-1814) دور في جعل فرنسا تتجه لتقوية نفوذها في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء، واتخاذها نقطة للتوسع نحو الداخل[3].

وبهذا بدأت تتوسع في الداخل لمسافات بعيدة لاستعادة هيمنتها الدولية التي كادت أن تفقدها بسبب حروب نابليون بونابرت [4] ، مستغلة حالة التفكك والضعف للمنطقة [5] .

وكان لابد من جمع معلومات أكثر دقة ، إستطاع ا الرحالة رينيه كاييه(R. Caillee) أن يحقق الجزء الكبير منها ، كان كاييه قد ولد في أسرة فقيرة ، فقد تعلم في مدرسة تسيرها جمعية خيرية خاصة بالفقراء والمعوزين، إشتغل في أعمال التجارة، وكان يحب القراءة فتعلق بقصص المغامرين.

وقد كتب في مذكراته: "...لقد ألهبت هذه القصة مشاعري القومية، وكنت عديم الصبر، فكنت تواقا للقيام بمغامرات مثله (روبنسون كروز)، وكنت قد شعري من قبل بطموح بحيث أجعل من نفسي شخصية بارزة، وذلك بقيامي ببعض الإستكشافات الهامة لأن خريطة إفريقيا

---

[1]. نصرالدين رضوان ،المرجع السابق ،1975، ص22،23 .

[2]. الحروب النابليونية: هي مجموعة من الحروب خاضتها فرنسا في عهد نابليون بونابرت (1795-1815) انتهت تسوية فيينا التي جردت فرنسا من المناطق التي سيطرت عليها.(أنظر http://ar.wikipedia.org/wiki).

[3] .Victor T: Le vine ، Plitics in Francophone Africa ، Lynne Réenr United States of America ، 2004 ، P33.

[4]. حلمي إسماعيل محروس: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر من الكشوف الجغرافية إلى قيام منظمة الوحدة الإفريقية، ج 1، ط1، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، 2004، ص270.

[5]. فيصل محمد مرسي: المرجع السابق، ص126

-محمن لولي أبوبكر : المرجع السابق ، ص 27 .

-شوقي عطا الله الجمل ، عبدالله عبدالرزاق : تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر ، المرجع السابق ، ص 28.

-على يعقوب : المرجع السابق ، ص 03.

لم أرى عليها أشياء محددة بل بلاد وأفكار تحدها الصحراء، أو حتى بدون حدود، فقد أخذت هذا مأخذ الجد أكثر من أي شئ أخر. " [1].

وفي سن السادسة عشر ترك رينيه تجارته، وذهب إلى البحر في سفينة كانت متجهة إلى السنيغال وهناك علم بأن الكابتن جرى (Captain Gery)[2]، كان يتتبع طريق بارك حيث صعد مع نهر غامبيا وهو طريق القوافل [3] ونقطة تقارب بين الشمال والجنوب [4] .

عندئذ شرع رينيه كاييه في السير على الأقدام كي يلتحق ببعثة الكابتن جرى ووصل كاييه إلى نهر السينغال ووجد أن جرى غير قادر على الوصول إلى تشاد عندئذ كان على بعثة جرى أن تتخلى عن مهمتها (وعاد رينيه كاييه بالتالي إلى فرنسا).

ولكن في عام 1824م عاد رينيه من فرنسا إلى دكار في السينغال والتي كانت مدينة صغيرة [5]مع أنه كان فاقد الأمل، ولكن على الرغم من ذلك، وصل السينغال وهناك زوده الحاكم الفرنسي[5] لهذا الإقليم بالسلع والمؤن، حيث إتخذت فرنسا من سانت لويس مركزا لقيادتها في غرب إفريقيا [6] و بدأ حضورها يتعاظم منذ بناء هذه القلعة حتى اصبحت تؤدي الدور الستعماري ولعب حاكمها فيدرب دورا كبيرا في دعم حركة كشف إفريقيا جنوب الصحراء في المرحلة الأولى وإحتلالها في المرحلة الثانية.

ومكّن هذا الحاكم رينيه أيضا من البقاء في السينغال وقتا كافيا ليبدأ في تعلم اللغة العربية ويدرس عادات وتقاليد المسلمين وإحتفالاتهم .

---

[1]. فيليكس ديبوا:المرجع السابق، ص 07.

[2] . Toute, René (2005), Histoire de la Recherche Agricole en Afrique Tropicale Francophone. Volume III: Explorateurs et marchands à la recherche de l'Eldorado africain 1800–1885/1890, Rome: Organisation des Nations unies pour l'alimentation et l'agriculture (FAO), pp. 18–33, (PDF)

[3] . شوقي عبد القوي عثمان: المرجع السابق ،ص 52.

[4] .Boubou '(h)'histoire des songhay 'paris'1968' pp321-32 .

[5] . Duval, Jules: Un Ouvrier voyageur: René Caillié Paris: 1867,p 334.(PDF).

[6] .علي بدوي علي سليمان : المرجع السابق، ص 34.

[7] . Jacques-Félix, Henri (1963), "Contribution de René Caillié à l'ethnobotanique africaine au cours de ses voyages en Mauritanie et à Tombouctou: 1819-1828", Journal d'Agriculture Tropicale et de Botanique , pp–334, 449–520. (PDF).

وهكذا تمكن كاييه أن يتنقل بسهولة وأمان إلى مسافات بعيدة، في داخل إفريقيا وكان لدى كاييه فكرة جريئة تتمثل في أنه يسافر بمفرده، وهو متنكر في زي رجل عربي مسلم ورع [1].

وعلى هذا الأساس ، فقد مكث في السينغال ثلاث سنوات كي يتمكن من إتقان هذه الخطة وكانت القصة التي دبرها كاييه، أو التي إختلقها تتمثل في أنه ولد في مصر من أبوين عربيين وأثناء الغزو نابليون لمصر أخذه البحارة الفرنسيون وهو طفل ومع ذلك فإن سيده أحضره إلى السينغال ومنحه حريته، والآن يرغب في أن يصبح مسلما ويتخذ طريق العودة إلى مصر كي يبحث عن أسرته [2].

وقد أتقن كاييه التنكر، وذلك بأرتدائه الزي العربي، فضلا عن أنه أجاد العربية، فعرف محتويات القرآن الكريم وألم بعادات المسلمين[3]، والدارس للرحلة الأوربية يجد أن عشرات الرحالة الأوربيين تمكنوا من التستر بالورع واللباس العربي ، وعرفوا بأسماء تدل على ذلك مثل البولوني فارتيما (الحاج يونس المصري)، دوتي (الحاج خليل)،جون فيلي (الحاج عبدالله)، فايس ليبولد(محمد أسد)، إميلي روث (سالمة بنت سعيد) [4].

وفي عام 1827م إلتحق رينيه كاييه بقافلة كانت متجهة إلى تمبكتو، وقد صدم رينيه للوهلة الأولى وبخاصة عندما رأى مقبرة كل من الميجور بيدي (Major Peddie) ومقابر الأعضاء الآخرين الذين كانوا ضمن أعضاء بعثة النيجر المشئومة [5].

وعلى الرغم من بشرته البيضاء وأنفه المستقيم الذي جعله أكثر وضوحا للفولانيين الذين يتميزون بالبشرة النحاسية، إلا أنه تمكن من تهدئة شكوكهم وذلك عن طريق ورعه الواضح، ومع ذلك كان عليه أن يأخذ حذره ، بحيث لا يراه أحدا أبدا عندما يكتب تقريره، وهكذا وبمكر كان كاييه يضع أوراق بيضاء بين صفحات القران الكريم لكي يستخدمها في كتابة مذكراته.

وقبل أن يصل كاييه إلى الشاطئ الأيسر لنهر النيجر، أصابه المرض والإنهاك بل وكان يعاني من تقرح في قدمه، لم يلتئم أبدا، عندئذ كان عليه أن يدع القافلة تواصل المسير بدونه، وظل لمدة شهور عديدة غير قادر على الحركة، لأن الإسقربوط كان قد هاجم عظامه، مثل منجو

---

[1] . الحافظ عبدالكريم سليمان : المرجع السابق،ص 180.
[2] . جوزفين كام: المرجع السابق: ص144 - 145.
[3].الحافظ عبدالكريم سليمان:نفس المرجع ، ص183.
[4].أسعد الفارس :المرجع السابق، المرجع السابق ص ص 16،211، 231، 350.
[5] . رولاند أوليفروجون فيج: تاريخ إفريقية : المرجع السابق ، ص 64 .

بارك من قبله، فهو مدان بحياته إلى شفقة سيدة عجوز كانت تقدم له الطعام بل وتقوم بتمريضه، حتى أصبح قادرا على مواصله الرحلة [1].

وأستغل رينيه فترة النقاهة في تجهيز أفضل الوسائل التي تمكنه من التقدم إلى النيجر بحيث أنه كان يأمل في الوصول إلى تمبكتو المدينة الغامضة والتي كانت هدفا رحلته.

وبعد السير لمدة شهرين كان كاييه لازال ضعيفا وخاضعا لنوبات متكررة للمرض، ثم وصل بعد ذلك إلى أحد فروع نهر النيجر ، وعبر النهر بمعدية إلى جزيرة جين (Jenne) ، وهناك رحب به بعض الأثرياء الذين خدعوا (Hood Winked) بتنكره وعملوا كل ما في إستطاعتهم كي يساعدوه في طريقه.

وفي نهاية مارس عام 1828م ركب رينيه كاييه مركب عبيد كانت متجهة إلى تمبكتو وقد تبعت هذه المركب مجرى النهر (نهر النيجر) لمدة ثلاث أسابيع، وفي صباح التاسع عشر من شهر أفريل من نفس العام، ألقى كاييه نظرته الأولى على الكابرا (Kabra) ، وهي ميناء تمبكتو وقد إستغرقت هذه الرحلة سنة بالضبط، منذ إلتحاق كاييه بالقافلة التي بدأت المسير من السينغال، وفي خلال هذه الفترة تمكن رينيه كاييه من قطع مسافة طولها 1500 ميل وسار منها 1000 ميل على الأقدام [2].

وعندئذ إتجه كاييه إلى تمبكتو في إشتياق لرؤية عجائبها وكانت الحقيقة خيبة أمل محزنة فبدت المدينة وكأنها لم تكن شيء يذكر، بل كانت عبارة عن كتل من المنازل الرديئة المبنية من الطين [3].

ولم يرى كاييه أي شيء في جميع الاتجاهات، ولكنه رأى سهولا للرمال المتحركة ذات اللون الأبيض، الذي يميل إلى الإصفرار، وبينما هو في حالته هذه فقد ملئ بالإعجاب لهؤلاء الرجال الذين شيدوا هذه المدينة في الصحراء التي ظلت أهم طريق لنقل الثقافة في إفريقيا جنوب

---

[1] . جوزفين كام:المرجع السابق: ص 145.

[2]. نفس المرجع: ص 145.

[3]. فيليكس ديبوا: المرجع السابق ،ص ص 23،22 ، 28.

الصحراء [1] فكانت ذات إشعاع حضاري وتجاري واسع [2] إلى غاية نهاية القرن السادس عشر حيث بدأت تضعف بعد أن غزى المغاربة البلاد [3] وأنتهت خيبة الأمل الذي كان قد أصيب بها أولا [4] ، وشهد "ديبوا" بان تنبكت وصلت الى أوج المجد الأدبي والعلمي [5] ، واكتسبت مكانة مميزة خلال حكم مالي [6] وخاصة في أواخر القرن التاسع الهجري /الخامس عشر ميلادي [7].

إستطاع كاييه أن يتجول في المدينة كواحد من سكانها فحمى نفسه بتنكره ا، و عومل على أنه ضيف ممتاز وسمح له بالذهاب إلى أي مكان يرغب في زيارته ، فتجول في شوارع المدينة، وزار المساجد وسوق الرقيق فلم تكن المدينة كبيرة ولا مزدحمة بالسكان، كما كان يتوقع، وكتب كاييه ما نصه: "...لم تكن المدينة كبيرة بحيث تتناسب مع شهرتها فلم يوجد هناك مثلما يوجد في جين، حيث يلتقي الغرباء من كل أجزاء السودان، وذكر رينيه كاييه أنه رأى في شوارع تمبكتو الجمال فقط، التي وصلت من كابرا (kabra)، وهي محملة بالسلع التجارية التي أحضرها الأسطول الصغير، ورأى أيضا السكان يجلسون على الحصر بحيث يتبادلون الحديث، كما رأى المراكشيين وهم نائمين في الظل أمام أبواب منازلهم وبإختصار فقد بدأ كل شيء له مملا".

علم رينيه كاييه عن لينج عندما كان في مدينة جين ، ولم يتمكن كاييه من أن يتخلص من القلق على مصيره وعلى وجه الخصوص عندما أستأجر لنفسه المنزل القريب من المنزل الذي كان يسكنه لينج ويتضح ذلك من قوله :"...فلقد كنت على دراية تامة بما يحيط بي من مخاطر ولم أستطع أن أبعد عن إحساسي أنه يمكن أن يكتشف أمري وفي هذه الحالة فأن مصيره سوف يكون أقسى من الموت والعبودية " [8].

---

[1] . محمود خيري عيسى :المرجع السابق، ص 18

[2] . عبد الحكيم العفيفي : المرجع السابق ، ص 178 .

[3] . عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين ،المرجع السابق، ص 100.

[4]. جوزفين كام: المرجع السابق: ص 146.

[5] . عبد الرحمان زكي : المرجع السابق، ص 220.

[6] . محمد عبد الفتاح إبراهيم : افريقية من السنغال إلى نهر جوبا ، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1961، ص104.

[7]. إسماعيل العربي : المرجع السابق ص312

[8]. جوزفين كام:المرجع السابق: ص 145.

كان كاييه كان ذكيا جداّ، حتى أنه تمكن من أن يخدع شيخ تمبكتو الذي أستقبله في قاعة الضيافة ، وسأله عن كيفية معاملة المسيحين له فرنسا، وبعد أن قضى كاييه أربعة عشر يوما في تمبكت، غادرها دون أن يكشف أمره حتى هذه اللحظة ، والتحق بقافلة متجهة Bound إلى مراكش عبر محطات قوافل التجار التي تخترق الصحراء باتجاه الشمال [1] ، وأعتقد أنه إذا أعاد بمفرده إلى الساحل الغربي فأنه لا يمكن لأي شخص أن يعتقد أنه زار تمبكتو[2].

وبلغ طول الرحلة التي قطعها رينيه كاييه 900 ميل من الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى[3] التي تنحصر بين دائرتي عرض 17°-40° وخطي طول 3° -50° [4] إلى فاس في الشمال ، ويقول كاييه: "...إن العواصف الرملية قد أحاطتها بطبقة سميكة من الضباب المظلم، حتى أن معظم المسافرين المنهكين قد قاسوا من متاعب العطش" وتلك هي سمة إفريقيا جنوب الصحراء وإن اختلفت في بعض تفاصيل العوامل البيئية والمحلية [5] وأستمرت هذه الرحلة مدة ثلاث شهور تقريبا، قبل أن تدخل القافلة مدينة فاس (fes) المراكشية.

وكان كاييه لا يزال متنكرا حتى هذه اللحظة، وواصل مسيرة إلى طنجة نائب القنصل الفرنسي فى طنجة المونسيى ديلابورت ، وفي فرنسا كان أعضاء الجمعية الجغرافية الأوروبية اتخذوا التدابير الآزمة والكافية من أجل عودة الشاب رينيه إلى فرنسا عودة المكتشف المنتصر ، فى 5 ديسمبر 1828 احتفت الجمعية الجغرافية برينيه فى باريس بحضور عالم الحفريات الشهير جورج كوفييه وحصل على 10000 فرنك فرنسي ، واستقبله الملك شارل العاشر وعينه قنصلا للمملكة فى باماكو.

وقد قطع كاييه أثناء رحلته التي إستغرقت ثمانية عشر شهرا ، مسافة طولها ألفين وخمسمائة ميل، قطعها في إقليم شاسع غير مكتشف، وكان رينيه كاييه الأوروبي الأول الذي

---

[1] . كولين ماكيفيدي : أطلس التاريخ الإفريقي ، ت مختار السويفي ، ط1 الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1987 ، ص 105

[2]. جوزفين كام: المرجع نفسه ،ص147.

[3] . محمد فاضل علي باري ، سعيد إبراهيم كريدية : المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ حضارة، ط1 ، دار الكتب العلمية بيروت 2007 ، ص 96.

[4] .Barth ‘(h) Op.Cit : p 264 .

[5] . الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا في وراء الصحراء ، المرجع السابق ، ص 98.

زار تمبكتو وعاد حيا كي يتهيأ لكتابة تقريره وقدم كاييه وصفا جديدا لتمبكتو في كتابه "رحلات من خلال وسط إفريقيا إلى تمبكتو " ، وأصبحت لدى فرنسا حقائق ملموسة عن غرب إفريقيا [1] .

وقد حصل على مكافأة (10000 فرنك) منحتها له الجمعية الجغرافية الفرنسية، كما وأستحق وسام الشرف وهو عبارة عن معاش (a richly deserved gross of the legion of honour) ، أعد رينيه ونشر كتابه " رحلة إلى تمبكتو " voyage a tombouctou - وعدّ الكتاب الأفضل مبيعات ، عاد رينيه إلى مسقط رأسه ليعيش بقية أيامه توفي فى 15 مايو 1839 عن عمر ناهز 39 عاما ، ومات رينيه كاييه بمرض السل [2] عام 1839م، وكان عمره أنذاك أربعين عاما [3].

كانت رحلة كاييه مثمرة حيث أفضت إلى نتائج مهمة تحوم حول معرفة تراث إفريقيا جنوب الصحراء بوصفها مهدا للثقافة الزنجية البربرية في السودان الغربي[4] وخاصة تنبكت التي كان بها نحو مائتين وثمانين مدرسة [5] وكانت مركزا للوهج الفكري في القرن السادس عشر[6] ، و من الناحية الأقتصادية قدم كاييه وصفا للسلع والبضائع التي تشكل هدفا للقوافل التجارية حتى أصبحت تنبكت مدينة كبرى وهي تعادل تعبير الأمة [7] ، كما وصف هذا الرحالة الظروف الطبيعية المناخ والنبات والسكان وقدر عدد سكان تمبكت مابين 10,000 و20,000 نسمة [8].

---

[1]. علي بدوي علي سليمان: المرجع السابق ، ص 35.

[2] . Viguier, Pierre : Sur les Traces de René Caillié: Le Mali de 1828 Revisité , Versailles, France.p271.(PDF).

[3]. جوزفين كام:المرجع السابق: ص148

[4] . زينب احمد هاشم : علاقة مصر بالدول الإسلامية في حوض نهر النيجر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية القاهرة ، 1982 ، 102.

[5] . نعيم قداح : المرجع السابق، ص 159 .

[6] . Maurice DELAFOSSE: LES NOIRS DE L'AFRIQUE. Collection Payot, Payot et Cie, Paris, 1922. Édition numérique réalisée le 11 avril 2010.p57.

[7].عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية والإسلامية، ط1، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، 2001، ص05 .

[8].علي بدوي علي سليمان : المرجع السابق ، ص 38،73.

خاتمة الفصل:

المستكشف هو ذلك الأوروبي الذي تمكن من الوصول إلى منطقة لم يطأها قبله أي أوروبي أخر، منطقة لا تزال مجهولة بالنسبة للأوروبيين وقد كانت أي محاولة إليها أوعبورها خطرا على حياته و بالتالي فان المستكشف على العموم هو ذلك المسافر الذي دخل منطقة منطقة إفريقيا جنوب الصحراء بهدف إكتشافها.

أما الرحالة فهو ذلك المسافر الكثير الشغف بالترحال و الذي يزور مناطق عديدة من أجل وصفها و دراستها بغض النظر عن عنصر السبق بدوافع متعددة.

قد يكون الرحالة مستكشف إذا كان يسير في مجال لم يستكشف قبله أحد أقرانه أما المستكشف فلا نعتبره رحالة إلا أذا أمتهن الترحال و التنقل وقام بعدة أسفار من ضمنها على الأقل رحلة طويلة تستهدف وصف و دراسة المناطق المزارة .

فهي إذن محاولة لجمع بعض الانطباعات والتصورات العامة عن قوم آخرين، محاولة لتقديم صورة ما عن " الغير " هذا الغير الذي ظل مصدرا لإثارة خيال وألام الإنسان الأوروبي الذي امتاز منذ بداية الفترة الحديثة بحب الاطلاع مدفوعا بروح المغامرة وبشغفه وبالعلم والمعرفة على اعتبارها " القدرة والسلطة" .

كانت إفريقيا جنوب الصحراء عالما مجهولا بالنسبة للأوروبيين قرونا طويلة ، ويمكن تقييم دواعي وأسباب هذه الرحلات إلى نوعين أساسيين يتعلق أولهما بالرحالين والإستكشافيين أنفسهم بينما يرتبط الثاني بالتطورات الحاصلة في أوروبا لقد تعلم الأوروبيون اللغة العربية لا حبا فيها، ولكن لإتخاذها وسيلة ليفهم حياة المسلمين والتمهيد للاستعمار.

إنطلقت رحلة كشف إفريقيا بعد ظهور ما عرفبرحلات المغامرين وكان الإنجليز أول من أبدي إهتماما بإفريقيا جنوب الصحراء بعد أن تقلص نفوذهم في أمريكا الشمالية، وفقدوا مستعمراتهم هناك فأسسوا عام 1788م جمعية داخل أفريقية وكلفوها بتجنيد المغامرين وتوجيههم إلى إفريقيا لأستكشافها وغزوها فجندت عدد لبأس به منهم وكلفتهم بالقيام برحلة إلى أعماق الصحراء.

وفي أعوام 1795-1797 قام (مونجو بارك) برحلة إلى السودان من تنزانيا في غامبيا بغرب إفريقيا ووصل إلى باماكو وأعالي نهر النيجر.

وخلال حروب نابليون الأول إهتم الأوروبيون أكثر بإستكشاف إفريقيا وغزوها، فعاد مونجوبارك مرة أخرى إلى النيجر عام 1805م وهلك هو ورفيقه في العام التالي قرب برنوح (وروح) بسبب مقاومة سكان أولمندن لهما فقام بعدها الألماني (رونتجن) برحلة من المغرب الأقصى إلى الصحراء، وقتل هو الأخر في بلاد حاجة خلال شهر جويلية 1809م.

وفي عام 1818م كلفت الحكومة البريطانية (جوزيف ريتشي) أحد كتاب قنصليتها بباريس بأن يتجه من طرابلس إلى السودان فصحبه ضابط البحرية (الكاتبان ليون) وغادر طرابلس في مارس 1819م إلى مرزق في الطريق فعاد ليون إلى طرابلس.

وتألفت بعثة أخرى لمواصلة طريقها كان من أعضائها الطبيب أودينكسوضابط البحرية كلابرتون وضابط الجيش البري الكاتبان ونهان وغادرت طرابلس إلى غات وبحيرة تشاد، وقد توفي أودينكس في جوان 1824م.

وواصل كلابرتون و دنهان الرحلة إلى كانو ثم عاد إلى طرابلس في جانفي 1825م ، وفي نفس العام كلفت الحكومة البريطانية الماجور ألكساندر ثوردون لاين بالقيام برحلة إلى إفريقيا .

أما الفرنسيون فقد بدأو برحلتهم ومغامرتهم في إفريقيا جنوب الصحراء منذ رحلة روني كايي في أعوام (1824 - 1825م) وأشتد حماسهم بعد إحتلالهم للجزائر عام 1830م .

في هذه الدراسة أحصيت ثمانية عشر مستكشفا دخلوا إلى إفريقيا جنوب الصحراء إنطلاقا من الشمال أو من شواطئ المحيط الأطلسي ، فقسمت هؤلاء إلى قسمين ، الأول أطلقت عليهم إسم المستكشفين ونزعت عنهم صفة الرحالة فقد دخلوا كمستكشفين ودونوا لنا معلومات حول جغرافية المنطقة لكنهم لم يكتبوا عن التراث المادي واللامادي ، وقد إكتفيت بذكر تنقلاتهم دون تحليل .

والقسم الثاني وهم الرحالة فقد فصلت عن حياتهم وتنقلاتهم في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء وأهم ما كتبوه عن التراث ، وكان منهم الرحالة منغو بارك Mungo park ،

وهنري بارث حيث تكفلت الجمعية الملكية بتمويل رحلته والتي تعتبر أقدم هيئة ملكية علمية بريطانية بل وأكثرها شهرة .

وكان من أهداف الجمعية الجديدة إيجاد تجارة بين بريطانيا وغرب إفريقيا ، على أن الهدف كان تتبع مجرى النيجر، هذا النهر الذي لم يراه أي أوروبي والذي تقع على شواطئه مدينة تمبكتو العاصمة الثقافية لمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء.

وقد إعتقد بعض الجغرافيين أن نهر النيجر فرع من فروع نهر النيل ولكن على الرغم من ذلك فإنهم لم يستطيعوا أن يقرروا أن هذا النهر ينبع من الغرب أم الشرق، وأعتقد البعض الأخر من الجغرافيين بأنه من المحتمل أن يكون هذا النهر أحد فروع نهر الكونغو أو ربما يكون هو نهر الكنغو.

وكانت الحاجة الملحة أمام الجمعية الإفريقية أن تقوم بتجنيد المتطوعين الذين يرغبون في الذهاب إلى غرب إفريقيا على وجه السرعة وبعد النكسات المتتالية الطبيب منجو بارك حيث توغّل داخل الأراضي الإفريقية وصعد نهر النيجر ووصل قبائل الماندينغ ليعود إلى 1797 إلى إنجلترا أين ينشر قصّة رحلته .

ونتيجة لوصفه الدقيق و أهمية الاكتشافات التي توصل إليها في منطقة النيجر الأعلى، قام مونغوبارك في 30 جانفي 1805 م برحلة ثانية ، و في مهمة رسميّة وصل إلى منطقة قبائل الهاوسا أين يتم مهاجمته و يغرق هو و جميع مرافقيه في نهر النيجر في أواخر 1805 م ، ثم نشر الملاحظات التي قام بإرسالها إلى عائلته حول الجزء الأول من رحلته حتى 16 نوفمبر 1805.

أما الرحالة هنريش بارث (heinrich borth) الذي يعد أشهر ثلاث رحالة ، إنضم إلى البعثة البريطانية التي أرسلته لتقوم بكشف المنطقة الواقعة جنوب الصحراء، وهناك زار الممالك الإسلامية، .

وكان بارث على قدر كبير من التعليم ولهذا كان لديه مقدرة لتعلم اللغات، فقد تعلم الإنجليزية والعربية، كما لم تكن لديه صعوبة في إتقان لغات الشعوب الإفريقية المختلفة .

وكان بارث يعمل على تحقيق المعرفة أكثر من رغبته في حب المغامرة، التي دفعته إلى الإلتحاق ببعثة الحكومة البريطانية .

غادر طرابلس في بداية عام 1850م فقد عبرت بعثته الصحراء، ووصلت مملكتي كانم، وبورنو.

كتب بارث عن بحيرة تشاد ومنابع نهر النبوى أكبر فروع نهر النيجر، وكانت تلك النصوص مساهمة أساسية من بارث في مجال المعرفة الجغرافية.

ودخل بارث مدينة تنبكت ومكث فيها مدة طويلة تصل إلى ثمانية شهور ، وأنتابه اليأس بسبب عدم وجود شيء فيها فوصف شكل منازل المدينة وشوارعها .

تمكن بارث من العودة إلى إنجلترا، وكان ذلك في خريف 1855م، بعد رحلة دامت أكثر من خمس سنوات، وتعتبر هذه الرحلة سجل للتحمل البطولي.

أما الرحالة رينيه كابيه فقد كان متعلقا بقصص المغامرين وفي سن السادسة عشر بدأ ركوب البحر ، وفي عام 1824م زوده الحاكم الفرنسي لهذا الإقليم بالسلع والمؤن ومكنه هذا الحاكم أيضا من البقاء في السينغال وقتا كافيا ليبدأ في تعلم اللغة العربية كما كان عليه في الفترة أيضا أن يدرس الاحتفالات وكان لدى كابيه فكرة جريئة تتمثل في أنه يسافر بمفرده وهو متنكر في زي رجل ورع مسلم وعلى هذا الأساس فقد مكث في السينغال ثلاث سنوات كي يتمكن من إتقان هذه الخطة وكانت القصة التي دبرها كابيه، أو التي إختلقها تتمثل في أنه ولد في مصر من أبوين عربيين وأثناء الغزو نابليون لمصر أخذه البحارة الفرنسيون وهو طفل ومع ذلك فإن سيده أحضره إلى السينغال ومنحه حريته، والآن يرغب في أن يصبح مسلما ويتخذ طريق العودة إلى مصر كي يبحث عن أسرته .

وقد أتقن كابيه التنكر، وذلك بأرتدائه الزي العربي، فضلا عن أنه أجاد العربية، فعرف محتويات القرآن الكريم وألم بعادات المسلمين، وفي عام 1827م إلتحق رينيه كابيه بقافلة كانت متجهة إلى تمبكتو حيث كان يسجل ملاحظاته في أوراق بيضاء يضعها بين صفحات القران الكريم لكي يستخدمها في كتابة مذكراته وقد إستغرقت هذه الرحلة سنة بالضبط ، منذ إلتحاق كابيه بالقافلة التي بدأت المسير من السينغال، وفي خلال هذه الفترة تمكن رينيه كابيه من قطع مسافة طولها 1500 ميل وسار منها 1000 ميل على الأقدام وكانت الحقيقة خيبة أمل محزنة

فبدت المدينة وكأنها لم تكن شيء يذكر، بل كانت عبارة عن كتل من المنازل الرديئة المبنية من الطين.

كتب كاييه عن شوارع المدينة والمساجد والسوق والسكان والسلع التجارية والعواصف الرملية ، وبعد أن قضى كاييه أربعة عشر يوما في تمبكت، غادرها دون أن يكشف أمره فكان رينيه كاييه الأوروبي الأول الذي زار تمبكتو وعاد حيا كي يتهيأ لكتابة تقريره وقدم كاييه وصفا جديدا لتمبكتو في كتابه "رحلات من خلال وسط إفريقيا إلى تمبكتو " .

الـفصل الرابع : التراث المادي في مدونات الرحالة والجغرافيين

- **المبحث الأول : التراث المدون المخطوط.**
- المطلب الأول: الكتب والمكتبات .
- المطلب الثاني : المخطوطات.
- **المبحث الثاني: العمران وتخطيط المدن.**
- المطلب|لأول :المساجد .
- المطلب الثاني: الحواضر الكبرى .

مقدمة الفصل :

قد تكون قضية التراث من القضايا التي أصبحت مثار تحفظ لدى البعض ، نظرا لما عرفته من نقاشات وجدالات ظلت تدور في الغالب على هامش القضية ؛ سواء تعلق الأمر بالندوات أو الدراسات المنشورة، والحال إذا ما تم القيام بجرد لأهم ما كتب وقيل عن التراث الأفريقي ، فلن يجد الباحث أي تناول للمسألة التراثية - باعتبارها قضية وإشكالا- إلا لدى القليل من الدارسين .

غير أن الأمر الذي يظل مثيرا، هو كون عدد كبير من الذين تناولوا المسألة التراثية قد اهتموا بالتراث من حيث هو زمن، أو ركام، أو معرفة تاريخية، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث في تحديد الإطار المفاهيمي والتاريخي الذي يشتغلون فيه .

على الرغم مما قيل عن التراث فإنه يظل الموضوع الأكثر تنوعا لما يتسم به من زئبقية فكلما تم الاقتراب منه إلا وازداد غموضا وتعددت التساؤلات ، وشكل حقلا لعدد من القضايا المتشعبة والإشكاليات التي يصعب الحسم فيها بدراسة أو اثنتين خصوصا في المرحلة التاريخية المحددة في الأطروحة لتداخلها بين فترة التواجد الإسلامي والأوربي ، وفي ظل صعوبة تحديد الحيز الجغرافي المرتبط بالمدينة وليس القبائل المتناثرة في أطراف الصحراء .

تبدأ هذه الإشكالية، انطلاقا من خصائص مجتمعات إفريقيا جنوب الصحراء في علاقتها بماضيها وتأثرها بحضارة الإسلام مع شوائب الوثنية ، وحضارة أوربا مع بقاء القيم الإسلامية .

عند ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي كانت أكثر مناطق غرب إفريقيا متخلفة ، يغلب عليها النظام الوثني ويسودها الاضطراب السياسي ، والاختلال الاجتماعي القائم في ظل حكم مملكة غانة المترامية الأطراف .

وبوصول الإسلام إلى حدود إفريقيا جنوب الصحراء عبر الشمال والشرق ، أوجد حالة من الوعي لتلك الأقاليم وأنتجت حضارة جديدة تشتمل على نهضة متنوعة اعتمدت على الأصول الإسلامية ونهلت من علوم العرب الذين أوصلوا تلك الحضارة .

وتهيأت الأسباب التي أعطت لهذه النهضة بعدها المكاني والزماني ، فانتشرت في الحواضر المتاخمة للصحراء انطلاقا من أقاليم توات وسلجماسة وولاته نحو الحواضر الجنوبية الغربية بل ساهم هذا الإشعاع الجديد في خلق حواضر جديدة بفضل ازدهار التجارة ،وتوافد عدد كبير من السكان والقبائل بعضهم جاء لغرض نشر الدعوة الإسلامية ، وأخذت تلك الحواضر في السودان الغربي تنمو وتزدهر بالرغم من البطء في هذه العملية.

سأحاول في هذا الفصل أن أدرس التراث المدون المخطوط.

- ماهي أهم الكتب المتداولة كمصدر للمعرفة في إفريقيا جنوب الصحراء وأين نجدها ؟ هل كانت هناك مكتبات؟،ومن يشرف عليها؟ وما طبيعة مادتها ؟.
- هل تشكل المخطوطات ثروة مادية للتراث الأفريقي، كم عددها ، أين هي محفوظة.
- كيف يمثل العمران أحد أهم فروع التراث الأفريقي هل تختلف المدن الأفريقية عن المدن الإسلامية الأخرى ؟ والمساجد هل لها تخطيط خاص؟.
- ماهي أهم حواضر منطقة إفريقيا جنوب الصحراء ؟

المبحث الأول : التراث المدون المخطوط.

- المطلب الأول : الكتب والمكتبات والإجازة العلمية :

1- الكتب والمكتبات:

إن عملية نسخ الكتب في إفريقيا جنوب الصحراء ، كان أشبه بتلك التي جمع فيها الحديث النبوي في القرون الهجرية الأولى، حين كان العالم يتنقل من مكان إلى آخر، يعاني مشقات السفر ومخاطره بحثا عن حديث أو رواية مطابقة له، الأمر الذي يعطي للحركة العلمية زخما مميزا، ويضفي على جهود القائمين عليها نكهة خاصة ، فليس من الضروري أن تكون في بنايات شاهقة وجامعات كبرى لتنتج الفكر، أو تنشط الحياة العلمية فيها حتى تبلغ مرحلة النضج [1].

وإذا كان الكتاب يحمل الماضي بين دفتيه كما يحمل العلم والمعرفة ، فإنه في البيئة التي وصفنا يكاد يكون علامة مميزة لأجيال سخّرت حياتها له، تأليفا ونسخا ونقلا، عن طريق القوافل، وفي صحبة البضائع التجارية من مكان إلى آخر، فالصحراء لا تفرض على ساكنها تدبير العيش فحسب ، بل تغريه أيضا بطلب العلم والتضحية في سبيله ، خاصة إذا تعلق الأمر بالعلوم الدينية واللغوية التي كان لها الحظ الأوفر من الاهتمام وفي ذلك كانت الامم تتفاضل و بها يقاس تطور الحركة العلمية [2] .

إن إنتشار الكتب والمكتبات في إفريقيا جنوب الصحراء لم تكن منفصلة عما شهدته الحواضر العلمية الشمالية في القرويين والقيروان وتلمسان والقاهرة وبغداد والحجاز وغيرها من المناطق التي وحّدها الدين الإسلامي ، فحظي العلم مثل التجارة بحظ وافر من الاهتمام ، فلقد كانت الكتب من أهم أصناف التجارة ، وأثمانها مرتفعة، ويجني التجار منها فوائد عظيمة، وكانت هذه الكتب تأتي من المشرق والمغرب [3] .

---

[1] .أبوبكر إسماعيل ميغا : الحركة العلمية والثقافية والأصلاحية في السودان الغربي (من 400هـ إلى 1100هـ)، ط1 ، مكتبة التوبة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، بدون تاريخ ، ص 49.

[2]. حسن جبر: المرجع السابق،ص 289.

[3] . الشيخ الأمين عوض الله : تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادي ، ضمن مجموعة أبحاث بعنوان : تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد ، العراق ، 1984 ، ص87 .

هذه الأهمية الكبرى للكتب في إفريقيا جنوب الصحراء كان بسبب انتشار الثقافة والعلوم العربية الإسلامية ، والإقبال الشديد على تعلمها في المراكز العمرانية الهامة مثل: تنبكت وجنّى وغيرها ، وكثيرا ما يذهب علماء الشمال إلى هذه المراكز للتعليم والتدريس ، كما يذهب الطلاب من الصحراء إلى عواصم الشمال لتلقي العلم والمعرفة [1] .

فحظيت الحواضر الكبرى بحركية إنتقال الكتب والمخطوطات التي بقي جزء منها عند بعض الأسر تتوارثه كنزا علميا شاهدا على اهتمام أهل المنطقة بالعلم *.

وربما يعود عزوف علماء إفريقيا جنوب الصحراء - نسبيا - عن النشاط التأليفي إلى أن أهله كانوا بدوا رحلا منتشرين ، حتى أن المؤرخين يذكرون اقتصارهم في معاشهم على السمك المجفف والتمر واللبن ، مما يجعل الحياة التجارية عندهم ضعيفة مقارنة بما كانت تعج به المناطق الشمالية ، فهم يعيشون مع مواشيهم ومنها يقتاتون، فلا يحتاجون إلى تبادل تجاري ذي بال مع غيرهم ، ومنه كان العلم مصاحبا لإزدهار الإقتصاد [2] بالقوة أو الضعف.

كانت تنبكت العاصمة العلمية لإفريقيا جنوب الصحراء ، تعج بالمؤلفات التي ملأت آفاق المنطقة ، في حقول التعليم ونشر اللغة العربية وإعادة كتابة المصنفات اللغوية والفقهية والأدبية ، ودلت على اجتهادهم وإخلاصهم لدينهم ولثقافتهم الإسلامية وإزدهار العلم والإسلام معا [3].

ويرى الباحثون أن الغالب على تلك المؤلفات هو الوجهة التدريسية المفيدة لطلبة العلم ، كنظم المتون ، أو شرح المشكل من الكتب المشهورة والتفريع على أصول المذهب ، والوجهة النوازلية التي تفيد المجتمع في العموم دلالة على استحكام الملكة

---

[1]. أبوبكر إسماعيل ميغا : الحركة العلمية والثقافية في السودان الغربي، المرجع السابق ، ص ص 26،27.

*. يدل عدد المخطوطات التي تحويها الأسر الكبيرة في إفريقيا جنوب الصحراء على هذا الإهتمام إذ تعتبرها كنز عائلي لا يمكن التفريط فيه ، وهو ما تكلم عنه الرحالة الأوربيون ومن بعدهم الباحثون المختصون ،أنظر توصيات الندوة العالمية التي إنعقدت بالخرطوم بمناسبة الاحتفاء بالمجاهد عثمان دان فوديو، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم،1995.

[2].الهادي مبروك الدالي : التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء ، المرجع السابق ، ص 108.

[3]. أبوبكر إسماعيل ميغا: نفس المرجع ، ص232.

الفقهية في تلك البقاع ، وسمو مستوى فقهائها من مجرد نقل الفتوى والأحكام إلى استنباطها بأنفسهم [1].

هذه المكتبات إذن هي في الحقيقة خزانات للمخطوط ، ويصعب الحصول عليها ، لأن أصحابها وخوفا من ضياعها يمنعونها عن كثير من طالبيها ، أو طالبي تصويرها للاشتغال عليها ، فقيمتها التاريخية – عند بعضهم – تفوق قيمتها العلمية أحيانا ، كما أنها خزائن تتوزع على مناطق متفرقة من إفريقيا جنوب الصحراء ، مما يدل على كثرة الحركية العلمية و كثرة المهتمين بها [2] .

أ- خصائص كتابات المؤلفين الأفارقة:

إذا أردنا أن نجمل خصائص كتابات المؤلفين الأفارقة فإننا نلخصها فيما يلي :

- تواضع المؤلفين فيما يقولون ويروون ، فهم يرجعون إلى شيوخهم وإلى علماء الإسلام في المسائل الكبرى [3] .

- انفتاحهم على الحق أينما كان دون تعصب لمذهب ، أو شيخ أو طريقة ، بل ويرون التعصب تقليدا يمكن أن يؤدي إلى تحقير جهود العلماء حتى وإن كان العلم يتصف بالأستيعاب دون أن ينتقل إلى الأنتاج المستقل [4].

- إكثارهم من إيراد الآراء في مواضع الخلاف ، وتتبعها بالرد والبيان قبل الترجيح والاعتماد ، لفتح المجال أمام انكشاف الصواب وجلائه ، إذ لو اكتفي بالرأي والرأيين، لربما كان الصواب في غيرهما [5].

---

[1]عز الدين كشنيط: قراءة في بعض الخصائص العلمية لحاضرة توات ، مجلة آفاق العلمية المركز الجامعي تمنغست، العدد 5 جانفي 2011، ص222 – 223.

[2]. أبوبكر إسماعيل ميغا : الحركة العلمية والثقافية في السودان الغربي ، المرجع السابق ، ص218.

[3]. عبد الحميد جنيدي : المرجع السابق ص 95 .أنظر : ملحق10 :مخطوط صفحات من كتب متداولة في إفريقيا جنوب الصحراء.

[4]. أبوبكر إسماعيل ميغا: نفس المرجع ، ص 216.

[5].أنظر أقوال ووصايا الأمام المغيلي في الأختلاف ، عبدالقادر رباجي : الأمام المغيلي ،عصره وحياته، ط1 ، منشورات وزارة الشؤون الدينية ، تلمسان عاصمة الثقافة الأسلامية ، 2011، ص 155.

- رؤيتهم للعلاقة التكاملية بين تفسير الكتاب والسنة وبين علوم الفقه، فيؤكدون أنه من لم يفسر الكتاب والسنة بعلوم الفقه لم يحصل على تفسيرهما أبدا، ومن لم يحقق علوم الفقه بالكتاب والسنة لم يقع على تحقيقهما أبدا ، وهي رؤية أهل التصوف [1] .

- إلتزامهم الأمانة العلمية بإرجاع القول إلى صاحبه فإن علموا لفظه قالوا : قال فلان، وإن لم يحفظوه أو كان الكلام طويلا مستفيضا لخصوا معناه وقالوا عبارة مثل : انتهى المراد من كلامه ، فهم يعزون الأقوال لأربابها وإيراد كلام الأشياخ ونقل ألفاظ الشراح برمتها، وإن أدى ذلك إلى التكرار فلطلب السلامة من التحريف ، كما يوردون اسماء الكتب التي يأخذون منها ، ولهم رأي في قيمتها العلمية ، وفي نسبة بعضها إلى أصحابها ، وهذا كله دليل على تبحرهم في العلم وتمكنهم من صناعتهم التي حققت منه الربط الفكري بين الحضارات الأفريقية [2] وحضارة العالم الإسلامي كتواصل لا كتقليد [3].

- ايرادهم كثيرا من التعاليق أو الأشعار في مقدمة أو خاتمة الكتاب الطويلة دلالة على عناية المؤلفين بالنظم والشعر لارتباطهم بالعلوم الدينية ، سواء من نظمهم هو أو من نظم غيرهم من العلماء والشعراء الذين استعانوا بالشعر على سبيل الاستئناس أو ولكونه مجالا للحجة والاستشهاد والإقناع [4].

ب- أهميته المؤلفات الأفريقية :

لا شك في أن أي مصنف في العلوم النافعة له قيمته العلمية ، ولسنا في هذا المقام في

---

[1]. زينب الشيخ حمزة عمر، الطريقة التجانية في السودان، رسالة ماجستير مركز البحوث جامعة إفريقيا العالمية ، 2002م ، ص 56. - أنظر طارق أحمد عثمان : الطريقة السمانية وأثرها الديني والاجتماعي في السودان، منذ دخولها سنة 1776م– 1955م ، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة افريقيا العالمية، الخرطوم ص 33 .

[2]. حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في افريقيا ، المرجع السابق ، ص10 -11.

[3]. عثمان منادي : المرجع السابق ، ص 138 .

[4]. أنظر ملحق رقم 05 : مختارات من نثر الساحلي ، و ملحق رقم 03 : تقرير عن مخطوط : مؤلف مجهول : ارجوزة توسلية لرفع وباء الطاعون .

موقف التقييم ، ولكن في موقف التنويه ، فالمصنفات أكبر من أن نصدر لها أو عليها أحكاما ، لأن الجهد الذي بذله المؤلفون لا يخفى على المطلع خصوصا إذا كان من أهل الاختصاص وهذا لا يكون إلا بعيدا عن الأحكام المسبقة [1].

وبالنظر إلى ما قلناه حول هذا المخطوطات الأفريقية ، وما عرضناه من خصائص المؤلفات ، وما حوت من الشروح المستفيضة ، ومن المعلومات الثرية في مجال الحديث والفقه وما يتصل بهما من علوم أخرى ، وبالنظر أيضا لكون المؤلفين من هذه البلاد الصحراوية ، فإن القارئ لتلك الكتب لا يجد إلا الثناء عليهم والشكر لهم على هذه الإضافة العلمية للمكتبة الإسلامية التي تكونت عبر العصور الإسلامية المتلاحقة ، حتى أضحى للحركة الفقهية رجالها [2] .

وما يميز هذه المؤلفات ثلاثة أمور مهمة هي(الأخذ من الموثوق به، والنظر في المسائل بمعية التدبر وإعمال الفكر، والنصيحة لطلاب العلوم الشرعية) ، وأعطى علماء إفريقيا جنوب الصحراء لكل أمر من هذه حقه واستوفوه مما يجعل من كتبهم صرحا علميا مهما ، بحيث تكثر الفائدة وتحدث الإحاطة بعلوم الدين من جوانبها المختلفة، فينعكس كل ذلك إيجابا على المستوى العملي التطبيقي للمسلم ، وإن بدرجات متفاوتة [3].

ج- قيمتها العلمية :

ما من شك في أن كل كتاب في العلوم النافعة له قيمة علمية قلت أو كثرت ، خاصة إذا كانت في العلوم الشرعية بفروعها المختلفة ، وإذا أضفنا إلى ذلك عامل البيئة القاسية ، ووجود الإنسان الإفريقي المسلم في محاداة العقائد الفاسدة التي كان يحملها الوثنيون وأهل الكتاب في الأزمنة الماضية ، علمنا أن هذه المصنفات كانت من الأهمية بمكان بحيث وطدت قدم التوحيد في هذه الأرض ، وعلمت أجيالا متلاحقة أمور دينها ولغته ،

---

[1].ك. مادهو بانيكار : المرجع السابق ، ص 31.

[2]. عبد الرحمان محمد ميغا : الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي (من القرن 08 إلى القرن 13 الهجري)، ط1 ،مطبعة البيضاوي ، منشورات وزراة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، 2011/1432، ص 45.

[3]. أنظر فصل دور العلماء في الحياة العامة في السودان الغربي، عبد الرحمان محمد ميغا : نفس المرجع ، ص ص 193، 226 .

إن على المستوى الجماعي ممثلا في المدارس الدينية أو على مستوى الجهود الفردية ، في سبيل الحفاظ على الدين ولغته [1] .

ولقد أضحت تنبكت وغاو خلال القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين حاضرتين علميتين وتجاريتين، ، إضافة إلى جنّى التي توضح رواية السعدي أنها كانت تزخر بالعلماء الذين وفدوا إليها من المغرب ومن تنبكت ، وكانوا يدرسون في مساجدها [2] ، فأنجبت هذه الحواضر علماء أفذاذا انتشروا في كامل إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى متعلمين ومعلمين.

إن الباحث في مجال الحياة العلمية في عصر من العصور يجد المؤشر على تطوّرها يرتبط بكتب وتراث العلماء ومدى شيوع ثقافة الكتاب والمكتبات ، ولذلك كان إقبال سكان حواضر الغرب الإفريقي على اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات ، وقد تبين ان الدعاة والفقهاء والتجار كانوا يحملون معهم الكتب ، ولعل اقلهم حظا ذلك الذي يحمل معه مصحف القرآن الكريم ، فلا عجب أن نجد المكتبات – في المساجد والقصور وبيوت الأعيان والعلماء - من المؤسسات الفاعلة في دفع ازدهار هذه الممالك ، وبناء حضارة خاصة بها ، فكان إستقرار القبائل العربية والبربرية [3] في تلك البلاد من أهم العوامل التي أعطت العلم قيمته.

لقد انتشرت المكتبات التي اقتناها العلماء والأثرياء فغيرت مسار بلاد إفريقيا جنوب الصحراء و سارت بهم مدارج الكمال الحضاري على مراحل مختلفة كمّا وكيفا [4].

واشتهر على العلماء أنهم كانوا لا يبخلون بكتبهم عن الراغبين في الاستعارة منها وكانت تدور حركة نسخ نشطة ليحصل عن طريقها بعض الناس على نسخ من الكتب

[1]. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق، ص 07 .
[2]. انظر: عبد الرحمن السعدي : تاريخ السودان، المصدر السابق ، ص16.

[3] . مجتبي عمر جلال أحمد إبراهيم : المرجع السابق،ص 16
[4] . مهدي ساتي : معالم الجذور التاريخية لحضارات الهوسا وإنعكاس ذلك على حركة عثمان دان فوديو ، الندوة العالمية للأحتفاء بالمجاهد الشع عثمان دان فوديو ، مطبعة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان ، 1995، ص 163 .

التي يريدونها [1] .

فقد دخلت حواضر الممالك الاسلامية ، كتبا في مختلف العلوم الخاصة بالثقافة العربية الاسلامية ففي عهد مملكة مالي كان السلاطين يتسابقون لاقتناء الكتب الدينية منهم السلطان منسى موسى ، فبعد عودة هذا الأخير من رحلته الشهيرة الى الحج وأثناء مروره بالقاهرة اشترى عددا من الكتب الدينية للمذهب المالكي ونقلها معه الى بلاده من اجل تعزيز الحياة الثقافية بها [2] ومما ساعد على كثرة الكتب رغم عدم ابتكار المطابع ما كان يتسم به المرابطون على الثغور من نسخ للكتب بالمجان مما أدى إلى وجود المخطوطات وسهل على المتعلمين وجود الكتب [3] ، بالإضافة إلى تعلم أهل المنطقة فنون الخط وصناعة الورق وان كان على الطريقة التقليدية فكانت المخطوطات والكتب تباع بأسعار أعلى من أسعار السلع التجارية الأخرى [4].

وفي عهد مملكة سنغاي ازداد الاهتمام اكثر بالكتب والمكتبات وهذا راجع الى رسوخ الاسلام خاصة لدى الطبقة الحاكمة ، وأعطى سلاطين المملكة أهمية كبيرة للكتب ، فكان من مواطنيهم من يمتهن نسخ الكتب التي تباع بأغلى الأثمان ، فقد بلغ حب ملك غاو للكتب ان اشترى قاموسا بمبلغ ثمانين مثقالا [5]، وجاء في الفتاش أن الاسكيا داوود اشترى نسخة من القاموس بثمانين مثقالا [6] .

إن هذه المعلومات التاريخية لتدل على مدى ازدهار الحياة العلمية ، وإقبال الناس على شراء الكتب ونسخها وهو ما أدى إلى ثراء المكتبات الخاصة بأمهات الكتاب حتى تكونت الأسر والعائلات الكبيرة [7] ، التي ارتبط اسمها بالمكتبات العامرة الموجودة

---

[1] أحمد شلبي : المرجع السابق، ص 235 .

[2] . تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريـزي : 845هـ/1441م ـ السلوك لمعرفة دول الملوك-ج2 تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1418هـ /1997، ص 11.

[3] . محمد محمد زيتون: المرجع السابق 121.

[4] .جوز يفين كام : المرجع السابق ، ص 68.

[5]. نعيم قداح: المرجع السابق، ص 163.

[6] . محمود كعت : المصدر السابق، ص 108-109 .

[7] . احمد طاهر ، فصول من الماضي والحاضر ، ط1 ، دار المعارف ، القاهرة 1975، ص74.

بمساكنهم الخاصة ، حتى أصبح هذا التقليد شائعا وازداد تجذّرا مع ظهور الزوايا والطرق الصوفية حيث مثّل شيوخها وزعمائها مصدر الفتوى وخزانة العلم والكتب .

إن تجارة الكتب كانت اكبر تجارة في إمبراطورية مالي ، ثم سنغاي وقد ازدهرت الثقافة الاسلامية وكانت جامعة سنكري تخرّج علماء في آداب اللغة العربية والعلوم ، وتشير الروايات التاريخية الى أنّ الكتب كانت مصدر رزق وسلعة تجني منها الأرباح إذ يقول حسن الوزان "ويباع هنا (أي تنبكت) الكثير من الكتب المخطوطة التي تأتي من بلاد البربر ويجني من هذا البيع ربح يفوق كل بقية السلع [1] .

إن هذه الروايات تدل على كثرة العلماء والمتثقفين وعادة ما يرتبط هذا بتوفر الكتب والمكتبات حيث تشير المصادر التاريخية أنه بعد الغزو المغربي لمملكة سنغاي كان لأحمد بابا التنبكتي صاحب كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج مكتبة ضخمة تضم مخلف التأليف [2] ، و بها ذخائر عديدة من الكتب ، نهبت منها ستة عشر مائة كتاب ، ولا ندري هل هذا العدد الهائل صحيح أم مبالغ فيه ، ومهما يكن فان العدد قد ينقص أو يزيد لكنه يجعلنا ندرك ان الكتب متوفرة والمكتبات عامرة خاصة لدى العلماء قدوة الأمة ، فكانت عملية التبادل والإعارة سائدة ومشهورة في حواضر الغرب الإفريقي إذ يروي السعدي ان الطالب يقصد العالم يطلب كتبا فيعطيها له من غير معرفة [3]، وهذا ما يؤكد تشجيع العلماء لطلبة العلم أو ربما العرف السائد آنذاك الذي يذم البخيل في تقديم المساعدة لطالب العلم كما أشار الى ذلك حسن الوزان [4]، فكان سكان الحواضر ينسخون الكتب الأصلية التي لا يملكونها وبأعداد كبيرة إذ تعذر شراؤها [5] ، في مختلف العلوم والفنون [6] .

أما عن محتويات الكتب فهي إسلامية في عمومها تتناول السيرة النبوية والأحاديث

---

[1]. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 28 .
[2]. حسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص 54.
[3]. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 51.
[4]. حسن الوزان : نفس المصدر، ص 541.
[5]. فليكس ديبوا : المرجع السابق،ص 230.
[6]. إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص 313.

مثل صحيح البخاري ومسلم وكتب السيوطي وكتب الفقه على المذهب المالكي خاصة ، مثل رسالة ابن أبي زياد القيرواني بالإضافة إلى كتب الأدب والشعر والكتب الجغرافية والتاريخية والكتب العلمية البحث في الفلك والطب [1] .

وقد ذكر بول مارتي المتخصص في دراسة الاسلام في افريقيا الغربية سلسلة من الكتب العربية التي وجدها في مطلع القرن العشرين في المكتبات الاسلامية نذكر منها على سبيل المثال كتاب الجواهر الحسان لأحمد بابا التنبكتي ، وشجرة اليقين للشيخ أبي الحسن الأشعري وشرح بانت سعاد لكعب بن زهير ، وكتب العالم السيوطي وكتب مولد النبي لسعيد بن جبير وكتاب مقامات الحريري وكتاب المصباح المنير ومقصورة ابن دريد وألفية ابن مالك وقطر الندى ، وإحياء علوم الدين للغزالي وموطئ مالك [2] .

ان الباحث في تاريخ الكتب والمكتبات يجد السبب في اهتمام سكان الغرب الإفريقي بها ، وهو حث الاسلام على طلب العلم ، الذي اكتسب قداسة وارتبط بحسن إسلام المرء ولذلك لا عجب في ان نجد هذه المكتبات موصولة بالمساجد والزوايا والقصور .

2-الإجازات العلمية * :

إن شهادة التخرج أو الإجازة هي إقرار الأستاذ بأهلية الطالب بعد تحصيله التام لفن من الفنون ، ويقع النطق بذلك الإقرار أو يحرر على ورقة تدفع للطالب المتخرج ، ووجدت في الواقع ثلاث درجات للإجازة هي :

- شهادة السماع ، وتعني أن الطالب تتبّع أقوال العالم وحفظها.

- وشهادة العرض، أي سرد الطالب على أستاذه مع استذكاره النصوص ومعرفته شروحها.

- الإجازة الكاملة ، وهي أن يصل الطالب إلى المرحلة التي يستطيع معها ذكر الأسانيد وإرجاعها لمصدرها الأول وذكر الفوارق في الروايات بعد الإلمام بفن معين من الفنون،

---

[1].فليكس ديبوا : المرجع السابق،ص230.
[2].نعيم قداح : المرجع السابق ، ص165.

فهي إقرار الأساتذة بأهلية الطالب بعد إتمام فترة زمنية يتعلم فيها فنا من الفنون او علما من العلوم ويقع النطق بذلك ، أو يحرر على ورق تدفع للطالب المتخرج ، فيمنح إجازة او تصريحا برواية كتب ، لا تسمى تفصيلا كأن يقول له : (إنني أجيز لك ..)[1] .

وقد تتعدد المواضيع التي يتقنها الطالب ويكثر أساتذته فيها جميعاً *، لكن الإجازة لا تعطى إلا في أحوال نادرة، أي عندما يتأكد المدرّس أن الطالب متمكن من مادة وإتقانها إتقاناً تاماً، ويلاحظ مواظبته على تلك المادة واهتمامه بها، وأيضاً عندما يطمئن الأستاذ إلى بلوغ الطالب مرحلة التعليق والمناقشة والاجتهاد ، وقد يكون على المجاز أن يلقي درساً بمحضر أستاذه لتحصل لديه القناعة بالحكم الذي سيصدره والشهادة التي سيشهد بها [2].

ولا تعطى الإجازة أو ينطق بها لأكثر من شخص واحد، فلم تكن شهادة جماعية ، وقد يضم مجلس علمي مجموعة من الطلبة ويحصل كل واحد منهم على إجازة في فن مستقل متمايز، ثم يبقى طالباً عادياً في فن أو فنون أخرى، ويحضر بانتظام حلقات أستاذه فيها.

وكان نظام الشهادات معروفا في حواضر افريقيا جنوب الصحراء خاصة في عهد مملكة سنغاي ، إذ كان الأستاذ كلما لمس احد طلبته مكنا كافيا في مادة من المواد التي درسها عنده ، أعطاه إجازة بخط يده [3] .

وهناك شهادات تعطى فردية ، بمعنى أن الطالب يستطيع الحصول على شهادة من

---

*. إن أول الأجازات التي كان الطلاب يتحصلون عليها كانت حول كتابي الشفا والبخاري.

[1]. فؤاد سيزكين : المرجع السابق ، ص 14.

*. تشابهت الإجازات بين إفريقيا جنوب الصحراء والمغرب الإسلامي بفضل الاتصال بين علمائهما ، ويمكن مراجعة تراجم علماء تنبكت وفقهاء المالكية السودانيين لكي نميز بين نوعين من الإجازات التي أعطيت لبعض المتخرجين : إجازات خاصة تهم فناً أو عدة فنون متحدة الموضوع ، وإجازات عامة تشمل فنوناً وعلوماً متباينة ، ويقع النص على كل نوع في نص الإجازة نفسها ، ومن أمثلة النوع الأول : الإجازات القرآنية والحديثية ، وكان يراعى فيها الاحتياط في قراءة النص والمعرفة التامة بالقراءات السبع واختلاف الروايات الحديثية ، أما الإجازات العامة فتقتضي ختم عدة مواد على النحو الذي يؤهل المجاز لرواية العلم عنه والقدرة على تبليغه للآخرين ، ولم يكن ذلك متأتياً إلا لمن لزم المجالس العلمية لسنوات طويلة قد تشمل جانباً كبيراً من حياة الطالب .أنظر عبد الرحمان محمد ميغا: المرجع السابق، ص 46.

[2]. عبد القادر زبادية، «القرن 16 وحركة التعليم في تنبكتو مركز التبادل الثقافي الأول مع العرب»، مجلة المؤرخ العربي، العدد 14، (1980)، ص 224.(pdf)

[3].عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين،المرجع السابق ، ص147.

الأستاذ ، في المواد التي يتقنها الأستاذ ،ويتعاطى تدريسها ، ولكنه يبقى طالبا في مواد أخرى ، وبناء على هذا فإن الشهادات كانت على شكل انطباع يسجله الأستاذ على مذكرات الطالب في مادة او أكثر ، وهنا يراعي الأستاذ مدى الكفاءة التي يكون الطالب قد حصل عليها [1]، وفي يوم التخرج ، يمنح الطلاب العمائم ، والعمامة ترمز إلى النور الإلهي والحكمة والمعرفة والسلوك والأخلاق العالية ، وهي تمثل الخط الفاصل بين المعرفة والجهل ، مما يعني أن الطالب ملزم بتبادل المعارف والخبرات مع إخوانه [2].

وكان العلماء المغاربة في السودان الغربي يلزمون الطلبة بالحصول على الشهادة ،

بحيث يتأجل تخرج الطالب إذا لم يتحقق له النجاح ويعود من جديد للتعلم [3]، والطالب الناجح هو ذلك المواظب على واجباته الدينية وأوقات الدراسة ، والمجتهد في حفظ ما طلب منه ويحدث أن يكلف الأستاذ طلبته المتفوقين بالإنابة عليه، أو إلقاء الدروس ثم يصدر شهادته عليه [4] وكانت تلك الشهادات تعطى عادة في حفل ، يقيمه اهل الطالب الناجح ، وهذه الشهادة العلمية التي تحصل عليها الطالب تؤهله لان يعمل بإلقاء الخطب ، أو الإمامة ، أو بأن يعمل المتخرج كمساعد للقاضي ،أو نائبا له أو كاتبا في مصلحة حكومية ، أو نسخ الكتب ،أو تعليم القراءة ،وقد تنتهي بالعمل في القضاء وتولي مهامه [5].

المطلب الثاني: التراث الإفريقي المخطوط (بين المحتوى والأهمية) .

1- الإسلام والتراث العلمي:

أدى إنتشار الإسلام في المجتمعات السودانية بغرب أفريقيا ابتداء من القرن الثامن إلى تبلور حركة فكرية و ثقافية تطورت مع الزمن، و اكتسبت مع المرابطين القرن

[1] .عبد الحميد جنيدي : مدينة تنبكت ودورها الحضاري خلال القرن 10-16م ،مذكرة ماجستير ،معهد التاريخ ،جامعة الجزائر ،2010 ، ص 84 .

[2] .Jackson, Mississippi. Sankore University: Rediscover the Glory، *www.muslimmuseum.org/SankoreUniversity.*

[3].عبلة محمد سلطان:العناصر المغاربية في السودان الغربي – دورها السياسي و الحضاري منذ ظهور المرابطين حتى نهاية دولة سنغاي ،رسالة دكتوراه،مركز الدراسات و البحوث الافريقية ،جامعة القاهرة ،مصر ،1999، ص 175 .

[4] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق،ص 46.

[5]. عبد الحميد جنيدي : المرجع السابق ، ص84 .

(5هـ /11م) خصوصيات طبعت فيما بعد الممارسة الدينية و الثقافية في الغرب الأفريقي بصفة خاصة و الغرب الإسلامي بصفة عامة [1] .

يقول أحد أبرز علماء التاريخ في الولايات المتحدة (G.Sarton) ، جورج سارتون:«لقد سبق للعرب أن قادوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الإنساني طال ألفي سنة على الأقل قبل اليونان ثم في العصور الوسطى لقرون عدّة» [2] .

لقد تميز الإسلام في إفريقيا جنوي الصحراء منذ البداية بكونه ظاهرة حضارية، أي أن انتشاره في الأصقاع السودانية ارتبط بتطور المراكز الحضرية التي كانت في نفس الوقت مراكز سياسية، فازدهار الحركة الثقافية و الدينية سار بشكل مواز لظاهرة التمدن التي كانت بدورها وليدة التجارة ، و خصوصا تجارة القوافل ، و التي جعلت المئات من التجار المغاربيين يستقرون ببلدان الصحراء و الساحل لتزداد معها الحاجة إلى تبادل السلع و الأخبار ومعها العلوم و الكتب و الثقافات [3] .

كما استفادت هذه الحركة الثقافية من رعاية النخبة السياسية في أفريقيا الغربية ، وخاصة الأسر الحاكمة ، التي ساهمت من خلال تشجيعها للعلم و العلماء، في استقطاب العديد من مشاهير الفقهاء من المغرب والمشرق و الأندلس ، و هكذا ارتفع شأن العلماء و تعززت مكانتهم الاجتماعية و السياسية في بلاد السودان بقدر ما تقوت الأنظمة السياسية بالمنطقة و تشبعت بقيم نظام الحكم الإسلامي، و أصبحت المدارس و الجوامع الكبرى في ولاته و جيني و تنبكت و كانو منارات يتلقى فيها الطلبة تكوينا يعتمد على مناهج و مقررات لا تختلف في شيء عما يتلقاه الطلبة في فاس و القيروان و قرطبة [4].

وقد ساهم العلماء المحليون في الحركة الثقافية و الفكرية فأبدعوا في اللغة والأدب

---

[1]. محمد المنصور: تقاليد ثقافية مشتركة، مجلة مسالك المعرفة، منشورات معهد الدراسات الأفريقية، الرباط، 2005 ،ص48.

[2]. محمد معروف الدواليبي: دراسة تاريخية عن أصل العرب حضارم الإنسانية، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1981، ص 07.

[3] . عبد العزيز كامل : العروبة و الحضارات الإفريقية في منظور جديد ، مجلة الدراسات الإفريقية ، العدد الثالث ، القاهرة، 1396هـ / 1972.

[4] . Sambre, Bakary (IEP. Institut d'études politiques. Lyon. France): L'Islam dans les relations Arabo-africaines. *www.arabpsynet.com.17.12.2010*

والفقه والتصوف و مختلف الميادين العلمية الأخرى، فخلال القرنين الخامس والسادس عشر، على سبيل المثال كانت مدينة تنبكت تضم العشرات من المدارس يؤمها ألاف الطلبة ، و يدير مجالسها عشرات العلماء و الفقهاء حيث يقول السعدي أن هؤلاء انتقلوا إلى تنبكت قليلا قليلا [1].

و بموازاة مع نشاطهم كمدرسين أقبل هؤلاء العلماء على التأليف فحصل بفعل ذلك كم هائل من المخطوطات يمكن أن نقف على جزء منه فيما يسمى "بمكتبات الصحراء" [2]، و من بين هاته المكتبات خزانة الدراسات العليا و الأبحاث أحمد بابا بتنبكت والتي تحتوي على ما يناهز 20000 مخطوطا من أصول سودانية و مغربية و أندلسية [3] ولا شك أن التأثيرات الإسلامية من أكبر التأثيرات على افريقيا حيث يصعب اليوم على الدارس أن يفرق بين ماهو إفريقي خالص وماهو متأثر بالإسلام لأن العقلية الأفريقية وجدت بالدين الإسلامي ما تصبو إليه وأصبح الإسلام جزء من التراث [4] .

و لكن مع ذلك لم يمح الشخصية المعنوية للأفريقيين حيث احتفظوا بكيانهم واستمروا في التطور، و لم يقم الإسلام وزنا لحواجز اللون و الجنس و القبيلة لأنه كان أقوى من هذه الرابطة و بالتالي أدى إلى توحيد قبائل مجتمعات في دول مستقرة، و قد أحدث الإسلام تطورات كبيرة في حياة و عادات و تقاليد الأفارقة حيث إختفت بتغلغل الإسلام أقبح العادات الوثنية مثل تقديم القرابين البشرية ووأد الأطفال ، و قد أشار ابن بطوطة إلى الكثير من الأفعال الحسنة التي انتشرت في بلدان ما وراء الصحراء بفضل تمسك السكان بمبادئ الإسلام ، إن الحديث عن المخطوطات هو الحديث عن تراث

---

[1] . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص21.

[2]. منها مؤلفات أحمد بابا التنبكتي الذي له أكثر من خمسين كتابا ، ذاع منها صيت كتابه " نيل الابتهاج بتطريز الديباج ومحمود كعت " وكتابه " تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، وعبدالرحمن السعدي وكتابه " تاريخ السودان .

[3] . محمد المنصور: المرجع السابق، ص 08.

[4] . محمد علي عيسى أبو قاسم و آخرون: التواصل الثقافي بين ضفتي الصحراء الكبرى في أفريقيا، ط1، دار الوليد للنشر و التوزيع، طرابلس، ليبيا، 2004، ص 26.

شعب من الشعوب أو أمة من الأمم ، و هو تراث تركه الأجداد ليحافظ عليه الأحفاد حفاظا إيجابيا ، ينفض الغبار عنه و ترميمه وإخراجه من رفوف الخزائن ليرى النور وليستفاد منه في الحاضر خدمة للمستقبل.

و لابد من انتقاء الشروط و تطبيق المقاييس الصحيحة و اتباع الطرق العلمية في خدمة هذا التراث لتوظيفه في دراساتنا و أبحاثنا ، و لا يخفى أن المخطوطات حظيت في كل البلدان العربية الاهتمام و الرعاية ولا أدل على ذلك من وجود الفهارس و الكشوف و القوائم و الأدلة و اللوائح و الذيول الخاصة بهاته الخزانة أو تلك ، و تتمثل كذلك في إخراج المخطوطات تحقيقها ودراستها واستخدامها منجما للمعلومات و المعطيات ومع ذلك لا تزال دور المخطوطات العامة والخاصة في المغرب مثلا ، تضم الآلاف من هي في حاجة إلى الفهرسة و الدراسة والنشر.

و تمثل المخطوطات ثروة علمية تعتز بها الأمة الإسلامية ، و هي دليل على علو مكانتها الثقافية و نبوغها الفكري و اشعاعها الحضاري[1] ، فخلق علماء غرب إفريقيا تراث كبير تعددت طبيعته ومواضيعه ووجدت مكتبات ضخمة من المخطوطات [2] .

و بحكم العلاقات التاريخية بين بلاد المغرب و بلاد السودان فقد انتقلت إلى بلاد المغرب مؤلفات علماء السودان، و انتقلت إلى بلاد السودان مؤلفات علماء المغرب في حركة مد و جزر، و كانت مدينة فاس من المدن المغربية التي أصابها الحظ الوافر من التراث السوداني المخطوط [3] .

و تدل البحوث الجارية بشأن الموروث من المخطوطات أن إستخدام الأعجمية* كان منتشرا جدا في أفريقيا جنوب الصحراء ، و بسبب سوء حالة التخزين ، فُقد الكثير

---

[1] حسن الصادقي: مخطوطات عربية مصدرا للدراسات الأفريقية، مجلة المغرب الأفريقي، عدد 5، مطبعة الكوثر، الرباط، المغرب، 2004، ص 22.

[2] قاسم جاخاتي: المخطوطات الأفريقية المكتوبة باللغة العربية و دورها في التعريف بالتراث الإسلامي في غرب أفريقيا مخطوطات أحمد بابا التنبكتي و الشيخ موسى كمرا نموذجا، مجلة رفوف جامعة أدرار، جوان 2013 ، ص 2.

[3] حسن الصادقي: مخطوطات في موضوع أفريقيا، منشورات معهد الدراسات الأفريقية، الرباط، 1993. ص 15.

*.المقصود بالأعجمية هو المخطوطات التي كتبت بغيراللغة العربية.

من المخطوطات التي تعطي فكرة عن حجم الانتاج ومع ذلك فلا زالت هناك بلغات الولوف ، و الهوسا، و البولار والماندجية، و الصونغاي، و خاصة بالسواحيلي، والكثير منها كتب على شكل مراسلات ، و كذلك الكتابات العلمية التي كتبت بها المعاهدات ، والشعر، و كثير من الأدب الأعجمي يتعلق بالشؤون الدينية ، و هي ترجمة لبعض الكتابات الغربية في بعض الأحيان مثل البردة التي ترجمها للغة البولار ، الشيخ أبو سعدو و نجد في السودان الأوسط كمية كبيرة من الآداب الأعجمية انتجت [1] في الفقة .

يعود الفضل للرحلات في الاحتفاظ بآثار لولاها لكانت عرضة للاندثار والنسيان[2] ، فوجود المخطوطات ودورها الخاصة والعامة برهان أكيد على الاهتمام بالعلم والعلماء ، إذ كان أجدادنا يجودون بالنفس والنفيس للحصول على هذا الكتاب أو ذاك حتى و لو كان في أقطار بعيدة [3].

2- محتوي التراث الأفريقي المخطوط:

تتناول مخطوطات حواضر إفريقيا جنوب الصحراء مختلف المعارف والعلوم العربية الإسلامية ، فهناك نسخ القرآن الكريم وتأليف في مختلف العلوم الدينية من علوم القرآن و الحديث والفقه والعقيدة والتصوف ، إضافة إلى العلوم اللغوية والأدبية و كذا التاريخ ، و العقليات مثل الفلسفة و المنطق ، العلوم التطبيقية مثل الطب والصيدلة والنبات و الفلك و الكيمياء ، هذا إلى جانب علم التنجيم ، فضلا عن الوثائق و العقود والمراسلات و الاجازات [4] .

وقد كتب أحمد بابا التنبكتي في إحدى مخطوطاته عن الانجازات و الكتب التي قرأها والعلماء الذين تخرج على يدهم فيقول: «لازمته أكثر من عشر سنين قرأت عليه بلفظي مختصرا خليل و فرعي ابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير ختمتها عليه ، أما

---

[1]. Osmame Kame; intellectuels non europhones document de travail, Dakar, Senegal, 2003. p 41.

[2]. حسن الشاهدي: المرجع السابق، ص 539.

[3]. حسن الصادقي:المرجع السابق، ص 54

[4]. محمد المغراوي: تنبكت ألف سنة من المكتبات، مجلة مسالك المعرفة، المخطوطات العربية و العجمية في بلاد الصحراء و الساحل، منشورات معهد الدراسات الأفريقية، الرباط، 2006 ، ص 11.

خليل فمرارا عديدة نحو عشر مرات أو ثمان بقراءتي وقراءة غيري وحضرت عليه التوضيح وكذلك لم يفتني منه إلا اليسير من الوديعة إلى الأقضية عليه وختمت عليه الموطّأ قراءة تفهم ، والمدونة بشرح المحلي ثلاث مرات وألفية العراقي في علم الحديث مع شرحها ، و حضرتهما عليه مرة أخرى وختمت عليه تلخيص المفتاح مرتين وبعض الثالث بمختصر السعد صغرى السنوسي مع شرح الجزرية وحضرت الكبرى وشرحها و قرأت عليه حكم ابن عطاء الله مع شرح زروق عليه ونظم أبي مقرعة والهاشمية في التنجيم مع شرحها و مقدمة التاجوري ورسالة المغيلي في المنطق والخزرجية في العروض بشرح الشريف والد ماميني وكثيرا من تحفة الحكام لابن عاصم في الأحكام تحفة مع شرح ولده عليها ، و سمعت بقراءته هو كثيرا من البخاري و مسلما كله ودولا من مدخل ابن الحاج و بقراءة غيري دروسا من الرسالة و الألفية و غيرها ، و سمعت بلفظه جامع معيار الونشريسي كاملا و هو مجلد كبير و مواضع آخر منه و باحثته كثيرا في المشكلات و راجعته طويلا في المهمات ، وبالجملة فهو شيخي و أستاذي ما انتفعت بأحد انتفاعي به و بكتبه ، رحمه الله ونفعه وأجازني جميع ما يجوز له و عنه و كتب لي بخطه في ذلك و وافقته على بعض تآليفي فكتب لي بخطه الثناء والموافقة بل كتب عني أشياء من أبحاثي لحسن نيّته وسمعته ينقل في دروسه بعضها لانصافه و تواضعه وقبوله»[1].

و على العموم تتداخل في مخطوطات حواضر أفريقيا جنوب الصحراء معرفة مسارات الكواكب بأوزان الآلات الموسيقية و أشعار فحول الشعراء بمقولات المتكلمين ووثائق التاريخ بنوازل الفقه و وصايا حول مضار التبغ بمنافع نباتات أخرى واستعمالاتهما، و يبدو أن من بين ما تتميز به مخطوطات تنبكت ذلك الاهتمام الخاص بقضايا الرّق التي تعكسها كتب النوازل المحلية و التأليف الموضوعية و المراسلات والوثائق العدلية التي تعالج مختلف جوانب الموضوع.

---

[1]- قاسم جاخاتي:المرجع السابق ،ص 74.

3- خصائص المخطوط االأفريقي:

إلى جانب فرادة خطه و زخارفه يثير المخطوط الأفريقي الانتباه بكون أوراقه مفردة لا تحمل أرقاما في الغالب و ليس عليها رقاص في أحيان كثيرة فإنها ظلت مرتبة مما يدل على تمكن علماء المنطقة و طلبة العلم بها من العلوم العربية الإسلامية التي كانوا يحفظونها عن ظهر قلب و في مكتبة كعت يلفت الانتباه أيضا ذلك العدد الهائل من الهوامش التاريخية الغنية التي وضعت على العديد من المخطوطات و التي تحكي تاريخ تنبكت و تاريخ المغرب و تاريخ الأندلس بتفاصيل نادرة و نقول من مصادر مفقودة بعضها عبارة عن مذكرات بخط المؤرخ الشهير محمود كعت و غيره ويفوق عدد هذه الهوامش 6000 هامشا و لا صلة لأغلبها أحيانا بموضوع الكتاب الذي نقلت عليه[1].

كتبت مخطوطات تنبكت بخطوط عربية متنوعة منها الخط النسخي و الثلث المشرقيين، و منها الخط الأندلسي و الخط المغربي بأنواعه مثل الثلث و المبسوط والمجوهر و الزمامي إضافة إلى الخطوط المحلية و أهمها الخط السوداني و هو الخط السوفي، فضلا عن الخط المشترك بين المغرب و بلاد السودان و هو الخط الصحراوي الذي كان يكتب به من سوس و درعة و تافيلالت إلى بلاد شنقيط والتكرور و تنبكت و غيرها، أما الخط الكوفي القديم فحاضر في تزيين العديد من صفحات المصاحف الكريمة مذكرا بماضي بغداد و قرطبة و فاس [2].

إلى جانب فرادة خطه و زخارفه يثير المخطوط السوداني الانتباه بكون أوراقه مفردة غير مجموعة في ملزمات أو ملصقة بتجليد لا تحمل أرقاما في الغالب و ليس عليها رقاص في أحيان كثيرة ،فإنها ظلت مرتّبة مما يدل على تمكن علماء المنطقة وطلبة العلم بها، من العلوم العربية الإسلامية التي كانوا يحفظونها عن ظهر قلب .

---

[1]. محمد المغراوي: المرجع السابق، ص 23.

[2]. أنظرالملحق رقم 01 : مخطوط : تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء لأحمد بابا التنبكتي .

4- أهمية التراث الإفريقي وعلاقته بالفن الإسلامي:

بقدر ما تعكس مضامين المخطوطات تمازجا علميا و ثقافيا قويا بين الوعي الإسلامي و حواضر الممالك الإسلامية في الأسانيد والإجازات ورحلة المخطوطات نفسها ، فإن صناعة المخطوط تعكس من جانبها تمازجا متميزا بين الفنون الزخرفية المغربية الأندلسية و مثيلتها المغربية الإفريقية ، وإذا كانت الزخرفة المغربية تنفرد بالتذهيب واستعمال الفضة والأناقة البالغة و دقة الاخراج ، فإن الزخرفة الإفريقية تذهب بعيدا في استعمال الألوان النباتية الحية والأشكال المحلية المبتكرة وقد أبدع كل من النساخ و المزخرفين المغاربة و الإفريقيين في زخرفة نسخ المصحف الكريم وصحيح الإمام البخاري و الشفا للقاضي عياض و دلائل الخيرات للإمام الجزولي وكتب الأدعية والصلوات مؤكدين على ارتباط الكتاب بالعقل و الروح على حد سواء[1].

وبالنسبة للورق على مختلف أنواعه ، المغربي منه والمشرقي والأندلسي والأوربي فقد كان واسع الانتشار ، مع وجود بعض المخطوطات التي كتبت على الجلد ، فقد كان من تقاليد أهل مالي كتابة آيات و أدعية للحفظ على ألبسة المحاربين.

و لازال الخط الصحراوي والسوداني طريا على ألواح الصغار وهم يتعلمون القرآن في محاضر تنبكت إلى اليوم[2] ، حتى يجب أن نعتبر المخطوط عملا علميا يستحق صاحبه أن ينال رسالة بدرجة الماجستير أوالدكتوراه ، غير أنه ليس كل مخطوط صالحا لأن يكون مشروع رسالة علمية أكاديمية ألا إذا توفرت فيه جملة من الشروط [3].

و لازالت حواضر غرب أفريقيا تختزن شيئا من زخم ذلك الماضي التليد حيث تحتضن تنبكت اليوم عددا مهما من المكتبات الزاخرة بالمخطوطات العربية النفسية أهمها مكتبة معهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية التي تتوفر على أكثر من 20.000 مخطوط ، إلى جانب عدد من المكتبات الخاصة مثل مكتبة مما حيدرة التي

1. محمد المغراوي: المرجع السابق، ص 12.
2. نفس المرجع: ص 13.
3. رابح درفور: شروط اختيار المخطوطات للرسائل الجامعية، مجلة رفوف ، العدد الأول،جامعة أدرار ،الجزائر ، جوان 2013 ، ص 89.

تضم أكثر من 9000 مخطوط ، و مكتبة كعت التي تتوفر على أكثر 7000 مخطوط ، و مكتبة الونكري [1].

إن الحديث عن المخطوطات في إفريقيا جنوب الصحراء لا يتأتى دون الحديث عن اللغة العربية فإن الاثنين مرتبطان منذ البداية والأهمية البالغة التي يعلقها السنغاليون على هذه اللغة يأتي من كونها اللغة التي اختارها الله من بين آلاف اللغات التي يتخاطب بها الناس في العالم لنقل رسالة القرآن الكريم إلى البشرية قاطبة.

و إذا كانت المصادر التاريخية التي أشارت إلى بدء انتشار الإسلام في المنطقة منذ القرن الحادي عشر لم تتحدث بالتفصيل عن حالة التعليم الديني فإنه لا مفر من افتراض وجود حد أدنى من هذا التعليم لضمان نقاء الدين و انتشاره وقد أشارت مصادر تاريخية إلى وجود معلمين إلى جانب الملوك المحليين و كان هؤلاء يقطعونهم أراضي ينشئون عليها قرى كانت تتحول تدريجيا إلى مراكز إشعاع للثقافة الإسلامية [2] وكان المتخرجون منها يعودون إلى مناطقهم ، و ينشئون فيها مدارس لتحفيظ القرآن الكريم و تدريس العلوم الشرعية [3].

و المقصود أن اللغة العربية أولى لغة مكتوبة استعملت في تلك البلاد وأن استعمالها استمر على درجات متفاوتة منذ دخول الإسلام إلى أفريقيا جنوب الصحراء ولا أدل على ذلك من كون جميع مصادرنا التاريخية الهامة بل سائر الكتب التي ألفها السودانيون قبل الفترة الاستعمارية كتبت بالعربية ، بل كانت هذه اللغة بمثابة لغة رسمية للبلاد حتى اضطر الفرنسيون إلى استعمالها في مراسلاتهم مع زعماء القبائل المحلين[4].

و يظهر السوداني غيور على الدين الإسلامي لم يفته التأليف باللّغة العربية رغم

---

[1]. محمد المغراوي: مرجع سابق، ص 05.

[2]. الأمين أبو منقة: أثر الإسلام و اللغة العربية في أدب الهوسا، مجلة الدراسات الأفريقية، جامعة إفريقيا العالمية ،الخرطوم ،السودان ،ع 11، يوليو1994. ص 36.

[3]. خديم محمد مباركي: مخطوطات المعهد الأساسي لأفريقيا السوداء، جمعها و حفظها و استغلالها، مجلة المغرب الأفريقي، العدد 01، منشورات معهد الدراسات الأفريقية، مطبعة الكوثر، الرباط،2000، ص 200.

[4]. خديم محمد مباركي: المرجع السابق، ص6-7.

عجمة لسانه كما تشير إلى ذلك المخطوطات [1].

و دوّنت بالخط المغربي في الكثير من الحالات ، و هو الخط السائد في بلاد السودان [2]. و انتقل هذا التأثير إلى ما يتعلق بقراءة القرآن برواية ورش و بالمذهب المالكي[3].

وعلى امتداد قرون من الحكم الإسلامي لحواضر غرب أفريقيا ظلت مراكز للعلم ويكفي فخرا امتداد ما يقرب من عشرة قرون من حكمهما المنصف العادل ، أن اللغة العربية في زمنه كانت لغة العلم العالمي و لسانه ولا أدل على ذلك ملايين المخطوطات و المصنفات غير المسبوقة في كل علم و فكر وفن، التي ابتدعتها العبقرية العربية الإسلامية ، كتبت بأقلام الآلاف من سلفنا الصالح خالدي الذكر رجالا ونساء و هي كنوز من الدرر المنثور والعبق المنشور، منها من رأى النور، و منها مازال مخبوءا في كبريات المكتبات و المتاحف و دور العلم المعروفة في الغرب بخاصة [4].

5- واقع التراث الأفريقي المخطوط (مشاكل متعلقة بحفظ المخطوطات) :

ظلت الجهود الفردية التي بذلها رجال من الأسر الدينية على مدى قرون الوسيلة الوحيدة للمحافظة على التراث المكتوب، لكن جدوى تلك المبادرات ظل محدودا بسبب فقدان مؤسسات تعنى بحفظ التراث لأن الممالك التي حكمت البلاد لم تكن ذات طبيعة دينية و لم تكن لها اهتمامات ثقافية تذكر بل كانت تقضي جل وقتها في صراع من أجل البقاء وسط النفوذ ، هذا و لم تكن ظروف حفظ المخطوطات جيدة إذ كانت تحفظ في صناديق من الخشب السريع التلف أو الجلد الذي لا يقاوم هجمات القوارض و الحشرات والكوارث الطبيعية والإنسانية التي لعبت الدور الأكبر في اتلاف عدد لا يستهان به من المخطوطات الأمر الذي يفسر قلة الكمية المجموعة منها.

---

[1] حسن الصادقي: المرجع السابق،ص 23.
[2] نفسه، ص 15.
[3] مسعود جبران:المرجع السابق ،ص 155.
[4] فهمي توفيق محمد مقبل: مأثر العرب و المسلمين في الحضارة الأوربية- الفكر الجغرافي أنموذجا-، مجلة جامعة البتراء،الأردن ، 2009 ،ص 07-08.

ومن جهة أخرى أدى إلى الانحطاط التدريجي للتعليم الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء إلى انتقال التراث العلمي الإسلامي إلى جهات لم يعجزوا فقط على إثرائه بل اكتفوا باعتباره تراثا مقدسا يحفظ ولا يستعمل ، فقد اكتشفت في بعض المراكز الدينية أكياسا من الكتب موضوعة إلى جانب ضريح مؤلفها بطريقة تنمّ عن الظن بها على الأجانب الراغبين فيها .

وأحيانا وقعت وثائق ثمينة في أيدي ورثة غير مكترثين بها فباعوها بثمن بخس أو أعاروها لمن استولى عليها نهائيا دون أن يستفيد منها البحث العلمي.

حتى أن مصادر منهجية لتاريخ غرب أفريقيا تعرضّت إلى عدّة مشاكل يطرحها تاريخ الفتاش [1] مردها إلى التشكيل في تأليفه و نتيجة لعمليات التحريف التي أصابته [2].

هذا أيضا يجعلنا نعتقد أن هناك مخطوطات لازالت موجودة في خزائن العائلات الكبرى و بعضها لا يزال كنزا من منظور العادات الأفريقية خاصة في شمال مالي والنيجر حاليا [3] فلا ريب في أن المخطوطات التي كتبها علماء غرب أفريقيا باللغة العربية كثيرة و متنوعة نشر القليل منها ، ولكن مجلدات كثيرة منها مازالت قابعة في خزانات المكتبات المحلية و الدولية الخاصة و العامة في انتظار من يخرجها من رفوفها ليقوم بتحقيقها و التعليق عليها ونشرها أو البحث إلى إلقاء الضوء على طبيعة هذه المخطوطات و على قيمتها و دورها البارز في التعريف بتراث غرب أفريقيا الإسلامي.

و قد دفعتنا ضخامة المخطوطات المذكورة و تنوعها إلى اختيار عيّنة من مخطوطات عالم بارز من أبناء غرب أفريقيا كانت له مساهمة فعّالة في نشر التراث الإسلامي في غرب أفريقيا و هو أحمد بابا الذي تبحر في علوم و معارف التراث الإسلامي بصفة عامة و الغرب الأفريقي بشكل خاص و اكتسبه خبرات حياته حنكتها

---

1. عبد الباقي محمد أحمد:الدور الثقافي للشيخ أحمد بابا التنبكتي، مجلة دراسات أفريقية، العدد، 8،جامعة إفريقيا العالمية ،الخرطوم، 1991، ص 88.

2. LEVTZION, Nebemia," A Seventeenth-Century chronicle by IBN Al-MUKHTAR.A critical. Study OF tARIKH AL-FATISH" B.S.O.A.S. XXXIX, 1971, PP. 571-593.

3. خديم محمد مباركي:المرجع السابق ،ص202.

و نشر الكثير من علومه و معارفه الموسوعية في مخطوطاته [1].

و مع ذلك نعتقد أن معطيات الدراسات و التحليلات التي أجريناها على النماذج التي اخترناها من مخطوطاتها تكشف النقاب عن معظم حقائقها، و توضّح لنا كثافة مواد التراث الإسلامي الكامنة فيها و أهمية الدور الذي تلعبه في التعريف به و قد سعيت إلى ذلك في تحليلي لبعض مضامين المخطوطات لأحمد بابا الذي يحتوي معلومات متعلقة بالتقاليد الإسلامية و الاجتماعية و الجغرافية و التاريخية لغرب أفريقيا ، و في عرضي لمخطوط كفاية المحتاج التي جاوزت مواضيعه حدود دول غرب أفريقيا ، الموسوعي الخاص بقضايا التراث الإسلامي لمناطق غرب أفريقيا [2].

فالتراث ابداع فكري متميز يشمل بين طياته الفلسفة وعلم الكلام والتّصوف والأدب و الإلهيات و العلم و الفن وغيرها وهو يعكس البعد التاريخي أو الزمني للثقافة باعتباره تسجيلا للحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية خلال التاريخ ، فهو بذلك حافظة الماضي ووازعه و ذاكرته كما سجلته عقول ذلك الماضي من فلاسفة و مفكرين وأدباء وعلماء وغيرهم وهذا التراث العميق لا يزال يعيش فينا بشكل أو بآخر، و إن ندرك ذلك تمام الادراك [3].

إن الثقافة التي طبعت غرب أفريقيا بعد دخول الإسلام و القدرة الفائقة للتّحول والتغير في التفاصيل و المقومات من أجل التكيف مع الأوضاع و الظروف الجديدة ساعد على البناء و الاستمرار و الانتشار في نطاق واسع من غرب أفريقيا ، ممتدا إلى جميع الجماعات والقبائل التي تربطها التجارة كعامل استمرار و بقاء ممّا ساعد على التراث الأفريقي على توصيل تعاليم الإسلام.

إن الثقافة الشفاهية في هذه المنطقة هي الأقدر على توصيل تلك الرسالة بطريقة تلقائية و سريعة فاستخدم هؤلاء الأفارقة الرواية الشفويّة التي تحمل عدة طرق كالإسناد

[1]. قاسم جاخاتي: المرجع السابق، ص75-76.

[2]. أنظر الملحق رقم 01 : مخطوط : تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء لأحمد بابا التنبكتي .

[3]. أحمد أبو زيد: البناء الاجتماعي، مدخل لدراسة المجتمع ، ط7، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980، ص 65.

و الروايات الشعبية [1] ، وصاحب ذلك إنتشار النسخ وأضحت الكتابة حرفة ، وبيع الكتاب تجارة [2] .

المبحث الثاني: العمران وتخطيط المدن.

-المطلب الأول: العمران:

1- البناء ومواده:

في إفريقيا جنوب الصحراء قامت مؤسسات التعليم الإسلامي والعربي بدور أساسي في التأصيل للأسس التربوية التي سارت على هديها المجتمعات والقبائل الأفريقية وحتى الحركات الجهادية ، حيث تعد المساجد رائدة في هذا المجال على امتداد تاريخ الإسلام والمسلمين ، فلم تقتصر رسالة المسجد منذ فجر الإسلام على أداء الصلوات فحسب ، وإنما كانت منذ عهد الرسول صلي الله عليه وسلم مدرسة للعلم ، والتعلم والتربية بشتى مناحيها ، وقد أفردت للمساجد فصول ضمن جغرافية المدن [3] .

وظل المسجد يؤدي رسالته التربوية التعليمية حتي بعد استقلال المدرسة عنه في القرن الرابع الهجري ، وفي إفريقيا جنوب الصحراء كان تأسيس المسجد يعني بدء التعريف بالإسلام والإعلام بحركة انتشاره ثم تواصلت مهمته لتثمر التمكين له دينا ودولة ، عقيدة وشريعة ، ولذلك ظل انتشار المساجد في إفريقيا أمرا يؤرق أعداء الإسلام على اختلاف فرقهم ، وظل الأمراء يوقفون الأوقاف علي هذه المساجد لتسييرها [4].

كان للإسلام أثره في مختلف أوجه الحياة الحضارية، وظهر ذلك بصفة خاصة في مجال العمارة والبناء ، فعلى الرغم من الثروة الهائلة في بلاد السودان الغربي، إلا أن فن

---

[1]- أحمد أبو زيد:المرجع السابق، ص 170-178.

[2].يوسف فضل: إنتشار الأسلام في إفريقيا ،ط1، مطبعة جامعة الخرطوم ،1979، ص 16 .

[3]. محمد محمود محمدين : التراث الجغرافي ، المرجع السابق ، ص 293.

[4]. محمود كعت : المصدر السابق ص 106 .

العمارة كان في مراحله الأولى ، فمنازل الملوك،كانت تبنى من الحجر والآجر، وقد يأذن الملك لبعض أبناء الطبقة الغنية باستعمالهما في البناء [1] .

تطور بناء المساكن في المجتمع السوداني بمرور الزمن، ففي بداية أمرهم كانوا يبنون

منازلهم من أغصان الأشجار وجلود الإبل على هيئة خيام ثم تطور البناء فأصبح بالأحجار والطين والخشب العريض الطويل[2].

وكان الفن المعماري الأصيل لإفريقيا قبل الإسلام هو البناء المستدير المغطاة سطوحه بالأخصاص والقش في شكل هرمي لا أضلاع له،وربما يعود ابتداع ذلك إلى عامل التكيف مع المناخ حيث أن فصل الأمطار بالمنطقة كلها تحفل السحب فيه بأمطار غزيرة ، وقد كانت الحيطان تبنى بالطوب ونادرا ما تتخللها الحجارة ، وكان بناء الذوات كثيرا ما يتميز باستعمال الآجر (الطوب المشوي)،في حين تبنى بيوت الفقراء والمتوسطي الحال بالطوب المجفف قد يخلط بالتبن أحيانا حتى يزداد صلابة،وقد وجدت لدى سكان إفريقيا الغربية عادة بناء حوش أو زريبة أمام المنزل لإيواء المواشي فيه ،أو لستر واجهة المنزل، وهي نفس الطريقة الموجودة في بلدان المغرب العربي[3].

ومع انتشار الإسلام ، وازدياد روابط الاتصال بين السودان الغربي والعالم الإسلامي،أصبح الملوك والنبلاء يستخدمون البنائين من المغرب ليقيموا لهم القصور والبيوت على الطراز العربي المغربي الذي كان سائدا[4].

وأقام التجار في المدن حوانيتهم على الطريقة المغربية في بناء مخازن البضاعة في أسفل دور السكن وقد قلدهم في ذلك الإفريقيون، وقد لعب المعماريون المغاربة دورا كبيرا في تخطيط مدينتي جني وغاو[5].

---

[1].زينب أحمد هاشم:المرجع السابق، ص177.

[2].الهادي المبروك الدالي:التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، المرجع السابق، ص26.
[3].عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين ،المرجع السابق،ص52.
[4].نعيم قداح:المرجع السابق،ص146.
[5].نفسه ،ص146.

ولعل أهم مرحلة تاريخية شهدت قفزة نوعية في العمران وهندسته، كانت بعد رحلة سلطان مالي الشهيرة، فقد عاد منسى موسى من بلاده مبهورا دون شك بحال قصور القاهرة وعظمتها ،وقد اصطحب معه المهندس المعماري الشهير أبا إسحاق، فبني المسجد الجامع بمدينة غاو والذي لم يبقى منه إلا الحطام وجانب من المحراب.

وفي تنبكت بني مهندس الإمبراطور الجامع الكبير،وقصرا ملكيا، ولكن أجمل عمل أنجزه كان قاعة المجلس الشهيرة التي بناها في نياني وأودعها خلاصة فنه، وكان الملك يريد بناءا متينا محصنا.

فبني المهندس قبة مربعة الشكل إستفرغ فيها إجادته، وكان صناع اليدين معاونيه، وأضفى عليها من الكلس، ووالى عليها بالأصباغ المشبعة، فجاءت من أتقن المباني، ووقعت من السلطان موقع الإستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم، فكافأه بإثنى عشر ألفا من مثاقيل الذهب[1].

وما من شك أن السلطان استعمل أكثر المواد شيوعا في هذه المنطقة من السودان، وهي الطين المضغوط، والبنائي المشيدة بمثل هذه المادة في الأماكن المماثلة لنياني في موقعها من خطوط العرض تستدعي الترميم بشكل دائم ومستمر.

أما شمالي ذلك فإن قلة الأمطار تتيح صون المباني بشكل أفضل ،وتلك حال مساجد جني، و تنبكت، وغاو[2].

ونظرا لقلة الحجارة فقد استخدم الطين المقوى بالخشب، وهو ما نشأ عنه النمط الطريف من المساجد السودانية المقواة بالأخشاب ، وازداد عما توالى من أعمال التخريب، وبعد أن تعرت الجدران من طبقة الحصى التي كانت تغطيها تحول البناء الذي أنجزه المهندس الساحلي إلى كومة من الطين والحجارة.

---

1. عبد الرحمان ابن خلدون: العبر، ج،المصدر السابق7،ص201.
2. جبريل.ت.نياني: مالي والتوسع الثاني للماندانغ،تاريخ إفريقيا العام، المجد الرابع،اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988، ص 161.

وهكذا تأثر العمران في حواضر السودان الغربي بالتطور العلمي والحضاري والثقافي وإمتلئت الحواضر الكبرى بالشوارع العريضة ،والبيوت ذات السطوح العالية، والأبواب الضخمة ، وهذه هي المظاهر الأساسية في مدن شمال إفريقية[1].

وتطور البناء بالأحجار والطين، وظهرت الهندسة المعمارية العربية، في البناء، وظهر نظام الأقواس والنقش على الطراز الإسلامي، والإبداع الفني[2].

وتطور البناء عموما في إفريقيا جنوب الصحراء من الدور المبنية بالطين ولوح الخشب المحكم الالتصاق[3]،غلى بناء القصور والمساجد بمواد وهندسة جديدة أدخلها المسلمون إلى غرب إفريقيا حيث يبدوا أن هندسة أبو إسحاق الساحلي قد اعترت أرفع الأنواع وقلدت إبتداءا من تلك الفترة[4].

وهكذا ندرك أن العمران من أهم مظاهر تأثير الحياة العلمية وعلى تطوره في حواضر الغرب الإسلامي،حتى جعل بعض المؤرخين الأوروبيين يذهبوا إلى أن الإسلام هو الذي فتح باب التاريخ لإفريقيا، أما قبل الفتح الإسلامي فتاريخ إفريقيا لم يبتعد قط عن ضفاف البحر المتوسط والأحداث التي تعرضت لها القارة لم يصل صداها إلى العالم الخارجي إلا بعد الفتح الإسلامي[5].

2-المسجد وهندسته:

معلوم أن العمل وفق خطة مرسومة لبلوغ الأهداف يعد وسيلة مهمة في بلوغ الأهداف المرجوة فغياب التخطيط لأية مهمة يوقع في التخبط والاضطراب وقديما نعى

[1].نعيم قداح: المرجع السابق، ص146.
[2].الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء،المرجع السابق، ص26.
[3].مارمول كربخال: إفريقيا ،ترجمة عن الفرنسية :محمد حجي و أخرون ،دار النشر ،الرباط ،المغرب ،ص61.
[4].عبد القادر زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا جنوب الصحراء ،ط1،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،1989،ص53.
[5].Alphonse Juilly :L'islam dans l'Afrique occidentales français –paris ,1952,pp 45-46.

العلامة عبدالرحمن بن خلدون على بعض العلماء والدعاة والمرشدين افتقارهم إلى التخطيط وعدم البحث عن أسباب المنعة والتمكين فقال في مقدمته[1] .

كان المسلمون في كل زمان ومكان يتخذون من المساجد والأماكن الملاصقة له مراكز لتعليم صبيانهم ، القراءة والكتابة ولم تكن البلاد السودانية استثناء عن ذلك .

وقد لاحظ الرحالة هذا ومنهم حسن الوزان وأكدوا أن مسلمي السودان استخدموا المساجد أماكن للتعليم [2] ، فلعب المسجد دورا هاما في حياة المسلمين عامة والتعليم خاصة ، فقد كان المسجد عبر قرون مدرسة وبيت الجماعة ودار الضيافة [3].

اهتم التجار والدعاة والأمراء في حواضر غرب افريقيا لأمر بناء المساجد كوسيلة لتوطيد الاسلام في الاقاليم الجديدة ، ونجد الكثير من الرحالة والمؤرخين الذين ناولوا ،بناءه ورواده وأهميته ودوره .

بدأ أهل السودان الغربي يهتمون بالتعليم منذ ان اخذ الاسلام يشق طريقه إليهم وازداد مع هذا الانتشار والتوسع بناء المساجد في الحواضر الاسلامية ن حتى أضحى المسجد جزء من الظاهرة العمرانية للحواضر الافريقية .

كان لكل حاضرة مسجدها الكبير الذي يجمع فيه السكان وقد نظمت المدن الاسلامية من حيث تخطيطها لتلاؤم حياة الطوائف الاجتماعية ، وفقا للأغراض الاقتصادية ،من ذلك بناء الحوانيت التي تبيع الكتب والعطور ، ثم تستدير الأبنية الأخرى حول المسجد لقوم فيها أعمال التجارة والصناعة [4]، وتكون القبائل المهاجرة الى حواضر الغرب الاسلامية من العرب والبربر[5]، قد ساهموا بالقسط الوافر في إدخال صورة جديدة

---

[1]. عبدالرحمن ابن خلدون : المقدمة ، المصدر السايق ، ص 537 – 538 .
[2]. عز الدين عمرو موسى :المرجع السابق، ص119.
[3]. الخطيب البغدادي: تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم ، تلخيص وترتيب سامي الصقار ، ط1،دار المريخ ،الرياض 1401-1981ص 69 .
[4]. نعيم قداح : المرجع السابق ،ص 145 .
[5]. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق، ص 21.

للمساجد في سرعة انجازها وإعطائها الصورة المفضلة لها .

إن تقدم الاسلام في الفترة مابين القرن 14 والقرن 16 قد دعا السلاطين الى بناء عدد كبير من المساجد لإستعاب العدد الهائل من المصلين والمتعلمين وتنافس التجار والحكام والخيرين على بناءها وكان هؤلاء يتباهون بالإنفاق ، على صيانتها وترميمها وهاهو القاضي العقاب بن محمود بن عمر أقيت انفق في ترميم المساجد الثلاث (المسجد الكبير ، مسجد سنكرى ن مسجد سيدي يحيى لا يعرف نهايته الا الله تعالى، كان ينفق يوما سبعا وستين (67)مثقالا الا ثلثا ، وقد نافسه في الإنفاق الحاج الأمين [1].

يعتبر بناء المساجد عمل جماعي يساهم فيه كل سكان المدينة ، حيث يختار الأعيان والعلماء موقع بناء المسجد ن ويشترك الشباب في العمل بنقل مواد البناء ، والنساء يحملن الماء ، ويحضر بعضهم الملاط ويعد هذا عملا خيرا لا يتقاضى عليه العمال أجرا وعادة ما يتبرع الأغنياء والتجار بالمال او المواشي لإعداد الطعام اللازم للعمال ، وأحيانا يصاحبه الاحتفال على الطريقة الافريقية .

عند البناء يراعى ارتفاع المسجد الذي يتراوح بين 3.5 الى 5 متروطوله الذي يصل الى عشرات الأمتار وذلك حسب عدد السكان ، وعدد الأبواب ودرجة الإنفاق عليه [2].

إن مساحة المسجد ومئذنته والمساحات المحيطة به تختلف من حضارة الى اخرى ،

فغالبا ما يكون في كل حضارة مسجد جامع يتمتع بمساحة كبيرة ومئذنة يتراوح علوها بين المتر الى الثلاثة أمتار وفناء واسع به أشجار [3].

أما في القرى ، فتنتشر المصليات ذات الأشكال المختلفة مربعة أو مخروطية الشكل الخارجي مسقوفة بالأغصان ن والقش أمامها مساحة كبيرة للصلات في الهواء الطلق .

---

[1]. محمود كعت : المصدر السابق، ص 122.
[2]. نعيم قداح : المرجع نفسه ،ص 148.
[3]. نفس المرجع، ص150.

2- أهم مساجد إفريقيا جنوب الصحراء :

- **المسجد الجامع الكبير:**

بناه منسى موسى عند عودته من الحج عام 1327 [1]، ثم أعيد ترميمه في عهد أسكيا داوود ووسعه [2] وقد وصف هذا المسجد الرحالة هنري بارث عندما زاره في القرن 19 م ، ووصف طوله وعرضه ومساحته [3].

وقد وصفه الحسن الوزّان عند زيارته له، وقال: "في وسط المدينة مسجد مبنيّ بالحجر المركّب بالطّين والجير على يد مهندس أندلسي" [4] ، ويبدو أنّه إلى غاية زمن الحسن الوزّان قد تعرّض إلى البناء عدّة مرّات، الأولى على يد المسوفيّين بالأخشاب وجرائد النّخل، ثمّ على يد الملك منسا موسى، ثمّ في زمن الوزّان أو قبله على يد المهندس أبو إسحاق الساحلي الأندلسي.

- **مسجد سنكُري [5]:** بُني على أطراف مدينة تنبكت ، وقد اجتمع فيه الغرباء في بادئ الأمر، ثمّ علا شأنه حتّى صار مركزا ثقافيا إسلاميا حقيقيا لدراسة العلوم الإسلامية واللغوية والدّينية، ويعدّ أول جامعة بمنطقة الصحراء صار يضاهي كبار جامع العالم الإسلامي كالأزهر والقرويّين والزّيتونة، وتخرج منه علماء تنبكتو وفقهاؤها، واشتهرت فيه عائلة محمد آقيت التي توارثت العلم كابرا عن كابر، وكان منهم العلامة أحمد بابا التُّنْبُكْتي (ت 1036 هـ)، وقد نُقِل عن القاضي محمد الكابري أنّه قال: "أدركت من صالحي سنكُري من لا يقدّم عليهم في الصّلاح أحدٌ إلا أصحاب رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم- ورضي عنهم أجمعين" [6].

ويعد مسجد سنكري الذي يقال ان امرأة غنية بنته ثاني اكبر المساجد في حواضر

---

1. Barth:op .cit ، p151.

2. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 65.

3. Barth .(4) .op .cit .pp.323-325.

4. الحسن الوزان: المصدر السابق، ج 2 ،ص 165.

5. يكتب أحيانا: سنكري، وأحيانا: سانكوري، وأحيانا: سانكري.

6. عبدالرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 27.

إفريقيا جنوب الصحراء ويجهل متى بني ، وأعيد بناؤه عام 989م/1581م، من طرف الحاج العقاب بن القاضي محمود ، اخذ مقاسه وطوله وعرضه من الكعبة الشريفة خلال حجه الى مكة [1].

ولقد كانت المساجد تضيق بالمصلين منذ أيام ابن بطوطة الذي زار المدينة في منتصف القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي ، اذ يقول ان يوم الجمعة إذا لم يبكر الناس الى المسجد لا يجد المتأخرون أين يصلون [3].

وكانت المساجد الكبرى بمثابة جامعات ومعاهد تعليمية كبرى ، ومراكز ثقافية وتربوية حققت الأهداف المنوطة بها ، فتتلمذ فيها القضاة والأئمة والفقهاء والعلماء ، ولم تكن أوضاع المساجد والتعليم هذه لتختلف عن سائر مدن بلاد السودان الغربي ، عن حال تنبكت آن ذاك ، فكل حاضرة لها دورها الثقافي والعلمي الذي ساهم في بقاء التراث المادي لمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء .

كان للمسجد حرمة لدى السكان، بلغت درجة الاحترام والتقديس حيث كان من كان يستجير بالمسجد أو دار الخطيب لا يناله شر ولو كان من السلطان [27].كما كانت القبور تبنى بجوار المساجد وحوله، وتلك عادة اهل المغرب فالمغاربة لا يدفنون أمواتهم إلا في رحاب مساجدهم وجوامعهم[4].

ويبدوا أن اغلب هذه المساجد بغاو وجني وغيرها لم تبقى آثارها قائمة الى اليوم ، وذلك راجع الى عامل البيئة والمواد التي تشيد بها المساجد فهي مبنية بالطين المجفف والأخشاب والقش ، وهي مواد لها مدة حياة لاتكون في الغالب طويلة على عكس المساجد المبنية في الأقطار الاسلامية الأخرى ، والتي تعد الصخور المعدلة أهم ركائزها .

---

[1].محمود كعت : المصدر السابق ، ص 121 .

[3]. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص07.

[4] . عبد الحميد جنيدي :المرجع السابق ،ص81.

-المطلب الثانـي: الحواضر وتخطيط المدن:

المدينة هي حضارة وهي تعادل تعبير الأمة [1] لذلك أخذت بعض الجامعات العربية و الغربية على عاتقها أقسام علمية و مواد دراسية تتناول دراسات المدن ،وتركز على الحياة الفكرية و العلمية بها ، فجامعة قسنطينة مثلا فتحت عام 2006 دراسات عليا (ماجستير) بتخصص عنوانه " المدينة " ، و كان من نتائج هذا التوجه الاهتمام بهذا النوع من الدراسات و البحوث المتعلقة بالحواضر من مختلف القارات والمراحل التارخية و الحضارة هي المكان الطبيعي للفرد المتمدن المتحضر ، وذلك لأنها تمثل رقعة حضارية ،يتجمع فيها الناس من مختلف الأجناس ينشغلون .في أغلبيتهم بأنماط إنتاجية غير زراعية [2] .

كان للحاضرة الإسلامية ، والممالك التي نشأت في غرب افريقيا دور كبير في تأسيس الحواضر[2] ولعبت القبائل العربية والبربرية الدور الأهم في عمارة وازدهار تلك المدن ، حتى سمي العرب القاطنون في مدن افريقيا عادة حضرا [3] .

وقد تناولت مصادر الرحلة والتاريخ أهم هذه الحواضر التي نشأت ،ووصفوا موقعها ، وعمرانها وشوارعها ومهن سكانها ،وتضاريسها ، ونباتها فتكلم ابن خلدون مثلا عن هذه الحواضر قائلا هي : "بسائط يتكون مزاجها تارة بمزاج التلول ، وتارة بمزاج الصحراء بهوائها ومائها ومنابتها " [4] .

1- **مدينة تنبكت :** شكّلت مدينة تنبكت همزة وصل بين الغرب الإسلامي و إفريقيا جنوب الصّحراء وهي تُعدّ من أهمّ حواضر السودان الغربي ، لقّبها المستكشفون بـ "جوهرة الصّحراء ، والمدينة العجيبة "، وقد مثّلت هذه المدينة منذ نشأتها بؤرة صراع ومركز ثقافة واطّلاع، وأثّرت فيما حولها وتأثّرت هي أيضا بما حولها، فغدت من أهمّ

---

[1] .عبد الجبار ناجي: المرجع السابق ،ص05 .
[2]. نفس المرجع ، ص17.
[2] . الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا في وراء الصحراء ،المرجع السابق ،ص 98 .
[3] . مار مول كربخال :المرجع السابق ،ص 97.
[4] .عبد الرحمان ابن خلدون : العبر،المصدر السابق، ص 132.

مراكز الإشعاع الثقافي والحضاري خصوصا في القرنين الثامن والعاشر الهجريين .

- **تأسيس المدينة وموقعها:**

تأسست هذه الحاضرة على أيدي قبيلة مغشرن أو مقشرن (إحدى قبائل الطوارق ، في بين أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وأوائل القرن الثاني عشر[1]، كان الطوارق ينزلون بهذه المدينة الطيبة الطاهرة الزكية الفاخرة ، في وقت الصيف ،ثم يرتحلون وقت الخريف [2] .

تقع المدينة على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى[3] ، على الضفة اليسرى من خليج نهر النيجر[4] ، حيث يبعد عنها في الصيف ب16 ميلا أما في الخريف فان ماء النهر يقترب منها فيصل الى بعد سبعة أميال من المدينة ، وهي تنحصر بين دائرتي عرض 17°-40° وخطي طول 3° -50° [5].

- التسمية: كلمة " تُنْبُكْت" كلمة أمازيغية باللّهجة الصّنهاجية مكوّنة من كلمتين "تين" و"تنبكت"، يقال أنها كانت أرضاً لعجوز من طوارق إيمقشرن ، وقد ضبط ابن بطوطة (ت 779 هـ) كلمة "تُنْبُكْتُو" بضمّ التاء المثنّاة وسكون النّون وضمّ الباء الموحّدة وسكون الكاف وضمّ التّاء المثنّاة الثّانية وبعدها واو[4].

---

[1]. Maurice DELAFOSSE: Op.Cit.p43.

[2].عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق. ص20، مطير سعد غيث :المرجع السابق،185.

[3] . محمد فاضل علي باري ، سعيد إبراهيم كريدية : المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ حضارة ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت 2007 ، ص 96.

[4] . Faidherbe :le Sénégal la France dans l Afrique occidentale ‘paris ‘1889’p 340

[5] .Barth ‘(h)’travels and discoveries in north and central africa ‘vo 13 ‘London ‘ 1859’p 264 .

[4]. انظر: رحلة ابن بطّوطة، ج 2 ،ص 538.

*. كأبي العباس المقري (ت 1040 هـ) في "أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض"، ومحمد أمين المحبي (ت 1111 هـ) صاحب "خلاصة الأثر"، ومرتضى الزَّبيدي (ت 1205 هـ) في "تاج العرس"، وعبد الحيّ بن عبد الكبير الكتّاني (ت 1382 هـ) في "فهرس الفهارس".http/www.wikkepedia.com

ويكتبها كثير من المؤرخين * ، ومنهم من يكتبها "تمبكتو" بالميم بدل النون [1]، وذلك ظاهر نتيجة قلب النون ميما لالتقاء النّون السّاكنة بالباء.

أما تسمية المدينة فيقال انه كانت هناك سيدة من الطوارق ، او أمة لهم ، كانت تعيش في الموقع الحالي لتنبكت، وكان اسمها (بكت) ،وكان رجال قبيلة مقشرن الطارقية ينزلون في ذلك المكان في فصل الصيف راتعين حيواناتهم على ضفاف نهر النيجر ويرتحلون في الخريف شمالا [2] وأحيانا يتركون أمتعتهم الزائدة لديها [3] .

ولذا سميت المدينة تنبكت أي مكان أو مأوى بكت - المرأة – حيث لفظ (تن) تعني في لغة الطوارق المكان أو المأوى أو المسكن ، إن اسم تنبكت ينير في الأذهان الماضي المشرق لإفريقيا ، فهو رمز لقاء افريقيا السوداء مع افريقيا البيضاء ، والاتحاد المثمر الذي مكن من تطوير حضارة عالمية أخذت عناصرها من ضفاف البحر المتوسط .

فظلت تنبكت نقطة اتصال وتعارف بين الناس ومهدا للثقافة الزنجية البربرية في السودان الغربي اكتسبت مكانة متميزة بفضل موقعها الجغرافي [4].

فهي ذات موقع وسيط للمسافرين في طريق القوافل [5] ونقطة تقارب بين الشمال والجنوب [6] ، انطلاقا من موقعها الجغرافي الهام ، بدأت المدينة تكبر وتتحول اليها الطرق التجارية ، واستمر شأن تنبكت في التعاظم ، طيلة القرن الثامن الهجري /الرابع عشر ميلادي ، حيث شهدت المدينة رخاءا ورفاهية في أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر ميلادي[7] وقد شهد المؤرخ الفرنسي "ديبوا" بان القرن العاشر الهجري/

---

[1]. إبراهيم الأبياري: الموسوعة القرآنية، ، ج 1 ، ط1 ، مؤسّسة سجل العرب، القاهرة ، مصر ، 1405 هـ ، ص 397، أنظرأيضا: محمد بن الحسن الحجوي : الفكر السّامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج 2 ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت،لبنان ، 1416 هـ ، ص 326.

[2] . مطيرسعد غيث : نفس المرجع ، ص 186.

[3] . عبد الرحمان السعدي : نفس المصدر ، ص 21 .

[4] .أبوبكر إسماعيل ميغا : الحركة العلمية في السودان الغربي ، المرجع السابق ، ص52.

[5] . شوقي عبد القوي عثمان: المرجع السابق، ص 52.

[6] .Boubou '(h)'histoire des songhay 'paris'1968' pp321-32 .

[7] . إسماعيل العربي : المرجع السابق ،ص312

السادس عشر الميلادي كان أزهى العصور التي مرت بتنبكت التي وصلت في ذلك الحين الى أوج المجد الأدبي والعلمي حيث كانت سوقا لكتب تنسخ فيها المخطوطات وتوزع في البلاد[1] ، اكتسبت تنبكت مكانة مميزة خلال حكم مالي ، وخاصة في عهد ملكها منسى موسى حيث عم الأمن والرخاء البلاد كلها [2] .

لقد ورثت تقاليد التبادل الثقافي الذي رفعها إلى المقام الأعلى في القرن السادس عشر ، وبعد انضمامها الى إمبراطورية غاو (سنغاي)منذ نهاية القرن الرابع عشر الميلادي ، زادت تطورا وجمالا بإقامة أحياء مشرقة ، كحي "سانكوري " وحي "ساركاينسي " وأصبحت العاصمة الثقافية والدينية للسودان الغربي ، وابتداءا من ذلك الوقت ظلت تؤدي وظيفة مزدوجة تجارية وثقافية حيث بلغ عدد سكانها في ذلك العهد حوالي ، ستين ألف أو سبعين ألف ، وكان يرتفع في فصل الأعمال ، فيبلغ على الأرجح مائة ألف نسمة [3] تسجل المصادر التاريخية أن تنبكت توسعت ووصلت أوج عظمتها في عهد أسكيا محمد من حيث المعاملات التجارية وكثرة الحوانيت المملوءة بالكتب[4] فكانت مركزا ثقافيا كبيرا ، فقد كان بها مسجدان كبيران يعتبران جامعتين إسلاميتين تضمان المتشوقين للعلم وكانت الدروس فيها تستمر طيلة النهار ، ولا تنقطع الا وقت الصلاة وكان بعض الاساتذة يدرسون في الليل على نور الحطب المشتعل الذي يتبرع به الطلاب وكان بهذه المدينة نحو مائتين وثمانين مدرسة [5] .

ظلت تنبكت أهم طريق لنقل الثقافة إلى باقي حواضر غرب السودان [6] فكانت ذات إشعاع حضاري وتجاري واسع [7] إلى غاية نهاية القرن السادس عشر حيث بدأت

---

[1] . عبد الرحمان زكي : المرجع السابق، ص 220.

[2] . محمد عبد الفتاح إبراهيم :المرجع السابق ،ص104.

[3] . سكيني مودي سيسوكو : نزعة تومبوكتو في وحدة العالم الأفريقي مجلة الثقافة الإفريقية ، الجزائر 1969 ، ص 265

[4] . زينب احمد هاشم : علاقة مصر بالدول الإسلامية في حوض نهر النيجر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ،القاهرة ، 1982 ، ص102.

[5]. نعيم قداح : المرجع السابق، ص 159 .

[6]. محمود خيري : المرجع السابق ،ص 18

[7]. عبد الحكيم العفيفي : المرجع السابق ، ص 178

تضعف بعد أن غزى المغاربة البلاد [1] وهو عمل منعزل ليس له هدف ديني ،لا يعني أن السلام توغل عن طريق السيف الذي كان يحمله العربي ، بل قد انتشر بواسطة القوافل الاسلامية في جميع العصور في غرب إفريقيا [2].

ويكفي أن نختم مع المثل القديم في غرب أفريقيا والذي يقول : "ملح يأتي من الشمال ، ذهب من الجنوب ، ولكن كلمة الله وكنوز الحكمة لا يمكن العثور عليها إلا في تنبكت"[3].

2- مدينة جنَى:

1-التسمية: تعددت الآراء في سببية إطلاق اسم جنَى على هذه المدينة العظيمة الميمونة المباركة ذات السعة والبركة والرحمة الذي جعل الله في أرضها خلقا كثيرا ويذكر ان اسمها من اسم ملكها الشهير جنور رئيس قبيلة مرك [4] وهو أول ملك مكث في مدينة جنَى وعاش بعد البناء أربعون سنة ، فتم عمره مائة سنة ومن نسله كيكمبرو الذي فتح الله عليه بالاسلام ويسميه السعدي كنبر ويرى البعض ان اسم جنَى جاء من ملكها كنبر ولكن ليس من صلة بينهما ولم يتحدث السعدي قط عن ذلك كما يعتقد انه مشتق من الجنة لوقوعها في منطقة زراعية وفيرة الخيرات ، حيث تتخللها فروع عديدة من نهر النيجر وهذا ما جعلها ميمونة مباركة كثيرة الخيرات من الزراعة والملح والذهب

3- التأسيس: اختلف الباحثون عن من قام بتأسيس المدينة وان كان هناك شبه إجماع على أنهم السونينكي ، فيذكر السعدي أنها كانت على الكفر في أواسط القرن الثاني للهجرة ، واسلم أهلها عند تمام القرن السادس للهجرة /الثاني عشر للميلاد[5] في حين يقول الرحالة بارت أنها انشيئت عام 435هـ/1033م [6] ولكن مع تطور الدراسات

---

[1]. عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين ،المرجع السابق، ص 100.

[2]. سيكيني مودي سيسوكو : المرجع السابق ، ص 265

[3] . Jackson, Mississippi. Op-cit,p23.

[4]. الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، المرجع السابق، ص 112.

[5] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 12.

[6] . عبد الرحمان زكي :المرجع السابق،1961 ، 224.

الأركيولوجية والأثرية المسحية حلَ لنا مشكل التأسيس ، فقد توصلوا ان أقدم تواجد بشري في جنَى يرجع الى القرن الثالث قبل الميلاد ،ومنذ القرن الأول الميلادي بدأت زراعة الأرز،وفي حوالي القرن الثاني الميلادي كانت جنَى مدينة كبيرة تتبعها قرى زراعية صغيرة ، ونحو 500م كانت توجد بها تجارة عابرة للصحراء[1] .

4- **الموقع:** جني أو جينيه تقع بالمنطقة الوسطى لجمهورية مالي حاليا مدينة ، ظلت

البلدة ومساجدها على مدى قرون حلقة اتصال أساسية بين دول المغرب الأسلامي و إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، ومركزا هاما لنشر الإسلام وتدريس القرآن وعلومه في القارة الأفريقية ، تضم عشرة من القرى المحيطة بها .

يذكر السعدي ان جنى تقع الى تنبكت في وراء البحرين بين المغرب واليمن في جزيرة البحر[2] وهي تقع الى الجنوب الغربي من مدينة تنبكت [3] وكانت قد بنيت على نهر بني bani من جهة اليمين أحد روافد نهر النيجر ، وتقوم على هضبة صخرية وسط سهل فسيح تغطيه المياه في فصل الأمطار[4] .

وتقع على مقربة من مدينة موبتي أو مبتي Mopti في شمالها وهي اليوم من المدن الرئيسية في جمهورية مالي وان لم تكن كما كانت وتقع إلى الشرق من سلا silla برحلة قصيرة قوامها يومان ، والمسافة بين جني وتنبكت رحلة مدتها اثنا عشر يوما ويقال إنها زاخرة بالسكان ، وسكانها أكثر عددا من سكان سيجو sego بل وأكثر عددا من سكان أي مدينة اخرى من مدن بمبارا bambarra وكلما أوغلنا شرقا من سلا أصبحت لغة البمبارا أقل استخداما ، حتى اذا وصلنا الى جنى نجد معظم الناس يتحدثون لغة مختلفة يسميها الزنوج لغة جني كومو jennekummo ويسميها البربر لغة السودان (كلام السودان kalam soudan) .

[1] . حسين مهدي صالح : جني من المملكة الوثنية إلى المملكة الإسلامية ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، ص 02 .

[2] . عبد الرحمان السعدي : نفس المصدر ، ص 12.

[3] . الهادي المبروك الدالي : مملكة مالي الاسلامية ، المرجع السابق،ص 43.

[4] . عبد الرحمان زكي : نفس المرجع والصفحة.

5- إسلام جني:

يذكر السعدي [1] قصة إسلام جني : "ثم أسلموا عند تمام القرن السادس والسلطان كنبر وهو الذي اسلم واسلم أهلها بإسلامه ولما عزم على الدخول في الاسلام أمر بحشد جميع العلماء الذين كانوا في ارض المدينة فحصل منهم أربعة الألف ومائتان عالما فأسلم على أيديهم وأمرهم أن يدعوا الله تعالى "بثلاث دعوات لمدينته تلك" وهي أن كل من هرب اليها من وطنه ضيقا وعسرا أن يبدلها الله له سعة ويسرا حتى ينسى وطنه ذلك وأن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها وان يسلب الصبر من الواردين اليها للتجارة في ذات أيديهم لكي يملوا منها فيبيعونها لأهلها بناقص الثمن فيربحون بها ، فقرؤوا الفاتحة على هذه الدعوات الثلاث فكانت مقبولة وهي كائنة إلى الآن بالمشاهدة والمعاينة ولما اسلم خرب دار السلطان وحولها الى مسجد لله تعالى وهو الجامع".

ويتفق صاحب مخطوط جنَى مع السعدي في روايته من حيث عدد العلماء واسم الملك والدعوات وتاريخ بداية إسلامها ، ولكن يزيد عليه بأن ملكها قد حج بعد إسلامه واشترى خلال رحلة حجه كتب وأمر الناس بالتعلم ،وأقام أرزاق للمعلمين ، والمؤذنين والأئمة سنويا ، وعبر السير توماس ، وأرنولد عن قصة إسلام جنَي "بأن بإسلام كنبرkunburu حول نهاية القرن السادس الهجري أي (حوالي سنة 1200) قدر لجني في القرون المتعاقبة أن تأثر تأثيرا قويا في تقدم الاسلام في السودان الغربي ويسير حسن إبراهيم حسن على نهج توماس – رغم تحفظه على المبالغة في عدد هؤلاء العلماء 4200- "ان الإسلام قد تقدم تقدما عظيما في البلاد التابعة لكنبرو ملك جنَي" ، فليس هناك شك في ان وجود أعداد كثيرة من العلماء دليل قوي على نشاط الدعوة الاسلامية في بلاد السودان الغربي وسرعة انتشار الاسلام وقبوله ،فقد بدأت جنَي تدخل دائرة النفوذ الاسلامي منذ القرن الخامس الهجري ، فاسلم أميرها سنة 1050م وبني مسجدها العتيق على نظام المسجد الحرام في مكة ونظرا لوجود التعامل التجاري الكثيف لجنَي عبر الصحراء منذ سنة 500م على حسب ما توصل إليه الأثريين من نتائج أي قبل

[1]. عبد الرحمان السعدي :المصدر السابق ، ص 13 .

ظهور الاسلام بما ينيف عن قرن ، فهذا جعل التجار يحملون لها الاسلام مع ما يحملون من سلع فاخذ الإسلام يدب فيها وينتشر رويدا رويدا فأقام بها كثير من العلماء يعلمون الإسلام وينشرون مبادئه [1] وهذا ما يفسر لنا وجود 4200عالم [2] ، كما أن الثقافة الإسلامية قد تسربت إلى هذه المدينة قبل أن يدخل أميرها في الإسلام وذلك بسبب علاقاتها التجارية مع بلاد المغرب وحوض السنغال ،فقد كانت سوقا عظيما لتجارة الملح والذهب وجني أهلها أرباحا طائلة [3] ، فإذا كانت التجارة قد ساهمت في نشر الإسلام فقد أدى الإسلام إلى مضاعفة النشاط التجاري" وهذا ما حدث في جنَي حتى وصلت درجة سماحة الوثنيين من الملوك والأهالي أن تركوا المسلمون في جنَي يتبعون أنشطتهم التجارية والدينية بحرية كاملة.ويعلمونهم اللغة العربية وعلومها فازدهرت فيها الثقافة الإسلامية ازدهارا بعيد المدى ، واقبل أهلها على الاغتراف منها ،حتى برع منهم كثيرون ، وأضحت مكتظة بالعلماء والفقهاء لدرجة وجود العدد الذي ذكره السعدي[4] والتي تدفقت من خلالهم المؤثرات الثقافية العربية الإسلامية حتى صار جنَي مركزا ثقافيا هاما وصار مسجدها مشهورا في كل وادي النيجر وكان مثل أهمية المسجد الحرام في مكة ذاتها[5].

6- **جنّي خلال حكم مالي :** اختلف المؤرخون والباحثون حول الوضعية السياسية لجنَي في عهد دولة مالي ، فمنهم من يرى استقلال جني السياسي والاقتصادي... في عهد مالي ،لعدم قدرة الأخيرة على الاستيلاء عليها ،رغم محاولاتها العديدة [6] ومنهم من يرى تبعية جني السياسية لمالي ، حيث استولت عليها دولة الماندينغو في عهد ماري جاطة أو منسى موسى ،ومنهم من نهج الطريق الوسط حيث جعلها تتبعه فقط بدفع الجزية لمالي ، وربما هذا ما دعي السعدي للتركيز على حملات سني علي لفرض

[1]. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ،ص 15.
[2]. الهادي المبروك الدالي: مملكة مالي الإسلامية، المرجع السابق ص 45.
[3]. جمال زكريا قاسم :المرجع السابق، ص 28 .
[4]. الهادي المبروك الدالي : التاريخ الحضاري لإفريقيا في وراء الصحراء ، المرجع السابق،ص 112 .
[5]. سيكيني مودي سيسوكو : سنغاي من القرن الثامن عشر الى القرن السادس عشر ، تاريخ افريقيا العام ،المجلد 4، اليونسكو،ص 204 .
[6] . سيكيني مودي سيسكو : المرجع السابق ، ص 218

سيطرته على المدينة خلال بداية حكم سنغاي ، وان ذلك السلطان الذي وصفه السعدي بالفاجر ، حاصر المدينة أربع سنين ولم يدخلها [1] كما أن المصادر السودانية لم تشر إلى تبعية جني لمالي إلا من خلال التجارة ودفع الجزية .

7- جنَي خلال حكم سنغاي : فيتحدث السعدي [2] عن كيفية غزو سني علي لجنَي ويقول : " انه ما غلب احد من قبل هذه المدينة سوى سني علي ، واستولى على المدينة بعد حصار دام 7 سنوات و7 أشهر و7 أيام ، وخلالها كان يقاتلهم يوميا في مكان نهري جاف من المياه يسمى زبر حتى ترتفع مياه النهر فيعود الى موقع بري يدعى " نبكه شن " يزرعون حتى تنخفض مياه النهر فيعودون مرة أخرى للمقاتلة وهكذا مدة سبع سنوات ، حتى أن وقعت المجاعة في جني، ورغم ذلك لم يعلم أحد من جنود وقوات سني علي ، فظل تكابر حتى نقصت
الأقوات إلى الذروة .

وفي هذه الأثناء فقد سني علي أمل استيلائه على المدينة وعزم على الرجوع إلى غاو ، حتى حدثت خيانة من بعض قواد جنَي ، واخبر سني علي بما يدور من مجاعة في المدينة ، فامتنع الأخير عن الرجوع حتى يرى الامر ، ثم شاور سلطان جني قيادات وكبراء جيشه في التسليم لسني علي فوافقوه.

فبعث رسوله بذلك وبعدها خرج سلطان جني الصغير مع كبراء جيشه ونزل على قدميه ورحب بسني علي ، فلما رآه شابا صغيرا أجلسه بجانبه وأكرمه ، وسرعان ما خطب منه أمه فتزوجها [3] وقد اختلف الباحثون في تاريخ دخول سني علي إلى حاضرة جني ويبدوا أن عام 1476 هو الأصح لسقوط المدينة ،لاتفاق كثير من المؤرخين عليه.

وهكذا سيطر سني علي على جني (881هـ/1476م) وتصدى لحملات الموسى

---

[1] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 15 .

[2] . عبد الرحمان السعدي : نفس المصدر ،ص14.

[3] . عبد الرحمان السعدي : المرجع السابق ص 15 .

وقبائل البول [1] ومات هذا السلطان الذي وصف من طرف مؤرخي السودان الغربي بأبشع الأوصاف عام (898هـ/1492م) وخلفه ابنه الأكبر أبو بكر داعو [2].

وهكذا يجد الباحث ان مدينة جنَي مثال مصغر لتنبكت ، وقد عجت فيها وفود الطلاب نظرا لكثرة مدارسها [3] فكانت بها جامعة لتدريس العلوم الدينية والعلوم المدنية الأخرى وبلغ عدد الطلاب فيها نحو ألف طالب .

فكانت بذلك ذات قيمة دينية وعلمية ومعروفة [4] ، فنالت جنَي ما نالته تنبكت من مظاهر إسلامية من حيث وجود العلماء والفقهاء ووفرة المساجد الجامعة ، والكتاتيب والمدارس والجامعات الإسلامية ، والأساليب والأدوات التعليمية ، حيث ساوتها في شكل الاجازات العلمية ،وأصبحت جنَي ونطاق تأثيرها الثقافي بجانب ولاته الممول الأساسي الذي لا ينضب لتنبكت بمجموعات العلماء والفقهاء لتجديد النظام الديني .

وكانت قد ظهرت في جنَي أسرة علمية شهيرة توارثت علوم الفقه والحديث والتفسير والتشريع واللغة والادب هي أسرة (بغيغ او بغيع او بغيوغو او بغيوعو) على نسق أسرة أقيت العلمية في تنبكت ،حتى أن أسرة أقيت تعود أصولها إلى إقليم ماسنه(ماسينا) والذي كان في كثير من حقبه الزمنية امتدادا حضاريا للتأثيرات الثقافية الجينية ، حيث كانت جني في كثير من الأوقات تمثل العاصمة الثقافية الثانية للسودان الغربي.

ويرجع هذا الازدهار العلمي أيضا ، إلى رخائها الاقتصادي ، ونستدل على ذلك ان المدينة قاومت منسى علي قرابة سبع سنوات [5] كما كانت سوقا تجارية كبيرا ، تتدفق اليها السلع من الذهب والملح والغذاء عبر الطرق الصحراوية ، والطرق المائية لتتجمع

---

[1] . robert cornevin histoir des peuples de l Afrique noire .paris 1962. p 253.

[2] . عبد الرحمان السعدي: نفس المرجع ، ص 71

[3] . نعيم قداح: المرجع السابق، ص 159 .

[4] . جوان جوزاف : المرجع السابق ،ص 84 .

[5] . زينب احمد هاشم: المرجع السابق، ص 104.

في النهاية في مدينتي جني وتنبكت [1] .

3- غاو(أو كاو أو جاو أو كوكو و كاغو ،وكوغنة ، وجاغ):

تقع غاو ضمن الحدود السياسية الحالية لدولة مالي، شرق العاصمة باماكو، وتبعد عنها ألف وأربعمائة كيلومتر، وإلى الجنوب الشرقي من تنبكت بحوالي أربعمائة وخمسين كيلومترا [2] وعلى الضفة اليسرى لنهر النيجر حيث يتصل به وادي تلمسي [3]، وهي تقع شرق تنبكت [4] ، وكثيرا ما يقع خلط بينها وبين مدينة كوكيا عاصمة السنغاي القديمة الواقعة على نهر النيجر إلى الشرق من غاو.حيث تبعد الثانية عن الأولى بحوالي مائة ميل شمالا [5].

تعد غاو أول مدينة لها اتصال مع الإسلام في الشمال الشرقي من مال [5] كانت موجودة قبل مدينة تنبكت ذكرها البكري بقوله:« أهلها مسلمون و حاوليها مشركون وهي أكثر البلاد ذهبا» اعتمد اقتصادها على معدن الذهب الذي اشتهرت به فشكل بها ازدهارا اقتصاديا، تشكلت مدينة غاو كمركز تجاري مهم في عهد مملكة غانة واستمر هذا الدور في عهد مملكة مالي وربما هو ما أهلها أن تكون فيما بعد عاصمة لمملكة سنغاي من أكبر الدول الإسلامية السودانية ، وحيث تصلها السلع من الشمال الأفريقي والمشرق العربي والهند [6].

---

[1] . كولين ماكيفيدي :المرجع السابق ، ص 105

[2] . الهادي مبروك الدالي:التاريخ الحضاري السياسي ،المرجع السابق،ص106، إسماعيل العربي: المرجع السابق ، ص317

[3] . مطير سعد غيث : المرجع السابق،ص 201.

[4] . عزالدين عمر موسى:المرجع السابق،ص 76.

-·YATTARA El mouloud : L'islam et les voies de sa diffusion au Mali du VIIIème au XVIème siècle. P02.www. histoire-afrique.org

[5] . ابن عبد الله ابن عبد العزيز البكري:المغرب في ذاكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك) مكتبة أمريكا والمشرق –باريس 1965، ص 179.

[6] .الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، المرج السابق، ص108.

وازدهرت غاو لموقعها الإستراتيجي الهام، فهي تقع في الطريق التجاري الرابط بين بلاد السودان والمغرب، ففي سنة 400هـ/1009م أسلم على أيديهم ملكها "زاكسي" [1] ، وازداد عدد سكانها بعد ذلك حتى وصل إلى تسعة آلاف وثمانية وعشرون منزلا كبيرا مجهزا، بالإضافة إلى البيوت التي يسكنها الفقراء وعامة الناس، فضلا عن ستة وعشرين بيتا-من بيوت- مبنية من غير الأخصاص و بها مائة وخمسون مدرسة [2].

وسجل حسن الوزان ازدهار غاو أوائل القرن العاشر الهجري من الناحية الاقتصادية، فقد كانت تعج بالتجار الذين كانوا يتاجرون في مختلف البضائع وعلى رأسها الأقمشة التي يحضرونها من المغرب وأوروبا [3] ، وأطلق عليها اسم كاغو التي يقول أنها أدت دورا حضاريا متميزا،فكانت أكثر من قريناتها في الحضارة باستثناء مدينة تنبكت ،وسكانها خلطاء من الزنج والعرب والفلان والطوارق[4].

وقد أصبحت غاو عاصمة مملكة السنغاي،مركزا تجاريا هاما في تلك المنطقة،وجاءها التجار العرب والمسلمين، وسرعان ما أصبحت هذه المدينة مثل تنبكت من ناحية الدعوة الى اعتناق الديانة الإسلامية ،فقد امتلأت العاصمة بمجالس العلم ، ووفد اليها العلماء المسلمون من الدول الإسلامية ، كما وفد اليها طلاب العلم من مناطق المملكة ، والمناطق الأخرى المجاورة [5] .

ويتضح من خلال ما ذكر أن غاو مركز تجاري كبير يضاهي المراكز التجارية الأخرى بالسودان الغربي مثل تنبكت وجني في عهد مملكة مالي. ازداد ت غاو مكانة بعد تحولها إلى عاصمة سياسة لمملكة سنغاي ومقرا لرجال الدولة وطلاب العلم والأساتذة والتجار، واشتهرت بتجارة الرقيق وأصبح سكانها من الأثرياء، إلا أن أهميتها

[1] .عبد الرحمان السعدي:المصدر السابق، ص 03.

[2] . محمود كعت:المصدر السابق،ص146،عبد القادر زبادية:مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين،المرجع السابق ، ص 109.

[3] . حسن الوزان: المصدر السابق، ج 6، ص 193، 170، مطير سعد غيث:المرجع السابق، ص 203.

[4] .الهادي المبروك الدالي: قبائل البرابيش،ط1، دار الكتب الوطنية،2002،بدون مكان،ص29.

[5] . جوان جوزيف:المرجع السابق ،ص 82.

ازدادت بعد تحولها إلى عاصمة في عهد الإسيقيين،حيث حاول سني علي في توسعاته التحكم في تجارة الذهب بالسيطرة على محور جني تنبكت [1].

وبلغت غاو أوج ازدهارها في عهد الأسقيا الحاج محمد الأول، فقد وفد عليها التجار من عدة مناطق وأصبحت مقرا لحكم السلاطين[2] ، وعندما زارها عبد الكريم المغيلي التلمساني سنة 908هـ/1502م على أيام الأسقيا محمد الكبير كان الأجانب يشكلون فئة كبيرة بالمدينة وكان منهم التجار بالإضافة إلى الأئمة والفقهاء والقضاة الذين يختصون بالنظر في الجرائم العامة والجنح والخلافات بين المواطنين [3] ، وأصبحت حاضرة تضاهي المدن الأخرى مثل تنبكت وجني ، فقد تنازع أناس من أهل كانو وجماعة من أهل غاو أيهما أكبر وذلك في عهد سلطة أسكيا الحاج محمد ،يقول محمود كعت:" وآخذو ورقة ودواة وقلما ودخلوا بلد كاغ (غاو)، و إبتدأوا من أول بيت بمغربها يعدون القصور ،واحدا واحدا الى ثلاثة أيام الى انتهاء البلد من المشرق،فجاءت سبعة ألاف وست مائة وعشرون غير بيوت مبنيات بالحشيش[4].

---

[1] . عز الدين عمر موسى:المرجع السابق، ص100.

[2] . الهادي المبروك الدالي:التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء، المرجع السابق، ص 108.

[3] . نعيم قداح: المرجع السابق ، ص 171.

[4]. عزالدين عمر موسى :المرجع السابق،ص 146.

خاتمة الفصل :

ومع بداية القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي أضحت حواضر غرب إفريقيا نموذجا لأزدهار التراث الإسلامي مثله مثل البلاد الإسلامية الأخرى .

فكان الكتاب من أهم وسائل التعلم، وكانت المكتبات من أهم مصدر من للمعرفة تحفظ فيها العلوم و الثمار وخبرات السابقين فتجعل حياة من يعتمد عليها امتداد لحياة السابقين ، وبقدر ما يعتمد على ذلك تتفاضل الامم ويقاس تقدمها من هنا كان اهتمام المسلمين بالمكتبات ودور العلم كي تسهم في تطور الحركة العلمية [5] .

إن الباحث في مجال التراث العلمي في عصر من العصور يجد المؤشر على تطويرها يربط بكتب وتراث العلماء ومدى شيوع ثقافة الكتاب والمكتبات ولذلك كان إقبال السكان إفريقيا جنوب الصحراء على اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات من المؤسسات الفاعلة في دفع ازدهار هذه الممالك ، وبناء حضارة خاصة بها وقد تبين ان الدعاة والفقهاء والتجار كانوا يحملون معهم الكتب ولعل اقلهم حظا ذلك الذي يحمل معه مصحف القرآن الكريم ولذلك لا عجب ان نجد المكتبات من المؤسسات الفاعلة في دفع ازدهار هذه الممالك ، بها و لا عجب ان نجد ان المكتبات الضخمة الخاصة والعامة توجد في المساجد والقصور وبيوت الأعيان والعلماء ، فكان التأثر واضحا من قبل القبائل العربية والبربرية[2] التي استقرت في تلك البلاد.

لقد انتشرت المكتبات التي اقتناها العلماء والأثرياء وكانت تصرفات طلبة العلم كوجه من أوجه عمل الخير، والبعض عدها صدقة جارية .

كان نظام الشهادات معروفا في إفريقيا جنوب الصحراء ، إذ كان الأستاذ كلما لمس احد طلبته تمكنا كافيا في مادة من المواد التي درسها عنده ، أعطاه إجازة بخط يده [3] .

---

[5]. حسن جبر: المرجع السابق،ص 289.

[2]. مجتبي عمر جلال أحمد إبراهيم : المرجع السابق،ص 16

[3].عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين،المرجع السابق ، ص147.

أدى إنتشار الإسلام في مجتمعات إفريقيا جنوب الصحراء ابتداء من القرن الثامن إلى تبلور حركة فكرية و ثقافية تطورت مع الزمن، و اكتسبت مع المرابطين القرن (5هـ/11م) خصوصيات طبعت فيما بعد الممارسة الدينية و الثقافية في الغرب الأفريقي بصفة خاصة و الغرب الإسلامي بصفة عامة [1].

حظيت المخطوطات بالإهتمام و الرعاية ولا أدل على ذلك من وجود الفهارس و الكشوف و القوائم و الأدلة و اللوائح و الذيول الخاصة بهاته الخزانة أو تلك و تمثل كذلك في إخراج المخطوطات تحقيقها و دراستها واستخدامها منجما للمعلومات والمعطيات .

و تمثل المخطوطات ثروة علمية تعتز بها الأمة الإسلامية ، و هي دليل على علو مكانتها الثقافية و نبوغها الفكري و اشعاعها الحضاري[2] .

لقد خلق علماء إفرقيا جنوب الصحراء تراث كبير تعددت طبيعته و مواضيعه و وجدت مكتبات ضخمة من المخطوطات[3] .

و تدل البحوث الجارية بشأن الموروث من المخطوطات أن أن عددها كان كبيرا جدا في أفريقيا جنوب الصحراء ، و بسبب سوء حالة التخزين، فُقد الكثير من المخطوطات ويعود الفضل للرحلات في الاحتفاظ بآثار لولاها كانت عرضة للاندثار والنسيان[4] .

ظلت الجهود الفردية التي بذلها رجال من الأسر الدينية على مدى قرون الوسيلة الوحيدة للمحافظة على التراث المكتوب، لكن جدوى تلك المبادرات ظل محدودا بسبب فقدان مؤسسات تعنى بحفظ التراث لأن الممالك التي حكمت البلاد لم تكن ذات طبيعة دينية و لم تكن لها اهتمامات ثقافية تذكر بل كانت تقضي جل وقتها في صراع من أجل البقاء

---

1. محمد المنصور: المرجع السابق ، ص48.
2. حسن الصادقي: المرجع السابق ،ص 22.
3. قاسم جاخاتي: المرجع السابق ،ص 2.
4. حسن الشاهدي: المرجع السابق ،ص 539.

وسط النفوذ. هذا و لم تكن ظروف حفظ المخطوطات جيدة إذ كانت تحفظ في صناديق من الخشب الريع للتلف أو الجلد الذي لا يقاوم هجمات القوارض و الحشرات والكوارث الطبيعية و الإنسانية التي لعبت الدور الأكبر في اتلاف عدد لا يستهان به من المخطوطات الأمر الذي يفسر قلة الكمية المجموعة منها.

تتناولت مخطوطات إفريقيا جنوب الصحراء مختلف المعارف و العلوم العربية الإسلامية ، فهناك نسخ القرآن الكريم و تأليف في مختلف العلوم الدينية من علوم القرآن و الحديث و الفقه و العقيدة و التصوف، إضافة إلى العلوم اللغوية والأدبية و كذا التاريخيات، و العقليات مثل الفلسفة و المنطق، العلوم التطبيقية مثل الطب والصيدلة و النبات و الفلك و الكيمياء، هذا إلى جانب علم التنجيم و علم الجدول وأسرار الحروف، فضلا عن الوثائق و العقود و المراسلات و الاجازات[(1)].

أما العمران وتخطيط المدن فقد تطور ا في الحواضر إلى درجة لم يشهد مثلها غرب إفريقيا قبل ذلك التاريخ ، وانتقل التأثير الإسلامي عن طريق المهندس أبو إسحاق الساحلي ، والعرب والبربر الذين استقروا هناك .

كان للإسلام أثره في مختلف أوجه الحياة الحضارية ، وظهر ذلك بصفة خاصة في مجال العمارة والبناء ، فعلى الرغم من الثروة الهائلة في إفريقيا جنوب الصحراء ، إلا أن فن العمارة كان في مراحله الأولى[2] ، تطور بناء المساكن في المجتمع السوداني بمرور الزمن، ففي بداية أمرهم كانوا يبنون منازلهم من أغصان الأشجار وجلود الإبل على هيئة خيام ثم تطور البناء فأصبح بالأحجار والطين والخشب العريض الطويل[3].

وكان الفن المعماري الأصيل لإفريقيا قبل الإسلام هو البناء المستدير المغطاة سطوحه بالأخصاص والقش في شكل هرمي لا أضلاع له ، وربما يعود ابتداع ذلك إلى عامل التكيف مع المناخ حيث أن فصل الأمطار بالمنطقة كلها تحفل السحب فيه بأمطار

---

[1]. محمد المغراوي: المرجع السابق،ص 11.

[2].زينب أحمد هاشم:المرجع السابق، ص177.

[3].الهادي المبروك الدالي:التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، المرجع السابق، ص26.

غزيرة ، ومع انتشار الإسلام، وازدياد روابط الاتصال بين السودان الغربي والعالم الإسلامي،أصبح الملوك والنبلاء يستخدمون البنائين من المغرب ليقيموا لهم القصور والبيوت على الطراز العربي المغربي الذي كان سائدا[1].

ويعتبر المسجد من أهم المرافق التي تؤرخ للتراث المادي الأفريقي وهندسته لأن المسجد متعدد المهام وقد لاحظ الرحالة هذا ومنهم حسن الوزان وأكدوا أن مسلمي السودان استخدموا المساجد أماكن للتعليم [2] ، فقد كان المسجد عبر قرون مدرسة وبيت الجماعة ودار الضيافة [3].

كان تخطيط المدن أمرا شائعا في تلك العصورفالمدينة كمفهوم اجتماعي أنساني تعد مرحلة كبرى على سلم مراحل التطور البشري لم يكن يصلها الإنسان دون أن يكون قد تخطى المراحل السابقة ، وهي المراحل التي اعتمدت في الأساس على مرحلتي الرعي والزراعة ،وعندما تمكن الإنسان من جميع ذلك تراه قد استقر في مدن ، فقد ضمن شرابه وغذاءه وكساءه ، وتسنى له ان ينظر بعقله الى أمور الحياة الدنيا.

وقد تعدد أسباب تأسيس حواضر إفريقيا جنوب الصحراء وتنوعت عوامل ازدهارها ، من الموقع الذي يعد طريق لتجارة او القرب من المجاري المائية ، او محطات قوافل التجار التي تخترق الصحراء باتجاه الشمال [1] أو العوامل السياسية الأخرى التي حولت غاو ، وولاته ، تنبكت ، و جني إلى مراكز وهج فكري في القرن السادس عشر[2].

لقد استندت حواضر غرب إفريقيا غي تأسيسها وازدهارها إلى أربع عناصر هي :

---

[1].نعيم قداح:المرجع السابق،ص146.
[2]. عز الدين عمرو موسى :المرجع السابق، ص119.
[3]. الخطيب البغدادي: المرجع السابق ،ص 69
[1] . كولين ماكيفيدي : المرجع السابق ،ص 105

[2] . Maurice DELAFOSSE: LES NOIRS DE L'AFRIQUE. Collection Payot, Payot et Cie, Paris, 1922. Édition numérique réalisée le 11 avril 2010.p57.

أولا: العنصر الخاص بالمسائل المالية والصرف ، والتي ترتبط بجمع الضرائب وحركة النقود بين التجار والسكان في المدينة.

ثانيا : وجود السوق التي تجتمع فيها المعاملات التجارية من بضائع ومهن عمال ، سواء كانت أسواقا ثابتة كالمحلات التجارية التي يضمها مكان مسقوف ولها مداخل ،او الأسواق الأسبوعية التي تكون معلومة الزمان والمكان ، حيث يتبادل سكان الحواضر مع سكان الأرياف والقرى البضائع و المنتوجات، فتكون في الغالب بضائع الحواضر ما جلبته قوافل التجار ، بينما بضائع الأرياف مواد زراعية ، أو أولية كالصوف ، أو الجلود .

ثالثا :وجود المدارس التي تكون في العادة ملاصقة للمسجد، الجامع في المدينة مثل المدارس التي وجدت في تنبكت وغاو ، ولعل مسجد سنكري ، المعلم البارز في تاريخ الحياة العلمية بحواضر السودان الغربي .

رابعا : وجود تنظيم داخل الحاضرة من حيث الشوارع والمهن ،وتوفر الامن ، وتلبية حاجيات الكثافة السكانية بصفة عامة ن ويحيط بالمدينة في الغالب سور كبير لحمايتها ، من الأخطار الخارجية .

الـفصل الخامس : التراث اللامادي في مدونـات الرحالة والجغرافيين.

- **المبحث الأول : التراث الفكري :**

- **المطلب الأول :** إنتشار اللغة العربية والمذاهب الأسلامية .
- **المطلب الثاني:** إنتشار التعليم .

- **المبحث الثاني: العلماء وإنتاجهم الفكري والثقافي .**

- **المطلب الأول:** العلماء.
- **المطلب الثاني:** الأنتاج الفكري والثقافي .

- **المبحث الثالث : التراث الثقافي:**

- المطلب الأول- نظام الحكم والقضاء.

- المطلب الثاني- الحياة الاجتماعية .

مقدمة الفصل :

عند ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي كانت أكثر مناطق غرب إفريقيا متخلفة ، يغلب عليها النظام الوثني ويسودها الاضطراب السياسي ، والاختلال الاجتماعي القائم في ظل حكم مملكة غانة المترامية الأطراف .

وبوصول الإسلام إلى حدود غرب السودان عبر الشمال والشرق ، أوجد حالة من الوعي لتلك الأقاليم وأنتجت حضارة جديدة تشتمل على نهضة علمية اعتمدت على الأصول الإسلامية ونهلت من علوم العرب الذين أوصلوا تلك الحضارة .

وتهيأت الأسباب التي أنتجت تراث إسلامي متنوع ، فانتشرت في الحواضر المتاخمة للصحراء انطلاقا من أقاليم توات وسلجماسة وولاته نحو الحواضر الجنوبية الغربية بل ساهم هذا الإشعاع الجديد في خلق حواضر جديدة بفضل ازدهار التجارة ،وتوافد عدد كبير من السكان والقبائل بعضهم جاء لغرض نشر الدعوة الإسلامية ، وأخذت تلك الحواضر في السودان الغربي تنمو وتزدهر بالرغم من البطئ في هذه العملية .

ومع بداية القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي أضحت حواضر غرب إفريقيا نموذجا من الحياة العلمية التي كانت سائدة في البلاد الإسلامية الأخرى.

فكان لهذه النهضة بعدها الإفريقي المتناغم مع ما جاء به العرب والمسلمون من الشمال الذي أخذ يتفاعل داخل المجتمع الإسلامي السوداني فأنتجت المدارس والكتاتيب والجامعات مثل مسجد سنكري وأضحت تنبكت من حواضر البلاد الإسلامية التي نالت القدر الكافي من الشهرة في البلاد الإسلامية فنشطت العلوم ،وارتحل الطلبة إلى مدارس فاس وتلمسان والقيروان والقاهرة والحجاز وانتقل الكثير من العلماء من تلك المناطق الإسلامية إلى بلاد السودان الغربي ليؤكدوا إن الإسلام دين العلم والحضارة و أنهم جاؤوا لنشر هذه الرسالة فأخرجوا الإفريقي من إطار العصبية والقبلية الضيقة ، والعادات والتقاليد القديمة إلى حياة جديدة أساسها العلم ، فظهر سلوك جديد للناس وتوجه نحو إنتاج محلي للتراث الإسلامي التي كان من أهمه انتشار اللغة العربية والمذاهب الإسلامية وتنوع مناهج ومواد التدريس وهو ما سأتناوله في هذا الفصل .

إن الدراسة التاريخية للتراث الإسلامي ليست نظما سياسية, أو اسر حاكمة تظهر وتختفي وإنما هي عملية إنتاج تعليمي فكري إرتبط بحياة العلماء و المفكرين الذين قضوا حياتهم في محراب الفكر فساهموا في بناء الحضارة فانعكس ذلك على سائر الحياة بالتقدم والازدهار.

وفي هذا الفصل سأتناول التراث اللامادي في مدونات الرحالة والجغرافيين موضحا:

- كيف انتشرت اللغة العربية كلغة علم ، ثم تحولها إلى إنتاج التراث الأفريقي؟
- وهل كان لانتشار المذاهب الإسلامية دور في ترسيخها ؟
- ما هي مراحل التعليم ،وطرق التدريس ومواده ؟
- وأخيرا ما هو مستوى التعليم في تلك الحواضر مقارنة بما هو سائد في سائر الأقطار الإسلامية وعموم غرب إفريقيا ؟

• المبحث الأول : التراث الفكري:

المطلب الأول : إنتشار اللغة العربية الإسلامية والمذاهب :

- أولا - إنتشار اللغة العربية :

انتشرت اللغة العربية في مناطق إفريقيا جنوب الصحراء، جنباً إلى جنب مع تغلغل الإسلام في النفوس بحيث أصبح لزاماً على الأفريقي الذي اعتنق الإسلام، أن يتقن اللغة العربية، باعتبارها أداة العبادة ومفتاح الولوج إلى عوالم الثقافة العربية الإسلامية، ومن ثم الإنفتاح على حضارة هذا الدين الحنيف.

وعلى الرغم من أن بعض القبائل المسلمة ظلت متمسكة بلغاتها ولهجاتها الأصلية مدافعة عنها ، فإن اللغة العربية أمكن لها أن تتطور وتنمو حتى أضحت لغة المثقفين والفقهاء الذين ساهموا في الإنتاج الحضاري والثقافي بين إفريقيا جنوب الصحراء وباقي دول العالم الأسلامي[1].

فمن المعروف أن إنتشار اللغة العربية في مناطق العالم الإسلامي ومنها غرب إفريقيا * ، كان مرتبطا بدخول الإسلام إليها وانتشاره فيها ، وفي نفس الوقت أشارت الدراسات أنه منذ إدخال الحروف العربية بدأت عملية أسلمة إفريقيا [2].

انتشرت اللغة العربية في إفريقيا جنوب الصحراء بفضل بثلاث وسائل رئيسة، هي: الدين الأسلامي ومبادئه ، والتجار العرب والمسلمون، والدعاة العرب والأفارقة ، غير أنَّ العامل

---

[1]. جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، المرجع السابق، ص155.

*في وسط وغرب إفريقيا نجد لغة الهوسا، والتي سبق وكتبت بحروف عربية يتحدث بها نحو 24 مليون شخص كلغة أولى، و15 مليون كلغة ثانية، وأغلب متحدثيها موجودون في النيجر، وشمال نيجيريا، وغانا، وتوغو، وبنين، بالإضافة إلى السودان، وتشاد، والكاميرون، وبوركينا فاسو، كما يستخدمها ناطقون بلغات أخرى من المسلمين في إفريقيا الغربية ، فالهوسا لغة رسمية في شمال نيجيريا ، وتعدّ اللغة الثانية بعد العربية من حيث عدد الناطقين بها في إفريقيا ، وفي أقصى غرب إفريقيا، نجد من بين اللغات الإفريقية التي كُتبت بحرف عربي لغة الولوف، وهي لغة قبائل الولوف الذين يشكّلون 26% من عدد سكان السنغال، و15% من سكان غامبيا وموريتانيا، وهى اللغة الثانية في السنغال حيث يتحدث بها نحو 30% لأنها تعدّ لغة تجارة، هذا إلى جانب العديد من اللغات الإفريقية الأخرى التي كُتبت بالحرف العربي، مثل: التجرينية، والعفرية، والأورومية، وغيرها من بين 700 إلى 1000 لغة إفريقية محلية، بحسب تقدير علماء اللغة في العالم .

- أنظر : مها عبد المجيد، اللغوية في العلاقات العربية ـ الإفريقية، موقع المجلس الدولي للغة العربية، القاهرة – مصر، 2009/11/4.

[2] .Constant Hamès :« Les manuscrits arabo-africains : des particularités ? », Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, p99-100 | novembre 2002, URL : http://remmm.revues.org/index1182.html .31 mai 2010.

الأهم بحسب الباحثين الذي ساعد على انتشار االلغة العربية في تلك المناطق الشاسعة، يعود إلى الدين الإسلامي نفسه ؛ فهو ذو نظام اجتماعي راقٍ يدعو إلى المساواة بين الناس، لا يقيم وزناً لفوارق اللون والطبقة، وإنما االمفاضلة تكون من خلال ما يفعله الأنسان من أعمال صالحة [1].

و إذا كان الإسلام قد وصل إلى جزء من منطقة إفريقيا جنوب الصحراء في وقت مبكر، منذ عهد مملكة غانا الإسلامية ، فإنها ازدادت انتشارا في الفترة بين القرنين (8-10ه/14-16م) و يرجع ذلك إلى تجدر الإسلام لدى الحكام و المحكومين ، وكذلك إلى بلوغ العرب مراكز القرار في تلك الدول ، كتابا ووزراء، ومستشارين ،وأضحت لغة المراسلات ،كما ذكر العمري انه ورد كتاب إلى سلطان مصر بالخط المغربي في ورق عريض السطر إلى السطر [2].

ومنذ اكتمال مراحل التعريب وسيادة الدين الإسلامي في مناطق المغرب الأسلامي في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي؛ بدأت القبائل العربية تتوغل نحو الجنوب حتى وصلت تنبكت العاصمة العلمية لأفريقيا جنوب الصحراء ، ولم تقف الصحراء عائقاً دون تواصل الروابط والصلات المتعددة، فقد كانت طرق ما وراء الصحراء ومسالكها ومنافذها من العوامل المهمة التي ساعدت على تجذر اللغة العربية، وبدأت رقعة الإسلام في حالة انتشار مستمر، لا سيما بعد سقوط مملكة غانة [3] الوثنية عام 1076م ، وما نجم عن المد القادم من الشمال الإفريقي، وقيام ممالك إفريقية إسلامية بلغت تقدماً حضارياً ملحوظاً نتيجة اعتناقها الإسلام [4].

ومثلما كانت طرق القوافل التجارية شرياناً للمعاملات الاقتصادية بين مراكز الشمال الإفريقي وإفريقيا الغربية ، فقد ظلت في الوقت نفسه إشعاعاً لأنتشار اللغة العربية ؛ حيث أصبحت العربية لغة التواصل في المحطات التجارية المنتشرة على طول طرق القوافل التجارية عبر الصحراء، وأداة إحتكاك الأفكار تأثيراً وتأثراً.

---

[1] . {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: 13].

[2] . ابن فضل العمري : المصدر السابق، ص74.

[3] .إن مملكة غانة القديمة كانت تشغل المنطقة الواقعة عند الطرف الجنوبي من الصحراء الكبرى إلى الشمال مباشرة من أعالي نهري السنغال والنيجر، فهي تبعد نحو خمسمائة ميل إلى الشمال الغربي من أقرب نقطة عند حدود دولة غانة الحديثة التي اتخذت اسمها منها بوصفها أعرق ممالك السودان ، إن المعلومات المتوافرة لدينا عن مملكة غانة القديمة التي بلغت أوجها في القرن العاشر الميلادي، مستمدة مما كتبه الجغرافيون العرب، خصوصاً ابن حوقل والبكري ، وكان اسم غانة يُطلق على الملوك وكذلك على البلاد وعاصمتها. وقد اندثرت مدينة غانة، إلا أن الحفريات الأخيرة اهتدت إلى موقع الحي الإسلامي منها في كمبي – صالح (جنوب موريتانيا)، وعثر فيه على حجارة عليها كتابات عربية تتضمن آيات من القرآن الكريم. وكان رخاء مملكة غانة يقوم بالدرجة الأولى على سيطرتها على تجارة الذهب، ولذلك عُرفت ببلاد الذهب.

[4] . جميلة محمد التكيتك: مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير 1493ـ 1528م، منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس ، ليبيا ، 1998، ص 157.

وإلى جانب إنعاش المجالات الاقتصادية ، فقد لعبت بعض المراكز في الشمال الإفريقي، مثل: تلمسان ومراكش وطرابلس والقاهرة؛ دوراً بارزاً في نشر اللغة العربية في إفريقيا جنوب الصحراء ، الأمر الذي يلفت نظر الباحثين إلى ظاهرة صلة التجارة بانتشار اللّغة العربية في تلك المناطق [1] حيث أدى التجار والدعاة واستقرار الجاليات المغاربية دورا حاسما في انتشار العربية حتى اكتسبت مسحة من التقديس عندهم [2] على إعتبار أنها لغة الدين الذي آمنوا به والقرآن الذي يرددون بعض آياته في عبادتهم .

ومما لا شك فيه أنَّ مملكتي مالي وسنغاي لم تصلا إلى ما وصلت إليه من عظمة وقوة إلا بعدما أضحى الإسلام عصب قوتها الروحية والمادية، وصارت اللغة العربية لغة الكتابة الرسمية.

وقد كان التاجر المسلم داعية لدينه يجمع بين نشر الدعوة الإسلامية باللغة العربية وبيع سلعه ، فالتجارة من طبيعتها أن تصل التاجر بصلة وثيقة بمن يتعامل معهم، خاصة إن كان يتحلى بالصدق والأمانة والخلق الحسن، وهذه المُثل الأخلاقية السامية كثيراً ما تتوافر لدى التاجر المسلم الذي سرعان ما يلفت إليه الأنظار عند دخوله قرية وثنية، وذلك لكثرة وضوئه ونظافته، وانتظام أوقات صلاته وعبادته. وقد جعلته هذه الصفات الحميدة، إضافة إلى نظافة البدن والملبس؛ أهلاً لثقة الأهالي الوثنيين، وقدوة حسنة للاقتداء به وتقليده [3].

ويذكر أنَّ دور التجار العرب لم يقتصر على مجال التجارة والأنشطة الاقتصادية فحسب، بل تعداه إلى تعليم الأهالي اللغة العربية وتعميق الصلات الثقافية بنشرها ، وبناء المساجد والمدارس لتعليم القرآن ، وهكذا أضحى التجار العرب يقومون بمهمة الدعاة المسلمين، إلى جانب نشاطهم التجاري؛ فحملوا معهم اللغة العربية والعقيدة والحضارة الإسلامية العربية.

فالدعاة ، سواء أكانوا من العرب أم الأفارقة، يعدون وسيلة من الوسائل التي ساعدت على إنتشار اللغة العربية في المرحلة الأولى ثم ازدهارها في المرحلة الثانية ، وقد كانوا يدعون الناس إلى الإسلام، ويفقهونهم في أمور دينهم، وذلك لإلمامهم بأصول الدين والشريعة الإسلامية ومبادئها السامية؛ لذا حظي هؤلاء الدعاة بتقدير الأهالي لهم، إذ أصبح كثير من قرى

[1]. جميلة محمد التكيتك: المرجع السابق ، ص157.
[2] . إبراهيم علي طرحان. المرجع السابق ،ص153 .
[3]. توماس أرنولد، المرجع السابق، ص 391.

سنغاي في أيام الأسكيا محمد تضم كل منها داراً لاستقبال هؤلاء المعلمين الفقهاء الذين كانوا يعاملون بأعظم مظاهر الاحترام [1].

وتؤكد المصادر أن الدعاة وجدوا تشجيعاً كبيراً من الهيئات الحكومية خاصة في عهد مملكة سنغاي [2]، وفي ظل هذا التشجيع بدأ الدعاة والفقهاء والمحسنون في تأسيس المدارس التي كانت قبلة لأبناء المسلمين والوثنيين على حد سواء دون تمييز، الأمر الذي أدى إلى انتشار اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية بنجاح باهر بين أهالي إفريقيا جنوب الصحراء ، وأصبحت هذه المدارس تتكاثر وتزدهر، حتى إنَّ بعضها أضحى مركز إشعاع حضاري يستقطب أبناء مملكة سنغاي بصفة خاصة، وأبناء إفريقيا جنوب الصحراء بصفة عامة، دون اعتبار لفارق الدين أو اللون [3].

وهكذا يدرك الباحث أن اللغة العربية بلغت مكانة مهمة وكان لها الفضل الكبير في انتشار الإسلام والتعليم وكل العلوم المتصلة بهما من نحو وصرف وتفسير القرآن وفقه وأدب وتاريخ وغيرها [4] ، فسار القانون الإسلامي أو الشريعة والمعتقدات والممارسات ، جنبا إلى جنب مع اللغة العربية لمحو الأمية [5].

وكانت فكرة التمييز بين الحروف العربية عن طريق النقط التي ابتكرت في القرن الهجري الأول قد اكسب الحرف العربي مرونة جعلته قادرا عن التعبير عن أصوات الكثير من اللغات غير العربية [6] ، فساعد وجود العرب والبربر في أغلبية مدن وقرى بلاد السودان على انتشار اللغة العربية نتيجة الزواج والمصاهرة [7]، فكان من عاداتهم أن يقوم رجال من العلماء في تلك المناطق بتعليم الناس القرآن العظيم وتفقيههم في الدين ، وبهذا وجدت عوامل مشجعة لتعلم اللغة

---

[1]. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 213.

[2]. لُقب حاكم مملكة سنغاي الأسكيا محمد ، بصديق العلم والعلماء، لإهتمامه بنشر العلم و تشجيع العلماء وطلاب العلم؛ فقد كانت مملكة سنغاي إلى حين سقوطها من أكثر الممالك الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء تشرباً لمفاهيم الإسلام؛ ولهذا سجل لها المؤرخون اهتماماً بالغاً بالعلم والعلماء لدى بلاط هذا السلطان .أنظر : محمود كعت، المصدر السابق ، ص 59.

[3]. جميلة محمد التكيتك: المرجع السابق ، ص159.

[4]. ابن خلدون: المصدر السابق ،ص 462 .

[5]. Lisa Lindsay:The Influence of Islam on West Africa .www.spice.stanford.edu.com *22/10/2010.*

[6]. يوسف الخليفة أبو بكر: الحرف العربي و اللغات الإفريقية ، مجلة المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، تونس 1985. ص 171.

[7]. ابن بطوطة :المصدر السابق ص 681 .

العربية [1] وغدت مع توسع الإسلام لغة التجار والعلم والثقافة والإدارة ولغة التخاطب بين القبائل المختلفة الألسن واللهجات ، وأصبح الحرف العربي يستعمل في كتابة اللغات المحلية ، وتأثرت بنحو اللغة العربية وصرفها وأوزان شعرها [2] .

واقترضت اللغات السودانية الكتابة بالعربية وأخذت الكلمات والأسلوب والنموذج وساهم العلماء في انتشار العربية التي أصبحت لغة الأفكار لدى السود ، ويعود سبب الاندماج في أن أصل بعض الكلمات السودانية سامية تعود إلى تأثير العهد الفينيقي والقرطاجي منذ أن كان البحث عن العبيد والتبر و ريش النعام [3].

وهكذا يتضح لنا أن انتشار اللغة العربية كان واسعا ، فالمعارف تدرس وتستوعب باللغة العربية وكذلك الكتابات الرسمية والثقافة ، رغم أن دروس المساجد تقدم باللهجات المحلية العامة، لكن طلاب العلم يدرسون بالعربية ، وهذا ما يفسر وجود ألاف الكلمات العربية المستخدمة في بلاد سنغاي في شتى مظاهر الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية [4] فما كان للعربية أن تبلغ هذه الدرجة لولا الإسلام الذي كان واسع الانتشار من قرون طويلة وهذا يقودنا إلى القول أن الإسلام كان ذا دور حاسم في تعريب المنطقة لسانا [5].

وأمامنا من المصادر الإفريقية المشهورة مثل السعدي ،وتاريخ الفتاش لمحمود كعت ،وتذكرة النسيان ،وإنفاق الميسور لبلو ،ونيل الابتهاج للتنبكتي ،وفتح الشكور في علماء التكرور للبرتلي والجواهر الحسان في أخبار السودان ، وغيرها من المؤلفات ، التي تقدم الدليل الذي لا يقبل الجدال أن اللغة العربية قد عرفت ازدهارا في إفريقيا جنوب الصحراء مما لا ينكره أي احد ، إذ لا تزال مخطوطات كثيرة لم تحقق لكنها مكتوبة بالعربية [6].

[1] . عبد السلام عبد العزيز فهمي : نصاب الصبيان ومسيرة ستة قرون في تعليم اللغة العربية للمسلمين غير الناطقين بها ، ط1 جامعة ام القرى ،المملكة العربية السعودية ،ص145.

[2] jon.hunwik.the influence of arabic in west africa .ahistoricol survez. Trans tion. of the historical.society of chan .v.v//.p 24-41.WWW. *books.google.com/books.*

[3] .Maurice DELAFOSSE :LES NOIRS DE L'AFRIQUE .op.cit.p27.

[4] . محمد فاضل علي باري سعيد إبراهيم كردية : المرجع السابق، ص 125 .

[5] . عز الدين عمر موسى : المرجع السابق،ص 111.

[6] . حسن عيسى عبد الطاهر : المرجع السابق ، ص 25 .

لكن مع دخول الإستعمار الأوروبي إلى القارة الإفريقية ، حصل تراجع في استخدام اللغة العربية [1] ، فأول ما قام به هذا المستعمر بعد نهب الثروات، محاربة اللغة العربية، وتشجيع اللهجات المحلية ، للقضاء على أيّ أثر ثقافي عربي، ولعزل الشعوب الإفريقية عن محيطها الطبيعي ، فناهض الحرف العربي مناهضة لا تقل ضراوة وشراسة عن مناهضته لتعليم القرآن ولغة الضاد نفسهما، وأحلَّ بالقوة، حروفه اللاتينية، محل الحرف القرآني، فأصبحت هذه اللغات تكتب باللاتينية بعد أن كتبت قروناً طويلة بالعربية [2].

وإدراكاً منه لأهمية نشر لغته – الأستعمار الأوربي - فقد أبقى على لغته وثقافته، وسعى للحفاظ عليها بشتى الوسائل [3] ، بل عمد إلى إعادة تدوين اللغات المحلية بالأبجدية اللاتينية وحذف الألفاظ العربية في كثير من الأحيان ، في محاولة متعددة للقضاء على مؤثرات الثقافة العربية الإسلامية .

[1]. اللافت للنظر في هذا الشأن أنّ أغلب الدول الأفريقية، وخاصة الدول الأفريقية جنوب الصحراء، تبنت اللغات الأوروبية كلغات رسمية لها؛ حيث نجد أنّ هناك ثلاثاً وأربعين دولة، من بين ثلاث وخمسين دولة إفريقية تستخدم اللغات الأوروبية كلغات رسمية؛ حيث اختارت اثنتان وعشرون دولة إفريقية اللغة الفرنسية لغة رسمية لها، بينما توجد تسع عشرة دولة إفريقية تستخدم اللغة الإنجليزية لغة رسمية لها، في حين اعتمدت خمس دول إفريقية اللغة البرتغالية لغة رسمية لها، أما اللغة الأسبانية فقد أقرتها دولة واحدة لغة لها ، وهناك بعض الدول التي اختارت اللغات الأفريقية كلغة رسمية أولى، أو ثانية إلى جانب إحدى هذه اللغات العالمية .

أما عن الدول التي اختارت اللغة العربية كلغة رسمية لها في أفريقيا، فنجد أنها لم تقتصر فقط على دول شمال أفريقيا الناطقة بالعربية، والتي تضم مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، بالإضافة إلى السودان وموريتانيا؛ بل تعدتها لتضم أربع دول إفريقية أخرى اختارت اللغة العربية لغة رسمية لها، إلى جانب لغات أخرى؛ وهذه الدول هي: تشاد، وجزر القمر، وجيبوتي؛ والتي تبنت العربية كلغة رسمية إلى جانب الفرنسية، والصومال التي اختارت العربية كلغة رسمية إلى جانب اللغة الصومالية؛ ليصير بذلك عدد الدول الأفريقية التي اختارت العربية لغة رسمية لها إحدى عشرة دولة.

-أنظر : نصرالدين البشير العربي : إنتشار اللغة العربية في أفريقيا وأثرها على اللغات الأفريقية الطارقية أنموذجاً ، الملتقي العلمي العالمي التاسع للغة العربية 27 – 29 أوت 2015 م، جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية مالانق – إندونيسيا .

[2]. أنظر، عثمان ، عبدالرحمن أحمد ، مصطفي ، أحلام عبدالرحيم أحمد : "تحديات الإسلام والمسلمين في إفريقيا المعاصرة" ، أعمال المؤتمر الدولي الإسلام في أفريقيا ، الكتاب العاشر ، جامعة أفريقيا العالمية – السودان ،2006 ، ص ص 302-306.

.أنظر - أبو بكر ، يوسف الخليفة : " اللغة العربية في أفريقيا..مقدمة تعريفية " ، منشورات جامعة أفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان ،2006، ص 103.

. أنظر - سالي ، إبراهيم علي: "وضع اللغة العربية في المؤسسات التعليمية الحكومية بأوغندا : جامعة ماكيريري أنموذجا" ، أعمال المؤتمرالدولي الإسلام في أفريقيا ، الكتاب الثامن ، جامعة أفريقيا العالمية – السودان ، 2006، ص ص 172-173 .

[3]. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق، ص 07 .

ثانيا: انتشار المذاهب الإسلامية:

• المذهب المالكي [1] :

ظهر المذهب المالكي أول الأمر بالمدينة المنورة، غير أن الغرب الإسلامي شكل التربة الخصبة التي احتضنته ورعته إلى أن استقام عوده واشتد عضده ، وكان لمدارس القيروان وقرطبة ، فيما بين القرن 9 و القرن 11م، الدور الرائد بهذا الشأن ، فقبل قيام دعوة المرابطين، لم يكن المذهب المالكي سائدا في المغرب الأسلامي ، لكنه لم يكن غائبا، حيث كان حضوره مزاحما بقوة مع المذاهب الأخرى، كالمذهب الشيعي.

وحينما ساد المذهب المالكي شمال إفريقيا والأندلس، انتقلت سيادته لإفريقيا جنوب الصحراء منذ بداية القرن 12م ، وذلك بحكم مالكية التجار والدعاة والفقهاء الذين عملوا على نشر الإسلام فيما وراء الصحراء ، وكذلك بحكم قدرة القبائل السودانية التي اعتنقت الإسلام المالكي مبكرا على الأبقاء عليه - كما إنشرنا عندما تناولنا إنتشار اللغة العربية -.

ويبدو أن هذا المذهب - المالكي - قد تلاءم مع عقلية أهل المغرب الأسلامي ، وسكان المناطق التي لم تكن أهل جدل ونظر ، ومن الكتب التي تناولت مذهب مالك بالشرح ، المدونة الكبرى لسحنون بن سعيد (ت 240 هـ – 854م)، كما ظهرت للمذهب ملخصات مثل المختصر في الفقه على مذهب الإمام مالك ، لخليل بن اسحق في القرن 7هـ / 14 م [2] .

وحينما انتصب المذهب المالكي بصفة نهائية في الشمال الإفريقي انتقلت سيادته لإفريقيا جنوب الصحراء منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وذلك بحكم مالكية التجار والدعاة والفقهاء الذين دخلوا بلاد السودان واستقروا وعملوا على نشر الإسلام

---

[1] *المذهب المالكي نسبة للإمام مالك (97ه – 715 م / 179 ه – 795 م) ولد في الحجاز واعتمد في استخراج الأحكام على ظاهر النص ، فسمى أبناءه بالظاهرية ، لأنهم جعلوا أحكامهم منحصرة في النصوص بالإجماع وهو ما عرف أيضا بالمصالح المرسلة ، أي كل مصلحة ضرورية للمجتمع يحصل بها نفع أو تدرأ ضررا ، ولا تعارض النص ، ولمالك كتاب في الفقه اسمه الموطأ ، وهو أقدم ما ألفه في الفقه سمي هكذا لأنه صنفه بناءا على أمر الخليفة العباس المنصور، ووطأه للناس أي انه أوضح الشرع لهم ، أو لان فقهاء المدينة واطئوه عليه ، أي وافقوه .http/www.wikkepedia.com

[2] . زينب احمد هاشم : المرجع السابق، ص 144. أنظر: ملحق 16: مخطوط : صفحة من كتاب الموطأ.

. أنظر. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، المرجع السابق ، ص 175 - 176 .

فيها [1] ، حيث كان اهل السودان يطلقون على المالكية من البيض اسم " توري " [2] .

وقد كانت للحركة المرابطية منذ بدايتها علاقات وثيقة بالسودان المجاورين لهم من جهة الجنوب ، واتسمت علاقات الطرفين بتعاون تجاري وسياسي عزّ نظيره ، مما سمح بتدفق التأثيرات الإسلامية جنوبا ، ونتيجة لذلك انتصر المذهب المالكي ببلاد السودان على حساب دوائر التأثير الخارجية سواء في صيغتها الصفرية أو الإباضية، التي كان لها السّبق في عملية نشر الإسلام ببلاد السودان منذ القرن الهجري الثاني / الثامن الميلادي.

واللافت للنظر بهذا الشأن، أن زعماء الحركة لم يعتمدوا ركن الجهاد سبيلا في نشر الإسلام المالكي ببلاد السودان، وإنما اقتصر عملهم على الدعوة بالكلمة الطيبة، الأمر الذي ترك آثارا عميقة في نفوس السودانيين، مما عزّز مكانة الإسلام والمسلمين بينهم .

وبفضل المرابطين دخل الإسلام غانة ودخلت معهم مؤلفات وكتب المالكية حيث أصبحت هي الكتب المتداولة في بلاد السودان مثل كتب القاضي عياض منها كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، وترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، وموطأ الإمام مالك ، والمدونة الكبرى للفقيه والقاضي سحنون، ورسالة إبن أبي زيد القيرواني ودرست هذه الكتب في جنّي و تنبكت [3] .

ففي عهد مملكة مالي كان المذهب المالكي هو السائد وأشار الملك منسى موسى وهو في مصر انه مالكي المذهب ، واشترى من هناك بعض الكتب في الفقه المالكي [4] .

[1] . الشيخ الأمين محمد عوض الله : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغاي ، (رسالة ماجستير) ، ط1 ، دار المجمع العلمي ، جدة ، 1979 ،ص 43-44 .

[2] . ابن بطوطة: المصدر السابق ، ص 680.

*. تذكر المصادر التاريخية أن مجال صحراء صنهاجة اللثام شهد انطلاق حركة دينية خلال القرن 11م، عُرفت في المصادر بالحركة المرابطية، وحققت نجاحا دينيا وسياسيا كبيرين، مما جعلها تبسط نفوذها الديني والسياسي على المغرب والأندلس، فضلا عن معاقلها الصحراوية. وبذلك أقامت امبراطوية مالكية المذهب، كان لها نفوذ سياسي قوي في المجال الغربي من العالم الإسلامي. http/www.wikkepedia.com

[3] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 93 ، أنظر ملحق 11: مخطوط صفحة من كتاب الشفا للقاض عياض.

[4] . نفسه، ص 29- 33 .

- أنظر : ملحق10 :مخطوط صفحات من كتب متداولة في إفريقيا جنوب الصحراء

وقد قامت مالي على أساس تجانس عنصري وروحي ، فأغلب قاطنيها من قبائل متعايشة على المذهب المالكي والقوة الرئيسية فيها هي رجال الدين [1] .

وتوافد على المملكة عدد كبير من علماء المالكية بعد عودة الملك منسى موسى من حجته سنة (724هـ / 1324م) جلبهم معه من الحجاز ومصر [2] ، كما استقر بمالي عدد من علماء المالكية منهم الفقيه أبو عبد الله الكومي الموحدي والشاعر والمهندس أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجين وغيرهم ، إذ يذكر العمري في هذا الصدد :"وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه ، وإلتقي بهم المسلمون ، وتفقهوا على يديهم في الدين " [3] .

وفي عهد مملكة سنغاي كانت المالكية أكثر تداولا خاصة بين العلماء والفقهاء منهم : محمود بن عمر أقيت ، (ولد سنة 868هـ/1463م) الذي كان قاضيا بتنبكت فكان يقوم بتدريس مدونة الامام سحنون ورسالة ابن أبي زيد القيرواني [4] .

ومخلوف البلبالي (ت 940هـ /1533م) الذي اطلع على رسالة ابي زيد في الفقه ومحمد بن محمود ابي بكر الوتكري التنبكتي (ت 1002ه/1593م) حيث يقول احمد بابا التنبكتي : " لازمته أكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل و ابن الحاجب قراءة بحث وتحقق وتحرير ختمتها عليه وختمت عليه الموطأ قراءة جيّدة ، وحضرته كثيرا في المنتقى والمدونة شرح المحلي ثلاث مرات [5] .

---

[1] . محمد الغربي : المرجع السابق ، ص 47.
[2] . زينب احمد هاشم : المرجع السابق ، ص 145 .
[3] . عبد الرحمان ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 – ص 238 ، العمري : المصدر السابق ، ج 4 ، ص 59.
[4] . احمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ، ص 343 -344 .
[5] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 39 .

المطلب الثاني: إنتشار التعليم.

أ- الارتحال لطلب العلم :

حظي التعليم الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء بمكانة مرموقة وباعتبار كبير من طرف السلطة والقبائل، بالنظر لما كان يُتيح لطالبه منزلة في المجتمع بعد تحصيله، ولارتباطه بالمقومات الدينية، ولِما كان يتمتع به العالم من تقدير من الحكام وتقديس من العامة.

فكانت الرحلة من مميزات جهود المسلمين في طلب العلم ، وكان العلماء يحثون الطلبة عليها فكان الطالب يترك بلدته بعد ان يحصل على ما لدى علمائها ن فيتوجه الى مراكز العلم المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي ،ويكابد مشاق السفر وأخطاره ، ولكن هذه المشاق وتلك المخاطر لم تقف حائلا دون تلك الرحلات التي ملأت بطون الكتب ، وكم من عالم ارتحل ، وربما قطع آلاف الأميال [1].

فقد أدت الرحلة دوراً كبيراً في ربط الفكر الديني العربي بالحضارات الإفريقية، وسار ذلك الربط في نطاق التأثير المتبادل دون حدوث نكسات أو أي مظهر للرفض من طرف الأفارقة ، الذين أصبح ما تعلموه جزءاً من كيانهم الخاص، حتى أطلق الباحثون إسم " المدرسة الإفريقية" [2].

وكان طلبة العلم ينتهزون موسم الحج فيسيرون مع ركب الحجيج رغبة في طلب العلم ، وفي الطريق يعرجون على العلماء للتزود منهم ، وقد بدأ الكثير منهم تلك الرحلات ولم يبلغوا العشرين [3] .

لقد كان طلبة العلم أنشط الناس للرحيل وأصبرهم على العناء ، فكان الحرص على لقاء الشيوخ والعلماء والأساتذة المشهورين والغرض الأول من الرحلة فلم يكن طالب العلم يكتفي

---

[1]. عثمان منادي : المرجع السابق ، ص 98.

[2]. غورو انجاي: السياسة التعليمية الفرنسية في مالي وآثارها على التعليم الإسلامي ،رسالة ماجستير، قسم أصول التربية ، جامعة أم درمان الإسلامية ، 2000م ، ص125.

[3]. الخطيب البغدادي:المرجع السابق ، ص 65 .

بقراءة مصنفات الاساتذة وحدهم وانما كان لابد ان يقرأها عليه ويسمعها منه حتى يعتبر ثقة في مادته وحجة في علمه ، وبذلك كانت الرحلة ضربا من ضروب التحقيق العلمي [1] .

كان بعض الطلاب والعلماء من اهل السودان يقومون برحلات الى المراكز العلمية في البلدان الإسلامية مثل فاس والقيروان والقاهرة ومن العلماء الذين ذهبوا الى فاس للتزود بالعلم كاتب السلطان منسى موسى ، وكذلك عبد الرحمان التميمي الذي ذهب الى فاس للتمكن من العلم ثم رجع الى تنبكت[2] ، وكذلك كان الحال في ارتحال طلبة العلم الى القاهرة حيث خصصت لهم أماكن لاستقبالهم ، فكان في الأزهر تسعة عشر رواقا منها رواق يخص الأفارقة [3]، ومنهم من يسميه رواق التكرارة نسبة الى بلاد التكرور ومن العلماء من اشتهروا بارتحالهم طلبا للمزيد من العلم مثل عبد العزيز التكروري [14]، والعاقب بن عبد الله الانصمي[5] ، والعاقب بن محمود بن عمر بن محمد أقيت [6] .

وكانت رحلات الحجيج لأهالي حواضر افريقياجنوب الصحراء فرصة طلبة العلم والعلماء لزيادة التحصيل ويذكر احمد بابا في نيل الابتهاج عدد من العلماء الذين ادوا فريضة الحج والتقوا العلماء هناك منهم السيوطي وغيرهم [7] وهكذا نجد ان الارتحال لطلب العلم كان سمة بارزة في الحياة العلمية في حواضر غرب افريقيا ، فكان طالب العلم والعالم لا يثنيه طول المسافة ، ولا مشقة السفر فالرحلة مدرسة قائمة بذاتها ، تعلم الطالب صفات الصبر ، وفن التعامل مع الآخرين ، والقدرة على مواجهة المصائب وحلها ن وكسب العلم كانت الغاية الكبرى.

وبفضل هذه الرحلات استمرت الوحدة الثقافية والتواصل العلمي والحضاري بين غرب افريقيا وباقي الأقطار الإسلامية ، وبفضلها أيضا كان استمرار تبادل الأفكار بين سكان الحواضر نفسها ، فقد كانت المسافات بينهما بعيدة .

---

[1] . حسن جبر : المرجع السابق ، ص288.
[2] . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق ص 51-62.
[3] . مجاهد توفيق الجندي : أروقة الأزهر ،المرجع السابق ، ص04 ، أنظر *www.drmarzouk.com* .
[4] . عبد الرحمان السعدي: نفس المصدر، ص182.
[5] . أحمد بابا التنبكتي:المصدر السابق، ص 399 ،أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، دراسة وتحقيق محمد مطيع،ج2 ،ط1، وزارة الأوقاف و الشؤون الدينية ، المملكة المغربية ،1421هـ/2000،ص294.
[6] . عبد الرحمان السعدي: المصدر نفسه، ص 37.
[7]. أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج ،ج 2، ص 399 ، كفاية المحتاج ،ج 2 ،ص 295 .

والرحلة من الناحية العلمية ساهمت في تمكين الدين الاسلامي ، والاستخدام الواسع للغة العربية ، ولقد كان الطلبة يتلقون العلم وهم سائرون في ركاب الرحلة مع الشيوخ كما ان هؤلاء الشيوخ ، من كانوا يعقدون مجالس الدرس للطلبة من اهل الحواضر التي يمرون بها وما الأذكار التي كانت تردد خلال الرحلة الا بيانا على ذلك حقا ان الارتحال يمثل مصدر إعجاب للباحث خاصة إذا درسها بالنسبة للعالم الاسلامي عامة ، مثل رواة الحديث الذين كانوا يقطعون الأميال للتأكد من صحة حديث واحد ، لذلك ندرك ان العلم مسافة طويلة كلما ازداد الباحث المسير كلما ازداد علما وشغفا في نفس الوقت [1] وخاصة في العلوم الدينية مثل القرآن و التفسير و رواية الحديث و الفتاوى الشرعية [2] .

ومما يدل على اهتمام ملوك السودان الغربي بالتعليم[3] ،.أن اغلب هؤلاء كانوا يرسلون طلاب العلم إلى بلاد المغرب للتزود بالعلم ،فقد أرسل سلطان مالي منسى موسى بعثات ثقافية إلى مدن المغرب الإسلامي وخصوصا مدينة فاس لمتابعة الدراسة والتحصيل العلمي ،واشتهر في زمنه فقيه هو ((كاتب منسى موسى)) الذي أرسله هذا السلطان ليتابع حلقات العلم المقدمة في فاس ، ثم رجع إلى بلاده وقد تمكن من مادته العلمية وبدا يدرس في المدارس السودانية [4] .

كما اهتم ملوك .سنغاي اهتماما كبيرا بالإسلام ونشره ، فكان فيها مكتبات كبيرة وحلقات العلم في المساجد وكانت بذالك تنبكت اقرب إلى الجامعة في العصور الحديثة [5] ، فقد قدر أحمد بابا التنبكتي مكتبته بألف كتاب وستمائة مجلد [6] ، وقد لا تكون هناك مبالغة في العدد الهائل من الكتب في تنبكت وغيرها من المدن ذات الدور السياسي و الاقتصادي في القرن العاشر هـ/ السادس عشر م [7].

---

[1]. للمزيد أنظر : عثمان منادي : المرجع السابق ، ص ص145،123.

[2] . سعيد مرسي احمد سعيد إسماعيل علي : تاريخ التربية والتعليم ،ط1 ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1982، ص 167

[3] . أنظر ، ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص 680.

[4] .عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 219 .

[5] . علي يعقوب : اللغة العربية وآدابها في دولة سنغاي الإسلامية ، مجلة علوم إنسانية ، السنة السابقة ، العدد 45 www.ulum.nl،2010،ص11.

[6] . احمد بابا : نيل الابتهاج ، (المرجع السابق)،ص 341، أنظر: ملحق 21: مخطوط : صفحة من القرآن الكريم بلغة الهوسا. أنظر : ملحق 14: مخطوط نموذج إجازة .

[7] . عز الدين عمر موسى : المرجع السابق ، ص 119.

-ب- مراحل التعليم :

إن الباحث في تاريخ التعليم عند المسلمين يلاحظ إختلافا جزئياً بين الأقطار الإسلامية، وقد أوضح العلامة ابن خلدون ذلك في مقدمته عندما تحدث عن تعليم الأولاد واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية، حيث قال: " إنَّ تعليم الأولاد للقرآن الكريم شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة، ورجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق إلى القلوب من رسوخ في الإيمان وعقائده من آيات القرآن، وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات... واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للأولاد باختلافهم، باعتبار ما ينشأ من ذلك التعليم من الملكات"[1].

كان نظام التعليم عند المسلمين من مرحلتين أولي وتعليم عالي ،وقد استمر هذا النوع من التعليم إلى قرون في مختلف أقطار العالم الإسلامي [2] ويبدوا أن المدارس من النوع الأول كانت معروفة وسائدة في حواضر غرب إفريقيا ، وتشابهت معها المناهج والمقررات وأوقات الدراسة ، أما التعليم العالي فكان طلبته يعدون على الأصابع [3] .

1- مرحلة التعليم الأولى (الإبتدائي):

جرت العادة عند المسلمين على أنْ تقتصر الدراسة على حفظ القرآن الكريم، وتلاوته، وتعليم العقائد و العبادات ، ولم تكن إفريقيا جنوب الصحراء لتشذ عن هذه القاعدة .

في هذه المرحلة يمر جميع الأطفال عليها، حيث يتزودون بمعرفة مبادئ القراءة والكتابة ، وعادة ما تضم هذه المرحلة الطلاب صغار السن، بداية من سن الرابعة والخامسة حتى مرحلة النضج ، وكانت مدة بقاء الطالب فيها تراوح بين الخمسة والستة أعوام في المتوسط ؛ يحفظ فيها أجزاء من القرآن الكريم، ويتقن فن الكتابة والخط، ويلمّ بمبادئ اللغة العربية.. وكل ذلك يتم عن طريق الكتابة على الألواح الخشبية ، حيث يفترشون الحصائر [4].

---

[1]. عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق ، ص505.

[2] . منير الدين احمد :المرجع السابق ،ص125.

[3]. محمد الأمين هلاسي : تطّور الثقافة الإسلاميّة في مالي بحث مقدّم لنيل درجة الماجستير- مركز البحوث والدّراسات الإفريقيّة – جامعة إفريقيا العالميّة عام 1996م، ص86.

[4]. ممادو ساكو، مشكلات التعليم في المدارس العربية الأهلية في مالي ، رسالة ماجستير ، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية ، 2000م ، ص17.

إختلفت تسميات هذه المرحلة من التعليم في إفريقيا جنوب الصحراء باختلاف قبائلها ؛ فقبيلة الولوف تطلق عليها اسم "دارا"، وقبائل بلاد شنقيط (موريتانيا) يعرفونها بـ "المحظرة"، أما قبائل التكرور فيدعونها " ديا لجانتي" وعند الماندينغو كارا ، في حين تسمي قبائل أخرى معلم الكتاتيب "معالام" وهو تحريف لكلمة معلم [1] .

تنتشر الكتاتيب في معظم المدن والقرى [2]، حيث يُدرّس معلموها الطلبة في مدارس ملحقة بالمساجد، فبجانب كل مسجد غرفة أو غرفتان للتدريس، وقد يتم التدريس في دور قريبة من المسجد، أو حتى تحت ظلال الأشجار، كما كانت هناك نزل لإقامة الطلاب الذين يأتون من أماكن بعيدة، إلا أنَّ المساجد ظلت بمنزلة المقر الرئيسي لتلقي العلم، إذ كانت تعقدُ فيها حلقات الدراسة والمناقشة في المسائل الدينية [3].

كان الآباء هم الذين يحرصون على أبنائهم ، فيعودونهم على الحفظ ،ويجبرونهم على الدوام ،كما يراقبون مدى استيعابهم [4] وكان الأطفال يدرسون بالقرآن ،وهو بمثابة أصل التعليم ،الذي يبنى عليه ما يحصل من بعض الملكات ويقوم التدريس على الحفظ والتقليد مع مراعاة ظروف كل طفل ومقدرته ،فمنهم من كان يسمع ويحفظ ومنهم من كان يكتب في اللوح [5] .

وبعد أن يتعلم الطفل مبادئ القراءة والكتابة أولا، يقوم المعلم بتكرار الدرس المقرر على تلاميذه إلى أن يتأكد من إتقانهم له أو حفظه ، أو يكتب التلميذ القدر المقرر على اللوح من القرآن نقلا من المصحف ثم يعرضه على الشيخ ويقراه له ويقوم التلميذ بتكراره حتى يتقنه أو يحفظه ، ثم يرجع إلى المعلم ويقرا عليه الدرس حفظا او نظرا ، فإن أتقنه يأذن له المعلم بمحو الدرس في مكان خاص ،وتتكرر العملية حيث يكتب الصبي الآيات وعندما يحفظها

---

[1] . عبد القادر زبادية : الحضارة العربية والتأثير الأوروبي ،المرجع السابق ، ص 62 ، 63 .

- أنظر الحسن الوزان، المصدر السابق ، ص 263.

[2]. هناك إشارات عدة إلى كثرة الكتاتيب والتلاميذ على السواء ، وحسب ما أورده كعت كانت مدارس الصبيان مابين مائة وخمسين ومائة وثمانين مكتبا ،وأشهر الكتاتيب بمدينة تنبكت بلغ عدد تلاميذه أكثر من مائة وثلاثة وعشرون تلميذا وكذلك الحال بمكتب الفقيه ابن القاسم التواتي قبالة المسجد الجامع في تنبكت.
-أنظر :.محمود كعت :المصدر السابق ، ص 18. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق، ص 58 .

[3]. جميلة محمد التكيتك: مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبيرالمرجع السابق ، ص 168.

[4] . - عبد القادر زبادية : ملامح الحركة التعليمية في تنبكت، خلال القرن السادس عشر ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد 7-8 ، 1977 ،ص32 .

[5] . سعيد مرسي احمد سعيد إسماعيل علي : المرجع السابق ، ص 227.

يمحوها وهكذا [1] ، وقد يستعين المعلم بكبار تلاميذه لتعليم المبتدئين وهو الذي يعرف باسم (سنتارو) ويكلف بالإشراف عليهم والكتابة للصغار منهم [2] وبعد أن يتم الطفل تعليمه الابتدائي الذي يتوج بحفظ القرآن كاملا ،تقيم له أسرته حفلة عظيمة يشارك فيها المعلم ويهنئه أصحابه وأسرته [3] .

أما أوقات الدراسة فإنها تختلف من حاضرة إلى أخرى ومن معلم إلى آخر ،وتختلف حسب مستوى التلاميذ وسنهم ،ولاشك أن المعلمين كانوا يتقاضون أجورا على تعليمهم للاطفال وبدوره يختلف من حاضرة إلى أخرى حسب الظروف الاقتصادية السائدة وقد تحول التعليم إلى حرفة يرتزق منها المعلمون ،بل أصبح صناعة لاستفاء الرزق اختصت بها فئة من الناس والظاهر انه كانت هناك مستويات من المعلمين المعلم المؤدب والشيخ والإمام [4] .

في نهاية مرحلة التعليم الأبتدائي يكون التلميذ الذي يطمع بمواصلة دراسته قد حفظ القرأن كاملا ، والأربعون النووية ، ويكون متقنا لأحكام أركان الأسلام الخمس ، ولكي يواصل دراسته عليه الأعتماد على نفسه بنفسه في إطار دراسة حرة غير نظامية ترتكز على حضور حلقات العلم التي تعقد في مسجد المدينة على أيدي بعض المدرسين والعلماء الأكفاء ، المتخصصين في علوم الحديث والتفسير ، والفقه ، والتاريخ ، والسيرة النبوية ، والعلوم العربية والدينية ، والمنطق ، وغيرها [5].

---

[1] . حسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص 153 .

-Monteil Vincent: l'islam noire-Paris 1912 'p116.

[2] . علي يعقوب : المرجع السابق ، ص46.

[3] . فرج محمود فرج : إقليم توات خلال القرنين الثامن والتاسع عشر ، ط1 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 2007 ، ص 98 . - أنظر : ملحق رقم 02: نص إجازة .

[4] . - سعيد مرسي احمد ، سعيد إسماعيل علي : المرجع السابق ،ص 228.

[5]. محمد البشر سميلا : الأوضاع السياسية وآثارها على التعليم الإسلامي في مالي ، رسالة ماجستير ، مركز البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان ، 2000م ، ص 36.

وقد يكون ذلك في الزاوية أو المسجد ، ولم تكن محددة بسن معين ، فهي متاحة لجميع من استكمل دراسته في المرحلة الأولى بنجاح ، ويتولى التعليم فيها مدرسين وعلماء أكفاء في مختلف المواد الدراسية [1].

يتلقي الطلبة كافة العلوم عل يد المدرس أو الفقيه ،ويجلسون حوله على شكل حلقة (دائرة) ومع كل واحد منهم لوحه و كتبه ، وتستمر الحلقة غالبا من صبح كل يوم حتى منتصف النهار ، بعدها ينصرف الطلبة لتناول الغداء ، و تبدأ الفترة اليومية الثانية بعد صلاة العصر وتستمر غالبا حتى وقت صلاة المغرب ، وهكذا باقي الأيام ما عدا الجمعة و الأعياد ، ويبدوا أن المناخ كان له دور في تحديد هذه الفترة إذ الحرارة الممتدة من الظهر إلى العصر هي بمثابة راحة للطلاب وشيخهم على السواء.

فكان التعليم في هذه المرحلة حرا يرتبط بظروف العائلة ، واهتمام الأسرة بأبنائها ، ومتابعتهم للحفظ والتحصيل ، إذ يصف ابن بطوطة اهتمام وعناية أهل السودان بتحفيظ أولادهم القرآن إذ يقول ((ودخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت له ،الا تسرحهم فقال: لا افعل حتى يحفظوا القرآن[2])) ، ولم تكن هذه المرحلة محددة بوقت معين ، أو فصل أو سنة دراسية معينة بل كانت تتوقف على استعان الطالب لعدد من الكتب منها كتب الحديث والفقه ، و النحو ،و هذا يتوقف على قدرات ومهارات الطالب على التحصيل والانتهاء منها و لربما يبقى الطالب أكثر من ثلاث سنوات في قراءة موطأ مالك ، وغيره من المذهب المالكي ، والسير وعلم الحديث ، ومناقشة المؤلفات والمسائل الكبيرة مع شروحها [3].

2- مرحلة التعليم العالي :

تختلف هذه المرحلة كثيراً عن مرحلة التعليم السابقة لها، فهي تعادل ما يُطلق عليه في يومنا هذا المرحلة الجامعية ، والدراسة في هذه المرحلة تتميز بالتعمق في القضايا ، والخوض في المسائل التفصيلية والشروح الدقيقة التي ضمتها بعض أمهات المؤلفات الكبيرة التي عرفها المسلمون في ذلك الوقت [4].

1 . عبد الرحمان السعدي : المصدر نفسه، ص 16.
2 . ابن بطوطة : المصدر السابق، ص 691 .
3 . عبد الحميد جنيدي : المرجع السابق ، ص 82-83.
4. جميلة محمد التكيتك: مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير، المرجع السابق ، ص 147.

يبدأ الطالب في هذه المرحلة دراسة الفقه والسيرة واللغة العربية وآدابها على يد أحد مشاهير علماء المنطقة من المذهب المالكي [1] أو يشد الرحال إلى حاضرة من حواضر العالم الإسلامي في المغرب أوالمشرق للاستزادة من علمائه فيدرس الطالب في مرحلة أخيرة القراءات والتفسير والأحاديث وعلوم أخرى كالفلك و الجغرافيا و الحساب ، و يكون المسجد هو الجامعة التي يتلقن فيها الطلاب و يلتفون حول مدرسهم ، فكان هذا منظرا جميلا لنواة المجتمع العلمي[2].

والمنهج الدراسي المتبع هو تدريس المواد بشكل تخصصي وتفصيل واسع، إضافة إلى الاستعانة بالكتب نفسها التي كانت تدرس في مؤسسات التعليم العالي بالمغرب الأسلامي، ومنها كتب القاضي عياض، وسحنون، وشروح ابن القاسم، وكتب المغيلي، وموطأ الإمام مالك، وغيرها.. وهي كتب كان العلماء يقومون بتدريسها، شرحاً وتعليقاً، سواء عن طريق المشافهة أو عن طريق الكتابة، إضافة إلى تدريس الحديث النبوي الشريف، وكان التسلسل في المناهج وفي برامجهم صفة علماء إفريقيا عامة وقد حبذ ابن خلدون هذه الطريقة التربوية اذ يقول : أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا فقليلا [3].

أما مدة الدراسة فقد تطول عشر سنوات أو تقصر ، وربما قضى بعض الطلاب نصف عمره في هذه المرحلة وبعد إكماله الدراسة يمنح الطالب إجازة من عدد من الأساتذة الكبار في المنطقة [4].

وهي بالتأكيد تشبه الإجازات والشهادات الأكاديمية التي تتوج التحصيل العلمي عند الطلبة الباحثين اليوم ، وقد كانت وضعية الطالب على ما يبدو مزرية ،لان التعليم كان حرا ،يعتمد على قدرة الأولياء على دفع أبنائهم للتعليم ، وتوفير لهم أموال أو مؤن تدفع إلى المدرسين وتغطي حاجاتهم أثناء الدراسة ، ومن التقاليد المعروفة أن الطالب يدفع أجرة مدرسه ، ويذكر لنا كعت أنه حظر مكتب المعلم علي تكريا يوم الأربعاء ، وهو اليوم الذي يدفع فيه الصبيان أجرة معلمهم للقرآن من كل أسبوع ،قال : وجعل الصبيان يأتون بخمس ودعات وبعضهم عشر

---

[1] . مطير سعد غيث احمد : المرجع السابق،ص 122.

[2] . Dubois,(F),Tombouctou la Mystérieuses, paris,1897. p 331

[3]. عبد الرحمان ابن خلدون : المصدر السابق ،المقدمة ، ص 443 .

[4]. فليكس ديبوا : المرجع السابق ، ص 233.

ودعات [1] وقد تكون أجرة المدرس مؤونة مثلما كان الحال في إقليم توات حيث تخصص حصة سنوية من التمر والقمح لمعلم الكتاب نظير قيامه بالتعليم [2] ، ولا شك أن مؤونة سكان السودان الغربي هي مما ينتجه مزارعو المنطقة، أما الأسر الميسورة الحال ،فان الجانب المادي لا يعيق مواصلة أبنائهم الدراسة ،وتشير المعطيات التاريخية أن تكلفة الدراسة تزداد مع المستويات الدراسية خاصة في مرحلة التعليم العالي ،وهذا بالتأكيد ما يفسر قدرة العلماء على التفرع للتدريس، والتأليف، فكانت بذلك وظيفة العيش [3].

- ج- المناهج ومواد الدراسة .

-1 - المناهج :

معلوم أن الارتباط بين التربية والتعليم مبدأ تربوي أصيل في الإسلام ، ، ولهذا كانت عناية العلماء الأفارقة بالتربية والتعليم كبيرة وأشرفوا على إدارة مؤسساتهم التعليمية بأنفسهم في معظم الأحيان ، لضمان مراقبة أدائها ، وقد أكدت المصادر التاريخية هذا الدور المزدوج للمناهج التربوية فكانت المـدرسة القرآنية مهتمة منذ تأسيسها بالتربية والتعليم معا لا ترى الفرق بينهما ، ولا أحد منها يكفي عن الآخر ، ويمتزجان امتزاج الماء باللبن [4] ، ولاتمام الرسالة التربوية للمدرسة القرآن عكفت هذه المدارس خاصة الكبرى منها علي إيواء طلابها في كثير من الأحيان ، وذلك للإشراف على سلوكهم وتقويمهم بصورة مباشرة ، فتجد المعلم يكرس حياته للمدرسة ، فهو الإمام في المسجد والشيخ في الزاوية [5]، وهو المدير والمرشد في المدرسة يسيّر ويلقي الدروس في انتظام [6] ولذلك نجد أن ابن خلدون قد أفرد فصولا في مقدمته حول تعليم الولدان خاصة القرآن الكريم [7].

---

[1]. محمود كعت : المصدر السابق ، ص180-181

[2]. فرج محمود فرج : المرجع السابق ،ص 98

[3]. ممادو ساكو: مشكلات التعليم في المدارس العربية الأهلية في مالي , رسالة ماجستير , معهد الخرطوم الدولي للغة العربية ، 2000م ، ص 129.

[4]. الحاج أحمد سيسي ، مدرسة جامل للقرآن الكريم ، بحث في ملتقي تعليم القرآن الكريم بالسنغال، المعهد الإسلامي ، داكار، 1978 م ، ص76.

[5]. مهدي ساتي : مؤسسات التعليم الإسلامي والعربي في السنغال ، المركز الإسلامي الإفريقي ، إصدارة رقم07، الخرطوم ، السودان ، 1990 م ، ص 253.

[6]. ممادو ساكو: المرجع السابق، ص26. للمزيد أنظر . أبوحامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1 ، ص 55 .

[7]. عبدالرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، المرصدر السابق ، ص ص 537 – 538 بيروت .

شملت فلسفة إعداد المناهج التربوية تصوراً يجمع بين (الكم) و(الكيف) وذلك من خلال الإعداد الافقي الذي يعني بشرائح اجتماعية عريضة توفر السند الكمي لتعاليم الأسلام بجانب الإعداد الرأسي والذي يرمي لإعداد جيل يبقي على مكانة الأسلام على مختلف المستويات [1] ، وقد ظلت مؤسسات التعليم الإسلامي وخاصة المدارس القرآنية تقوم بمهمة الإعداد الجماعي لشرائح المجتمع المختلفة تدعمها في ذلك المؤسسات الأخرى وعلى رأسها المساجد والمحاضر أما مهام الإعداد (الكيفي) فقد كانت تقع تحت إشراف المصلح المباشر أو من ينوب عنه خاصة شيوخ الطرق الصوفية ، حيث يكون مبدأ الثواب والعقاب هو السيّد [2] ، من أجل تطهير المجتمعات الأفريقية من الخرافات المتوارثة من العصر الوثني.

كان من أهم الأسس التربوية للتعليم في إفريقيا جنوب الصحراء أن ينجح المعلمون والأئمة - وقد نجحوا- في أن يكونوا عند حسن ظن أتباعهم وقواعدهم التحتية من الطلاب والأتباع ، وربما من الناحية التاريخية يعود هذا النجاح إلى عهد المرابطين [3] .

والمنهاج الذي كان سائدا خلال القرنين 08-10هـ/14-16م ، هو الذي يركز تركيزا شديدا على إيصال مجموعة محددة من المعلومات والحقائق إلى أذهان المتعلمين ، وهو منهج التلقين ، حيث يقوم المعلم بتكرار الدرس المقرر على تلاميذه غالى أن يتأكد من إتقانه له أو حفظه ، أو يكتب التلميذ القدر المقرر على اللوح من القرآن نقلا من المصحف ثم يعرضه على مدرسه ويقرؤه له ، ويقوم التلميذ بتكراره حتى يتقنه أو يحفظه ، ثم يرجع إلى المعلم ويقرأ عليه الدرس حفظا أو نظرا ، فان أتقنه يأذن له المعلم بمحو الدرس ، ويكتب مكانه درسا جديدا - آيات جديدة – ، والمناهج والكتب المتداولة في حواضر غرب إفريقيا هي نفسها التي كانت في المغرب الإسلامي سواء في تنبكت أو غاو أو ولاته أو جنَى أو غيرها فتأثرت كلها بالطابع

---

[1]. عيسى إسحاق سنكرى: تعدد المناهج الدراسية وانعكاسها على الوحدة الفكرية في جمهورية مالي ، رسالة دكتوراه في المناهج وطرائق التدريس ، كلية التربية ، جامعة إفريقيا العالمية ، 2009م، ص21.

[2]. عصمت دندش: دورالمرابطين في نشرالإسلام في غرب إفريقيا ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1408هـ - 1988م . ص 73.

[3] الشيخ عبدالله بن ياسين عرف في أوساط محبيه بالأدب والتواضع الجم فقد كان شديد الورع ، كثير التأمل دائم التحري للحلال في طعامه وشرابه وجاء في " الاستقصاء " أنه لم يكن يأكل شيئا من لحوم صنهاجة ولا من ألبانها مدة إقامته بها (23) ، بجانب ذلك كان مشاركا بنفسه في الأعمال الجهادية حيث استشهد وهو يقاتل البرغواطيين ، و نفس الشيئ مع الشيخ عثمان دان فوديو فقد كان قدوة حسنة لطلابه ومريديه ورعاً متواضعا على سعة علمه وعلو مكانته، وقد تكلم ابنه في كتاب (انفاق الميسور) عن أخلاقه وسيرته - أنظر : بابكر قدرماري: المنهج التربوي في دعوة الشيخ عثمان دان فوديو ، ندوة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان، 1996 م ،ص 229،228.

والرسم المغربي أي المنهاج والكتب المالكية المغربية [1] منها كتاب عياض سحنون وشروح أبي القاسم وخليل وكتب المغيلي والونشريسي وموطأ مالك والمدونة [2] وأما المناهج فكانت تعتمد على منطق أرسطو ،والفلسفة اليونانية ومقامات الحريري[3] ويبدوا أن التأثير المغربي كان واضحا لا كن هذا لا يعني عدم وجود طابع خاص بالسودان الغربي ، بالنظر للعادات والقيم الإنسانية التي كانت سائدة في حواضره وهو ما يعني أن تلك المناهج لم تعصم الناس من الانحراف [4] .

لكن الحكم العام عليها يجعلنا ندرك بذلك مدى الازدهار الذي عرفته هذه الأقاليم خلال الفترة محل الدراسة ، وهذا مقارنة بالفترات السابقة واللاحقة إذ أن عدد القراء الكبير وانتشارهم في البادية والحاضرة ومعهم العدد غير اليسير للفقهاء والعلماء [5] يؤكد حالة التعليم [6].

-2- مواد الدراسة (المقررات) :

- **اللغة العربية وآدابها :**

سعى سكان أقاليم إفريقيا جنوب الصحراء إلى تعلم اللغة العربية لأغراض أساسية منها: الدين الإسلامي؛ فهي لغة القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف ، فالإلمام بها ضروري كى يساعده على فهم دينه فهماً لاتشويه فيه؛ لذلك، يتعلمها المسلم، وهو في سن مبكرة ، فقد فرض الإسلام على كل مسلم ومسلمة أن يؤدي صلواته، خمس مرات كل يوم ، إماماً كان أو مأموماً، وأن يؤذن، ويقيم, ويكبر, ويهلل, ويتشهد باللغة العربية، ورتب ثواباً جزيلاً لكل من يقرأ القرآن، سواء فهم معناه أو لم يفهم. فامتزجت العربية بالإسلام امتزاج الروح بالجسد ، وقد أثبت المؤرخون غير المسلمين أن كتابة تاريخ أفريقيا بصورة كاملة وصحيحة, لاتتم إلا بالرجوع إلى ما سجله علماء اللغة العربية عن أفريقيا [7].

---

[1] . حسن احمد محمود :المرجع السابق ، ص 207.
[2] .عبد الرحمان لسعدي : المصدر السابق ، ص29، 33 ،35 ، 46.
[3] . نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 161.
[4] . عبد القادر زبادية : ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو ، المرجع السابق ، ص 33 .
[5]. عز الدين عمر موسى : المرجع السابق ، ص 118 .
[6]. منادي عثمان : المرجع السابق ، أنظر فصل التعليم ص 181.
[7]. غورو انجاي: المرجع السابق ، ص 33.

كانت اللغة العربية تدرس بالحروف الأبجدية والهجائية حيث ترسم الحروف بصور مألوفة وذلك قصد تقريبها إلى الأذهان فمثلا الحاء يشبهونها بالكماش الذي يصنع من الخشب ،والعين يشبهونها بفم الثعلب حتى يفرقون بينها وبين الهمزة ،وهكذا لا يخلو حرف من حروف العربية إلا ويقربونه بشكل مألوف يرسخ في الأذهان [1] ،إلا أن المشكل المطروح هو النطق السليم للحروف وإخراجها مخارجها الصحيحة ،وهي مشكلة شائعة في تعلم اللغات حتى في أيامنا هذه.

وكان اهتمام أهل السودان بالنحو والصرف بالغا فبواسطته يتم التعبير بالغة العربية مشافهة أو كتابة أو حلقات العلم والمساجد ،وقد أشار إلى ذلك الإقبال كل من احمد بابا التنبكتي والسعدي عند تعرضها لعلماء وفقهاء بلاد السودان الغربي[2] .

أما مقررات النحو والصرف فتشمل الحصن الرصين في الصرف و يبتدئون الدراسة النحوية بكتاب الاجرومية للشيخ عبد الله بن محمد الصنهاجي (ت 726ه)ثم منظومة ملحمة الإعراب للحريري ثم قطر الندى لابن هشام (ت761) ثم ألفيه بن مالك (672ه) وبعض الشروح[3] .

وفي الأدب -الشعر والنثر- يدرس طلاب حواضر غرب إفريقيا مقصورة ابن دريد والبردة للبصيري ،وقصائد مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وقصائد شعراء الجاهلية ،ومع شروحها ، لكن المتتبع لمنتوج الأدب في غرب إفريقيا كان قليلا ولم يبرز مثقفين سودانيين ولم تكن لهم مؤلفات خاصة بهم إلا القليل جدا وربما أهملتهم كتب التراجم سواء السعدي أو احمد بابا التنبكتي [4] أما في النثر الفني فيعد كتاب المقامات للحريري الأكثر رواجا لدى الطلاب والعلماء على حد سواء ،وفي البلاغة والعروض نجد الاهتمام بها قليل ومن كتبها ألفية السيوطي وكتاب الوافي ومقصورة الخزرجى في العروض ،وقد ساعد الطلاب في التمكن من هذه الكتب علماء

حذقوا عملهم ،وتمكنوا من فنهم لغة ونحوا وبلاغة ،تلاوة وقراءة وتفسيرا [5] وهؤلاء العلماء والصالحين الذين توافدوا على المنطقة وساهموا كثيرا في نهضة البلاد وبث روح الثقافة بينها

---

[1]. علي يعقوب : المرجع السابق ، ص06 .
[2]. احمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج 2،المرجع السابق، ص 377.
[3]. علي يعقوب : المرجع السابق، ص07.
[4]. عبد القادر زبادية : الحضارة العربية والتأثير الأوروبي ،المرجع السابق ، ص 60.
[5]. عز الدين عمر موسى : المرجع السابق ، ص 122 .

واستطاعوا أن يقفوا على الكثير من العادات السيئة ويحاربونها [1]وتعد اللغة العربية وآدابها الأساس في التعليم إذ بها تغذى المراحل العليا التالية في تنبكت أو القاهرة أو فاس إذا أراد الطالب متابعة تحصيله [2] .

- **العلوم الشرعية :**

العلوم الشرعية هي مجموعة من العلوم المختصة بالشرع الإسلامي، وقد نشأت هذه العلوم خلال فترات متتالية لتأسيس المدارس الفقهية والمدارس العلمية الأخرى منذ نزل القرآن الكريم، وقد تطور العلم الشرعي عبر التاريخ بإضافة العلماء المسلمين وتفرع كثيراً إلى علوم متنوعة كثيرة أكثر من أن تُحصر، وقد ألف علماء الإسلام الملايين من الكتب لخدمة العلوم الشرعية .

- **الفقه و العقيدة :**

وهو ما يتعلق بأركان الإيمان الستة : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وبعض علماء المسلمين من الطوائف الإسلامية مثل (المعتزلة) و(الأشاعرة) وغيرهم يُدخلون علم الكلام في علم العقيدة، متخذين من الكلام طرقا للإستدلال العقلي، ولا شك أن العقيدة تختلف بين الطوائف المنتسبة إلى الإسلام كالسلفية والجهمية والمعتزلة والأشعرية الكلابية والماتريدية والصوفية، وقد يحصل بين الطوائف والعقائد، فقد يجتمع في العالم أن يكون أشعرياً وصوفياً في نفس الوقت.

وفي إفريقيا جنوب الصحراء كان المذهب المالكي [3]هو المذهب السائد ولذلك لا غرابة في أن نجد كل مقررات الفقه على مذهب الإمام مالك سواء المنشور أو المنظوم ومن أكثر الكتب تداولا في الفقه وأصول العقيدة ،متن رسالة ابن أبي زيد القيرواني (ت386ه) وكتاب إرشاد السالك إلى اشرف المسالك على مذهب الإمام مالك لمؤلفه عبد الرحمان عسكر البغدادي (ت732ه) [4]ومختصر خليل بن إسحاق (ت776ه) وهو أعظم كتب المذهب وأشهرهم ، اقبل عليه العلماء فشرحوه ،وشرحوا عليه وهو آخر كتاب يدرس في الفقه المالكي المنشور وإما

---

[1]. عبد الحميد بكري : النبذة في تاريخ توات وإعلامها من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر ، ط1 ، دار الغرب للنشر والتوزيع وهران ، الجزائر ، 2007، ص 53 .

[2]. نعيم قداح : المرجع السابق، ص 161 .

[3]. الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي (93-179) وتتلمذ على يديه خلق كثير ، ومن أشهر الكتب في الفقه المالكي- المدونة الكبرى- وهي مجموعة من المسائل التي وردت عن الإمام مالك وبلغت (6200) مسألة، رواها عبدالسلام التنوخي المشهور بـ(سُحنون) (ت 240هـ). أنظرhttp/www.wikkipedia.com

[4]. علي يعقوب : المرجع السابق ، ص 08.

الكتب المنظومة فهي كثيرة مثل منظومة القرطبي ، ومنظومة ابن عاشر وهي لعبد الواحد بن عاشر (ت1040ه) وفي الفقه نجد كتاب متن الورقات لإمام الحرمين الجويني (ت487هـ) ،وفي العقيدة نجد القرطبي ورسالة ابن زيد القيرواني[1].

- التفسير والحديث

التفسير :

وهو ما يتعلق بتفسير القرآن الكريم، وينضم إليه علوم القرآن : التجويد والقراءات والناسخ والمنسوخ وغيرها، والتفسير ينقسم إلى قسمين : التفسير بالمأثور، والتفسير باللغة.

وخلال العصور الأسلامية ظل القرأن الكريم المصدر الأساسي الذي يأخذ عنه المسلمون في إفريقيا جنوب الصحراء العلوم المختلفة وقد اتجه المفسرون اتجاهين يعرف ثانيهما باسم التفسير المأثور وهو ما اثر عن الرسول وصحابته ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأي وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل [2] وفي الغالب لا يبدأ الطالب في دراسته التفسير إلا بعد دراسة اغلب المتون الفقهية ،واهم الكتب المتداولة تفسير ابن كثير وتفسير القرطبي (ت671هـ).

- الحديث :

وهو من أغزر العلوم الشرعية من حيث المصنفات والتأليف[3]، يتعلق بالعلم بالأحاديث النبوية، وهو ينقسم إلى قسمين: علم الحديث رواية، وعلم الحديث دراية، ويندرج تحت علم الحديث: علم الرجال (الجرح والتعديل)، وعلم الحديث.

يعد أيضا من أهم مصادر التشريع الإسلامي ويأتي في الأهمية بعد القرآن الكريم [4] ويبدأ الطلاب بكتاب الأربعين النووية ثم رياض الصالحين ثم موطأ مالك وغيرها من كتب الحديث

---

[1]. نفس المرجع ، ص 09.

[2]. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط1 ، دار الجبل بيروت ، 2001 ، ص 346 .

[3]. من أهم المصنفات المتداولة في الحديث بمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء: فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن رجب الحنبلي- شرح النووي لصحيح مسلم المسمى بـ"المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج" -التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبدالبر. أنظرhttp/www.wikkipedia.com

[4]. احمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج 2، المرجع السابق ، ص 351.

كصحيح مسلم و البخاري وفي السيرة اشتهر كتاب سيرة ابن هشام ،وكتاب الصفا للقاضي عياض[1] .

3- العلوم الأخرى : - الطب والصيدلة :

لقد طور الأطباء المسلمون أساليب معالجة الجروح فابتكروا أسلوب الغيار الجاف المغلق. وفتائل الجراحة المغموسة في عسل النحل لمنع التقيح الداخلي وهو أسلوب نقله عنهم الأسبان وطبقه الأوربيون في حروبهم. وكان الجراحون المسلمون قد قفزوا بالجراحة قفزة هائلة ونقلوها من مرحلة نزع السهام كما كان عند الإغريق إلي مرحة الجراحة الدقيقة ومما سهل هذا اكتشافهم للتخدير قبل الجراحة، فتوصلوا إلى ما سموه المرقد (البنج عبارة عن اسفنجة تنقع في محلول من الأعشاب المركبة القنب (الحشيش) والزوان والخشخاش (الأفيون) وست الحسن. وتترك لتجف وقبل العملية توضع الاسفنجة في فم المريض فإذا امتصت الأغشية المخاطية تلك العصارة استسلم للرقاد العميق لا يشعر معه بألم الجراحة [2].

وعرف المسلمون التخدير بالاستنشاق وبين ابن سينا أثره بقوله: (من استنشق رائحته عرض له سبات عميق من ساعته) ، وللإفاقة من البنج كان الأطباء العرب يستخدمون أسفنجة أطلقوا عليها الإسفنجة المنبهة المشبعة بالخل لإزالة تأثير المخدر وإفاقة المريض بعد الجراحة. وحدثنا ابن سينا في كتابه "القانون" عن التخدير بالتبريد ، ووصف كيفية استعمال التبريد كمخدر موضعي كما في جراحة الأسنان.. ولقد كان الجراحون قبل ذلك يتهيبون من الجراجة الداخلية، ويكتفون بعمليات البتر، ثم الكي بالنار لإيقاف النزيف الداخلي، لكنهم باكتشاف واختراع الرازي لخيوط الجراحة من أمعاء الحيوان جعل بإمكانهم خياطة أي عضو داخلي بأمان دون الحاجة إلى فتحه من جديد لإخراج أسلاك الجراحة. وكان الجراحون يستعملون في خياطة جراحاتهم الإبر والخيوط من الحرير أو من أمعاء الحيوانات لربط الجروح الداخلية والخارجية أو من خيوط من الذهب لتقويم الأسنان [3].

[1].عثمان منادي : المرجع السابق ، ص186، 187.
[2]. عبد المؤمن بامبا : تطوير أساليب ووسائل تعليم اللغة العربية في المدارس الثانوية العامة و الخاصة في جمهورية مالي، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير ، معهد اللغة العربية ، جامعة إفريقيا العالمية الخرطوم، السودان ، 2010م ، ص74.
[3]. نفس المرجع ، ص76.

استخدم الأفارقة العقاقير المستخرجة من النباتات والتي يستخدمها المرضى المعالجون في القرى الإفريقية وقد سخر الأطباء قدراتهم لخدمة البشر [1] ويبدوا أن الأفارقة كانت لهم معرفة سابقة بالكثير من النباتات الطبيعية لارتباطها بالسحر والشعوذة قبل دخول الإسلام .

واستخدم الأفارقة خبرتهم هذه الطويلة في العلاج الطبي، وتوفير الأدوية . ونتيجة لمعرفة الأفارقة بالطب التجريبي، كان لديهم بعض المختصين مثل ما ذكره ابن بطوطة في رحلته وشرح فيها كيف شفي بعد أن قدم له الدواء احد الأطباء المصريين [2] كما يروي السعدي أن احد إخوته شفي من مرض لازم عينه بفضل الطبيب المعروف (إبراهيم السوسي) [3] و عرف الإفريقيون خياطة الجروح و تضميدها، و قطع النزيف بالزيت المغلي، و معالجة السموم بخلاصة بعض النباتات [4] ولا شك أن البيئة الإفريقية بمناخها المطير و الجاف تحتاج إلي مختصين في الأعشاب لمواجهة بعض الأمراض، وان هؤلاء المختصين لم يرقوا إلي مستوى الأطباء إلا أن وظيفتهم تلبي حاجة السكان [5].

د- مستوى التعليم :

ابتكر المسلمون علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم وسموها بأسمائها العربية كعلم الكيمياء وعلم الجبر وعلم المثلثات. ومن مطالعاتنا للتراث العلمي الإسلامي نجد أن علماء المسلمين قد ابتكروا المنهج العلمي في البحث والكتابة. وكان يعتمد على التجربة والمشاهدة والاستنتاج. وأدخل العلماء المسلمين الرسوم التوضيحية في الكتب العلمية ورسوم الآلات والعمليات الجراحية. ورسم الخرائط الجغرافية والفلكية المفصلة. وقد ابتدع المسلمون الموسوعات والقواميس العلمية حسب الحروف الأبجدية ، وكان لاكتشاف صناعة الورق وانتشار حرفة (الوراقة) في العالم الإسلامي فضل في انتشار تأليف المخطوطات ونسخها ، وقد تنوعت المخطوطات العربية بين مترجم ومؤلف.

شارك السودانيون بالقدر الممكن في صناعة العلم وبنائه ، فالعلوم الإفريقية تعتمد على التقاليد الايجابية وعلى أعمال أشهر العلماء، وهذه العلوم توجه المجهود المتعلق بالكفاح

---

[1]. كلود قوتييه : إفريقيا للإفريقيين ، ترجمة كمال يونس ، ط1، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 53 .
[2] . ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص 681، 682.
[3] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص3.
[4] . نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 163.
[5].أنظر الملحق رقم 03 ص 464.

ضد جميع أنواع التزوير التي تمس التاريخ الإفريقي ، ولذ نجد أن العلوم الإفريقية تكشف عن صراع دائم مع الجهل والتخلف [1].

إن الحركة التعليمية في حواضر إفريقيا جنوب الصحراء لم تقتصر أو تتأخر عن مثيلاتها في مراكز العلم مثل فاس أو تلمسان أو القاهرة ، بما يعطي لهذا الإقليم من العالم الإسلامي الدور الذي لعبه في نشر الثقافة الإسلامية ورسوخها إلى اليوم في إفريقيا جنوب الصحراء ، ومع إعتناء علماء وطلاب السودان الغربي بالقرآن وحفظه وتفسيره وما يتعلق بباقي العلوم الإسلامية ثم العلوم العقلية والمهن الحرة [2] ، ازدهرت الحياة العلمية وكثرت الكتاتيب والمساجد وتنوعت العلوم وازداد عدد الفقهاء والقضاة والأدباء في حواضر غاو وجنّي و تنبكت من أهلها أو من سكنوها [3] .

فقد روى السعدي أن فقيها اسمه عبد الرحمان التميمي جاء من الحجاز بصحبة السلطان منسى موسى صاحب مالي فأقام في تنبكت زمنا ،ولما رأى رجالها وعلمائها يتفوقون عليه غادرها إلى فاس لتحسين مستواه العلمي[4].

كما رحل عدد من علماء السودان الغربي إلى حواضر العالم الإسلامي ، ومن أشهرهم احمد بابا التنبكتي الذي درس في فاس ودرس في مساجدها ،وكذلك الحال للعلماء الذين هاجروا إلى غرب إفريقيا ،وأشهرهم الشيخ عبد الكريم المغيلي ،وقد اشرنا في الفصل السابق انه كان في الأزهر رواق خاص عرف بالرواق التكروري بالإضافة الى الكتب التي كانت تستقدم مع التجار والحجاج إلى حواضر غرب إفريقيا كلها تدل على المستوى اللائق الذي عرفته الحياة العلمية فقد عرف السودانيون الرحلة الى طلب العلم وتنوع مراحل التعليم وأماكنه وبرز العلماء وتنوعت مناهج ومواد التدريس واهم الآباء بتدريس أبنائهم وبلغ التعليم نفس المستوى الذي بلغه في جامعات قرطبة وتونس وتلمسان والقاهرة [5].

[1] . ولتر ماركوف ، هارموت تيمسوفسكي : إفريقيا على ضوء العلوم التاريخية ، مجلة الثقافة الإفريقية ، الجزائر ، 1969 ص 306.
[2] . حسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص 164.
[3] . يحيى بوعزيز :المرجع السابق، ص 195 .
[4] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 51 ، 62.
[5] . ولتر ماركوف ، هارموت تيمسوفيسكي : المرجع السابق ، ص 265.

لقد احدث الدين الإسلامي نشاطا ثقافيا وحمل اللغة العربية على الانتشار في أوسع نطاق وظلت المدارس القرآنية نبراسا لتقاليد اجتماعية [1] وصنعت حواضر غرب إفريقيا تاريخا مشرفا خلال عدة قرون قبل الاستعمار الأوروبي الذي أعاد حضارة السودان الغربي إلى نقطة البداية وحاول تغيير البنية الحضارية له وتشويه التاريخ[2] .

و أدت المراكز الثقافية الإسلامية دوراً كبيراً في ربط الفكر الديني العربي بالحضارات الإفريقية ، وسار ذلك الربط في نطاق التأثير المتبادل دون حدوث نكسات أو أي مظهر للرفض من طرف الأفارقة، الذين أصبح ما تعلموه جزءاً من كيانهم الخاص، وهذا ما يطلق عليه "المدرسة الإفريقية" لدى الكثير من الباحثين .

-المطلب الثالث : العلماء وإنتاجهم الفكري والثقافي.

منذ القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي ساد إرتباط تام بين إفريقيا جنوب الصحراء والعالم الأسلامي في المغرب والمشرق ، مما نتج عنه قيام مدرسة إسلامية افريقية خاصة في مجال علوم الدين المختلفة أي العلوم النقلية، وقد امتدت هذه المرحلة حتى القرن السادس عشر [3].

ثم تطور الفكر السوداني ليعطي إضافات فكرية ففتحت آفاق جديدة في مجالات الفنون والآداب مثل الفلسفة والتاريخ والتراجم والشعر وغيرها من الفنون الأدبية. وفي هذه المرحلة كانت القيادة والريادة للعلماء الأفارقة الذين كان أنتاجهم مساهمة في الحضارة الإسلامية ، وإمتدادا لنقل المعرفة وتكريس الثقافة العربية، خاصة مع بروز فئة رجال الفقه والأدب والشعر، في أكثر من مدينة سودانية ، وقد نشأت طبقة افريقية مثقفة بالثقافة الإسلامية العربية وأخذت مكانها في المجتمع الإفريقي وشكلت حركة فكرية ناضجة ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي متخذة المراكز الثقافية الإسلامية مرتكزاً، حققت منه ربط الفكر العربي بالحضارات الأفريقية [4].

[1] . نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 08.
[2] . عثمان منادي : المرجع السابق ، ص189،190.
[3]. محمد الغربي ، المرجع السابق، ص510.
[4]. حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في افريقيا ، المرجع السابق ، ص10 -11.

وقد ساهم هؤلاء العلماء السودانيون في الحركة العلمية في مراكش فاخذوا وأعطوا وكتبوا في كثير من الموضوعات خاصة التراجم والسير مما جعلهم يضيفون جديداً في الحضارة العربية الإسلامية وكانت مؤلفاتهم مرغوبه يتهافت عليها الطلاب والعلماء وقد لاحظ الحسن الوزان في القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي العدد الكبير من الفقهاء والقضاة في تنبكت [1] على سبيل المثال .

و كثرعدد القراء في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر في الحواضر والبوادي معا ، وكثرة القراء تدل على الانتشار الواسع للعلماء اذا يذكر السعدي أنه عندما أسلم سلطان جني كان بها 4200 عالما وقد يظن البعض أن في العدد مبالغة ،لكن قوله ليس بغريب اذ أن جني بها سبعة ألف وتسع وسبعون قرية متلاصقة ،وعليه ففي كل قرية عالم واحد بمعنى القارئ أي معلم الصبيان ، وهو أمر محتمل [2] .

وأخذ سكان السودان الغربي بالحضارة الاسلامية في الوقت الذي أصبحت فيه الى ضعف في مواطنها الاولى الأصلية [3] وخاصة بعد سقوط الاندلس وضعف دويلات المغرب والمشرق الاسلامي فبرز مؤرخون سودانيون اهتموا بكتابة التاريخ وتدوينه بجانب العلماء التقليدين الذين كانوا يكتبون في العلوم الدينية والأراجيز اللغوية والمنطق وعلى هؤلاء المؤرخين اعتمدت كل الكتب التي كتبت عن إفريقيا جنوب الصحراء ومنهم صاحب كتاب السودان وتاريخ الفتاش وتذكرة النسيان ونيل الأبتهاج الذي يعتبر من أهم كتب التراجم ، كما برز كثير من الأدباء والشعراء يمكن التادلس وأحمد بابا التنبكتي ومحمد بن محمد الأمين وقد أعطى هؤلاء دفعاً جديداً للحركة الإسلامية.

ولقد ساهم علماء إفريقيا جنوب الصحراء في إغناء الحضارة العربية الإسلامية ودفعها للقارة الإفريقية كلها، كما أصبحت كثيراً من مؤلفات علماء بلاد السودان تدرس في مراكز العلم

---

1 . حسن الوزان : المصدر السابق، ص 167.

2 . عز الدين عمر موسى : المرجع السابق ، ص 115.

3 . عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين (1493-1591)مجلة الاصالة العدد 58 ، الجزائر 1978،ص29.

في شمال إفريقيا وفى سائر البلاد الإسلامية. واصبح كثير من العلماء الأفارقة أساتذة في الجامعات في تلك البلاد وفي الحرمين الشريفين والازهر وفاس والقيروان [1]، وقد تطرق ابن بطوطة [2] والوزان والمؤرخين السودانيين الى العدد الكبير من العلماء السودانيين .

وسأورد أهم العلماء الذين ساهموا في الحضارة العربية الاسلامية فقط ، وأقصد بالعلماء المتمكنون من علوم الدين والمتمرسين في فرع منه [3] نظرا لكثرة الفقهاء والعلماء الذين برزوا في حواضر إفريقيا جنوب الصحراء ، والتي حوتها كتب التراجم ، وربما أهمل الكثير منهم فانني اكتفيت بأشهرهم فقط ، وقسمتهم الى أسر:

- **1- أسرة أقيت :**

اشتهر ابناء هذه القبيلة بالعلم والتقوى والورع ،وقد استقرت هذه الاسرة بين ولاته و تنبكت وكان لها الكثير من الفقهاء والعلماء منهم

- **محمود بن عمر بن محمد أقيت :**

ولد في تنبكتو عام 1463م، وكان يدرس أمهات الكتب المالكية، وألفية ابن مالك ومختصر خليل[4]، سافر إلى الحج عام 1509م، وفي طريقه مر بمصر فحصل بينه وبين علماء مصر مناقشات علمية في المسائل الفقهية [5] ، من هؤلاء العلماء إبراهيم المقدسي، والقلقشندي، ولما عاد إلى تنبكت لازم التدريس وانتفع به بشر كثير [16].

- **العاقب بن محمود بن عمر اقيت :**

ولد عام (913ه/1447م) في تنبكت ، وأخذ العلم عن أبيه وعمه، ورحل إلى مصر حيث تلقى العلم في مجلس الإمام أبي الحسن البكري، ثم رجع إلى تنبكت فتصدر للقضاء والتدريس

---

[1] . احمد إبراهيم دياب : علماء بلاد السودان الغربي في القرنيين السادس عشر والسابع عشر وآثارهم العلمية دور العلماء الافارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الاسلامية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، الخرطوم، 1973،ص.148

[2] . ابن بطوطة : المصدر السابق ص،681.

[3] . عز الدين عمر موسى :المرجع السابق، ص 114.

[4] . أحمد ابراهيم دياب: المرجع السابق ص 149.

[5] .عبد الرحمان السعدي : المصدرالسابق ،ص35 ،36 ، احمد بابا التنبكتي: نيل الإبتهاج بتطريز، المصدرالسابق ج 02، ص 303.

[6] . محمد الغربي : المرجع السابق ، ص516.

حتى توفي سنة 1602م [1] ، قال عنه السعدي انه كان متشددا في احكامه ، لايخاف في الحق لومة لائم ، توفي عام 991ه/1583م [2] .

- **محمد بن محمود بن عمر أقيت :**

ولد في تنبكت سنة 909ه/1503م وصفه أحمد بابا بأنه كان ثاقب الذهن صافي الفهم ومن دهاة العلماء [3] ومدحه قائلا : " اكتسب من الدنيا عريضا وطويلا " [4] ، تولى القضاء بعد أبيه، كان أستاذا للمنطق والبيان توفي سنة 1565م.

- **أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت :**

ولد سنة 922هـ/1516م أخذ العلم عن أبيه وجده وهو والد المؤرخ والفقيه أحمد بابا التنبكتي ، وقد برع في الحديث والفلك والهندسة، وكان جمّاعاً للكتب، سافر إلى المشرق حيث إلتقى في مصر السيوطي ، ثم رجع الى بلاده فجلس للتعليم [5] وترك سبعة تآليف ، وتخرج على يده عدة فقهاء وعلماء أشهرهم الفقيه محمود بغيغ وولداه أحمد ومحمد بغيغ [6] وهذا الأخير هو أستاذ أحمد بابا درس على يديه الفقه والحديث ، توفي سنة 1583م في غاو[7] .

- **أحمد بن عمر بن محمد أقيت:**

ولد عام 929ه/1522م ، شغل منصب القضاء في تنبكت طيلة السنوات الأخيرة من حكم ملك مالي، قال عنه أحمد بابا: بأنه : "علامة فهامة ذكي دارك متحصل متفطن محدث أصولي بياني منطقي مشارك [8] حيث شرح منظومة المغيلي في المنطق ،واهتم بجمع الكتب ، توفي سنة 991ه/1583م[9] .

---

[1]. نفس المرجع ، ص518.
[2] . عبد الرحمان السعدي: نفس المصدر، ص40.
[3] . أحمد ابراهيم دياب:نفس المرجع ، ص 150.
[4] . أحمد بابا التنبكتي : نفس المصدر ، ج 2 ، ص 291.
[5] . عبلة محمد سلطان: المرجع السابق ،ص 134.
[6] . عبد الرحمان السعدي :المصدر السابق ،ص19.
[7]. محمد الغربي : المرجع السابق ، ص 518.
[8] . احمد بابا : نيل الابتهاج، المصدر السابق ، ج01 ، ص154 .
[9] .عبد الرحمان السعدي :المصدر السابق،ص42 ، - احمد بابا لتنبكتي : المصدر السابق،ج02 ،ص 154،
- احمد بابا :كفاية المحتاج ، ج1، ص75 .

- **أحمد بابا التنبكتي :**

من كبارعلماء منطقة إفريقيا جنوب الصحراء اشتهر شهرة تغني عن تعريفه فهو أبو العباس احمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت السوداني الصنهاجي التكروري ، المشهور بأحمد بابا التنبكتي ، حيث يضيف المؤرخون لاسمه الصنهاجي أو التنبكتي أو التكروري ، وأحيانا تستعمل هذه الألقاب مجتمعة .

ولد عام 963هـ /1550م في تنبكت نشأ في أسرة علم وصلاح، نبغ منها القضاة والأئمة والدعاة ، نفاه المنصور السعدي إلى المغرب، فيما عرف بمحنة علماء تنبكت، ترجم لنفسه في كتابه كفاية المحتاج، بلغت مؤلفاته ستين كتابا في علوم مختلفة لايناظره في العلم الا أشياخه فقد شهدوا له بالعلم [1] وعرفه السعدي بكونه علامة فريد عصره والبارع في كل فن من فنون العصر ، وكان استاذا في جامع الشرفاء بمراكش تتلمذ على يده الكثير من الطلاب الذين أصبحوا علماء منهم مفتي فاس [2] تعرض احمد بابا الى الاعتقال بعد الغزو المراكشي للسودان الغربي وساقوه المراكشيون الى فاس ، حيث فقد أثناء ذلك نحو 1600 مجلد من الكتب التي كان يملكها[3] أفرج عنه ،وعاد الى تنبكت ، بعد ان سمح له ابن المنصور الذهبي بالرحيل عام 1016هـ/1607م،ومكث هناك مواصلا رحلة العلم والعطاء حتى توفي عام 1036ه/1627م.

لأحمد بابا مؤلفات كثيرة اذ يعد كتاب "نيل الابتهاج في تطريز الديباج " معلمة بيبلوغرافية للاعلام المغاربة [4] ثم وضع تكملة سماها "تكملة الديباج " في ثمانية عشر جزءا كلها تراجم أئمة المذهب المالكي ، وعندما وجد أن الكلمة لم تف بالغرض وضع لها ذيلا بعنوان " كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدباج "أو نيل الابتهاج بالذيل على الديباج " [5] قال عن نفسه : (ألفت عدة كتب تزيد على الأربعين تأليفاً) [6] ، توفي في تنبكت سنة 1036هـ.

---

[1]. عبد الحميد جنيدي: المرجع السابق ، ص 94.
[2] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 35 .
[3]. نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 161
[4] . عبد الجليل التميمي : كتاب نيل الابتهاج في تطريز الديباج " المجلة المغربية للتوثيق و المعلوما ت العدد 03مارس 1985 تونس ، ص27.
[5] . احمد إبراهيم دياب : المرجع السابق ص 153.
[6] . عبد الحميد جنيدي : نفس المرجع ص 95 .

- **2- اسرة بغيغ :**

تعتبر من العائلات المشهود لها بالعلم والعطاء الثقافي في السودان الغربي نبغ الكثير من أفرادها في مجال العلم والفقه و التأليف أشهرهم :

- **محمد بن محمد بن أبي بكر الونكري التنبكتي المعروف ببغيغ :**

ولد عام 921هـ/1515 م ، ترجم له أحمد بابا وقال عنه بأنه "كان طويل الروح في التعليم لا يأنف من مبتد ولا بليد ، درس علوم العربية والفقه على أبيه القاضي محمود، رحل للمشرق وحضر مجالس العلم بمصر حيث تتلمذ على أشهر العلماء من أمثال: الناصر اللقاني والتاجوري ومحمد البكري، وبعد الحج رجع إلى تنبكت، لازمه أحمد بابا التنبكتي مدة عشر سنين اذ يقول عنه "فهو شيخي وأستاذي ما انتفعت بأحد انتفاعي به ..." توفي في 1002ه/1593م مخلفا عدة مؤلفات [1] وقد ترك ولدا اسمه محمود بغيغ كان امام تنبكت اخذ العلم عنه احمد بابا التنبكتي والفقيهان محمد واحمد وهما من ابناءه [2] توفي سنة 1593م عن عمر يناهز 78 سنة.

- **- أسرة البلبالي :**

وهي أسرة أتت من الصحراء استقر أفرادها في حواضر تنبكت و كانو وغيرها ،درس أجداد هذه الاسرة في فاس ومراكش ،واجتهدوا في تكوين أبناء الاسرة في العلم والفقه حتى نبغ الكثير منهم أشهرهم .

- **مخلوف بن علي صالح البابلي :**

درس في ولاتة ، وتعلم فيها العلوم القرآنية ورسالة أبي زيد في الفقه ، ثم ارتحل الى المغرب لمواصلة مسيرة العلم حيث درس على يد علي بن الرازي في فاس ، وبعدها عاد فقيهاومدرسا في كل من كانو و كاتسينا .كانت له أبحاث مع الفقيه العاقب الانصمي ثم دخل

[1] . أحمد بابا التنبكتي :نيل الابتهاج ،المرجع السابق، ج 2، ص 298 ،عبد الرحمان السعدي:المصدر السابق ص 42- 322 .
[2] . محمود كعت : المصدر السابق ، ج2، ص 113، عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 35.

تنبكت ودرس بها ثم رحل مرة اخرى الى مراكش ، ودرس بها ثم عاد الى بلاده وتوفي عام 1533/940م [1] .

- **المؤرخ محمود كعت :**

ولد سنة 1548م *، عاصر في بداية حياته الأسكيا الحاج محمد أعظم أباطرة سنغاي وصحبه في الحج الى مكة ، وجعله من بين مستشاريه ، ، إستقر في تنبكت، وتولى القضاء بها، ألف كتاب الفتاش[2] في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، توفي عام 1593م [3].

عاصر كعت الأزمات السياسية التي سبقت الغزو المغربي لبلاد السودان وركز في كتابه على كل ما كان يدور في بلاط الآسكيا ، وقد اطلع على المراسلات التي دارت بين البلاطين السوداني والمغربي [4] .

وتاريخ الفتاش ليس مقسما أو مبوبا الى ابواب وفصول واحداث حسب السنين او ترتيب الشخصيات بل مكتوب دفعة واحدة بدون فقرات وله الكثير من الاستطراد خاصة في التاريخ الاسلامي كما انه لم يفصل في الاحداث بل جعلها متداخلة ويسمى كتابه " تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق انساب العبيد من الاحرار وهو كتاب يؤرخ لدولة سنغاي والدول التي قبلها مثل مالي [5] حيث يعد كتابه مصدرا هاما في تتبع التطور الحضاري والثقافي والاقتصادي للمنطقة في تلك الفترة [6]، وقد ترجمه الفرنسيان هوداس ودولافوس ونشراه في باريس عام 1913 وقد اعتمد عليه المؤرخون في دراسة تاريخ افريقيا الغربية [7] .

---

[1] . عبد الرحمان السعدي المصدر السابق ص 38 ، احمد بابا : كفاية المحتاج ، ج 2 ، ص 253.

[2] . نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 162.

[3] . علي يعقوب : المرجع السابق ، ص12.

*. لاحظت تضارب في التواريخ الخاصة بمولد و وفات المؤرخ محمود كعت فقد ذكر الدكتور علي يعقوب وهو رئيس الجامعة الإسلامية في النيجر بأن كعت ولد في 1548م ومات عام 1593واشار احمد إبراهيم دياب انه عاش خمسون سنة في حين بعض الكتب تتفق في تاريخ الوفات وتختلف في تاريخ المولد ، فأشارت بعض المراجع الى تاريخ 1640 كتاريخ لميلاده.

[4] . أحمد ابراهيم دياب : المرجع السابق ، ص 152.

[5] .duboi ‘(f)’:op.cit .pp. 342. 343 .

[6] .عثمان منادي : المرجع السابق ،137.

[7] . نعيم قداح : المرجع السابق ، ص162.

- **المؤرخ عبد الرحمان السعدي :**

وهو عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي ، ولد عام 1004ه/1596م في تنبكت تلقى العلم على عدة علماء منهم الفقيه احمد بابا والقاضي محمود بن أبي بكر عمل اماما في جامع سنكري وفي اواخر عام 1039ه/1670م وسع معارفه عن العالم برحلة قام بها الى مملكة ماسينا وبدعوة من قاضي هذه الاخيرة ،واستقبل بحفاوة من قبل السلطان نفسه ،ومن طرف الاعيان مما شجعه على معاودة زيارة المملكة بعد ثلاث سنوات ،وأدى في هذه المناسبة خدمة للسلطان بعد الصلح بينه وبين تابع له كان بينهما ثأر قديم ،وقام السعدي بهذا النوع من الوساطة مرات كثيرة بين امراء المنطقة مما اكسبه خبرات واسعة وعلاقات وطيدة مع عدد من حكام المنطقة بل انه كان ضالعا في الشؤون السياسية في بلاده وشغل كاتبا كما انه يقوم بالاعمال العامة والسفارة والوساطة [1] وقد امضى السعدي سنوات طويلة في كتابة تاريخ السودان الى غاية 1065ه/1655م [2] حيث توفي تاركا وراءه كتابا ومصدرا مهما في تاريخ غرب افريقيا نشره هوداس عام1898 وترجمه الى الفرنسية عام 1900 [3] .

اهتم السعدي بالتاريخ ويظهر من كتابه انه كان يدون ما يسمعه او يراه ولا نعرف الى أي مدى كان يتحرى نقل هذه الاحداث واحيانا لا نجدها مرتبة زمنيا اذ يستطرد الاحداث في عدة مواضع وربما يعود ذلك الى طبعة الكتاب التاريخية السائدة آن ذاك.

القائمة عل نقل الاحداث المجردة وللقارء أو السامع لها ان يعيدها كما هي أو يمحصها وهذ النوع من الكتابة جعل صعوبة الدراسة التاريخية تكمن في وجود الادلة الدامغة لنفي او اثبات بعض الاحداث التي يعتقد الباحث ان بعضها مبالغ فيه كذكر عدد الجيوش وحجم المؤن وعدد الطلبة أو العلماء وغير ذلك .

وقد اخذ السعدي كثيرا عن الذيل لاحمد بابا التنبكتي وكذلك عن محمود كعت وكتب في مقدمة كتابه :"ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه ، وذهاب ديناره وفلوسه وأنه كثير الفوائد لما فيه من معرفة المرء باخبار وطنه واسلافه وطبقاتهم وتواريخهم ووفاياتهم واستعنت بالله سبحانه وتعالى في كتب ما رويت عن ذكر ملوك سنغاي وقصصهم واخبارهم وسيرهم

[1]. عبد الحميد جندي : المرجع السابق ،ص 96.
[2] . البرتلي الولاتي: المصدر السابق ، ص 176.
[3] . نعيم قداح : المرجع السابق، ص 161.

وغزواتهم وذكر تنبكت ونشاتها ومن ملكها من الملوك وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطنوا فيها وغير ذلك الى آخر الدولة الاحمدية الهاشمية سلطان مدينة حمراء مراكش .

فأقول وبالله تعالى استعين وهو حسبي ونعم الوكيل الباب الاول : ذكر ملوك سنغاي [1] ثم جعل في كتابه ثمانية و ثلاثين بابا آخرهم : باب تاريخ السودان 1063 الى عام 1065 .

والقارئ المتفحص في اسلوب الكاتب يجد فيه حلاوة الاسلوب ، ومتانة العبارات ودقة المعاني المنتقات ، حتى اذا استرسل الباحث في قراءة عشرات الصفحات فإنه لا يمل رغم عدم ترتيبها وفيها كثير من السجع والاطراء وهذا دليل على أن الكاتب ابن عصره في اسلوب الكتابة التاريخية من ناحية وأنه متمكن من الغة العربية جيدا ، من ناحية ثانية والاسلوب الانشائي يدل على عدم تسجيل الاحداث وقت وقوعها ، فسمعها أو رآها ثم سجلها في أبواب محددة ، ولعل هذا مادفعني الى القول أن الحياة العلمية في غرب افريقيا كانت بالفعل مزدهرة ، ولا تختلف عن قرائنها في البلاد الاسلامية الاخرى ، على الاقل من حيث الاسلوب والنضج الفكري [2].

وهكذا نجد أن بلاد إفريقيا جنوب الصحراء قد مثلت فضاءً لمراكز الإشعاع الثقافي ، قدم العلماء المغاربة والمصريون والحجازيون إسهامات كبيرة في التواصل الثقافي ، ودخلت بلاد إفريقيا جنوب الصحراء عن جدارة واستحقاق منطقة الثقافة الإسلامية ، وبرز ذلك في مؤلفات علماء السودان ومخطوطاتهم، كعبد الكريم المغيلي والذي ينحدر من جذور مغاربية ولكنه قضى معظم عمره في مدن السودان في القرن الخامس عشر الميلادي ، أي قرابة الثلاثين عاما وكتب فيها كتبه مثل " تاج الدين فيما يجب على الملوك، وكأحمد بابا عالم تنبكت الكبير المولود في عام 1556م الذي له أكثر من خمسين مؤلفا ، ذاع منها صيت كتابه " نيل الابتهاج بتطريز الديباج " وكمحمود كعت " المولود في 1468م وكتابه " تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، وعبدالرحمن السعدي المولود في 1596م وكتابه " تاريخ السودان [3].

---

[1] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 02.

[2]. عثمان منادي : المرجع السابق ، ص138.

[3]. بهيجة الشاذلي: مكونات الفكر السياسي الشيخ عثمان بن فودي، بحوث الندوة العالمية، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان ،1995، ص 79.

وتميزت الحركة الفكرية في السودان الغربي بقوتها وتأثرها بالعقل المغاربي ولكنها كانت لها خصوصية في استقلالية الحركة الفكرية عن السلطة السياسية ، وأجازت الجهاد ضد الحاكم الظالم على عكس أطروحـات الفكر السني المشرقـي، الذي كان يتحرى تجنب الفتنة على رأي ابن جماعة " نحن مع من غلب " وبالنسبة للمغيلي فإن حكم الحاكم الظالم حكم الكافر والمخلط ورأي المغيلي في الجهاد ضد هؤلاء أولوية على مجاهدة الكفار(1).

واهتم كذلك أحمد بابا بقضايا الإصلاح والتجديد ولخصه في المقدرة الفكرية والعقلية على الإحاطة بعلوم الشريعة والأصول والفقه واستنباط الأحكام وتقديم الفتوى والتعليم والتربية لإحياء النفوس، وبفضل جهود المغيلي وأحمد بابا برزت في السودان الغربي مدرسة تجديدية إسلامية، قائمة على خصوصيات السودان الغربي، وإن جمعت القسمات المشتركة للتراث الإسلامي بينها وبين بقية الحركة العلمية الإسلامية. وأساس هذا الفكر العناية بالقرآن الكريم، استنساخا واستظهارا وحفظا وتلاوة ونسخا، ولذلك شاعت في هذه المنطقة المخطوطات القرآنية على رواية ورش وظل القرآن الكريم أساس حركة الحياة العلمية ثم كتب الصحاح في الحديث النبوي بالإضافة إلى سيرة ابن هـشام، وكتاب الشفاء للقاضي عياض، وتفسيـر الجلالين، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه ، ورسالة مختصر خليل بالإضافة إلى مدونة سحنون في الفقه المالكي.

تأثر علماء السودان الغربي، منذ القرن الثالث عشر بتيارات التصوف[2] ، لكن تحديات الدعوة الأسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء تمثلت في خلط مباديء الإسلام وعقائده بالمعتقدات المحلية من تعاويذ وطقوس تتعلق بالسحر والخرافة وتقاليد الأهالي المتوارثة .

وبينما كان الصراع في المجتمعات الإسلامية يدور حول السلطة وبين الشيعة والسنة وبروز حركات سياسية وفكرية كالخوارج والمعتزلة والأشاعرة وطوائف الحلولية من

---

[1] Usuman Mhammed Bugaji, The Tradition of Tajdid in Western Blilad – Sudan – Astudy of the Gensis, development and Pattern of Islamic Revovalisim in the Regopm .900- 1900 A.D. Ph.d thesis , University of Khartoum IAAS.1991.P. 195- 74

[2]. زينب الشيخ حمزة عمر، الطريقة التجانية في السودان، رسالة ماجستير مركز البحوث جامعة إفريقيا العالمية، 2002م ، ص 56. أنظر. طارق أحمد عثمان: الطريقة السمانية وأثرها الديني والاجتماعي في السودان، منذ دخولها سنة 1776م–1955م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة افريقيا العالمية، الخرطوم ص33.

المتصوفة وغيرها، إلا أن بلاد إفريقيا جنوب الصحراء لم تعرف هذه التعقيدات وظلت على بساطة الثنائية مابين الإسلام والوثنية الإفريقية.

المبحث الثالث: التراث الثقافي :

المطلب الأول- نظام الحكم والقضاء:

أ- نظام الحكم .

1- بلاط الحكم وتقاليده:

لم تعرف إفريقيا جنوب الصحراء قبل الإسلام دولا كبيرة أو صغيرة إلا القليل، وكان النظام القبلى هو السائد، وعندما ظهر الإسلام ودخل المنطقة لم يكن فيها من الدول المعروفة وقتذاك إلا مملكة «غانة» الوثنية فى غرب القارة، إضافة إلى بعض المشيخات القبلية المتناثرة في الصحراء، وكانت حياة الناس لا ينظمها قانون أو شريعة، إلا ما يقوله الملك أو الشيخ، فكلمته هى القانون، لأنه هو الذى يهب الحياة ويقضى بالموت، ويبارك الزرع والحصاد، وينزل المطر، ويتحكم فى كل ما على وجه الأرض، لأنه ببساطة هو الإله والرب المعبود.

وعندما جاءت الحضارة الأسلامية لم تنشئ دولا صغيرة شبيهة بالتى أشرنا إليها من قبل فقد أقامت إمبراطوريات إسلامية كبرى حيث الحكم المركزي بيد الملك وهو المشرع في دولته، فكانت كلمته قانونا ، والالتزامات والواجبات والمزايا تكون لمن يخلفه [1] ، و كل ما في المملكة له ما دام الجيش خاضعا له [2].

وجمعت القبائل المتفرقة المتنازعة والعناصر المتباينة داخل هذه الإمبراطوريات الكبيرة، وقضت على عادات هذه القبائل فى النهب والسلب والإغارة ، وقضت – الحضارة الأسلامية - أيضًا على استبداد الحكام وتألههم وظلمهم للرعية إذ يتحدث ابن بطوطة في وصف هذه الحالات، خاصة لمن أراد أن يقابل السلطان أو يكلمه [3].، بل لكن المصادر تحثت أيضا أن منهم من نال قسطًا وافرًا من العلم والثقافة وهم العلماء والفقهاء، فكان الحكام لا يبرمون أمرًا إلا بعد استشارتهم ، فعل ذلك - أيضًا - الملوك الوثنيون الذين لم يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد

[1] أحمد طاهر: المرجع السابق ،ص77.
[2] إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص334.
[3] ابن بطوطة: المصدر السابق،ص 693.

و«البكرى» يقص علينا نبأ ملك «غانة» الوثنى الذى اتخذ من العلماء المسلمين الذين كانوا يقيمون فى عاصمته وزراءه ومستشاريه.

ونظام الحكم وراثيا على الأغلب، والقاعدة العامة في وراثة العرش هي تولية الولد الأكبر للسلطان الراحل، كما وجدت قاعدة ولاية الحكم لابن الأخت أو ابن البنت، وهذا شيء كان سائدا قبل وبعد انتشار الإسلام ، وقد أشار ابن بطوطة إلى العادات الغريبة التي وصف بها المناطق التي زارها في رحلته فقال :«لا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه »[1]، وفي نفس الوقت وصفهم بأنهم يؤدون الصلاة و يحرصون على تأديتها في المسجد خاصة صلاة الجمعة ووصفهم بأنهم مسالمون، لكن نظام الوراثة هذا بقي إلى أن أضعفه الإسلام خلال حكم إمبراطورية سنغاي خاصة في عهد الاسيقيين الذي أخد الكثير من تقاليد الحكم في العالم الأسلامي من شعار ومواكب وجلوس ووسائل تسلية[2] .

وقد أقام الحكام والسلاطين دُورًا للشورى كان واحدها يسمى «المشور» وكان هذا «المشور» هو المكان الذى يلتقى فيه الحاكم بالمحكومين وهو ضخم فيه ألوان من الطرف والبذخ ففي الإستقبالات توجد مراسيم تحدد بدقة ما يلبسه الموظفين من الأكسية وما يضعونه على رؤوسهم من الأغطية، وكل من يراه يتحتم عليه أن يخلع غطاء رأسه ويسجد، ويذري التراب على رأسه وجسده [3] ، فإذا أصيب أحد من الرعية بظلم أو أصابه مكروه على يد غيره من الرعية أو الحكام كان يلجأ على الفور إلى «المشور» ويرفع مظلمته ، فكان يقضى فيها على الفور على يد العلماء والفقهاء أو على يد الوزراء والسلطان نفسه حسب نوع المظلمة.

وقد تحدثت كتب الرحالة والمؤرخين عن تقاليد البلاط، وطريقة جلوس الحكام ، واستقبالاتهم، فقد وصف القلقشندي[4] بلاد وملك مالي، ووصف السعدي[5] بلاد ملك سنغاي.

فكانت تقاليد البلاط توحي بعظمة السلطان، وتجعله مهابا لدى الرعية، وظهوره أمام العامة كان قليلا، ولا يظهر إلا على حصانه والحرس من حوله وضاربوا الطبول من أمامه [6].

---

[1].ابن بطوطة: المصدر السابق،ص677.
[2]. محمد فاضل علي باري، سعد إبراهيم كريدية: المرجع السابق ،ص 95 .
[3].إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص333.
[4].القلقشندي،المصدر السابق،ج5،ص288،وما يليها.
[5].عبد الرحمان السعدي:المصدر السابق،ص 81-100-114.
[6].عبد القادر زبادية:مملكة مالي في عهد الإسيقيين،المرجع السابق،ص57.

ولذلك ساد الأمن والأمان والطمأنينة في حياة الناس فيما عدا أوقات الفتن والاضطرابات والحروب ، ونتيجة لذلك كله ارتقت الحياة المادية والعمرانية وازدهرت الحضارة فى إفريقيا جنوب الصحراء وتلونت باللون الأسلامي الخالص ففي سنغاي مثلا كان الإمبراطور يتلقى لدى تتويجه ختما وسيفا ونسخة من مصحف القرآن الكريم[1] ، وبذلك امتزج نمط الحكم السوداني، بالأنماط العربية الإسلامية التي لوحظ تطور وجودها رويدا رويدا مع خضوع المنطقة للمؤثرات العربية الإسلامية [2].

كان طابع الحكم السائد في الممالك الإسلامية في السودان الغربي، استبدادي والملكية مطلقة وفيها استغلال الرعايا لصالح الأسر الحاكمة [3] فالحاكم مقدس لدى السودانيين، وربما جاء هذا التقديس من العادات التي توارثوها من العهد الوثني، حيث كانت المعتقدات هي المسيطر على سلوك الإنسان، وقد بقى شيئا منها حتى القرون المتأخرة، ولعل القضاء على تلك السلوكات كان من واجب العلماء ، فساهموا في الحد منها ، جيلا بعد جيل ، فكانت مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين من الممالك التي حسن نظام حكمها وكان الأقرب إلى الأنظمة الإسلامية السائدة في ذلك العصر في إفريقيا جنوب الصحراء وم يعيش على تخومها[4].

وتعد مراسيم تنصيب الملوك من أهم الأعمال الإدارية التي يوليها السلطان اهتماما خاصا وقد يكون هذا راجع إلى رغبة الحاكم الجديد في أن تبدأ مهابته منذ تنصيبه، فيكتسي ذلك طابع الأبهة والعظمة لدى موظفيه أو عامة الناس ، حيث يتقدم إلى الملك رؤساء المقاطعات وقادة الجيش وأفراد العائلة المالكة ليقسموا أمام القاضي والعلماء على الإخلاص والطاعة للملك الجديد على المصحف [5].

ويوضح لنا أن كل هذا أن تلك البلاد الإفريقية تمتعت بحضارة سامية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كما مرت مالي بدورها في القرن الرابع عشر قبل ذلك[6].

---

[1].نفسه ، ص 333.

[2]. مطير سعد غيث أحمد، المرجع السابق، ص308.

[3].Monteil Vincent : l'islam noir, p149.

[4].أحمد طاهر: المرجع السابق، ص 80.

[5].محمود كعت: المصدر السابق،ص 106،عبد القادر زبادية مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين،المرجع السابق،ص63.

[6].عبد الرحمان زكي ، المرجع السابق،ص221.

2- جهاز الإدارة وتنظيمه:

- الوزارة:

كان الوزير في عهد مملكة مالي يلقب بـ «الصندكي» وللصندكي أهمية كبرى في الحكومة المركزية، فقد يحدث أن ينفرد بالأمر ويستبد بجميع الأمور تقريبا[1].

وفي مملكة سنغاي وجددت وظائف قائمة حول الملك، و أصبحت أكثر انتظاما مع مرور الزمان حتى نهاية حكم سنغاي ، و من هذه المناصب :

كيمي : مدير الميناء ،هيكوي : مسؤول أمن السفن ، يوبوكوي : مسؤول السوق ، كاري تيا : موزع السروج ، الكوراباندا مونديو: المتصرف في ضواحي العاصمة ، الباراي كوي : رئيس البرتوكول ، الوناي فورما : وزير الأملاك الحكومية ، لاراي فارما : وزير المياه ، ساوفارما : وزير الغابات .

إلى جانب هؤلاء اوجد الأسقيا وظيفة كنغاري التي عهد شغلها إلى أخيه عمر مزباغ و هو منصب مهم لأنه نائب الملك و تحت تصرفه قسم من الجيش[2].،و لقد حرص خلفاء الاسكيا محمد الكبير على استمرار هذا التنظيم في الوزارة ، ربما لفاعليته في معالجة الأخطار التي تحدق بالمملكة .

و الملاحظ أن بعض هذه المناصب وجدت في المشرق الإسلامي ، و قد يكون الاسكيا محمد اخذ عنها خلال رحلته إلى الحج ، أو أشار عليه بها بعض معاونيه من العرب المتواجدين في سنغاي ، فقد كان للممالك الإسلامية في غرب السودان عادات شرقية و إسلامية انتقلت مع الإسلام ، و نتيجة الاتصال التجاري و الثقافي بالعالم الإسلامي[3].

- الولاة:

لقد نظمت الأقاليم على نحو يثير الإعجاب ، فالحدود المترامية الأطراف لمملكة مالي وسنغاي يلزمها التنظيم الجيد لمواجهة مخاطر الانفصال و ثورة القبائل المحلية في الداخل أوالوثنية من الحدود الجنوبية ، و قام التنظيم الإداري على المستوى الإقليمي فألغيت الطريقة

---

[1].العمري: المصدر السابق، ج4، ص61،القلقشندي،المصدر السابق ج5،ص286.
[2].عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين،المرجع السابق، ص99.
[3].محمد فاضل على باري، سعيد إبراهيم كريدية: المرجع السابق،ص 95.

القديمة في توكيل رؤساء القبائل مقابل الاحتفاظ بأولادهم كرهائن ، فقسمت الإمبراطورية إلى ولايات ، وعهد بكل ولاية إلى والي ، و قد اختير الولاة في عهد الاسكيا محمد من بين أقربائه المخلصين[1] .

في عهد مملكة مالي،كانت الوحدة الإدارية في تنظيم هذه الدولة المترامية الأطراف هي «الدجو» أي القرية، وتؤدي القرية هنا معنى المدينة، ومجموعة القرى وضواحيها تعرف باسم «الكافو» (KAFO) في لغة الماندينغو ومعناها «الإقليم» أو المقاطعة ومجموعة الكافوات تكون ما يعرف عند مالي باسم «الديامانا» أي الولاية ، بل أن لقب منسى «MANSA» أو «ماسا» «MASSA» كان يطلق أصلا عند الماندينغو على حكام هذه الولايات، ولقب بهذا اللقب كذلك رؤساء القرى المؤسسون وهو لقب قديم يرجع إلى العهد الوثني[2].

وهنالك عدة ألقاب تطلق على حاكم الولاية في عهد مملكة مالي تختلف حسب فترات حكم وتوالي السلاطين ، مثل لقب «كي» «kai» ومعناه ملك وطني خاضع لمنسى مالي وهو أعلى لقب لحكام الولايات ويطلق أيضا سالفه فيقال «كي مل»[3].

وفي عهد مملكة سنغاي أخذت ألقاب الولاة أسماء محلية ، يظهر كما جاءت من اصطلاحات الناس في مناطقهم، فوالي ولاته كان يسمى «شا» ووالي تغازا يسمى «فا»

وهنالك ألقاب أخرى مثل «كوي» و«مندزو» و«فارما»[4].

وهكذا نجد أن تنظيم الولاية الذي يبدأ بالقرية كنواة للوحدة الإدارية، تليها المدينة وهي تتكون من مجموعة النواحي، ثم الولاية التي تعني مجموع هذه المدن[5]، فكانت مالي مقسمة إلى عدة ولايات.

ولم تختلف سنغاي أيضا عن هذه التقسيمات الإدارية ، فقد كانت مقسمة إلى ستة ولايات هي ولاية: بالاما، دندي، بانجو، هاريباندا، كورما، ولاية نهر النيجر[6].

---

[1].محمد الأمين عوض الله : المرجع السابق ،ص69.

[2].Monteil Vincent : l'islam noir, p202.

[3].ابن بطوطة،المصدر السابق، ص692.

[4].عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين،المرجع السابق ،ص60.

[5].الهادي المبروك الدالي، مملكة مالي الإسلامية،المرجع السابق ،ص126.

[6].عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين،المرجع السابق،ص34.

ب- القضاء :

كان القضاء في إفريقيا جنوب الصحراء يخضع لإشراف قضاة أكفاء يعيّنهم الحاكم، وكان يَتم تعيين وعزل القضاة بأوامر منهم ، غير أن الحكام مع ذلك لم يَكونوا يُصدرون الأحكام القضائية بأنفسهم بل يوكلون ذلك للشرع وإجتهادات العلماء ويرجع هذا إلى انتشار الإسلام في بلاد السودان الغربي إبتداءا من الطبقات العليا، ثم استمر انتشاره بعد ذلك حتى وصل إلى العامة [1].

وقد حرص السلاطين وحكام السودان الغربي على إشاعة العدل والأمن والالتزام بالكتاب والسنة و تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية[2]،وقد أشار كل من العمري القلقشندي وابن بطوطة إلى مجالس السلطان القضائية ومواكبة النظر في المظالم ، فهناك قضايا تستأنف للنظر أمام السلطان نفسه، وهذه ينظرها في مجالسه[3].

ومن أبرز التطوُّرات على الصعيد القضائي التي شهدتها منطقة إفريقيا جنوب الصحراء أن الحكام توقفوا عن التدخل بأنفسهم في القضاء كما كان يَفعل حكام مناطق أخرى من العالم الإسلامي، الذين كثيراً ما كانوا يُصدرون الأحكام القضائية بأنفسهم أو يضعون أسسها، غير أن حكام مملكة سنغاي استمرُّوا بتوجيه قضاء الدولة في ثلاثة أمور لأهميتها الكبيرة، وهي: تعيين القضاة مُباشرة ، وتعيين وعزل قضاة الدولة والإشراف على أعمالهم والأحكام التي يُصدرونها، والتأكد من التزامهم بالأسلوب القضائي القويم ، كما مارس السلاطين بالإضافة إلى ذلك قضاء المظالم وقضاء الحسبة.

جرت العادة في مملكة مالي وسنغاي أن يتم تعيين القضاة ، حيث يَقوم الحكام بتعيين قاضٍ على كل إقليم من أقاليم الدولة حسبَ كفاءته وأهليته للعمل غير أن الاسكيا محمد الكبير قد أدخل بعض التعديلات والإصلاحات الحديثة، التي جعلت مملكة سنغاي تتفوق في إدارتها على مملكة مالي[4].

---

[1].جلال يحيى،المرجع السابق ،ص29.
[2]. مسعود خالدي:الجاليات العربية والبربرية في إفريقيا جنوب الصحراء،بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين،الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين،رسالة دكتوراه ، كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية ،جامعة باتنة ،2007-2008، ص391.
[3]. العمري :المصدر السابق،ج4،ص67،القلقشندي:المصدر السابق،ج5،ص288،ابن بطوطة:المصدر السابق،ص690.
[4].الأمين محمد عوض الله:المرجع السابق، ص76.

لقد دوَّن بعض هؤلاء القضاة أحاكمهم ، وقد أصبحت بعض هذه الأحكام فيما بعد قواعد فقهية عندَ علماء السودان الغربي، واجتهدَ القضاة السودانيون بأنفسهم في إصدار الأحكام القضائية حسب رؤيتهم وما تمليه عليه آرائهم، حيث لم تكن قد ظهرت بعد أجوبة عن بعض المسائل الفقهية كالنوازل ومنازعات الأرث ، فكان للقاضي الحرية التامة في اختيار حكمه وفق القرآن والسنة ثم ما يراه اجتهاده، فقد تحدثت المصادر التاريخية على أن القاضي محمود بن عمر أقيت قد نهر رسل الاسكيا محمد الكبير، وطردهم من تنبكت لتعديهم الحدود الشرعية، ولم تناهى الخبر إلى أسماع الاسكيا، سار لمقابلة القاضي، معتبرا أن طرد رسله إهانة شخصية له، فبادر القاضي محمود بالقول: «هل نسيت أم تناسيت يوم جئتني في داري وأخذت برجلي وثيابي فقلت جئت أدخل في حرمتك واستودعتك نفسي أن تحول بيني وبين جهنم فانصرني، وامسك بيدي حتى لا أقع في جهنم ، وأنا وديعتك فهذا سبب طرد رسلك[1]» فقال الاسكيا صدقت والله،ثم رجع من حيث أتى. ولم تتغيَّر هذه الحال في عهد ملوك سنغاي الذين بذلوا الجهود لخدمة الإسلام[2].

وقد كان الجهاز القضائيّ في الدولة مستقلاً من هذه الناحية ففي مملكة مالي وجدت نوعان من المحاكم ، المحكمة الملكية التي يرأسها الملك، وتختص في فصل جرائم الخيانة، ويتم انعقادها برئاسته شخصيا، والمحكمة الثانية وهي محكمة القاضي الذي يعينه الملك، ومهمة المحكمة الأخيرة النظر فيما يقع من جرائم العامة والمنازعات بين الأهالي، وكانت الطرق المتبعة في المساءلة تتم بطابع العنف والتعذيب، وقرار المحكمة يعلن على الملأ، والعقوبة حسب الجريمة فهي تتراوح مابين السجن والجلد، وقد تصل العقوبة إلى الموت أو مصادرة الأملاك[3].

والملاحظ في تاريخ القضاء السوداني تراجع توجهات الدولة السياسية على الأحكام القضائية العامة، وكانت كلمة القضاة مسموعة عندَ الملوك أنفسهم ففي عهد مملكة مالي كان الذي يتولى منصب القضاء، يمتيز بمصافحة الملك ويتصدر الحاضرين في المناسبات والأعياد الدينية ، و يصدق السلطان القاضي فيما يقوله [4]، وفي عهد مملكة سنغاي فإن القاضي هو سيد

[1].مطير سعد غيث أحمد:المرجع السابق، ص340.
[2].شوقي الجمل،عبد الله عبد الرزاق إبراهيم:المرجع السابق ،ص15.
[3].الهادي مبروك الدالي:مملكة مالي الإسلامية ،المرجع السابق،ص64.
[4].نفس المرجع،ص65.

القرار وبيده الحل والربط وحده[1] ، كما تميَّز قضاة السودان الغربي بتدوينهم الأحكام القضائية التي تكلمت عنها المصادر التاريخية السودانية لكنها افتقدت كمادة أرشيفية.

كان للقضاة دور كبيرٌ في ضمان سير العدل في إفريقيا جنوب الصحراء، ولعل الباحث يشده الانتباه عندما يقرأ عن هذا الإحترام الكبير للقضاة [2] ، ويؤكد الدكتور زبادية بأن هذه المكانة لا مجال للشك فيها بحال، على الأقل في عهد الاسيقيين، ويبدوا أن القضاة قد فرضوا احترامهم على السلطة وعلى الجمهور من الاستقامة التي كانوا عليها، فلم يذكر المؤرخون عن أحدهم إخلاله بالواجب بأي شكل من الأشكال، كما كانوا لا يتولون منصب القضاء إلا بعد إلحاح كبير من الملك ومن الأصدقاء ومن الجمهور أيضا، وذلك تهربا من مسؤولية القضاء الصعبة [3].

المطلب الثاني- الحياة الاجتماعية :

أ- العادات والقيم الأخلاقية:

1- العادات والتقاليد:

إن الإسلام لم يترك أثرًا عميقًا فى التركيب الجنسى لهذه الشعوب فحسب، بل إنه جاء بحضارة أتاحت للشعوب الزنجية طابعًا حضاريا لايزال واضحًا حتى اليوم مؤثِّرًا فى نظمهم الاجتماعية، ذلك أن الإسلام حمل الحضارة إلى القبائل الوثنية، حتى جزءا من العالم الأسلامي[4].

وجعل من المجموعات المنعزلة المتفرقة شعوبًا، وجعل تجارتها مع العالم الخارجى ميسورة ، فقد وسع من الأفق ورفع من مستوى الحياة بخَلْق مستوى اجتماعى أرقى، وخلع على أتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين .

لقد أدخل الإسلام فن القراءة والكتابة، وحرم الخمر، وأكل لحوم البشر، والأخذ بالثأر، وغير ذلك من العادات الوحشية، وأتاح للزنجى السودانى الفرصة لأن يصبح مواطنًا حرا فادى

---

1. محمود كعت : المصدر السابق،ص174.
2. . جوزفين كام : المرجع السابق، ص 23.
3. عبد القادر زبادية:مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين،ص74.
4. . نفس المرجع ، ص 36.

العرب والبربر بذلك دورا رئيسيا في شمالي القارة وغربها [1].

كما قضى الإسلام على الاحتفالات الدينية المهيبة التى كانت تقام لآلهتهم ولأسلافهم، والتى كانوا يشربون فيها الخمور ويقدمون فى أحيان كثيرة القرابين البشرية كى ترضى عنهم الآلهة وأرواح الأسلاف، حررهم الإسلام من كل ذلك ومن أعمال السحر والكهانة المرتبطة بهذه العقائد الوثنية، وحل الفقيه أو الداعية المسلم محل الكاهن أو الساحر [2] ، وحل المسجد فى القرية الإفريقية محل دار عبادة الأوثان ذات المنظر البشع، وحلت حلقات الذكر التى كان الصوفية يعقدونها محل حفلات الرقص الماجنة، وبذلك تحرر الأفارقة سودانًا كانوا أم زنوجًا من هذا التخلف العقيدى والفكرى وتم جمعهم على عبادة واحدة وإله واحد وشريعة واحدة ذات نظمواضحة تنظم حياة الفرد والمجتمع.

خلص الإسلام مجتمعات إفريقيا جنوب الصحراء من عادات سيئة كثيرة مثل العُرْى وأكْل لحوم البشر ودفن الجوارى والخدم والزوجات مع الملك المتوفى، ووأد الأطفال أحياءً، وكان هؤلاء الأطفال يوءدون لا لشىء إلا لأنهم وُلدوا مشوهين، أو وُلدوا وبهم مس من الشيطان كما كان يعتقد آباؤهم، أو لأن أسنانهم العليا ظهرت أولا، وهو فأل سيئ عندهم، فكانت بعض القبائل تترك هؤلاء الأطفال فى الغابة تخلصًا منهم، ولكن الإسلام عدَّل هذه العادة بين المسلمين الأفارقة.

زد على ذلك أن الإسلام علمهم النظافة فأخذ الأهالى الذين لم يتعودوا من قبل على النظافة يغتسلون ويتنظفون بل أنهم أصبحوا يباهون مواطنيهم الوثنيين بملابسهم البيضاء النظيفة [3] ، لأن إقامة الشعائر الدينية الإسلامية لا تصح إلا بطهارة البدن والملبس والمكان. يضاف إلى ذلك أن الإسلام نظمهم فى الزواج ونظام الأسرة، إذ جعل الرجل هو المسئول الأول عن الأسرة لا المرأة كما كان الشأن عند كثير من القبائل الإفريقية، فصار الأبناء ينسبون لآبائهم وليس لأمهاتهم، كما حدد عدد الزوجات فى أربع فقط وليس كما كان الحال عندما كان الرجال يختلطون بالنساء اختلاطًا جماعيا، أو كان للرجل ما يشاء من نساء حسب قدرته ومقدرته ، وبذلك رفع الإسلام مكانة المرأة وأحاطها بسياج من الاحترام والطهر والعفاف، بعد أن كان

---

[1]. رولاند أوليفر:المرجع السابق ، ص29.
[2]. عبد القادر زيادية : مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين ،المرجع السابق، ص 135 .
[3]. نعيم قداح : المرجع السابق ،ص 173.

الابن يرث زوجات أبيه بل ويتزوج بهن، وكان نظامهم أن ابن الزوجة الأولى هو الذى يختص بميراث أبيه كله عند وفاته ويحرم منه باقى الأبناء فوضع الإسلام نظامًا عادلا لتوزيع التركة بين أفراد الأسرة جميعًا إذا مات عائلها، حسب نظام دقيق يعطى لكل ذى حق حقه دون زيادة أو نقصان، ودون ظلم أو بهتان، مما أورث الحب والمودة فى قلوب الأبناء وزرعها محل الكراهية والبغضاء.

ولا يقل عن ذلك أهمية أن الإسلام أزال تقسيم الناس إلى طبقات حسب اللون أو العنصر أو الثروة أو المنزلة الاجتماعية، وجعل الإخاءوالمساواة والتعاون والتكافل أساس الحياة الاجتماعية، وأصبح الأسود باعتناقه الإسلام على قدم المساواة مع غيره داخل وطنه، ومع إخوته فى الإسلام فى أى مكان آخر فإمتزج الدعاة والمعلمين بالإفريقيين عن طريق الزواج والمصاهرات ولعبوا دورا لا يقدر في مجال تغييرالعادات والتقاليد الخاطئة [1] ، مما أشعر الأفريقي بالعزة والكرامة والاعتداد بالنفس بعد أن كان عبدًا مهانًا يتحكم الملك الإفريقى الوثنى أو شيخ القبيلة فى أموره كلها بل فى حياته نفسها، وأصبح سلوك الناس ملوكًا وعامة مضبوطًا بضوابط الإسلام وشريعته وأحكامه، ولم يصبح مرتهنًا بأوامر الملك المقدس ونزواته أو نزوات شيخ القبيلة ، وإن كان من الصعب على قبائل إفريقيا جنوب الصحراء رغم اعتناقهم الإسلام بان تهجر ما ورثته من عادات الآباء والأجداد منذ القدم [2]، وبذلك حرر الإسلام الإنسان الإفريقى وكل إنسان يعتنقه من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

2-العادات القديمة وتعاليم الإسلام الجديدة :

-المعتقدات :

فقضى على العقائد الوثنية وحلت الوحدانية محل عبادة الأرواح والأسلاف ومظاهر الطبيعة، فاستبدل الناس الإسلام بهذا الشتات والفرقة الدينية الوثنية ذات الطبيعة الخرافية والوهمية، وتم القضاء على تحكم أرواح الأسلاف والأجداد وتقمصها في الأشجار والجماد [3]، - كما كانوا يعتقدون - فى حياة الأحياء؛ إذ كانت أرواح هؤلاء الأسلاف من الموتى هم الرؤساء الفعليون للأسرة وللقبيلة كلها، وهم القوامون والمراقبون لسلوك الأحياء، ولهم عليهم حق الثواب

[1]. أحمد بوعتروس : المرجع السابق 2009، ص 80.
[2]. جوان جوزيف : المرجع السابق ، ص 86.
[3].أحمد سويلم العمري : الإفريقيون والعرب ، ط 1 ، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة 1967 ، ص 67.

والعقاب، ولابد من استشارتهم فى كل أمر من أمور الحياة ومشاكلها، ولهذا لم يشكك أحد في المعلومات التي ذكرها ابن بطوطة عن مالي ، والتي تناول فيها أوصافا دقيقة وتفصيلية عن ذلك الخليط العجيب من التعاليم والعقائد والعادات المحلية الذي كان سائدا .

وقد تراوحت ملاحظات وتعليقات ابن بطوطة بين الإعجاب الشديد بقواعد المن ومبادئ الحكم العادل التي كانت تسود أرجاء المملكة ، والسخرية والاستهزاء الشديد بالطقوس الاحتفالية المحلية [1] .

كان سكان إفريقيا جنوب الصحراء يعيشون على مبالغات عبادة الأسلاف ومثول أرواحهم بين الأحياء ، والحيوانات فجاء الإسلام بمفهوم حضاري معتمدا على نشر المعارف الصحيحة عن الكون ، والحياة ، وضرورة أن تكون المعتقدات مبنية على خدمة الإنسان ، وعدم التناقض في قيم الطبيعة ، وصيرورة التاريخ ن وبعد القرن التاسع الميلادي بداية المشاركة الثقافية المتكاملة بين السودانيين والعرب على أساس الإسلام والمفهوم الذي يعطيه للكون ، وأمتزج السودانيين بالحضارة الإسلامية في معظم المجالات ومن بينها الثقافة الروحية الأساسية [2] ، أو المعتقدات فالأديان الإفريقية التقليدية تنتمي في معظمها إلى صنف الأديان المتعددة الآلهة ، فالأشخاص الخارقون في هذه الأديان هم أرواح مختلفة بما في ذلك أرواح الأجداد والمكان وظواهر الطبيعة ، ولما جاء الإسلام كان توحيد العقيدة أبرز تأثير عقائدي تركه ،وإن استمرت الممارسات التقليدية خلال القرون الأولى جنبا إلى جنب مع تلك العقائد الإسلامية كالتبرك بالأضرحة والاعتقاد في المحرمات المحلية ، على الرغم من أن الإسلام أصبح راسخ الجذور في المنطقة[3] .

فتخلى بذلك الإفريقيين عن الاعتقاد في بعض الطلاسم والرسومات التي تدفع عنهم الشرك أو تجلب لهم الخير، مما هو متعارف عليه من السحر والشعوذة الكهانة [4].

وبدأ الإفريقي يؤدي الصلاة والحج ويصوم رمضان ويضحون الأضحيات في الأعياد والتخلي عن السجود للآخرين، وإعطاء الميت قدره وعدم المبالغة في تحضير جنازته ،

---

[1]. كولين ماكيفيدي :المرجع السابق ،ص 101.

[2]. عبد القادر زبادية : الحضارة العربية والتأثير الأوروبي ،المرجع السابق، ص 52.

3 A -Rahman I Doi :spread of islam in west africa –www-islamic-com

[4].أحمد جروزا طاهر : أسس تعايش المسلم مع العادات والتقاليد الاجتماعية الإفريقية،مجلة علوم إنسانية السنة السابعة العدد 45 ،2010 ،www.ulumanl.com . 06.07.2010 .

وظهرت الأسماء العربية بدل الأسماء القديمة ، وتخلى السوداني عن السحر والكهانة والعرافة ، وحكايات الغول ، ووأد الأولاد خشية العار أو خوف الإملاق ، وأعطوا الزواج قدسيته وكرامته ، ولم يكن هذا إلا بمساعدة العرب[1] والمسلمين .

3-القيم الأخلاقية والأحتفلات الدينية:

3-1- القيم الأخلاقية

تأثرت قبائل إفرقيا جنوب الصحراء بدعوة الإسلام إلى العدل والإنصاف والخير التسامح والمساواة [2] ، وكرم الأخلاق و حسن المعاملة وحارب التعصب القبليّ والمذهبي ، فحرص المسلم الإفريقي على الأبتعاد من التعصب القبليّ والمذهبيّ ونحو ذلك من العادات والتقاليد الوثنية .

و ساهم الإسلام في المصالحة بين القبائل وجعلها مجموعة من الروابط المتنوعة الأكثر شمولا [3]، وكان عنصر المساواة الذي أوجده الإسلام ، وأجتهد الحكام خاصة في عهد سنغاي في تطبيقه عامل الوحدة الاجتماعية .

فغرست فكرة الأمة في قلوب المسلمين السود لتحقيق الوحدة والإتحاد ، فقضى الإسلام على نظام سيادة المرأة وحل محلها الرجل كرب الأسرة وزعيم العشيرة ، وحارب العري وجاء بقيم احترام الابن للأسرة ، وحدد الإسلام تعدد الزوجات ، فقضى على الخلط بين الأنساب في المجتمعات الإفريقية التقليدية[4].

كما ورث الإفريقي عادات حميدة ، والتي وصفها ابن بطوطة في رحلته خلال حكم مملكة مالي قائلا :" فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحد في شيء منه ، ومنها شمول الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ، ولا المقيم من

[1]. موسى عبد السلام مصطفى أبيكن : التقاليد الجاهلية في إفريقيا ، مجلة علوم إنسانية السنة السابعة ، العدد 45، 2010. www.ulumanl.com.07.07.2010.

[2]. ضيف الله محمد الأخضر : محاضرات في النظم الإسلامية والحضارة العربية ، ط1 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1984، ص 138 .

[3] .Catherine Coquery-Vidrovitch :.Des frontières en Afrique du XIIe au XXe siècle Bamako, 1999 ‹Publié par l’Organisation des Nations Unies pour l’éducation, la science et la culture‹STEDI-MÉDIA, Paris.2005‹p41.

[4]. أحمد سويلم العمري : المرجع السابق ، ص 67.

سارق أو غاصب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة ، ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم بها في الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها ، وإذا كان يوم الجمعة ، ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام ، ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص لخلعه وغسله ونظفه وشهد به الجمعة ، ومنها عنايتهم بحفظ القرآن وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا يفك عنهم حتى يحفظوه " [1].

وقد أشار عدد كبير من المستشرقين المنصفين من أمثال سيرتوماس أرنولد وفانسنت ومونتاي ولوبون وهونكة إلى النقلة النوعية التي أحدثها الإسلام في تقويم وترقية الأعراف والقيم الاجتماعية في إفريقيا ، غير أن عدم الموضوعية في تقويم الآثار الإيجابية للإسلام في إفريقيا ظلت هي السمة الغالبة على معظم أعمالهم [2].

وقد دل انتشار الإسلام بقيمه على أن هناك نواة لمبدأ أكثر رقيا إلى حد ما ، ومن الواضح أن هذا المبدأ كان يؤثر تأثيرا عميقا في طبيعة الزنجي ويجعل منه إنسانا جديدا ، ولعلك تدهش لو علمت أن هذا المذهب هو الإسلام [3].

-3-2-الاحتفالات الدينية:

- **إحياء شهر رمضان :**

كان الأهالي يستقبلون رمضان بشتى أنواع الأطعمة والحلوى ، يكثرون من العبادة ، وفعل الخير ، والتردد على المساجد لأداء الصلاة في أوقاتها ، كصلاة الفجر والتراويح ، ويزور بعضهم البعض ، ويكثرون من قراءة القرآن ، وقراءة الشفا للقاضي عياض، وخاصة في مدينة تنبكت وجنّى وغاو [4] وربما كلفوا أحدهم بشرحه للأطفال لقاء أجر أو هدية [5].

---

[1]. ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص 690 ، الأمين محمد عوض الله :المرجع السابق، ص 64.
[2].عثمان منادي المرجع السابق ، ص 172.
[3]. مهدي ساتي : الإسلام والقيم الاجتماعية للجماعات الروحانية في إفريقيا جنوب الصحراء .
www .mbark-inst.org2010.06.28
[4]. الهادي المبروك الدالي : التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء ،المرجع السابق،ص27.
[5]. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 266.

وكان أهل السودان الغربي أشدّ كرما ، وأكثر صدقة في شهر رمضان ، فيأتي الأهالي إلى أبواب المساجد قبل الغروب بحبوب التمر وقطع الخبز والحساء ، ويوزعون ذلك على المحتاجين من الفقراء [1] .

وأهم ليلة في رمضان هي ليلة القدر حيث تحظى باحتفالات خاصة، كقراءة القرآن جماعيا ، والإكثار من الدعاء ، ويقوم القاضي في المدينة " يطبخ الطعام ويحمله فوق رأسه ، وينادي قراء القرآن وصبيان المكتب ويأكلون وهم قائمون ، يأكلون تعظيما لهم ....." [2].

وقد كانت تمنح كسوة سنوية للقاضي والمداحين ، بعد أن ينهوا جرد صحيح البخاري في نهاية شهر رمضان المبارك [3] ،ومن البديهي أن ينال الإمام أو المقرئ الذي يصلي بالناس التراويح نصيبه من المكافأة ، والشكر والثناء عليه ، وربما تجمع أموال خاصة بالمقرئين خلال شهر رمضان وخاصة من الطلبة المتميزين بالحفظ والصوت الجميل.

- **إحياء العيدين ومولد الرسول (ص) :**

إن الاحتفالات الدينية تحمل تشابها بين ما يحدث في بلاد السودان الغربي ، والبلاد الإسلامية الأخرى كمصر والحجاز ، فنجد أن السلاطين وعامة الناس يهتمون

باحتفالات العيدين، فتلبس الملابس البيضاء وسط التهليل والتكبير [4].

وبمجرد رؤية هلال عيد الفطر ، يقصد العدول من الرجال للإدلاء بشهادتهم ، فتهتز المدن بالتهليل والتكبير ، وزغاريد النساء تعبيرا عن فرحتهم ، وفي الصباح ينطلق الرجال إلى المصلى ليؤدوا صلاة العيد ، وبعد الانتهاء من الصلاة يتصافح المصلون ويتزاورون ويتصدقون على الفقراء ابتهاجا بهذا اليوم [5]، ويسارع الناس إلى الطرقات مصطحبين الأطفال الذين يحملون الفوانيس المضاءة في تجوالهم لشراء لوازم العيد من أطعمة وملابس وهدايا ، أو تعلق الفوانيس لتنير الطريق طوال أيام العيد [6] .

---

[1]. مطير سعد غيث : المرجع السابق ، ص 378.
[2]. محمود كعت: المصدر السابق ، ص 180.
[3]. مطير سعد غيث : نفس المرجع ، ص 379.
[4].زينب أحمد هاشم: المرجع السابق ، ص 173.
[5]. الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء ،المرجع السابق،81.
[6]. مطير غيث : المرجع السابق ،ص 379 .

وكانت العادة في ليلة عيد الأضحى أن تطلق المدافع من أبراج قصبة تنبكت ، كما يحدث في جميع مدن إفريقيا ، وعيد الأضحى له وقع في نفوس أبناء إفريقيا حيث يخرجون لأداء صلاة العيد [1] ، ويحتفل السكان بألعاب الفروسية ، وتعزف الموسيقى في الطرقات ، ويحضر الاحتفالات الشعراء الذين يعرفون (بالجلاد) ، ويتكلمون بالشعر أمام السلطان ، وهو عبارة عن وعظ وإرشاد له بأن يذكروه بمن كان جالسا قبله على سدة الحكم ، وعلى هذا المقعد الذي يجلس عليه اليوم ، فيعدون أعمال أسلافه السابقين من مآثر حسنة ، وينصحونه بالتحلي بالأعمال الطيبة حتى يذكر بها بعد مفارقة الدنيا، وهذا الوعظ الذي أسداه الشعراء للسلطان ، له ما يشبهه لدى ملوك الشرق العربي الإسلامي على أيدي الفقهاء ، وعلماء الأمة الإسلامية [2].

وما زال أهالي تنبكت يحتفلون بالمولد على نفس الطريقة التي كانت زمن حكم مالي وسنغاي والتي ذكرتها المصادر التاريخية [3] ، وقد أشار السعدي [4] أن أهالي تنبكت كانوا يتجمعون في الأعياد الدينية في الساحة (تسمى كلصخ) ، حيث يتخذوا موضعا لمدح الرسول (ص) ، ومن خلال قصيدة البردة ، ودلائل الخيرات [5]، وغيرها ، من القصائد التي كانت متداولة في الحواضر السودانية [6].

ب - المعاملات التجارية :

كان النظام الاقتصادى يقوم على احتكار شيخ القبيلة أو الملوك أو الزعماء للأرض والثروة الحيوانية والمحاصيل الزراعية وحق المتاجرة فى سلع معينة، فلا يحق للناس العاديين تملك شىء فقد كانوا هم والأرض وما ينتجونه منها ملكًا للحكام ، فلما جاء الإسلام قضى على ذلك، فأطلق حق التملك حسب الجهد والطاقة وبَذْل المجهود والعمل، وجعل كسب المال أمرًا متاحًا للجميع كل حسب جده وكده، فقضى بذلك على الإقطاع والاستغلال والاحتكار، كما قضى على العبودية ونظام السخرة فصار العامل يأخذ أجره عما يقوم به من عمل بعد أن كان يعمل فى مزرعة الشيخ أو الملك دون أجر.

---

[1]. محمود كعت: المصدر السابق، ص 64 ، الهادي المبروك الدالي : التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 83.
[2]. الهادي المبروك الدالي : مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها مع المغرب وليبيا ،المرجع السابق، ص 87.
[3]. الهادي المبروك الدالي : التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء ، المرج نفسه،ص 85.
[4].عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 59.
[5]. نفسه، ص 56.
[6]. أنظر الفصل الرابع (المناهج والمقررات).

كما حرَّم الإسلام الربا وفرض الزكاة التى كان الأغنياء يدفعونها للفقراء، وكان السلاطين يأخذونها ويوزعونها فى مصارفها الشرعية، مما جعل حياة الناس محاطة بسياج من العدالة والأمن والرخاء وإهتم الإسلام بالمبادلات التجارية والمالية ، وأحكام البيع والشراء ، وطرق استثمار الأموال والمضاربة وأحكام الأمانات ،وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالتجارة، وبيّن الحكمة من ذلك ، وعلاقته بالحياة ، ومطالب المجتمع [1].

وقد جلب الإسلام للأفارقة منافع مادية ضخمة؛ إذ ربط الساحل بالداخل من خلال قوافل التجارة التى توغلت حتى منطقة البحيرات، وحتى أعماق الغابة فى غرب القارة مما أدى إلى القضاء على عزلة المناطق الداخلية، بل وعلى عزلة الأفارقة عامة وربطهم بالعالم الإسلامى بعدما إكتشفوا القيم العربية المعروفة لدى التجار الذين وفدوا إلى حواضر غرب إفريقيا [2] ، وساد تنظيم محكم للمعاملات التجارية، وانتقلت التجارة من نظام المقايضة التقليدي الذي يعتمد على تبادل السلع، فكان التاجر يعرض بضاعته وينسحب ، ويقوم التاجر الثاني بنفس الطريقة ، وهو ما أطلق عليه بالتجارة الصامتة [3]..

وقد أتاح لهم إسلامهمأ ن يخرجوا من أوطانهم المحلية ويتعرفوا هذا العالم الواسع، سواء أكان من خلال رحلات الحج التى كانوا يقومون بها إلى بلاد الحجاز، أم من خلال قوافل التجارة التى كانوا يرحلون معها إلى شتى الأقطار فبلغت التجارة في عهد سنغاي، درجة عظيمة ، أكبر مما بلغته في أيام مالي ، إذ كانت سنغاي أكبر وأعظم [4].

كان للأسلام أثر على نظم التجارة في المعاملات ، والوسائل والطرق ، فأنتشر استعمال العملة كما هو السائد في بلاد المغرب وشاع استعمال المقاييس والمكاييل والموازين[5].

والموازين[5].

وفي أوائل عهد الأسقيا محمد الكبير أدخل نظام التفتيش على الأسواق لضمان سلامة المكاييل وعدالة البيع والشراء [6].

[1]. حسن جبر : المرجع السابق ،ص133.
[2]. محمد محمد أمين : المرجع السابق ، ص 82.
3. مطير سعد غيث أحمد : المرجع السابق ص 352، الهادي المبروك الدالي : مملكة مالي ،المرجع نفسه، ص 75 .
[4]. زينب أحمد هاشم : المرجع السابق ، ص 98.
[5]. نعيم قداح ، المرجع السابق ، ص 119.
[6]. زينب أحمد هاشم : المرجع السابق ، ص 99.

إن المعاملات التجارية كانت من أبرز تأثيرات الحياة العلمية وانتشار الثقافة الإسلامية ، فقد توافد التجار العرب المسلمون على المنطقة ، من مصر ، و غدامس ، وفاس ، والسويس ، وتوات ، وغيرها ، وأنتقل مركز التجارة من ولاتة إلى تنبكت ، قال السعدي " كانت عمارة تنبكت خراب بير " (ولاتة) [1].

وخلال القرن الثامن الهجري - الرابع عشر ميلادي في عهد دولة مالي ، قويت العلاقات التجارية ، وأزدهر الوضع الاقتصادي والاجتماعي ، وعمّ الرخاء الكثير من طبقات المجتمع سواء كانوا من الحكام أو من الرعية ، و جني أهل مالي الأموال الطائلة نتيجة الحركة التجارية الدءوبة [2].

فظهر نظام العملة ، وقد ذكرت كتب الرحلة أن العملة كانت متداولة ، فقد أشارالبكري في القرن الخامس الهجري -الحادي عشر ميلادي إلى استعمال الدينار في تادمكة إذ يقول :" ودنانيرهم تسمى الصلع لأنها ذهب محض غير مختومة " [3]، كما ذكر الحسن الوزان أنه أثناء مروره بمملكة سنغاي كان سكانها يتعاملون بالذهب [4].

وأوجدت الحضارة الإسلامية في السودان الغربي المقاييس والمكاييل والموازين وأشار إليها بعض المؤرخين منهم محمود كعت وعبد الرحمن السعدي ، وأحمد بابا التنبكتي[5]، ولكنهم لم يحددوا مقاديرها بدقة ، فقد ذكروا الشبر والذراع والالميل بالنسبة للمقاييس ، والحب والصاع ، والقنطار ، والمثقال والدرهم والأوقية بالنسبة للأوزان [6] .

ومن النظم التجارية التي أدخلها الإسلام ،وكانت من نتائج ازدهار الحياة العلمية، نظام الصكوك ، والمعاهدات، والمكاتبات التجارية، شهد بذلك الرحالة العرب والأوربيون، وقد أوجد الإسلام في الدول الإفريقية لأول مرة نظام الضرائب العينية على البضائع المستوردة والمصدرة ، وأقيمت في المدن الإفريقية الأسواق في أيام معلومة تقليدا لأسواق المغرب العربي [7].

[1]. السعدي : المصدر السابق ، ص 21.
[2]. الهادي المبروك الدالي : مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها مع المغرب وليبيا ، المرجع السابق ،ص 67.
[3].البكري : المصدر السابق، ص 181.
[4].حسن الوزان : المصدر السابق ، ج 2، ص 165.
[5]. مطير سعد غيث : المرجع السابق ، ص 356.
[6]. عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين،المرجع السابق، ص 198، 199، 200، الهادي المبروك الدالي : مملكة مالي،المرجع السابق، ص 76.
[7]. نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 140.

ومع ازدهار التجارة وتنظيمها انتشرت أخلاق لدى التاجر السوداني بفعل الأثر الطيب الذي تركه التاجر المسلم القادم من الشمال ، فقد كان التاجر أداة لنشر الإسلام [1]، وجاء العرب المسلمون تجارا وحاملين لمشعل الحضارة العربية الإسلامية [2]، وساهم التجار المغاربة في تغيير بعض العادات السيئة لأهل السودان ، منها الإغارة على القوافل التجارية ، وقطع الطريق ، والاستيلاء على ممتلكات التجار ، فأصبحوا يسعون إلى العمل والحصول على أرزاقهم بالحلال ، خاصة أن الدين الإسلامي يحدث على ذلك [3].

وكان التاجر المسلم معروفا بنظافة ثيابه ، ومواظبته على الصلاة ، والطهارة ، والمعاملة الحسنة ، والصدق والأمانة ، مما ساهم في انتقال هذه الأخلاق إلى التاجر السوداني بعد اعتناقه الإسلام .

فالتاجر السوداني كان كريما ، ولم يقتصر على العامة بل حتى على السلاطين ، فقد وزع منسى موسى ذهبه وثروته على القاهرة ،بل كان ينثر الذهب أينما حل ، وفي المدن المقدسة استفاضت هداياه التي دلت على الكرم فليس من الصعب أن تصدق أنه حين عاد إلى القاهرة خلال رجوعه إلى وطنه ، كانت ثروته قد أتت إلى نهايتها مما سبب له الحرج ، فاستدان ولما عاد إلى تنبكت دفع دينه كاملا لورثته [4]، وهذا خلق ثاني أشتهر به السلطان ومن وراءه تجار السودان الغربي ، بل حتى المرأة شاركت في خلق الكرم بتزويد الوافدين بما كانوا يحتاجون إليه من غذاء ، فكانت تأتي بالدجاج واللبن والأرز ودقيق النبق إلى المسافرين والتجار [5].

وكان التاجر السوداني أمينا ، فإذا أودع التاجر العربي تجارته الرحبة - مكان يودع به التاجر تجارته – تكفل به أهل السودان بحفظها [6].

ويؤكد كعت الدرجة التي وصلت إليها مملكة مالي من السمة وكثرة الخيرات ، ولأهمية بعض السلع مثل القرع ، كان الذي يسرقه يقطع رأسه ولا تقبل فيه شفاعة ، وهي عادة موروثة

[1]. رياض زاهر : المرجع السابق، ص 74.
[2].نعيم قداح : نفس المرجع ، ص 141.
[3]. حسن الوزان : نفس المصدر، ج 2 ، ص293.
[4]. زاهر رياض : المرجع السابق ، ص 78، 79.
[5].الهادي المبروك الدالي : مملكة مالي ،المرجع السابق، ص 75.
[6]. زينب أحمد هاشم: المرجع السابق ، ص 96.

لديهم منذ القدم [1]، وحد السارق في الإسلام هو قطع اليد طبعا لكن يبدوا أن عدم التساهل مع السارق هو الذي دفعهم إلى قتله ، أو ربما يبغض العادات التي بقيت موروثة من العهد الوثني ولم تتغير .

خاتمة الفصل :

مما تبين في هذا الفصل أن حواضر افريقيا جنوب الصحراء عرفت بروز جيل من العلماء السودانيين الذين نالوا شهرة ومقدرة أهلتهم لتأليف الكتب تعد اليوم مصادر البحث في فترة هامة من تاريخ افريقيا فقد شاركوا في حركة التأليف وفي مختلف العلوم الشرعية والعقلية [2] .

فالباحث في لغة الكتابة يجد أصحابها قد تمكنوا من اللغة العربية وقواعدها ، وبرعوا في استخدام الفاض تليق بمقام العلماء وصفاتهم

و المتفحص في الشروح التي كتبها الفقهاء والحواشي التي اتبعت بأمهات الفقه والاصول في المذهب المالكي يدرك ان هؤلاء مفكرون فعلا وعلماء وفقهاء اجادوا .

ولقد بينت الدراسة أن علماء حواضر مناطق إفريقيا جنوب الصحراء في حاضرة تنبكت لم يكونوا أقل قيمة في العلم على ماهو الحال في فاس او القيروان او القاهرة او تلمسان ، وخير دليل على ذلك علماء السودان الغربي الذين درسوا في فاس او في الازهر فكان مسجد سنكري بمثابة جامعة تضاهي مراكز العالم الاسلامي العلمية ، في الوقت الذي شهدت فيه تراجع بفعل الضعف الذي اصابها بسبب الصراع السياسي على السلطة .

ومما تبين في البحث أن الفقهاء والعلماء المغاربة طوروا في العملية التعليمية وألفوا الكتب وشيدوا المساجد وبنوا المدارس، فكان لهم الفضل في نشر العلم والثقافة العربية الإسلامية، وتقلدوا المناصب في الدولة أهمها منصب القضاء، وحولوا بعض المراكز الثقافية إلى منارات علمية في المنطقة تشع منها الثقافة العربية الإسلامية أشهرها جامعة سنكري في تنبكت تم

---

[1]. الهادي المبروك الدالي: نفس المرجع ، ص 286.

[2]. أنظر - ملحق رقم 01: مخطوط : تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء لأحمد بابا التنبكتي .

- ملحق رقم 03: تقرير عن مخطوط: مؤلف مجهول : ارجوزة توسلية لرفع وباء الطاعون.
- ملحق 09: مخطوط صفحة من كتاب : كتاب أصول الولاية – عثمان بن فودي-.

تأسيسها سنة 854هـ/1450م والتي أصبحت تضاهى في مستواها العلمي القيرويين بفاس والأزهر بمصر.

وكان للفقهاء نفوذا كبيرا فباستطاعتهم تلطيخ سمعة حاكم مثل ما حدث مع "سني علي" أو تحسين صورته كما فعلوا مع الإسقيا محمد الأول. فالفقيه كان له تأثير على نفوس العامة لسموه العلمي وتفقهه في الدين ولأخلاقه العالية ومنصبه في الدولة، ولهذا كان السلاطين يمنحون العلماء الامتيازات والهدايا ويزودهم حتى بالحراس لضمان سلامتهم، ووصل حد احترامهم من العامة أن ينسب لهم الكرامات وإقامة الأضرحة لمن مات منهم.

وأظهرت الدراسة أن العلماء في مناطق إفريقيا جنوب الصحراء ازداد عددهم وحظيوا بمكانة أحسن في عهد بعض الملوك المشهورين الذين حكموا الدول السودانية الإسلامية، فقد كان منسي موسى وهو من أعظم سلاطين مالي صديق للبيض قال عنه ابن بطوطة: "يحب البيضان ويحسن إليهم"، تعلم اللغة العربية ويحبها، كان رجلا عادلا وصالحا حسب العمري والقلقشندي والسعدي، تميز بسخائه مع الجالية العربية والبربرية، فأغدق بالأموال الطائلة على فقهائها وعلمائها، ومنح لأحد العلماء سبعين مثقالا وأعطى للعالم والمهندس المعماري والشاعر الأندلسي أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويحين أربعة آلاف مثقالا.

وفي مملكة سنغاي، عرف الإسقيا محمد الكبير للعلماء، فقد كانوا يتمتعون بجدية تامة داخل بلاده، ويستعين بآرائهم في مجال الحكم، واسترشد في حكمه بمجموعة من النصائح قدمها له الفقيه والعالم محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني بعد إجابته على مجموعة من الأسئلة وجهها له.

لقد تعلم أهل مناطق إفريقيا جنوب الصحراء عن طريق اتصالهم بتلك الحضارة الزاهرة أشياء كثيرة لم يعرفوها من قبل ، فاعتنق غالبيتهم الدين الإسلامي ، وأجاد علماؤهم اللغة العربية وأسهمت طائفة كبيرة منهم في الكتابة في شتى أنواع التأليف في الأدب والدين والعلم والتاريخ ، كما برزت منهم جماعة من المصلحين الدينيين الذين عرفوا كيف يقضون على التقاليد الوطنية والعادات والمعتقدات الشريرة التي كانت متفشية بين الشعوب السودانية.

فحل مجتمع حضاري جديد مكان المجتمع البدائي القديم ، ولم يقف في سبيل نشر ذلك النور الحضاري سوى الغابات الاستوائية [1].

لقد كان قيام هذه الدول في شكله العام قائما على " الحكمة والموعظة الحسنة " وعلى قدرة الإسلام على استيعاب الأنساب السوداني [2].

والإسلام بفكره وقوته المعنوية حوّل حياة الشعوب السودانية التي اعتنقته من مجرد نظام قبلي بأسراته ورؤساء العشائر والقرية الصغيرة المغلقة في وجوه ما وراءها إلى نظام سياسي يقوم على الدولة وحكمها ، وعلى أساس قيام إدارة وحكومة ، وبناء حضارة بمدنها وعمرانها ، وسياستها ، ونظمها الاجتماعية ونشر أحكام الكتاب الكريم [3].

وكان للوجود العربي عاملا مؤثرا في نقل الثقافة العربية إلى السودان الغربي ، بالإضافة إلى المؤثرات الاجتماعية [4] التي كان من نتيجتها انتهاء الحياة البدائية والوثنية في المجتمع الإفريقي على الأقل في الحواضر ، وفي بداية القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي محل الدراسة ، وانعكست الآثار الإيجابية للحياة العلمية على كل مناحي الحياة في مناطق إفريقيا جنوب الصحراء ، وروت لنا مصادر الرحلة والتاريخ هذه التطورات ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي أضيفت للمصادر العربية ما كتبه العلماء السودانيين[5] أمثال القاضي محمود كعت ، وعبد الرحمن السعدي [6]، الذين كانوا ثمرة النهضة العلمية والثقافية ، ثم جاءت بعدها وللأسف كتابات بعض الأوروبيين غير المنصفين لترسم صورة غير صادقة عن تلك الحقبة من تاريخ إفريقيا .

ولكن أؤكد في :

---

[1]. عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ، ص 232.

[2]. عبده بدوي : مع حركة الإسلام في إفريقية ، ط 1 ، الهيئة المصرية العامة للتأليف، 1970، ص187.

[3].أحمد سويلم العمري : المرجع السابق، ص 66.

[4].عبلة محمد سلطان : المرجع السابق ، ص 142.

[5].أنظر: ملحق 12:مخطوط صفحة من كتاب الأشارة في أدب الأمارة.

- ملحق 13:صفحة رقم 11 من كتاب : محمد بللو- كيفية أمور الرياسة.
- ملحق 15:مخطوط الصفحة الأولى من كتاب التنبيهات الواضحة في الباقيات الصالحات - عثمان بن فودي-.
- ملحق 17:مخطوط : صفحة من كتاب عمدة البيان في العلوم التي وجبت على الأعيان -عثمان بن فودي -.
- ملحق 22: مخطوط : صفحة من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر– عثمان بن فودي-.

[6] . الهادي المبروك الدالي: مملكة مالي ،المرجع السابق، ص 16.

1. أن الإسلام قانون وعادات وأخلاق وعقيدة ، ودين ودنيا، وحضارة هدف واحد ، مهما اختلفت العادات والتقاليد ، وهو الرقي بالإنسان .
2. ارتقى نظام الحكم في غرب السودان خلال فترة الدراسة إلى درجة عالية من التنظيم والإست قرار .
3. تطور العمران في الحواضر إلى درجة لم يشهد غرب إفريقيا قبل ذلك التاريخ ، وانتقال التأثير الإسلامي عن طريق المهندس أبو إسحاق الساحلي ، والعرب والبربر الذين استقروا هناك .
4. ازدهرت الحياة الاجتماعية ، وعمّ الرخاء وانحصرت العادات السيئة وتحول المجتمع إلى النظام الإسلامي بقيمه ومعاملاته ، وانعكس ذلك على الاستقرار والابتعاد عن الصراعات القبلية والعرفية ، وهي التي مازلت اليوم تعرقل إفريقيا نتيجة لما أحياه الاستعمار بعد احتلال المنطقة ، وما زرعه من تفرقة بين عناصر الشعب الواحد .
5. كان التجار رسلا للإسلام في غرب إفريقيا، وكان التاجر السوداني بعد اعتناقه الدين خير مثال للأثر الطيب الذي تركته الحياة العلمية.

الفصل السادس: الدراسة المقارنة في فضل الرحالة ونتائج كتاباتهم عن التراث الإسلامي الإفريقي .

-المبحث الأول: قراءة في منهجية الدراسة المقارنة وظاهرة نقل المشاهد للرحالة العرب المسلمين .

- **المطلب الأول: قراءة في منهجية الدراسة المقارنة.**
- **المطلب الثاني: قراءة في ظاهرة نقل المشاهد للرحالة العرب المسلمين.**

-المبحث الثاني: قراءة لجهود الرحالة و المستكشفين الأوربيين.

- **المطلب الأول : نشأة تدّوين الرحلة عند الأوربيين.**
- **المطلب الثاني : قراءة في ظاهرة نقل المشاهد للرحالة الأوروبيين .**

مقدمة الفصل:

سأحاول في هذا الفصل السعي إلى قراءة ظاهرة نقل المشاهد(الرحالة العرب والمسلمين) والاستكشاف- (الرحالة الأوروبيون)، بذكر الجهود التي بذلت من أجل التعريف بمناطق إفريقيا جنوب الصحراء تراثا ماديا ومعنويا، رغبة في الحصول على نظرة عادلة لظاهرة الرحالة، دون إغفال الدوافع والأهداف التي قادت الرحالة والمستكشفين إلى الاهتمام بالتراث الإسلامي ودفعتهم إلى مصادره.

سأتناول في هذا الفصل

1- قراءة منهجية الدراسة المقارنة

2- قراءة في ظاهرة نقل المشاهد للرحالة العرب والمسلمين

3- قراءة لجهود الرحالة المستكشفين الأوروبيين

وسأركز على نماذج من اهتمامات المستشرقين بالتراث تحقيقا ونشرا وترجمة، مما يمكن أن يعد نواة لدراسات معلوماتية تالية، تتوسع في هذه النماذج وتحلل مضمونها، وتسعى إلى الوصول إلى نتائج علمية تسهم في وضع الظاهرة الإستشراقية في موضعها المناسب.

كما عمدت الدراسة إلى التكشيف الذي يبين أسماء المؤلفين المسلمين، مع توسع في الاسم وذكر سنة الوفاة، ثم كشفت عناوين الكتب، وصححت العناوين بالرجوع إلى المراجع التي رصدتها كما هي ، وكذلك كشاف بأسماء المستشرقين بالحروف اللاتينية، والقصد منه بيان الاسم كما هو في لغته، إذا واجه الباحث مشكلة في رسم الاسم بالعربية من خلال مجموعة المصادر والمراجع التي استعان بها في هذه الدراسة.

المبحث الأول: قراءة في منهجية الدراسة المقارنة ظاهرة نقل المشاهد للرحالة العرب المسلمين .

المطلب الأول: قراءة في منهجية الدراسة المقارنة.

- **الدراسة المقارنة:**

ويقصد بها النصوص والوثائق لدى صنفين من الرحالة أو بين رحالتين أو أكثر، فبعد أن يقوم الباحث بجمع الإحداث التاريخية والوثائق عن إقليم معين، وكذلك محاولة تفسيرها في ضوء التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتاريخي لهذا الإقليم، يقوم بنفس الخطوة بالنسبة للبلد الثاني بالدراسة، وبهذا يتوفر شقي المقارنة، ومن ثم يقوم بعملية مقابلة بين ما تجمع لديه من معلومات تراثية مفسرة عن البلدين كخطوة تمهيدية، وذلك حسب خطوات سوف نتعرض لها فيما بعد[1] .

أ- ماذا نستفيد من الدراسة المقارنة؟

تساعد الدراسة المقارنة الباحث على فهم النظم التراثية وفروعها المتعددة وذلك في ضوء القوى الثقافية المؤثرة فيها، ولا شك أن دراسة التراث على هذا النحو والتعرف على كنوزه يؤدي إلى توسيع نظرة الدارس إلى المجال التاريخي بوجه عام، وزيادة مقدرته على فهم التطور التاريخي، ويربي فيه روح النقد البناء، مما قد يدفعه إلى تقديم المقترحات الصحيحة للدراسات التاريخية.

[1].محمود مفلح البكر: المرجع السابق ، ص24.

ماذا يستفيد الباحث من دراسة المقارنة؟

يستفيد الباحث من هذه الدراسة:

1. تعرفه على ذاته جيدا وأن يكون موضوعيا عند معالجة المشكلات التي قد تعترضه.
2. تعتبر دراسة التراث المقارن عاملا مهما في إعداد وتطوير نموذج المؤرخ المنشود والذي تعد درايته للتطور التاريخي أساسا مهما من أسس إعداده المهني.
3. يحتاج الباحث في الدراسة المقارنة إلى إعداد فني معين، فينبغي أن يكون ملما بالعلوم الاجتماعية وخاصة التاريخ والاقتصاد والسياسة والإحصاء... الخ.
4. يدرك البحث أهمية الدراسات المقارنة في أنها تساعد في فهم الصيرورة التاريخية
5. وتتضح أهمية الدراسة المقارنة بالنسبة الباحث في محاولة معرفة اتجاهات الرحالة كتاباتهم حول التراث.

هذا ولا تقتصر فائدة الدراسة المقارنة على الفهم المستنير لتراث الشعوب والتعرف على منجزات حضارتهم، بل إنها تنمي أيضا الاتجاه الموضوعي نحو نقد بعض الآراء والمواقف التي سجلها الرحالة.

ب- أدوات التربية المقارنة:

للدراسة المقارنة شأنها شأن بقية العلوم أدواتها التي تميزها عن سائر العلوم، ومن الضروري لدارس المقارنة أن يتعرف على هذه الأدوات لكي تعينه على إجراء دراساته وأبحاثه.

وكما أسلفنا في صفحات سابقة من كون الدراسة المقارنة يجب أن يبدأ أولا بالتعرف على تراث المجتمع في زمن معين، وما وراءه من مؤثرات وعوامل... وما هي الاختلافات التي عرضتها كتب الرحلة، لهذا فإن الدراسة المقارنة يجب أن يبدأ أولا بدراسة المنطقة، وهذه

الدراسة للمنطقة تستهدف الحصول على صورة دقيقة عن التراث الحضاري ، وظروف وأحوال الرحالة [1] عندما دونوه ، وتتطلب هذه الدراسة توافر عناصر ثلاثة:

1- تمكن الباحث من جمع المادة التاريخية الكافية عن المنطقة أو المجتمع الذي يحاول دراسة تراثه المادي واللامادي.

2- البحث العميق في أسباب ودوافع وظروف الرحلة بالنسبة لمن كتبوا عن التراث.

3- الحرص الدائم والإصرار على طرح كل اثر للتحيز الثقافي ، أو الشخصي الذي قد يظهر لدى الرحالة ، وما يقود الباحث في النهاية لمعرفة الصبغة الشخصية للتركيز على جانب معين كأن يركز ابن بطوطة على الغرائب، وليون الإفريقي على العادات السيئة للمجتمع الأسود - مثلا- .

أولا: المادة التاريخية الكافية:

يجب أن يكون لدى الباحث في الدراسة المقارنة معرفة وافية بتراث المنطقة -محل الدراسة-، ولا ترجع أهمية المادة التاريخية في أنها تمكن الدارس من المصادر الأولية للمعرفة التي كتبها أو سجلها أهل البلد الأصليين أو الرحالة فحسب، بل لأنه على طريق تملك المادة التاريخية يستطيع الدارس أن يحكم بسهولة ويسر على التراث العام للمجتمع، وتفهم عاداتهم وتقاليدهم وتتبع كل الشواهد الدالة على ذلك [2].

ومن الواضح أن دارس المقارنة لا يمكنه أن يلم بجميع ما كتب عن التراث، وهو بذلك يحتاج إلى أن يتعرف على أكبر قدر ممكن ما يمكن الحصول عليه من المصادر والمراجع [3] .

ثانيا: البعد عن التحيز:

الحصول على المادة التاريخية، يضاف إليها عنصر ثاني هو أن يكون الدارس غير متحيز للتراث الذي يدرسه بسبب عقائده أو مفاهيمه الشخصية، فيجب أن لا يتأثر بأفكاره الخاصة عن

[1]. زكي النقاش: المرجع السابق ،ص 77 .

[2] . Paolo Fermando de Morès frais : Histoire conter Mèmoire epigraphe ,chromiques , tradition orale et Lieu D'oubli dons le sehel Malien,imprimerie Nejah, casablanca ,Maroc,1994,pp22,23.

[3]. السعيد الورقي:المرجع السابق، ص131.

التراث، وإنما لا بد أن يحكم عقله قبل الحكم على التاريخ أما معينة سواء، وأن ألد أعداء الدراسة المقارنة في الدراسات التاريخية هو هذه النظرة الشخصية.

فيجب أن نتخلص من الحكم الشخصي أو النظرة اللاموضوعية إلى القضايا التي تطرقت لها كتب الرحلة، على أننا يجب أن نتوقع أن عمليات التقييم التي تتطلبها دراسة المقارنة تحتاج - سواء رضينا أو أبينا- إلى درجة كبيرة من الحكم الشخصي، لذلك فقد يبدوا من الضروري أن يكون الدارس محايدا عند النظر إلى سدر روايات الرحالة.

ولكن حيث لا يتيسر ذلك - غالبا ما لا يتيسر - نتيجة للخلفية الفكرية للباحث المؤرخ في مجال التراث التي تجعله لا يتخلص من الخلفية [1] الثقافية ، فيمكن أن يوضح الدارس عند تقييمه للتراث نوع التزامه والأيديولوجية أو وجهة النظر التي يدين بها والتي ضوئها يقيم حضارة المجال الجغرافي والتاريخي محل الدراسة.

وقد تكون النتائج التي يصل إليها غير مرضية أو أنها تقابل بقليل من الاعتراض، إلا أن هذا يشكل في حد ذاته مساهمة مهمة في الدراسات التاريخية المقارنة، بل هو عمل لا يتنافى مع المبادئ العلمية نظرا لأن التقييم قد تم في ضوء قيم ومبادئ وضعت أساسا لعملية التقييم ، إلا أن الذي يجب أن لا يتساهل فيه هو أن يتحيز في دراسته لبعض الآراء ويغفل عن قصد جوانب أخرى بما يجعل الدراسة التي يقدمها غير متكاملة، والنتائج التي يصل إليها غير صادقة [2].

ج- خطوات إجراء البحث المقارن:-

يحدد بيرادي أربع خطوات لإجراء البحث المقارن وهي على النحو التالي:

أ) الوصف:

يعتبر الوصف الخطوة الأولى في أي بحث مقارن وينصب اهتمام الباحث في هذه الخطوة على جمع المادة التاريخية.

ب) التفسير:

---

[1] . حيدر جاسم الرويعي:المرجع السابق ،ص 17.

[2] . أحمد علي إسماعيل : المرجع السابق،ص 09 .

يمثل الخطوة الثانية من خطوات إجراء البحث المقارن، ويقصد بالتفسير تقييم المادة التاريخية للتراث المادي واللامادي في ضوء الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية لهذه المنطقة ، وأهمية هذه الخطوة تنبع من أن مجرد وصف التراث لا يعتبر دراسة مقارنة[1] .

ومن أن المجال التراثي لا يمكن أن يعين بمعزل عن المجتمعات التي نشا فيها لذا يجب الاستعانة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية وثيقة الصلة بالدراسات التاريخية لتفسير الظواهر التربوية ولشرح الأسباب التي تجعل المؤرخين يختلفون في قراءة التراث وحتى الأحداث نفسها، وهذا يجعلنا نصف الدراسة المقارنة على أنها فرع من فروع التاريخ تتداخل فيه العلوم الأخرى، ويتضح من ذلك أهمية إلمام الباحث بمجالات العلوم الاجتماعية والإنسانية.

ت)المقابلة:

تمثل الخطوة الثالثة، وتهدف إلى مقابلة مادة تاريخية بمادة أخرى لتحديد أوجه التشابه والاختلاف من أجل الوصول إلى فرض يساعد على التحليل المقارن، فالمقارنة لا تتيسر دون الوصول أولا إلى إطار مشترك أو أرضية مشتركة يمكن أن تقوم عليها المقارنة أو ما يسميه "معيار المقارنة" .

ث)المقارنة:

تعتبر الخطوة الرابعة للنموذج الذي يحدده التحليل المقارن وهو القيام بالمقارنة نفسها، وتعني عملية معالجة المادة التي تجمعت عند باحثين أو أكثر في ضوء سرد الإحداث والوصف أو المعيار المشترك الذي تم التوصل إليه في الخطوة الثالثة، وذلك بهدف التوصل إلى نتائج موضوعية تثبت صحة المعطيات التاريخية، ويجد الباحث نفسه وقع في صعوبة تطبيق هذا النموذج في القيام بتحليل شامل بالنسبة لمؤرخين أم أكثر[2] .

ج) المجال الجغرافي:

[1]. الحسيني الحسيني معدّي : المرجع السابق ، ص07.

[2]. صبري الهيتي وأخرون،المرجع السابق، ص 22.

شهد المجال الجغرافي لإفريقيا -مع بدايات النهضة الأوروبية- توافد أعداد من الرحالة الأوروبيين، حاولوا فك طلاسمه وكشف أسراره، لما شكله من غموض وسحر، ومع تعدد الدراسات التي تناولت رحالة العرب والغرب، إلا أنها أهملت جوانب مهمة وأساسية لتلك الرحلات، يأتي في مقدمتها تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوروبي من خلالها[1].

ومن جانب أخر، افتقارها للرؤية الشاملة، بسبب صعوبة الإحاطة والإطلاع على تلك الرحلات كافة، وتداخلها خلال المراحل التاريخية المتعددة، وهو ما جعل الحقائق التاريخية التي كتب عنها الرحالة محل نقد دائم لدى الباحثين من منطلق أسباب الرحلة وظروفها وأهدافها والقناعات الفكرية لأصحابها [2] .

تعتبر الرحلات وكتابات الرحالة مصدر مهم من مصادر دراسة التاريخ ، وهو جزء لا يتجزأ من علم الجغرافيا [3] .

[1]. أسعد الفارس :المرجع السابق ، ص 26.
[2]. حيدر جاسم الرويعي:المرجع السابق ،ص35.
[3]. أحمد على إسماعيل، المرجع السابق ، ص 5 -7.

المطلب الثاني: قراءة في ظاهرة نقل المشاهد للرحالة العرب المسلمين.

تتعدّد مصادر المعلومات عن الإسلام و المسلمين[1] من حيث المكان و الزمان و أشغال الأوعية، و نوعية الاهتمام، و مميزات التراث الإسلامي كثرة المخطوطات التي خلّفها المسلمون وراءهم و إحتاج هذا الوعاء التقليدي من أوعية المعلومات إلى عناية خاصة من حيث مادته الورقية و محتواها و كانت عناية المسلمين بهذا الوعاء المهم عناية فائقة في الوقت الذي كان فيه الوعاء الأوحد لنقل المعلومات.

و مع الإنفتاح على العالم و هوان المسلمين في فترة من الفترات حياتهم تعرضوا فيها للحروب و ألاحتلال هاجرت المخطوطات قسرا إلى غير مواطنها الأصلية، ومع هذا استمرت العناية بها لما تحويه من تراث أمة يمكن للأمم الأخرى أن تفيد منه.

و لعل من أبرز المسهمين في خدمة مصادر المعلومات التقليدية(المخطوطات) المستشرقين الذين كان لهم أثر بارز في المحافظة على هذه النوعية من مصادر المعلومات الإسلامية بعد نقل كثير من هذه المصادر إلى المكتبات و المتاحف الغربية التي لا تزال تكتنفها [2].

و قد تعدّدت اهتمامات الرّحالة الأوربيون بالتراث العربي الإسلامي من حيث الحفظ و الدراسة و التحقيق و النشر و الترجمة و الفهرسة و التكشيف ممّا كان له أثر واضح أدى إلى أن تعدّ الرحلة الأوربية مصدرا من مصادر المعلومات عن الإسلام والمسلمين.

و لم تخل هذه الجهود من المآخذ التي تعرّض لها الدّارسون العرب والمسلمون عند نقاشهم لاسهمات المستشرقين في خدمة التراث [3]، مما تولّد عنه مدارس في مدى قبول هذه الاسهمات و رفضها.

1- نشأة تدوين الرحلة عند العرب و المسلمين:

لقد شهد القرن العشرين اهتماما كبيرا بالرّحلة و الرّحالة و تدوين التّرحال كفرع من

[1]. انظر حسين محمد فهيم:المرجع السابق، ص 90 -91.
[2].شارنو كاه الحبيب: المرجع السابق ،ص67.
[3]. ماجدة كريمي :المرجع السابق ،ص 189.

الفروع التاريخ لما له من اهتمام متميّز، برز ذلك من الكتابات المتعدّدة لمؤرخين والرحالة لإظهار مدى أهمية هذا الفن في تدوين التاريخ - وخاصة إذا تعلق الأمر بمناطق داخلية تكون مجهولة - [1]بصورة عامة من ناحية ولأهمية الدور الذي تلعبه في مساعدة الباحثين في المقارنة بين الرواية و الأحداث من ناحية ثانية.

وكان من أبرز التطوّرات الحديثة في ميدان الرحلة زيادة الاهتمام بالإطار النظري للدراسات التاريخية ، و تقوم أهمية هذا الإطار على منهج المقارنة و منهج التحليل.

وتساعد دارسي للرحلة على تحليل الجوانب المختلفة للتاريخ المادي الذي تركته الرّحلة حيث يعتبر أدب الرحلة فرع من فروع التاريخ إذا ما قارنوه بالمصادر الأصلية للتاريخ.

إن ظروف نشأة الرحلة في العالم العربي و الإسلامي كانت مختلفة عنها في الغرب، فقد مرت في العالم الإسلامي مرحلتين هما:-

* - مرحلة وصف نظم الحياة في البلدان نتيجة ماورثه العرب من معارف قديمة غربية و شرقية التي استخدموها في استحداث خطوات التقدم العلمي لديهم، فما كانوا مجرد مقلدين و منقادين تستعبدهم النماذج الأجنبية، بل كانت لديهم خصائصهم من العزم و العقل و الكفاية مما أبرز الطابع الفريد لتلك الخصائص[2].

* - مرحلة الربط بين نظم التعليم في بلدان مختلفة وهي المرحلة التي تزامن مع إنتشار الأسلام ما جعل الأوربيين يطلقون عليها مرحلة أسّلمة إفريقيا [3].

---

[1]. سافيدج، كاترين :المرجع السابق ،ص63 .

[2]. صبري الهيتي وأخرون،المرجع السابق،ص1-47.

[3] . Constant Hamès: « Les manuscrits arabo-africains : des particularités ? », *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, p99-100 | novembre 2002, URL : http://remmm.revues.org/index1182.html .31 mai 2010.

المرحلة الأولى: مرحلة وصف نظم الحياة في البلدان:

تتميّز هذه المرحلة بكثرة الرّحلات و الزيارات، و وصف الأماكن التي زارها الرحالة والباحثون ، ويرجع ازدهار هذه المرحلة إلى العصر العباسي، حيث الاستقرار السياسي و الاجتماعي والاقتصادي الذي أتاح –بدوره- للمسلمين المضي قدما في طريق العلم والحضارة حتى أضحت ألقاب العلم تسند للعائلات[1].

فأخذوا يتنقلون بين البلدان و يسجّلون انطباعاتهم عن تلك البلدان التي زاروها، و كان لفريضة الحج دور فاعل غي التحفيز على التنقل والاختلاط بين الأجناس بعضها ببعض، فقد كان كل حاج سواء من المشرق الإسلامي أو المغرب الإسلامي يمر بكثير من البلدان في سيره لبلاد الحجاز، و قد كانت هذه البلاد تترك الانطباعات في نفسه.

ألّف علماء المسلمين ورحلاتهم اكثير من المؤلفات عن البلدان التي مرّوا بها أنظمتها و طرائقها الحياتية، و من هذه المؤلفات:

- وفيات الأعيان لابن خلكان.
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي.
- الرحلة المغربية للعبدلي.
- المسالك و الممالك لابن حوقل.
- مسالك الممالك للإصطخري.
- رحلة ابن جبير لابن جبير.
- معجم البلدان لياقوت الحموي.
- تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار لابن بطوطة [2].
- الإفادة و الاعتبار في الأمور المشاهدة و الحوادث المعاينة في أرض مصر للبغدادي.

---

[1]. احمد طاهر:المرجع السابق ،ص74.

[2]. كل هذه المصادر أشرت إليها في الفصل الثاني بالتفصيل ،حيث تعتبر مصادر أساسية لتاريخ التراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء.

كان عرض أولئك العلماء و الرّحالة لما رواه في تلك البلدان ليس عرضا سطحيا أو وصفا عابرا، و إنما كان وصفا دقيقا لكل مناحي الحياة، و قد ركز هؤلاء على أمرين مهمّين هما:

المساجد و المدارس، و هما يعتبران من المؤسسات التربوية في تلك البلاد، فقد كانت المساجد في صدر الإسلام تعتبر جامعة تدرس فيها جميع العلوم ويحضر إليها الطلبة ليتعلموا على أيدي علماء أجلاء في حلقات للمناقشة، ومع اتساع رقعة العلم كان لابد من تخصيص أمكنة ملائمة يجد فيها المعلمون مجالات أوسع للنقاش و البحث فكانت المدارس.

و إذا كانت هذه المرحلة تتميز بالوصف فقط، دون المقارنة إلا أنها تعتبر أساسا للمقارنة، إذ لا يمكن قيام مقارنة إلا بالوصف أولا ، لإزالة أي غموض [1].

المرحلة الثانية: مرحلة الربط بين نظم التعليم و مجتمعاته:

يعتبر العلامة عبد الرحمان بن خلدون (732 -808 ه) (1331 -1405 م) إضافة إلى كونه مؤسس علم الاجتماع و عالم معدود من علماء التاريخ سابق لجميع العلماء الغربيين بأكثر من خمسة قرون في مجال التربية المقارنة حيث إنه كان أول من ربط بين نظم التعليم والمجتمعات التي توجد فيها تلك النظم و قد ذكر ذلك في مقدمته [2].

في الكتاب الأول من كتابه المشهور (كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) اتبع المنهج المقارن في حديثه عن بلاد العالم المختلفة و نظم التعليم فيها بشكل خاص، و كان منهج ابن خلدون تطويرا لمنهج من سبقه مثل ابن بطوطة وابن جبير حيث إنه امتاز عنهم بسعة أفقه و شمولية منهجه ، و موسوعيته [3].

و قد إشتملت مقدمته على ستة أبواب، تحدث في الباب السادس في نحو خمسين فصلا عن العلوم ، و أفرد فصلا خاصا عن تعليم الولدان و اختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه، و تحدّث عن مواضيع كثيرة كلها تختص بطرق التعليم و التربية في شتى البلدان.

[1]. محمد حسن: المرجع السابق ، ص 50.
[2]. ابن خلدون: المرجع السابق ،ص 462.
[3]. أسعد الفارس :المرجع السابق ، ص23،24.

ويقول ابن خلدون عن الاختلافات بين البلدان الإسلامية –في المشرق و المغرب- في أمور التعليم اختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم ، باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات فمذهب أهل المغرب في الأولاد الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم في أثناء الدراسة بالرسم و مسائله واختلاف جملة القرآن فيه ، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعاليمهم لا من حديث و لا مكن فقه و لا من شعر و لا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة [1].

و هذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب و من تبعهم من قرى في تعليم ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة.

و أما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن و الكتاب من حيث هو، و هذا ما يراعونه في التعليم. إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك، و يتبعه العلوم جعلوه أصلا في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب و الترسّل، و أخذهم بقوانين العربية و حفظها وتجويد الخط و الكتاب.

و أما أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ودراسة قوانين العلوم و تلقين بعض مسائلها إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه، و أطلعوهم على اختلاف رواياته و قراءاته أكثر مما سواه.

و أما أهل الشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا و لا أدرى بأيهم اعتنوا و الذي ينقل أن عنايتهم بدراسة القرآن و وصف العلم و قوانينه من زمن الشبيبة و لا يخلطون بتعليم الخط، بل إن لتعليمه عندهم قانون و له معلمون يعلّمونه على انفراد كما تتعلّم سائر الصّنائع وقدموا حضارة في عملهم وخدماتهم[2].

أما الآثار التربوية النّاجمة عن هذا الاختلاف في طرق تعليم القرآن الكريم فيوضحها ابن خلدون على النحو التّالي: بالنسبة لطريقة أهل المغرب أدّت إلى قصور ملكة اللّسان العربي لديهم، لأنهم لم يدرسوا شيئا من كلام العرب في حياتهم، أما أهل الأندلس فأفادتهم طريقتهم من

[1]. الخطيب البغدادي: المرجع السابق ، ص 65 .

[2] . B. Lewis, 'The African Diaspora and the Civilization of Islam', in M.I. Kilson & R.I.Rotberg, The African Diaspora (Harvard University Press, 1976), 48-9.

التّمكن من اللغة العربية و حصول ملكتها و البراعة في الخط و و الأدب، إذا ما حصلت لهم فرص تعزيزها و تثبيتها بعد تعليم الصّبا، أما أهل أفريقية فهم أحسن حالا من أهل المغرب في إجادة ملكة اللّسان العربي إلا أن ملكتهم قاصرة عن البلاغة [1].

و لم يقتصر ابن خلدون على وصف الحالة التعليمية في مختلف الحواضر والأمصار الإسلامية بل تحدث عن أمصار غير إسلامية فيقول "بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الفرنجة من أرض رومه و ما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق، و أن رسومها هناك متجدّدة، و مجالس تعليمها متعدّدة، و دواوينها جامعة متوفّرة، و طلبتها متكثرة.

و في موضع آخر يصف مقدار تقدّم العلوم العقلية أو علوم الفلسفة والحكمة عند الفرس و الروم فيقول: "و أما الفرس، فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيما و نطاقها متسعا، لما كانت عليه دولهم من الضخامة واتصال الملك....و أما الروم فكانت تهتم بالعلوم العقلية أيضا، و كان لهذه العلوم بينهم مجال رحب، و حملها مشاهير من رجالهم مثل أساطير الحكمة و غيرهم.

و قد فسّر ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي قضية مهمة شغلت مفكري التربية في عصر النهضة و الاصلاح الديني في أوربا بعد ذلك ، و هي مكان التّعليم الدّيني بالنسبة للتعليم بصفة عامة، و بالرغم من أن ابن خلدون معروف بين المؤرخين الغربيين غير المتحيزين على أنه مؤسس علم الاجتماع إلا أن إشارته لنظم التعلّم في البلدان الإسلامية في عصره جعلت اسمه يرد ضمن رواد التربية المقارنة في الفترة السّابقة للقرن التاسع عشر في أوربا حين كانت المشاركة الفكرية للعرب في شتى أنواع العلوم والمعارف التي يزخر بها التراث الأسلامي[2].

من خلال ذلك العرض نخلص إلى أن ابن خلدون استطاع أن يجري مقارنات حيّة عن تعليم الولدان في كثير من البلدان التي زارها، و يمكن القول أيضا أن المنهج الذي اتبعه ابن خلدون في مقدمته كلّها كان المنهج المقارن [3] حيث نراه يعرض القوى الثقافية في خمسة أبواب.

ثم يأتي بعد الحديث عن هذه القوى الثقافية بأثرها على التعليم و هو في حديثه عن القوى

[1]. . يوسف الخليفة أبو بكر: المرجع السابق ،ص 171.
[2]. حسن الناطق تاج السر بشير : التنصير والتغلغل الأستعماري في إفريقيا ،ط1، مطبعة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان ، 1998،ص 243 .
[3]. محمد حسين فهيم :المرجع السابق ، ص 43.

الثقافية و حديثه عن التعليم يستشهد بالأمثلة الحية من التاريخ القديم و الحديث و من بلاد العالم المختلفة ، التي تتفاوت ظروفها الجغرافيّة و السيّاسية و الاقتصاديّة و الحضاريّة، مستخدما منهج البحث العلمي الحديث كلها فيما عدا المنهج التّجريبي دون تجاوز ما يمكن وصفه[1].

و كان المنهج الذي اتبعه ابن خلدون تطويرا لمناهج السّابقين من أمثال "ابن جبير و ابن بطوطة "الذين اتبعوا المنهج الوصفي والمنهج ألاستردادي غالبا، دون غيرهما من المناهج و هو يمتاز عنهما بسعة أفقه و شمول منهجه، وهو ما قدم الأضافة في موضوع الرحلة و إمكانيات تصنيفها [2] .

و تأسيسا على ما سبق يمكن القول إن ابن خلدون في منهجه المتمثل في دراسة الظواهر الاجتماعية من منطلق أنها محكومة في سيرها بقوانين تشبه ما عداها من الظواهر الطبيعية، كان غير مسبوق من كوكبة علماء التربية المقارنة، و الذين يرون خضوع الظواهر الاجتماعية بما فيها الظواهر التربوية إلى قوانين موضوعية، و بالتالي يجب أن ينصب العمل النهائي للتربية المقارنة على الكشف عن هذه القوانين وتوظيفها بما يفيد اصلاح نظم التعليم في البلاد المختلفة.

---

[1].أسعد الفارس : المرجع السابق ، ص19.

[2]. عمر بن حمادي،المرجع السابق،ص76.

المبحث الثاني: قراءة في ظاهرة نقل المشاهد للرحالة الأوروبيين الأوربيين:

المطلب الأول : نشأة تدّوين الرحلة عند الأوربيين:

شهد الشرق على مر العصور التاريخية توافد أعداد كبيرة من الرحالة الأوربيين حاولوا فك طلاسمه و كشف أسراره، لما شكله من غموض و سحر، و مع تعدّد الدراسات التي تناولت الرحالة الأوربيين، إلا أنها أهملت جوانب مهمة و أساسية لتلك الرحلات، يأتي في مقدمتها تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوربي من خلالها و من جانب آخر، افتقارها للرؤية الشاملة، بسبب صعوبة الإحاطة و الاطلاع على تلك الرحلات كافة و تداخلها خلال المراحل التاريخية المتعدّدة[(1)]، و من هنا اكتسبت القارة الأفريقية الأهمية في الكشف الجغرافي.

لقد مرّ تدوين الرّحلة عند المؤرخين الأوروبيين بمراحل و من أهم هذه المراحل:

1. مرحلة وصف الحياة في البلاد الأجنبية.
2. مرحلة وصف نظم الحياة في البلاد الأجنبية.
3. مرحلة التعرف على نظم الحياة في إطار العوامل الثقافية للمجتمع.
4. مرحلة استغلال مقدرات البلاد لصالح القوة الأوروبية.

المرحلة الأولى: مرحلة وصف الحياة في البلاد الأجنبية:

تتمثّل هذه المرحلة بالرحلات و الزيارات التي كان يقوم بها الرحالة والمستكشفون للبلاد المختلفة و ذلك بقصد وصف نظام الحياة و الكيفية التي تسير فيها أمور الحياة. و غير ذلك من الأمور التي لها ارتباط بنظام المعيشة، و هذا الوصف يمكن أن ينقل إلى مجتمع آخر بالمشافهة أو عن طريق كتابتها و تسجيلها فيما يعرف بالتراث المادي و اللامادي [2].

[1]. حيدر جاسم الرويعي :المرجع السابق، ص74.
[2].أسعد الفارس : المرجع السابق ، ص 29،30.

ولعل من أقدم أنواع هذه الكتابات ما كتبه : الرحالة الأغريقي بيثياس الذي كان يستوطن مرسيليا في فرنسا ، والذي كان أول من إكتشف الجزر البريطانية، وقد سجل رحلته وإكتشافه في كتابه ((في المحيط)) [1].

و لعلّ من أقدم أنواع هذه الكتابات القديمة أيضا "رحلة ماركو بولو" و التي سجّل فيها ماركو بولو رحلته التي قام بها في فينيسيا بإيطاليا، و زار فيها الشرق الأقصى، ثم سجل رحلته هذه في كتاب يحمل اسمها.

في العصور الوسطى كان للمسلمين السبق في وصف الحياة في البلاد، أما في دور الغرب في هذه الفترة منذ كان محدودا، نظرا لإنعدام الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي عانت منه أوربا حوالي قرنين من الزمان [2].

المرحلة الثانية: مرحلة وصف نظم الحياة في البلاد الأجنبية:

و قد تضمنت الفترة مابين نهايات القرن الثامن عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر و كان هدف الباحثين فيها جمع البيانات الوصفية عن النظم الأجنبية، و دراستها بغرض استعارة أفضل ما يمكن استعارته منها كلما أمكن ذلك لاصلاح الأوضاع المحلية و تطويرها.

المرحلة الثالثة: مرحلة التعرف على نظم الحياة في إطار العوامل الثقافية للمجتمع:

و في هذه المرحلة تحول الاهتمام من مجرد وصف نظم الحياة و جمع الحقائق والملاحظات عن المناطق التي زارها الرحالة إلى الاهتمام بالإمكانيات الاجتماعية والاقتصادية و الظروف السياسية للبلدان التي زاروها، و قد كان من نتائج هذه المرحلة تطور فكرة

[1]. أسعد الفارس : المرجع السابق ، ص 21،22.
[2]. حيدر جاسم الرويعي : المرجع السابق ، ص75.

الاستعمار فأضحى الرحّالة الغربيون عيون المستعمر بل هم الجواسيس على إعتبار أن الرحلات ليست للتأريخ بل للجغرافيا التي سيستفيد منها الأستعمار [1] .

المرحلة الرابعة: مرحلة استغلال مقدرات البلاد لصالح القوة الأوروبية:

لقد رأينا في السابق(2) أن الكثير من الرحلات كان هدفها نفعيا، فبعض الرحالة كانوا مدفوعين بالتمويل رسمي و غير رسمي من الجمعيات الحكومية[3] أو الجمعيات الخيرية و المتتبع لهذه الرحلات يجد أن بداياتها في القرن السادس عشر من طرف البرتغاليين و الإسبان أن هدفها كان البحث عن الثروة و الموانئ الجديدة و لذلك لم يكن الأوربيون يرغبون في التوغّل ادراكا منهم للمصاعب التي ستواجههم.

و أما الذين بادروا بالتوغل في أفريقيا جنوب الصحراء فلم يكن دافعهم الأول الطمع و الاستغلال – و إن كان هذا جزء من اهتماماتهم-.

و في المرحلة الموالية نتيجة التقارير التي أرسلها هؤلاء بدأت أطماع الحركة الاستعمارية تتجسد و تحولت الرحلة و الاستكشاف من المضمون العلمي الجغرافي إلى الهدف الاستعماري الذي يطلب من الرحالة أو المستكشف تقديم معلومات دقيقة عن طريق المواصلات، و عن الزعامات القبلية، و عن الموارد الاقتصادية التي كانت تتميز بها أفريقيا جنوب الصحراء.

و كان من نتيجة نشاط الرّحالة و المستكشفون الأوربيون أنه من خلال عشرون سنة فقط صارت القارة الأفريقية باستثناء أثيوبيا و ليبريا خاصة للاستعمار الأوربي[4].

لا أحد يجادل في أن الرحالة و المستكشفين الأوربيين كانوا سباقين إلى الحفر في التراث الإسلامي الإفريقي و إماطة اللثام عن بعض معالمه، و بالتالي لا سبيل لإنكار ما قامت به من دور ريادي في هذا المجال و ما أسدته من خدمة طيبة لنفض الغبار عن هذا التراث و نشره.

غير أنه لا يمكن – من ناحية أخرى- اغفال الخلفيات التحليلية التي شابت بعض الدراسات

---

1. عبدالله عبدالرزاق غبرايم: المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا ، عالم المعرفة ، العدد139، سلسلة كتب ثقافية، المجلس الوطني للفنون والأداب ، الكويت ،ذوالقعدة1409/جوان 1989، ص 24. ، رزق مرقص رزق: المرجع السابق ،ص 88.

2. انظر الفصل الأول، المبحث الأول.

3. Dominique L’egeune. Les sociétés de géographie en France et l’ex pansions colonial au XIX Ené Siècle. Paris : Alabin Michel .1993,p153.

4. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، شوقي الجمل: المرجع السابق، ص 49.

الغربية [1] و موقفها من التراث الحضاري، ومن يتتبع بعض الأسماء وغيرهم يقف على تخريجاتهم الغامزة و أحكامهم الملغمة و يدرك كمائن الخطاب الإستشراقي [2].

بل يجد نفسه غارقا في طوفان من المغالطات، وسيل من الأخطاء التي اقترفت عن عمد و سبق اصرار و هو موقف لا يمكن فصله عن خلفيته الاستعمارية[3].

و من الملاحظ أن معظم هؤلاء الرحالة و المغامرين كانوا من بريطانيا والسبب في ذلك يرجع إلى أنها كانت أسبق الدول الأوربية في مجال التصنيع بل وفي مجال التقدم العلمي، الذي تمثل في كثرة الجامعات الإنجليزية و أدى ذلك بالتالي إلى أن أصبح معظم هؤلاء الرحالة على قدر كبير من العلم و المعرفة والثقافة من أشهر وكان هؤلاء الرحالة البريطانيين بيرتون و سبيك و جوانت ومنجوبارك و كلابيرتون و لينج وريتشاردسون و لاندر، و دافيد لفنجستون وصمويل بيكر، و جونستون و كاميرون[4].

ناهيك عن شحنة الكراهية التي يحملها ضد العروبة و الإسلام، و العنصرية التي تنم عن التعصب و المقت الشيء الذي يتمخض عنه أحيانا مسخ و تشويه معالم التراث الإفريقي أو طمس بعض الحقائق و نشرها دون روية و لا تمحيص[(5)] لذلك يجد الباحث نفسه و هو يتفحّص العديد من الدراسات الأوربية التي تعاملت مع التراث الأفريقي و تأليفا أو تحقيقا أمام إشكاليتين:

أولاهما: إشكالية انعدام التحقيق العلمي الرصين [6].

و ثانتيهما: إشكالية التزوير و التحريف عن طريق السكوت و ترك بعض القضايا كما وردت في المخطوطات دون مناقشة علمية أو تفحص للواقع الذي يناقض النص المكتوب جملة و تفصيلا[7].

فلقد بدت الرحلات الأولى و كأنها تخدم التراث الإنساني و ترشد إلى توسيع دائرة المعرفة

---

[1] J ,E,hearris,africanes and thier history ,New Yourk ,1972,pp16,17
قديما قال الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو " أنه من الصعب علينا أن نعد هؤلاء المخلوقا(السود) بشرا"
[2]. عمر بن حمادي: المرجع السابق ،ص 51، 52.
[3]. إبراهيم القادري :المرجع السابق ،ص 1.
[4]. جوزفين كام: المستكشفون في أفريقيا، ص 10.
[5]. عبد الرحيم مودن: مستويات السرد في الرحلة المغربية، في القرن19م، أطروحة دكتوراه الدولة ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس،1994 -1995،ص 165 .
[6]. بوشعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، أطروحة دكتوراه الدولة ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية بنمسيك، جامعة الحسن الثاني، المغرب،1998-1999، ص26-27.
[7]. إبراهيم القادري بوتشيش:المرجع السابق ، ص 9.

الجغرافية على الأرض في كل مكان[1].

و كنموذج لهاتين الإشكاليتين، يسعى هذا البحث إلى تبني نموذج تحقيق الأستاذ ليفي بروفنصال لرسالة الحسبة التي ألفها ابن عبدون، و من خلال هذا النموذج، سنحاول الوقوف على المنهجية الأستاذ المنوه به في التحقيق، فضلا عن مناقشة بعض القضايا الواردة في الرسالة و هي القضايا التي نشرها حرفيا كما وردت في النص الأصلي، دون أن يصل إلى مستوى الكشف عن زيف حقيقتها وعدم تطابقها مع الواقع التاريخي من خلال التعليقات التي لا غنى عنها في أي تحقيق علمي لمخطوطة تراثية[2].

كانت الرحلات الأوربية في غرب أفريقيا تهدف إلى:

1. الكشف عن امكانية تنشيط التجارة عبر الصحراء.
2. القضاء على تجارة الرقيق.
3. إثارة حماس الأوربيين للوصول إلى القارة الأفريقية[3].

و كانت هذه الرحلات و رواياتها و المذكرات و الكتب التي تنشر، عنها تدرس واقع الأقاليم التي تمت بها، و تشير إلى الإمكانيات الموجودة، و تثير فضول و حتى حماس الأوروبيين لتلك القارة الأفريقية التي كانت تتفتح شيأ فشيئا أمامهم و أمام امكانياتهم.

و مما هو واضح في أدب الرحلات الاهتمام بالطرق و المراحل، و ذكر الأبار وموارد المياه و الجبال و المدن و القرى، و عناصر السكان و لكون هذه العناصر مشتركة بين أقسام الرحلات استلزم البحث اللجوء إلى مقياس أكثر دقّة وهو اللغة في تفاعلها مع الموضوع و الذات، فإذا اختفت العناصر الأدبية والذاتية أو ندرت صنفت على أنه جغرافية وصفية، و إذا حاول الرّحال أن يوازن بين الموضوع والذات فهو أدب جغرافي، أما إذا طغت العناصر الأدبية الذاتية فعلمه يصنف على أنه أدب رحلة...[4] و الجغرافيا الوصفية التي نقلها الرحالة والمستكشفون الأوربيون للاستعمار أولا و لعلم الجغرافيا ثانيا و علوم أخرى، ذلك أن ما كتبه الرحالة من كنز وصفي و هو من الوثائق العظيمة الشأن في تاريخ الإنسانية و في استطاعة

---

[1]. صلاح الدين الشامي: الرحلة في المحيط الهندي و دورها في خدمة المعرفة الجغرافية، مطبعة عالم الفكر، وزارة الاعلام، الكويت، مج 13، عدد 04، مارس 1983، ص 14.

[2]. إبراهيم القادري بوتشيش: المرجع السابق، ص 9.

[3]. جلال يحي:المرجع السابق ، ص 228.

[4]. ناصر عبد الرزاق الموافى: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، سلسلة أدب الرحلات ،دار النشر للجامعات المصرية مكتبة الوفاء، ط1، 1995،ص 35.

الباحث أن يستخرج منها شتى الحقائق، و مختلف ضروب المعرفة مطمئنا إلى نتائج بحثه إذا أقبل على دراسة هذه الوثائق ببصيرة نافذة، و بشيء من الحذر الذي يتطلبه النقد العلمي[1].

و هذا ما جعل الرحلة في مكانة مرموقة بين التراث، من غير تمييز بين أنواعها لكونها تتقاطع في في نقاط و تتكامل في أخرى، و حتى الكتب الخاصة بالمسالك و الممالك لم تكن جغرافية خالصة، بل فيها ملاحظات ذات علاقة بالعلوم الأخرى، بالإضافة إلى كونها خدمت الهدف الجغرافي، و لّبت تطلّعات الناس إلى ذلك الحين كما لبّت حاجة الاستعمار الأوروبي أداء وظائف الاتصال والتخطيط و الأمن.

فنجد أن الرحّالة الأوربيين قد أصدروا أحكاما تتوافق و رؤاهم الفكرية والعلمية و معتقداتهم الدينية: "حيث امتزجت المرئيات المحسوسة بالانطباعات الشخصية الوجدانية، و الوصف الدقيق لليوميات مع الطريق و أحوال السفر [2].

فالرحالة و المستكشفين الأوروبيين تتجاذبه حقول متعدّدة كالتاريخ و الاجتماع والأنثروبولوجيا و القصة و السيرة و المذكرات إلى جانب اخلاصها لتقاليد الكتابة والتأليف و الافتتاح و الاختتام[3].

و الباحث في تاريخ التراث الإفريقي يسجل دور الرحالة و الأوروبيين في اقتحام المخاطر و تمكنوا من الحصول على المخطوطات العربية و إسلامية ففتحوا نوافذ جديدة و فعالة في فهم التراث و تفعيله في الحياة المعاصرة ذلك أن"كل تراث لا يؤكد استمراريته في حركية التاريخ لا يعتبر أصيلا[4].

---

1. زكي محمد حسن: المرجع السابق ،ص 179.
2. محمد راداوي: الرحلات المغربية و الإسلامية، و أعلامها في الأدب العربي القديم و المعاصر (دراسة نصوص) مكتبة الملك فهد، مطالع الفرزدق، الرياض، ط02، 1995، ص 19-20.
3. كمال عبد اللطيف: صور المغرب و أوربا في أدب الرحلات المغربية، مجلة فكر و نقد، الرباط، ع2، 1997،ص 147.
4. مصطفى رمضاني: توظيف التراث و إشكالية التأصيل في المسرح العربي، عالم الفكر، الكويت، العدد14،المجلس الوطني للثقافة و الاداب ،الكويت ،1987،ص 79.

و لا يمكن الفصل بين مخطوطة و أخرى و لا زمان الرحلة و مكانها إلا نظريا، لأن المكان يمتلك زمنه بالضرورة، و يتحرك كاتب الرحلة للتنقل من مكان إلى آخر عبر الاسترجاع الذي تمارسه الذاكرة...[1].

لقد وضع الرحالة الأوروبيون و الباحثين عن تراث أفريقيا جنوب الصحراء عتبات معرفية مثل ادعائهم بالدور السلبي للإسلام على المنطقة، والأعتقاد بتفوق الجنس الأوربي [2] وأن تاريخ إفريقيا لم يكن قبل وصول الأوروبيين و كذا تجارة الرقيق و غيرها.

على أن هذه الصورة لا تجعلنا نقع في استرخاص الأعمال المنجزة [3] من لدن الكثير من موظفي الإدارة الاستعمارية باعتبارها أعمال ذات سبغة استعمارية فالكثير مما أنجزه ريشموند بالمر (H-e- Palmer)،و هنري كادن(H-Gaden) و بون مارتي(P-Marty)، و أوكتاف هوداس (O-Houdas)، و شارل مونتاي(CH-Monteil)، و موريس دولافوس(M-Delafosse)، و غيرهم من رجالات الإدارة الاستعمارية و دهاقنتها، يتمتّع بقيمة علميّة معتبرة، و إن في مجال تحقيق و إخراج و ترجمة النّصوص العربية المحليّة، أو في مجال توثيقهم للكثير من متون الرواية الشّفويّة الإفريقية [4].

و كانت نتائج هذه الاستكشافات تفوق كثيرا مجرد النتائج العلميّة، رغم أن هذا التّعبير يشتمل علاوة على الاستكشافات الجغرافية على كل المعلومات التفصيلية التي دونها المستكشفون في يوميّاتهم، و التي تتعلّق بحالة الأهالي وعاداتهم و معتقداتهم إذ أنها ستعمل على **"فتح إفريقية"** و سيكون لها نتائج اقتصادية [5] و سياسيّة في غاية الأهمية إضافة إلى رسوخ فكرة التبشير[6] .

و نرى أن المستكشفون كانوا يربطون بين التجارة و بين المسيحية كعاملين لإدخال الحضارة في إفريقية و كان الهدف الأول هو إقامة مراكز تجارية في داخل القارة، ودراسة وسائل التنمية و الاستغلال التجاريين و أخذ المستكشفون يتحدّثون عن الامكانيات الاقتصادية

---

[1]. أم سلمى، الحسني: صورة الغرب في الرحلة المغربية -رحلة الصغار نموذجا- مجلة المنعطف، وجدة، العدد 6 -7، سنة 1414 ه/ 1993 م، ص 132.

[2]. ج ، ن ، أوزويغوي :المرجع السابق ،ص42.

[3]. محمد حسين فهيم:المرجع السابق ،ص50.

[4]. عمر بن حمادي:المرجع السابق ، ص79.

[5]. Max (Marchand) . op.cit. P 12

[6]. مصطفى خالدي: المرجع السابق ، ص143.

كالمناطق التي يسيرون عبرها .

و يدوّن كل ما يجده عن امكانية زراعة القطن هنا و هناك و وجود النحاس والذهب في كاتنجا...إلخ.

و قد اهتم جميع المستكشفين الآخرين بكل هذه المسائل وكانت التعليمات الصادرة إليهم توجههم إلى أن يحددوا المنتجات داخل القارة الصالحة للتصدير [1]، و نجدهم ينشرون في نهاية رحلتهم محقا هي عبارة عن دراسة مقارنة لتجارة الصادرات و الواردات للساحل الأفريقي ووسط القارة و ذكروا أن اشتراك الدول الأوروبية في هذه التجارة يتوقف على سيطرتها على طريق تجاري إلى الداخل[2].

و كان الرحالة الأوروبيون يهتمون بالناحية الاقتصادية من الاستكشافات ويكون في أكثر من مكان من يومياتهم ذكر ثروة الأقاليم و كثرة مواردها، و رغبة شيوخ الأهالي في التجارة و قدّموا ملاحظة أن التجارة لن تزدهر مع هذه المناطق ما لم يستقر السلم فنظرة الرحالة الإنجليز إلى لإفريقية على أنها ستصبح سوقا للمصنوعات الإنجليزية و كتبوا عن الحبوب و الفواكه و الخضروات في أفريقيا ومسألة زراعة الموز فيها و قصب السكر و غيرها [3].

[1]. محمد عبد الغني سعودي : قضايا إفريقية ، ط1 ، مطبع الكوثر ، الكويت ، 1980/1400 ، ص 197.
[2]. جلال يحي:مرجع سابق، ص 239.
[3]. نفسه ص 240.

المطلب الثاني : أهداف المستكشفين و الرحالة الأوروبين :

لقد رأى هؤلاء المستكشفون أيضا المصاعب التي تعترض الاستغلال الاقتصادي للقارة الأفريقية و خصوصا مصاعب النقل و عدم الاستقرار و التخريب الذي تنزله تجارة الرقيق بتلك الأقاليم.

ولقد استند معظم المستكشفين إلى هذه التجارة للوصول إلى نتائج "سياسية" في إفريقيا و منهم من أوصى بإنشاء* مشروع "مستعمرة" وأصرّوا على ضرورة حرية التجارة [1] المشروعة ، أي تغيير البناء الاقتصادي للإقليم ، دون أن يصرّحوا بأن هذه العملية ستنتهي بالسيطرة الاقتصادية ثم السياسية على الإقليم .

و لقد كتب فون دير ديكين من جوبا، في صيف 1864 م، أن إنشاء مستعمرة ألمانية في هذه المنطقة سينجح في فترة قصيرة و يمكنها أن تصل إلى الاكتفاء الذاتي في ظرف سنتين أو ثلاث سنوات ، و شرح أن هذه المستعمرة ستزداد أهميتها بعد فتح قناة السويس وتأسّف لعدم اهتمام الألمان بهذه المسائل الضرورية للأسطول.

و كان كريستن ينادي بما نادى به زميله، و كتب يذكر بأن فون ديرويكين قد أعلن في أكثر من مرة أنه لن يتردد في شراء حبسه من السلطان ، إذا ما وافق مجيد على بيعها و ذلك لإقامة منشأة[(2)].

ثالثا : ملاحظات على كتابات الرحالة و المستشرقين:

دوّن الرحّالة معلومات جمة لا تكاد تحصى حول مجتمعات إفريقيا جنوب الصحراء في بيئاته الجغرافية المتنوعة من واحة مرزوق إلى السينغال و من توات إلى قبائل الأشانتي في الغابات الاستوائية و وصفوا أساليب العيش ، و أدوات العمل واللباس و المسكن و الحرف الشعبية و المأكل و المشرب و الطب الشعبي حتى وإن أخذها كثير من المثقفين الأوروبيين كأحد كصورة نمطية للأفريقي دون تمحيص [3].

* منهم الرحالة ليفنجستون: أوصى بإنشاء مستعمرة إنجليزية عند منابع نهر الزمبيري في شرق أفريقيا.
[1]. جلال يحي: المرجع السابق، ص 240.
[2]. نفس المرجع ،ص 241.
[3]. كلود قوتية :المرجع السابق ، ص 45.

و اهتموا كثيرا بالعادات و التقاليد و المعتقدات الدينية الرسمية و الشعبية [1] و دونوا كثيرا من نصوص الأدب الشعبي من حكايات و أمثال، و أغان، و أشعار بلفظها العربي بالحرف اللاتيني غالبا، مما يسهل مهمة إعادتها إلى لهجات العربية الأصلية، و هناك توجّهات عالمية مواتيّة في هذه الفترة [2] .

و لم تكن هذه الدراسات خالصة لوجه العلم ، بل تسيطر عليها نزعة توراتية عنصرية استعمارية صليبية [3]، و حسب رأي إدوارد سعيد ـــو هو محق- فإن«عصب الاستشراق مزيج من الكراهية الحضارية و العداء السياسي، و هو شكل من أشكال الهيمنة الأوروبية على المشرق أكثر مما هو كلام عنه، و هو مجموعة من التواصل بين كتاب أفراد، وبين مجموعة من المصالح» [4] ، و على الرغم من هذا كله هناك فوائد جمّة لنا اليوم في هذه الكتابات.

و يمكن أن تساهم معاهد ومخابر الدراسات الأفريقية في الوطن العربي و في الجزائر من خلال الباحثين في التّخصّص ، أو أن تقوم دور النشر بتكليف مترجمين يتحلون بقدرات علمية مناسبة يجمعون بين المعرفة باللغة العربية و اللغة المنقولة عنها، إضافة إلى خبرة كافية في الموضوع الذي يترجمونه .

و احترازا من الأغلاط التي تلمسها في بعض الترجمات ، ينبغي أن يكون هناك تعاون علمي بين المترجم وبين الباحث المهتمّ بالموضوع ، كالحكايات والأمثال والعادات ، والمعتقدات...كما يكون من المفيد أن تتم مراجعة المواد المترجمة مع كبار الرواة ، خاصة و إن الرواية الشفوية في أفريقيا جنوب الصحراء لا تزال من المصادر الرئيسية للتراث الإفريقي الإسلامي في المدارس التقليدية [5] .

فهناك الكثيرا من التعابير و المصطلحات الشعبية ، و الألفاظ الخاصة ببيئة معينة ، أو حرفة معينة يصعب أن يستوعبها أيُّ مترجم إلا إذا كان من البيئة ذاتها، و على معرفة جيدة بتراث منطقته .

---

[1]. .محمود كعت: المصدر السابق، ص 64 ، الهادي المبروك الدالي : التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، المرجع السابق ،ص 83. الهادي المبروك الدالي : مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها مع المغرب وليبيا ،المرجع السابق، ص 87.

[2].محمود مفلح البكر:المرجع السابق ،ص 78.

[3]. حسن الناطق: المرجع السابق ،ص 242،241.

[4] .Thomas Ekellello: De L’importance de la culture pour L’assimilation de massage chre’tien en afrioque noire ,paris,pre’sence africaine,1957,pp189,190.

[5]. كادي درامي : التعليم العربي والعلوم الأسلامية في المدارس التقليدية بمالي، ندوة التعليم الأسلامي في إفريقيا ، مطبعة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ،1988، ص159

لأن كثيرا من أبناء تلك البيئات قد أصبحوا في أيامنا بعيدين عمليا عن روح بيئتهم ، و معجمها اللّفظي، و لهذا لابد من شرط المعرفة و المعايشة المستمرة ، و في جميع الأحوال لابد من مراجعة كبار السن للتيقن من المعلومات وصحّة التّعابير المعرّبة وتلك مهمة مراكز الأبحاث [1].

ويجب ألا يغيب عن بال أي باحث ميداني أن يراعي الزمن، وتغيّر ظروف المعيشة ، و تطور أساليب العمل و الانتاج، و السكن، و ظهور المذياع ، ثم التلفاز وما تلاه، و اليوم مع الأنترنت، و انتشار المدارس، و اتساع مجالات الاختلاط السكاني بين البيئات المختلفة، بعد ثورة الاتصالات و المواصلات، و كثرة المؤثرات ذات الطابع الإعلامي-الثقافي.. و قد لعبت كلها مجتمعة دورا في تغييرات جذرية في اللّهجات ، و الأدب الشعبي ، و العادات و التقاليد، و أساليب العيش، و اللباس، و الطعام..[2] مما يجعل كثيرا من الأمور القديمة خارج نطاق اهتمام الأجيال الشابة ، بل محلُّ استهجانها و دهشتها أحيانا.

وهذا ما يحملنا –أفرادا وجهات رسمية- مسؤولية كبرى أمام تاريخ أفريقيا و إرثها الثقافي، و تعريب ما يحتاج تعريبا قبل فوات الأوان حين لا نجد من نرجع إليه من رواة التراث الإفريقي .

و من الأمور التي يجب الانتباه إليها أن الرّحالة الأوروبيين، على الرغم من تحليهم بدقة الملاحظة غالبا و تسلح أكثرهم بمناهج البحث و الجمع الميداني، و الخبرة العلمية الواسعة، إلا أنهم وقعوا في أغلاط كثيرة، نتيجة عدم التمكن من اللهجات الإفريقية الكثيرة [3]، أو استخدامهم مصطلحات و تعابير شائعة في بلادهم ، لا تخلو من نقص معرفي بالبيئة و المجتمع الصحراوي الإفريقي و أحيانا لتجاهل مقصود[4].

و لما كان الرحالة الأوروبيين كثيرا ما كانوا يبحثون عن الأمور المدهشة، والغريبة ، وغير العادية، و يلحّون في طلبها فإن بعض الرواة العرب كانوا حين يلمسون هذه الرغبة عند الأجانب يطلقون لخيالاتهم العنان، و يبدعون الخزعبلات، و الخوارق التي لا علاقة لتراثنا بها،

---

[1]. أحمد محمد كاني : المرجع السابق ،ص192.

[2]. حلمي شعراوي : تراث مخطوطات اللغات الأفريقية بالحرف العربي، مطبعة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم، السودان، ص481،475.

[3]. محمود مفلح البكر:المرجع السابق ،ص 66.

[4]. ميشيل كامل : الأستعمار في إفريقيا ، ط1، مؤسسة نصار للتوزيع والنشر، 1963،ص 34.

و يسهمون في ذلك اشباعا لنهم الأوروبيين المتعطشين لسماع الغرائب، وهناك أمثلة ملموسة.

فعلى المترجمين التنبّه لهذه الخزعبلات [1]، وعدم أخذها أمورا مسلما بها، وتنبيه القراء في الهامش لمثلها.

و تخابث بعض الرواة لا يقتصر على الرحالة الأوروبيين بل كثيرا ما يخدعون الباحث العربي القادم من المدينة، أو ختى من الريف نفسه إذا لمسوا فيه نقصا في المعرفة، و ضعفا في دقة الملاحظة، و كثيرا من الرواة، لا ينقصهم الدهاء، و لا الخيال المحلّق، و القدرة على التأليف، فيبتدعون على البديهة قصصا من خيالهم وخزعبلات لا علاقة لها بالتراث.

لذلك كان من المهم في الدراسات التاريخية، الاهتمام بشهادات و انطباعات الرحالة ، و ملاحظتهم التي يسجّلونها في للمناطق التي يمرون بها، لما تضمنه هذه الكتابات من فوائد و معلومات تاريخية و اجتماعية و تراثية [2].

فأخذ هذا النوع من التدوين حيزا واضحا في كتابة التاريخ ، و خصوصا ما يتعلق بأفريقيا جنوب الصحراء ، لأنه مثّل في العهود السابقة عالما خفيا ، على العرب أن يستكشفه ، وولّد السحر ا في نفوس الأوروبين ، وكشف النقاب عن المجهول من الطبيعة والبشر ، فأسهم العديد منهم بإيجابية في إيجاد قاعدة معلوماتية عن الشعوب الإفريقية دون النظر إلى من يحرك هؤلاء للبحث [4] ، في وقت قلّ فيه التدوين التاريخي لبعضها بشكل ملحوظ.

وفي القرون اللاحقة تحولت جهود بعض الرحّالة إلى مقدمات لفتوح استعمارية أصبح تعرف بمناطق النفوذ [3]، و ابتعدت عن روح الكشف و العلم ، وسواء كانت معلنة أم غير خفية ، فإن هناك مجموعة من الصفات قد اشتركت بها كتاباتهم ، أبرزها دقّة الملاحظة ، و الوصف والتقصي في تسجيل المشاهدات، والحرص على التمييز بين المشاهدة على أرض الواقع

---

[1]. محمد حسين فهيم:المرجع السابق ،ص55.

[2]. عمر بن حمادي :المرجع السابق،ص77 .

[4] . Max (Marchand) . Histoire Abrégée de L'Algérie Partie Sahara . Mars 1975. P 12

- يراجع أيضا للتوسع :- عميراوي أحميدة:المرجع السابق ،ص151-173.

[3]. ج ، ن ، أوزويغوي :المرجع السابق ، ص 49.

و الرواية نقلا من الغير، و قد تّحولت هذه المواصفات إلى قواعد مهمة وأساسية في منهجية البحث الميداني، و خصوصا في مجال الدراسات الإثنوغرافية [1].

و كان من مساوئ الحكم الأوربي أن النظام قد تغير من دولة لأخرى بل واختلف النظام الواحد في نفس الدولة حسب مقتضيات الأحوال و حسب الظروف التي مرت بها كل دولة من دول غرب إفريقيا و حسب النظم الوطنية التي كانت سائدة قبيل قدوم الأوربيون لكن السمة الغالبة على هذه النظم الاستعمارية كانت تتخذ طابعا عاما يتمثل في سياسة الدولة المستعمرة [2].

و في غرب إفريقيا نجد أن هذا النظام قد قام على أساس تحطيم الزعامات القومية و انتزع منها كل سلطة و نفوذ ، و بالتالي اعتمد هذا النظام على رسم السياسة من قبل الفرنسيين بمفردهم، وشغل الفرنسيون جمع الوظائف.

بل تولوا تنفيذ كل أوامر الحكومة وبالتالي صار الجيش عماد الوجود الفرنسي في أفريقيا فلم يتوقف النظام الفرنسي عند حد الإدارة المباشرة ، و حرمان الوطنيين من ممارسة النظام الفرنسي بل تعدى الأمر إلى درجة انتهاج سياسة الاستيعاب أي صبغ المستعمرات بالصبغة الفرنسية عن طريق فرض ثقافة الفرنسيين و لغتهم و تقاليدهم ونظمهم الاجتماعية و السياسية على الإفريقيين[(3)].

و كان القصد من ذلك كله هو القضاء على الثقافات و التقاليد المحلية الوطنية و جعل تفكير سكان المستعمرات مطابقا تماما للنظم الفرنسية ، و حاولت فرنسا فرض هذا الغزو الثقافي على سكان و شعوب تتفاوت في ثقافتها و تقاليدها المحلية ، وبالطبع أدت هذه السياسة الفرنسية إلى خلق تفرقة بين أبناء الشعب الواحد[4].

هذه التفرقة نجمت عن قدرة الفرنسيين على المجاراة في ثقافاتهم و عاداتهم و هذه من أبرز مساوئ هذا النظام الفرنسي الذي حرم الإفريقيين في المستعمرات الفرنسية في غرب

---

[1]. فرع من علم الإنسان، يقدّم أوصافا علمية للثقافات المعاصرة، ويشير المصطلح أيضا إلى كل ما هو مكتوب أو مصور أو مسجل يقدّم هذا الوصف، و مادّة الدراسة تتناول جماعة او مجموعات مختلفة أو شعوبا متجاورة ومقارنة أوجه الشبه و الاختلاف سلوك هذه الجماعات و يتطلب الأمر العمل الميداني و العيش مع الناس، ودراسة ثقافاتهم و أساليب عيشهم، للمزيد: http//anthro.ahlamontada.net

[2]. عبد الرحمان أحمد عثمان : أوجه الخلاف بين النظم الاستعمارية في إفريقيا (بريطانيا والبرتغال وفرنسا)، مجلة دراسات إفريقية ، العدد العاشر ، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم السودان ،ديسمبر 1993،ص86،85.

[3]. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، شوقي الجمل:المرجع السابق ،ص 97.

[4]. نصرالدين رضوان حمد :المرجع السابق ، ص22.

أفريقيا من ثمار هذا النظام الجديد ، و جعل استيعاب الحضارة الفرنسية شرطا أساسيا للوصول إلى مستوى الفرنسيين في الحقوق والواجبات ، كما كان تشكيل النخبة وسيلة لخلق جماعة تستوعب التراث الفرنسي و تصبح الجسر الذي تعبر عليه الثقافة الفرنسية إلى هذه الشعوب الإفريقية [1].

و بالرغم من تشكيل هذه النخبة إلا أن فرنسا عجزت أن توصل ثقافتها إلى هذه الجماعة و لم تتمكن من خلق زعامات محلية قوية تستطيع حمل أعباء المسؤولية في إدارة مستعمراتهم فكل ما فعلته فرنسا بسياستها المباشرة هو السعي للقضاء على الثقافات المحلية و التقاليد الوطنية و العمل على فرنسة شعوب هذه المناطق في إطار ما يسمى نظام الأستيعاب الثقافي[2].

و قد ظهر واضحا عند استقلال هذه الدول الأفريقية التي رفضت نظام الجماعة الفرنسية و الذي صبغ المستعمرات بالصبغة الفرنسية و ألغى الشخصية الأفريقية و لذا نجد ان النظم الفرنسية قد فشلت في خلق زعماء وطنيين يدينون للها بالولاء و اضطرت فرنسا إلى الاعتراف باستقلال هذه الدول الأفريقية عام 1960 لتواجه مشكلات عديدة من جراء هذه السياسة الفرنسية التي حاولت طوال عهدها الاستعماري القضاء الكامل على التقاليد و الثقافة المحلية الأفريقية عكس ما تركه المسلمون في هذه المناطق و ساهم الإسلام في المصالحة بين القبائل وجعلها مجموعة من الروابط المتنوعة الأكثر شمولا [3].

أما بريطانيا فقد انتهجت نظاما كان سائدا في بعض البلدان الأفريقية و سبق تطبيقه في بعض المناطق - لكن السلطات البريطانية ممثلة في اللورد لوجارد قد جسّدت هذا النظام للحكم غير المباشر باسم اللورد لوجارد لأنه أول من طبّقه عمليا وبشكل مجسّد في نيجيريا الشمالية و غيرها من المستعمرات البريطانية في غرب أفريقيا [4].

و صار هذا النظام بعد نجاح تطبيقه في شمال نيجيريا أداة سهلة في أيدي السلطات البريطانية بعد أن اعتمد لوجارد على الرؤساء و الزعماء المحليين و جعلهم جزءا من الإدارة الحكومية و بمرور الزمن تحول مصدر السلطة التقليدية إلى القانون البريطاني، و وفر هذا

---

[1]. نصرالدين رضوان حمد :المرجع السابق ، ص ص22،23، 24.

[2]. عبد الرحمان أحمد عثمان : المرجع السابق ،ص85 .

[3] . Catherine Coquery-Vidrovitch: .Des frontières en Afrique du XIIe au XXe siècle Bamako, 1999، Publié par l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture،STEDI-MÉDIA, Paris.2005،p41.

[4].عبدالله عبدالرزاق إبراهيم :المرجع السابق ،ص 110.

النظام على بريطانيا مصاريف الإدارة، و قلّل من عدد الحكام اللازمين لحكم هذه المساحات الشاسعة بالإضافة إلى الاستفادة من النظم الأفريقية الوطنية و تطويرها لتتلاءم مع الظروف الحالية و قد نجح هذا النظام البريطاني في اعطاء الزعامات الوطنية للكثير من السلطات لتنفيذ السياسة الاستعمارية [1].

بل وضعت ولاء الزعماء الوطنيين لتلك النظم البريطانية، و هكذا نجد أن نظام الحكم غير المباشر الذي طبّقته بريطانيا في مستعمراتها في غرب أفريقيا كان مفيدا لكل من البريطانيين حين ساعد على تقليل نفقات الإدارة و وفر المال التي تتطلبها انشاء جهاز إداري ضخم لحكم هذه الجهات كما ساعد على قيام حكومة قوية بدلا من النظم الاستبدادية.

و وفر لهذه المجتمعات الأفريقية رخاء ماديا وحفظ النظم الوطنية كيانها وظلت التقاليد الوطنية تنعم بالأمان في ظل هذا النظام الذي لم يحاول التدخّل في شؤونها خاصة في المناطق الإسلامية في غرب أفريقيا فظلّت حضارتها الإسلامية تعيش جنبا إلى جنب مع النظم الاستعمارية واللغات المحلية كانت خير مثال على ذلك [2].

و كان هذا النظام الذي طبقته بريطانيا و اعتمدت فيه على النظم الوطنية أفضل نظم الحكم التي طبقت في القارة الإفريقية لأنه لم يحاول القضاء على النظم الوطنية بل حاول تطويرها بما يتماشى مع السياسة البريطانية [3]، كما أن عدم تدخّل البريطانيين في تقاليد هذه الشعوب و نظمها و ثقافتها قد ساعد على الحفاظ على هذا التراث الوطني غير المباشر تطوير النظم الوطنية و خلق دعامات قومية كانت لها أثارها عكس النظم الفرنسية المباشرة التي قضت على هذه الزعامات القومية حتى وإن إختلفت التسميات بين – المستعمرة والمحمية ومنطقة الوصاية- [4].

و لكن من أبرز عيوب نظام الحكم غير المباشر أو الإدارة الوطنية هو الاتجاه في بعض الأحيان إلى رئاسات ليست لها شعبية وطنية [5] ، و في أحيان أخرى استحداث الرؤساء في النظم التي لا تعرف السلطات الرئاسية .

[1]. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، شوقي الجمل:المرجع السابق ص 98.
[2]. حلمي شعراوي: المرجع السابق ص189.
[3]. عبدالرحمان أحمد عثمان : المرجع السابق ، ص84.
[4].زاهر رياض :المرجع السابق، ص 33، عبدالرحمان أحمد عثمان :نفس المرجع ،ص87.
[5]. أحمد صقرسيّد نجم : التنافس بين بريطانيا وفرنسا في منطقة خليج بنين (1861-1906) ، رسالة دكتوراه ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ، 1997، ص33.

كذلك كان من عيوب هذا النظام ذلك الفضل بين الزعامات القديمة و الزعامات الجديدة و الذي تجلس كثيرا في حرمان المثقفين من الانضمام إلى المجالس المختلفة ، فعمل هذا النظام على الفصل ما بين الماضي و الحاضر ، و لم يتح فرصة التدريب على حكم العناصر التي ترغب في العمل [1] .

و من أبرز مزايا هذا النظام أنه ساعد الدول التي طبّق فيها بعد استقلالها على انجاح سيادة الحكم المحلي بعد تطوير مؤسسات الحكم غير المباشر يعتمد على فلسفة التمايز و الاعتراف بأهمية تطوير مؤسسات منفصلة على المنظمات السياسية الأوربية و مناسبة لظروف الأفريقيين و مختلفة عن النظم الغربية .

أما السياسة الفرنسية التي قامت على نظام الحكم المباشر فقد قامت على سياسة التوحد و كان ينظر إلى المنظمات السياسية و الاجتماعية و الأفريقية و تطويرها حتى تصبح مشابهة للأنظمة الأوربية تماما[(2)].

و كانت فرنسا تنظر إلى مستعمراتها نظرة تجارية على اعتبار أنها ملحقة بأراضيها الأوروبية اقتصاديا و إداريا و من ثم ترتبط بها سياسيا و لذا كانت أول أهداف الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الحكم تحطيم الزعامات القبلية و المحلية [3] .

وربما كان هذا يرجع أولا إلى المقاومة التي لقيها الجيش الفرنسي في حروبه في أفريقيا وثانيهما الثورة الفرنسية 1789 م[4] التي صوّرت للفرنسيين أن عليهم عبء حمل شعلة الحضارة إلى البشرية و لهذا كله صارت نظم الحكم الفرنسية تقوم على أساس شغل الفرنسيين لجميع الوظائف ورسم السياسات بحيث يظل الجيش الفرنسي العمود الفقري للوجود الفرنسي .

و ارتبط الحكم الفرنسي أيضا بسياسة العمل على إلغاء الثقافة المحلية الأفريقية لصالح الثقافة الفرنسية – حلم تحقيق الأمبراطورية الفرنسية من شمال إفريقيا إلى جنوب الصحراء- [5].

[5] .

---

[1]. محمود فريد شديد زمزم : المرجع السابق ،ص62.
[2]. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، شوقي الجمل:المرجع السابق ص 99.
[3]. محمود فريد شديد زمزم: نفس المرجع ص 62، 63.
[4] .Hollyhc et brunet : histoire contemporaine,paris,1956,p38.
[5] .Ronald Davidson ,Jhon ghalleges : africa and the viotoians ,london ,1961,p88.

و قد ظهر هذا كما سبق أن أوضحنا في نظام الاستيعاب الذي اعتمد أساسا على فرض اللغة و الحضارة و المفاهيم الفرنسية على الحياة الأفريقية حتى يصبح الأفريقيون فرنسيين في كل أنماط حياتهم.

و لقد كان هذا سببا في وجود ظاهرة الاستعمار الثقافي ، و من مزايا هذه السياسة عدم وجود التفرقة العنصرية التي قامت على أساس اللون أو العنصر في المستعمرات الفرنسية و إن كانت هناك تفرقة من نوع آخر قامت على أساس مدى الاستيعاب للثقافة الفرنسية[1].

و لقد لاحظنا أن نظام الفرنسة الجماعية صعب المنال، فسياسة فرنسة النخبة أو المشاركة (Association) و التي حاولت فرنسا تطبيقها في فترة ما بين الحربين العالميتين قد نجمت بالفعل في خلق النخبة المثقفة التي نسيت أصولها الأفريقية، و قد لاحظنا ان السياسة الفرنسية في الاستيعاب و المشاركة إنما تدوران في نفس المحور لا تختلفان إلا من حيث التطبيق كفى كليهما سار في نفس الخط الأساسي لفلسفة الحكم المباشر التي كانت تهدف إلى منح هذه النخبة النفوذ و السلطان مع استمرار بقاء السلطة الفعلية في أيدي المواطنين الفرنسيين.

و باختصار يمكن القول أن السياسة البريطانية كانت تحمل في طياتها إيمانا بقدرة النظم و التقاليد الوطنية على المشاركة في الحكم و الإدارة بينما حملت النظم الفرنسية في النهاية الإيمان بسمو الحضارة الفرنسية التي يجب أن تفوق ما سواها وأن تصبح هي الهدف الأسمى لكل المستعمرات[2].

و كان من فضل الرحالة الأوربيين و المسلمين على السواء للعرب - في نطاق الكشف عن الأخر[3] - أن وفروا مستوى معيّن من الاتصال بين المسلمين والمسيحيين ، حتى في المجتمعات المتعصّبة (*) ، وهذا الأمر ليس مقتصرا على الجماعات الأفريقية ، بل حتى في أوربا خلال العصور الوسطى وجد التطرق تجاه الرحالة من الجهات الرسمية و غير الرسمية

[1] . زاهر رياض :المرجع السابق، ص 33، 34.
[2]. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، شوقي الجمل: دراسات في تاريخ غرب أفريقيا الحديث و المعاصر، مرجع سابق ص 100.
[3]. عبد العزيز بن عبدالله : المرجع السابق ،ص195.
*. الكثير من الرحالة أغتيلوا من طرف جماعات دينية متشددة لتوجسهم من مهمتهم. أنظر ، الطيب عبدالرحيم الفلاني :المرجع السابق ، ص251.

وخاصة منذ بداية الكشوف الجغرافي وبدايات تجارة الرقيق [1].

فقد واجه الفاتيكان و صف رحلة بولو للشرق، و المتمثّلة باتهامه بالكذب ومطالبته و هو على فراش الموت بإنكار ما رآه، على الرغم من إنكار الرحلة و لا إثناتها، لم يعد هو العامل الحاسم في الأمر، و إنما ما قامت الرحلة من عملية تهديم لكل ما يحيط بأوربا آنذاك، و قد أثبتت أن أوربا ليست هي مركز العالم و لا ديانتها هي الوحيدة[2]، و ما حصل على أرض الواقع من تقلبات في صراع القوى في الشرق أدى إلى تمييز بين نمطين من التفاعلات، فكان عداد أوربا للعرب و الإسلام حتى في استخدام كلمات ذات أصل عربي في اللغات الأوروبية[3]

ازدهر ادب الرحلات في نهاية القرن الثامن عشر و مطلع القرن التاسع عشر، كجانب مهم من جوانب الأدب، الذي لقي اهتماما واسعا من جانب القراء، واتخذ الاهتمام بأفريقيا اتجاها آخر، نتيجة للتوسع الاستعماري و التجاري، و نتيجة لما أحدثته الثورة الصناعية، من تكدس الانتاج و ضرورة البحث عن أسواق لتصريفه.

ساعد على ذلك اتساع نطاق الصراع (البريطاني – الفرنسي) [4]، و تحسين وسائل المواصلات بعد اكتشاف البخار، و هذا الدور يشمل الرحلات التي اتخذت صيغا حديثة ، من ناحية استغلال الرحلات لأهداف شتى ، و قيّام أصحاب الرحلات ، بالكتابة وفق منهجية اتسمت بكونها أكثر دقة ، و أوسع ادراكا من الأدوار السابقة ، لما توفر من خيرات في هذا المجال [5] .

و توضّح لدى الكثير مكنهم ، أهمية العامل الديني و السياسي و العسكري و الثقافي و النفسي ، و القناعات الشخصية لمؤلفي كتب الرحلات ، في تناول شتى الموضوعات ، التي تخص إفريقيا و المسلمين بصورة عامة.

وبهذا الخصوص يذكر أحدهم في كلامه عن رحلات المسلمين : إن معظم من كتب عن هذه المنطقة يتعاملون مع الموضوع بروح الانحياز و عدم الحيادية[6] ، و هذا الكلام فيه الكثير من المصداقية ، و كتابات الرحالة تزخر بالأمثلة على ذلك ، فالشرقي متعصب قذر في العادات ،

---

[1]. جون أليف :المرجع السابق ،ص 224.
[2]. بيير جوردا: المرجع السابق ،ص 10.
[3]. كارل بروكلمان: المرجع السابق ،ص 310. – نادية (محمود مصطفى): المرجع السابق ، ص 23 -28.
[4]. عبدالرحمان أحمد عثمان : المرجع السابق ، ص ص 8385،87،92،95.
[5]. بيير جوردا:المرجع السابق، ص126.
[6]. William Miller: Travels and Politics in the Near East, Frederick A. Stokes Company, (New York, 1898), P IX

متعجرف و يحب السيطرة ، و يشرّعن العبودية و البغاء و تعدد الزوجات ، عديم الذوق لأنه لا يمتلك الصور، و لا يحترم الطبيعة ...ألخ، وهذا مخالف لما كان فيه واقع الأمر في إفريقيا جنوب الصحراء حيث ساد تنظيم الحياة [1] .

إن الباحث لا يجد مبررا لدراسات بعض المؤرخين والكتاب خاصة الأوروبيين ، فقد وصفوا " سكان الأرض السوداء بأنهم فطريون لأقصى درجة بلا إدراك ولا تجربة أو خبرة في أي شيء ويعيشون عيشة الحيوانات المتوحشة وبدون قانون وبدون نظم " ، هذه الصورة الهمجية أيضا صورها حسن الوزان في القرن السادس عشر والتي أتخذها كثير من المثقفين الأوروبيين كأحد المبادئ الأساسية المسلّم بها دون تمحيص ، فنجد الفيلسوف الألماني الشهير هيجل يقول:" الرجل الزنجي يمثل الأنسان الطبيعي في حالته الهمجية غير المروضة غير المروّضة تماما ، ولابد إذا أردنا أن نفهمه فهما حقيقيا سليما ، أن نضع جانبا كل فكرة عن التبجيل والأخلاق وكل ما نسميه شعورا أو وجدانا فلا شيئ مما يتفق مع الأنسانية يمكن أن نجده في هذا النمط من الشخصية ، وروايات المبشرين تؤكد ذلك [2].

هذه الصورة النمطية التي تركتها بعض الكتابات عن الإفريقيين جعلت العامة ينظرون إلى الزنجي على أنه خليفة الإنسان البدائي في العصر الحالي ،أما المثقفين وإن ينظروا غليه فبزاوية مائلة لا تعكس الحضارة التي وصل إليها سكان غرب إفريقيا على الأقل بين الفترة محل الدراسة (08-10هـ/ 14-16 م).

إلا إن هذا لا ينفي تناول[3] البعض من هؤلاء موضوع الشرق و سكانه و عاداته و تقاليده ، بروح من الموضوعية و الوضوح ، أما ما يرد من أخطاء أو تفسيرات قد تكون غير دقيقة ، فقد يكون مردها إلى عدم الإلمام بالكامل من قبل معظم هؤلاء الرحالة ، لنفسيات أبناء المنطقة المتباينة ، و مذاهبهم المتعددة ، و ما إلى ذلك من اختلافات، و قد يكون الاطلاع و الفهم الكامل لهذه الاختلافات من الأمور المستحيلة ، إلا أن الرحلات المتأخرة زمنيا أظهرت فهما و إلماما بالمنطقة و سكانها أكثر دقة مما سبق، و لعل السبب الأهم في ذلك، يعود إلى تطور وسائل النقل و الاتصال، و الاطلاع على الرحلات و التقارير و المؤلفات السابقة، التي تناولت الشرق و

[1]. كلود قوتية :المرجع السابق ،ص 45.
[2]. ج،ت ، ف ، هيجل :المرجع السابق ، ص174.
[3]. حيدر جاسم الرويعي:المرجع السابق ص 46.

الشرقيين، فتم الاستفادة من مؤلفات الرحالة الأسبق زمنيا بشكل مثالي، من الجمعيات الجغرافية و المؤسسات الأوروبية الفاعلة ذات البعد الديني[1] أو البعد الاقتصادي المادي.

1- نظرات في النقل و المشاهدة:

إن من أهم الإشكاليات التي يطرحها نقل الدراسات الإفريقية، يرتبط أساسا بمصادر الرحلة[2] و التي في الغالب عبارة عن نقل المشاهدات برواية محلية أو عربية أو أوروبية.

فهذه المواد المصدرية المتعلقة بتاريخ بلاد السودان إلى نهاية القرن 18 م تعاني من نقص في العناصر الاخبارية التي تطرحها ذلك أن محصلتها لا تطرح من المعلومات ما يساعدنا على حجب الظلال الكثيفة المحيطة بتاريخ المنطقة.

و إذا اقتصرنا على الفترة المتراوحة ما بين القرنيين 8 و 18 للميلاد، يمكننا تصنيف المواد المصدرية إلى قسمين أساسيين: محلية و أجنبية، و المحلية منها تشمل بجانب الرواية الشفوية و الآثار المادية الصامتة، كل ما أنتجه و دوّنه السودان بغاية التصنيف التاريخي جزئيا أو كليا، عفوا أو قصدا، فيما يندرج تحت عنوان المصادر الأجنبية، كل ما خلّفه العرب و الأوروبيون من كتابات ذات الصلة بتاريخ إفريقيا.

و حين النظر إلى الوعاء المصدري في سياق التصنيف المنوه به، يمكننا القول دون أن نخشى خطأ فادحا في التقدير، إن المواد المصدرية الأجنبية تتفوق من حيث الكمية و الاعتبارية على المصادر المحلية، على الأقل في صيغتها المدوّنة * ولعل في هذه الحالة النادرة و المربكة، ما يبرر إلى حدّ بعيد، ذلك الجموح الجارف للدارسين و المختصين في عملية البحث و التقصي عن المصادر المتعلقة بمجال دراستنا (بلاد السودان)، سواء كانت محلية أو تلك التي كتبت في مناطق مختلفة من العالم، وتضمّنت إشارات تاريخية حول الأرض و الإنسان و السودانيين[3] استنادا إلى الدراسات الأكاديمية لتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء نجد أن مصادر تاريخ إفريقيا

1. عبد الرحمن أحمد عثمان: تجربة المسيحية في مجتمعات غرب أفريقيا في القرن 19 م، مجلة دراسات إفريقية، العدد الثاني و العشرين، ديسمبر 1999، ص 66 -67.

2. عبد العزيز العلوي:المرجع السابق ،ص 15 -43.

*. إن الجرد البيبلوغرافي لمصادر تاريخ أفريقيا جنوب السودان يوضح بصورة جلية أن المصادر المحلية قليلة مقارنة مع المصادر الأجنبية. للمزيد انظر:

- Mauny(R), 1967, Tableau géographique de L'ouest africain au Moyen Age, d'après les sources écrites, la tradition et L'archéologie, Amsterdam, 2 éd. Mémoires de L'IFAN, n^0 61, P. 21-188, Cuoq(J.), 1985, Recueil des sources arabes concemant l'Afrique

3. أحمد الشكري: المرجع السابق، ص 40.

جنوب الصحراء ترتب على النحو الأتي:

1. المصادر العربية.
2. المصادر الأوروبية
3. المصادر السودانية المدونة
4. الرواية الشفوية.

5.الأعمال الأركيولوجية و تستند في أساسه بالمعيار الزمني أو التواتر الزمني ذلك أنه منذ القرن الثاني للهجري و إلى نهاية القرن التاسع (8-15 م) احتكرت المصادر العربية جل و أهم معلوماتنا عن المنطقة، و فيما قفزت المصادر الأوروبية للصدارة على امتداد القرن الهجري العاشر (16 م)، و زادت قوة احتكارها لها مع توالي العقود و القرون، أخذت المصادر السودانية تفرض نفسها تدريجيا حتى اشتد عودها خلال القرن 11ه/17 م.

و أما شأن الرواية السودانية و نتائج الأعمال الأركيولوجية، فلم يكسب موقعيها –كشواهد دالة – في خريطة المواد المصدرية إلا في نهاية القرن 19 م. و الفترات التالية، علما أن قصدنا من استعمال الرواية الشفوية، يشير إلى اعتمادنا بشكل مقصود وواع في الدراسات الأكاديمية ، و إلا فإن الكثير من معلوماتنا عن بلاد السودان سواء بالنسبة للمصادر العربية أو الأوروبية قبل متم القرن 18 م، إنما مصدرها رواية شفوية، تم اخضاعها لأحكام التقاليد الجارية في ثقافة التدوين[1].

و هذا يقودنا إلى أسئلة أخرى متشعبة حول هل المصادر العربية و الإسلامية تعد أجنبية بالمفهوم الواسع ، و هل كل ما كتب عن المنطقة حفظ ، و ما هي نسبة ما ضاع منها باستثناء الإشارات المتعلقة بالخصوصيات المحلية- و هي عادية من المنظور الاجتماعي ، يصعب علينا أن نعثر في الشهادات العربية على ما يدلنا أنها كانت تعتبر بلاد السودان أجنبية[2] في دار الإسلام بعد القرن 7 ه/13 م ، فقد اختلط العرب والبربر بالسودانيين وأصبحوا أمة واحدة ، وساهم الإسلام في المصالحة بين القبائل وجعلها مجموعة من الروابط المتنوعة الأكثر شمولا

1. أحمد الشكري: المرجع السابق، ص 41.
2. نفس المرجع، ص 44.

[1]، وكان عنصر المساواة الذي أوجده الإسلام ، وأجتهد حكام الممالك الأسلامية في تطبيقه كعامل للوحدة الاجتماعية .

و بالمثل فإننا لا نصادف في الشهادات السودانية ما يدعونا لإقامة مثل هذا التمييز أو التمايز علما أن مقتطفات مما خلفه ابن بطوطة والمغيلي و السيوطي ومؤلفات المذهب المالكي من أبناء بلاد المغرب و مصر ، كانت حاضرة بشكل تلقائي في مصنفات النخبة السودانية ، كما الحال بالنسبة للقاضي محمود كعت المنتج الأول لتاريخ الفتاش و كذلك لدى عبد الرحمن السّعيدي صاحب تاريخ السودان[2] .

و يقصد من استعمال مصطلح "أجنبي"، للدلالة على مجموع الشهادات التي دوّنت من خارج منطقة إفريقيا جنوب الصحراء كمجال جغرافي وبشري ، وهو ما يؤكد تداخل الثقافات في إفريقيا جنوب الصحراء حيث تشكل اللغة خير مثال على ذلك [3] .

وكلمة "أجنبي" إنما تستلهم البعد الجغرافي دون غيره من الأبعاد التي ينبغي استحضارها بهذا الصدد: مثل البعد الديني أو الحضاري والثقافي ، بيد أن التمييز في الكثير من الدراسات يتجاوز الحدود الجغرافية فالإسلام بفكره وقوته المعنوية حوّل حياة الشعوب السودانية التي اعتنقته من مجرد نظام قبلي بأسراته ورؤساء العشائر والقرية الصغيرة المغلقة في وجوه ما وراءها إلى نظام سياسي يقوم على الدولة وحكمها ، وعلى أساس قيام إدارة وحكومة ، وبناء حضارة بمدنها وعمرانها ، وسياستها ، ونظمها الاجتماعية ونشر أحكام الكتاب الكريم [4].

2- تشكيك الأوروبيين في الروايات العربية الإسلامية:

إن مسألة التشكيك في المصادر العربية الإسلامية قديمة قدم الصراع بين الدّيانة الإسلامية و المسيحية أو بين الثقافة الشرقية و الغربية. و ذلك أن الباحث يلاحظ توجّها ينزع نحو المس بمصداقية المصادر العربية و العمل على الترويج لأفكار غربية بصدد بعضها، و إذا امتنع عليهم ذلك تجدهم ينهشون في شخصية صاحب الشهادة فيأخذون في محاكمته بناء على قيم ثقافية

[1] . Catherine Coquery-Vidrovitch: .Des frontières en Afrique du XIIe au XXe siècle Bamako, 1999، Publié par l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture،STEDI-MÉDIA, Paris.2005،p41.

[2]. محمد محمد أمين:تطور المرجع السابق ،ص82.

[3] . R,Labatut :les emprunts du peul à L'arabe ,in langue arabe , et langue africaines , inst nationale des langue et civilisations orientale ,paris, CILF , 1983,p41.

[4].أحمد سويلم العمري : المرجع السابق، ص 66 .

و حضارية لا علاقة لها بعصر المؤلف أو زمن انتاج النص[1].

و مثال ذلك الشريف الإدريسي المتعلقة ببلاد السودان حيث يشوه الأوروبيون الرحالة العرب و جلها لا يتكئ على أي سند موضوعي، و إنما يرتبط بسوء فهم أو بهواجس ذاتية لا علاقة لها بقواعد البحث العلمي[2].

و ها هو فقد كان موريس دولافوس [3]. من المشككين الأوائل في نصوص الإدريسي[4] وبعدئذ أخذ الباحثون يتهافتون على تسجيل ملاحظة تلك، و يروجون لها في كتاباتهم ، لدرجة بات من النادر أن نعثر على دراسة حاولت الوقوف موقف الحياد تُجاه التدوين التاريخي للتراث العربي الإسلامي فما بالك انصافه بأنه عمل إنساني عالمي .

ونجد بعض الباحثين يتصيّدون أخطاء الإدريسي مثل دراسة المستشرق الألماني ديرك لانجي وموقفه المتحامل على الإدريسي لحساب إبن سعيد ، كما يمكن للباحث أن يتتبّع في نفس الدراسة جلّ المأخذ التي أصبح يعانيها أصحاب مصادرنا العربية الآخرين [5] حتى أضحى جل الدارسين ينظرون لنصوص الإدريسي نظرة ارتياب ، بل منهم من نفض يده منه نهائيا ثم سارع لإبراز الأخطاء و الثغرات التي لم يكتشفها السابقون بعد.

و عندما ترسخ الاعتقاد بهشاشة نصوص جغرافية إبن حوقل ، ثم جاء الدور على اليعقوبي و العمري ، و أخيرا انتهت سلسلة الشك عند محطة الحسن ابن محمد الوزان المعروف بليون الإفريقي ، و ما من شك أن اللائحة المعتمدة من جانب هؤلاء الباحثين ما تزال مؤقتة و مفتوحة في انتظار أن تضاف إليها أسماء أخرى ، أو على أقل تقدير في انتظار من يعمل على ترسيخ ذات القناعات [6].

---

1. أحمد الشكري:المصادر العربية المتعلقة ببلاد السودان فيما بين القرن 8 ه/15 م، القراءة و التأويل، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد25،الرباط، 2005،ص 237-256.
2. أحمد الشكري: الإسلام و المجتمع السوداني، م. س. ص 96، 117، 120، 147.**(التأكد)**
3. Dierk (L.), 1977, Le Diwane des sultans du (kanem.) Bornu: Chronologie et histoire d'un voyaume africain (de la fin du Xe siécle jusqu'à 1808), Franz Steiner Verlag GMBH, Wiesbaden, P. 78, 103, 114 et 122.
4. أحمد الشكري: الذاكرة الإفريقية،المرجع السابق ، ص 48.
5. الطيب عبدالرحيم :المرجع السابق ،ص 255 ،256.
6. سعد الخادم :المرجع السابق ، ص 47،46.

قد يكون لدى البعض كثير من الحق فيما يطرحونه من تأويلات بخصوص النصوص العربية، لكن أشد ما يثيرنا في المسألة أن معالجة شهادات الإدريسي أو ليون الإفريقي، غالبا ما تتم بعيون مجهرية دقيقة، في حين تؤخذ معلومات العديد من أصحاب مصادرنا الآخرين بنوع من التساهل و التسامح المفرطين، حتى إن البعض ينساق وراء التماس الأعذار لها و التهافت على ايجاد التبريرات الواهية بغاية تقوم مصداقيتها[(1)].

والباحث في الكتابة الأوروبية يلاحظ ازدواجية المعايير النقدية ، فالصراحة العلمية التي يتسلّح بها الكثير من المختصين مقاربة المصادر العربية ، سرعان ما يتخلّون عنها ، أو تكاد تختفي حينما يأخذون في معالجة المصادر الأوروبية المسيحية [2] فيركزّون في نقدهم على اللغة والعقائد والعصبية والمساواة [3] .

سواء ما تعلّق بعملية نشر المسيحية بين القبائل الأفريقية التي شكّلت أحد الأهداف الأساسية الموسومة للكشوفات الجغرافية على الشواطئ الأطلنطية [4] خلال القرن 16 م و ما تلاه ، أو ما تعلق بتجارة الرقيق الذي جلب الخير لأوروبا أو تحريمه فيما بعد لجلبه الكساد الاقتصادي [5] .

أكثر من ذلك نجد أعلام الدراسات الافريقية (ريموند موني) يؤاخذ المصادر العربية اللأرومتوسطية بسبب تجاهلها لمنطقة السفانا والقبائل الأفريقية المنتشرة بها مثل البوشمن و البيكمي ، وربما ذلك راجع لعدم التمكن من اللهجات المحلية الكثيرة ، وأحيانا لتحامل مقصود[6].

لذلك وجب على المترجمين الفطنة ، وعدم أخذها أمورا مسلما بها، وتنبيه الباحثين في الهامش لمثلها ، فتخابث بعض الباحثين لا يقتصر على المؤرخين فقط ، بل كثيرا ما يندمج في سياق الأدب وعلم الأجتماع إذا لمسوا فيه نقصا في المعرفة ، وضعفا في دقة الملاحظة [7] ،

---

1. أحمد الشكري: الذاكرة الإفريقية،المرجع السابق ، ص 49.
2. ج ، ن ، أوزيويغوي :المرجع السابق ، ص ص 51،50،49.
3. ضيف الله محمد الأخضر:المرجع السابق ، ص 138 .
4. مرتضى سعدالدين الأمين : الصراع بين الأسلام والنصرانية في سيراليون، المرجع السابق ، ص34 ، رزق مرقص رزق : ،المرجع السابق ، ص88، 89.سلا محمد فودي : المرجع السابق ، ص 08.
5. شوقي الجمل عطا الله، عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: مرجع سابق ،ص 33-34.
6. محمود مفلح البكر:المرجع السابق ،ص 66.
7. ماجدة كريمي :المرجع السابق ،ص 189.

ويتطلب الأمر العمل الميداني و العيش مع الناس و دراسة ثقافاتهم و أساليب عيشهم [1] ، وهما نمطان متداخلان ومتزامنان ظهرا خلال مراحل كتابة التاريخ الأفريقي [2] .

وهذا ما يقودنا إلى البحث والتعمق في دوافع وخلفيات شخصية كل باحث متخصص.

بيد أنه لا يفعل نفس الشيء مع المصادر السودانية القريبة من المنطقة أو مع الكتابات الأوروبية التي تعرفت فعلا خلال الكشوفات الجغرافية على ما يوجد وراء خط الاستواء قبل منتصف القرن 16 م ، علما أن حقل الجغرافية العربية إلى غاية مطلع القرن 16 م، لم يتبين خط الاستواء إلا بشكل نظري ، وكان بالتالي عاجزا عن مراكمة معرفة علمية عن المنطقة [3].

بل إن الذاتية في نقد الآخر انتقلت من الاختلاف الديني المسيحي والمسلمين إلى الاختلاف إلى داخل المدرسة الأوروبية ذاتها ، التي أولت اهتماما بالحقل الإفريقي وتحتدم الذاتية عندما يتعلق الأمر بالمدرسة الفرنسية مقابل الإنجليزية أو الألمانية والأيبيرية [4].

فنجد الألماني ديرك لانجي[5] أثناء أثناء تحقيقه ل: ديوان سلاطين كانم-برنو يضمن نزعة التفوق الألمانية، و ذات الملاحظة كسجلها عند الباحث الإنجليزي: أ- ج- هوبكز[6] في كتابه التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية.

3- أهمية المصادر الأوروبية في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء:

بدأت المصادر التاريخية الأوروبية منذ مطلع القرن الخامس عشر (15 م) تأخذ حيزا مهما ضمن تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء نتيجة التغييرات طرأت على أوروبا بعد تراجع الحضارة الإسلامية انطلاقا من سقوط بغداد عام 1255 م وصولا إلى سقوط الأندلس عام 1492 م و بروز بوادر النهضة الأوروبية الحديثة و ما أفرزته من تطلعات جدية لتجاوز

---

[1]. وداد نصر محمد السيد الطوخي :المرجع السابق ،ص 142.

[2]. نادية محمود مصطفى: المرجع السابق ، ص23-28.

[3]. أحمد الشكري: الذاكرة الإفريقية، مرجع سابق ص 05.

[4]. عبدالرحمان أحمد عثمان : المرجع السابق ،ص ص94،95

[5] . Dierk (L.), 1977, Le Diwane des sultans du (kanem.) Bornu: Chronologie et histoire d'un voyaume africain (de la fin du Xe siécle jusqu'à 1808), Franz Steiner Verlag GMBH, Wiesbaden, P. 78, 103, 114 et 122.

[6] . أ- ج- هوبكز: التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية: مرجع سابق ، ص166.

الوساطة التجارية العربية فيما بين أوروبا و الشرق الأقصى من خلال عملية الكشوفات الجغرافية ونرى مثل الكثير من الدارسين، أن البوصلة والسفينة الشراعية (الكرافيل) و السلاح الناري، شكلت أهم الأدوات الأساسية التي ساعدت أوروبا في تفوقها التقني و الحضاري و بالتالي في نجاح عملية الكشوفات التي قادتها البرتغال و إسبانيا، وحينما تم اكتشاف الطباعة

في منتصف القرن 15 م وأخصبت فائدتها الحقل الثقافي ازداد التفوق الأوروبي رسوخا و تمكنا.

و ما كاد القرن العاشر(10م) ينتهي، حتى كانت الكثير من مناطق العالم المجهولة و المعلومة في متناول الأوروبيين (بفضل الكرافيل) و دون الحاجة إلى وساطات إسلامية أو غيرها، سواء كانت فكرية أو عملية، إلا في القليل النادر و ترتب عن هذا الإنسياح البشري أن تكاثفت اتصالات الأوروبيين بشعوب مختلفة خاصة منها شعوب و قبائل إفريقيا الغربية المتمركزة على السواحل الأطلسية [1].

و كانت أوروبا بحاجة إلى معرفة كل شيء عن قبائل منطقة إفريقيا جنوب الصحراء، و لم يكن في البداية التراث جزءا من اهتماماتهم ، بل العبيد كيد عاملة والخشب لإجراء اصلاحات على السفن التي أصابها عطب وكذلك مرشدين يتم الاستعانة بهم على الموانئ و الأنهار و المسالك ، فكان الجشع المادي هو السمة البارزة[2].

في مرحلة ثانية و بعد الكشف عن مميّزات جديدة لتجارة(أوروبا و الهند) عبر رأس الرجاء الصالح ، جاء دور الأوروبيين في التنقيب عن التراث المادي و اللامادي لإفريقيا جنوب الصحراء [3].

ومند منتصف القرن 15 م أخذت مجموعة من الكتابات الإيبيرية، مما خلفه رواد الكشوفات الجغرافية و من ساعد على هديهم، ثم تلتها خلال القرون الثلاثة الموالية كتابات

[1]. أحمد الشكري: الذاكرة الإفريقية، مرجع سابق ص 55.
[2]. جون أليف : المرجع السابق ،ص 225، 226.
[3]. محمد مسعود جبران : المرجع السابق ، ص 154.

هولندية و إنجليزية و فرنسية ودانماركية و ألمانية .

و مجمل هذه الكتابات عبارة عن تقارير ويوميات، أو مذكرات خلفها ربان السفن الملاحية من المستكشفين أو غيرهم من المرافقين المنشغلين بأمر التجارة، أو بأمر التبشير المسيحية بين الأهالي الأفارقة (قساوسة و رهبان)، و إلى جانب هؤلاء يمكن أن نستحضر أيضا كتابات المغامرين المهووسين بالرحلة، أو المتطلعين للإستزادة المعرفية حول إفريقيا إن جغرافيا أو بشريا أو أدبيا (المذكرات و السيرة الذاتية) [1].

و منذ القرن السادس عشر و حتى القرن التاسع عشر أصبحت المصادر الأوروبية غاية في الأهمية بالنسبة للتراث المادي و اللامادي لتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء ، فقد عثر الرحالة و المستكشفون و عناصر البعثات الدينية و التجارية على كنوز لا تحصى من الذخائر المتنوعة بعضها وقع في يد أمينة مثل المخطوطات التي نشرها الأوروبيون أنفسهم مثل كتاب تاريخ السودان للسعدي و تاريخ الفتاش، فكان الكشف عن هذه المصادر مصدر في حد ذاته [2].

كما عوضت المصادر الأوروبية نظيرتها العربية و الإسلامية بفعل حالة التدهور الذي وصل إليه العالم الإسلامي في هذه الفترة بما يعرف بعصر الرجل المريض الذي تمثله الإمبراطورية العثمانية [3] ، و ما يجب تجاه هذه المصادر هو الإحاطة بالمعلومات التي جاءت بها و العمل على تقييمها بأكملها [4].

و تكمن أهمية المصادر الأوروبية في أنها كانت نقل مباشر لمشاهدات ميدانية سماعا أو قراءة مباشرة من المنطقة على الرغم من الرواتب التي كان يحمل الأوروبي التي تعود إلى الحروب الصليبية أو إلى نظرة اليد الأوروبي إلى العبيد السود[5].

1. أحمد الشكري: الذاكرة الإفريقية، مرجع سابق ص 56.

2. أحمد محمد كاني :المرجع السابق ،ص183،184.

3. نادية محمود مصطفى:المرجع السابق ، ص ص 196، 197.

4. ناصر الدين سعيدوني: المدرسة التاريخية الأوروبية في القرن 16 م، مجلة دراسات إنسانية، كلية العلوم الإنسانية ، جامعة الجزائر العدد 01، ص 32-56.

5. Ekanza(Simon-Pierre), Les Sources européennes de L’histoire de L’Afrique Noire du XVe au XIXe siècle, Quelle méthodologie؟ in WWW. histoire de L’Afrique.Org/artcle13.html.P. 1-5.le 22-07 2015.

و الدارس لتطور العلاقات الأوروبية غير الرسمية ينتبه إلى أن التوغل الأوروبي في إفريقيا جنوب الصحراء، أخذ وقت طويل، وصل إلى عدة قرون و تميز بالمرحلية نظرا لفقدان الثقة بين الطرفين فكان العامل التجاري أول خطوة في القرن 16 و 17 م عندما ترسوا السفينة بعيدا عن الساحل على أن يقدم الأفارقة السلع المطلوبة (الرقيق، الخشب، الجلود، العاج، الفواكه الإستوائية خاصة زيت النخيل...) [1]. فكانلا توقف السفينة مرتبط بوقت لا يزيد عن الشهر، ثم في مرحلة ثانية في القرن 18 م بدأت أوروبا في بناء القلاع على الساحل الأطلسي.

و بعد ذلك خلال القرن 19 م دخلت البعثات الأوروبية بكل أهدافها إلى عمق المجال الإفريقي ليمهّدوا طريق الاستعمار الأوروبي في القرن 19 م وخلال إقامة البعثات الأوروبية كأفراد أو مجموعات.

لم يكن هؤلاء ليخالطوا الناس إلا بهدف محدد مثل مرافقة الأهالي لمعرفة المسالك النهرية أو حضور مراسيم رسمية أو اجتماعية أو مشاهدة المناطق البرية و ما تحتوي من موارد اقتصادية. و مع كل مرحلة من هذه المراحل كانت المصادر التاريخية الأوروبية محددة المكان و الزمان و المحتوى فقبل القرن السادس عشر كانت تصف المناطق الساحلية فيما يعرف بالتجارة الصامتة القائمة على التبادل و بالتالي لا يمكن اعتبارها مصدرا للدراسات الإفريقية [2]. إلى أن تطوّرت في القرن التاسع عشر مع الرحالة الأوروبيين.

4- نقد مصدر المصادر الأوروبية:

كل من إطّلع على النصوص الأوروبية المعنية ، يكتشف أن أصل جل هذه النصوص و المعلومات الواردة بها ، إنما مصدرها رواية شفوية إفريقية أخذها المؤلفون الأوروبيون عن رواة أفارقة (القوالون) ، أو وسطاء أفارقة ممن يشتغلون بالتجارة مع الأوروبيون و الذين غالبا ما يشار إليهم في الكتابات الأوروبية وتقارير أرباب السفن الملاحية ب: اللانسادوس (Lançados) وإذ نسجل هذه الملاحظة علينا أن نلتفت لقضية أساسية في الأمر، مفادها أن أولئك المؤلفين الأوروبيين أخضعوا تلك الروايات الشفوية لمقتضيات التدوين الجارية في الثقافة

---

1. خالد أوشن: "النشاط الاقتصادي في النيجر الأعلى من سنة 1230 إلى سنة 1591 م، أطروحة لنيل الدكتوراه (النظام الجديد) في التاريخ، جامعة محمد الخامس، أكدال، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية 2000 -2001، (مرقونة)، ص 28-36، 478، 490.
2. محمود بن محمذن: المجتمع البيضائي، مرجع سابق، ص 91 -96.

الأوروبية [1].

وما يلفت النظر بهذا الشأن ، أن ثلاثة أرباع المؤلفين الأوروبيين الين خلفوا لنا تلك الشهادات عن سواحل إفريقيا، لم يكونوا من محترفي الكتابة، أو من المفكرين المتنورين حقا، كانت لهم تجربة أو دراية واسعة بتقنيات الملاحة ، لكنهم لم يكونوا في جلهم من منتجي الفكر والثقافة.

علاوة على ما تقدم يظهر أن الكثير من مذكرات رؤساء السفن تم تدوينها بعد عدة سنوات من زمن الرحلة، و ذلك على غرار ظروف انتاج رحلة ابن بطوطة[(2)]

وغيره من من أصحاب مصادرنا العربية، و قد يصل التأخر في بعض الأحيان إلى عدة سنوات و ربما يبلغ أربعة عقود أو نصف قرن من الزمان، و في هذا العامل ما يؤثر سلبا على المعطيات التاريخية الموثقة بل إنه يفقدها مصداقيتها.

و في ذات السياق نسجل تلك المذكرات كتب بقصد اغراء المساهمين في تمويل و تجهيز السفن، و كانت الحيلة المعتمدة لهذا الغرض، تستند على فكرة المبالغة في تضخيم نسبة الأرباح التي يمكن جنيها[3].

5- مدى تنظيم الأنا في كتابات الرحالة الأوروبيين:

لقد ظلت جُل الكتابات الأوروبية عن إفريقيا مهوسة بالزعامة الدونية تجاه شعوب و قبائل إفريقيا، من ثمة كبُر لديها شعور بالتفوق الحضاري و تضخيم عندها الاحساس بضرورة نشر المسيحية بين الأهالي الأفارقة، بغاية تحقيق طفرة حضارية أو تمدينية لدى هؤلاء الكفار أو الوثنيين [4].

و على الرغم من التطورات الهائلة التي جرت في أوروبا و مسّت جل مناحي حياة الإنسان فيما بين عصر النهضة و عصر الأنوار (15-18 م).

---

[1]. Boulègue(J.). 1987, Le Grand Jolof (XIII-XVLe siècle), Paris, éd. Façades diffusion Karthala, P. 116 -117.

[2]. أحمد الشكري: مقاربة تقييمية لدور الصحراء في علاقات بلاد المغرب ببلاد السودان خلال العصر الوسيط، مجلة المناهل ،عدد خاص عن الصحراء، رقم 58، 1998، ص 64-66.

[3]. أحمد الشكري: الذاكرة الإفريقية، مرجع سابق ص 64.

[4]. مهدي ساتي : المرجع السابق ،ص93-94.

و نسجّل أن بعض الباحثين اليوم و ينزعج إذا ما أُلحق نعت "المسيحي" بعبارة «المصادر الأوروبية»، إذ لا يصحّ في نظرهم تداول عبارة المصادر الأوروبيّة المسيحيّة[1].

إن استحضار الظروف الجافة بإنتاج الشهادات الأوروبية و ما انجر عن ذلك من علامات مخصوصة و مميزة، يسعفنا في فهمها و تفهّم الخلفيات المتحكمة في انتاجها من ثمة فإن عددا من الاصلاحات التي تداولتها في وصف الشعوب و القبائل الإفريقية من قبيل نعتها لتلك الشعوب و وصفها بأنها متوحّشة أو وثنية أو شعوبا "خاملة" إنما تدل على مدى تضخيم الأنا الأوروبية مما تدل على واقع القبائل والشّعوب السّودانية[2].

و يبدو أن الأوروبي كان يزهوا بالنهضة التي شهدتها أوربا منذ القرن 16 م فكان يرى نفسه مخلّص الشعوب من الوهن و يرى أن قوته تمكنه من أن يخدم الإفريقي أوربا و يبقى له الاستئثار بكل شيء[3].

6- هل كتابات الرحالة الأوروبيين امتداد أم انقطاع لكتابات العرب والمسلمين ؟

و إذا اعتبرنا المصادر الأوروبية المسيحية (15-18 م) امتداد للمصادر العربية (8-15 م) على المستوى الزمني ، فما هو المؤتلف والمختلف فيما بينهما؟

يبدو من خلال المصادر المتنوعة أنهما يلتقيان و يتقطعان في عدد غير قليل من محطات اهتماماتهما و انشغالاتهما بالواقع السوداني و يظهر ذلك جليا في عنايتهما المشتركة ببعض الظواهر المحلية إن على المستوى الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي أو التجاري[4] فقد اهتم أصحاب هذه المذكرات من ربابنة السفن و غيرهم من الملاّحين المرافقين بقضايا سبقت العناية بها من لدن أصحاب مصادرنا العربية، مثل إشارتهم لعدل حكام السودان، أو تشديدهم على انعدام العملة في بلاد السودان وما يترتب عن ذلك من ضرورة المتاجرة الصامتة[5] التي تطوّرت فيما بعد إلى نظام المقايضة السلعية و بالنسبة للجانب الاجتماعي فقد لفت اهتمامهما معا، أهمية موقع المرأة في نظام المجتمع السوداني، و ما يحتّمه من تبعات سياسية و اجتماعية. تقلّدها لأعلى منصب في حكم الإمارة و الدولة أو احتكار ابن الأخت لولاية العهد و على المستوى

---

1. أحمد الشكري: نفس المرجع ص 65.
2. أحمد الشكري :المرجع السابق ،ص 66.
3. ريتشارد سوذرن: صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة و تقديم: رضوان السيد، بيروت معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى، 1984، ص 24.
4. أحمد الشكري: الذاكرة الإفريقية، المرجع السابق ،ص 67.
5. عبد العزيز العلوي:المرجع السابق ،ص 642.

التجاري، اهتم أصحاب مصادرنا العرب بالمسالك التجارية و العناصر المحفّزة للمتطلع إلى الإفادة منها، بينما ركّز أصحاب مصادرنا من الأوروبيين على تجارة الرقيق و أنه يوجد مقايضة العبيد بالخيول[1].

7- مصادر الاسناد في الرواية الأوروبية:

لاشك أن مصطلح الاسناد ارتبط بالتاريخ الإسلامي، و بالذات مع الحديث النبوي الشريف و مع هذا العمل تطور التوثيق حتى أصبح الاسناد جزءا من التاريخ يخدمه كما يخدم باقي العلوم الإسلامية، و المطلع على بعض المصادر الأوروبية يلاحظ أن بعضها عبارة عن مشاهدات يومية.

فالأوروبيين منذ بداية اتصالاتهم بالعالم الإفريقي خلال الواجهة الأطلسية كانوا لأسباب مختلفة(ثقافية وتجارية واجتماعية) مهوسين ومنشغلين بتوثيق ما بدا لهم من أمورفي علاقاتهم مع الأفارقة ، و نفس الاهتمام أبدوه في علاقاتهم بالهنود الحمر بأمريكا ، ذلك أن جل تلك السفن التجارية ، كانت تمتلك سجلات تزمم و تدون بها مسار العمليات التجارية ، مما يتيح التعرف على كمية المواد المتبادلة في التجارة. ونوعيتها و ثمنها و توقيت إجراء المعاملة ، إلى غير ذلك من الملومات المرافقة أو المغذية للموضوع مما له علاقة بالجانب السياسي أو الثقافي أو الاجتماعي[2].

و لم يكن هذا مرتبط بالبحر بل انتقل ذلك الأمر إلى كل ما ينتقل من مكان إقامته في أوروبا فنجد ذلك تقليد عدّ من مظاهر التحضر* فأوجدت المدرسة الأوروبية الحديثة فكرة تدوين النزهات لدى أطفال المدارس ، و دور الأيتام و البعثات الصحية ، و تزداد قداسة كلما تعلّق

[1]. Boulègue(J.). 1987, Le Grand Jolof. Op.cit..P. 83-86. P. 78-218 -
- محمود بن محمذن: المجتمع البيضائي، مرجع سابق، ص 146-156.
- شوقي الجمل:المرجع السابق ، ص 34-42.

[2]. أحمد الشكري: الذاكرة الإفريقية، مرجع سابق ص 70.

*. إذ على الرغم من التطور الثقافي الذي عرفته مجتمعات البلاد السودانية الإسلامية، فإنها لم تتخلص تبعات سيادة سلطة الثقافة الشفاهية خلال العصر الوسيط، ثم ازداد الأمر فداحة مع بداية الانهيار الحضاري الذي شهدته المنطقة بعد نهاية القرن 16 م، في المقابل نجدعلى الضفة الأخرى من البحر المتوسط، أن كثيرا من المجتمعات الأوروبية تمكنت من تحقيق قطيعة مع نمط الثقافة الشفاهية، و انتقلت تدريجيا لعوالم ثقافة التدوين و ما يرتبط بها من انتشار المعرفة عبر القراءة بين فئات واسعة، مستعينة بالخدمات الجليلة التي قدّمها اكتشاف الطباعة منتصف القرن 15 م.

الأمر بنشاط ذات بعد مسيحي ، حيث تسجل اليوميات الرحلة بكل التفاصيل المتاحة[1].

و الحقيقة أن الاسنادظ الصحيح يقوي من أهمية الرواية ، و لكن في مثال الرواية الأوروبية لابد لها من تحقيق ثاني في التفاصيل و المقارنة و هذا عمل بذاته محور لا يتبع المجال المنهجي دراسة كهذه إلا من زاوية واحدة هي طبيعة من قاموا بالرحلة من أوروبا إلى إفريقيا جنوب الصحراء.

فهم في الغالب إما أصحاب سفن مدفوعين بتغطية مالية ، أو مغامرين مهوسين بجمع الثروة ، يحملون بروايات تواترت إليهم عن مناطق جديدة مليئة بالكنوز[2] . و في الحالة الثالثة مبعوثين من جهات رسمية لها سند مادي يشجّع على الوصول إلى المناطق البعيدة ، أو غير رسميين مدفوعين بحب الاطلاع أو الرغبة الدينية التي يكون أساسها التضحية من أجل نشر الديني المسيحي ، و هذه الفئات تختلف تماما عن فئة الرحالة العرب و المسلمين التي ذكرناها في نقد مصادر الرحلة العربية و الإسلامية.

و إذا كنا في نقد مصادر الاسناد في الرواية العربية و الإسلامية قد سجلنا أن مستوى الرحالة العربية و الإسلامية من الناحية العلمية أرفع فإن مصادر الاسناد الأوروبية تتقاطع مع المصادر الإسلامية إلا إذا استثنينا المستكشفون.حيث نلاحظ أن الكثير من المشاركين في التجارة

---

[1]. عبد المجيد القدوري: المغرب و أوروبا ما بين 15 -18 م (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،2000، ص ص 65-75. -هاشم العلوي القاسمي: أصول الروابط التاريخية بين المغرب و بلاد إفريقيا، مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية، فاس، عدد خاص، 1989. ص 123.

[2]. جاري ب. ناش: الحمر و البيض و السود، تاريخ الصراع العنصري في أمريكا، ترجمة: مصطفى أبو الخير عبد الرزاق:، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995. ص 119.

الأوروبية الإفريقية لم يكونوا من أرباب القلم أو من محترفي الثقافة و الكتابة* ، غير أنهم مع ذلك تركوا لنا كتابات تتضمن معلومات غاية في الأهمية عن قبائل و مجتمعات منطقة إفريقيا

جنوب الصحراء ، بالرغم من كل النقد الذي وجهه الباحثون [1] للأوربيين الذي لم يتخلصوا من الخلفيات [2] و الأفكار[3] المسبقة ، في نقل و تحليل مواد التراث الإسلامي ، حيث إرتبطت الذهنية "الأتنوغرافية " [4] بهم خلال كتابة التاريخ الأفريقي [5] .

*. تقول المصادر التاريخية أن بدايات الأوروبيين الذين نزلوا في السواحل الأطلسية بغاية توطينها في الحصون والقلاع، التي أنشئت على الشواطئ الإفريقية، كانت في جلّها من الفئات المهمشة في المجتمع الأوروبي، مثل المستكشفين و السجناء و المجرمين، و هناك عناصر قليلة من المتنورين و كبار التجار و غيرهم من المنتمين للفئات النافذة سياسيا و اجتماعيا، ممن ساقتهم الظروف لزيارة سواحل إفريقيا، و تفيدنا إحدى الروايات المصدرية أن أول أمير أوروبي زار السواحل الأطلسية كان عام 1652 م.

–انظر –محمود بن محمذن: المجتمع البيضاني، المرجع السابق.

– أ- ج- هوبكسن: التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، المرجع السابق، ص53 –خالد الشكراوي: الإسلام و السلطة في السودان الغربي في القرن 19 م، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، تخصص تاريخ، جامعة محمد الخامس، أكدال، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، 2001 -2002 ، 213.

[1]. بيير جوردا:المرجع السابق ، ص 29.

[2] . Max,Marchand :op-cit . P 12

- يراجع أيضا للتوسع :- عميراوي أحميدة:ص (151 . 173).

[3] . محمد محمود محمدين: المرجع السابق، ص 294

[4] . محمد حسين فهيم:المرجع السابق، ص50.

[5] . نادية محمود مصطفى:المرجع السابق، ص23-28.

خاتمة الفصل:

إن من أهم الإشكاليات التي يطرحها نقل الدراسات الإفريقية، يرتبط أساسا بمصادر الرحلة[1] و التي في الغالب عبارة عن نقل المشاهدات برواية محلية أو عربية أو أوروبية.

فهذه المواد المصدرية المتعلقة بتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء إلى نهاية القرن 18م تعاني من نقص في العناصر الاخبارية التي تطرحها ذلك أن محصلتها لا تطرح من المعلومات ما يساعدنا على حجب الظلال الكثيفة المحيطة بتاريخ المنطقة.

و إذا اقتصرنا على الفترة المتراوحة ما بين القرنيين 8 و 18 للميلاد، يمكننا تصنيف المواد المصدرية إلى قسمين أساسيين: محلية و أجنبية، و المحلية منها تشمل بجانب الرواية الشفوية و الآثار المادية الصامتة، كل ما أنتجه و دوّنه السودان بغاية التصنيف التاريخي جزئيا أو كليا، عفوا أو قصدا، فيما يندرج تحت عنوان المصادر الأجنبية، كل ما خلّفه العرب و الأوروبيون من كتابات ذات الصلة بتاريخ إفريقيا.

و حين النظر إلى الوعاء المصدري في سياق التصنيف المنوه به، يمكننا القول دون أن نخشى خطأ فادحا في التقدير، إن المواد المصدرية الأجنبية تتفوق من حيث الكمية و الاعتبارية على المصادر المحلية، على الأقل في صيغتها المدوّنة[*] ولعل في هذه الحالة النادرة و المربكة، ما يبرر إلى حدّ بعيد، ذلك الجموح الجارف للدارسين و المختصين في عملية البحث و التقصي عن المصادر المتعلقة بمجال دراستنا (إفريقيا جنوب الصحراء)، سواء كانت محلية أو تلك التي كتبت في مناطق مختلفة من العالم، وتضمّنت إشارات تاريخية حول الأرض و الإنسان و السودانيين[2] .

استنادا إلى الدراسات الأكاديمية لتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء نجد أن مصادر تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء ترتب على النحو الأتي:

---

[1]-عبد العزيز العلوي:المرجع السابق ،ص 15 -43.

[*] –إن الجرد البيبلوغرافي لمصادر تاريخ أفريقيا جنوب السودان يوضح بصورة جلية أن المصادر المحلية قليلة مقارنة مع المصادر الأجنبية. للمزيد انظر: - Mauny(R), 1967, Tableau géographique de L'ouest africain au Moyen Age, d'après les sources écrites, la tradition et L'archéologie, Amsterdam, 2 éd. Mémoires de L'IFAN, n^0 61, P. 21-188, Cuoq(J.), 1985, Recueil des sources arabes concemant l'Afrique

[2]- أحمد الشكري:مرجع سابق، ص 40.

5. المصادر العربية.
6. المصادر الأوروبية
7. المصادر السودانية المدونة
8. الرواية الشفوية.
9. الأعمال الأركيولوجية و تستند في أساسه بالمعيار الزمني أو التواتر الزمني ذلك أنه منذ القرن الثاني للهجري و إلى نهاية القرن التاسع (8-15 م) احتكرت المصادر العربية جل و أهم معلوماتنا عن المنطقة، و فيما قفزت المصادر الأوروبية للصدارة على امتداد القرن الهجري العاشر (16 م)، و زادت قوة احتكارها لها مع توالي العقود و القرون، أخذت المصادر السودانية تفرض نفسها تدريجيا حتى اشتد عودها خلال القرن 11ه/17 م.

والدراسة المقارنة يقصد بها النصوص والوثائق لدى صنفين من الرحالة أو بين رحالتين أو أكثر، فبعد أن يقوم الباحث بجمع الأحداث التاريخية والوثائق عن إقليم معين، وكذلك محاولة تفسيرها في ضوء التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتاريخي لهذا الإقليم ، يقوم بنفس الخطوة بالنسبة للبلد الثاني بالدراسة ، وبهذا يتوفر شقي المقارنة، ومن ثم يقوم بعملية مقابلة بين ما تجمع لديه من معلومات تراثية مفسرة عن البلدين .

تساعد الدراسة المقارنة الباحث على فهم النظم التراثية وفروعها المتعددة وذلك في ضوء القوى الثقافية المؤثرة فيها ، ولا شك أن دراسة التراث على هذا النحو والتعرف على كنوزه يؤدي إلى توسيع نظرة الدارس إلى المجال التاريخي بوجه عام، وزيادة مقدرته على فهم التطور التاريخي، ويربّي فيه روح النقد البناء ، مما قد يدفعه إلى تقديم المقترحات الصحيحة للدراسات التاريخية.

للدراسة المقارنة شأنها شأن بقية العلوم أدواتها التي تميزها عن سائر العلوم ، ومن الضروري لدارس المقارنة أن يتعرف على هذه الأدوات لكي تعينه على إجراء دراساته وأبحاثه فهي :

4- تمكن الباحث من جمع المادة التاريخية الكافية عن المنطقة أو المجتمع الذي يحاول دراسة تراثه المادي واللامادي.

5- البحث العميق في أسباب ودوافع وظروف الرحلة بالنسبة لمن كتبوا عن التراث.

6- الحرص الدائم والإصرار على طرح كل اثر للتحيز الثقافي، أو الشخصي الذي قد يظهر لدى الرحالة، وما يقود الباحث في النهاية لمعرفة الصبغة الشخصية للتركيز على جانب معين كأن يركز ابن بطوطة على الغرائب، وليون الإفريقي على العادات السيئة للمجتمع الأسود - مثلا-

ومن الواضح أن دارس المقارنة لا يمكنه أن يلم بجميع ما كتب عن التراث، وهو بذلك يحتاج إلى أن يتعرف على أكبر قدر ممكن ما يمكن الحصول عليه من المصادر والمراجع.

وللمقارنة خطوات أولها الوصف وثانيها التفسير وثالثها المقابلة ورابعها المقارنة ويجد الباحث نفسه وقع في صعوبة تطبيق هذا النموذج في القيام بتحليل شامل بالنسبة لمؤرخين أو أكثر.

تعتبر الرحلات وكتابات الرحالة مصدر مهم من مصادر دراسة التاريخ ، وهو جزء لا يتجزأ من علم الجغرافيا .

لقد تتعدّد مصادر المعلومات عن الإسلام و المسلمين[1] من حيث المكان و الزمان و أشغال الأوعية، و نوعية الاهتمام، و مميزات التراث الإسلامي كثرة المخطوطات التي خلّفها المسلمون وراءهم و إحتاج هذا الوعاء التقليدي من أوعية المعلومات إلى عناية خاصة من حيث مادته الورقية و محتواها و كانت عناية المسلمين بهذا الوعاء المهم عناية فائقة في الوقت الذي كان فيه الوعاء الأوحد لنقل المعلومات.

و مع الإنفتاح على العالم و هوان المسلمين في فترة من الفترات حياتهم تعرضوا فيها للحروب و ألاحتلال هاجرت المخطوطات قسرا إلى غير مواطنها الأصلية، ومع هذا استمرت العناية بها لما تحويه من تراث أمة يمكن للأمم الأخرى أن تفيد منه.

و لعل من أبرز المسهمين في خدمة مصادر المعلومات التقليدية- (المخطوطات) - المستشرقين الذين كان لهم أثر بارز في المحافظة على هذه النوعية من مصادر المعلومات الإسلامية بعد نقل كثير من هذه المصادر إلى المكتبات و المتاحف الغربية التي لا تزال تكتنفها.

[1] –انظر حسين محمد فهيم:المرجع السابق ،ص 90 -91.

و قد تعدّدت اهتمامات الرّحالة الأوربيون بالتراث العربي الإسلامي من حيث الحفظ و الدراسة و التحقيق و النشر و الترجمة و الفهرسة و التكشيف ممّا كان له أثر واضح أدى إلى أن تعدّ الرحلة الأوربية مصدرا من مصادر المعلومات عن الإسلام والمسلمين. و لم تخل هذه الجهود من المآخذ التي تعرّض لها الدّارسون العرب والمسلمون عند نقاشهم لاسهمات المستشرقين في خدمة التراث، مما تولّد عنه مدارس في مدى قبول هذه الاسهمات و رفضها.

شهد الشرق على مر العصور التاريخية توافد أعداد كبيرة من الرحالة الأوربيين حاولوا فك طلاسمه و كشف أسراره، لما شكله من غموض و سحر، و مع تعدّد الدراسات التي تناولت الرحالة الأوربيين ، إلا أنها أهملت جوانب مهمة و أساسية لتلك الرحلات، يأتي في مقدمتها تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوربي من خلالها و من جانب آخر، افتقارها للرؤية الشاملة، بسبب صعوبة الإحاطة و الاطلاع على تلك الرحلات كافة و تداخلها خلال المراحل التاريخية المتعدّدة[1]، و من هنا اكتسبت القارة الأفريقية الأهمية في الكشف الجغرافي.

فنجد أن الرحّالة الأوربيين قد أصدروا أحكاما تتوافق و رؤاهم الفكرية والعلمية و معتقداتهم الدينية: "حيث امتزجت المرئيات المحسوسة بالانطباعات الشخصية الوجدانية، و الوصف الدقيق لليوميات مع الطريق و أحوال السفر [2].

فالرحالة و المستكشفين الأوروبيين تتجاذبه حقول متعدّدة كالتاريخ و الاجتماع والأنثروبولوجيا و القصة و السيرة و المذكرات إلى جانب اخلاصها لتقاليد الكتابة والتأليف و الافتتاح و الاختتام[3].

و الباحث في تاريخ التراث الإفريقي يسجل دور الرحالة و الأوروبيين في اقتحام المخاطر و تمكنوا من الحصول على المخطوطات العربية و إسلامية ففتحوا نوافذ جديدة و فعالة في فهم التراث و تفعيله في الحياة المعاصرة ذلك أن"كل تراث لا يؤكد استمراريته في حركية التاريخ لا يعتبر أصيلا[4].

و لا يمكن الفصل بين مخطوطة و أخرى و لا زمان الرحلة و مكانها إلا نظريا، لأن

---

[1]- حيدر جاسم الرويعي: المرجع السابق ،ص74.
[2] – محمد راداوي: المرجع السابق ،ص 19-20.
[3] – كمال عبد اللطيف: المرجع السابق ،ص 147.
[4] –مصطفى رمضاني: المرجع السابق ،ص 79.

المكان يمتلك زمنه بالضرورة، و يتحرك كاتب الرحلة للتنقل من مكان إلى آخر عبر الاسترجاع الذي تمارسه الذاكرة...[1].

لقد وضع الرحالة الأوروبيون و الباحثين عن تراث أفريقيا جنوب الصحراء عتبات معرفية مثل ادعائهم بالدور السلبي للإسلام على المنطقة، و أن تاريخ إفريقيا لم يكن قبل وصول الأوروبيين و كذا تجارة الرقيق و غيرها.

على أن هذه الصورة لا تجعلنا نقع في استرخاص الأعمال المنجزة من لدن الكثير من موظفي الإدارة الاستعمارية باعتبارها أعمال ذات سبغة استعمارية فالكثير مما أنجزه ريشموند بالمر (H-e- Palmer)،و هنري كادن(H-Gaden) و بون مارتي(P-Marty)، و أوكتاف هوداس (O-Houdas)، و شارل مونتاي(CH-Monteil)، و موريس دولافوس(M-Delafosse)، و غيرهم من رجالات الإدارة الاستعمارية و دهاقنتها، يتمتّع بقيمة علميّة معتبرة، و إن في مجال تحقيق و إخراج و ترجمة النّصوص العربية المحليّة، أو في مجال توثيقهم للكثير من متون الرواية الشّفويّة الإفريقية.

و كانت نتائج هذه الاستكشافات تفوق كثيرا مجرد النتائج العلميّة، رغم أن هذا التّعبير يشتمل علاوة على الاستكشافات الجغرافية على كل المعلومات التفصيلية التي دونها المستكشفون في يوميّاتهم، و التي تتعلّق بحالة الأهالي وعاداتهم و معتقداتهم إذ أنها ستعمل على **"فتح إفريقية"** و سيكون لها نتائج اقتصادية و سياسيّة في غاية الأهمية.

و نرى أن المستكشفون كانوا يربطون بين التجارة و بين المسيحية كعاملين لإدخال الحضارة في إفريقية. و كان الهدف الأول هو إقامة مراكز تجارية في داخل القارة، ودراسة وسائل التنمية و الاستغلال التجاريين و أخذ المستكشفون يتحدّثون عن الامكانيات الاقتصادية كالمناطق التي يسيرون عبرها.

لقد دوّن الرحّالة معلومات جمة لا تكاد تحصى حول مجتمعات إفريقيا جنوب الصحراء في بيئاته الجغرافية المتنوعة من واحة مرزوق إلى السينغال و من توات إلى قبائل الأشانتي في الغابات الاستوائية و وصفوا أساليب العيش، و أدوات العمل واللباس و المسكن و الحرف الشعبية و المأكل و المشرب و الطب الشعبي و اهتموا كثيرا بالعادات و التقاليد و المعتقدات

---

[1] . كمال عبد اللطيف: المرجع السابق ،ص 147.

الدينية الرسمية و الشعبية و دونوا كثيرا من نصوص الأدب الشعبي من حكايات و أمثال، و أغان، و أشعار بلفظها العربي بالحرف اللاتيني غالبا، مما يسهل مهمة إعادتها إلى لهجات العربية الأصلية، و هناك توجّهات عالمية مواتيّة في هذه الفترة[1].

و لم تكن هذه الدراسات خالصة لوجه العلم، بل تسيطر عليها نزعة توراتية عنصرية استعمارية صليبية .

و من الأمور التي يجب الانتباه إليها أن الرّحالة الأوروبيين، على الرغم من تحليهم بدقة الملاحظة غالبا و تسلح أكثرهم بمناهج البحث و الجمع الميداني، و الخبرة العلمية الواسعة، إلا أنهم وقعوا في أغلاط كثيرة، نتيجة عدم التمكن من اللهجات الإفريقية الكثيرة، أو استخدامهم مصطلحات و تعابير شائعة في بلادهم، لا تخلو من نقص معرفي بالبيئة و المجتمع الصحراوي الإفريقي و أحيانا لتجاهل مقصود.

و كثيرا ما كان الرحالة الأوروبيين يبحثون عن الأمور المدهشة ، والغريبة ، وغير العادية، و يلحّون في طلبها فإن بعض الرواة العرب كانوا حين يلمسون هذه الرغبة عند الأجانب يطلقون لخيالاتهم العنان، و يبدعون الخزعبلات ، و الخوارق التي لا علاقة لتراثنا بها، و يسهمون في ذلك اشباعا لهف الأوروبيين المتعطشين لسماع الغرائب، وهناك أمثلة ملموسة ، فعلى المترجمين التنبّه لهذه الخزعبلات ، وعدم أخذها أمورا مسلما بها ، والتنبيه لمثلها.

لذلك كان من المهم في الدراسات التاريخية، الاهتمام بشهادات و انطباعات الرحالة ، و ملاحظتهم التي يسجّلونها في رحلاتهم للمناطق التي يمرون بها، لما تضمنه هذه الكتابات من فوائد و معلومات تاريخية و اجتماعية و تراثية، فأخذ هذا النوع من التدوين حيزا واضحا في كتابة التاريخ، و خصوصا ما يتعلق بأفريقيا جنوب الصحراء، لأنه مثّل في العهود السابقة عالما خفيا ، على العرب أن يستكشفه ، و يفهم السحر الذي يولده في نفوس الأوروبيون، وكشف النقاب عن المجهول من الطبيعة والبشر، فأسهم العديد منهم بإيجابية في إيجاد قاعدة معلوماتية عن الشعوب الإفريقية.

في وقت قلّ فيه التدوين التاريخي لبعضها بشكل ملحوظ ، و في القرون اللاحقة تحولت جهود بعض الرحّالة إلى مقدمات لفتوح استعمارية ، و ابتعدت عن روح الكشف و العلم ، وعلى

---

[1] -محمود مفلح البكر:المرجع السابق ،ص 78.

الرغم من تعدد واقع الرحالة ، سواء كانت معلنة أم غير معلنة ، فإن هناك مجموعة من الصفات قد اشتركت بها كتاباتهم ، أبرزها دقّة الملاحظة، و الوصف والتقصي في تسجيل المشاهدات ، و الحرص على التمييز بين المشاهدة على أرض الواقع و الرواية نقلا من الغير، و قد تّحولت هذه المواصفات إلى قواعد مهمة وأساسية في منهجية البحث الميداني ، و خصوصا في مجال الدراسات الإثنوغرافية [1].

[1] .فرع من علم الإنسان، يقدّم أوصافا علمية للثقافات المعاصرة، ويشير المصطلح أيضا إلى كل ما هو مكتوب أو مصور أو مسجل يقدّم هذا الوصف، و مادّة الدراسة تتناول جماعة او مجموعات مختلفة أو شعوبا متجاورة ومقارنة أوجه الشبه والاختلاف سلوك هذه الجماعات و يتطلب الأمر العمل الميداني و العيش مع الناس، ودراسة ثقافاتهم و أساليب عيشهم، للمزيد: http//anthro.ahlamontada.net

الخاتمة:

مما سبق دراسته يتضح أن التراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء كان مزدهرا ومتنوعا ، وهي حقيقة تاريخية أكدتها المصادر التاريخية والوقائع التي وردت فيها ، منها مصادر الرحلة والجغرافيا مثل تحفة النظار لابن بطوطة ووصف لإفريقيا لحسن الوزان ،ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري ،أو كتب التراجم والتاريخ العام ، مثل تاريخ السودان للسعدي وتاريخ الفتاش لمحمود كعت التنبكتي ، والعبر لابن خلدون وغيرهم.

لعلّنا لا نبوح بسر إذا قلنا إن أفريقيا جنوب الصحراء لم يجمع تراثها حتى الآن ، بل و لم يشرع في خلق الظروف الكفيلة بتحقيق تلك المهمّة على الوجه الأكمل –و لو على المدى المتوسط- رغم مضي نصف قرن على ميلاد الدولة المركزيّة المستقلّة.

و هكذا فإن الباحث في هذا التاريخ تعترضه عوائق جمّة ، تقتصر في هذا البحث ، المحدود في طموحاته و وسائله ، على ما يتعلّق منها بالمصادر و ما يتعلّق بالمنهج.

وقد أتاح لنا تقصي ميدان التراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء و دراسته دراسة علمية ، معرفة العادات والتقاليد، و المفاهيم السائدة في المجتمع ، و أساليب الحياة في البيئات المختلفة و نوعية أدوات العمل التقليدية و معرفة أنواع النباتات و الأشجار البرية و فوائدها وكيفية الاستفادة من كل نوع و الغاية منه ، و معرفة النباتات و الأشجار الزراعية التقليدية في كل بيئة و تطورها مع الزمن ، و ما أضيف إليها ، ومعرفة أنواع الحيوانات والطيور البرية .

و كذلك معرفة أنواع البيوت التقليدية في البيئات المختلفة و كيفية إنشائها، والمواد المستخدمة في بنائها و مدى مناسبتها للبيئة ، و الحلول العلمية في هندسة البيت للتغلب على الحر و القر و الحشرات ، و الحماية من الأمطار و الرياح و الغبار.

و كذلك معرفة أنواع الأزياء في كل بيئة ، و تسمياتها ، و طرق صناعتها ، ومناسبتها للبيئة ، و المواد الداخلة في تركيبها و ألوانها ، و نوع اللباس في كل فصل

من فصول السنة ، والفروق بين ألبسة العمل و ألبسة الظهور الاجتماعي اليومي في المناسبات.

وكذلك أنواع الأطعمة و الأشربة التقليدية، و ما يتعلق بها من أقوال و أمثال، ومعارف ، وأنواع الطب الشعبي البشري، والبيطري، وأساليبه، والمواد الداخلة فيه وكيفية الحصول عليها، وأعدادها وموسم تنقلها شهري، أو فصلي، أو سنوي[1].

و تشكل المرويات الشفاهية ، والمقتنيات المادية، مادة هامة في دراسة تاريخ منطقة أفريقيا جنوب الصحراء ففي كثير من الأحيان قادرة على ترميم العديد من الثغرات الناقصة في الروايات التاريخية المكتوبة ، وربما تزيد على ذلك فتصوب بعض الروايات المغلوطة أو غير الدقيقة، وتوضح ما غمض و تجيب على أسئلة مستدركة لا جواب عليها في التاريخ المكتوب ، وهذا ما يجعل المادة التراثية ذات قيمة تاريخية، لا غنى عنها في البحث التاريخي الجاد الساعي إلى الكمال .

أما الجوانب الأدبية من التراث كالحكايات ، والأمثال والسير والأغاني ، والألغاز...وغيرها، فتشكل رصيدا لغويا و معرفيا و فنيا يمكن أن تستفيد منه المعاجم الحديثة و تطور به المعاجم القديمة، بملاحظة استخدامات الألفاظ القديمة وما فيها من اشتقاقات و الإفادة منها في اشتقاقات جديدة تساهم في تطور اللغة[2] .

فينظر البعض إلى التراث على أنه البوتقة التي تنصهر فيها عمليات التغيير وهي الكاشفة عن صور التداخل بين الأبعاد المتفاعلة في عمل الحضارة لأن هذا التراث يتكون من تجمع العادات والتقاليد والمعتقدات و الفنون الشعبية التي تكون أسلوب الحياة لدى عامة الشعب و هي المرآة الدالة على الثبات التغيير وهي تشكل جزءا لا يتجزأ من التراث.

يلعب التراث دورا هاما في حضارة المجتمعات ، وتزداد أهميته في أفريقيا لارتباطها بالثقافة الشعبية حيث تتعدد فروعه الأدبية، والروحية ، والفكرية ، والذي

---

[1] -محمود مفلح البكر: مدخل في التراث الشعبي، منشورات وزارة الثقافة، مديرية التراث الشعبي، دمشق، 2009، ص 33.
[2]. المرجع نفسه، ص 34.

يوحد المواقف ، و يغذي الروح الوطنية(1) والأنتماء لأفريقيا ، فتضافرت جهود المستعمرين من سياسيين و عسكريين ومبشرين، و علماء[2] ، و جمعيات ، و مؤسسات على توجيه سلوك الشعوب [3] ، و تدمير الثقافة الوطنية القومية و نشر ثقافة المستعمر، مستخدمين الوسائل المتاحة .

تتمثّل ركائز التراث في ثلاثة مصادر رئيسية هي الإسلامي الأفريقي في الوثائق المكتوبة ، و علم الآثار والرواية الشفهية ، و يدعم تلك المصادر الثلاثة علم اللّغات وعلم الأجناس البشرية اللذان يمكنان من تمييز وتعميق تأويل المعطيات التاريخية ، ثم المراجع الآخرى المتنوعة المواضيع.

وتبين من خلال البحث أن واضعو لبنات تلك الحضارة علماء أفارقة[4] ، على خلاف ما يشاع من أنّ انتشار الإسلام كان بفعل عرب أو بربر فقط سواء أولئك العلماء الذين تعلموا في المنطقة ، أم أولئك الذين رحلوا في طلب العلم ، ثم عادوا ، أم التجّار الذين يتنقلون بين المنطقة وغيرها أو بين أسواق مدنها وقراها استقروا فيها أم لا ؛ إذ هناك فرق بين دخول الإسلام وانتشاره ؛ فالأوّل يمكن أن يقوم به أيّ مسلم ، والثاني يحتاج إلى معرفة لغات المنطقة لإيصال تعاليم الإسلام إلى أهلها والانتشار في القرى والأرياف لا الاكتفاء بالمدن الحضريّة.

يؤيد ذلك عدد العلماء الذي حشده ملك «جنّي» كي يعلن إسلامه أمامهم ؛ فقد جعل السعدي العدد (4200 عالم) ، ويبعد المبالغة عن هذا العدد أنّ (جنّي) كانت تتكوّن مع توابعها من سبعة آلاف قرية ، كما ذكر السعدي نفسه(2).

---

(1) -محمود مفلح البكر: مدخل في التراث الشعبي، منشورات وزارة الثقافة، مديرية التراث الشعبي، دمشق، 2009، ص 175.

[2] . ج.ت.ف.هيجل : محاضرات في فلسفة التاريخ ، ترجمة إمام عبدالفتاح إمام ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ،1983لبنان، ، ص 174.

[3] .J.E.Harris :africans and their history .NeWyork, 1972, p 16.

[4]. أنظر ملحق 18: مخطوط: صفحة من كتاب نور الألباب– عثمان بن فودي-. والملحق 19: مخطوط : صفحة من كتاب فتح الباب – عثمان بن فودي-. والملحق 20: مخطوط :صفحة من كتاب تنبيه الأخوان– عثمان بن فودي-.

وحيث إنّ الإسلام للناس كافّة فإنّ تاريخه وحضارته في المنطقة وفي غيرها وَسِع ـ ولا يزال ـ مختلفَ الأجناس والشعوب ، أدلوا فيهما بدلائهم ؛ فذلك من طبيعة الإسلام ، وشموليّته ، وعالميّته ، وواقعيّته .

فقد تكلمت المصادر التاريخية الالتزام الشديد بتعاليم الإسلام في السودان الغربي ـ كأداء فروض الشريعة إلى أبعد الحدود ، والمواظبة على الصلوات في الجماعة ، وضرب الأولاد عليها ، وازدحام المساجد بالمصلين ، والحرص الشديد على حفظ القرآن ، واستفتاء الفقهاء ، والأمان في المساجد.

وأثبتت الدراسة وجود وُجدت مفاهيم خاطئة كثيرة عن تاريخ الإسلام وأثره في هذا الجزء من أفريقيا دينياً، واجتماعياً ، وثقافياً ، وحضاريّاً ، وهي مفاهيم لها دوافع مختلفة ، وجوانب عدة أتتْ من قِبَل بعض المثقفين الغربيين وأبناء المنطقة وغيرهم من الذين تأثروا بأولئك ، وبخاصة المتغربين منهم واللادينيين والمسيحيين ، وكذلك دعاة الزنجيّة ، وبعض علماء الآثار الأفريقيين ، والقوميّين العرب ، وادعوا أن إفريقيا ليس لها تاريخ ولا حضارة قبل مجيء الرجل الأبيض في العصر الحديث وأطلقوا عليها اسم "القارة المظلمة ".

إنّ صورة انتشار الإسلام عامّة قد شُوِّهتْ من قِبَل كثير من الدارسين ، فأُبرزت السلبيات (بل بولغ فيها)، وطمست الإيجابيات ؛ ولهذا لا بدّ من إبراز أسباب التشويه ومعالجتها ، وإعادة رسم صورته على ضوء مفاهيم وتصوُّرات أكثر استقامة وعدلاً ، وبخاصة في ضوء المستجدّات العلميّة والبحثيّة المتعلّقة بتاريخ المنطقة وحضارتها، وأثر الإسلام البارز فيهما ، وكذلك حاجة بعض المصادر الأفريقية التي تناولت هذا التاريخ إلى إعادة فحص ومقارنة وتحقيق علميّ ؛ بسبب كون المطبوع منها من نسخة وحيدة ليست الأصلية.

وبينت المعلومات الواردة في الرسالة أنه في العصور التاريخية المختلفة ظهرت في ربوع تلك القارة عشرات من المجتمعات الإنسانيّة التي كانت لها حضارات وثقافات

مختلفة ، ولكنّها حضارات أفريقية الأصل والجذور ، والتي يمكن دراستها دراسة تحليلية لمقارنتها بالحضارات الأخرى القديمة التي كانت تزامنها في الزمان ، وإن اختلفت معها في المكان.

فالعلم يحتل الميدان الأرحب في تكوين حضارة الشعوب ،ورقي حضارتها ولاشك أنه كان السلاح الأمضى في غرب إفريقيا ،حتى نكاد نجزم أن مساهمة الحواضر الإسلامية في هذا الإقليم لم تكن تعرف لولا وصول الإسلام إليها، والمؤكد أنها إمتداد طبيعي لما عرفته حضارة الإسلام حتى وإن علمنا أن الشرق الإسلامي في هذه الفترة محل الدراسة بدأ مرحلة التراجع والانحطاط .

وقد حفل التراث الأسلامي في غرب إفريقيا بالصفحات المضيئة التي لم يشر إليها الأوربيون وأدعوا أن" الرجل الإفريقي ليس له تاريخ أو حضارة قبل الاستعمار الأوربي "[1] .

إن الباحث ليشعر بالفخر وهو يقرأ ماساهم به المسلم في بناء هذه الحضارة ، وأنه لا يجب المقارنة في هذا الموضع بين ما فعله المسلمون في الأندلس وإفريقيا مثلا ،أوبين هذا كله وما ساهم الأوربيون في حضارة القرن العشرين من إنجازات علمية وتقنية ، ولا نقول هذا من باب المن بل من الأنصاف ،ولا من باب الاحتقار كما فعل الأوربيون ،بل من باب إقرار فضل الإسلام على الإنسانية .

إن القارئ المسلم ليشعر بالفخر والاعتزاز وهو يتصفح أخبار تلك الصور الحضارية التي حفل بها التاريخ الإسلامي في حواضر إفريقيا جنوب الصحراء ، فعلى الرغم من تدهور أوضاعه الحالية إلا أن الجوانب الحضارية بقيت شاهدة على أن المجتمعات الإسلامية قادرة على العطاء ،فكانت التراث الإسلامي من أبرز الظواهر الحضارية التي تميز بها تاريخ المسلمين في تلك البلاد .

---

[1]. محمود السيد :تاريخ إفريقيا القديم والحديث ،ط1،مؤسسة شباب الجامعة ،الأسكندرية ، 2006،ص06.

وتشير الدراسات أن نشر العلم وتعميمه كان من أبرز السمات التي اشتهرت بها مملكة مالي وسنغاي ، وقد عرف على الحكام المسلمين رعايتهم للعلم وإنفاقهم المال على العلماء والمؤسسات التعليمية ،واحترامهم لتوجيهات القضاة و الفقهاء .

إنّ أكثر أولئك السلاطين علماء وفقهاء ، وإذا لم يكن السلطان نفسه عالماً فقيهاً اتخذ أحد العلماء البارزين وزيراً يدير له الدولة وفق الشريعة ، ولا بدّ من هيئة شورى على شكل لجنة الفتوى من كبار العلماء والفقهاء ، وكان السلاطين والملوك يحترمون هؤلاء العلماء والفقهاء ، ويزورونهم في بيوتهم ، ويستفتونهم ، ويشاورنهم في شؤون الدولة وما تتعرض له من أخطار ، ويأتمرون بأمرهم.

لقد انتشل الإسلام الأفارقة من وحل الوثنية ، وأبعدهم عن حياة البداوة والاقتتال بين القبائل ، وساقهم الى حياة جديدة ، وعلى الرغم من الاضطرابات السياسية في كثير من الأوقات إلا أن دور العلماء ومؤسسات العلم إستمر في العطاء والتوجيه ، وإن اختلف هذا الدور والتأثير من فترة إلى أخرى ومن الحواضر إلى القرى ، ويجيء هذا البحث خطوة يرجى أن يلقي أضواء صادقة عن التراث الإسلامي في جزء هام من القارة الإفريقية .

ومن النتائج التي توصلت إليها أن تاريخ الصلاة الحضارية بين حواضر السودان الغربي والأقطار الإسلامية يعود إلى قرون عدة فبل ظهور الإسلام ،منذ أن سلكت قوافل التجارة طريقها عبر الصحراء ،وقويت أكثر بعد ظهور الإسلام ،وترتب عليه تبادل الصلات الثقافية والعلمية ،واستخدام اللغة العربية وانتشار المد الإسلامي ،وارتحل طلبة العلم والعلماء إلى مختلف الحواضر الإسلامية المعروفة من فاس إلى تلمسان والقيروان وطرابلس والقاهرة والحجاز ،ونتج عن هذا التواصل بروز كوكبة من علماء السودان الغربي تميزوا بغزارة التحصيل ،وألفوا الكتب ،وألقوا الدروس والمحاضرات ، وكونوا الطلبة وأرشدوا عامة الناس وخاصتهم من الحكام والمسؤولين ،وكانوا محل احترام من قبل السلاطين المتعاقبين على الحكم في مملكة مالي وسنغاي .

وعرف التراث الثقافي لحواضر إفريقيا جنوب الصحراء نشاطا كبيرا لمؤسسات التعليم التي بنيت في مناطق مختلفة ، كان لها دور عظيم في نشر الوعي العلمي والثقافي،وعلى ترسيخ مقومات الشخصية الإسلامية والحفاظ عليها فكان المسجد مدرسة دينية، ودار للتهذيب والضيافة ،ومركز يجمع العلماء والطلبة ،وهو مركز إشعاع علمي وحضاري يقوم على تدريس مختلف العلوم الدينية والعقلية ، في مختلف المراحل التعليمية ، وهي بذلك تمثل جزء مهم من الحياة العلمية والثقافية منذ دخول الإسلام إليها .

وإرتبط العالم والطالب منذ ظهور الكتابة بالكتب والمكتبات التي تمثل عاملا و مظهرا أساسيا لتقييم مدى انتشار التعليم .

وكان الارتحال لطلب العلم سمة العالم الإسلامي ،كله ولم يكن السودان الغربي ليشذ عن هذا ،بالرغم من بعد المسافة التي تصل إلى ألاف الأميال وهو ما يفسر قلة الطلبة الذين توجهوا إلى حواضر المغرب والمشرق الإسلاميين .

تعتبر الرحلات وكتابات الرحالة مصدر مهم من مصادر دراسة التاريخ ، وهو جزء لا يتجزأ من علم الجغرافيا [1] .

لقد ساهمت كتب الرحلة في تدوين التراث الإسلامي وأمدتنا بمعلومات عن بعض أجزاء القارة الإفريقية منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، وفي هذه الفترة كان المسلمون خلالها على إتصال دون غيرهم بتلك المناطق التي كان لهم فيها النفوذ والسيادة والسيطرة على تجارتهما.

وفي الوقت الذي بدأت فيه المصنفات العربية في التلاشي تبدأ المصادر الأوربية في الظهور بما كتبه الرواد الاوروبيون الذين توغلوا في القارة الافريقية خلال القرن التاسع عشر.

نسجل هنا أن بعض الكتاب الاوروبيين تعمدوا في قليل أو كثير تجاهل المؤثرات العربية ومنهم من حاول النيل من الحضارة الإسلامية في إفريقيا ونسب كشف افريقيا وإدخال الحضارة فيها الى أوروبا. وهذه نظرة قاصرة لأن اوروبا نفسها لم تصل الى

[1].أحمد على إسماعيل، الجغرافيا العامة موضوعات مختارة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1996، ص 5 - 7.

كشف مجاهل القارة الافريقية الا بفضل اعتمادها على المصنفات العربية والكثير من هذه المصنفات ترجم إلى اللغات الأوربية منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي [1] .

تشكل كتابات الرحالة مصدرا مهما من مصادر دراسة التراث والتاريخ الأفريقي ، وقد صورت بحسب المراحل التاريخية المشار إليها في المتن ، طبيعة العلاقة بين الشرق و الغرب و زخرت بالعديد من المعارف المتنوعة : ديني ، و اقتصادي ، و سياسي ، و تاريخي و جغرافي ، و أدبي و اجتماعي...و غير ذلك مما يجعلها مصدرا للعديد من الباحثين مختلفي الاختصاصات ، و على الرغم من الجوانب الايجابية التي لا يمكن اهمالها فقد سجل على هذا النوع من التدوين جوانب سلبية-كما توصلت إليه هذه الدراسة-كان من أبرزها ارتباط كثير من الرحالة بمؤسسات دينية أو سياسية ، كذلك عدم قدرة هؤلاء على التخلص من الأفكار المسبقة ، التي تحمل تراكمات ، فالمعرفة التي قدّمها المرتحل ، خضعت لشخصيته و تكوينه الثقافي و الديني و الاجتماعي ، لذا تتطلب عملية كشف خفاياها المعرفية ، فهما و تصوّرا شاملا للأوضاع المحيطة بأحداث الرحلة ، ابتداء من شخصية كاتبها ، و حتى طبيعة العلاقات السياسية و الاقتصادية الدولية أو الإقليمية على أقل تقدير [(1)] .

بينت كتابات الرحالة أن رحلات الحج لملوك السودان ، كانت لها فائدة ثقافية وسياسية كبيرة في بلدان وممالك جنوب الصحراء، فقد كانت مواكب الحج ضخمة ، يتصدق الملوك خلالها بالأموال في المناطق التي يمرون بها ، كما كانوا ينقلون مظاهر الحضارة العربية الإسلامية إلى بلدانهم ، ويتصلون بالعلماء والفقهاء فيستفيدون.

وانعكس التبادل الثقافي ومؤسسات التعليم على التراث الإسلامي بالإيجاب ، واتسع التعليم وكثرت المدارس والكتاتيب ، وارتفع عدد الطلبة وكثر حفظة القرآن وتمسك السودانيين بتعاليم الدين الإسلامي ،رغم ان هذه الحواضر كانت تفتقر إلى معهد رئيسي

[1] . مجموعة من الباحثين:إفريقيا والثقافة العربية الأسلامية ، مجموعة أبحاث ، منشورات الأسيسكو ، الرباط 1987، ص 166.

[(1)]- حيدر جاسم الرويعي: تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوربي، مجلة القادسية في الآداب و ابعلوم التربوية، المجلد10، العدد (3-4)، سنة 2011، ص 17.

كبير يلم شتات المثقفين في القرى والأرياف ،فكان القليل الذي يستطيع السفر إلى فاس او القيروان وغيرها طلبا للعلم والتبحر فيه .

و ظلت المدارس الموجودة في حواضر الممالك الإسلامية بغرب إفريقيا تحتفظ بخصائصها المستقلة عن المدارس المجاورة ولا تربطها علاقات تنظيم أو تسيير،وكانت حاضرة بحق تشبه إلى حد بعيد الجامعة الكبرى في غرب إفريقيا .

هذا ماجعل الحكم على التراث الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء بمنظور أندلسي أو عربي أوروبي ، وما شهدته هذه المناطق من تطورات يجعلنا لا نزن الأحداث والتطورات بميزان العدل فعلينا قبل الحكم أن ندرس كيف كانت إفريقيا وكيف تطورت وما هي المدة الزمنية المستغرقة لبناء تراث وتقاليدها ، وهل ساعدت الظروف التاريخية والتطورات السياسية مملكة مالي وسنغاي على التطور الحضاري الكافي لنقارنه بحضارة الأندلس مثلا أم أن الكثير منها –التطورات التاريخية والسياسية – كانت تعيق التواصل الحضاري ، و ماهي الظروف الطبيعية المحيطة ،وهل كان النظام القبلي دافع للفكر أم تراجع بسبب تمسكه بالقيم التي ظل الإفريقي يقدسها ،حتى روى لنا الرحالة كابن بطوطة ،وحسن الوزان بعضا منها ،غاية في الغرابة وبعدا عن الحياة الإسلامية وما استخلصه ان الحياة العلمية في حواضر غرب إفريقيا وما شهدته يعد قفزة ايجابية ، وطورا كبيرا خاصة في الفترة محل الدراسة .

إن مجالات التراث الإسلامي في حواضر إفريقيا جنوب الصحراء قد تعددت و تطورت مع القرن السابع إلى القرن الرابع عشر ، حتى غدت مع بداية القرن السادس عشر ميلادي نموذجا خاصا في هذه الأقاليم .

إذ يرجع الفضل إلى الحركة والنهضة العلمية التي شهدتها تلك الحواضر في إخراج القارة بأكملها من عزلتها الحضارية التي عايشتها طيلة القرون التي سبقت الإسلام حتى عرفت بالظلام .

والملاحظ من الدراسة أن فئة العلماء والفقهاء ساهمت في إثراء التراث في الحواضر والمراكز الثقافية ، وتأثيرهم كان قويا وبارزا، سواء علماء السودان الغربي من أمثلة المؤرخ محمود كعت وقاضي تنبكت صاحب كتاب الفتاش ،وقد كان معاصرا

للأسكيا محمد أعظم حكام مملكة سنغاي ومستشاره الخاص ،عاصر كعت الأزمات السياسية التي سبقت الغزو المغربي لبلاد السودان ،وركز في كتابه على ما كان يدور في بلاط الأسكيا.

ويعد المؤرخ عبد الرحمان السعدي من كبار علماء السودان الغربي وأشهرهم ،وإن كان نشاطه يخرج عن نطاق دراستي(1596،1670) فإن كتابه ليؤرخ للفترة نفسها ،كما أن عمله يعد مصدرا مهما لتاريخ المنطقة ،وقد استعان كثيرا بمِلفات أحمد بابا التنبكتي ، ومحمود كعت ، لكن أسلوب كتابته أكثر وضوحا ودقة وأجمل في البناء ، رغم عبارات الإطراء والسجع والأسلوب الإنشائي .

وينبغي أن أشير هنا أن كثير من علماء حواضر إفريقيا جنوب الصحراء لم تكن كتب الرحلة والتراجم قادرة على رصد حياتهم وإنتاجاتهم الفكرية ، فاكتفت بترجمة مختصرة ، حتى يخيل للقارئ أنها ليست لعلماء بل لأشخاص عاديين ، وهذا راجع حسب رأيي إلى سببين ،الأول أنهم علماء تخصصوا في علوم الدين وبالتالي لم يكن لهم إنتاج معرفي سوى التمكن مما هو موجود من مؤلفات السابقين – وهنا نتذكر عصر الانحطاط في المشرق الإسلامي حين كتب المؤلفون الشروح- ، والسبب الثاني أن ما كتبوه قد أتلف بسبب عوامل تاريخية أو طبيعية أو أن منتوجهم المادي لم يرقي إلى مستوى الذكر ، والثالث أن انشغالهم بالدعوة والتعليم والتنقل والترحال أضعف مجال التأليف –وهنا نتذكر الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي أخذت منه الدعوة والإصلاح وقت التأليف مع فارق القياس طبعا-، والعلم لا تقدر مكانته بما ينتجه فقط ، بل ما يفيد به طلابه ومجتمعه ،وقائم على دوره في تلك الحقبة من الزمن حتى وإن كان في إطار جغرافي وزمني محدود .

كما ساهم علماء البلاد الإسلامية في نهضة إفريقيا جنوب الصحراء ، فقد التقى ابن بطوطة بعدد كبير من الفقهاء والعلماء والقضاة وأورد أسماءهم في رحلته المشهورة منهم: محمد بن عمر والفقيه محمد الفيلالي إمام مسجد البيضان وأبو حفص المسوفي والشيخ المزوري وسعيد بن علي الجزولي والقاضي أبو إبراهيم الجاناتي وجعفر بن محمد المسوفي، وأورد كل من السعدي وكعت ، عدد كبير من أسماء الفقهاء والعلماء

والقضاة ،أشهرهم علماء أسرة آل أقيت الذين تميزوا بعلمهم وثقافتهم في الدين وورعهم وتقواهم وكثير منهم تولوا منصب القضاء في تنبكت أكبرهم : محمد بن عمر بن محمد أقيت (ت 1463/828) وأبنائه الثلاثة محمد والعاقب وعمر ، وأحفاده منهم أبو حفص عمر وأحمد بن محمد سعيد وأحمد بابا صاحب كتاب نيل الابتهاج.

وبجانب أسرة آل أقيت برز عدد آخر من علماء وفقهاء المغرب الذين استوطنوا وعاشوا في السودان الأوسط والغربي منهم أند محمد، ومخلوف بن صالح البلبالي ومحمد بغيغ والتازختي وغيرهم.

ويعد محمد عبد الكريم المغيلي من أكبر العلماء وأشهرهم الذين تركوا آثارا واضحة في الحياة الثقافية والسياسية في السودان الغربي في عهد الإسكيا محمد الكبير ملك سنغاي، كما يعد أحمد بابا التنبكي من أشهر علماء آل أقيت الذين أثروا على الحياة الثقافية والسياسية في المغرب وبلاد السودان معا، فقد عاش بمدينة تنبكت ولكن المغاربة نقلوه إلى مراكش ونفوه هناك بعد غزوهم لسنغاي، وأقام بها زهاء عشرين سنة يدرس في جامع الشرفاء.

ومما تبين في البحث أن الفقهاء والعلماء طوروا العملية التعليمية وألفوا الكتب وشيدوا المساجد وبنوا المدارس، فكان لهم الفضل في نشر العلم والثقافة العربية الإسلامية، وتقلدوا المناصب في الدولة أهمها منصب القضاء، وحولوا بعض المراكز الثقافية إلى منارات علمية في المنطقة تشع منها الثقافة العربية الإسلامية أشهرها جامعة سنكري في تنبكت تم تأسيسها سنة 854هـ/1450م والتي أصبحت تضاهى في مستواها العلمي القيرويين بفاس والأزهر بمصر.

وكان للفقهاء نفوذا كبيرا فباستطاعتهم تلطيخ سمعة حاكم مثل ما حدث مع "سني علي" أو تحسين صورته كما فعلوا مع الإسكيا محمد الأول. فالفقيه كان له تأثير على نفوس العامة لسموه العلمي وتفقهه في الدين ولأخلاقه العالية ومنصبه في الدولة، ولهذا كان السلاطين يمنحون العلماء الامتيازات والهدايا ويزودهم حتى بالحراس لضمان سلامتهم، ووصل حد احترامهم من العامة أن ينسب لهم الكرامات وإقامة الأضرحة لمن مات منهم.

وهنا لا يفوت الباحث أن يشير إلى رحلات الحج ، التي كانت لها فائدة ثقافية كبيرة في بلدان وممالك غرب إفريقيا ، بها إنتقلت مظاهر الحضارة العربية الإسلامية إلى بلدانهم، من اتصال العلماء بعضهم البعض ، وشراء الكتب ، واستشارة علماء وفقهاء المغرب و المشرق ومنهم من اصطحبوه إلى بلدانهم بعد عودتهم من أجل نشر الثقافة الإسلامية وتصحيح المعتقدات وبناء الدولة وتشييد العمران بها.

فالملك منسى موسى أحضر معه، بعد رجوعه من الحج ، طائفة من مشاهير العلماء العرب عاشوا في مالي وتنبكت منهم المهندس المعماري والشاعر أبو إسحاق الساحلي الذي كان الفضل في إدخال طرق جديدة في البناء والفن المعماري في المنطقة.

أما الإسكيا محمد الكبير أحضر معه ، بعد عودته من الحج أحد أشراف مكة المكرمة يدعى أحمد بن عبد الرحمن بن إدريس يصل نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما سنة 926هـ/1519م فأقام بالعاصمة "غاو" وحصل هو وأولاده على امتيازات وهبات كبيرة.

وكان الفقهاء والعلماء، هم من تولى كثير من المناصب الوزارية وعملوا كمستشارين للملوك وأشرفوا على تسيير الدولة.

ورغم أن السلطة في دول المنطقة كانت مطلقة إلا أن العلماء ساهموا في نشر مفاهيم إسلامية أثرت على أسلوب الحكم و منها مبدأ الشورى و البيعة، فقد كان بعض ملوك الدول الإسلامية السودانية يستعينون بالعلماء و الفقهاء لإدارة ملكهم، فنصبوا أكبر الفقهاء و العلماء كمستشارين ووزراء لهم لتسيير شؤون دولهم، و استعانوا بمجالس للشورى تتكون من الأعيان و أكابر البلاد في تنظيم أمور البلاد.

و إليهم يرجع الفضل في تطور النظام القضائي الذي أصبح محكم التنظيم، يعتمد في أحكامه على الشريعة الإسلامية ويتمتع فيه القاضي بالاستقلالية الكاملة، ، وقد وضحت ذلك في فصل علماء الحواضر وأثرهم فكان اختيارهم على أسس علمية و أخلاقية ، و يروي لنا ابن بطوطة أثناء رحلته إلى مالي إعجابه من حرص ملوكها على نشر العدل و الأمن في البلاد و هو ما يتشابه مع وضع أرقى الدول في عصرنا الحالي.

ولا يخف أن البيع والشراء يصحبهما دواما تبادل الأفكار ونمو الثقافات وانتقال الحضارات ولولا اتصال سكان إفريقيا جنوب الصحراء بالشمال عن طريق القوافل التجارية لما ازدهرت حضارتهم في وقت من الأوقات.

تلك الحضارة الإسلامية التي عرفتها مالي وسنغاي ،والتي لم يعرف السودان مثلها من الحضارات السابقة .

لقد تعلم أهل السودان عن طريق اتصالهم بتلك الحضارة الزاهرة أشياء كثيرة لم يعرفوها من قبل ، فاعتنق غالبيتهم الدين الإسلامي ، وأجاد علماؤهم اللغة العربية وأسهمت طائفة كبيرة منهم في الكتابة في شتى أنواع التأليف في الأدب والدين والعلم والتاريخ ، كما برزت منهم جماعة من المصلحين الدينيين الذين عرفوا كيف يقضون على التقاليد الوطنية والعادات والمعتقدات الشريرة التي كانت متفشية بين الشعوب السودانية.

فحل مجتمع حضاري جديد مكان المجتمع البدائي القديم ، ولم يقف في سبيل نشر ذلك النور الحضاري سوى الغابات الاستوائية.

لقد كان قيام هذه الدول في شكله العام قائما على " الحكمة والموعظة الحسنة " وعلى قدرة الإسلام على استيعاب الأنساب السوداني.

والإسلام بفكره وقوته المعنوية حوّل حياة الشعوب السودانية التي إعتنقته من مجرد نظام قبلي بأسراته ورؤساء العشائر والقرية الصغيرة المغلقة في وجوه ما وراءها إلى نظام سياسي يقوم على الدولة وحكمها ، وعلى أساس قيام إدارة وحكومة ، وبناء حضارة بمدنها وعمرانها ، وسياستها ، ونظمها الاجتماعية ونشر أحكام الكتاب الكريم.

وكان للوجود العربي عاملا مؤثرا في نقل الثقافة العربية إلى السودان الغربي ، بالإضافة إلى المؤثرات الاجتماعية التي كان من نتيجتها انتهاء الحياة البدائية والوثنية في المجتمع الإفريقي على الأقل في الحواضر ، وفي بداية القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي محل الدراسة ، وانعكست الآثار الإيجابية للحياة العلمية على كل مناحي الحياة في عرب إفريقيا ، وروت لنا مصادر الرحلة والتاريخ هذه التطورات ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي أضيفت للمصادر العربية ما كتبه العلماء السودانيين أمثال

القاضي محمود كعت ، وعبد الرحمن السعدي ، الذين كانوا ثمرة النهضة العلمية والثقافية ، ثم جاءت بعدها وللأسف كتابات بعض الأوروبيين غير المنصفين لترسم صورة غير صادقة عن تلك الحقبة من تاريخ إفريقيا .

وبعد ما تناولت جونب التراث اللامادي في الفصل الرابع والتراث المادي في الفصل الخامس ، جاء الفصل السادس والأخير ليكون عصارة جهد هذه الرسالة وهي المقارنة بين ما كتبه رحالة العرب ورحالة الغرب.

فقد حاولت هذا الفصل السعي إلى قراءة ظاهرة نقل المشاهد(الرحالة العرب والمسلمين) والاستكشاف- (الرحالة الأوروبيون)، بذكر الجهود التي بذلت من أجل التعريف بمناطق إفريقيا جنوب الصحراء تراثا ماديا ومعنويا، رغبة في الحصول على نظرة عادلة لظاهرة الرحالة، دون إغفال الدوافع والأهداف التي قادت الرحالة والمستكشفين إلى الاهتمام بالتراث الإسلامي ودفعتهم إلى مصادره.

فساعدتني الدراسة المقارنة في فهم النظم التراثية وفروعها المتعددة وذلك في ضوء القوى الثقافية المؤثرة فيها ، ولا شك أن دراسة التراث على هذا النحو والتعرف على كنوزه يؤدي إلى توسيع نظرة الدارس إلى المجال التاريخي بوجه عام ، وزيادة مقدرته على فهم التطور التاريخي ، ويربي فيه روح النقد البناء ، مما قد يدفعه إلى تقديم المقترحات الصحيحة للدراسات التاريخية.

إذ تعتبر دراسة التراث المقارن عاملا مهما في إعداد وتطوير نموذج المؤرخ المنشود والذي تعد درايته للتطور التاريخي أساسا مهما من أسس إعداده المهني لتطوير البحث التاريخي.

إن جهل الكثير بالحضارة الإسلاميّة في المنطقة ، وبدور شعوبها في الحركة الإصلاحيّة والعلميّة والثقافيّة ، وعلاقاتها السياسية والدينية والاقتصادية بالعالم الخارجيّ ، وبعض من يهتمّ بها ينظر إليها بعين الإستصغار، ويتزوّد بمعلوماته المشوّهة على أنّها مسلَّمات أو بديهيّات لا تحتاج إلى تمحيص وتحقيق. ذلك الاستصغار الذي لا يزال من دور تاريخ منطقة بكاملها ، أو إلى التأثير الإسلاميّ فيها، ولا يتورّع عندما تضيِّق الأدلّة التاريخيّة والنقليّة عليه الخناق مِنْ وسْم الإسـلام فيها بنحو «إسلام أسود» أو «إسلام

سطحيّ»،وأصبح الأفريقي اليوم معروف أنه صاحب الأناشيد والرقصات التي تعبر عن الطقوس والأديان القديمة التي تعث على الفرجة والشفقة في نفس الوقت ،والتي مازال متمسكا بها ،فهو إذا بدائي.

ومما وطّد ذلك الجهلَ المعاصرَ: ما يسود وسائل الإعلام من تشويه متعمّد للقارة بتصويرها ـ كلّها ـ في صورة غابة مظلمة وحضارة وثقافة ضعيفة ومعيشة سيئة ، أو غابة للمتقاتلين لأتفه سبب، ولسان الحال يقول ـ في مقدمة سهلة ـ: إذا كان هذا شأنهم في القرن العشرين أو الحادي والعشرين فما عسى أن تجد عنهم في القرون الأوروبية السابقة؟ وتكون النتيجة الحتمية لهذه المقدّمة عليكَ بعالم غير أفريقيا.

وحيث إنّ مجتمعها لم يكن ملائكياً ، فقد كان يُعكر طوائفُ صفوَه في أطوار وأماكن مختلفة؛ بسبب ضَعف الوازع والنازع الدينيين؛ فالأوّل يبعث على ملازمة الشرائع، والآخر يمنع من مخالفتها، وضعفهما في أيّ وقت ومكان، وعند أيّ جنس يعني وقوع بعض أفراده في المعاصي والمخالفات الشرعيّة بدرجات متفاوتة، وبقاء الكثرة على الحق؛ فمن الإجحاف أن يصير الإسلام بذلك «نموذجاً أفريقياً» أو «إسلاماً سطحياً» لم يحدث تأثيراً أو إصلاحاً كما يريد له أولئك القوم على اختلاف دوافعهم ؛ فتلك سنّة الله في خلقه ، ولو شاء ربّك لجعل الناس أمّة واحدة على قلب أتقى رجل، لكن لله في خلقه شؤون ، وللناس في النظر إلى أفريقيا عيون يعلو كثيراً منها غشاوة ، وقلوب يرين عليها الهوى ، وعقول لا يقودها البصيرة ، وأقلام تسيل بالباطل.

وأجد نفسي من موقع الباحث أنني أريد أن أتوصل إلى حقيقة تاريخية صادقة ،لا أقول أن إفريقيا جنوب الصحراء عرفت أعظم حضارة في الكون ، ولا أميل مثل الجاحدين إلى أن القارة لم تعرف التقدم ، إنما أرى أن المنطقة ازدهرت كباقي المناطق الإسلامية وإن بدرجة أقل ، فلا ينبغي أن ينكر الدارس تلك التطورات العميقة التي عرفتها أقاليم واسعة ،وضحى عليها عدد كبير من العلماء والرجال الصالحون ،وهنا

أتذكر قول المصلح جمال الدين الأفغاني وهو يقول :"لا عز لقوم لا تاريخ لهم ،ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم من يحمي تاريخ رجالهم ،يموت العظماء وتبقى أعمالهم خالدة ، قوة تحرك ورابطة تجمع ونور يهدي ،فكل ما يتركه العظماء من ميراث هو أعمال وأفكار نعتز بها ونعتبر منها ونقتدي بها".

وأرجوا أن تكون دراستي هذه موفقة في الإلمام بالموضوع ،بالشكل الذي أرد فيه الجميل لأساتذتي في جامعة الجزائر الذين كان الفضل لهم في إرشادي،وأتمنى أن يجد كل قارئ وباحث ضالته فيه ،وأن يكون جهدي إضافة لمكتبة تاريخ إفريقيا من حيث المحتوى وتعدد مصادر ومراجع البحث ،وأن أنال شرف طالب العلم عند الله ،وعند من ينتفع بهذه الرسالة ، وبالله التوفيق ، والله من وراء القصد.

قال الله تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}[المجادلة: 11].

- <u>**قائمة المصادر والمراجع:**</u>

1- القرآن الكريم.

2- صحيح الأمام مسلم.

3- صحيح الأمام البخاري.

- <u>**المخطوطات :**</u>

1- مخطوط : تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء لأحمد بابا التنبكتي .

2- مخطوط : قصائد الورع والتقوى - عثمان بن فودي - .

3- مخطوط : كتاب فتح الباب في ذكر بعض قصائد الشيخ عبد القادر الجلالي – عثمان بن فودي - .

4- مخطوط رسالة التكرور إلى الفقيه السيوطي : مطلب الجواب بفصل الخطاب.

5- مخطوط رسائل إجابات الفقيه السيوطي على رسائل بلاد التكرور.

6- مخطوط صفحة من كتاب الأشارة في أدب الأمارة– عثمان بن فودي-.

7- مخطوط فتوى إمكانية البقاء في الأرض التي يحكمها الكافر القاضي عبدالله أبوبكر بن القاضي أحمد سعد.

8- مخطوط فتوى وجوب الهجرة من البلاد التي يحكمها النصارى ، قاضي قضاة ممالك الهوسا : محمد البخاري الوزير بن أحمد.

9- مخطوط كتاب كتاب أصول الولاية – عثمان بن فودي-.

10- مخطوط كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر– عثمان بن فودي-.

11- مخطوط كتاب التنبيهات الواضحة في الباقيات الصالحات - عثمان بن فودي-.

12- مخطوط كتاب عمدة البيان في العلوم التي وجبت على الأعيان -عثمان بن فودي

13- مخطوط كيفية أمور الرياسة وإدارة الحكومة الأسلامية - محمد بللو-.

14- مخطوط: مؤلف مجهول : ارجوزة توسلية لرفع وباء الطاعون(01 ص).

15- مخطوط: كتاب نور الألباب– عثمان بن فودي-.

16- مخطوط كتاب تنبيه الأخوان في وجوب مواجهة الكفار– عثمان بن فودي-.

- **المصادر التاريخية :**

1) .ابن فضل شهاب الدين أحمد يحيى العمري : **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ج4 ط1 ، مركز زايد للتراث والتاريخ ،2001.

2) ابن بطوطة أبو عبد الله : **رحلة ابن بطوطة (المعروف بـ: تحفة النظار في غرائب الأمصار)**، دار بيروت للطباعة والنشر –بيروت -1400هـ/1980م،ص674.

3) ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي،**رحلة ابن جبير** ، ط 1، دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ.

4) ابن حوقل ابو القاسم محمد :**صورة الأرض** ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان ، بدون تاريخ.

5) ابن خلدون عبد الرحمان:**العبروديوان المبتدأو الخبر فيأيام العرب و العجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** ج6، ،ط1، دار الفكر للطباعة و النشر، بيروت، 2000.

6) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله المصري: **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1961.

7) إبن منظور:**لسان العرب**،دار صادر،بيروت،1956،مج11،مادة رحل

8) أبو إبراهيم محمد الفارسي الإصطخري: **المسالك و الممالك**، تحقيق محمد عبد الغاني الحيني و مراجعة شفيق غربال ،ط2،دار صادر ،بيروت ،لبنان ،2004.

9) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**،ج4،تحقيق و تعليق نبيل خالد الخطيب ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،ط1987.

10) أبو العباس الونشريسي: **المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية و الاندلس و المغرب**،ج2، تخريج :محمد حجي ومجموعة من الفقهاء،ط1، دار الغرب الإسلامي،بيروت لبنان ،1981.

11) أبو الفداء:**تقويم البلدان**، باريس-المطبعة الملكية، 1840.

12)أبو الفرج عبد الرحمان بن علي بن الجوزي :**صيد الخاطر**، تحقيق: حسن المساحي سويدان ،ط1، دار القلم، دمشق، سوريا، 1425 ه/2004.

13) أبو القاسم ابن جزي:**القوانين الفقهية**، المكتبة الثقافية، بيروت، د ت.

12) أبو حامد الغزالي: **إحياء علوم الدين**،ج2، دار المعرفة، بيروت.

13) أبو عبد الرحمان السلمي:**طبقات الصوفية**،تحقيق نور الدين شريبة، ترجمة أبو محمد الخواص ،ط3،القاهرة،1986،ص ص 434-439..رقم 14.)

14) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي: **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور** ـ تحقيق إبراهيم الكتاني ومحمد حجي ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ لبنان ـ ط2 ، 1428هـ/ 2007م.

15) أبي زيد القيرواني، **في الجامع** ،تحقيق عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، رقم 76).

16) أحمد بابا التنبكتي: كفاية **المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، دراسة وتحقيق محمد مطيع،ج2 ،ط1،وزارة الأوقاف و الشؤون الدينية،المملكة المغربية،1421هـ/2000م.

17) أحمد بابا التنبكتي نيل الابتهاج:، تحقيق على عمر ، ط1، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1423-1964.

18) أحمد بن محمد المقري: **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**،ج2،تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1978.

19) الأدريسي ابو عبد الله الشريف:**نزهة المشتاق في إختراق الأفاق** ، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1983.

20) البكري أبي عبيد : **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)**،مكتبة أمريكا والمشرق –باريس 1965-ص178.

21) تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريـزي : 845هـ/1441م ـ**السلوك لمعرفة دول الملوك**-ج2 تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1418هـ /1997م.

22) تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي: **المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الاثار (المعروفة بالخطط المقريزية)**،ج1، منشورات دار إحياء العلوم ، لبنان ،بيروت ،1948.

23) حسن بن محمد الوزان الفاسي: **وصف إفريقيا** –ترجمة محمد حجي عمار زينر، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد يتجلون ج2 ، دار النشر للمعرفة ،الرباط.

24) الخطيب البغدادي: **الرحلة في طلب الحديث**، تحقيق: نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1975.

25) الخطيب البغدادي: **تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم** ، تلخيص وترتيب سامي الصقار ، ط1،دار المريخ ،الرياض 1401-1981.

26) زكرياء القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**،دار الصناعة و النشر ، بيروت، 1969.

27) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: **الجرح و التعديل**، تحقيق : خليل محمد العربي ، ط1، دار الفاروق الحديثة للطباعة و النشر ، قطر، 2003.

28) عبد الرحمان السعدي: **تاريخ السودان** ،وقف على طبع هوداس،مكتبة أمريكا والمشرق ،باريس، 1908.

29) عبد اللطيف البغدادي : **الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر**، تقديم : عبد الرحمن عبدالله الشيخ ،ط2، دار قتيبة للطباعة والنشر،الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، 1998.

30) عبدالرحمان بن خلدون : **المقدمة** ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1979.

31) لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خَلِّكان: **وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان :** تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ، لبنان، 1981.

32) محمد العبدري البلنسي : **الرحلة** ، تقديم سعد بو فلاقة ،ط1، منشورات بونة للبحوث والدراسات ، 2007.

33) محمد بن عمر ، التونسي : **تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد بلاد العرب والسودان** ، تحقيق ظليل محمود عساكر،ومصطفى محمد مسعد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف،والترجمة، القاهرة، مصر ،1965.

34) محمود كعت: **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس** ،طبع هوداس ودولافوس ،1964.

35) المقري ، أحمد بن محمد (ت 544 هـ / 1149م): **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب في ذكر لسان وزيرها إبن الخطيب** ،ج5، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ،بيروت ،1978.

36) مؤلف مجهول: **الأستبصار في ممالك الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبدالحميد ، جامعة الأسكندرية ، مصر، 1958.

37) ياقوت الحموي شهاب الدين ابو عبد الله : **معجم البلدان** ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1990.

38) اليعقوبي، أحمد بن ابي يعقوب: **كتاب البلدان**، النجف المطبعة الحيدرية، 1957.

- **المراجع :**

1. أ- ج- هوبكينز: **التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية** ، تقديم عبد الغني سعود ،ترجمة، أحمد فؤاد بليغ ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، مصر ، 1998.
2. إبراهيم علي طرخان:**دولة مالي الإسلامية**،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،مصر،1973 .
3. أحمد أبو زيد: **البناء الاجتماعي، مدخل لدراسة المجتمع المفهومات**، ط7، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980.
4. أحمد الشكري: **الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن 18م (نموذج بلاد السودان)**،ط 1،منشورات معهد الدراسات الإفريقية ،الرباط ،2010.

5. أحمد بوعتروس : **الحركات الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء ابان القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلاد** ، ط1 ، دار الهدى،الجزائر،2009.
6. أحمد زكي بدوي: **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية،** مطبعة ساحة رياض الفتح، بيروت، لبنان، 1977.
7. أحمد سويلم العمري : **الإفريقيون والعرب** ، ط 1 ، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة 1967 .
8. احمد طاهر ، **فصول من الماضي والحاضر** ، ط1 ، دار المعارف ، القاهرة،1975.
9. أحمد علي إسماعيل: **الجغرافيا العامة موضوعات مختارة،** ط1، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1996.
10. أحمد فؤاد محمود**: أضواء على الثقافة الإسلامية،**ط1، دار إشبيليا للنشروالتوزيع، المملكة العربية السعودية، 2000.
11. أسعد الفارس **: رحالة الغرب في بلاد العرب** ، ط 1 ، صقر الخليج للنشر والتوزيع ، الكويت ، 1997.
12. إسماعيل العربي: **الصحراء الكبرى وشواطئها،** ب.ط، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.
13. إسماعيل سامعي: **معالم الحضارة العربية الإسلامية،** ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.
14. إلهام محمد علي ذهني : **بحوث ودراسات وثائقية في تاريخ أفريقيا الحديث،** ط1، مكتبة الأنجلو المصري، القاهرة ،2009.
15. أمحمد مصباح الأحمد: **تاريخ العلاقات العربية الأفريقية،** ط1، دار الملتقى للطباعة و النشر، 2000.
16. بيير جوردا:**الرحلة الى الشرق**،رحلة الأدباء(الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر)،ترجمة مي عبد الكريم و علي بدر،ط1،دار الأهالي للطباعة و النشر،دمشق،2000.
17. ج.ت.ف.هيجل: **محاضرات في فلسفة التاريخ**،ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، المطبعة الكاثوليكية،بيروت،لبنان 1983.
18. ج.ن. أوزويغوي : **تقسيم أفريقيا على يد الأوربيين ، نظرة عامة، تاريخ إفريقيا العام ، المجلد السابع ،(إفريقا في ظل السيطرة الأستعمارية (1880-1935))**، إصدار منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، لبنان ، 1990.

19. جاري ب. ناش: **الحمر و البيض و السود، تاريخ الصراع العنصري في أمريكا**، ترجمة: مصطفى أبو الخير عبد الرزاق:، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995.
20. جاك مندلسون : **الرب والله وجوجو –الأديان في إفريقيا المعاصرة** ، ترجمة إبراهيم أسعد محمد ، دار المعارف ، القاهرة، مصر ، 1971.
21. جبريل.ت.نياني: **مالي والتوسع الثاني للماندانغ**،تاريخ إفريقيا العام، المجد الرابع،اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988.
22. جلال يحي : **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر** ،ط1 ، المكتب الجامعي الحديث ،الإسكندرية مصر ، 1999.

23. جوان جوزيف : **الأسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء** ، ت مختار سويفي ، ط1، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، مصر ،1984.
24. جوزفين كام: **المستكشفون في لإفريقيا**، ترجمة يوسف نصر، دار المعارف،القاهرة،مصر،1983.
25. جون أليف : **الأفارقة تاريخ القارة** ، ترجمة أمل أبو موسى ، ط1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والأعلان ، مصراتة ، ليبيا ، 2000.
26. جيان:**وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق أفريقيا**، ص 205-207**.**
27. جيمس دفي **: البرتغال في إفريقية** ، ترجمة جاد طه ، مراجعة شوقي الكيال ، ط1، دار المعارف،القاهرة،مصر،1983.
28. حسن إبراهيم حسن : **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي** ، ط1 ، دار الجبل بيروت ، 2001.
29. حسن احمد منصور : **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**، ط1،دار الفكر العربي ،القاهرة ، 2001 .
30. الحسن الشاهدي، **أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني**،ج2،ط1،مطابع عكاظ ،الرباط ،المغرب ،1990.
31. حسن الناطق السر بشير : **التنصير والتغلغل الأستعماري في إفريقيا**،مطبعة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان ، 1988.
32. حسن جبر:**أسس الحضارة العربية الإسلامية ومعالمها**، ط2، دار الكتاب الحديث، الكويت، 1999.
33. حسن محمود حسين:**أدب الرحلة عند العرب**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1968.
34. حسين مؤنس: **ابن بطوطة(1304-1368) و رحلاته**، دار المعارف، القاهرة، 1980.

35. حسين مؤنس: **تاريخ الجغرافيا و الجغرافيين في الأندلس**، ط 1، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد 1964.
36. حسين مؤنس: **مكان المسلمين في التاريخ العام لعلم الجغرافية**، دراسات في الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن 15م، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985،
37. الحسيني الحسيني معدّي **: الأساطير الأفريقية ،** ط 1 ، موسسة كنوز للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، 2009.
38. حلمي إسماعيل محروس**: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر من الكشوف الجغرافية إلى قيام منظمة الوحدة الإفريقية،** ج 1، ط1، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، 2004.
39. حماه الله ولد السالم: **الإسلام و الثقافة العربية في الصحراء الكبرى**،، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2010
40. حمد مسعود جبران: **أبحاث و تحقيقات في تراث الغرب الإسلامي**: ط1،دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، (بدون تاريخ).
41. خضر موسى محمد حمود**: أدب الرحلات و أشهر أعلامه العرب و نتاجهم،** ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 2011.
42. خوان غويتيسولو**: في الإستشراق الإسباني:دراسات فكرية،** ترجمة عن الأسبانية كاظم جهاد ، ط2 ، (طبعة منقحة و مزيدة) ،نشر دار الفلك،الدار البيضاء 1997،
43. دودو (ابو العيد)، **الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830 - 1855**، ط1، الجزائر:المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989 .
44. دونالد إيدز : **تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء** ، ت علي أحمد ، ومتولي عطاالله ، ج 3 ، مؤسسة العرب ، ، القاهرة ، 1976
45. دياب فوزية: **القيم و العادات الاجتماعية**، دار الكاتب الجامعي للطباعة النشر، القاهرة، 1966.
46. رفعت الجوهري: **شريعة الصحراء-عادات و تقاليد-**، ط1، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأمريكية، القاهرة، مصر، 1961.
47. رنا القباني **: أساطير أوربا عن الشرق** ، دار طلاس ، دمشق ، 1988.
48. رولاند أوليفر جون فيج: **تاريخ إفريقية**،ترجمة عقيلة محمد رمضان،ط1،دار القومية للطباعة و النشر ،د ت.
49. ريتشارد سوذرن: **صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى**، ترجمة و تقديم: رضوان السيد، بيروت معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى، 1984.
50. زاهر رياض : **تاريخ كشف القارة الأفريقية منذ أقدم العصور** ، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة ، 1969.

51. زاهر رياض: **مصر وإفريقيا**،ط1، مكتبة الإنجلومصرية، القاهرة،مصر، 1976.
52. زكي النقاش: **العلاقات الآجتماعية و الثقافية و الاقتصادية بين العرب و الفرنج خلال الحروب الصليبية**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1958.
53. زكي محمد حسن:**الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى** ،دار المعارف،مصر،1945.
54. زيادة نقولا :**الجغرافيا والرحلات عند العرب**، ط1، مؤسسة ناصر القافية،بيروت ، د.ت.
55. زينب عصمت راشد: **المختصر في تاريخ أوروبا الحديثة**، القاهرة،1975 .
56. س هوارد:**أشهر الرحلات إلى غرب إفريقيا** ،ترجمة :عبد الرحمان عبد الله الشيخ ،ط1،الهيئة المصرية للكتاب ،1996.
57. سافيدج، كاترين : **قصة إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى** ، ترجمة راشد البراوي ، دار النهضة ، القاهرة ، مصر ، 1963.
58. سعد الخادم:**المؤامرات الاستعمارية على تراثنا الفني**، ط1، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1966.
59. سعد الدين الأمين : الصراع بين الأسلام والنصرانية في سيراليون.
60. السعيد الورقي، **في مصادر التراث العربي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر، سنة 1979
61. سعيد مرسي احمد سعيد إسماعيل علي : **تاريخ التربية والتعليم**، ط1 ، عالم الكتب ، القاهرة ،1982.
62. سليمان فياض: **ابن بطوطة، رحالة الإسلام**، ط2، مركز الأهرام، القاهرة، 1986.
63. سيكيني مودي سيسوكو : **سنغاي من القرن الثامن عشر الى القرن السادس عشر** ، تاريخ افريقيا العام ،المجلد 4، اليونسكو.
64. شكري محمود محمد أحمد أنيس: **أوروبا في العصور الحديثة**: القاهرة: 1957.
65. شوقي عبد القوي عثمان : **التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك** ، ط1 ، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ، مصر 2000.
66. شوقي عطا الله الجمل: **تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها**، مكتبة الأنجو المصرية، القاهرة، 1971،
67. شوقي عطاالله الجمل ،عبدالله عبدالرزاق **: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر** ،ط1، المكتبة المصرية للمطبوعات ، القاهرة ، 1986.

68. صالح بعيزيق: **رحلة ابن بطوطة والتاريخ الاقتصادي لبلاد المغرب والسودان والمشرق في النصف الأول من القرن 08ه/14م**،منشورات الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية،تونس، 2010.
69. صبري الهيتي وأخرون،**الفكر الجغرافي وطرق البحث**،ط1،منشورات جامعة الموصل،بغداد ،العراق،1985.
70. صلاح الدين المنجد : **مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين** ، ط1، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، 1963
71. ضيف الله محمد الأخضر:**محاضرات في النظم الإسلامية والحضارة العربية** ، ط1 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1984.
72. الطيب عبدالرحيم الفلاتي : **جرائم الأختراقيين الثقافية في التراث والتربية الأسلاميين** ، منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية ،جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان ، 1998.
73. عبد الجبار ناجي: **دراسات في تاريخ المدن العربية و الإسلامية**، ط1، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر، بيروت، لبنا ن، 2001.
74. عبد الجبار ناجي: **دراسات في تاريخ المدن العربية والإسلامية**، ط1، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، 2001.
75. عبد الجليل التميمي: **الثقافة العربية الإسلامية بأفريقيا جنوب الصحراء-غرب أفريقيا- " أنموذجا**، ط1، منشورات التميمي للبحث العلمي و المعلومات،تونس ،1997.
76. عبد الحليم عويس: **الحضارة الإسلامية ابداع الماضي و آفاق المستقبل**، ط1، دار الصحوة، القاهرة، مصر، 2010.
77. عبد الحميد بكري : **النبذة في تاريخ توات وإعلامها من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر** ، ط1 ، دار الغرب للنشر والتوزيع وهران ، الجزائر ، 2007.
78. عبد الرحمن زكي: **المراجع العربية للتاريخ الإسلامي**، ط2 ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر ،1998.
79. عبد القادر زبادية: **الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا جنوب الصحراء** ،ط1،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،1989.
80. عبد القادر زبادية: **دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر و مؤلفات العرب و المسلمين**، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010.
81. عبد المجيد القدوري: **المغرب و أوروبا ما بين 15 -18 م (مسألة التجاوز)**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،2000.

82. عبد الهادي التازي: **المستدركات على تحقيق رحلة ابن بطوطة**، ط1، منشورات وزارة الثقافة ، الرباط، المملكة المغربية،د س ن.
83. عبدالجليل شلبي : **الأرساليات التبشيرية** ،ط1، دار المعارف ، الأسكندرية ، مصر ، 2001.
84. عبدالرحمان أحمد عثمان: **فهرست تحليلي لمصادر دراسة الأسلام في إفريقيا** ،ط1 ، دار المركز السلامي للطباعة ، 1991/1411، الخرطوم ، السودان .
85. عبده بدوي : **مع حركة الإسلام في إفريقية** ، ط 1 ، الهيئة المصرية العامة للتأليف،1970.
86. عدنان حداد: **من روائع الأدب الإفريقي**،ط1،دار البيروني للطباعة والنشر،2001.
87. عماد الدين، فايز الربيع، **الوسيط في الحضارة**، ط1، مطبعة الفنون، عمان، الأردن، 2004،
88. عميراوي أحميدة، **من الملتقيات التاريخية**، ط1،قسنطينة : دار البعث، 2001.
89. غارق أحمد مصطفى و آخرون: **دراسات في التراث الشعبي**، ط1، دار المعرفة الجامعية للطبع و النشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، 2008.
90. غزال أحمد حسن : **أضواء جديدة على التمييز بين أمون ليبيا وزيوس قونية ــليبيا القديمة-** ، اليونسكو ، 1988، .
91. فاروق أحمد مصطفى و آخرون : **دراسات في الأنثروبولوجيا**، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، 1985.
92. فتحي محمد أبو عيانة : **جغرافية إفريقيا دراسة إقليمية للقارة مع التطبيق على دول جنوب الصحراء**، دار النهضة العربية، بيروت، 1983، د/ت، .
93. فتحية النبراوي: **تاريخ النظم و الحضارة الإسلامية**، ط6،الدار السعودية للنشر و التوزيع، جدة،السعودية ، 1996.
94. فرج محمود فرج:**إقليم توات خلال القرنين الثامن والتاسع عشر**، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007.
95. فؤاد سيزكين: **محاضرات في تاريخ العلوم**، ط1، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1989.
96. فؤاد قنديل: **أدب الرحلة في التراث العربي**، دار الكتاب العربية، القاهرة، 2002.
97. فيليكس ديبوا: **تنبكت العجيبة** ،ترجمة عبد الله عبد الرزاق إبراهيم،مراجعة شوقي عطا الله الجمل،المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة-2003.

98. كارل بروكلمان:**تاريخ الشعوب الإسلامية**،ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي،ط5،دار العلم للملايين،1968

99. كراتشكوفسكي أغناطيوس يوليانوفتش: **تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب،** ترجمة صلاح الدين هاشم ،القاهرة ،1961.

100. كلود قوتييه : **إفريقيا للإفريقيين** ، ترجمة كمال يونس ، ط1، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ .

101. كولين ماكيفيدي : **أطلس التاريخ الإفريقي** ، ت مختار السويفي ، ط1 الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1987.

102. كولين ماكينيدي: **أطلس التاريخ الأفريقي،** تر: مختار السويفي، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987.

103. م. طالبي: **اشعاع الحضارة المغربية و تأثيرها على الحضارة الغربية،** تاريخ إفريقيا العام، مج 4، إفريقيا من القرن 12 إلى 16: اليونسكو، 1988.

104. مادهو بانيكار: **الوثنية والإسلام** ،ترجمة أحمد فؤاد بلبع،المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة ،1995.

105. مارمول كربخال**:** **إفريقيا** ،ترجمة عن الفرنسية :محمد حجي و أخرون ،دار النشر ،الرباط ،المغرب.

106. مجد الدين الفيروز ابادي**:** **القاموس المحيط** ،ج1، دار الفلك، بيروت، لبنان ، 1983.

107. مجموعة من الباحثين : **الحضارة الآسلامية في مالي،** ت محمد وقيدي ،ط1، منشورات المنظمة الأسلامية للتربية والعلوم الثقافة ،الرباط،1996.

108. مجموعة من الباحثين:**إفريقيا والثقافة العربية الأسلامية** ، مجموعة أبحاث ، منشورات الأسيسكو ، الرباط 1987.

109. محمد الجوهري: **علم الفلكلور دراسة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية،** دار المعارف، مصر، 1975.

110. محمد الشرقاوي**:** **رحلة مع ابن بطوطة من طنجة إلى الصين و الأندلس و إفريقيا**، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، 1968.

111. محمد الصالح حوتية : **توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة (بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر)-** دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية ج 2، ط1، ، دار الكتاب العربي، الجزائر ،2007.

112. محمد الغربي **:** **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي** ، معهد الدراسات الأفريقية ، القاهرة ،د س ن.

113. محمد حسين فهيم:**أدب الرحلات**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت، 1989.

114. محمد راداوي: **الرحلات المغربية و الإسلامية، و أعلامها في الأدب العربي القديم و المعاصر (دراسة نصوص)** مكتبة الملك فهد، مطالع الفرزدق، الرياض، ط02، سنة 1995.

115. محمد عابد : **"يقضة الوعي العروبي في المغرب، مساهمة في نقد السوسيولوجيا الإستعمارية في المغرب"،ط1.** دار الأمان ،الرباط ،المغرب، 1988.

116. محمد عبد الغني حسن، **الشريف الإدريسي**، سلسلة أعلام العرب ،رقم 97، القاهرة.

117. محمد عبد الغني سعودي : **قضايا إفريقية** ، ط1 ، مطبع الكوثر ، الكويت ، 1980/1400.

118. محمد عبد الفتاح إبراهيم : **افريقية من السنغال إلى نهر جوبا** ، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1961.

119. محمد عبدالعزيز إسحاق: **نهضة إفريقيا** ، الهيئة المصرية للتاليف والنشر، القاهرة ،مصر ، 1971.

120. محمد عبده محجوب: **أنثروبولوجيا الزواج و الأسرة و القرابة**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،مصر،1985.

121. محمد عبده محجوب: **طرق البحث الأنثروبولوجي (النسق القرابي)**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مص، 1985.

122. محمد علي عيسى أبو قاسم و آخرون: **التواصل الثقافي بين ضفتي الصحراء الكبرى في أفريقيا**، ط1، دار الوليد لللنشر و التوزيع، طرابلس، ليبيا،2004.

123. محمد فاضل علي باري ، سعيد إبراهيم كريدية **: المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ حضارة** ،ط1 ، دار الكتب العلمية بيروت 2007.

124. محمد محمود محمدين:**التراث الجغرافي الإسلامي**،ط4،دار العلوم للطباعة والنشر،الرياض ،المملكة العربية السعودية،2003.

125. محمد معروف الدواليبي: **دراسة تاريخية عن أصل العرب حضارم الإنسانية،** دار الكتاب الجديد، بيروت، 1981.

126. محمد مؤنس أحمد عوض : **الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس** ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1992.

127. محمود السيد :**تاريخ إفريقيا القديم والحديث** ،ط1،مؤسسة شباب الجامعة ،الأسكندرية ، 2006.

128. محمود بن محمذن: المجتمع البيضائي،

129. مطير سعد غيث: **الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي (خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة/ السادس عشر والسابع عشر للميلادي)**، ط1 ،دار الكتب الوطنية ،بنغازي، ليبيا، 2005.
130. المنجد، صلاح الدين:**مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين**، نصوص جمعها وقدم لها وعلق عليها صلاح المنجد، بيروت ، 1963 .
131. ميشيل كامل : **الأستعمار في إفريقيا** ، ط1، مؤسسة نصار للتوزيع والنشر، 1963.
132. نادية محمود مصطفى:العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، ج10، **العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية**، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة،1996.
133. الناني ولد الحسين**: صحراء الملثمين**، ط1، دار المدار الإسلامي،، بيروت، لبنان، 2007.
134. نعيم زكي فهمي:**طرق التجارة الدولية و محطاتها بين الشرق و الغرب أواخر العصور الوسطى**،الهيئة العامة المصرية للكتاب ،القاهرة،1973.
135. نعيم قداح: **حضارة الإسلام وحضارة أوروبا**، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
136. نقولا زيادة:**إفريقيات، دراسات في المغرب العربي و السودان الغربي**، ط2، مكتبة رياض، المريس، لندن، 1991.
137. الهادي المبروك الدالي: **التاريخ الحضاري لإفريقيا في وراء الصحراء في نهاية القرن الخامس عشر ، إلى بداية القرن الثامن عشر** ، ط2، طرابلس ، 2001.
138. الهادي مبروك الدالي: **دراسة حركات التبشير و التنصير بمنطقة أفريقيا فيما وراء الصحراء**، ط1، الدار المصرية للنشر و التوزيع، القاهرة، 2002.
139. الهادي مبروك الدالي: **مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا (من القرن 13 حتى القرن 15م)**، ط1، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1993.
140. ولتر ماركوف ، هارموت تيمسوفسكي : **إفريقيا على ضوء العلوم التاريخية** ، مجلة الثقافة الإفريقية ، الجزائر 1969 .
141. يحي بوعزيز :**تاريخ إفريقيا الغربية الاسلامية من مطلع القرن (16-20م)**،دار هومة ،الجزائر 2001.
142. يحي مراد: **معجم أسماء المستشرقين**، دار الكتب العربية، القاهرة، 2006.
143. يوسف فضل: **إنتشار الأسلام في إفريقيا** ،ط1، مطبعة جامعة الخرطوم ،1979.

144. محمود السيد :**تاريخ إفريقيا القديم والحديث** ،ط1،مؤسسة شباب الجامعة ،الأسكندرية ، 2006

- **المجلات والدوريات والندوات:**

1- فارق إمام محمد : **تاريخ التعليم في شمال نيجيريا** : ندوة التعليم الأسلامي في إفريقيا ،1988، مطابع جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ،1992 .
2- أحمد أبو زيد: التراث الشعبي: **ترجمة أثنوجرافية للمجتمع**، ندوة التراث الشعبي والذات العربية،بغداد ، نوفمبر 1976 .
3- أحمد الشكري: **المصادر العربية المتعلقة ببلاد السودان فيما بين القرن 8 ه/15 م، القراءة و التأويل**، مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية، العدد25،الرباط، 2005.
4- أحمد الشكري: **مقاربة تقييمية لدور الصحراء في علاقات بلاد المغرب ببلاد السودان خلال العصر الوسيط**، مجلة المناهل ،عدد خاص عن الصحراء، رقم 58، 1998.
5- أحمد الهلايلي**: مشاهدات سفير مغربي بأسبانيا في القرن الثامن عشر**، مجلة البحث العلمي، عدد 02، الرباط، المغرب، 1964
6- أحمد جروزا طاهر : **أسس تعايش المسلم مع العادات والتقاليد الاجتماعية الإفريقية**،مجلة علوم إنسانية السنة السابعة العدد 45 ،2010 ، www.ulumanl.com . 06.07.2010 .
7- أحمد محمد كاني : **المخطوطات العربية في السودان الأوسط** ، مجلة دراسات إفريقية ،مركز البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، ،العدد الثامن والعشرون ،شوال 1423هـ ديسمبر ، 2002.
8- أم سلمى الحسني: **صورة الغرب في الرحلة المغربية -رحلة الصغار نموذجا-** مجلة المنعطف، وجدة، العدد 6 -7، سنة 1414 ه/ 1993 م.
9- أمجد ممدوح الفاعوري : **رحلات بيركهارت في شرقي الأردن و دورها في التواصل الحضاري قراءة في مستويات من التواصل** ،مجلة كلية الآداب، جامعة الأ سراء، العدد03، الأردن ،2010.
10- الأمين أبو منقة: **أثر الإسلام و اللغة العربية في أدب الهوسا**، مجلة الدراسات الأفريقية، جامعة إفريقيا العالمية ،الخرطوم ،السودان ،ع 11، يوليو1994.
11- جمال زكريا قاسم : **العلاقات العربية الأفريقية – دراسة تاريخية للآثار السلبية للأستعمار** ، مجلة البحوث والدراسات الإفريقية،العدد547، القاهرة ،1977.

12- جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث: **التراث الإسلامي**، ج1، ترجمة محمد زهير السمهودي و آخرون: مجلة عالم المعرفة، المحلس الثقافي للفنون و الآداب، الكويت، جانفي 1978.
13- حسن أحمد إبراهيم : **بلاد السودان الغربي والأوسط في المصادر الإسلامية** ،مجلة التجديد ،الجامعة الإسلامية ماليزيا ، العدد11، السنة06 ،2002.
14- حسن أحمد إبراهيم: **بلاد السودان الغربي و الأوسط في المصادر الإسلامية** ،مجلة آفاق الإسلام ، بيروت، لبنان ، العدد 44 ، جانفي 2003.
15- حسن الصادقي: **مخطوطات عربية مصدرا للدراسات الأفريقية**، مجلة المغرب الأفريقي، عدد 5، مطبعة الكوثر، الرباط، المغرب، 2004.
16- حسن الصادقي: **مخطوطات في موضوع أفريقيا**، منشورات معهد الدراسات الأفريقية، الرباط، 1993.
17- حسين مهدي صالح : **جني من المملكة الوثنية إلى المملكة الإسلامية** ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة .
18- حلمي شعراوي : **تراث مخطوطات اللغات الأفريقية بالحرف العربي**، مطبعة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم، السودان.
19- حيدر جاسم الرويعي، **تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوربي من خلال كتابات الرحالة الأوربيين**، مجلة القادسية في الآداب و العلوم التربوية المجلد 10 ، (العددان 3-4)، العراق ،2011.
20- خالد شكراوي: **فاس من خلال المصادر السودانية-قراءة أولية-** منشورات معهد الدراسات الأفريقية، الرباط المغرب، 1993.
21- خديم محمد مباركي: **مخطوطات المعهد الأساسي لأفريقيا السوداء، جمعها و حفظها و استغلالها**، مجلة المغرب الأفريقي، العدد 01، منشورات معهد الدراسات الأفريقية، مطبعة الكوثر، الرباط. 2000.
22- داءود ،و،س، : **شباب اليوربا المسلم والتعليم الذي تدعمه الكنيسة**، ترجمة عبداللطيف سعيد ، ندوة التعليم الأسلامي في إفريقيا ، 1988، مطابع جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم ، 1992.
23- رابح درفور: **شروط اختيار المخطوطات للرسائل الجامعية**، مجلة رفوف ، العدد الأول، جامعة أدرار،الجزائر ،جوان 2013.
24- سكيني مودي سيسوكو : **نزعة تومبوكتو في وحدة العالم الأفريقي** مجلة الثقافة الإفريقية ، الجزائر 1969.
25- شارنو كاه الحبيب: **الثقافة الإسلامية بافريقيا جنوب الصحراء** ،منشورات مؤسسة التميمي ،تونس،د س ن .

26- شعيب حليفي : **الرحلة المغربية إلى أوربا النص والصورة**،أعمال ندوة الرحالة العرب والمسلمون- المغرب منطلقا وموئلا ،مطبعة، النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب،نوفمبر2003.

27- شوقي عطا الله الجمل: **تنبكت و علاقتها بالمغرب قبل حملة المنصور السعدي و تحت الحكم المغربي**، الندوة الدولية، المغرب و إفريقيا جنوب الصحراء في بدايات العصر الحديث، ط 1، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1995.

28- صلاح الدين الحافظ:**صراع القوى العظمى حول القرن الإفريقي**، عالم المعرفة، الكويت، 1982.

29- صلاح الدين الشامي: **الرحلة في المحيط الهندي و دورها في خدمة المعرفة الجغرافية**، مطبعة عالم الفكر، وزارة الاعلام، الكويت، مج 13، عدد 04، مارس 1983.

30- عبد الباقي محمد أحمد:**الدور الثقافي للشيخ أحمد بابا التنبكتي**، مجلة دراسات أفريقية، العدد، 8،جامعة إفريقيا العالمية ،الخرطوم ، 1991.

31- عبد الجليل التميمي : **كتاب نيل الابتهاج في تطريز الديباج** ،المجلة المغربية للتوثيق و المعلوما ت ، العدد 03مارس 1985 ،تونس.

32- عبد الرحمان أحمد عثمان : **أوجه الاختلاف بين النظم الاستعمارية في إفريقيا** ، مجلة دراسات إفريقية ، جامعة إفريقيا العالمية ، العدد العاشر ، ديسمبر 1993.

33- عبد الرحمان أحمد عثمان : **أوجه الخلاف بين النظم الاستعمارية في إفريقيا (بريطانيا والبرتغال وفرنسا)**، مجلة دراسات إفريقية ، العدد العاشر ، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم السودان ،ديسمبر 1993.

34- عبد الرحمان أحمد عثمان: **أوجه الخلاف بين النظم الاستعمارية في إفريقيا(بريطانيا و البرتغال وفرنسا)**، مجلة دراسات إفريقية، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، العدد العاشر، جامعة الخرطوم، جمادى الأولى 1414ه، ديسمبر 1993.

35- عبد الرحمن أحمد عثمان: **تجربة المسيحية في مجتمعات غرب أفريقيا في القرن 19** م، مجلة دراسات إفريقية، العدد الثاني و العشرين، ديسمبر 1999.

36- عبد العزيز العلوي: **قراءة في كتاب تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له الأخوان في كرامات الشيخ أبو مروان**، ندوة الرحلة بين الشرق و الغرب، ط1، منشورات كلية الآداب، الرباط، المغرب، 2003.

37- عبد العزيز بن عبد الله : **الرحالة العرب والمسلمون من المغرب وإليه**،أعمال الندوة الدولية –الرحالة العرب والمسلمون اكتشاف الأخر المغرب منطلقا ومؤئلا ،ط1 ،مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء ،المغرب ، نوفمبر 2003.

38- عبد القادر زبادية : **ملامح الحركة التعليمية في تنبكت، خلال القرن السادس عشر** ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد 7- 8 ، 1977.
39- عبد القادر زبادية : **مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين (1493-1591)**،مجلة الاصالة العدد 58 ، الجزائر 1978.
40- عبد الله كنون: **ابن بطوطة**، مجلة مجمع اللغة العربية، ج4، عدد1، دمشق، جانفي 1965.
41- عبدالرحيم مودن:**معجم التواصل في الرحلة المغربية السفارية أثناء القرن التاسع عشر**، أعمال ندوة الرحالة العرب والمسلمون- المغرب منطلقا وموئلا ،نوفمبر 2003.
42- عبدالله عبدالرزاق غبرايم: **المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا** ، عالم المعرفة ، العدد139، سلسلة كتب ثقافية، المجلس الوطني للفنون والأداب ، الكويت ،ذوالقعة1409/جوان 1989.
43- عطا المنان نجيب الحاج : **التعليم الأسلامي في السنغال ، نشأته ومؤسساته وقضياه** ، ندوة التعليم الآسلامي في إفريقيا 1988،مطابع جامعة إفرقييا العالمية ، الخرطوم ، السودان ، 1992.
44- عطية الفوص : **محاولة العرب المسلمين كشف منابع النيل في القرون الأولى للأسلام** ، ندوة العرب في إفريقيا(الجدور التاريخية والواقع المعاصر)، جامعة القاهرة، ط1، دار المعرفة الجامعية للطبع و النشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، 2008 .
45- علي باري مصطفى: **صراع الأفارقة**، مجلة مركز البحوث، جامعة محمد بن سعود، العدد الأول، الرياض، السعودية، 1928.
46- علي يعقوب : **الثقافة الأسلامية في غرب إفريقيا وأثار الاستعمار فيها** ، مجلة الجامعة الإسلامية ، النيجر ،2009.
47- علي يعقوب : **الثقافة الأسلامية في غرب إفريقيا وأثار الاستعمار فيها** ، مجلة الجامعة الإسلامية ، النيجر ،2009.
48- علي يعقوب : **اللغة العربية وآدابها في دولة سنغاي الإسلامية** ، مجلة علوم إنسانية ، السنة السابقة ، العدد 45 www.ulum.nl،2010.
49- علي يعقوب : **المناهج والمقررات التعليمية في الجمهورية النيجيرية** ، مجلة علوم إنسانية ، السنة السابعة ، العدد 45 ، 2010 ، **WWW.ULUM. org**.
50- عمار هلال: **مساهمة بعض الشخصيات السودانية في نشر الإسلام في غرب إفريقيا السوداء**، مجلة الأصالة، العدد 87 / 88، الجزائر، ذو الحجة 1400 - 1401 / نوفمبر – ديسمبر 1980.

51- عمر بن حمادي،**الرحلة عند المسلمين في العصور الوسطى ,أصنافها وأهميتها**،المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية،العدد39،منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية و الاجتماعية،تونس،2010.

52- عيسى أيوب الباروني : **قراءة في كتاب الصحراء الكبرى لجيمس ديليلارد** ،ترجمة أحمد الفرجاني، مجلة البحوث التاريخية ، السنة 14 ، العدد 01، جامعة الخرطوم ،السودان ،جانفي 1995.

53- عيسى أيوب الباروني : **قراءة في كتاب الصحراء الكبرى لجيمس ديليلارد** ،ترجمة أحمد الفرجاني، مجلة البحوث التاريخية ، السنة 14 ، العدد 01، جامعة الخرطوم ،السودان ،جانفي 1995.

54- الفاتح الزين الشيخ إدريس : **الحضارة العربية الأسلامية وأثرها الأيجابي في السودان الغربي (ممالك غانة ومالي وسنغاي)**، مجلة دراسات إفريقية ، العدد 39، السنة الرابعة والعشرون ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم ، السودان، 2008 .

55- فضل كلود : **الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لأمبراطورية كانم (600-1000هـ/1200-1600 م)**، منشورات كلية الدعوة الأسلامية ، الجمهورية الليبية الشعبية ، 1964.

56- فضل كلود : **الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لأمبراطورية كانم (600-1000هـ/1200-1600 م)**، منشورات كلية الدعوة الأسلامية ، الجمهورية الليبية الشعبية ، 1964.

57- فهمي توفيق محمد مقبل: **مأثر العرب و المسلمين في الحضارة الأوربية- الفكر الجغرافي أنموذجا-**، مجلة جامعة البتراء،الأردن ، 2009.

58- قاسم جاخاتي: **المخطوطات الأفريقية المكتوبة باللغة العربية و دورها في التعريف بالتراث الإسلامي في غرب أفريقيا مخطوطات أحمد بابا التنبكتي و الشيخ موسى كمرا نموذجا**، مجلة رفوف جامعة أدرار، جوان 2013.

59- كادي درامي : **التعليم العربي والعلوم الأسلامية في المدارس التقليدية بمالي**، ندوة التعليم الأسلامي في إفريقيا ، مطبعة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ،1988.

60- كمال عبد اللطيف: **صور المغرب و أوربا في أدب الرحلات المغربية**، مجلة فكر و نقد، الرباط ، ع2، 1997.

61- محمد أبو محمد: **سيادة المذهب المالكي في إفريقيا جنوب الصحراء في ظل الممالك الإسلامية**، أعمال الملتقى الدولي، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، 27/26 نوفمبر 2006.

62- محمد الحافظ مصطفى النقر : **إنتشار الأسلام في حوض السنغال** ،مجلة دراسات إفريقية ، العدد الحادي عشر ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم،، ماي1994 .

63- محمد المغراوي: **تنبكت ألف سنة من المكتبات**، مجلة مسالك المعرفة، المخطوطات العربية و العجمية في بلاد الصحراء و الساحل، منشورات معهد الدراسات الأفريقية، الرباط، 2006.

64- محمد المنصور: **تقاليد ثقافية مشتركة**، مجلة مسالك المعرفة، منشورات معهد الدراسات الأفريقية، الرباط، 2005.

65- محمد بن شريفة: **من أعلام التواصل بين بلاد المغرب وبلاد السودان:** منشورات معهد الدراسات الإفريقية: الرباط:1999.

66- محمد مجيد السعيد:**تاريخ التعليم عند المسلمين** ، مجلة أفاق الثقافة و التراث، جانفي 1999.

67- محمد محمد أمين:**علاقات دولة مالي وسنغاي بمصر في عصر سلاطين المماليك (1517،1250)**،مجلة الدراسات الأفريقية،العدد390،القاهرة،1974.

68- محمد مصطفى بن الندى: **دخول و انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء،** أعمال الندوة العالمية المنعقدة بتمبكتو حول " الثقافة العربية الإسلامية بإفريقيا أنموذجا، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات تونس، 1997.

69- محمود خيري عيسى: **العلاقات العربية الإفريقية، دراسة في أبعادها المختلفة،** مجلة الدراسات الإفريقية، عدد 513، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1977.

70- محمود مفلح البكر: **مدخل في التراث الشعبي**، منشورات وزارة الثقافة، مديرية التراث الشعبي، دمشق، 2009.

71- مصطفى رمضاني: **توظيف التراث و إشكالية التأصيل في المسرح العربي،** عالم الفكر ، ع4، المجلس الوطني للفنون و الاداب ،الكويت ،1987.

72- مهدي ساتي : **الإسلام والقيم الاجتماعية للجماعات الروحانية في إفريقيا جنوب الصحراء** . www .mbark-inst.org2010.06.28

73- مهدي ساتي: **معالم الجذور التاريخية لحضارات الهوسا وإنعكاس ذلك على حركة الشيخ عثمان دان فوديو**،الندوة العالمية للأحتفاء بالمجاهد الشخ عثمان دان فوديو،منشورات جامعة إفريقيا العالمية،الخرطوم ،السودان،1995.

74- موسى عبد السلام مصطفى أبيكن : **التقاليد الجاهلية في إفريقيا** ، مجلة علوم إنسانية السنة السابعة ، العدد 45، 2010.
.07.07.2010.www.ulumanl.com

75- ناصر الدين سعيدوني: **المدرسة التاريخية الأوروبية في القرن 16 م**، مجلة دراسات إنسانية، كلية العلوم الإنسانية ، جامعة الجزائر العدد 01.
76- ناصر عبد الرزاق الموافى: **الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، سلسلة أدب الرحلات ،دار النشر للجامعات المصرية مكتبة الوفاء، ط1، 1995.
77- نبيلة عبد المنعم داود: **السكن في التراث**، مجلة آفاق الثقافة و التراث، العدد 23، السنة التاسعة أفريل2001.
78- نجاة المريني: **نظرات في تحقيق الدكتور التازي عبد الهادي لرحلة ابن بطوطة:** ندوة الرحلة بين الشرق و الغرب، ط1، منشورات كلية الآداب، الرباط، المغرب، 2003.
79- هارون المهدي ميغا : **تحريف دلالات الألقاب والوقوع في أخطاء تاريخية بغرب إفريقيا (دلالات الملوك في إمبراطورية سنغاي نموذجا)**، مجلة دراسات إفريقية ، العدد45، السنة السابعة والعشرون، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم، السودان، جوان 2011 .
80- هارون المهدي ميغا **:إمبراطورية سنغاي ،دراسة تحليلية في الترتيب التاريخي للإمبراطوريات الإسلامية في غرب إفريقيا** ،مجلة دراسات افريقية،العدد37،مركز الدراسات الأفريقية ،الخرطوم،www.mubarak-inst.org .2010/07/12.
81- هاشم العلوي القاسمي: **أصول الروابط التاريخية بين المغرب و بلاد إفريقيا**، مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية، فاس، عدد خاص، 1989.
82- هشام جعيط: **"المصادر المكتوبة السابقة للقرن السادس عشر"**، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الأول، جين أفريك- اليونيسكو، باريس، 1983.
83- يوسف الخليفة أبو بكر: **الحرف العربي و اللغات الإفريقية** ، مجلة المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، تونس 1985.

- **الرسائل العلمية:**

1. احمد إبراهيم دياب : **علماء بلاد السودان الغربي في القرنيين السادس عشر والسابع عشر وآثارهم العلمية دور العلماء الافارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الاسلامية** ، معهد البحوث والدراسات العربية ، الخرطوم، 1973.

2. أحمد صقر سيد نجم : **التنافس بين بريطانيا وفرنسا في منطقة خليج بنين (1861-1906)**، رسالة دكتوراه، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة،1997.

3. أحمد صقرسيّد نجم : **التنافس بين بريطانيا وفرنسا في منطقة خليج بنين (1861-1906)** ، رسالة دكتوراه ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ، 1997.

4. إسماعيل زردومي: **فن الرحلة في الأدب المغربي القديم،** أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الحاج لخضر، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية و آدابها، باتنة،الجزائر ، 2005.

5. بلقاسم الحناشي : **الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر** ، رسالة دكتوراه ، كلية الأداب والعلوم الأنسانية ، جامعة تونس ، 1982.

6. بوشعيب حليفي: **الرحلة في الأدب العربي،** أطروحة دكتوراه الدولة ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية بنمسيك، جامعة الحسن الثاني، المغرب1998،-1999.

7. بولعسل كمال: **سيميائية الفضاء في رحلة أبي حامد الغرناطي**،مذكرة لنيل شهادة الماجستير – شعبة السرد العربي القديم- كلية الأداب و اللغات،قسم اللغة العربية وأدابها،جامعة منتوري،قسنطينة،الموسم الجامعي2006/2005.

8. الحافظ عبد الكريم سليمان : **التجارة في فزان بين كتابات الجغرافيين العرب والرحالة الأوربيين في الفترة (1500-1750 م / 906-1164 هـ)** ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم درمان ، السودان ، 2014.

9. حسين مهدي صالح **: جني من المملكة الوثنية إلى المملكة الإسلامية** ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة .

10. خالد الشكراوي: **الإسلام و السلطة في السودان الغربي في القرن 19 م،** أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، تخصص تاريخ، جامعة محمد الخامس، أكدال، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، 2001 -2002 .

11. خالد أوشن: **"النشاط الاقتصادي في النيجر الأعلى من سنة 1230 إلى سنة 1591 م،** أطروحة لنيل الدكتوراه (النظام الجديد) في التاريخ، جامعة محمد الخامس، أكدال، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية 2000 -2001، (مرقونة).

12. رزق مرقص رزق: **الوجود العربي في الكونغو**، رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ، 1975.

13. زهرة مسعودي: **الطرق الصوفية بتوات و علاقتها بغرب أفريقيا من قرن 18 إلى القرن 20 م**، رسالة ماجيستير، جامعة أدرار، 2006.

14. زينب احمد هاشم : **علاقة مصر بالدول الإسلامية في حوض نهر النيجر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين** ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية القاهرة ،1982.

15. ساسي سعيد : **مساهمة في دراسة تاريخ الحياة الدينية في السودان الغربي خلال العصر الوسيط –الدين والعلم في عصر الأسيكيين-(1493-1591)**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ ، جامعة سيدي محمد بن عبدالله، كلية الأداب والعلوم الأنسانية ، شعبة التاريخ ،فاس ،المغرب ،1991.

16. سلا محمد فودي : **ثورة سيكوتوري في غينيا** ، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم، السودان ،نوفمبر 1993.

17. الشيخ الأمين محمد عوض الله : **العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغاي** ،رسالة ماجستير ، ط1 ، دار المجمع العلمي ، جدة ، 1979 .

18. عبد الحميد جنيدي : **مدينة تنبكت ودورها الحضاري خلال القرن 10-16م** ،مذكرة ماجستير ،معهد التاريخ ،جامعة الجزائر ،2010.

19. عبد الرحيم مودن: **مستويات السرد في الرحلة المغربية** في القرن 19م، أطروحة دكتوراه الدولة ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس،1994 -1995.

20. عبد السلام عبد العزيز فهمي : **نصاب الصبيان ومسيرة ستة قرون في تعليم اللغة العربية للمسلمين غير الناطقين بها** ،ط1 جامعة ام القرى ،المملكة العربية السعودية .

21. عبد السلام محمد موسى صقر : **جهود لوجارد في خدمة الإمبراطورية البريطانية في غرب إفريقيا (1894-1919)**، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ،مصر ، 1986.

22. عبد العزيز العلوي،**تأثيرات بلاد المغرب على حضارة السودان الغربي في العصر الوسيط الدين و الفكر**،أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب- تاريخ ،جامعة سيدي محمد بن عبد الله ،كلية الآداب و العلوم الإنسانية فاس- سايس،1999.

23. عبلة محمد سلطان:**العناصر المغاربية في السودان الغربي – دورها السياسي و الحضاري منذ ظهور المرابطين حتى نهاية دولة سنغاي** ،رسالة دكتوراه،مركز الدراسات و البحوث الافريقية ،جامعة القاهرة ،مصر ،1999.

24. عثمان منادي: **الحياة العلمية في حواضر الممالك الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء**،مذكرة ماجيستير، معهد التاريخ ،جامعة الجزائر. 2011.

25. علي بدوي علي سليمان: **الطريقة القادرية والأستعمار الفرنسي في موريطانيا (1903-1960)**، رسالة ماجستير،معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة ،مصر ، 2003.

26. عمر مشري محمد بشير: **نصوص ووثائق من المصادر العربية عن بلاد القرن الأفريقي** ، رسالة دكتوراه ، جامعة الخرطوم ، السودان ، 1996.

27. ماجدة كريمي: **آثار التجارة الصحراوية على المغرب سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا (من القرن 5 ه 8 ه/ من ق 11 –ق 14 م)**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب –التاريخ –كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب، 1995.

28. مجتبى عمر جلال أحمد إبراهيم: **الأمام محمد بن عبد الكريم المغيلي ودوره السياسي والديني في بلاد السودان الغربي 1417-1503)**، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، جامعة الخرطوم ، 2012.

29. محمد أنور توفيق أبو علم : **دولة سنغي الإسلامية تطورها الاقتصادي والاجتماعي والحضاري(1591/1493)**،رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ،جامعة القاهرة ، مصر ،1977.

30. محمد حسن: **برازا ودوره في مد النفوذ الفرنسي في الكونغو** ، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ، مصر ، 1991.

31. محمن لولي أبوبكر : **الطوارق ودورهم في مقاومة الأستعمار الفرنسي في دولة النيجر (1880-1920)** ، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم، 2013.

32. محمود فريد شديد زمزم : **السنغال تحت الحكم الفرنسي (1885-1960)**، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة، 1989.

33. مرتضي سعد الدين الأمين : **الصراع بين الأسلام والنصرانية في سيراليون في القرنين (الثامن عشر والتاسع عشر)**، رسالة ماجستير ، كلية الأداب ، جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان، نوفمبر2012.

34. مسعود خالدي:**الجاليات العربية والبربرية في إفريقيا جنوب الصحراء،بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين،الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين**،رسالة دكتوراه،كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية ،جامعة باتنة ،2007-2008.

35. مفتاح يونس رياض: **العلاقات بين بلاد المغرب ودولة كانم –برنو، القرن السابع والعاشر الهجريين/الثالث السادس عشر الميلاديين**، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ –معهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة 2005/2004.

36. موسن سعدالدين الروبي : **الحاج عمر الفوتي التكروري ودوره في السودان الغربي (1997-1865)**، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة ، مصر ، 1984.

37. نصر الدين رضوان حمد:**التطور التاريخي لسياسة فرنسا في غرب إفريقيا 1939م-1960م**، رسالة ماجستير، معهد البحوث و الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، مصر، 1975.

38. وداد نصر محمد السيد الطوخي : **مدينة تنبكت منذ نشأتها وحتى دخول السعديين** ، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ،1986.

- **الموسوعات والمعاجم:**

1. احمد شلبي : **موسوعة التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية** . ج2، ط1 ، مكتبة النهضة المعربة ، القاهرة ، 1973 .
2. مجد الدين الفيروز ابادي: القاموس المحيط ،ج1، دار الفلك، بيروت، لبنان ، 1983، مادة كشف ، ص652 .
3. هشام جعيط: **"المصادر المكتوبة السابقة للقرن السادس عشر"**، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الأول، جين أفريك- اليونيسكو، باريس، 1983.
4. يحي مراد: **معجم أسماء المستشرقين**، دار الكتب العربية، القاهرة، مصر، 2006.
5. مجد الدين الفيروز ابادي**: القاموس المحيط** ،ج1، دار الفلك، بيروت، لبنان ، 1983.
6. م. طالبي: **اشعاع الحضارة المغربية و تأثيرها على الحضارة الغربية**، تاريخ إفريقيا العام، مج 4، إفريقيا من القرن 12 إلى 16: اليونسكو، 1988.
7. ج.ن. أوزويغوي : **تقسيم أفريقيا على يد الأوربيين ، نظرة عامة، تاريخ إفريقيا العام ، المجلد السابع ،(إفريقا في ظل السيطرة الأستعمارية (1880-1935)**، إصدار منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، لبنان ، 1990.
8. جبريل.ت.نياني: **مالي والتوسع الثاني للماندانغ**،تاريخ إفريقيا العام، المجد الرابع،اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988.
9. أحمد زكي بدوي: **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، مطبعة ساحة رياض الفتح، بيروت، لبنان، 1977.

-المراجع الأجنبية:

1- . Paul Bohannan& Prilipcuntaio ; Africa and Africans ; levised Edition ; the piblished for the American Museum of Natural Aistory press ;the Natural Aistory press ; Garden city; New York ; 1971; p 169.

2- j.E.Harris: Africans their history, New yourk, 1972 (PDF). .

3- GEMAiNAYACHE : Etudes D’histoire¸2eme éditions¸ RABAL¸ 1983¸ (PDF).
4- Mauny(r),1967,Tableau géographique de l’ouest africain au Moyen Age,d’apres les sources écrites,la tradition et l’archeologie,Amsterdam,2ed.Memoires de l’IFAN, n°61(PDF).
5- -Yattara El mouloud et Diallo Boubacar Séga :Le Mali précolonial *. www.histoire-afrique.org.*-06.11.2010.
6- Isaac Ayinde Adalemo " Small Urban Centres in Nigeria´s Development, strategy:therole of eural Morket Centres in Small Urban centres in Rural Development in Africamad ; by Aidam Southall ; African Stuies Programme university of wiscousion; 1979
7- Bascom william: Four Funtions of Folklore, in the study of Folklore , 1972 ,International Ency clopeadia of the social sciences, Macmillan compary , the free, N. Y. Vol. 5- 6. U. S. A .
8- -Robert ‹keitb‹A:religion in sociological perspective ‹ the porsey press .vvs.a.1984. P100.(PDF).
9- Laach Edmund: Culture and communicationcambridage, Universty press, london, N. V. .(PDF).
10- Harviland William , Anthropology Holt Riehart and winston, U. s. A,1974 ..(PDF).
11- .Robert Keitb, Religion in sociological perspective, the dorsey press, U. s. A,1984,. (PDF).
12- Kessing Roger M,cultural Anthropology Acontemporary Perspctive, Holt Riehart and winston, N. Y.1981
13- .. J.E.Harris :africans and their history .NeWyork, 1972, p 16.(PDF).
14- -J. Devisse, D, et S,Robert: Tagdaoust, recherches sur Aoudaghost, Paris
15- , -C. Vanacker: Tagdaoust II: recherches sur Aoudaghost, Fouille d’un quartier artisanal, Mémoires de l’IMRS, Nº2/ 1979

16- J. Devisse, D, et S,Robert: Tagdaoust III : recherches sur Aoudaghost : Campagne 1960- 65 :Enquétes générales, Ed. Rech. Sur Les Civilusations, Mém Nº 25
17- J. Polet: Tagdaoust IV:Fouille d'un quartier medieval d' Aoudaghost, Ed. Sur Les Civilus ,Mém N 54.
18- Robert vernet: la Mauritanie des origins au début de l'histoire, Université de Paris I, 1983 ,3 vol. .(PDF).
19- Abdel-rahman ahmed osman : islam in africa , islamic african centre , depertment of research and publications,khortoum,1991,.
20- Doiron(n),LDoiron(n),L'art de voyager,paris,1995. (PDF).
21- Touati (H) : islam et voyage au moyen âge. Editions du seuil,paris, 1994.
22- H. houranis, the Islamic city, Brimo cassirer Oxford And University of Pennsybrania Press. 1970.
23- Maurice Delafosse: les noirs de L'Afrique, collection payot, payot et cie, Paris, 1992, EditionNumérique ralisée(PDF.
24- Djobo hamani : Ibn Battuta Historien de L'espase nigérien ; colloque international ; fés et l'afrique ; institut des Etudes africaines ;Rabat ,28-30 october 1993 .
25- William Miller:Travels and Politics in Stokes Company,(NEW York,1898).
26- .Basil Davidson: HISTOIRE DE l'afrique ancienne,.(PDF).
27- G.Camps: Les civilisations Prehistoriques del'afrique de Lafrique du nord et de sahara.edition editeurs.8place de L'odeon .paris.france.1974
28- Hunwick (jo) : Les rapports intellectuel entre le maroc et L'Afrique sub saharienne ,rebat, Publications de L'institut des Etude Africaines,1990.
29- Trimingham, I. C: A history of Islam in west Africa , London, 1970.
30- Johnston, H: A History of the colotnization of Africa by Alien Races. Cambridge, 1913.

31- CF. Ferrand, Documents Historiques et textes Geographiques Des Arabses et Persians et Turks Relative a L'Extseme Orient de VIIIe, Au XIIIe sicles Tome 11. Paris
32- Reinard: Realtions des voyages faits par les arabes et les persiens a L'inde et de la chine toom 11.(PDF).
33- Janssens (Herman F.) Ibn Battuta "le voyageur de l'islam ", 1304-1369, Bruxelles, 1948,.(PDF).
34- Benatti(R)," Ibn Battuta e 1 suoi viaggi", Africa e Mediterraneo 3/4,pari,1995, PP. 78-81,.(PDF).
35- Akalay,(A), Ibn Battuta: Prince des voyageurs, Casablanca-éd. Maroc,1998, PP. 13-47. .(PDF).
36- Michel Abitbol : Tambouctou au Milieu Du XIII[e] Siècle (d'apres la chonique de Mawlây âl-qasin B. Mowlây sulaymâm) vo-xte arabe edité, traduit etannoté par Michel Abitbol) 1982, G-P Maisonn EUVE LARUSE 15, ue Victore cousin, Pari.
37- Hollyhc et Brunet : histoire contemporaine,paris,1956.
38- Georges Kehl : exploration et pénétration Sahariennes dans la première moitié du XIX Siècle, PP (5.10),(PDF).
39- Max (Marchand) : Histoire Abrégée de L'Algérie Partie Sahara .paris. Mars 1975.
40- . Michel Mourre. Dictionnaire encyclopédique d'histoire. Paris. Bordas 1986 8 V. I3 (PDF).
41- . Dominique L'egeune. Les sociétés de géographie en France et l'ex pansions colonial au XIX Ené Siècle. Paris : Alabin Michel .1993.
42- Henri (vincent.). " Voyages d'exploration dans l'Adrar. Sahara occidental ". Paris revue algérienne et coloniale .3eme série n°4 octobre 1860.
43- Edme Française Jomard .Remarques et recherché géographiques sur le voyages de Caillié dans L'Afrique central ,Imprimerie Royale. Paris .

44- Dominique (bourrel) : voyage dans le pays de maures brak na .rive droite du Sénégal 1860paris revue maritime et coloniale .t - second septembre .1861.
45- -Henri (vincent.). " Voyages d’exploration dans l’Adrar. Sahara occidental ”. Paris revue algérienne et coloniale .3eme série n°4 octobre 1860 .
46- . Ronald Davidson ,Jhon Ghallegas :africa and the viotorians ,london,1961.
47- Paolo Fermando de Morès frais : Histoire conter Mèmoire epigraphe ,chromiques , tradition orale et Lieu D’oubli dons le sehel Malien,imprimerie Nejah, casablanca ,Maroc,1994.
48- Mungo Park: Voyage dans L’intérieur de L’Afrique ; Préface: d’Adrian Adams François Maspéro 1, Place Paul Painlevé Paris V, م 1980 .
49- . Frank T. Kryza. The Race for Timbuktu - In Search of Africa's City of Gold. (New York: Ecco, 2006).
50- J.spencer ,trimingham:the influence of islam upon Africa,clarendon,oxford,1964 .
51- Frank McLynn. Hearts of Darkness The European Exploration of Africa. (New York: Carroll & Graf Publishers, 1993), 324.
52- De Villiers and Hirtle,: Heinrich Barth. Travels and Discoveries in North and Central Africa. (NY: Drallop, 1896, vol 3).(PDF).
53- Marq De Villiers, and Sheila Hirtle. Timbuktu The Sahara's Fabled City of Gold. (New York: Walker, 2007), p244.(PDF).
54- Catherine Coquery-Vidrovitch: .Des frontières en Afrique du XIIe au XXe siècleBamako , 1999، Publié par l’Organisation des Nations Unies pour l’éducation, la science et la culture، STEDI-MÉDIA , Paris 2005،
55- Barth, Heinrich (1862–1866). Sammlung und bearbeitung central-afrikanischer vokabularien; Collection of vocabularies of

Central-African languages (3 Volumes) (in German and English). Gotha: Justas Perthes. Volume 1, Volume 2, Volume 3.(PDF).
56- Barth '(h)'travels and discoveries in north and central africa ,vo 13 ,London , 1859.
57- G. P. Murdock, Africa, its Peoples and their Culture History .new York, 1959.
58- Constant Hamès: « Les manuscrits arabo-africains : des particularités ? », *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, p99-100 | novembre 2002, URL : http :// remmm. revues.org / index1182.html .31 mai 2010.
59- Toute, René (2005), Histoire de la Recherche Agricole en Afrique Tropicale Francophone. Volume III: Explorateurs et marchands à la recherche de l'Eldorado africain 1800–1885/1890, Rome: Organisation des Nations unies pour l'alimentation et l'agriculture (FAO), pp. 18–33, (PDF).
60- Boubou '(h)'histoire des songhay 'paris'1968.
61- . Duval, Jules: Un Ouvrier voyageur: René Caillié Paris: 1867,p 334.(PDF).
62- Jacques-Félix, Henri (1963), "Contribution de René Caillié à l'ethnobotanique africaine au cours de ses voyages en Mauritanie et à Tombouctou: 1819-1828", Journal d'Agriculture Tropicale et de Botanique , pp–334, 449–520. (PDF).
63- Viguier, Pierre : Sur les Traces de René Caillié: Le Mali de 1828 Revisité , Versailles, France.p271.(PDF).
64- Osmame Kame; intellectuels non europhones document de travail, Dakar, Senegal, 2003.
65- . Faidherbe :le Sénégal la France dans l Afrique occidentale 'paris '1889.
66- Lisa Lindsay :The Influence of Islam on West Africa .(PDF). www.spice.stanford.edu.com .
67- Dubois,(F),Tombouctou la Mystérieuses, paris,1897.

68- .B. Lewis, ‘The African Diaspora and the Civilization of Islam’, in M.I. Kilson & R.I.Rotberg, The African Diaspora (Harvard University Press, 1976).

69- Thomas Ekellello: De L’importance de la culture pour L’assimilation de massage chre’tien en afrioque noire ,paris,pre’sence africaine,1957 .

70- William Miller: Travels and Politics in the Near East, Frederick A. Stokes Company, (New York, 1898) .

71- Mauny(R), 1967, Tableau géographique de L’ouest africain au Moyen Age, d’après les sources écrites, la tradition et L’archéologie, Amsterdam, 2 éd. Mémoires de L’IFAN, n^{0} 61, P. 21-188, (PDF).

72- - Cuoq(J.): Recueil des sources arabes concemant l’Afrique,paris,1985,pp123,124. (PDF).

73- R,Labatut :les emprunts du peul à L’arabe ,in langue arabe , et langue africaines , inst nationale des langue et civilisations orientale ,paris, CILF , 1983.

74- Dierk (L.), 1977, Le Diwane des sultans du (kanem.) Bornu: Chronologie et histoire d’un voyaume africain (de la fin du Xe siécle jusqu’à 1808), Franz Steiner Verlag GMBH, Wiesbaden. (PDF).

75- Ekanza(Simon-Pierre), Les Sources européennes de L’histoire de L’Afrique Noire du XVe au XIXe siècle, Quelle méthodologie؟ - WWW. histoire de L’Afrique .Org/artcle13.html .P. 1-5.le 22-07. 2015. (PDF).

76- Boulègue(J.), Le Grand Jolof (XIII-XVLe siècle), Paris, éd. Façades Diffusion Karthala,1987 .

77- .J.E.Harris :africans and their history .NeWyork, 1972(PDF).

ملخص الرسالة :

تشكل كتابات الرحالة مصدرا مهما من مصادر دراسة التراث والتاريخ الأفريقي ، وقد صورت بحسب المراحل التاريخية المشار إليها في المتن ، طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب و زخرت بالعديد من المعارف المتنوعة : ديني ، و اقتصادي ، و سياسي ، وتاريخي و جغرافي ، و أدبي و اجتماعي...و غير ذلك مما يجعلها مصدرا للعديد من الباحثين مختلفي الاختصاصات ، و على الرغم من الجوانب الايجابية التي لا يمكن اهمالها فقد سجل على هذا النوع من التدوين جوانب سلبية-كما توصلت إليه هذه الدراسة-كان من أبرزها ارتباط كثير من الرحالة بمؤسسات دينية أو سياسية ، كذلك عدم قدرة هؤلاء على التخلص من الأفكار المسبقة ، التي تحمل تراكمات ، فالمعرفة التي قدّمها المرتحل ، خضعت لشخصيته و تكوينه الثقافي و الديني و الاجتماعي ، لذا تتطلب عملية كشف خفاياها المعرفية ، فهما و تصوّرا شاملا للأوضاع المحيطة بأحداث الرحلة ، ابتداء من شخصية كاتبها ، و حتى طبيعة العلاقات السياسية و الاقتصادية الدولية أو الإقليمية على أقل تقدير .

الملحق رقم 01 :

- **مخطوط : تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء لأحمد بابا التنبكتي .**

تقديم المخطوط:

أ- وصف المخطوط :

اعتمدت في نص المقابلة على ثلاث نسخ مخطوطة لا تحمل تاريخا للتأليف و النسخ.

* نسخة الخزانة الحسينية التابعة للقصر الملكي بالرباط ، و التي تحمل رقم 5534 ورقة (رقم ب -66 أ)

وهي التي اعتمدتها اكثر لوضوح خطها ، و تبلغ الصفحة الواحدة منها 25 سطر، كتبها ناسخ واحد ، وقد رمزت اليها بحرف أ.

* نسخة الخزانة الحسينية رقم 5675 ، خطها رديء تحمل اسم الناسخ ، وتتكون من 19 ورقة تتعدى الواحدة منها 35 سطرا، و قد رمزت اليها بحرف ج.

*نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم 1641 د. وهي واضحة الخط نسبيا توجد في مجموع ،و تحمل ارقاما ترتيبية مابين (302-321) لكن كثيرا ما كانت تسقط من ناسخها بعض العبارات ، ولم يرد بها ايضا اسم الناسخ شأن النسخة الأولى و قد رمزت اليها بحرف ب .

ب – تصميم المخطوطة و مضمونها :

تتكون تحفة الفضلاء، من مقدمة و ثلاث فصول و خاتمة.

ففي المقدمة ذكر احمد بابا سبب التأليف و اسم المؤلف على عادة المصنفين المعاصرين له .

و استشهد في الفصل الاول بالعديد من نصوص الكتاب و السنة و مصادر التراث الاسلامي و التي تدل على فضل العلم وأهله .

و تناول في الفصل الثاني افضلية العلم على غيره من العبادات معتمدا على الكثير من النصوص لتأكيد طرحه.

و إنتقل في الفصل الاخير ليفاضل ما بين العلماء و الاولياء و العارفين ،فأوضح بأن هناك اختلاف بين العلماء في هذا الصدد .

فهناك من يفضل العلماء ، وقد ساند هذا الراي كل من الشاطبي ،و هناك من راى العكس مثل الغزالي .

و ابدى المولف درايه في الموضوع من وجهات النظر مختلفة ،من جهة النقل و النظر ، ولان العلم فرض عين و كفاية ،ثم لان العالم ينفع نفسه و غيرة ،في حين أن الولي لا ينفع غيره و بذلك أستخلص افضلية العلماء على الاولياء .

و صنف أحمد بابا ،في تحفته ، ينظر لمفهوم اساس لتطور و تقدم المجتمع ،فالعلم اساس كل فضيلة في رأي المؤلف به يعرف المرء ربه و شرعه ،و لذلك يرتبط العلم بالدين ،فهذا العلم الاساس هو دراية المواد الشرعية المختلفة و الاستدلال على و جود الله .

و العلم وقف هذا التصور عبادة ،و ايضا فريضة على كل المسلمين ،و العلماء هم حفاظ الشرع ،و مرتبتهم بذلك اقرب من مرتبة الاتباعات و العالم الجليل هو من تعلم علما نفعه ،و بذلك يكون فضله على المسلمين كثيرا .

ج- اهمية المخطوطة من الناحية المصدرية :

ان تحفة احمد بابا تؤكد مدى انتشار الاسلام و ثقافته بالسودان الغربي ، قبل بلوغ هذا المفكر مرحلة التنظير للمفاهيم الاساسية التي تودي الى تطور المجتمع يعني انه قد استوعب القران و السنة و مختلف العلوم المرتبطة بهما ،و يدل بشكل لا يترك اي مجال للشك بأن الاسلام قد لقي قبولا كثيرا لدى السودانيين و ذلك عكس ما يذهب اليه بعض الباحثين الذي يريدون التقليل من اثر على فكر و نمط حياة الاهالي .

و احمد بابا بتأليفه هذا ،اظهر على ان السودانيين اسهموا في اثراء التراث الاسلامي .

و ايضا فأن اعتماد احمد بابا على مصادر مغربية و مشرقية يدل على كثافة العلاقات الثقافية بين مختلف مناطق العالم الاسلام ،و بالتالي على اهمية العامل الثقافي في ابراز بعض خصائص تاريخ البلدان الاسلامية .

الملحق رقم02:

- **نص إجازة:**

الحمد لله الذي رفع منار العلم و أشاده ، وجعل لمن عمل به الحسنى و زيادة ، و منح من شاء من خواص عباده السير على طريق الرشاد، و وفق من أراد به الخير فألهمه للاشتغال بالحديث الشريف و الانتظام في سلسلة الاسناد أحمده سبحانه على أن نوّر بصائر أهل الحديث بأنوار هدايته الأزلية و شرح صدورهم، و نضر وجوههم بدعوة خير البرية، و جعل في هذه الأمة المحمديّة الخير إلى يوم القيامة، و أمدّها ببركات نبيّها بإمداد البركة و نظم سلسلة العلماء فيها أي نظام، و أسند إليهم خشيته، و وعد من يخشاه دار السلام، و أشهد أن لا إله إلا الله و حده لا شريك له شهادة تبلغ بها من المنان المراد، و أشهد أن سيدنا محمّدا -صلّى الله عليه و سلّم- عبده و رسوله، المرسل رحمة للعباد-صلّى الله عليه و سلّم- و على آله و أصحابه الذين بيّنوا لنا الشرائع و الأحكام و أظهروا لنا الحلال و الحرام و سلّم تسليما كثيرا.

أما بعد فإن العلوم و إن تفاوتت أقدارها، و عظمت أخطارها، فعلم الحديث من بينها هو الحقيق بأن تشمر له ساق الجد و العناية، لأنه هو المحتاج في الحقيقة إلى اتقان الرواية قبل الدراية، و قد بذل السلف هممهم في ذلك حتى تميّزت الأحاديث الصحيحة من الضعيفة، فبلغوا لذلك المراتب الشريفة و تميّزوا بحفظ الإسناد حفظا للشريعة المطهّرة إلى يوم التناد.

فالتمس مني حضرة العلامة الفاضل و الفهامة الهمام الكامل الحسب و النسب أن أجيزه بما تجوز لي روايته عن مشايخي الأفاضل الحائزين لأعظم الفضائل، فعظم ذلك لديّ و نقل الطلب عليّ حيث إنّي لم أكن أهلا لذلك و لم أكن مستعدّا لما هناك خصوصا و الطالب ممن رقى فضله و علا و ارتفع قدره بين الملا و يحق له أن يكون مجيزا لأمثالي لا مجازا حيث إنه حاز أهم العلوم و سلك صعب مناهجها و جاز فيها جوازا، لكنه نظرا لكماله و حسن ظنه، و حاله، طلب مني هذا الطلب و لم أقدر على مخالفته و هو في فضله من ذوي المعالي و الرتب، فاستعنت بالله و أجزت له بما يجوز لي روايته عن مشايخي العظام و سادتي الأجلاء الكرام و هم كثيرون والحمد لله و من أعظمهم علي و أجلّهم لدي

والدي فأجازني كما أجازه أستاذه محدث الشام الشيخ عبد الرحمان الكزبري عن الشيخ أحمد بن عبيد العطار، عن الشيخ إسماعيل العجلوني، عن العارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي، عن النجم العلامة الشيخ محمد الغزي عن والده البدر محمد الغزي، عن شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري، عن الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، عن أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد التنوخي البعلي الأصل الدمشقي المنشأ نزيل القاهرة المعروف بالبرهان الشامي عن المسند المعمّر أبي العباد أحمد ابن طالب الصالحي الحجار، عن سراج الدين أبي عبد الله الحسين بن المبارك ابن محمد بن محيي الدين الزبيدي الأصل البغدادي الدار و الوفاة، عن الشيخ أبي الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي الهروي الصوفي، عن الشيخ أبي الحسن عبد الرحمان الداودي، عن أبي محمد عبد الله ابن أحمد بن حمويه السرخسي، عن أبي عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الغربري، عن مؤلف الصحيح أمير المؤمنين في الحديث الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم البخاري الجعفي قدّس الله أرواحهم أجمعين و جمعنا بهم تحت لواء سيد المرسلين.

و كذلك أجزته كما أجازني والدي بما حوى عليه ثبت الإمام المحدّث الشيخ عبد الرحمان الكزبري.

و إنني لراجع من هذا السيد العزيز يمدني بدعواته في خلواته و جلواته و الحمد لله على التمام و الصّلاة و السّلام على سيّدنا محمّد في البدء الختام.

الملحق رقم 03

- **تقرير عن مخطوط : مؤلف مجهول:ارجوزة توسلية لرفع وباء الطاعون.**

عدد الصفحات 202. تحت رقم:1586.

المرجع:(الخزانة الحسينية الرباط).

تقول يا رب قد عجز الطبيب فداويني بالفضل منك و اشفني يا شافي

إن ابن منظور تعجب هازيا لما مرضت فقات يعثر من مشا

قد كان افلاطون يمرض دائما

تحتوي هذه المخطوطة على 202 صفحة .تتكلم عن المرض وعن تاريخ الأمراض ،و عن الأدوية وصفها العلماء امثال ابن زهر ،و ابن منظور ،ولكن المرض الذي لم يعرف له داء حسب المخطوط هو الطاعون .

مع الملاحظة أن بعض الصفحات كتابتها غير واضحة

*تقرير عن مخطوط:ابو عبد الكريم بن عبد المؤمن . ارجوزة في حفظ الصحة

عدد الصفحات :222. تحت رقم:515-12069

المرجع:(الخزانة الحسينية الرباط).

تتكلم عن المخطوط في عدة فصول عن صحة الانسان ،مع الملاحظة عن هذه الفصول غير متجانسة من حيث الترتيب و من حيث عدد الأسطر و الصفحات ،ومن بين الفصول التي سندت اهتمامي :

- فصل في حفظ الإنسان ما أفات الطعام.
- فصل في حفظ الرأس .
- فصل في النوم الطبيعي .
- فصل في الغذاء .
- فصل في الفزع و الغم و الفرج .

الملاحظ أن أغلب الكلام كان عبارة في نظم، ينتهي بقافية و أحيانا بدون قافية.

الملحق رقم 04.

- **مختارات من شعر الساحلي**

لَمَنِ الرَّكَائِبُ خُضْنَ رَمْل زوُدِ	وَ سَرْينَ بين تَهائمِ و نُجودِ
وَ جَرْينَ في بحْرِ السَّراب سَفَائنَا	ألبسْنَ قارا لليالي السّودِ
وَ رَأَينَ وَطءَ الأَرْضِ مُنقةَ الهَوى	فَوطِئنَ فوقَ مَحاجرٍ و خُدودِ
هنّ المَطايَا عوّضَت من طَائهَا	يوم النوى نونا لكل عَميدِ
و هفّت بهيف عاقروا تحت الدُّجَا	خمريْن من أين و مَن تسْهِيدِ
تركوك تستقري النازل بعدهم	وسَرُوا بِشِلْوِ فُؤادَك المَقْؤُودِ
فبكلِّ وادٍ أنتَ راشؤدٍ مَرْبعٍ	و بكلِّ نادٍ أنت نَاشِدٍ غيدِ
سيرًا فدون مُناك قطَع مهَامَه	قَطعَ السّياط بها نيّاطَ القودِ
طرَبي إذا جُنّ الظّلامُ لأَنّةٍ	في ظَهْر عُودِ لا لرنّةٍ عودِ
كم من طِلاحٍ فوقَهَا أمثالُهَا	لم تكتحلْ أجفانُهم بهُجودِ
كالسُّمرِ هزّت في أكفِّ فَوارِسٍ	و البيضِ سُلّت من بُطُونِ غُمُودِ
أنضَاهُم طول السّرى فَتَخالهُمْ	أوهام فكر في صدور البيد
ساجلتُهمْ تحت الدُّجَى بسَمْلَةٍ	فَطرتُ على التَّأْوِيبِ و التّسهيدِ
أهدت إلى سلع تحيّة حاجرٍ	و حثّتْ على نَجْد ترابٍ زَرُودِ
و كأنّما آثارُها فوقَ الثّرى	وَطَآتِ مُنْتعِبِ الجراحُ طريدِ
و لكم قصي الحوض منهد الجبا	لا يهتدي فيه القطا لورود
إن صَل وارده هداه صوبه	رمم الضراغم دونه و السيد
و كأنما ريش النواهض حوله	مسنونة بريت قصار العود
وافيته و الذيب يوجس خيفة	فيه، و يرعد رعدة المرؤودِ
فرويت منه، و لم أكد.. حتى ارتوى	مسراي من نيي، و نيّ قعودي
و لكم رحيب الصدر ملموم القرى	كلح النواجذ مشرئب الجيد
مهما أحسّ بنبْأة أصفى لها	أ ذُنِي سميع و التفات رصيدِ

ملحق رقم05.

- **مختارات من نثر الساحلي .**

«سَلاَم لبس دَارين[1] شعارهُ، و خلق الروض النضير به صَدَاره، و أنسَى شميمهُ الزّكى و عَراره[2] و جرّ ذيله علَى الشّحر[3] فتعطّر، و ناجى غصن البان فاهتزّ لحديثه و تأطّر، و ارتشف النّدى من ثُغور الشّقَائق، و حيّا خُدود الورْد تحتَ أرديّة الحدائق، طربت له النّجديّة المستهامة، فهجرت صبيانها ببطن تهامة، و حنّ ابن دهْمان[4] لصِباه، و سَلا به التّميمي[5]عن ريّاء، و أنسَى النّميري ما تضوّع من طيب بطن نعماء[6]، و استشرف السمر و البان، و تخلق بخلوقه الآس و الظيان، حتى إذا راقت أنفاس تحيّاته ورقّت، و ملكت نفائس النفوس و استرقت، و لبست دارين في ملائها، و نظمت الجَوزاء في عقد ثنائها، و اشتغل بها الأعشى عن روضه و لها[7] وشهد ابن برد[8] شهادة أطراف المساويك لها: خيّمت في ربع الجود بغرناطة و دقّت به، و ملأت دلوها إلى عقد ركبه، و أنبأت منابت شرقها عن عرفه لا عن غربه، هناك تنبري لها صدور المجالس تجمّل صدورا، و ترائب المعالي تتحلى عقودا نفيسة وشذورا، و محاسن الغرف [ببهوها] تحاسن البروج في زهوها و الأقنية في إيوائها، و الأندية في شعب بوّنها[9] لو رأها النّعمان لهجر سديره[10]أو كسرى لنبذ إيوانه و سريره، أو سيف لقصر من غمدانه، أو حسان لترك جلق لغسّانه[11].

---

[1]- دارين: فرضة بالبحرين كان يجلب إليها المسك من الهند.
[2]- يشير إلى قول الشاعر: تمتع من شميم عرار نجد***فما بعد العشية من عرار
[3]- الشحر: شطّ باليمن على ساحل بحر الهند، و إليه ينسب العنبر الشحري.
[4]- كذا في الأصل.
[5]-**هكذا ورد، و لعله يقصد الذي يقول:** حننت إلى ربا و نفسك باعدت مزارك من ريا و شعباكما معا
[6]- يشير إلى قول النميري: تضوع مسكا بطن نعمان أن مشت به زينب في نسوة خفرات
[7]-يشير إلى شعر الأعشى الذي أوله: ما روضةٌ من رياضِ الحزْن معشبةٌ خضراء جَاد عليها مسبِلٌ هطلُ
[8]- هو بشار و الإشارة إلى شعره
[9]- شعب بوان في بلاد فارس و هو من أشهر متنزهات و قد وصفه المتنبي في إحدى قصائده.
[10]- السّد يراسم قصر للنعمان بن المنذر
[11]-يشير إلى قوله: لله در عصابة نادمتهم يوما بجلّق في الزمان الأول.

ملحق رقم 06.

- **نص حسن الوزان : أكثر الأمراض شيوعا عند الأفارقة [1].**

من الشائع رؤية مرض القرع فوق رؤوس الأولاد الصغار و فوق رؤوس النسا ء البالغات .و يعانون الكثير في سبيل شفائة ،كما يصاب الكثير من الرجال بآلآم الرأس التي تعتورهم أحيانا دون أن يصابوا بالحّمى .و تكثر أوجاع الأسنان بصورة كبيرة بينهم .و المعتقد أن سببها يرجع إلى أن الناس يشربون الماء البارد فور تناولهم حساءً ساخنا.و يشكون أيضاً من آلام المعدة التي يسمونها عن جهل آلام القلب.

و كثيرون منهم يتألمون في كل أيامهم من الزحار ومن آلام شديدة في الأحشاء ،ويعود هذا أيضا للماء البارد الذي يشربونه .هذا و يكثر الذين يشكون من أمراض عرق النساء و أوجاع الركبة .و تنتج هذه من عادة الناس هناك الجلوس على الأرض دون لبس أي نوع من السراويل.و هناك القليل من الأشخاص الذين يشكون من النقرس .غير أن يلاحظ وجوده لدى بعض الأمراء المصابين به، لأنهم ألفوا شرب الخمر و أكل الدجاج أو الوجبات اللذيذة.و يؤدي استهلاك الكثير من الزيتون و الجوز و بعض الأطعمة الغليظة التي ليس لها أكبر قيمة في التغذية إلى مرض الجرب الشديد الألم للذين يصابون به[2]،أما المرض الإفرنجي [3] الموجع جدا ،و الذي تصاحبه الآلآم ،مع بثور و قروح ،فهو شديد الإنتشار للغاية في كل بلاد البربر ،حتى إن القليل من الناس ينجون منه ،و لكن من الصحيح أننا لا نكاد نجد فرداً واحداً مصابا به في الأرياف و في جبال الأطلس ،كما لا يوجد مطلقا بين العرب إلا في نوميديا ،أي بلاد النخيل و ليبيا ،كما لا يأتي ذكر هذا المرض في بلاد السودان ،و عندما يصاب به انسان ما ،فإنه يشفى حالاً بمجرد أن يتغير الهواء ،أي إذا ذهب إلى نوميديا مثلا .

[1] . عبد الرحمان حميدة:أعلام الجغرافيين مرجع سابق.
[2]-و نرى من هذا أنا الأصل الطفيلي لمرض الجرب و سريانه بالعدوى لم يكن معروفا حينذاك .
[3]-وهو الأصل الزهري أو السيفليس ،الذي لم يكن يميز حينذاك عن مرض القروح و السيلان .

و في الماضي لم ير أحد هذا المرض، كما لم يسبق أن سمع أحد باسمه.و لكن في العصر الذي أخذ فيه دون فرديناند ملك إسبانيا ،بطرد اليهود من هذا البلد[1] ،و فد كثير من هؤلاء اليهود نقلوه معهم من اسبانيا ،و كان من سوء حظ بعض الأفراد المساكين من المسلمين أن حدثت لهم علاقات مع نساء من هؤلاء اليهوديات .و هكذا ،و شيئا فشيئا ،لم تبق أسرة واحدة سليمة منه في خلال عشرة أعوام .و المصابون الأوائل بالعدوى مجذوبين ،و طردوا من بيوتهم كي يقيموا مع المجدوبين .و لكن عندما ظهر أن عدد الأشخاص المصابين به يتزايد يوميا ،و عندما لوحظ أن هذا التعفن قد انتاب عددا عظيما من الناس في كل إسبانيا ،راح المرضى يتابعون حياتهم اليومية العادية ،و عاد إلى بيوتهم الذين أبعدوا عنها ،و يؤكد الناس في بلاد البربر ،أن أصل هذا المرض هو من إسبانيا،و يحمل نفس الاسم كما في اسبانيا ،ولا سيما في موريطانيا.ويسميه أهل تونس المرض الإفرنجي كالإيطاليين،و كذلك الحال في مصر و في بلاد الشام ،و قد ادّى هذا المرض إلى كثير من الكوارث،ولا سيما في مملكة تونس [1].وهناك عدد من الناس المصابين بمرض الخاصرة[2].

وقليل من الناس في بلاد البربر يشكون من المرض الذي يسميه اللاتين الهرني (الفتاق).و لكن الكثير من الناس يشكون منه في مصر .و أحيانا تصبح الخصيتان عند بعض متورمين لدرجة تبدو عند رؤيتهما شيئا غير عادي.و يعتقد أن علة كهذه تنجم عن أكل الصمغ و الكثير من الجبن المالح .

و يلاحظ مرض القرع في كثير من الأحيان بين أطفال افريقية .ولكن هؤلاء لا يشفون منه مع تقدم سنهم ،و تصاب الكثيرات من النسوة بهذا المرض و خاصة في بلاد البربر وفي

[1]- مرسوم 3 ماي 1492 بعد سقوط غرناطة بحوالي أقل من شهرين .

[1]-تعتبر هذه الفقرة تقليدية في وصف المرض الإفرنجي .ومن المتفق عليه أن جرثومة اللوبيات الشديدة التخريب.و التي أدت للجائحة الكبرى في هذا المرض في القرن 16،قد نقلت من أمريكا بواسطة رفاق كريستوف كولومبس الذين عادوا و نزلوا في إسبانيا في شهر تشرين الأول 1492م،و لكن قبل هذه الجائحة كانت هناك في إسبانيا جائحة خطيرة من مرض القروح الجنسية chancrelle وهو المرض الذي أعطوه اسم (لاس بوباس) ومن الإغريق ،بوبون ،أو مرض الحالب .وقد أطلق المغاربة على ظاهرات مرض الإفرنجي الجلدية اسم الحبوب،وهي عبارة لا تزال دارجة بين العوام ،و الذين خدعوا بتوافق الأصوات اللفظية ،أما تسميه بالمرض الإفرنجي أي(الإفرنسي) و هو الاسم الذي عرف في ايطاليا وهو الذي كان شائع.

[2]- وربما كان مغصا ُكلويا أو كبديا ُ.

بلاد السودان .و تعتبر بعضهم هؤلاء المرضى كأن بهم مسّاً من الشيطان، و هذا من الحمق.

ويظهر الطاعون في بلاد البربر مرة في كل عشرة أعوام، أو خمسة عشر عاما أو كل خمسة و عشرين عاما[1].و عندما يداهم الطاعون الناس.يقضي على الكثير منهم لأنه لا يوجد إنسان يهتم بهذا المرض ولا باستعمال أي علاج، فيما عدا دهن الجسم بتراب أرمينية حول الدمامل.ولم يظهر في بلاد نوميديا منذ مئة سنة،ولم يظهر مطلقا في بلاد السودان.

[1]-و يخلط المؤلف هنا مرض الفتاق أو الفتق مع مرض داء الفيل الذي يصيب الصفن .و هو مرض منتشر فعلا في مصر .و هو ناجم عن دودة طفيلية هي الخيطية .

ملحق رقم07.

- **رسالة التكرور إلى الفقيه السيوطي : مطلب الجواب بفصل الخطاب:**

أسئلة واردة من بلاد التكرور في شوال سنة ثمان و تسعين و ثمان و تسعين وثمانمائة

بسم الله الرحمان الرحيم.

هذا كتاب فيه أسئلة من الفقير العاصي الفقير المذنب، الراجي إلى عفو ربّه الكريم الكبير و سمّيته: مطلب الجواب بفصل الخطاب.

الحمد لله الكامل الذات، الحي القيوم الأزلي الصفات و صلى الله على نبيّه المفضّل على سائر المخلوقات و على آله و صحبه و أزواجه الطاهرات.

(فصل) رد الجواب على من علّمه الله فرض، كما قال الله لآدم أنبئهم بأسمائهم، كما أن السكوت على من لا يعلم فرض، كما قالت الملائكة: لا علم لنا إلا ما علّمتنا وكذلك أن تخضع لمن علّمه الله ما لم يعلّمه لك، كما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لأدم فسجدوا و كانوا عبادا مكرمين، و أبى إبليس و قيل له إن عليك اللّعنة إلى يوم الدين، و السؤال على من لا يعلم فرض، قال الله تعالى: «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون».

(فصل) نسأل عن قوم عادة ملوكهم أخذ الأموال منهم بعادة معروفة في زمن معروف و أكثر عند ظهور الثريّا أو الشتاء أو الصيف، بأموال شتى منها ما يخرج من الأرض كالمن و منها ما يخرج من الدوم حتى حبالها و نعالها و حصيرها، و يفرض ذلك عليهم كل سنة فالبلد للملوك و ما أراده منهم، فيجيء عندهم فيعطيهم شيئا ثم يشترطون عليه شروطهم فيضربونه، فإن نقص شيء من خراجهم أخذوه و عذّبوه وأخرجوه و جعلوا في بلادهم من أرادوا.

(فصل) و لهم عند قوم بقرات و شياه و مزاود طعام و غير ذلك من الخراج في كل زمن معروف، فمن أعطى و إلا ضربوه و نفوه.

(فصل) و يأتيهم سادات قوم و كبراؤهم مع جماعاتهم فيطلبون لهم إن كانت عادتنا على ما هي عليه فأتوا بقبيلتكم فلتختر واحدا منكم يحكمون لهم بذلك، و مرة يحكمون لمن يعطيهم أموالا كثيرة، أو يرجون منه أو يخافون شرّه.

(فصل) و منهم من يخاصمهم على الأحرار و يدعوهم بالعبيد ، فإن مات من ادّعى عليه

ذلك لم يقسموا بين و رثته، ثم يدعوهم من بقي باسم الرّق، و إن قلت لهم أحرارا كانوا يقتلونك، ويقولون هؤلاء عبيد أتباع للسيف، و منهم يجعلهم كالخدم بالضرب والعذاب، و منهم من يسخر منهم و يأخذ منهم الأموال و لا يضرّهم في أنفسهم ومنهم من يبيعهم بالتنافس و التنازع و منهم من يؤمن على قوم فيأخذ منه الخراج أكثر مما أخذ منه الملوك، فإن أبوا نفاهم أو سلّط عليهم الأمير أو وزراءه و منهم من يؤمر على بلد فيتركه و يمشي إلى أحرار قبيلته حيث كانوا، فيأخذ منهم ما أراد حتى يكون القتال في ذلك.

(فصل) و منهم من لا يورث فما تركه بعده لأبناء إخوته و أهل القوّة و الجاه و منهم من يكون أميرا على قوم فيعطي الملوك ماله ثم يجيء عندهم فيأخذ أضعاف ذلك .

(فصل) من بعض أموال الملوك الخراج على المسلمين و مكس الأسفار و الأسواق على كل من جاء بالخيل و الإبل أو البقر أو الغنم أو الرقيق أو الثياب أو الطّعام وكذلك عند الأبواب عند دخول قوم أو خروجهم و لو بخطب.

(فصل) ومنهم من بينه و بين الكفار المصاحبة و المراسلة فإن قتلوا المسلمين أو نهبوهم أو قطعوا عليهم الطرق لم يبالوا بذلك إن أعطوهم شيئا، و منهم من إذا أغرقت على الكفار و أذيتهم آذاك أكثر ممّا أذيت به المشركين فيكون ذلك عونا للكفار وضعفا للمسلمين.

(فصل) و منهم من اختار الكفار على المسلمين لسكون بلادهم أو ربح تجارته في أرضهم أو سكون بعض أقاربهم أو بسبب من الأسباب من دنياهم، لا يبالوا بأوامر الله و نواهيه إلا حيث كانت اللّقمة.

(فصل) منهم من لم يبال بالكتاب و السنّة إلا حيث كان الدّرهم و الدينار معه و إلا فلا.

(فصل) منهم من لا يعطي صداقها أصلا، و كان بذلك عادة فليس لمن عند الرجال إلا الذبيحة و النّفقة.

(فصل) و عاداتهم عدم الحياء عند اجتماعهم بالنساء و خلوتهم بهن و اللّعب بهن وحديثهن و رؤيتهم و كشف زينتهم و أكثرهن من المزامر و العود و الغناء و ضرب الدفوف و الزغاريد و آلات اللّهو كلّها، و يعرضن بأنفسهن و يقلن إن الجن فينا و إن دواءنا بذلك و فيهن من يقلن أن من الخدم من يقتل و إن مسك مرضت، و إذ جنّ اللّيل يطرن و معهن النّار و يقتلن بذلك.

(فصل) و منهم من يقاتل فيما بينهم تكبّرا و تجبّرا و تنافسا و ينهي بعضهم بعضا ويَغير بعضهم على بعض، و منهم من يمنع بلاد الله إذا وكّلوه الأمراء عليه إلا بالخراج، و يمنع الماء و الفواكه و الحشيش و الكلأ و كل ما بيّنت في الأرض ويشدّونها بالحجارة و الأشجار حتى لا يقرب المسافرون بلادهم و يعذّبون بهائم المسلمين بآلات من العذاب و الضّرب و سدّ الأفواه و يربطون أذناب أنعام الشّوكة وما له أذى.

(فصل) منهم من ليس له حرفة إلا الفساد و المزمار و مدح من اعطاه ودم عكسه ومنهم من ليس له حرفة إلا يكون مع الأمراء و الكبراء فيأكل معهم و يعيش في أمولهم الحرام.

(فصل) منهم من حرفته أن يكون جالسا حتى يجئ أوان الطعام فيحضر ويسلم ويأكل.

(فصل)ومنهم من حرفته القمار و المسير و أمثال ذالك (فصل)

(فصل) و منهم من حرفته أن ينكح النساء المطلّقات بالثلاث فيحلّلهن لأزواجهن

(فصل) منهم من حرفته أن يرمي عقله فيجعل نفسه كالمجنون فيضحك الناس به ومنهم من حرفته السؤال، و منهم من حرفته أن يتزوّج النساء الكثيرات و يعيش في رزقهن و منهم من حرفته السرقة و منهم من حرفته الاختلاس و منهم من حرفته أن يصيد و منهم من حرفته أن يكون مع الأمراء فيقضي للناس حوائجهم و يعيش هناك. و منهم من حرفته أن يعادي للناس أعداءهم و يحب لهم أحبّتهم سواء كانوا على الحق أو الباطل.

(فصل) و منهم من حرفته أن يكون نمّاما أو مغتابا أو متجسّسا و منهم من حرفته معاداة العلماء، و الأتقياء و الصّالحين و منهم من حرفته أن يكون رسولا بين النساء والرجال كالدّيوث و منهم من حرفته أن يخلط الماء باللّبن أو الشحم مع اللّحم الهزيل أو نيء بجيّد و منهم من حرفته أن ينزل المسافرين في سكنه فيخدعهم بقدر طاقته وقلّة عقولهم و منهم من حرفته الباس الحق بالباطل عند الموازين.

(فصل) عوائد بعضهم البخل و الجبن و عدم الرحمة للناس كافة، و قطع الرّحم ومنهم من عادته السّخاء و الكرم و الشجاعة إلا أن عندهم مع ذلك كثرة الظلم و الفساد والاختلاط بالنساء الأجانب، و يحلفون بالآباء و الأمهات و النساء، و يشهدون بالزور و لنسائهم مكان معروف يخلون فيه بالرجال في يوم نكاح أو يوم عرس أو يوم عيد،ولهم لهو يتضاربون فيه حتى يقع في ذلك شج ز كسر سن أو يد أور رجل أو قتل، و عادة بعضهم

بنّاء المساجد و تلاوة القرآن و العلوم و المدائح و الحج و مع ذلك يعبدون الأصنام و يذبحون لها و لا تصوم نساءهم و لا يصلين إلا إذا كبرت،ولا يدخلون مساجدهم إلا و مع كل واحد منهم عصا. و عندهم طلسمات للنّكاح و البيع والشراء و الرهج و الحروب و المحبّة و وجع الرأس و الضرس و يزعمون أنهم ملوك الدنيا و أبناء الأنبياء و منهم من يجحد البعث و الحضر و النشر و الحساب و الثواب و العقاب يسجدون لملوكهم و يركعون لهم، و منهم من هو مسلم و يجعلون أموالهم دولا بينهم يغير بعضهم على بعض و يقتلونهم.

(فصل) منهم من عادته أن يجيء إلى قوم فيسألهم إبلهم ليسافروا عليها فيحملون عليها الطعام إلى بلد الثلج و يحملوا عليها الملح إلى بلاد السودان فيبيعونها بالثياب والمتاع ثم يرجعون إلى بلادهم فيجيئهم أرباب الإبل فيغطونهم من الثياب ما شاء الله فمرة يرضون و مرة يأبون حتى يسترضوهم و إلا فيخاصمون ما أحد على أحد منهم ذرة.

(فصل) منهم من صلاته بالتّيمم أبدا فلا يتوضّأون، إلا نادرا و لا يغتسلون من الجنابة و توحيدهم بالفم و ما يعرفون حقيقة التّوحيد و زكاتهم يجلبون بها مصالح دنياهم أو يدفعون بها مضارهم و وحجهم بالأموال المحرّمة منهم من عادته محبة العلماء والصلاة على رسول الله صلى الله عليه و سلم و العمال الصّالحة و الصدقة و اطعام الطعام و قرى الضيف و غير ذلك من وجوه الخير و لا يتركون ما هم عليه من تكبّر و استرقاق الأحرار و المقاتلة و الظلم و أكل الحرام منهم من عادته مصاحبة الكفار ومؤاخاتهم و ذكر أخبار المسلمين و عيوبهم، لهم و منهم من يعادي من عادى الكفار.

(فصل) و من فقهائهم من عادته ترك القرآن و السّنة و أخذ الرسالة و المدوّنة الصغرى و ابن الجلاب و الطيطلي و ابن الحاجب حتى عادوا من يفسّر القرآن ويقولون قال أبو بكر الصّديق إن كذبت على ربي أي أرض تحملني، و إذا سمعوا آية تُتلى لتفسير نفروا منها نفرة الحمر الوحشية.

(فصل) و منهم من لا يفارق الأمراء طرفة عين، يأكل معهم ز يشرب و يأخذ من أموالهم المحرّمة و منهم من يحلّل ذلك للملوك و من تبعهم، و منهم من لم يأمر و لم ينه، و منهم من نهى فعادوا فخاف و سكت، و منهم من يأخذ الزكاة و يستحقها ومنهم من حرفته أن

يشترط مع الناس أن يصلّي بهم و يقرئ صبيانهم و يرى عندهم المنكر العظيم و يسكت، و إن تكلّم قالوا له اسكت فقد ذكرت ما عليك فخذ شرعتك و مالك "و لا تزروا وازرة وزر أخرى" فسكت و منهم من إذا وعظت الناس قالوا لك: أما نحن فقهاء مثلك فنحن قد رأينا ذلك و سكتنا عنه، هذا آخر الزمان نهي المنكر فيه منكر يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم و تقول له العامة أما إذا رأيت فلانا هو أعلم منك، و أتقى و أعز و أشرف، و قد ترك ذلك و هو يراه و يقدر على قطعه فيسكتوك بذلك و إلا جعلوك شرّ خلق الله و أجهل الناس و أسفه الناس ومنهم من تعطهم من العلماء فيعطيك و يصدقك فإذا خرج من عندك يكذبك و يذكر للعامة دلائله على تكذيبك و تصديقه، و منهم من إذا وعظت العامة و قبلت و تابت خلا بهم فنقض عنهم ذلك حتى تعود العامة على ما كانت عليه.

(فصل) منهم من يأخذ العشر من الميراث فلا يقسم لأحد إلا إذا أخذ عشرة، و منهم من اكتسابه بالطلمسات و الرقى لباب المحبة و النكاح و الوجه عند العامة و الخاصة و من غضبوا عنه يفعلون به ما قدروا من مكائد السوء، فمرّة يوافق فعلهم بالقدر ويقولون هذا فعلنا.

(فصل) منهم من يشتري القضاء بماله و يأخذ الرشوة و السّحت، و يحكم بما يريد ومنهم من يؤمره الملوك على قوم فيأخذ زكاتهم و لا يقسمها بين من يستحقّها.

(فصل) منهم من يقرأ بالشواذ و ترك القرآن المشهور.

(فصل) و منهم من الألد الخصم في كل شيء.

(فصل) و منهم من ليس له عمل إلا تلاوة القرآن و الحديث و العبادة و الخلوة و قراءة الرسالة و الشهاب و أمثال ذلك.

(فصل) منهم من يكون عند الجهّال يأكل معهم و يشرب و يكون إمامهم.

(فصل) منهم من يقول و يعتقد أن بعض الناس يقتلون بعضا بمس أو مقاربة ويزعمون أنهم يمرّضونهم، و إن أعطوهم ما أرادوا داووهم، و منهم من يعتقد أن الجرب و الجذام و البرص و الزكام و سائر الأمراض تُعدي، و إذا نكحت امرأة ومات عندها ثلاث من الأزواج تشاءموا بها، و كذلك الدار و الخيل و منهم من يزعم أن بعض الطيور و السباع

أنحس من بعض، و منهم من إذا رميته بمشط يقول لك لا فإنه يأتي بالطلاق و يقولون في الأيام بعضها منحوس ز بعضها مسعود و يذمون الحجامة في بعض الأيام، و شرب الدواء و مشي المسافرين، و النكاح فيها، و كذلك بعض البلاد و المياه و المراعي يزعمون أن بعضها أعكس من بعض.

(فصل) منهم من يزعم أنه عارف إذا كرهت البهيمة أولادها و يعرف أسباب ذلك ويقول للناس تعالوا عندي كلّكم فيأتونه، فيكيل بذراعه أرجلهم ثم يبقى بعد ذلك ما مسح بيده أرجلهم و يزعم شيء في نفسه و يزعم أن ذلك قراءة ثم يكبّلهم ثانية فيزيد الأمر على ما عليه أو ينقص، فيأخذ ذلك من أشعار رأسه أو لحيته فيبخّرونه على ذلك البهيمة فيوافق مرّة، و مرّة لا.

(فصل) منهم من إذا سرق ماله، أخذ المتّهمين فيوقد نارا و يقيد المتّهمين بشيء قصير و يأمرهم بالمشي عليها، فالذي يسرق ناره تحرقه و الذي لم يسرق لا تحرقه ولا تمسّه، و منهم من يأخذ المتّهم و يأخذ المرأة و يعلّقها على خيط و يأخذ الخيط ويدلي المراة و يجعل خطين في الأرض و يجعل الرماد على خط واحد من الأرض ويترك الآخر و يدليها على وسط الخطين و يقرأون سورة يس على ذلك فإن تحرّكت فإن تحركت المرأة و جرت على طريق الرماد، ثبتت السرقة عليه، و إلا فلا.

(فصل) منهم من يقرئ الصبيان، فإذا ختم واحد أو بلغ النصف أو الثلث حملوه على ورقة فوق رؤوسهم أو على فرس أو حمل و يجتمع عليه القرّاء، و يطوفون به البلد كله و يقرؤون عليه آيات الرّجاء و مدائح رسول الله صلى الله عليه و سلم فيعطيهم الناس طعاما و شرابا و غنما و ثيابا فيتركوه للفقيه.

(فصل) و منهم من يمشي بين العوام و ينادي كل من يلقاه ألا أريك رقية العين والنكاح و دخلة القلوب و الوجه عند السلاطين و أمثال ذلك.

(فصل) و منهم من لا يزوجون إلا صاحب نسب و حسب و مال كثير، و لا يزوجون الصغير و لو كان عالما، صالحا تقيا.

(فصل) و منهم قوم لا يعدّون الطلاق، فليس له عندهم حد، و منهم من يعد الطلاق فإذا وصلوا ثلاثا أعطى شيأ ثم يعيدها بغير محلّل، و منهم من لا يعتد المرأة فتنكح من أرادت

في العدّة و منهم من يشتري التي طلّقها ثلاثا من يحلّلها أو تشتريه هي بنفسها أو أحد من أهلها.

(فصل) منهم ملوك لا يقيمون القصاص أصلا و إنما يأخذون المال و يقسمونه بين من لا يستحق شرعا.

(فصل) منهم من يدّعي أنه شريف ليكرم و لا شهادة له في ذلك، و منهم من يدّعي أنه عالم أو ولي أو عابد ليستخدم و ليس كذلك، و منهم من إذا قصد المسلمون بقتل أو أخذ مال أو نحوه يقاتل حتى يقتل، و في نيّته من قُتل دون ماله فهو شهيد، و منهم من يأتي القتال حتى يقتل أو يقتل و في نيّته من قُتل دون ماله فهو شهيد و منهم من يأتي القتال حتى يقتل بغير حركة منه و في نيّته إني أريد أن تبوء بإثمي و إثمك فتكون من أصحاب النار كما فعل قابيل و هابيل ثم عثمان أيّما أعلى من الآخر.

(فصل) هل يجب على الآمر بالمعروف و الناهي عن المنكر القتال في ذلك بقدر طاقته.

(فصل) فقيه رأى منكرا فعلم أنه لا يقبل الناس نهيه و لا أمره، أيسقط ذلك عنه الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.

(فصل) ما قلتم فيمن أمر بمعروف و نهى عن منكر و قصد به رياء وسمعة.

(فصل) ما قلتم فيمن أمر بمعروف و نهى عن منكر و خوفوه فسكت خوفا؟ و فيمن أمر بمعروف و نهى عن منكر ثم سكت عجزا عن سوء مقالات الناس له و الضرر والتعب؟

(فصل) ما قلتم في رجلين أمرا المعروف و نهيا عن منكر حتى رأيا أمرا عظيما فيه هلاك النفوس و المال فتركه واحد منهما و لم يقاتل عليه و قاتل عليه الآخر حتى قتل، أيّهما أعلى من الآخر؟

(فصل) ما قلتم في رجلين أحدهما يخالط أمراء السوء فيشفع للمسلمين لديهم و ينفعهم و الآخر اعتزلهم أيهما أعلى؟

(فصل) في بلادنا كتب يذكرون عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أقاويل ليست في الموطأ و لا في الصحيحين، و ليس عندنا من يعلم ذلك عما يفعل فيها.

(فصل) هل يتمثّل الشّيطان بأمر من أمور الله ككتابه و ملائكته و رسله و أوليائه أم لا؟

(فصل) هل يجوز مدح النّبي صلى الله عليه و سلم "بالكلام العجمي أو لا؟

(فصل) هل يدخل أحد الجنة بمحبة النّبي صلى الله عليه و سلم " و هو عاص وتارك بعض الفرائض؟

(فصل) رجل يعظ الرجال، فقال له النساء عظنا معهم فيجعل بين الرجال و النساء سترا لا يرى أحد الفريقين الآخر يجوز له ذلك أم لا؟

(فصل) أيجوز لنا أن نقرئ نساءنا سورة النور حتى يحفظنها و يفسرنها أم لا؟

(فصل) أيجوز لمسلم إن حضر القتال بين المسلمين و الكفار أن يرمي نفسه في الفور لحب الشهادة ؟

(فصل) أيجب القتال على أمراء المسلمين بأنفسهم أو ليس عليهم إلا تجهيز الأمور وصلاحها و هل يجوز للأمير أن يرمي نفسه على أشد البأس من الكفار و هو إذا مات لم يجتمع المسلمون بعده لقتال و لا يجتمعون على غيره إلا بعد مدة طويلة ؟

(فصل) هل تقبل هدية الكفار و تجوز ضحيتهم و ليس عليهم جزية ؟

(فصل) و تبيّن لي أمر هيئة السموات و الأرض بدلائل القرآن و الحديث، و عرض بلدنا و طولها، و بلغني أنك ألفت شيئا في حروف التّهجي، فلا يليق بكرمك أن تكتمه عنا ، و أنا أحبك في الله، و إني لمشتاق إلى لقاءك غاية، و اسمي محمد بن محمد بن علي اللّمتوني فلا تنساني في دعائك و السلام .

ملحق رقم08.

- **رسائل إجابات الفقيه السيوطي على رسائل بلاد التكرور:**

إن السّيوطي كان على دراية كبيرة بأحوال بلاد السودان، و تدلّ على ذلك الرسائل المتبادلة بينه و بين أمراء و فقهاء بلاد التكرور كصاحب أكدز و صاحب كاشنة و صاحب و صاحب غوبر، و الذي كان يقدّم لهم فيها النصح و الارشاد ويأمرهم بتحكيم شرع الله، و الحكم بين الناس بالعدل، و ليس هناك مجال للشك في كون هذه الفترة أي ما بين منتصف القرن الخامس عشر الميلادي و بداية السادس عشر، كانت فترة انحطاط إذا ما قورنت بما كانت تعرفه المنطقة من ازدهار خلال القرن الرابع عشر الميلادي، خاصة

في عهد سلاطين مالي الذين عرفوا بصلاحهم وتمسّكهم بالدّيانة الإسلامية كمنسي موسى و منسي سليمان و غيرهم ممن شاع سيطهم في الشرق خاصة مع رحلاتهم للحج و الأثر الذي تركوه هناك[1]، و هذا عكس ما حصل بعد مرور قرن من الزمن تقريبا أي في عهد الجلال السيوطي الذي بعث من مصر رسالة إلى سلاطين و أمراء بلاد التكرور و خاصة منهم الملك محمد بن مصطفى صاحب أكدر، و إخوته، و الملك إبراهيم سلطان كاشنة يوصيهم فيها باتقاء الله و إقامة العدل بين الرّعية، و الوقوف عند حدود الأحكام الشّرعية[2]، و ينهاهم أيضا عن العادات التي يتبعونها كذبحهم عبدا أو أمة إذا مرض أحدهم ضَنا منهم أن ذلك سيفديه من الموت، بعدما عرف عن سلاطين المنطقة قبل قرن من الزمن من صلاح و تفقه في الدين كالسّلطان منسي موسى الذي كان يعتق كل يوم نفسا[3] وبالإضافة إلى هذه الرسالة التي بعث بها السيوطي إلى سلاطين التّكرور، توصّل هو أيضا برسالة من أحد الفقهاء و المدعو محمد بن محمد بن علي اللّمتوني و تحمل عنوان مطلب الجواب بفصل الخطاب[4] ردّ عليها السيوطي بخطاب أسماه فتح الطلب المبرور و برد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من بلاد التكرور و تشمل هذه الرّسالة عددا من القضايا يستفسر فيها صاحبها السّيوطي ويطلب منه توضيحها ويسأله على ما يقرب من ثمانين مسألة تتعلّق بأمور مختلفة، و أهمية هذه الرسائل تكمن في الميادين التي يمكننا كشف النقاب عنها من خلال دراسة هذه الوثائق واستغلال ما تزخر به من معلومات عن بلاد السودان في تلك الفترة.

يمكن تقسيم المسائل الواردة إلى ثلاثة أقسام: ما يتعلّق بمسائل فقهية، و ما يتعلّق بأمور اجتماعية، و ما يتعلّق بأمور سياسية، فالتي تتعلق بمسائل فقهية سبعة وعشرون مسألة و هي كالتالي:

---

[1]– للمزيد من المعلومات حول هذه الفترة انظر الحسن الوزان: وصف إفريقيا، بيروت، 1988، ط2، ج2، ص 164.–165 و كذلك ابن بطوطة: تحفة آثار و عجائب الأسفار، بيروت، ط4، ج2، ص 790.

[2]– انظر نص الرسالة عند آدم عبد الله الألوري، الإمام الغيلي و آثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، مصر، 1974، ط1، ص 17، و لن نورد نص الرسالة في هذا المقال لتداولها بين الباحثين.

[3]– محمود كعت التنبكتي: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش و أكابر الناس، تحقيق هوداس و دولافوس، 1981، ص 32.

[4]– جلال الدين السيوطي: الحاوي للفتاوى، بيروت، 1982، ج1، ص 389.

1. عدم تطبيق الشريعة في الإرث (إرث ابن الأخت).
2. إلباس الحق بالباطل عند الموازين و المكاييل.
3. الخلط بين مبادئ الإسلام كالحج و تلاوة و بناء المساجد مع عبادة الأصنام وعدم الصوم و الصلاة.
4. الجحد بيوم البعث.
5. السجود للملوك.
6. الصلاة بالتيمم و عدم التوضأ إلا نادرا.
7. الحج بأموال الحرام.
8. جلب المصلحة الدنيوية بالزكاة، و إعطاءها لمن لا يستحقها.
9. عدم الرضى بالوعاظ و التّصدي لمن يدعو له.
10. قتال من يأمر بالمعروف و ينهي عن المنكر.
11. الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر من أجل السمعة و الرياء.
12. حول جواز مدح النّبي بكلام أعجمي.
13. حول دخول بصحبة النّبي.
14. حول وعظ الرجال و النساء مع الفرق بينهما بستار.
15. القتال من أجل الاستشهاد و لو لأجل المال.
16. حول قبول هديّة الكفار.
17. في وجوب القتال على أمراء المسلمين.
18. حول هيئة السموات و الأرض بحجج من القرآن.
19. اقراء النساء سورة النور.
20. سؤال حول كتب بها أقاويل ليست بالموطأ و لا في الصحيحين.
21. حول تمثّل الشّيطان بالملائكة.
22. السكنى في بلد الكفار لوجود تجارة مربحة في بلادهم.
23. الزواج بغير صداق.
24. الخلوة بالنساء الأجنبيات.

25. عدم معرفة معنى التوحيد إلا بالاسم.
26. جلب المصلحة الدنيوية بالزكاة.
27. ترك بعض الفقهاء العمل بالكتاب و السنّة و الأخذ بالرسالة و المدوّنة.

أمّا ما يتعلّق بالمسائل الاجتماعية فقد أحصينا ما يقرب من ستة و ثلاثين سؤالا، نذكر منها:

1. احتراف السرقة
2. احتراف الغش في البيع.
3. احتراف النميمة و التجسّس.
4. احتراف الغناء و الطرب.
5. احتراف القمار و الميسر.
6. احتراف تحليل المطلقات بالثلاث.
7. احتراف الجنون للتسوّل و جمع المال.
8. احتراف الزواج من النساء الفتيات و العيش من رزقهن.
9. احتراف مصاحبة الأمراء لقضاء أغراض الناس.
10. معادات أعداء الناس بالحق أو بالباطل.
11. احتراف القصص و الحكايات المضحكة.
12. احتراف الوساطة بين الرجال و النّساء.
13. احتراف خديعة المسافرين لقلة درايتهم.
14. البخل و الجبن و عدم الرحمة و تطلع الرحم.
15. كثرة الظلم و الفساد مع الكرم و الشجاعة.
16. الخلوة بالنساء الأجنبيات و التعاطي للهو و اللطرب.
17. إعارة الأشخاص على بعضهم لقتلهم و أخذ أموالهم.
18. أخذ إبل البعض و السفر بها.
19. عمل الخير دون ترك التّكبّر و أكل مال الحرام.
20. مصاحبة الوزراء و الكبار و العيش من نعمهم و أموالهم الحرام.

21. منح من وكلهم الأمر للماء و الكلأ و والفواكه على الناس.
22. منع الطرق على الناس و تعذيب بهائهم.
23. احتراف معادات الاتقياء و الصالحين و العلماء.
24. احتراف الشعوذة.
25. أخذ القضاة للرشوة و الحكم بالظلم.
26. احتراف الخصام مع الناس.
27. مصاحبة الجهّال و إمامتهم.
28. التّزوج من أصحاب المال و الحسب و النسب و اجتناب النقير و إن كان صالحا.
29. ادعاء العلم و الولاية للحصول على مهنة.
30. احتراف الصيد.
31. احتراف مصاحبة الأمراء و الكبار و العيش من نعمهم و أموالهم الحرام.
32. احتراف السرقة.
33. احتراف مصاحبة الأمراء لقضاء أغراض الناس.
34. احتراف معادات أعداء الناس.
35. التعاطي للسحر و الشّعوذة.
36. ادّعاء الشرف للتّكريم.
37. الاحتفال بالصبيان متى أتمّوا القرآن للاسترزاق.

أما الأمور السياسية فقد أحصينا منها سبعة أسئلة هي كالتالي:

1. فرض الملوك ضرائب غير شرعية على الأسفار و الأسواق و الأبواب.
2. موالاتهم للكفار ضد المسلمين.
3. تعلّق الأمراء للملوك و إعطائهم الأموال لتحقيق أهدافهم.
4. تحالف الفقهاء مع الأمراء حتى و لو لم يكنوا على حق.
5. عدم إقامة الملوك للقصاص و قسمة المال على من لا يستحقّه.
6. استرقاق الملوك أحرار الناس.
7. مأخذة الكفار و نقل أخبار المسلمين لديهم.

للشيخ عثمان بن فودي

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على النبي الكريم

قصيدة شعرية (مخطوط) :

للشيخ عثمان بن فودي .

لغة المخطوط: اللغة العربية ، ، عدد الصفحات : 04 صفحة.

المكتبة الخاصة للبروفيسور الأمين أبو منقة مدير معهد اللغات الأفريقية ، جامعة الخرطوم ، السودان.

يستعمل بها أهل التصوف في مقصودهم
كثيرة لا تنضبط منهم من كان ذكره الله
ومنهم من كان ذكره لا إله إلا الله محمد رسول
الله ومنهم من كان ذكره سبحان الله والحمد
لله ولا إله إلا الله والله أكبر ومنهم من
من كان ذكره الصلاة على النبي وسوى ذلك من
أذكار في تقوية النفوس لأنها كالماء
البارد في إطفائها بعد الكسر وقال غير
واحد من العلماء إن الصلاة على النبي توصل
العبد إلى ربه وتقوم له مقام الشيخ المربي
إن فقده ببركة النبي في نيل الكرامة
الحقيقية والقرب من الله تعالى والوصول
إليه وأما الكرامة الحقيقية فقد قال
ابن عطاء الله السكندري في الحكم ربما
رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة
فالإشارة بالكرامة الحقيقية إنما هي

الصفحة 32 ، كتاب مخطوط :

عثمان بن فودي : كتاب أصول الولاية.

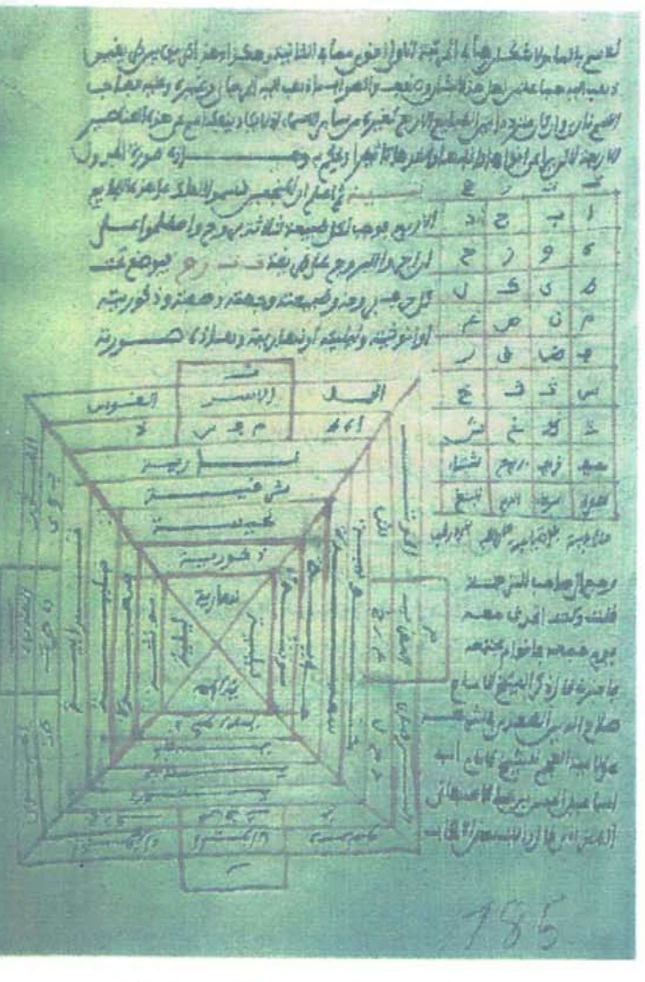
لغة الكتاب : اللغة العربية ، ومترجم إلى اللغة الأنجليزية صفحة بصفحة، . عدد الصفحات : 51 صفحة.

مكتبة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان،(قسم المخطوطات)

ملحق رقم 10

دلائل الخيرات للإمام الجزولي
مكتبة كعت





احمد بن الطيب العلمي : الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب،
معهد أحمد بابا



أحمد بن الطيب العلمي: الأنيس المطرب فيمن لقيته
من أدباء المغرب، معهد أحمد بابا

Guide de l'Exposition

دليل معرض المخطوطات

10



القاضي عياض : الشفاء، معهد أحمد بابا

كتاب الإشارة في أدب الإمارة
محمد بن الحسن الحضرمي،
معهد أحمد بابا



قال الشيخ الإمام أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي رحمه الله

الحمد لله على فضيلة العقول وصلى الله على سيدنا محمد أفضل نبي ورسول وعلى آله وسلم تسليما أما بعد

الصفحة رقم 11 من مخطوط :

محمد بللو بن عثمان بن فودي : كيفية أمور الرياسة وإدارة الحكومة الإسلامية

لغة الكتاب : اللغة العربية . عدد الصفحات : 16 صفحة.

مكتبة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان،(قسم المخطوطات)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

الحمد لله الذي نزل حكيما وبالحوادث [illegible] عليما وعن تعجيل العقوبات
حليما وبعباده صبورا رحيما أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له
[illegible] وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اختاره وخصه بتحية وأتوسل
به صلى الله عليه وسلم إلى ربنا الذي به لا يبقى في جماعتنا إلا ذنبا مغفورا
وعملا مبرورا وسعيا مشكورا وتجارة لن تبور ما شاء الله كان وما لم يشأ
لم يكن رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا
قولي ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وبعد فقد أجزت للأخ
الكريم السيد الطالب محمد بن محمد [illegible] أن يروي عني كتاب
الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم جميعا كما أجازنيه شيخنا
وعمدتنا الفقيه الفاضل الكامل [illegible] أبو بكر ابن المرحوم بكرم الله تعلى
عبد الكريم ابن الشيخ الفقيه القاضي [illegible] عبد الرحمن ابن الفقيه أحمد [illegible] نور الله
ضريحه وغفر ذنوبه وأسكنه في أعلى الفراديس جنته آمين قال أخبرني
به الشيخان الفقيهان الجليلان الإمامان الأمينان أبو عبد الله محمد الأمين
[illegible] المرحوم بكرم الله موسى بن الفقيه الأسلمي محمد [illegible] الوادانى رحمه الله تعلى
[illegible] وأبو عبد الله محمد الأمين ابن الفقيه أحمد بن محمد بن محمد [illegible]
ثم الشيخين الوادانى رضي الله عنهما وأرضاهما وبلغهما من النعيم غاية منالهما

مخطوط نموذج إجازة علمية (حفظ كتاب الشفا):

لغة الكتاب : اللغة العربية . عدد الصفحات : 01 صفحة.

مكتبة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان،(قسم المخطوطات)

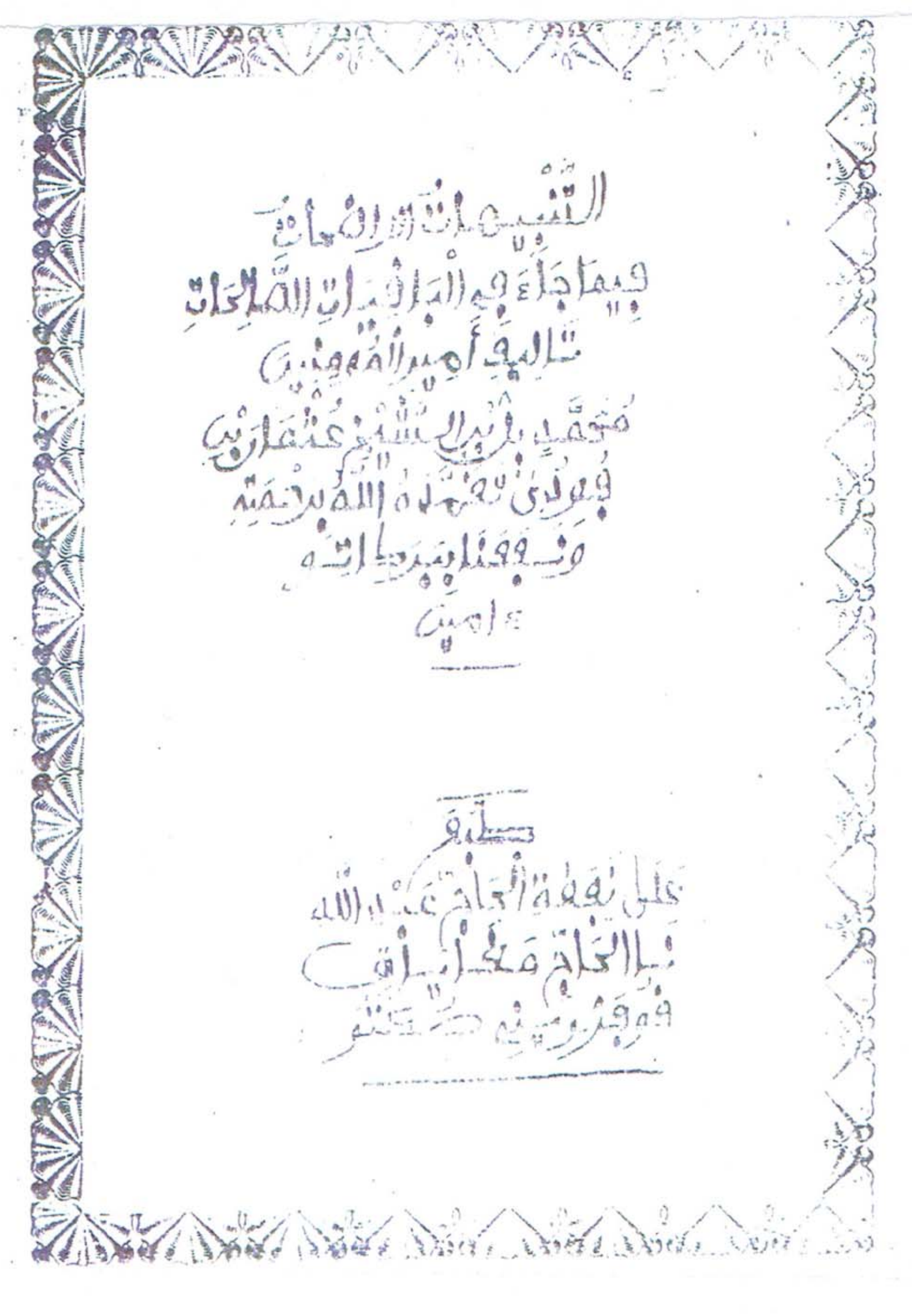
بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً "الحمد لله لم يزل كيماً [حكيماً] وبالحوادث قبل وقوعها عليماً ، وعن تعجيل العقوبات حليماً ، وبعباده رءوفاً رحيماً ، أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، ربا قيوما ، وأشهد أن محمد عبده ورسوله ، اختاره وفخمه تفخيماً ، واتوسل به صلى الله عليه وسلم ، إلى ربنا الكريم ، أن لا يفرق بين جماعتنا إلا بذنب مغفور ، وعمل مبرور ، وسعى مشكور ، وتجارة لن تبور ؛ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن " رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى " ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم".

وبعد فقد أجزت للأخ المكرم السيد الطالب " محمد بن محمد الدرعى المهراوى"، أن يروي عنى كتاب الشفا ، بتعريف حقوق المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، حسبما أجازنا شيخنا وعمنا ، الفقيه الفاضل الجل ، بركة الوقت " أبوبكر المرحوم بكرم الله تعالى ؛ [عبد الكريم بن الفقيه القاضى أبى زيد عبد الرحيم بن الفقيه أحمد معيا] ، نور الله ضريحه ، وغفر ذنوبه ، وأسكنه فى أعالى الفراديس جنة آمين ، قال أخبرنى به الشيخان الفقيهان الجليلان الإمامان الأمينان ، " أبو عبد الله محمد الأمين ابن المرحوم بكرم الله ، موسى بن الفقيه الإمام محمد سنتاعوا الوادانى " ، رحمة الله تعالى بمنه وكرمه ، وأبو عبد الله محمد الأمين ابن الفقيه أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن تاشفين الوادانى ؛ رضى الله عنهما ، وبلغهما من النعم غاية مناهما .

مخطوط نموذج إجازة علمية (حفظ كتاب الشفا):

لغة الكتاب : اللغة العربية . عدد الصفحات : 01 صفحة.

مكتبة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان،(قسم المخطوطات)



التنبيهات الواضحات
فيما جاء في الباقيات الصالحات
تأليف أمير المؤمنين
محمد بن الشيخ عثمان بن
فودي تغمده الله برحمته
ونفعنا ببركاته
آمين

الصفحة الأولى، الصفحة 25 ، من كتاب مخطوط :

محمد بن عثمان فودي : التنبيهات الواضحات في الباقيات الصالحات

لغة الكتاب : اللغة العربية . عدد الصفحات : 42 صفحة.

مكتبة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان،(قسم المخطوطات)

المجالس في أقدارهم بغاية جهدك وكل من ادعى حالا مع الله ثم ظهرت منه أحد
خمسة أشياء فهو كذاب أو مسلوب والعياذ بالله * إرسال الجوارح في معاصي
الله * والتصنع في طاعة الله * والطمع في خلق الله * والوقيعة في أهل الله *
وعدم احترام المسلمين على الوجه الذي أمر الله وقل ما يختم له بالإسلام *
وشروط الشيخ الذي يلقي إليه المريد بنفسه علم صحيح وذوق صحيح * وهمة
عالية * وحالة مرضية * وبصيرة نافذة * ومن فيه خمسة لا يصلح مشيخته
الجهل بالدين * وإسقاط حرمات المسلمين * ودخول ما لا يعني * واتباع الهوى
في كل شيء * وسوء الخلق من غير مبالاة * وآداب المريد مع الشيخ والإخوان خمسة
اتباع الأمر وإن ظهر خلافه * واجتناب النهي وإن كان فيه حتفه * وحفظ حرمته
غائبا أو حاضرا وحيا وميتا وقيام بحقوقه بحسب الإمكان بلا تقصير وعزل عقله
وعلمه ورياسته إلا ما يوافق ذلك من شيخه ويستعين على ذلك بالإنصاف
والنصيحة وهي معاملات الإخوان إن لم يكن شيخ مرشد وإن وجد ناقصا
من الشروط الخمسة اعتمد فيما كمل وعامل بالإخوان في الباقي انتهى وينبغي
لك أيها الطالب أن تطالعها في كل يوم مرتين أو مرة وإلا ففي كل جمعة حتى
تنطبع معانيها في النفس ويقع تصرفك على مقتضاها فإن فيها غنية عن
كثير من الكتب والوصايا فقد قيل إنما حرموا الوصول لتضييعهم الأصول ومن
تأملها عرف ذلك ثم لا تزال بعد ذلك تتعاهدها قصدا للتذكر بها وفقنا الله
وإياك لمرضاته إنه ولي ذلك والقادر عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة
والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم آمين *

25

عثمان بن فودي : نور الألباب: يتحدث فيه عن التقوى والورع .

لغة الكتاب : اللغة العربية ، ومترجم إلى اللغة الأنجليزيةصفحة بصفحة، . عدد الصفحات : 25 صفحة

مكتبة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان،(قسم المخطوطات)

ملحق رقم 19

الصفحة الأخيرة ، من قصيدة مخطوطة :

محمد بللو بن عثمان بن فودي : فتح الباب في ذكر بعض قصائد الشيخ عبدالقادر الجيلاني: قصائد شعرية.

لغة الكتاب : اللغة العربية ، ومترجم إلى اللغة الأنجليزيةصفحة بصفحة، . عدد الصفحات : 86 صفحة.

مكتبة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان،(قسم المخطوطات)

الصفحة الأخيرة ، من كتاب مخطوط :

عثمان بن فودي : تنبيه الأخوان: يتحدث فيه عن وجوب مواجهة الكفار

لغة الكتاب : اللغة العربية ، ومترجم إلى اللغة الأنجليزيةصفحة بصفحة، . عدد الصفحات : 28 صفحة.

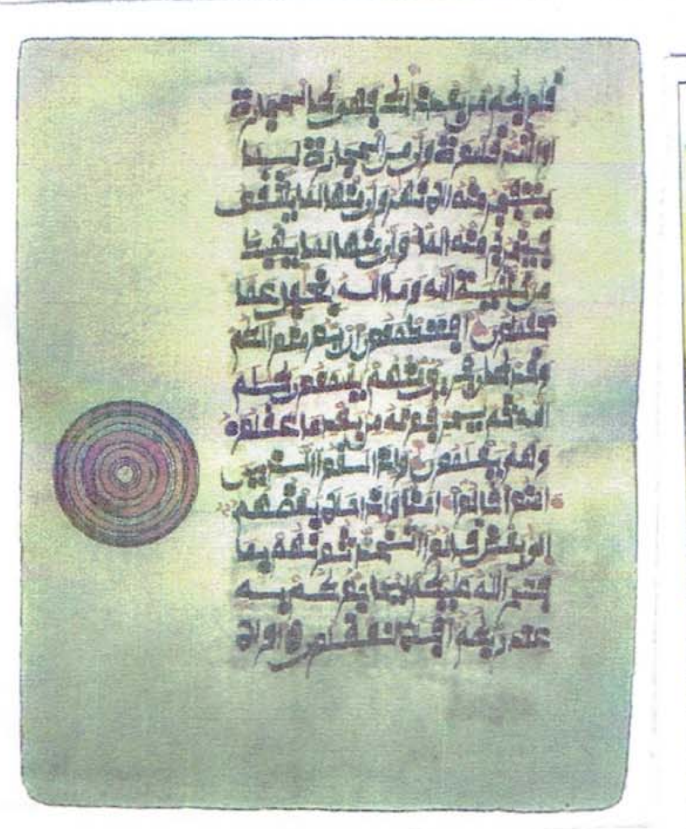
مكتبة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان،(قسم المخطوطات)





مصحف كريم
مكتبة كعت

Coran
Fondo Kati



مصحف كريم من بلاد الهوسا
معهد أحمد بابا
Coran du pays Hausa
Institut Ahmed Baba

صورة صفحة من القران من بلاد الهوسا ، المصدر معهد أحمد بابا ،تنبكتو ، مالي.

نسخة في مكتبة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان ، قسم المخطوطات.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم تسليما قال العبد الفقير إلى
المضطر لرحمة ربه عثمان بن محمد بن عثمان المعروف
بابن فودي تغمده الله برحمته آمين الحمد لله رب
العالمين والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين
وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد فهذا كتاب في الأ
مر بالمعروف والنهي عن المنكر فأقول وبالله التو
فيق اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب
كتابا وسنة وإجماعا أما الكتاب فقوله تعالى ولتكن
منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون
عن المنكر الآية وأما السنة فقوله عليه الصلاة و
السلام والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون
عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم
تدعونه فلا يستجاب لكم رواه الترمذي وحسنه وأما الإ
جماع فهو أن المسلمين في الصدر الأول وبعده كانوا
يتواصون بذلك ويوبخون تاركه نص على هذا غير واحد
من علماء السنة ولا يتوقف وجوبهما على ظهور الإمام
كما تزعم الروافض ولا يختص ذلك بالولاة قال الشيخ
السنوسي في شرح الوسطى المراد بالمعروف الواجب
والمنكر الحرام ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر بالمعنى السابق فيهما واجبان من غير توقف
على ظهور الإمام كما تزعم الروافض ثم قال بعد كلام
ولا يختص

الصفحة الأولى ، من رسالة مخطوطة :

عثمان بن فودي : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: يتحدث فيه عن الأدلة الشرعية في الأمر بالمعروف والنهي عن

لغة الكتاب : اللغة العربية ، ومترجم إلى اللغة الأنجليزيةصفحة بصفحة، . عدد الصفحات : 28 صفحة.

مكتبة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، السودان،(قسم المخطوطات)

ملحق رقم 23

تضمن رسالة الوزير الى الفضل
العالم والمدير فال
العبد الفقير المضطر
لرحمة ربه محمد
البخاري الوزير
ابن احمد
رحمه الله
وبه
امين

فتوى وجوب الهجرة من البلاد التي حكمها النصارى(مخطوط) :

قاضي قضاة ممالك الهوسا : محمد البخاري الوزير غبن أحمد

لغة االمخطوط: اللغة العربية ، ، عدد الصفحات : 10 صفحة.

المكتبة الخاصة للبروفيسور الأمين أبو منقة مدير معهد اللغات الأفريقية ، جامعة الخرطوم ، السودان.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على النبي الكريم
هذه رسالة الوزير الى اهل العلم والتدبر قال العبد الفقير المض
طر لرحمة ربه محمد البقاري الوزير ابن احمد رحمه الله
الحمد لله الملك الحكيم والقادر المنفرد بالايجاد والاعدام
والذي تعالى عن ان تضاف احكامه الى العلل جل حكم الازل ان يضاف
الى العلل والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد خير
الاولين والاخرين وعلى اله واصحابه وازواجه الطيبات اجمعين
اما بعد فهذه رسالة مني الى كل من وقف عليها من اهل العلم
والتدبر كتبتها اليهم ليعلموا اني ما فعلت هذا الامر الذي
فعلته مع النصارى اتباعا لهوى النفس لكن فعلته باشارة
علمائنا اليه وذلك لما نزلنا في مرتور اجتمع الناس عندي لاجل
المشورة وشاور بعضهم بعضا ولم يروا سبيلا الى الهجرة
عن هذه الارض لما في الطرق من قلة المياه وعدمها اصلا في بعض
الطرق وشدة الحر وكون النصارى نازلين في جميع الطرق فلما
سمعت ان لا سبيل الى الهجرة امرت كل واحد منهم ان يختار فيه
وياخذ طريقه وابوا على ذلك فلما رءى علماءنا ذلك اشاروا
الي الى ذلك الامر الذي فعلته مع النصارى وقرءوا علي كتاب شيخنا
وامامنا

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين
محمد خير الخلائق أجمعين وعلى آله وصحبه المصطفين وتا
بعيهم إلى يوم الدين ومن تابع التابعين على طريقة [illegible]
والعلماء العاملين [illegible] مختصر صغير الحجم
كثير النفع والعلم [illegible] سميته ارشاد الحيارى [illegible]
ابتلينا بالنصارى [illegible]
[illegible]
الشريعة [illegible]
[illegible] والطلبة المقصرين [illegible]
[illegible] الشرعية
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الشرعية
[illegible]

والسنة

الصفحة الأولى فتوى في إمكانية البقاء في الأرض التي يحكمها الكافر(مخطوط) :

القاضي عبدالله أبو بكر بن القاضي أحمد سعد .

لغة االمخطوط: اللغة العربية ، ، عدد الصفحات : 15 صفحة.

المكتبة الخاصة للبروفيسور الأمين أبو منقة مدير معهد اللغات الأفريقية ، جامعة الخرطوم ، السودان.

للشيخ عثمان بن فودي

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على النبي الكريم

[illegible]

قصيدة شعرية (مخطوط) :

للشيخ عثمان بن فودي .

لغة المخطوط: اللغة العربية ، ، عدد الصفحات : 04 صفحة.

المكتبة الخاصة للبروفيسور الأمين أبو منقة مدير معهد اللغات الأفريقية ، جامعة الخرطوم ، السودان.

الفهرس

الفهرس